HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

رواية

آتيلا
آخر العشّاق

سردار عبد الله

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.
صدرت عام 2019 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان
© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2019
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 11-0656، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks
لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.
صورة الغلاف: **© Jaroslaw Blaminsky / Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**
ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-280-6
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-281-3

قالوا عن فريد الدين العطّار:

«لقد طاف العطّار بمدن العشق السبع، بينما لا نزال نحن في منعطف الجادة الأولى...».

مولانا جلال الدين الرومي

«إنّه (أي العطّار) يُعدّ من كبار الصوفيّة ويُعدّ شمعة عصره ولا شبيه له في علمه، وكان يستلهم شعره من الغيب».

دولتشاه

«سُئل صوفيّ كبير عن الرومي والعطّار، فقال: إنّ الرومي بلغ قمّة الكمال كالنسر في طرفة عين، أمّا العطّار فبلغ القمّة نفسها، ولكن كالنملة بعد سير طويل ودأب لا يفتر».

محمد أمين الرازي

في (هفت إقليم)

«إنّني كالعطّار من روضة نيسابور، ولكنّني شوك في صحراء نيسابور وهو وردها».

كاتب نيسابوري

«إنّ العطّار كاشف أسرار الوجود، وإنّه كسنائيّ من فيض الإله

فاقرأ كلامه دائماً كما تقرأ القرآن، فإنّه يحيل أهل الشكوك إلى أهل الشهود».

بخط يد ملك الكلام مجدي كردستاني

على نسخة من ديوان العطّار

1

«فانظر ماذا يفعل العشق بنا؟!» [1]
فريد الدين العطّار

لن أتردّد هذه المرّة ولو للحظة، وسأتجرّعها كلّها دفعةً واحدة...
يا إلهي..
يا من تقف في تلك الأعالي ممسكاً، بقوّة، بزمام كلّ صغيرة وكبيرة، في هذا الكون الواسع المخيف! إنّني أقف أمامك الليلة، تفصل بيني وبينك هذه الكأس، التي تشكّل الحدّ الفاصل بين كلّ ما مضى، وكلّ ما هو آتٍ... بين يقين الإيمان، والكفر المطلق. سأهجر سجّادة الصلاة، وأيمّم وجهي شطر الحانة بدلاً من المسجد من جديد. أنا الذي التزمتُ تجاهك، ونفّذتُ كلّ ما عليّ من وعود وواجبات، ولم أطلب منك في حياتي كلّها، إلّا وصل فاطمة. لكنّك يا إلهي، ماذا فعلت بها... وبي؟! يا مجيب الدعوات، أين كنت تقف، بينما ظللت أدعوك في الليلة آلاف المرّات، وفي النهار ضعفها؟! فاطمة... آه يا فاطمة، كيف لي أن ألتقيك وأنا ناكث لوعدي، وغارق من جديد في وحل السُكر والإدمان؟! كلّا، لن أشرب هذه الكأس اللعينة، ولن أعود إلى الحانة مرّة أُخرى.
يا ربّ..
يا من لم تخذل أبداً، من توجّه إليك صادقاً مُخلصاً، إلّا عبدك المطيع آتيلا. إنّني أغرقُ في حيرة من أمرك! يا قدير، يا أيّها القادر على كلّ شيء، لو كان بإمكانك تلبية دعواتي المكلومة، فلِمَ لَمْ تلبِّها إذن؟! يا من يذوب في رحمتك كلّ العالمين، أين كانت بحور رحمتك، بينما كانت نيران الفراق تحرقني حتّى النخاع، وتحيلني إلى رمادٍ لا يهدأ لهيبه؟ إنّك تعلمُ أنّني لن أعيش سوى مرّة واحدة، وها هي هذه المرّة، تشارف على نهايتها، لدرجة أنّني أرى الموت يُلاعبني خلف الباب، إنّه أقرب إليّ من أنفاسي، ولن أهرب منه هذه المرّة. حتّى إنّني لن أُصارعه من أجل البقاء... بل سأحتضنه بكلّ ما أوتيت من قوّة. فأنا قد اخترتُ الليلة، ما بينك أنت، وما بين الموت. سأرمي بنفسي في أحضانه الدافئة، الرحيمة. لعلّهُ يمنحني ما عجزت عنه أنت، أو تعمّدت عدم منحي إيّاه!
آه... اللعنة! لو أنّهم لم ينتزعوا المسدّس من يدي، لكنتُ قتلتُ الآغا، ولطّختُ بدمه، قصره المبنيّ على الأرواح. بعد أن منعوني من قتله، وفصلوني عنه بالقوّة، تركتُ مسدّسي عند رفاقي، وانتزعت بندقيّتي بعصبيّة، وخرجت. لمْ تُجدِ محاولات ميران لتهدئتي، أو لإقناعي بإيصالي بسيّارة، أو بأن يرافقني أحد الرفاق. عندما خرجت، شعرتُ كأنّني أدخل هذه المدينة للمرّة الأولى، وبأنّني لا أعرفُ فيها أحداً، ولا أستدلُّ فيها على أيّ عنوان. كنتُ هائماً، أذرعُ الإسفلت القاسي بقوّة... استوقفني صوتُ ورقةٍ باليةٍ، كانتْ نسائمُ بدايات أكتوبر الخريفيّة تتقاذفها قبالتي، على طول الشارع الفارغ الموحش وعرضه، إلى أنْ وصلتْ إليّ. ثمّ ظلّت تتهادى دون هوادة، في عكس اتّجاه سيري. وما إن تجاوزتني حتّى جمّدتْ معها خطواتي المتثاقلة العصبيّة.
استدرتُ، وبقيت مُركّزاً نظري على الورقة وهي تبتعد. لكنّني امتلأتُ غضباً من جديد، حينما التقت عيناي بمصابيح دار الآغا الكبيرة والشبيهة بالقصر، وهي تستعرض ألوانها بصورة استفزازيّة، بحيث أفقدتني اتجاه الورقة الهائمة على الإسفلت، الذي زاده الليل سواداً. عدتُ أدراجي بضع خطوات مهرولاً، فإذا بها تدخل زقاقاً ضيّقاً قديماً، يقع مدخله على الشارع مباشرة.
يا إلهي، لِمنْ هذه اليد الجبانة التي تعبث معي، دون أن تجرؤ على الظهور علناً، ومواجهتي وجهاً

لوجه؟ يا إلهي، ما كلّ هذا العبث؟ هل تبعثُ تلك الورقة التي لاحت لي، في لحظة تيهٍ مطلقة، كعلامة تجرجرني بغضب، لكي أجد نفسي في مواجهة هذا الباب الخشبي الصغير؟! وهل ينتهي تيهي عند أعتاب الحِكَم المعطوبة والعاجزة للثورة؟! كلّ ما كان يشغلُ عقلي وتفكيري في تلك اللحظة، هو ذلك السؤال المؤرّق: لماذا لم أقتل الآغا؟

ها أنا أجلسُ وحيداً أمام هذه الكأس الساكنة، وأتوجّه إليك يا إلهي: هل منعوني هم فعلاً من قتله، أم أنا الذي لم أشأ قتله حقاً؟ هل جبنتُ، أم تُراني امتنعتُ عن ذلك، مدفوعاً بعشقي الجنوني إليك؟ أم أنّ إحساسي بلا جدوى قتله، هو الذي صوّر الأمر كلّه، وكأنّه لم يكن سوى عبث في عبث؟ وهل امتنعتُ عن قتل الآغا في قصره، لكي أصل إلى هذا البيت القديم الذي أقف أمامه، فأقتل صديقي الغارق في عزلته المحزنة؟! للمرّة الثانية بعد خروجي من دار الآغا، تلمّستُ فوّهة بندقيّتي الباردة. داهمني إحساسٌ غريبٌ، بأنّني إن لم أقتل أحدهما، فإنّ هذه البندقيّة ستموت على كتفي من شدّة البرد. سيطر عليّ إحساس رهيب بالاستغراب من الفكرة الطارئة التي جمّدتني في مكاني. يا إلهي! كيف يمكن لهذين الكائنين أن يكونا على طرفيْ حيّ واحد، بينما يعجز العالم عن أن يسعهما معاً؟ إذن! على أحدهما أن يموت.

هذه المرّة، لا مجال للتردّد أبداً و... سأتجرّعها حتّى آخر قطرة. إنّ هذه الكأس التي تتربّع الآن على الحدّ الفاصل بيني وبينك... بيني وبين الموت... إن تجرّعتُها، فإنّ دمها المُراق سيكون بمثابة شرارة الحرب النهائيّة الحاسمة بيني وبينك... ولن يبقى بعدها عذرٌ نخدع به أنفسنا، أو حتّى نخدع به بعضنا بعضاً. إنّني أرى الجسر العظيم، القويّ، الرابط بيننا. ذلك الجسر الخرافيّ في متانته، الذي لم تزعزعه بُحور الدماء المُراقة، وكلّ الأجساد والأرواح الهائمة المجهولة المصير لا بل حتّى كلّ ذلك الدخان المتصاعد من آلاف القرى، التي حوّلوها إلى خرائب.. ها هو جسر الإيمان يفقد متانته أمام صمت كأس واحدة، وتتداعى كلّ دعائمه الصلبة المتينة التي تُدمّرها هذه الكأس المهيبة الوحيدة. لذا، حتّى لو انطبقت السماء على الأرض، فإنّني سأشربها وليكن ما يكون!

فتحتْ الباب الخشبيّ الصغير القديم، بابتسامتها الحزينة الدائمة، التي أضفى عليها صرير الباب المستفزّ، المزيد من الحزن الناتج عن العزلة، مُرحِّبة تدعوني للدخول، فسألتها بعصبيّة:

– شاسوار موجود؟

– نعم موجودٌ يا ولدي، تفضّلْ. أتوسّلُ إليك أن تنصحه، فهذا العرق سيقتله. إنّني على وشك أن أخسره هو أيضاً...

– الوقت متأخّرٌ، وأنا في عجلةٍ من أمري، أرجو أن تبلّغيه أنّني أنتظره بالباب.

– تفضّل يا ولدي، البيت بيتك، ما بك؟ من الذي أغضبك إلى هذا الحدّ؟!

يا إلهي! ما كلّ هذه السخريّة؟! لقد انفجرتُ في المساء من الغضب الذي كاد يؤدّي بي إلى قتل الآغا في مضيفه... ثم تبعتُ ورقةً بالية كانت تتقاذفُها نسائم هذا الخريف... لكي أجد نفسي واقفاً على رأسه، بينما هو جالس على الأرض، قبالة كأس وقنينة عرق، أنزلتُ بندقيّتي وقلت له:

– سأقتلك الآن!

– اجلس وكفاك تهوّراً، يبدو أنّك سكرت في بيت الآغا.

– منعوني هناك من قتل الآغا، لكن لا يوجد من يمنعني هنا من قتلك أنت، يجب أن يموت أحدكما. كيف استطاعت هذه الدنيا أن تسعكما معاً؟

ردّ عليّ بنبرة ساخرة:

– أحسنت! أنت تستحق ميداليّة على هذه الشجاعة. لم تجرؤ على قتله هو، فأتيت لتقتلني أنا؟ أنت تستحقّ التهنئة حقّاً... ضع هذه البندقيّة اللعينة جانباً واجلس، ماذا دهاك الليلة؟
– ما هذا؟! أتُراك خِفتَ من البندقيّة؟! منذ متى أصبحتَ تخشى الموت؟ هل نسيت شعاراتك الحماسيّة التي كانت تدفعنا لكي نسترخص أرواحنا معك؟ هل نسيت كيف كُنّا نثمل وأنت تحدّثنا عن الثورة وانتصارها الحتميّ، مما كان يدفعنا للقتال إلى جانبك بجنون؟ ماذا دهاك؟ هل صار الموت يرعبك إلى هذا الحدّ؟!
ردّ بغضب المستسلم:
– أرجوك كفّ عن هذا الكلام، أو أفرغ كلّ طلقاتك في رأسي وأرِحني إلى الأبد... أتوسّل إليك! لم أعد قادراً على سماع هذا الكلام. لقد أغلقتُ الباب نهائيّاً على هذه الجراح، فلماذا تصرّ على فتحه من جديد؟ هيّا... اقتلني.
شرب كأسه كلّها مرّة واحدة، ومسح فمه بكمّ قميصه، وانفجر في موجة بكاءٍ غريبة. تراخت يداي الممسكتان بالبندقيّة. وضعتها على الأرض وجلست بجانبه، واحتضنته وأنا غير قادرٍ على تمالك نفسي من الذهول. ما الذي أصاب هذا الرجل الذي كان يرى بكاء الرجال أمراً معيباً، ودلالةً على ضعفهم، لكي ينفجر هكذا منتحباً أمامي؟ لن أنسى أبداً ثورته غضباً، حين رآنا نبكي، عندما أسلم سيروان الروح مستشهداً من أثر جراحه البالغة. خاطبنا حينها، وكان ذلك قبل سنوات خلت: «من كان منكم رجلاً، فعليه أن يقف صلباً في حضرة شهيد. ومن لا يستطع تمالك نفسه، فعليه أن يضع بندقيّته عند قدمَي الشهيد، ويذهب ليبكي مع النسوة».
جسّدت تلك الحادثة قمّة القسوة التي أظهرها هذا الرجل. وبذلك وضعت حدّاً صارماً لكلّ الجدل الذي كان يشغل الرفاق بشأن عبارته الشهيرة «كيف يمكن للرجل أن يسمح لنفسه بالبكاء؟»، وأنهت تماماً كلّ احتمالات المبالغة التي كان البعض يعوّل عليها. فمن استشهد تلك المرة لم يكن أيّ شخص، بل كان صديق طفولته وكلّ عمره، كان شقيقه سيروان. حين تذكّرتُ كلّ ذلك، لم أستطع أن أصدّق أنّ من ينتحب على صدري، هو نفس ذاك الرجل المتربّع على عرش القسوة. فهذا الكائن الذي أمامي الآن أشبه بمن لم يحترف في حياته سوى البكاء. حاولتُ أن أسأله عن سبب انفجاره المفاجئ في البكاء، فلم أحصل سوى على تنهّدات قويّة، مصحوبة بنحيب عالٍ. لم أعرف ما عليّ فعله، ولم أستطع أن أهدّئ من روعه. كان بكاؤه أشبه بنحيب طفل حُرم من ملابس العيد، أو مزّق أحدهم طائرته الورقيّة.
لا حاجة أبداً للتفكير والتحليل والتدبير، فكلّ الأمور باتت في غاية الوضوح. وسواء شربتها أم لا، فما الذي يمكن أن يحدث حقاً؟ لا شيء بالتأكيد... لكن، مهلاً. فالمسألة ليست بهذه البساطة، والمشكلة لا تكمن هنا، في الشرب من عدمه وحسب. فأنا قضيت جزءاً كبيراً من عمري مفرطاً في الشرب إلى حدّ الإدمان، لا بل تجاوز الأمر حتّى كلّ تلك الحدود، فتعاطيتُ أنواعاً من الحبوب المهدّئة، وصولاً إلى الحشيش وجميع أنواع المخدِّرات المتوفّرة آنذاك. ثمّ! فجأة... وبصورة قطعيّة، تركتُ كلّ ذلك، وحملتُ سجّادة الصلاة على كتفي، واتّجهتُ إلى الله، والتزمتُ طريق العبادة الصادقة الخالصة، وما زلتُ مواظباً عليها حتّى هذه اللحظة الفاصلة.
إذن، كيف لا يفرق شرب كأس العرق هذه، عن عدم شربها؟! ولو كان الأمر كذلك حقّاً، فلماذا أرهق نفسي إذن، وأصرّ على تجرّعها أصلاً؟! المصيبة هنا، هي إن كان الأمر كذلك فعلاً، فإنّ شربها، كعدم شربها، يفتقر إلى كلّ معنى. لكن، مهلاً... لحظة... عن أيّ معنىً أتحدّث أنا؟ وهل

اتّخذت الليلة قراري بالعودة إلى الخمر وتجرّع هذه الكأس، بدافع البحث عن معنىً كنت ضالّاً خلفه، أم أنّني أُريد الهرب من المعاني كلّها؟ لا أدري... حقيقةً لا أعرف أيّ شيء سوى أنّ شربها سيضعني على طريق الكفر المطلق. حتّى إنّني لا أملك ولو جواباً واحداً، عن كلّ تلك الأسئلة المُميتة. يبدو لي البحث عن هذه الأجوبة أكثر عبثاً من مهمّة البحث عن فاطمة ذاتها. ومع ذلك فإنّني بدلاً من الحصول على جواب، أتمادى في التساؤل لأقول، كيف يمكن حقّاً أن ننتزع الأجوبة الصحيحة لأسئلتنا المرهقة المهلكة، ما لم ننغمس في التجارب إلى حدّ الغرق؟

يا ربّ السماوات..

ها أنا، بعد عبوري كلّ أهوال الأودية الخمسة القاسية، وبعدما تهتُ ووصلتُ إلى حدّ الإنهاك، لا أجد ما ينجدني من ضياعي وحيرتي، سوى أن أعود إلى «منطق الطير». وكأنّني أعود إلى روحي من جديد، ها هو يطالعني بأوراقه المهترئة، ككتاب مكتَشَف من بين آثار قديمة. ها هو الكتاب الذي يحمل عبق روح فاطمة ورائحة الخبز المتدفّق من بين يديها المباركتين، لا يزال مُحتفظاً برائحة صدر الشيخ كاكه حمه. هذا الكتاب الذي بقيتُ مُحتفظاً به، بالرغم من كلّ الحرائق والدمار والحروب، أمدّ يدي وأتلو منه بصوتٍ عال: طائر يسأل الهدهد: يا عالماً بالطريق، إنّ العين لتسود في هذا الوادي، والطريق كأنّه مليء بالأهوال، فما طول هذا الطريق، أيّها الرفيق؟

فيجيبه الهدهد: إنّ لنا في الطريق سبعة أودية، فإن عبرت الأودية السبعة كانت الأعتاب العليّة، ولم يعد من سلوك الطريق أحدٌ في الدنيا حتّى الآن، لذا فلا أحد يعرف طول هذا الطريق، فإن كانوا يفنون فيه كلّيّة، فكيف يخبرونك بحقيقته، أيّها الجاهل؟

أوّل الأودية هو وادي الطلب،

ثمّ يأتي بعده مباشرة وادي العشق،

ثمّ الوادي الثالث وهو وادي المعرفة،

ويأتي بعده الوادي الرابع وهو وادي الاستغناء عن الصفة،

وبعده الوادي الخامس وهو وادي التوحيد الطاهر،

ثمّ الوادي السادس وهو وادي الحيرة الصعب،

أمّا الوادي السابع فهو وادي الفقر والفناء،

وبعد ذلك لن يكون لك سلوك بالطريق، فإن تدرك نهايته،

يتلاشَ مسيرك، وإن تكن قطرة ماء،

فإنّها ستصبح بحراً خضمّاً...

يا خالق السماوات والأرض...

ها أنا ذا، بعد أن قطعت كلّ الأهوال، بينما أغرق في بحر التّيه، عالقاً في وادي الحيرة الصعب، لم يبقَ لي سوى أن أقف أمامك متضرّعاً: يا أيّها الجبّار، المتكبّر، المهيمن، لن أطلب عفوك هذه المرّة. لا ترحمني، ولا تغفر لي ذنوبي، فأنت من أوصلني إلى هذا القنوط القاتل.

كلّا! لن أطلب هذه المرّة عفوك، أو رحمتك، أو حتّى مغفرتك.

فأنت لم تكن غفوراً لذنوبي ولا عفوت عنها.

ولم تكن رحيماً معي... بل كنت حقّاً الجبّار القاسي المهيمن المتكبّر.

حتّى إنّك لم تفِ بوعودك الكريمة، بينما أنا لم أبقِ ولو على وعد واحد قطعته على نفسي أمامك بكلّ صدق وخشوع، إلّا نفّذته.

يبدو أنّ كلّ هذا الكلام ليس سوى عبث، لا طائل من ورائه. لذلك، فالأجدى أن أقطع كلّ هذا التردّد، وأتجرّعها إلى نهايتها برشفة واحدة... نعم، سأشربها وليحدث ما يحدث... هذا قراري الذي لا رجعة فيه، سأتجرّعها كلّها، دفعة واحدة.

---

[1] جميع اقتباسات العطار، الأقوال والحكايات، مأخوذة من كتابه «منطق الطير»، ترجمة الأستاذ بديع محمد جمعة، التي تضمّ كذلك دراسة قيّمة عن العطار وفكره وكتابه.

2

«إن فنيت أدركت العشق»
فريد الدين العطّار

بينما أقف خاشعاً لدفنه، تغمرني ذكرى ليلة أوّل من أمس. تلك الليلة المرعبة الخاوية، التي حسمت كلّ شيء. جاءني وعيناه تقدحان شرراً، ووجّه إليّ فوّهة بندقيّته. ولا أعلم حقّاً، كيف تراجع عن الضغط على الزناد، ولم يقتلني. وبدلاً من أن يقتلني هو، ها أنا أقف خاشعاً، مليئاً بالحنق والغضب، لأدفنه بيأس خانق.

جاءني آتيلا منهكاً. كان مرتبكاً، مذعوراً، وعصبيّاً للغاية. غريبٌ أمر هذا الرجل. فبعد أن ظلّ لسنوات عديدة متجسّداً في صورة متصوّف زاهد، آتٍ من عصر الحلّاج وأنا الحقّ، وبعد أن استطاع بقرار مفاجئ وبقسوة رهيبة، التوقّف عن الإدمان، وتعاطي كلّ أنواع الكحول والمخدِّرات، جاءني ليلة أوّل من أمس يطلب خمراً... كلّا! فهو لم يأتِ طلباً للخمر، بل بدا كأنّه يريد قتلي. كان مشهداً في غاية الغرابة، لم أره قطّ على تلك الهيئة الفظيعة. عندما اقتحم عليّ عزلتي، وكان الارتباك والغضب جليّين في صورته، فجأة ودون أيّ مقدّمات، وجّه بندقيّته بكلّ بساطة نحوي. ثمّ بعد أن وضعها على الأرض، احتضنني في غمرة انفجاري الباكي، وبعدها طلب منّي خمراً. لم أعرف لمَ أراد قتلي، ولم أعرف فعلاً، كيف ولماذا تراجع في ما بعد ولم يقتلني.

آه... نعم، لقد تذكّرت. كنّا مدعوَّين مساء أوّل من أمس، مع بقيّة الرفاق، على العشاء في بيت الآغا. ترجّيته وضغطتُ عليه بقوّة كي لا يذهب معهم، لكنّه أبى ورافقهم. ويبدو أنّه لاقى هناك ما أوصله إلى تلك الحالة. كان يتحدّث بسرعة وغضب وارتباك. كان كلامه غير مفهوم، وأقرب إلى الهذيان. تحدّث عنّي، وعن الآغا، وعن خليطٍ غريب من مسائل تعقّدت بصورةٍ لم أستطع أن أميّز منها شيئاً. كنت أعلم علم اليقين بأنّ أجواء بيت الآغا ستجرحه، لكنّه بدلاً من أن يسمع نصيحتي، أصرّ عليّ كي ألبّي معهم دعوة الآغا على العشاء.

بعد أن أنزل بندقيّته جلس بقربي واحتضنني بقوّة، لحين انتهاء نوبة البكاء الحارقة التي انتابتني وقتها. أصرّ على أن أصبّ له كأساً، لكنّني رفضت. وبقيت أتوسّل إليه كي لا يعود لشرب الخمر مرّة أخرى، لكنّه ازداد عناداً وحلّفني أن أصبّ له الكأس. ولأنّني لم أستطع التغاضي عمّا حلّفني به، اضطررت إلى أن أرضخ لعناده، وأعددت له كأساً، وقدّمتها إليه متوسّلاً: «يا دكتور، أرجوك... أنا رضختُ لرغبتك وها هي الكأس، لكنّني أتوسّل إليك، لا تعُد لاحتساء الخمر من جديد. يبدو أنّك لا تعلم إلى أيّ درجة من النقاء قد ارتقيت في السنوات الأخيرة. أرجوك... أتوسّل إليك يا عطّار، ألّا تلطّخ نفسك في هذا الوحل من جديد».

اتّسعت عيناه على آخرها حين سمعني أناديه بالعطّار. أخذ الكأس بيده وتأمّل فيها طويلاً. أحسستُ بنيران الحرب المستعرة في داخله. من خلال نظرته المرتبكة الشرهة، لمحتُ الدخان المتصاعد بين القوى التي تدفعه لكي يعاود معاقرة الخمر، وبين العوائق الثابتة التي تمنعه من ذلك. فجأة توجّه نحوي، نظر في عينيّ طويلاً... رفع الكأس وقرّبها إلى شفتيه المرتجفتين، ثمّ نزلت دمعتان مسرعتان بصمت مخيف على خدّيه واختفتا في لحيته الكثيفة. شهق بعمق وسألني باكياً: «أتعتقد أنّ فاطمة لا تزال حيّة؟».

سؤاله المفاجئ، والطريقة الدرامية العجيبة التي طرحه بها، أصاباني بالذهول. أحسستُ بحالةٍ من العجز منعتني من الإجابة التي لم أكن أملكها أصلاً. نظر مجدّداً في الكأس، أحسستُ به يستنشقها بعمق. مسح عينيه الباكيتين بكُمّ قميصه، ثمّ عاد ليركّز مرّة أخرى وبعمق أكثر هذه المرّة في كأسه. كانت نظرته تلك غريبةً ومتوحّشةً لدرجة أحسست معها بأنّه عازم على شرب كلّ بحار خمر العالم، برشفةٍ واحدة.

عجيبٌ أمر هذا الرجل، فلو اصطدمتُ به في رواية، لجزمت بأن الكاتب يبالغ كثيراً في رسمه بهذا الكَمّ الكبير من الخرافة والغرابة. فمن سكّير لا أبالي، تحوّل على يد قرويّة أمّية إلى زاهدٍ لا تفارق سجّادة الصلاة كتفه. وها هو يأتي بعد سنوات عدّة، لم يقرب فيها الخمور أو المخدِّرات بتاتاً، ليرتدّ مرّة أخرى على إيمانه القويّ، ويلتجئ إلى الخمر مُجدّداً. حين سألني عن مصير فاطمة، أحسستُ من نبرة صوته بأنّه على وشك اليأس الأقرب إلى الانهيار التامّ.

يا لها من ليلة عجيبة، لبّى فيها دعوة الآغا على العشاء، وعاد منها غاضباً، وألحّ على أن يشرب معي، فتمكّنتُ من منعه بشقّ الأنفس. بكى كثيراً... انتزعتُ الكأس المليئة من يده برفق وقلت له:

– أين إيمانك القويّ بالله واليوم الآخر، يا عطّار؟ وأين يقينك بلقاء فاطمة، أنسيت أنّها لا تزال تنتظرك؟

قاطعني غاضباً:

– حتّى أنت؟ أنت الذي كنت مُنتهى ثقتي، تحاول خداعي؟ إنّك تعلم جيّداً بأنّ أحداً من عشرات الآلاف الذين سيقت معهم فاطمة، لم يعد حيّاً، فلِمَ لا تجرؤ على مواجهتي بتلك الحقيقة المُرّة؟! لماذا تخدعني؟

– أرجوك، لا تقسُ على نفسك هكذا، أنا لا أخدعك أبداً. كلّ ما في الأمر، هو أنّني لستُ متيقّناً من موتهم.

– كما أنّك لست متيقّناً من احتمال عدم موتها أيضاً، أليس كذلك؟

وانفجر في البكاء من جديد. ثمّ استدرك وهو يمسح دموعه بعصبيّة: شاسوار، لقد امتلأتُ هذا المساء بإحساسٍ يخبرني بأنّها لم تعد حيّة.

– هل سمعت شيئاً جديداً؟ هل عاد أحدهم بخبرٍ يؤكّد إحساسك هذا؟

لاذ بصمتٍ طويل، ولم يُجب عن سؤالي. ألححتُ عليه، لعلّي أفهم ما الذي سمعه في بيت الآغا، بحيث أوصله إلى تلك الدرجة من اليقين اليائس. وبعد المزيد من الإلحاح، رضخ وأخبرني عمّا حدث هناك. بعد أن كان الآغا، كما أخبرني آتيلا، قد بدأ يتشدّق بمحاولاته لمساعدة الناس الذين سيقوا إلى المجهول، مُبرّراً خيانته لأبناء جلدته وتعاونه مع الجيش في إبادتهم، شارحاً أنّه، هو وأمثاله، قد حموا قبل ذلك أيضاً الآلاف من الشباب الذين نجوا من الموت في جبهات القتال، على امتداد سنوات الحرب الطويلة. كما أنّه أخذ يقول لآتيلا «لماذا لا تتزوّج يا دكتور؟ فانتظارك عبث لا طائل من ورائه. فحتّى إن كانت تلك الفتاة حيّة، فربّما تكون تزوّجت». عندها انفجر آتيلا كما أخبرني هو... ثمّ استدرك وأخبرني كيف سرد على الآغا الحكاية التالية عمّا رواه الهدهد: «خرج الشيخ أبا بكر النيسابوري مع أصحابه من الخانقاه إلى الطريق وكان الشيخ يمتطي حماراً ومن خلفه الأصحاب، وفجأة ضرط الحمار، فأصيب الشيخ من هذه الضرطة بحالة هياج شديد وصاح بأعلى صوت كما مزّق الأردية. أمّا جميع المريدين ومن رأوه على هذه الحال، فلم يتقبّل أحدهم هذا العمل، ثمّ وجّه أحدهم إليه هذا السؤال: أيّها الشيخ لمَ فعلت في النهاية هذا؟

قال: كثيراً ما تحرّزت وتمنّعت، ثمّ سلكت الطريق بمفردي بعيداً عن الأصحاب، وقبل أن أكون مريداً، وبعد ذلك، وكنت أقول في نفسي حقّاً إنّني لست بأقلّ من بايزيد، إنّني اليوم أخرج إلى الطريق متبوعاً بالمريدين، وقد بدوت في أبهى زينة، أمّا في الغد فسأكون بلا ريب متمتّعاً بالسعادة والعزّ، إذ سأمضي في صحراء الحشر مرفوع الرأس. والآن عندما فكّرت هذا التفكير، اتّفق أن ضرط الحمار، ويعني أنّ كلّ من يتشدّق بهذه الطريقة، سيجيبه الحمار هكذا على الهراء، واضطرمت النار في روحي حيث كان وقت حالي، واستغرقت في الحال.

ما دمت في عُجبك وغرورك، فستظلّ جدّ بعيد عن الحقيقة، فتخلّص من عجبك وأحرِق غرورك، وإن كان حضورك وليد نفسك، فأحرِق حضورك، يا من تتلوّن بلون مغاير في كلّ لحظة، إنّ في داخل كلّ شعرة منك فرعوناً آخر، وما بقيت منك ذرّة واحدة، فألوان النفاق العديدة فيك باقية، وإن كان لك أن تجد الأمن من الأنانيّة، فلك أن تعادي العالمين، وإن تفنِ نفسك ذات يوم، فستصبح ذا بريقٍ وضياء مهما أظلمت الليالي، فلا تقلْ (أنا) يا من وقعت الأنانيّة في مئات البلايا حتّى لا تصبح بإبليس مبتلىً».

انفجر الآغا وصاح: ماذا تقصد يا آتيلا؟ هل تردّون على كلّ خدماتي، بتشبيهي بحال مَن ذكرت، وضرط الحمار، ومبتلىً بإبليس؟

– بالطبع كلّا يا آغا، حاشا لله! فمن تكون أنت بجانب الشيخ النيسابوري؟ أنت لم تقم سوى بخيانة أبناء جلدتك، وأسهمت حتّى في تسليم البعض من أقاربك إلى الجيش. ولا يعلم أحد إلى الآن، سوى الله تعالى، شيئاً عن مصيرهم المجهول. أعتذر عن سرد هذه الحكاية التي لا تليق أنت بها أصلاً.

وعندما أراد أن يردّ، قلت له بعصبيّة: اصمت أيّها النجس. أقسم بالله، وبذكرى فاطمة، وكلّ الضحايا الذين نستجدي عنهم خبراً واحداً، إذا تفوّهت بكلمة واحدة، فسأفرغ هذا المسدّس في رأسك.

كان الجوّ قد أصبح في غاية التوتّر، وحاول الرفاق الذين انتزعوا المسدّس منّي، تهدئتي دون جدوى. فتركت لديهم المسدّس، وحملت بندقيّتي وخرجت. ليتني سمعت كلامك يا شاسوار، ولم أذهب معهم.

وحين ألححت عليه مكرّراً سؤالي: هل لمحت في كلام الآغا أيّ معلومة عن احتمال موت فاطمة؟ أجابني بلهجة ملؤها الانكسار: كلّا، لكنّني تيقّنتُ من موتها. إنّ الربّ الذي أفنيتُ عمري في عبادته، لم يحمِ لي فاطمة، فلمَ لا أعود لشرب الخمر من جديد؟! وإن لم أسكر، فكيف سأستطيع تحمّل الحياة من دون فاطمة بعد الآن؟ أخبرني بالله عليك، ماذا أفعل؟

لم يعد لديّ أدنى شك في أنّه قد شارف على الانهيار النهائيّ. كان يتنفّس بصعوبة شديدة، حاولت منعه من الذهاب، وتوسّلت أن يبقى لينام عندنا، لكنّه أصبح كما كان يشبّه نفسه دائماً، كالسمكة التي تسلم الروح من أثر السمّ الذي رماه صيّادون في الماء. نهض بتثاقل وحمل بندقيّته، ثمّ أمسك بقنّينة عرق غير مفتوحة، وغادر حتّى من دون أن يتفوّه بكلمة وداعٍ واحدة...

3

«لا أعلم إن كان ما رأيته في عالم الوهم
أو في عالم اليقظة، لا حال أعجب من هذا في الدنيا»
فريد الدين العطّار

كلّا، لن أحتسي هذه الكأس أبداً، فالوعد الذي قطعته على نفسي أمام فاطمة، وأمام الله، لن يبقى منه شيء، إن احتسيت هذه الكأس التي ستفتح عليّ أبواب جحيم الإدمان من جديد. مع أنّني أعلم جيّداً، بأنّ العائق الذي ما زال يمنعني بقوّة، من احتسائها، ليس هو الخوف من العودة للإدمان أبداً. فعلى الرغم من كلام الآغا السخيف مثله تماماً، ما زلتُ أُمنّي نفسي بأنّ فاطمة لا تزال على قيد الحياة، وبأنّها ما زالت تنتظرني بنفس الحبّ، وبشوقٍ لا تكفيه كلّ أحضان البشر. فكيف يُمكن أن ألقاها وأنا ناكث لعهدي، وقد تحوّلتُ من جديد، إلى نفس الكائن السكّير، الذي تاب إلى الأبد، على يديها المباركتين.

إلهي..

يا غفور... يا رحيم، لا تزال في روحي بقيّة من طمع في رحمتك ومغفرتك.

يا كريم، ما زال بي أمل، بأن تفي بوعودك الكريمة، كما وفيتُ بها أنا، وأن تجمعني بفاطمة مرّة أخرى.

فبعد أن فعلتُ كلّ ما خصّني، ها أنا أسألك، أين ما خصّكَ أنت؟ وكما يروي الهدهد: «قيل، عندما تقدّم محمود شيخ الملوك، من غزنين قاصداً محاربة الهنود، رأى جيشاً عظيماً للهنود، فامتلأ قلبه بالغمّ من هذا الحشد، ونذر السلطان العادل في ذلك اليوم نذراً، حيث قال: إن أظفر بهذا الجيش، فكلّ غنيمة أغتنمها في هذا المكان، سأوزّعها على فقراء الطريق.

في النهاية أدرك السلطان النصر، وأحاط بغنائم تفوق الحصر، فكلّ جزء واحد من الغنيمة، فاق كلّ ما يجول في خاطر أيّ حكيم مئة مرّة، وما إن غنموا غنائم تفوق كلّ الحدود، ولحقت الهزيمة بأولئك السود، حتّى قال السلطان لأحد معاونيه في الحال: احمل هذه الغنائم للفقراء والمساكين، حيث نذرت ذلك للحقّ منذ البداية، وذلك لأكون صادقاً في عهدي وفيّاً به.

قال الجميع: كيف يمكن إعطاء هذا الذهب الوفير وذلك المال الكثير لحفنة من الصعاليك؟ إما أن تعطيها للجنود حتّى يكفّوا عن الغضب، وإما أن توضَع في الخزانة.

ظلّ السلطان يفكر مليّاً في ذلك وتملّكته الحيرة بين هذا وذاك، وكان أبو الحسين رجلاً حكيماً، كما كان وِلهاً مجذوباً. وكان يمرّ بين الجند فما إن رآه السلطان من بعيدٍ حتّى قال: إنّني أطلب استدعاء هذا المجذوب لأسأله، وسأفعل ما يفتي به، فهو متحرّر من السلطان والجند، وما يقوله سيكون بعيداً عن الأغراض، وهكذا استدعى السلطان الرجل المجذوب، وطرح القصّة عليه أمام الجميع.

قال المجذوب: أيّها السلطان، فقد وصل أمرك إلى هذه الديار بدانقَين، فإن ترغب في ألّا تكون على صلةٍ به، فلا تكفر بهذين الدانقين أيّها العزيز، وإن ترغب في أن تكون لك صلة به مرّة أخرى، فلا تقلّل من أمر الدانقين بعد ذلك، وليتملّكك الخجل، وإن كان الحقّ قد نصرك، وجعل أمرك موفّقاً، فقد فعل ما خصّه، فأين ما يخصّك أنت؟».

يا ربّ! يا حقّ، أنا أفكر بالدانقين اللذين أوصلاني إليك. وكلّ ما يشغلني هو وصلك أنت، ولكنّني أعود وأتساءل مجدّداً، طامعاً في محبّتك ورحمتك: لقد فعلتُ أنا ما خصّني، فأين ما خصّك أنت؟

ومتى تجمعني بها مرّة أخرى؟
يا توّاب، إنّني تبتُ إليك وتركت كلّ المعاصي، وتوجّهت إليك صادقاً مخلصاً، كي تعفو عنّي وتغفر لي كلّ ذنوبي. يا مجيب، أنا لم أسهُ ولو مرّة واحدة عن صلاة، أو صوم، أو التسبيح بأسمائك الحُسنى. توجّهتُ إليك بدعواتي الصادقة المكلومة، بأن تُلين القلوب وتجمعني بفاطمة. إلّا أنّك، بدلاً من أن تستجيب يا إلهي، وأستغفرك إذ أقول هذا الكلام، فأنت العليم بداخلي وبإيماني العميق بك، لكنّني أستغفرك إذ أتجرّأ وأقول إنّك بدل الاستجابة الكريمة لدعواتي، عاقبتنا بإنزال الأنفال على الناس والزرع والحياة برمّتها. ومع ذلك، فأنا لن أتجرّع هذه الكأس، وسأبقى ممنّياً النفس بإيفاء وعودك الكريمة، وأن تحقّق من جديد معجزة أخرى وتجمعني بفاطمة. لكن مهلاً! وماذا عن كلام الآغا؟
كلام الآغا لم يُبقِ لي بارقة أمل، كان جازماً وقاطعاً. والآغا لديه علم بمصير الآلاف الذين أخذتهم الأنفال إلى المجهول. ليتني سمعتُ كلام شاسوار، ولم أذهب معهم إلى تلك الوليمة اللعينة. مساءً، عندما كُنّا نتهيّأ للذهاب إلى بيت الآغا، حملنا أسلحتنا، وصدرت الأوامر بتحضير السيّارات لننطلق. لكنّ شاسوار ظلّ مُصرّاً على عدم الحضور، لا بل إنّه عاب علينا تلبية دعوة الآغا على العشاء. وعندما ألحّ عليه ميران، نظر إليه بصمت مربك... فسأله ميران بارتباكٍ واضح: متى تتخلّى عن رومانسيّتك الثوريّة هذه؟ متى تدرك أنّ الأمور قد تغيّرت؟ لا يمكن أن نبقى إلى الأبد أسرى لتخلّف شعاراتنا. هيّا قُمْ لنذهب، أنا لا أعرف لماذا تحقد على الآغا، فيما أشهد أنّ الرجل يحبّك ويحترمك كثيراً.
نظر إليه شاسوار هذه المرّة بقسوة، وردّ عليه حانقاً: أحقّاً يُحبّني؟ ومنذ متى كان يهمّنا أن يحبّنا أمثال هؤلاء؟ صحيح... ومِن الحبّ ما قتل، ألَم يكونوا يجيّشون الآلاف لقتلنا؟
– لقد انتهى ذلك العصر، وهم الآن قد أصبحوا جزءاً منّا، ألَم تكن من المدافعين الشرسين عن فكرة العفو عنهم واحتوائهم؟ ما الذي حدث إذن؟!
– كنتُ وما زلتُ مؤمناً، بقوّةٍ، بفكرة العفو عنهم. وقد يكون هذا واحداً من أهم إجراءات الثورة وأكثرها عقلانية. لكنّ ذلك لا يعني أن نُلبّي دعواتهم. كيف لكم أن تأكلوا لحم ضحايانا؟ هل نسيتم أنّ طعامه ملوّثٌ بدم عشرات الآلاف من ضحايانا؟ أم أنّ سحر التغيير طال القذارة والجريمة أيضاً، وحوّلهما إلى أعمال خيريّة؟
– يا أخي، دعْ عنك كلّ هذا الكلام الذي لا طائل من ورائه، ألم نفتح معهم صفحةً جديدة؟
ردّ هازئاً: صفحة جديدة؟! وماذا عن آلاف الضحايا؟ قلْ لي، كيف ستواجه أقاربهم؟ كيف ستواجه أُمّهات الأبطال الذين استشهدوا وهم يقاتلون بجانبك وتحت إمرتك؟ ماذا ستقول لهنّ، وقد أصبحتَ في منزلة الابن البكر لهنّ؟
ثمّ توجّه إليّ حانقاً: إلى أين تذهب أنت يا دكتور؟ ألم يكن هؤلاء جزءاً من الكارثة التي أخذت كلّ شيء؟ أليس الآغا وأمثاله مسؤولين عن الكارثة التي حلّت بنا، وأخذت حتّى فاطمة؟
حقيقةً، لم أستطع الردّ عليه، كلّ ما استطعت فعله، هو أنّني حملت سلاحي واستدرت لكي ننطلق إلى بيت الآغا. لكن شاسوار صاح بقدر كبير من العصبيّة الممزوجة بالسخرية: اذهب أنت أيضاً يا دكتور، فقد يعوّضك الآغا بتزويجك ابنته، فقد بات الكلّ يرضى بتعويض... أيّ تعويض...
في تلك اللحظة امتلأتُ غضباً، وأنزلت سلاحي من كتفي عازماً على إطلاق النار عليه، لكن ميران منعني قائلاً: دعوه وشأنه ولنذهب، لقد تأخّرنا عن موعدنا مع الآغا.

عجيب أمر هذا الرجل الممتلئ حبّاً وحقداً في آنٍ واحد. يجمع في خليط متناقض وغريب، رقّة الفراشات وقسوة الصخر. ليتني سمعتُ كلامه ولم أذهب إلى وليمة الآغا اللعينة، لكن مهلاً... ماذا لو كان كلام الآغا صحيحاً؟ يا إلهي، إن كان صحيحاً، فإنّ كلّ شيء يكون قد انتهى، وتكون النهاية بعينها، إنّه الجحيم الذي سيكون جحيمك مقارنةً به أشبه بالجنّة.
يا ربّ..
إنّك بهذه النهاية القاسية، إن كنت قد حكمتني بها، تصبح أنت المنتقم الجبّار، لا الغفور الرحيم... لكن قُل لي، ممّن انتقمت حقّاً؟ هل انتقمت ممّن عاثوا في البلاد والعباد فساداً وتقتيلاً؟ أم من عبدك المطيع الملتزم آتيلا؟ إن كان كلام الآغا صحيحاً، فإنّ كلّ الوعود لن يظلّ لها أيُّ معنى. وإنّ التزامي بوعود، حنثتَ بها أنت يا إلهي، لن يكون سوى مجرّد سذاجة مخجلة. لذا سأنهي كلّ شيءٍ برشفة واحدة. نعم، لقد اتّخذتُ قراري، وسأتجرّع هذه الكأس، و... لن أتوسّل إليك في طلب مغفرة لن تمنحها لعبادك المخلصين. لا تغفر لي، ولا تعفُ عنّي، فأنا اخترت هذه المرّة، حانقاً، غضبك ومقتك. فحين أستذكرُ كلّ ما حدث، منذ البداية الأولى، لن يبقى أمامي سوى أن أُكرّر: لا تغفر لي، ولا تعفُ عنّي. نعم، يا ربّ العرش العظيم، فأنا قد اخترتُ هذه المرّة، حانقاً، غضبك ومقتك.
بدأ كلّ شيءٍ عصر ذلك اليوم العادي الشبيه ببقيّة الأيّام، عندما كُنتُ أهمّ بالخروج من الدار الطينيّة الصغيرة التي كنت أسكنها في القرية التي كنت قد وصلتها منذ مدّة. وكانت هي في الجهة المقابلة، تقف مع مجموعةٍ من أهل الدار الكبيرة المكوّنة من جناحين، يودّعون مجموعة ضيوف أمام سيّارة قديمة. تسمّرتُ في مكاني، لا أستطيع حراكاً. نزلتْ عليّ الصاعقة وهزّت كلّ كياني. ودخلتْ هي جميع شرايييني، وتربّعتْ في لحظةٍ واحدة في القلب والروح والوجدان. حتّى بعد أن دخل أهل الدار، بقيتُ أنا مذهولاً في مكاني. ثمّ، في لحظةٍ ما، أدركتُ أنّها قد اختفتْ. لقد اختفى كلّ شيء، الضيوف غادروا بالسيّارة القديمة، وأهل الدار دخلوا الجناح العائليّ. فأين اختفت هي إذن؟
انطلقتْ مُسرعةً، ولم تُبقِ لي سوى خيطٍ كثيفٍ من الدخان الممزوج بالغبار. أحسستُ لوهلة، بأنّ ذلك الغبار هو روحي التي يجرجرونها بكلّ قسوةٍ على الأشواك والصخور الرماديّة التي تحتلّ تلك البرّية. بقيتُ مُتسمّراً في مكاني، إلى أن ابتعدَت السيّارة تماماً. وما إن غابت هي وغبارها، حتّى دهمني إحساس غريب بأنّني فقدت شيئاً...
يا إلهي، هل كان ذلك حلم يقظةٍ أم حقيقة؟ واقعاً حيّاً، أم مجرّد وهمٍ ناتج عن تعاطي المخدّر؟ لا أعلم... لكنّها كانت أمام عينيّ، واقفةً مع ذلك الجمع من الضيوف. فهل استقلّت السيّارة ورحلت إلى الأبد، أم دخلت الدار مع أصحابها؟ وإن كانت دخلت الدار فعلاً، فهل هي واحدةٌ من أفراد هذه العائلة، من عليّة القوم، أم مجرّد واحدةٍ من الضيوف الكثيرين الذين يتردّدون دائماً على جناحيْ هذه الدار المتميّزة عن كلّ دور القرية؟ هل هي متزوّجة أم لا تزال فتاة؟ وعلى الرغم من علمي بأنّ تقاليد القرية تقضي بتزويج الفتيات وهنّ صغيرات، بقيتُ أخادع نفسي بأنّها لا تزال صغيرةً على الزواج. انتابتني حالة ذهول أقرب إلى الهذيان، انتهت برعشةٍ مرعبةٍ من الأجوبة المحتملة لكلّ تلك التساؤلات. فماذا لو كان الأمر كلّه مجرّد وهمٍ لا أكثر؟ ثمّ، إن كانت أُنثى حقيقيّة، فكيف سأعرف اسمها وعنوانها، وأنا من فرط انبهاري وذهولي لم أعلم حتّى، هل هي دخلت الدار حقّاً أم غادرت مع بقيّة الضيوف مخلّفة وراءها ذلك الغبار القاسي؟

لم يكن يُجاري ذلك البيت في الفخامة والرهبة سوى دار أخرى، كان صديقي شاسوار يصرّ على تسميتها ببيت البيشمركة، الذي يؤوون إليه للراحة وعقد اجتماعاتهم مع أهل القرية وحتّى بعض اجتماعاتهم المغلقة. كان يقول: هذه دارنا نحن، فهي التي تؤوينا وتقينا حرّ الصيف وبرد الشتاء. وهي ليست ملكاً خاصاً لأحد منّا تحديداً. فأيّ وحدة من قوّاتنا تمرّ من هنا تأوي إليها، ذلك لأنّ لنا في كلّ قرية مثل هذه الدار. وكما تعلم يا صديقي، فإنّنا لا نملك في هذه الدنيا، سوى بنادقنا وقضيّتنا، وأرواحنا التي استرخصناها في سبيل كرامة شعبنا وتحرير وطننا.
وفي كلّ مرّة كنت أقول له خائفاً: استغفر ربّك يا رجل، فهذا بيت الله، كيف تتحدّث عنه بهذه الطريقة؟
فكان ينظر إليّ بابتسامةٍ واثقةٍ ويردّ: ونحن أبناء الله المخلصون يا عزيزي، نحن الذين نذرنا أنفسنا، وحملنا السلاح بوجه الظلم، لكي نحقّق الحريّة والعدل.
– كيف تكونون أبناء الله وأنتم لا تصلّون أبداً؟ لا بل وتحملون فكراً يساريّاً ملحداً، لا يؤمن بوجود الخالق؟!
كان يردّ عليّ بكثير من الحبّ البادي على ضحكته البريئة الواثقة: يا عزيزي، إنّ الله العظيم الجميل، ليس هو ذلك الكائن المرعب الذي يطلب عبوديّة أبنائه مقابل جائزة يمنحها لهم في الآخرة، أو يُعاقب متمرّداً لم يلتزم بطقوس يوميّة مملّة. إنّ الله أكبر من أن يستقي عظمته من عبادة كائنات من خلق يديه. إنّه نور الحقّ والحريّة والعدل. وبغضّ النظر عن إيماننا أو كفرنا به، نظلّ نحن أبناءه الصادقين المخلصين، الذين حملنا أرواحنا على أكفّنا ونذرنا أنفسنا من أجل تحقيق صفاته الجميلة على الأرض (الحق والحرّية والعدل). وكلّ ما عدا ذلك من طقوس وعبادات، فهي لا تتجاوز كونها أموراً شخصيّة، لكلّ منّا الحريّة في ممارستها أو لا.
– ما كلّ هذا التخلّف، وعن أيّ إله تتحدّث؟ هل نسيت أنّ الدين أفيون الشعوب؟ بهذه العبارات، باغته أحمد الذي كان يُلقَّب بأحمد ماركس.
نظر إليه شاسوار بعصبيّة وردّ في الحال: يا أخي، لا أعلم كيف يمكنك أن تدّعي النضال من أجل أناس لا تحترم عقائدهم ومقدّساتهم؟ أنا أستغرب جداً، كيف يسعك أن تضحّي بنفسك من أجل شعب، بينما تستهين هكذا بمقدّساته بهذه الطريقة السافرة؟!
قام أحمد ماركس من مكانه بسرعة وهو يقهقه: يبدو أنّ الرجعيّة متجذّرة حتّى في الثوّار، أرجو ألّا يضلّلك آتيلا، فتلجأ مثله إلى الصلاة وبقيّة الطقوس الرجعيّة الفارغة.
كان ذلك البناء هو مسجد القرية المبنيّ من الطين. لكنّه كان مبنى يُشعرك من الوهلة الأولى بالرهبة والهيبة في حجمه الكبير، وعلوّ سقفه مقارنةً ببقيّة بيوت القرية. أمّا بيت الشيخ المكوّن من جناحين، فقد كان أكبر بقليل حتّى من المسجد، أو بيت الله كما يحلو للأهالي تسميته، أو بيت البيشمركة، الذي كان شاسوار يصرّ على استخدامه. كان البناء منقسماً إلى قسمين: الأوّل هو دار العائلة، وكان يتكوّن من عدّة غرف مبنيّة من الطين. لكنّه كان يمتاز عن كلّ بيوت القرية بعلوّ سقفه وأبوابه وشبابيكه. بينما يشكلّ القسم الثاني المجاور لبيت العائلة، التكيّة التي كان يلجأ إليها الشيخ للاعتكاف، ويمارس فيها طقوس العبادة، ويستقبل المرضى الذين يقصدونه طلباً للدعاء والشفاء. وكان يضمّ أيضاً مطبخاً وملحقاً صغيراً يسكنه بعض الدراويش القائمين على خدمة التكيّة وصاحبها وضيوفها الكثيرين. وكانت التكيّة أكبر من الدار العائليّة، ويربطها من خلال فنائها

الكبير باب بفناء بيت العائلة الأصغر نسبيّاً، بينما كان يجاور بيت العائلة على الطرف الآخر، إسطبل طينيّ يؤوي المواشي وخيل الشيخ وأبنائه.
كان عليّ أن أكُفّ عن تناول الخمر، منذ تلك اللحظة، التي غادرت فيها السيّارة القديمة تلك. فقد كانت ليلتها قاسية جداً، لم أذق فيها للنوم طعماً... وكلّما كنت أشرب أكثر، كنت أغرق أكثر في حالة صحوٍ غريبة. بدا العرق بلونه الأبيض العكر، عاجزاً عن إيصالي إلى حالة السكر. فأخذتُ أتجرّعه من دون قطرة ماء، ما أعاد إليه شفافيّته ونقاءه، لكنّه لم يستطع بدوره انتشالي من صحوي. لم يُغرقني في حال السكر التي كنت أهرب إليها من ضراوة الأسئلة القاسية عن تلك الفتاة. ليلتها... كان العرقُ أكثر عجزاً من أن يمنّ عليّ ببعض الثمالة. فالتجأت بسرعة إلى تناول حبّة منوّمة.
كان لزاماً عليّ أن أهجر الخمر من اللحظة التي وقعت فيها عيناها عليّ. فأنا قد تطهّرتُ بمجرّد أنّي حظيت بتلك النظرة التي أدخلتني وسط مفارقةٍ مخيفة، في جحيم ذلك السؤال المؤرّق: تُرى، هل كانت تلك نظرة حبّ، أم لم يعدُ الأمر أكثر من تخيّلٍ صوّرته لي حالة السكر التي أفقتُ عليها ذلك الصباح؟ وعلى الرغم من كلّ ذلك السعير، تبقى تلك النظرة ساحرة بالقدر الذي يمكّنها من تطهيري من كلّ آثامي في لحظةٍ واحدة، كما حدث تماماً مع المجرم الذي يحكي عنه الهدهد فيقول: «قتل أحد الملوك مجرماً عقاباً له، وفي نفس الليلة رآه صوفيّ في المنام، رآه يتجوّل في جنّة عدن، كان يتجوّل مسروراً أحياناً ومتبختراً أحياناً أخرى، فقال الصوفيّ: لقد كنت للدماء سفّاكاً، وكنت ذليلاً أفّاقاً، فمن أين أحرزت هذه المنزلة؟ إنّ ما فعلته لا يمكن أن يصل بك إلى هذه المرتبة!
قال: عندما سال على الأديم دمي، مرّ في تلك الآونة حبيب العجمي، وفي الخفاء رمقني بنظرة من طرف عينيه، فأصبت هذا الشرف ومئة مثله بعزّة تلك النظرة منه، وكلّ من أصابته نظرة حظ، وقفت روحه في لحظة واحدة على مئة سرّ. وإن لم يشملك أحدٌ بنظرة، فكيف يتمّ لك معرفة خبر يقين عن وجودك، وإن كنت تكثر الجلوس وحيداً، فلن تستطيع قطع الطريق بلا مرشد، فالطريق يلزمه مرشد، فلا تسلكه بمفردك، ولا تسلك هذا البحر عن طريق التخبّط والعمى، بل لا بدّ لك من شيخ المسير، حتّى يكون ملاذاً من كلّ أمر عسير، وإن كنت لا تعرف الطريق من البئر، فكيف يمكنك قطع الطريق بلا دليل؟ وليست لك عين بصيرة، كما أنّ الطريق ليست قصيرة، والشيخ في طريقك هو هادي مسيرك، وكلّ من يكون في ظلّ صاحب الحظّ، لا يمكن أن يصيبه مكروه في الطريق، وكلّ من يسير على الدوام في ركاب الجدّ، يصبح الشوك في يده طاقة ورد».
وكانت فاطمة هي الشيخ، والمرشد، والدليل، والمُبتغى. ونظرتُها الأولى تلك، كانت كافية لمسح كلّ ذنوبي.
– الصلاة خيرٌ من النوم... الصلاة خيرٌ من النوم...
انتشلني صوت المؤذّن وهو يرفع أذان الفجر، فعلمتُ بأن الليلة القاسية تلك لا تزال مستمرّة، ثمّ بدأتُ أفقد إحساسي بالأشياء من حولي، وبالكاد تمكّنتُ من سماع صوت المؤذّن، وهو يعود منخفضاً هذه المرّة (الله أكبر، الله أكبر... لا إله إلّا الله). وبينما كنتُ قد شارفتُ على الغرق في نومٍ قسريّ، سيطرت عليّ فكرة أنّها قد تكون مريضة، جاؤوا بها إلى الشيخ لكي يدعو لها بالشفاء، لكنّني استدركتُ مباشرة: كلّا، فلو كانت مريضة حقاً، لأتوا بها إليّ أيضاً، لكي أعالجها ببعض الأدوية من صيدليّتي الصغيرة. ثمّ يستحيل أن تكون كائنة بكلّ ذلك الكمّ الهائل من الرقة والجمال،

مريضة. فإن كانت هي مريضة، فماذا نكون نحن إذن؟ سمعتُ صوتي وأنا أهذي بين اليقظة والنوم: عندما يمرض الناس يذهبون إلى الطبيب، لكن ماذا لو أُصيب الطبيب نفسه بالمرض، فإلى أين سيلتجئ يا تُرى؟! أحسستُ بانقباضٍ يخنق أنفاسي، وغرقت تائهاً في نومي أُصارع ذلك السؤال الذي لم أحصل على جوابه الحقّ، ألا وهو: (حين يمرض الطبيب، فلا بدّ له من اللجوء إلى الشيخ) إلّا بعد مرور وقت طويل.

أمّا الآن، وبعد انقضاء كلّ تلك السنين، بينما أقف أمام هذه الكأس الفاصلة في حياتي، فيعاودني نفس الإحساس بصعوبة التنفّس إلى حدّ الاختناق الذي دهمني فجر ذلك اليوم، الذي تلى أغرب يومٍ في حياتي كلّها. فقبل أن تبتعد تلك السيارة القديمة مخلّفة ذلك الغبار الحزين بساعات، حدث ما هو أغرب من كلّ ذلك... في صباح ذلك اليوم، اقتحم غرفتي الطينيّة مجموعة رجال يحملون درويشاً اختلط شعره الطويل بلحيته الطويلة الكثيفة، قائلين إنّ الشيخ قد أمرهم بحمله إليّ لأعالجه سريعاً. فطلبتُ منهم وضعه على الأريكة لأفحصه وأعالجه. لكنّه أمسك بيدي بقوّة مُردّداً: ماذا تظنّ نفسك فاعلاً؟ لقد قرّر صاحب الأمانة استردادها، فمن تكون أنت لتحاول منعه من ذلك؟

خاطبته بقدرٍ كبيرٍ من الشفقة: هوّن عليك يا عمّ، الأمر أسهل ممّا تظن، سأعالجك وتنهض من هنا وتعود إلى بيتك ماشياً على قدميك.

قاطعني: أنا عائدٌ إليه هو، إلى حيث بيتي الأخير، فكفّ عن هذه الألاعيب ولا تحاول تأخير وصلي. فأنا أتحرّق إليه... الأمر أصبح أسهل عليّ ممّا تتصوّر، لكنّني أُشفق عليك أنت، فحملك سيكون أثقل من كلّ الجبال.

– وكيف ذلك؟

– سترى الويل. ومع أنّك موعود بالتطهّر والطريق القويم، لكنّ حملك سيكون ثقيلاً جدّاً. أمّا أنا... فمتلهّف لتسليم الأمانة بسهولة.

وسألته ممازحاً: وكيف ستسلّمها بهذه السهولة؟

– إنّه يناديني، وليس لي أن أشغل نفسي بأيّ شيء عن ندائه. أنا عائد إليه، فتنحَّ عن طريقي.

نهض عن الأريكة بثيابه الرثّة، وحاول أن يبتعد راكضاً، لكنّه سقط في الفناء بعد خروجه من الغرفة، حيث التراب. وعندما وصلنا إليه، هممتُ بفحصه، لكنّه كان قد أسلم الروح.

يا من تحيي وتميت!

ما كلّ هذا العبث الذي لعبناه أنا وأنت؟ فبعد فاطمة، لا يهمّ أيّ شيء. وسواءٌ، أبقيتُ ملتزماً ديني بكلّ صرامة، أم عدتُ لارتكاب جميع المعاصي، فإنّ ذلك لن يغيّر شيئاً. لذا، سأتجرّع هذه الكأس المنتظرة بحزنٍ وانكسار، بجرعةٍ واحدة، وأعود إلى سابق عهدي. فبعد أن فقدت الأمل في عودة فاطمة، سأعود إلى حبيبتي القديمة... كأسي المليئة خمراً وضياعاً... سأشربها كلّها، وبعدها سأقضي حياتي تائهاً، ضائعاً في ثنايا الخمر والمخدِّرات، ولن أكترث لجبروتك ونارك وجحيمك... يا أيّها القاسي المتكبّر في عليائك.

لكنْ... لِمَ كلّ هذا التردّد، وكأنّني أتجرّع خمراً للمرّة الأولى؟ أنا الذي كنت السكّير اللا أبالي الذي لا تهمّه دنيا ولا آخرة، ولم يكن يهمّني من كلّ هذا العبث الذي يُسمّى الحياة، سوى حصّة من مخدِّر أو قدر من الخمر، ينسيني كلّ الكوارث التي عشتها. وكلّ التمزّقات التي تقاذفتني ولا تزال تتقاذفني بلا رحمة... تلك التمزّقات التي لم يكن لي فيها خيار، وفرضها عليّ القدر قسراً، حتّى قبل ولادتي.

ولدتُ في مدينة قديمة، تحمل اسماً غارقاً في الكفر وتتربّع بقسوة وصرامة على حدود تنوّع انتماءات الناس وولاءاتهم. وفرض هذا الواقع المعقّد تمزّقات حادّة، تقطع الرحم وتحوّل أقوى الصداقات في لمح البصر، إلى أشرس ما يكون من عداوة. واقعٌ يعيد اصطفاف العلاقات بين كلّ فترة وأخرى، وفقاً لما يتخوّف منه الناس من انقلاب عسكري أو اغتيال زعيم أو إشعال ثورة في الجبال. هذا التنوّع فرض تمزّقاً في المدينة والحارة والمدرسة والمسجد، لا بل وحتّى في البيوت. وكان بيتنا أحد هذه البيوت المُصابة بلعنة ذلك التنوّع المتحوّل إلى خلافات حادّة. ولدتُ لأمّ سنّية كرديّة، من عشيرة الزنكنة، ممّا لا يدع مجالاً للشكّ في كرديّتها، وأب شيعيّ ينحدر من عشيرة الهنداوية، تزوّج قبل أمّي بامرأة تركمانية. لذا كنّا نتحدّث في البيت كلتا اللغتين الكُردية والتركمانية.

فتحتُ عينيّ على كوارث ظلّت تلاحق عائلتي تباعاً، فقد تُوفّي أبي قبل بلوغي العاشرة من العمر. وفي إحدى هجماته المتكرّرة، أحرق الجيش بيتنا الذي كُنّا نمتلكه في بلدة غير بعيدة عن مدينتنا القديمة، وسلبوا كلّ ما كنّا نملك من ماشية. بعدها تُوفّي أخي قبل حلول سنويّة أبي الأولى... لكنّ أشدّ ما ألمّ بي وبعائلتي، كان استشهاد شقيقي الوحيد في إحدى المعارك الكبيرة الدائرة بين قوّات البيشمركة والجيش. ومع أنّي كنتُ قد بلغتُ ما يقارب سنّ الرشد، إلّا أنّ استشهاد تيمور كان أشدّ ألماً وفتكاً بروحي. فتيمور... لم يكن الأخ الشقيق فقط، بل هو شهيدٌ، كانت مراسم دفنه المهيبة وبكاء الناس الجماعي عليه، كافيين لأتيقّن من أنّه قد وصل إلى درجة القداسة حقاً. حتّى ذلك الحين، لم أكن أتصوّر أبداً، أنّ هنالك كارثة أكبر وأشدّ قسوة من استشهاد تيمور. لكنّ القدر كعادته، كان يخبّئ لنا ما هو أشدّ وأقسى وأخطر. فبعد مرور أشهر قليلة على استشهاد تيمور، حلّ الانهيار الأكبر المفاجئ الذي أصاب الجميع بذهول ممزوج بمرارة الذلّ.

يا إلهي، ما هذا؟ لقد نسيتُ أن أشرب كأسي الحزينة. لكن مهلاً، ما بالي أستعرض الليلة شريط حياتي وكأنّها ليلتي الأخيرة؟ أجل، إنّها اللحظة الأخيرة في حياتي. فهل هناك نهايةٌ وموتٌ أشدّ قسوة من فقدان الأمل في عودة فاطمة؟ سأتجرّع هذه الكأس، وأشهق بعدها شهقتي الأخيرة. إنّني أشعر الآن بنفس الاختناق وصعوبة التنفس اللذين دهماني فجر ذلك اليوم البعيد، فرفعتُ الكأس بعصبيّة، لكنّ يدي تجمّدت من الخوف، وأنا أتذكّر ذلك العرق العاجز، فقلت في نفسي مجدّداً «كان عليّ أن أكفّ عن تناول الخمر منذ تلك الليلة العجيبة التي انكشف فيها عجز الخمر».

ماذا أقول حقّاً؟ هل بدأت أهذي من جديد كتلك الليلة؟ وكيف لي أن أكفّ عن تناول الخمر؟ بل على العكس تماماً، يجب أن أشرب إلى أن أموت من الثمالة. فلم يعد هنالك ما يستحقّ أن أصوم من أجله عن العرق. لقد تيقّنتُ من أنّ احتمال بقاء فاطمة حيّة، يُعّد أمراً أكثر استحالة من حدوث معجزة، وليس بمقدور أحد مهما كانت قوّته تحقيقها، كما أعلم علم اليقين، بأنّ شرب هذه الكأس ليس حراماً فحسب، بل هو الكفر المطلق بعينه. لذلك سأشربها هذه المرّة عن طيب خاطر، لعلّ هذا الكفر يُغرقني في الثمالة. فأنا بحاجة إلى أن أشربها، فتحكم عليّ يا ربّي بجهنّم وبئس المصير... لكي أتبيّن فقط، أيّهما أكثر عذاباً، نار جحيمك أم فراق فاطمة؟

يا إلهي! يا ربّ الحساب، إنّني أتضرّع إليك... بحقّ قدسيّة يوم القيامة، ذلك اليوم الذي نقف فيه جميعاً، خاضعين بالتساوي أمام حكمك النهائي، تقبّل منّي كفري هذا كما هو، واحسبه في ميزان سيّئاتي بحقّ عظمتك وجلالك، آمين...

4

«وكيف تدرك عين النملة الثريّا، وهل رأيت نملةً تحمل سنداناً؟!».
فريد الدين العطّار

التقيت به للمرّة الأولى في السجن...
كان كلّ شيء فيه يُظهر اختلافاً أقرب إلى الاختلاق والافتعال. في اللحظة الأولى، تصوّرتُ نفسي أمام شخصيّة مشاكسة خارجة للتوّ من أحد الأفلام الهنديّة الكلاسيكيّة. فعلاً كان آتيلا يومها، بشعره الأشعث الطويل، ولحيته الكثّة الكثيفة، وحركاته وهو يتجوّل في فناء السجن، مُطابقاً لتلك الصورة النمطيّة. كلّ شيء فيه كان تقليداً، أو صورة طبق الأصل لإحدى الشخصيّات الخارجة للتوّ من فيلم هندي قديم. تعجّبتُ في البداية لتهمته، فهو لم يكن جاسوساً أو أحد افراد قوّات الجحوش الذين كانوا يؤسرون في المعارك، فلماذا يقبع في سجن الثورة إذن؟!
كانت تهمته فريدة ومن نوع خاصّ، لم نشهده طيلة سنوات الثورة، لا قبل ذلك ولا حتّى في ما بعد. كان مُتّهماً، وقد اعترف على نفسه بزراعة نوعٍ من أنواع الحشيش في تلك القرية التي كان قد وصلها واستقرّ فيها منذ أشهر. علمتُ حينها، بأنّه كان يتعاطى الخمر والمخدِّرات في القرية. وكانت «جريمة وخطيئة» كهذه، من قبيل أشدّ المحرّمات عند الأهالي، وكذلك عند الثورة وقوانينها الصارمة والارتجالية أحياناً... وبأنّه نتيجة خوفه من نفاد الخمر والمخدِّرات التي كانت بحوزته، لجأ إلى زراعة هذا النوع من الحشيش. لكنّه مع سجنه بتلك التهمة الخطيرة، كان يملأ المكان أُلفةً وضحكاً، لذلك كان يحظى بحبّ البيشمركة والمسؤولين عن السجن.
عندما التقيت به للمرّة الأولى، كان عصبيّاً يأبى أن يأخذ أحد دوره في تسلّم حصّته من الطعام. هوّنتُ عليه قائلاً: اذهب، واجلس قرب تلك الصخرة الكبيرة وسأتكفّل بتسلّم حصّتينا من الغداء وآتيك بها لنتغدّى معاً.
رمقني بنظرة ملؤها التحفّز للانقضاض والشكّ في جدّية قولي من هزله. لم أُعطِه الفرصة للتفكير كثيراً، وانقضضت عليه بضحكة عفوية وقلت له: أنت مدعوّ عندي اليوم على الغداء...
فجلجل بضحكته الصاخبة قائلاً: وأنا قبلت دعوتك الكريمة، بكلّ سرور.
أمّا الآن... فأنا أقف مليئاً بالغضب المشوب بحزنٍ قاتل، وينهال عليّ أحياناً بعض من التراب الذي كان حفارو القبور يرمونه عالياً في الهواء، وتصطدم حفنة منه بفعل الريح على وجهي بين الفينة والأخرى، بينما هم يحفرون صفّاً كاملاً من القبور لإيواء آتيلا ورفاقه الذين استشهدوا في واحدة من أكبر وأهم المعارك في المنطقة. ومع كلّ حفنة تراب كانت تنهال، كنت أذوب في ذكرى لقائنا الأول وتفاصيله الموغلة في الغرابة مثله. يومها، كان هو السجين، وأنا من زمرة السجّانين. وها أنا أودّعه الآن شهيداً وقد تفوّق عليّ وغلبني في التضحية. لكنّني ما زلتُ أتمزّقُ لمعرفة ماذا فعل حقاً بقنّينة العرق التي انتزعها منّي ليلة أوّل من أمس بعصبيّة ممزوجةٍ بالحزن والسخرية واليأس؟
تُرى هل شربها كلّها وأنهى عبث توبته الخالصة؟ أم هو لم يتذوّقها إكراماً لفاطمة، التي ظلّ مصرّاً على أن يقابلها تائباً صالحاً، كما كان يُمنّي النفس دائماً؟ إنّ شياطين الفضول تتلبّسني وتصيبني بحالة غريبة من التحرّق لمعرفة مصير تلك القنّينة. لا أعرف لماذا أصبح مصيرها مهمّاً بالنسبة إليّ هكذا فجأة؟ لا أعلم بالضبط، لماذا دهمني السؤال عن معاودته شرب الخمر من

عدمه مُجدّداً؟ إلا أنّني أشعر بحصار المعاني التي يمكن أن يحملها الجواب عن ذلك السؤال. لكنّ الغريب هو أنّني لا أفهم أيّ معنىً من تلك المعاني التي أخذت تشدّد عليّ الحصار بتحرّقٍ عجيب.

5

«الأنبياء دائماً في اضطراب،
أمّا أنا فلا أستطيع تحمّل كلّ هذا، فارفع يدك عنّي».
فريد الدين العطّار

يستحيل أن أعود إلى الخمر والسُّكر مرّة أخرى...
لا يا آتيلا، دع عنك كلّ خزعبلات الآغا، وكلامه الأسخف منه. ففاطمة قد وعدتك بقضاء بقيّة العمر معك، وهي لم تحنث أبداً بوعد قطعته أمامك وأمام الله. فلماذا تتصوّر أنّها يمكن أن تحنث به الآن؟ لذا دع هذه الكأس اللعينة جانباً وقم توضّأ وصلِّ ركعتين وعُد إلى رشدك واستغفر ربّك، وإيّاك... ثمّ إيّاك أن تحنث بوعودك لفاطمة ولربّ العزّة والعرش العظيم...
إنّي نويتُ لك صلاة التوبة.
(...)
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...
يا ربّ! يا أرحم الراحمين، يا من أعدتَ البصر إلى يعقوب وجمعته بيوسف بعد عذاب انتظار طويل، إنّك قادر على كلّ شيء، فارحم عشقي اليعقوبي واحتراقي، وأعِد إليّ فاطمة... أعِد إليّ روحي، أنت أعلم بما في القلب، وتعلم أنّها روحي ونبضي وكلّ حياتي، وأنّني لا أستطيع العيش من دونها. إنّني أعجز الآن حتّى عن التنفس بصورةٍ طبيعيّة. وأنت أعلم، بأنّها مُذ غابت وأنا لم أتنفّس ملء صدري ولو مرّة واحدة.
على سجّادتي العزيزة هذه، وأنا غارق في صلاتي ودعواتي، تلوح لي الكأس المنتظرة بوحشيّة، كأنّها عروس طال انتظارها طويلاً، وها هي تحظى بليلتها الأولى، فتبدو متعجّلة بشبق، متشوّقة باحتراق يصارع الخجل... ها هي حبيبتي الأولى تناديني، تغريني، تراودني عن نفسي بشوق زليخا الشبقي إلى يوسف. من فوق سجّادة الصلاة، ودون أن أنهض من مكاني، انشدَّ كلّ تركيزي إلى حبيبتي الأولى، وتملّيتُ من بعيد في فمها البارز بشهيّة غريبة استنشقتها ملء صدري. يااااااه! يا لرائحتها الزكيّة العتيقة! لم أعد أحتمل أكثر من ذلك. فأنا لست بأيّوب، ولست نبيّاً، أنا مجرّد صعلوك سكّير نجس، حوّلَته ملاك إلى وليّ طاهر.
آهِ يا ملاكي، يا فاطمة قلبي، اعذريني يا حبّي الأوّل والأخير، فليس قبلك ولا بعدك حبيب. من على سجادتي، وأنا أذوب بكأس العرق البعيدة، تتراءين لي من خلال دموعي، في صورة ضبابيّة تشوّش دموعي المنهمرة بحرارة، هيئتك الطفوليّة المذعورة، وأنت تلوّحين لي من بين جموع الأهل للمرّة الأخيرة، كأنّني أتمزق بين الكابوس والواقع، أتذكّر ذلك اليوم الذي لا يشبهه سوى يوم الحشر والحساب. يومها أحسستُ فعلاً بأنّه ذلك اليوم الموعود الذي يُحشر فيه الطير والبشر والمواشي وكلّ ذي نبض.
يا ربّ!
لم أكن أعلم بأنّك كنتَ تخبّئ لنا ما هو أشدّ وأقسى حتّى من يوم الانهيار الأكبر، فإذا بك تُفاجئنا بغضبك اللانهائي لتُرينا أنّك ما خلقتنا إلّا لتحمّل الكوارث وكأنّنا نحن من صلبنا ابنك عليه السلام، لتصبّ علينا كلّ جام غضبك حتّى آخر قطرة فيه. لماذا لم تنتقم ممن دكّوا بيوتك وسوّوها بالأرض

وأحرقوا حتّى كتابك العزيز؟ وتنتقم منّا، نحن أمّة العجز والقهر والحرمان؟ ألستَ أنت الخبير العليم بكلّ شيء؟ ألستَ أنت خالق السماوات والأرض؟ فهل خلقتنا كغيرنا من البشر في أحسن تقويم، أم خلقتنا، كما تقول خرافة الإدريسي، من أبناء الجنّ الملعونين الذين نزلوا من الجبال وتزاوجوا مع النساء، فوُلد هذا الشعب نتيجةً لذلك، جبلياً، عنيداً، بريئاً، حدّ السذاجة؟ أم أنت رميتنا خارج معاييرك التي تقضي بأنّ الناس شعوب وقبائل لتعارفوا؟ أم تُراك تشكّ، أستغفرك ربّي، في تقوانا فخلقتنا لا لتعارفوا بل لتعاركوا!

حين أتوه الآن في حيرتي من حكمة كلّ ما حدث، يتجلّى الهدهد بشحمه ولحمه وهو يحكي: «كان وله يسير في الطريق عاري الجسد، وقد اشتدّ به الجوع، وكان البرد قارساً والمطر منهمراً، فأصبح غريق المطر والبرد، ولم يكن له مخبأ أو منزل، فسار حتّى التجأ إلى خرابة، وما إن توقّف عن المسير وولج الخرابة حتّى سقطت على رأسه من السقف آجرّة، فشجّت رأسه وسالت الدماء كنهر، فرفع رأسه إلى السماء قائلاً: إلى متى تدقّ طبول السلطنة؟ الأفضل من هذا ألا تستطيع الضرب بالآجرّ!».

حتّى يوم الوداع النهائي الذي لوّحت لي فيه فاطمة بيدها للمرّة الأخيرة وهي جالسة على الأرض باستسلام، لم أكن أتصوّر أبداً أنّ هناك يوماً أمرّ، أو أنّ هناك كارثة أقسى وأشدّ ألماً، وأنّك تخبّئ لنا يوماً أكثر حزناً وذلّاً، وأنّ يوم الانهيار الأكبر، مقارنةً بيوم أنفال الحساب المشؤوم، لم يكن سوى مجرّد مزحة إلهيّة ثقيلة... وأنّك، على الرغم من كلّ مصائبنا، لا تكتفي بدقّ طبول السلطنة، بل تضربنا حتّى في خرابتنا الأخيرة، بالآجرّ...

لن أتردّد هذه المرّة، وسأتجرّع هذه الكأس حتّى آخر قطرة فيها وسأرتكب من الآن فصاعداً جميع المعاصي والآثام...

اعذريني يا فاطمة، الآن فقط، أدركتُ أنّ غيابك ذاك لم يكن هو المصاب الوحيد...

6

«كلّ من يتمتّع بذرّة همّة، يجعل الشمس ذليلة بهذه الذرّة».
فريد الدين العطّار

ما أكبر هذه المقبرة التي لا تشبه مقابر البشر. فما يقارب النصف من ساكني قبورها شهداء... فيا لتضحياتنا التي لا حدود لها، ويا لاستهانتنا بها! ويا لاستهتارنا المخيف بقداستها ورمزيّتها. ياه! يا لهول ما قدّمنا من تضحيات، ولكنّنا للأسف لم نحترمها، فما بالك بالتفكير في التعويض عن مآسيها. فمنذ ثلاثين سنة بالتمام والكمال، وهذه المقبرة تستقبل باستمرار رفات الشهداء بالتساوي مع الأموات الذين حلّت آجالهم، وماتوا في بيوتهم وسط الأهل والأحبّة، أو نتيجة حادث سير، أو لدغة أفعى أو عقرب. يلوح لي شاهد قبر، كنت قد زرته من قبل مع آتيلا... إنّه مثوى تيمور، الأخ الشقيق لآتيلا، الذي استُشهد قبل يوم الانهيار الأكبر بأسابيع قليلة...

تُرى، ما هو سرّ ارتباطي بهذه المقبرة الكبيرة؟ ها أنا ذا أقف في برزخ نهائي يحسم كلّ معاني الحياة والموت التي يختزلها في توليفة غريبة. أمّا ارتباطي الأوّل بها، فهو أقدم بكثير من وقوفي البرزخي هذا، أقدم حتّى من ولادتي. فقبل ولادتي، كما كانت تروي لي أُمّي في ما بعد، كان هناك خلاف صاخب حول الاسم الذي سيُطلق عليّ، حتّى من دون أن يعرفوا جنس الجنين المنتظر، أو حتّى احتمال تمكّنه من البقاء أو موته كمن سبقه. وكأنّهم كانوا متيقّنين من الجنس الذي سأولد به، فاقتصر اختصامهم على الاسم فقط، بينما كان الطرفان يصرّان على اسم لمولودٍ ذكر، ولم يطرح أيّ منهما اسم انثى ولو مرة واحدة. كان طرف يصرّ على اسم عبّاس. قيل إنّ رجلاً مُعمّماً كان قد جاء إحدى القريبات في حلمها يبشّر أمّي بمولود ذكر سيعمّر كثيراً إذا سُمّي على اسمه، وظلّت تصرّ على أنّني إن لم أحمل ذلك الاسم تحديداً، فإنّني ميّت لا محالة. فيما بقي أبي يصرّ على اسمي هذا الذي كان قد اختاره، وهو شاسوار، على اسم الوليّ الذي يعتلي مزاره تلك القمّة التي تقف حارسة لهذه المقبرة الكبيرة. إنّه باوه شاسوار، وباوه هذه لقب أو رتبة دينيّة يستخدمها الكاكائيّة في المنطقة. ويُقال إن صاحب الاسم كان زرادشتياً وإنّه قُتل هنا أثناء المعارك الكبيرة التي استمرّت لأسابيع، وأدّت إلى مذابح وسفكٍ كثيرٍ للدماء، ودُفن على تلك القمّة التي أخذتْ اسمها منه... لتُقرّ إحدى الروايات بأنّ هذه المدينة برمّتها قد أخذت اسمها المغرق في الكفر من تلك المعارك التي حدثت قبل قرونٍ خلت...

يااااااه!

إنّني أتذكّر تيمور، وأتذكّر بوضوح يوم استشهاده، وأتذكّر بوضوح أشدّ يوم الانهيار الأكبر الذي أجزم بأنّه يُشكّل الحدث الأشدّ وضوحاً وألماً في ذاكرتي على الإطلاق.

يا له من يومٍ حزين وقاسٍ!

كان أقسى وأطول يومٍ عشناه. فهو الذي شكّلنا في ما بعد، وشكّل شخصياتنا، ورسم ملامح حياتنا، وطبعها بطابع العناد الممزوج باليأس وبالكبرياء المجروحة المتحفّزة دوماً، لتتحدّى بيأس قاتل أبسط الأمور استفزازاً، ولو من قبيل المزاح. فرض لونه، على كلّ ما نأكل ونشرب ونمارس من طقوس، بدءاً من سجّادة الصلاة، وصولاً إلى كلّ ما كنّا نمارسه على سجّادة النوم. وفرض على كلّ هذه الطقوس والممارسات طعم المرارة الممزوجة بالحنق الذي لا نعرف على من نصبّه... أعَلى أعدائنا، أم على أنفسنا، أم على قياداتنا التي رضخت لقدر المؤامرة الدوليّة الكبرى، وقبلت

بحدوث الانهيار الأكبر؟ لم أقدر أبداً على مجرّد التفكير في إيجاد أجوبة لهذه الأسئلة المرعبة. ولم أكن أستمرّ في البقاء في مجلس ينبش في هذه الأمور، إلى أن جمعتني بعد سنوات أقدار مشاكسة، بمحض الصدفة، في بيت آتيلا القرويّ، وفي جلسة محرّمة بالدم والخمر، بأبي سعد...
فتحت عينيّ على عبق الثورة وزعيمها وحكاياتها الأشبه بحكايات جدّتي وأساطيرها الجميلة. واندهشتُ حدّ الذهول بالدموع الغزيرة التي كانت تذرفها أمّي خلسةً وبصمت على غياب أبي المتواصل وعلى صورة خالي الشهيد التي كانت تخبّئها بإحكام، بعد أن تكون قد قبّلتها وضمّتها بقوّة إلى صدرها، عند انتهاء كلّ نوبة بكاء. كانت الحياة حالة دائمة أشبه بطقوس الثورة. فكلّ الأحاديث عنها كانت تدور همساً، حتّى وهم يتبادلون الأخبار والصور المهترئة ذات اللونين الأبيض والأسود، لكنّ أغرب الطقوس كان تجمّع الرجال يوميّاً في أحد البيوت وإغلاق الأبواب للإنصات إلى ساعة البرامج التي كانت محطّة إذاعة الثورة تبثّها بصوتٍ غير واضح، بحيث كان صاحب المذياع القديم المربوط من عدة جهات بأشرطة لاصقة ملوّنة مهترئة يحمل مذياعه ويحرّكه في مختلف الاتجاهات لكي يحصل على أكثر درجات الصوت وضوحاً. وكلّما صدر صوت، أو عطس أحدهم، كان الرجل يمُدّ يده الثانية على امتدادها ويقول: سكووووووت. وبعد انتهاء ساعة البث، كانوا يتفرّقون فرادى من دون أن يحق لأحدهم لمس المذياع.
استمرّت هذه الطقوس الدائمة المشوبة بالخوف والرهبة والهيبة، في الإشارة إلى كلّ ما يمتّ للثورة بصلة، إلى أن وصل إلى بيتنا في ذلك اليوم الماطر رجلٌ غريبٌ لم أره من قبل. ورحلنا معه خِلسة، وأنا ما زلت في مقتبل العمر، وقد أكملت للتوّ نصف سنتي الدراسيّة الأولى. رحلنا بخوفٍ وألم، وكانت عيناي شاخصتين بقوّة وخوف وأمل إلى بيتنا وأنا ممتلئ بالرعب من فكرة عدم العودة إليه ثانية. وصلنا بعد طول عذاب، وبعد عدّة مراحل، إلى إحدى القرى المحاذية للحدود العراقيّة-الإيرانيّة. وهناك، أخذونا إلى بيت، علمتُ فيه للمرّة الأولى، بأنّهم من أقارب أبي. كان سفراً مضنياً ومليئاً بالخوف والصعوبات لدرجة أنّه أوقعني في براثن المرض والانهيار، لكن ما هوّن عليّ كلّ تلك الأهوال، كان لقاء أبي بعد أشهر ظننتها أعواماً لا تنتهي أبداً.
هكذا، كانت الحياة برمّتها...
كانت هذه كلّ حياتي، إلى درجة أنّني ظننت أنّ هذه هي طبيعة الأمور منذ الأزل وإلى الأبد. اعتقدتُ جازماً بأنّ هذه هي سُنّة الحياة وأنّ كلّ البشر يعيشون على هذه الشاكلة. لم أكن أتصوّر حياةً أخرى أو طريقة أخرى للعيش خارج نمط الثورة... لذا كانت الثورة هي حياتي. وفي المقابل، لم تكن جُلّ الحياة تعني شيئاً آخر غير الثورة... خصوصاً بعد مغادرة دارنا وانتقالنا إلى تلك القرية، ثمّ تنقّلنا المستمرّ من مخيّم إلى آخر على الحدود، أو في عمق الأراضي الإيرانية بعض الشيء.
النهار...
طيلة هذه المرحلة، كان النهار من بدايته الأولى في المناطق التي كانت تحت سيطرة قوّات البيشمركة وتحكمها الثورة، حتّى داخل المخيّمات، نشيداً قوميّاً من بداية الدوام... إلى نهاية اليوم، كانت كلّ تفاصيل النهار ثورةً في ثورة. المُتغيّر الوحيد فقط كان انتهاء حالة الخوف والاستماع لمحطة إذاعة الثورة، والحديث عنها وعن انتصاراتها واستشهاد أبطالها وانتقال كلّ ذلك إلى العلن.
أمّا الليل...

فقد كان الليل طويلاً، لا يُضيئه سوى فوانيس قديمة باهتة وحكايات مشوّقة بعد العشاء المتواضع. ثمّ الخلود إلى نوم تحكمه أجمل الأحلام. في تلك الفترة، كان هناك حلم معيّن يراودني باستمرار. كنتُ أعود في الحلم مع أهلي إلى دارنا القديمة، وأرى الجيران والأقارب يستقبلوننا بشوقٍ وسعادة بادية على الجميع. في كلّ مرّة كان يتكرّر فيها هذا الحلم، كنّا نعود بنفس السيّارة، لكنّها لم تكن تلك السيارة التي غادرنا بها دارنا للمرّة الأخيرة برفقة الرجل الغريب في ذلك اليوم العجيب من ذاك الشتاء الماطر...

هكذا عشتُ، وعاش جيلي هذه السنوات المثيرة الفريدة. كُنّا لا نستسيغ الأشعار الطفوليّة التي تضمّها كتب المناهج الدراسيّة، ولا نحفظ منها إلّا ما ندر. في المقابل، كُنّا نمتلئ شوقاً لحفظ أشعار الثورة وأناشيدها الحماسيّة، ونتبارى في حفظها وإلقائها. كنا نحتقر الألعاب الشعبيّة المعروفة التي كان يلعبها أو يحكي عنها الأكبر منّا سنّاً. في المقابل، كانت لعبتنا المفضّلة هي لعبة «البيشمركة والجحوش»، وهي لعبة قريبة إلى لعبة «عسكر وحراميّة»، لكنّها بالتأكيد أهمّ وأشدّ رمزيّة منها بكثير... فكنّا ننقسم إلى طرفين، زمرة الجحوش من طرف وكان يقودها دائماً سعيد الحاج علي، وقوة البيشمركة التي كنت أقودها أنا باستمرار. وكنت على استعداد للتنازل عن أيّ شيء آخر مقابل هذا الدور. كنّا نستخدم في هذه اللعبة بنادق خشبيّة ونظلّ نتقاتل حتّى المساء، أو حتّى انتهاء المعركة لمصلحة أحد الطرفين. كنّا نأسر بعض الجحوش، وفي المقابل كان البعض منّا يقع أسيراً لديهم. وأذكر أنّني لم أسمح لنفسي بالوقوع في الأسر ولو لمرّةٍ واحدة.

هكذا كانت الحياة...

نفتح أعيننا كلّ يوم على مشهدٍ بدا لنا كأنّه هو القاعدة في العيش، وأنّ السكَن في مدن وبيوت حقيقيّة هو الاستثناء. ننهض كلّ يوم لتلتقي عيوننا سقف خيمة، كانت هي الفناء، وغرفة المعيشة، والمطبخ، وغرفة الدراسة، وغرفة النوم، لجميع أفراد العائلة. نخرج من خيامنا، لنتغنّى بأناشيد الثورة في المدرسة المكوّنة من خيم في أحسن الأحوال. وبعد الدوام الدراسي، تبقى هي ذات الأناشيد التي كنّا نردّدها أثناء ممارستنا للعبة «البيشمركة والجحوش» كلّ يوم.

كان كلّ شيء يهون، كلّ الصعاب وقسوة الشتاء وثلوجه الغزيرة، حرارة الصيف القاتلة، الحاملة لشتّى الأمراض والأوبئة. كنا نعيش ونحن لا نشعر بكلّ هذه الأهوال والمصاعب. فقد كان هناك إحساس يغمرنا باستمرار ويطغى على كلّ ما عداه من الأحاسيس يجعلنا لا نشعر أصلاً بتأثيرات كلّ تلك الصعاب. فقد كنّا منتشين بالمطلق، بالثورة وزعيمها وأناشيدها الحماسية وسحرها الذي كان يحوّل كلّ صعب وقبيح إلى أجمل وأحلى ما يكون...

تحسّستُ فوّهة بندقيتي وأنا واقف وسط الجموع الحاضرة الكبيرة في هذه المقبرة المترامية لدفن آتيلا وكوكبةٍ من رفاقه. غمرتني بقوّة ذكرى بنادقنا الخشبيّة، أيّام الثورة الساحرة وقصّة استبدالها ببنادق حقيقيّة. كنا نعتقد حينها بأنّنا نحن الجيل الأكثر حظّاً لأنّنا بالرغم من حرماننا من أبسط مقوّمات العيش الأوّلية، وبالرغم من حرماننا كأقراننا من تملّك لعب الأطفال، كنّا نمتلك أجمل لعبة على الإطلاق. كنّا أصحاب أكثر الألعاب جاذبيّةً وسحراً، كنّا أصحاب الثورة التي حوّلت مرارة العيش ومصاعبها وقسوتها إلى استمتاع كامل بالحياة وكأنّها لعبة ممتعة جدّاً. فكانت الحياة بمجملها عبارةً عن الثورة... وكانت الثورة هي لعبتنا وهديّتنا الأجمل.

7

«لقد صار الكفر إيماناً، وصار الإيمان كفراً...
هنا يحقّ للرجل أن يستعذب الشكاية».
فريد الدين العطّار

يا ربّ!
يا ذا الجلال والإكرام، يا توّاب، يا غفور...
إنّي أستغفرك وأتوب إليك، إنّني أنا عبدك المطيع آتيلا، أطلب عفوك ومغفرتك عن كلّ ما بدر منّي من هذيانٍ وكفرٍ، أستغفر الله، نتيجة غضب، وقهر، وشعور بالمهانة، والظلم القاسي. فقد أصبحتُ آناء الليل والنهار كفحمةٍ على المقلاة، قلبي مفعم بالنار، وتسيل منّي الدماء، كما يقول الهدهد: «عن ذلك الرجل الذي ارتكب العديد من الخطايا، ثمّ تاب خجِلاً، وعاد إلى الطريق من جديد، وعندما شعر بقوّته ثانيةً، نقض توبته واتّبع الشهوات، وهكذا جنح عن الطريق السويّ مرّة أخرى، ووقع في ارتكاب جميع الآثام، ثمّ أصيب قلبه بالهمّ والكآبة، وأصبح أمره من الخجل في غاية الصعوبة والشدّة، ولمّا لم يكن له نصيب إلّا الضياع، أراد أن يتوب لكنه ما استطاع، وأصبح أناء الليل والنهار كفحمة على المقلاة، قلبه مفعم بالنار وتسيل منه الدماء، وإن كان الغبار قد كسبه طريقه، فبدمعة غسل طريقه.
وفي السَّحَر ناداه هاتف، وأصلح أموره وجعله موفَّقاً، وقال له: يقول خالق البريّة:
عندما تبت يا فلان أوّل توبة، عفوتُ عنك وقبِلت منك التوبة، وكنتَ قادراً، لكنّني لم آخذك بالعقوبة. وعندما نقضت توبتك النصوح مرّة أخرى، منحتك مهلةً ولم أكن عليك غاضباً، ومحض خيال – أيّها الجاهل – أن ترغب الآن في العودة مرّة أخرى، ولكن عُد ثانية، فقد فتحنا الباب، لقد أذنبت أنت، ونحن عفونا».
وها أنا أعود ثانيةً طمعاً في عفوك ورحمتك. ها أنا آتيلا، كلبك المطيع الذليل الذي يقف أمام بابك وباب كلّ أنبيائك وأوليائك... بدءاً بأبينا آدم وصولاً إلى آخر فرد من أوليائك. لكن، مهلاً! من هو آخر أوليائك؟
ما هذا؟! هل أنساني القهر والظلم وطول الانتظار آخر أوليائك، لا بل أقرب أوليائك إليّ؟
يا ربّ!
يا من تُمسك بمقادير الأرض والسماء...
إنّني أنا كلبك المطيع الذليل، الذي يخرّ راكعاً على سجّادة الصلاة، أمام بابك وباب كلّ أنبيائك وأوليائك، بدءاً بالشيخ كاكه حمه البرزنجي، وصولاً إلى أبينا آدم عليهم السلام أجمعين، أقف طالباً عفوك وغفرانك. يا غفور... ويا رحيم، أنا أعلم جيداً، أن الشيخ كاكه حمه البرزنجي ليس أوّل الأولياء، لكنّه بالتأكيد الأقرب إليّ، فلهُ عليّ الكثير من الأفضال التي لا تُعدّ ولا تُحصى.
فبعد خروجي من السجن بتدخّل قويّ من شاسوار وميران، الذي كان شاسوار قد حكى له عنّي وعن دوري في معالجة المرضى والجرحى، وشجّعه على التدخّل معاً للعفو عنّي من قبل محكمة الثورة وإطلاق سراحي، وبمجرّد وصولي إلى بيتي في القرية، كان الأهالي على أُهبة الاستعداد لطردي منها، لولا تدخّل الشيخ كاكه حمه القويّ الذي منعهم من مهاجمتي وطردي.

قالوا: يا شيخنا، هذا سكّير نجس، لا يقيم أيّاً من واجبات ديننا الحنيف. كان يجب على محكمة الثورة تنفيذ حكم الإعدام فيه دون تردّد.
فردّ قائلاً: من أنتم لكي تنصّبوا أنفسكم مكان الخالق عزّ وجل؟ إنّ الله سبحانه وتعالى نجّاه من حكم محكمة الثورة ومنحه فرصةً أخرى، فهل نعصي أمراً قضاه الله؟
– لكن يا شيخنا، إنّه...
– صمتاً... لن أسمح لأحد بمناقشة هذا الأمر مرّة ثانية. ولآتيلا علينا واجب النصح والإرشاد والدعاء له بالهداية إلى الصراط المستقيم... قال تعالى: «ادعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة».
– لكن يا شيخ، هذا نجس...
– قلت انتهى الأمر، ولتعلموا جميعاً، بأنّني لن أسمح لأحد بأن يعامله معاملةً سيّئة. عليكم جميعاً معاملته باحترام ومساعدته للعودة إلى الطريق السليم. فكلّكم تعرفونه وتعرفون سريرته النقيّة. إنّه رجل نقيّ في داخله، أدعو له بالهداية، هداكم الله جميعاً...
– ولكن يا شيخنا، ماذا عن سيّئاته؟
هذه المرّة قال لهم بنبرة حاسمة ملؤها اللوم والتحذير: ومن منكم بلا خطيئة؟
لم يكن هذا هو الفضل الأول أو الاخير للشيخ في عنقي، فأنا غارق في أفضاله. لم يدّخر الشيخ فرصة لاستقبالي وإسداء النصح والإرشاد إلى الهداية والدين، لا قبل إلقائي في سجن الثورة بتهمة زراعة الحشيش، ولا حتّى بعد ذلك... إلى أن كانت توبتي النهائية في تكيّته المهيبة التي اعتَقَد هو، وكلّ أهالي القرية والمنطقة بأكملها، بأنّها كانت على يديه الكريمتين... ويبدو أنّه اعتقد بأنّني أهمّ إنجاز له في الإرشاد والهداية. وبذلك، شكّلتُ أنا المثال القويّ الذي ظلّ يستشهد به في كلّ مناسبة.
بعد عودتي من السجن، وحتّى قبل ذلك، بينما كنت أكابد آلام السجن، منتظِراً حكم الموت، لم تُفارقني هيئة تلك الفتاة السمراء البهيّة ذات القوام الممشوق والابتسامة الساحرة للحظة واحدة، تلك التي كانت تقف أمام دار الشيخ ثمّ اختفت مع انطلاق السيّارة وغبارها الطويل. وقد يكون خيالها أحد أهم أسباب تمسّكي بالخروج من السجن مرفوع الرأس والعودة إلى نفس القرية. فقد كان بإمكاني أن أتفادى شرّ غضب الأهالي وأن أعود إلى المدينة وأستسلم للنظام. وأنا أعترف الآن بأنّ خروجي آنذاك من المدينة ولجوئي إلى تلك القرية التي كان يسكنها أقارب لأمّي، لم يكن بدافع المشاركة في الثورة، ولا حتّى دعمها، بقدر ما كان هروباً من الموت على الجبهة، في الحرب المستعرة بشراسة آنذاك.
لذا، فقد كان السبب الوحيد لعودتي إلى تلك القرية هو البحث والسؤال عن تلك الفتاة التي لم أكن متيقّناً حتّى من كونها حقيقة أم مجرّد هذيان ناتج عن هلوساتي المستمرّة بفعل الكحول والحبوب المخدِّرة؟ عدتُ لأسأل عنها، وفي حذر شديد، الأهالي وزوّار تكيّة الشيخ وبيته المبارك. انتابتني نوبة كآبة قويّة أفقدتني طعم كلّ شيء. كانت هي هاجسي الأوّل والأخير بحيث، حتّى عندما كنت أُمارس عملي المعتاد في معالجة الجرحى من أفراد البيشمركة، أو مرضى الأهالي ومواشيهم، كنت أُمارس كلّ ذلك وأنا شبه غائب عن كلّ ما يدور من حولي. كانت الفكرة الوحيدة التي تُسيطر عليّ هي إيجاد ومعرفة تلك الفتاة... أميرة أحلامي ويقظتي، هلوساتي ووعيي، هذياني وصحوي...

ما كان يهوّن عليّ كلّ هذا الجحيم هو حبّ الأهالي لي وعفوهم عنّي نتيجة سكري خلسة... وحبّ البيشمركة لي نتيجة تفانيّ في معالجة جرحاهم. وبالرغم من كلّ هذا الحبّ، بقيت حياتي جحيماً لا يُطاق من دونها هي، ونظرتها الخاطفة المترسّخة تلك. ولولا طيبة وكرم الشيخ ووجود شاسوار في حياتي، لربّما لجأت إلى الانتحار وأنهيت عذابي الشديد وأنا أُقارع نفسي والأرض والسماء والكون كلّه، من أجل فتاة لم أكن أعرف حتّى هل هي واقع أم خيال؟ إنسيّة، أم جنّية خيّرة ظهرت في لحظة طُهر مباركة أمام تكيّة الشيخ ثمّ اختفت مع ذلك الغبار الحزين؟

يااااااه! يا للشيخ كاكه حمه وكبر قلبه ونورانيّة طَلعته المُريحة من أوّل نظرة... ويا لقسوتك أنت، يا إلهي!

كيف سمح لك قلبك، كيف... بالحكم على الشيخ كاكه حمه، وكلّ أهله وذريّته بتلك النهاية الكارثيّة المفجعة؟!

إنّني لا أستغفرك ولا أطلب عفوك أو مغفرتك أبداً. وافعل بي ما شئت. لا تقصّر في عقابك يا شديد العقاب... فإن كنت لم تعفُ عن الشيخ كاكه حمه، الذي أجزم بأنّه كان آخر الأولياء، ولم تغفر له ذنوباً أجزم بأنّه لم يرتكبها في حياته قط، فكيف يمكن أن تغفر لي وتعفو عني، أنا السكّير العربيد الذي مارستُ كلّ أنواع الخطيئة؟!

يا لي من ساذج متوهّم فيك وفي عطفك وكبر قلبك، الذي أُقسمُ أنّه ليس أكبر من قلب الشيخ وعفوه. وإن كنت خذلته هو الذي هدى المئات مثلي إلى طريقك، فكيف توهّمتُ أنك يمكن أن تعفو عنّي أنا؟ لذا، فأنا حانق جدّاً هذه المرّة... ولذا، لن أشرب الخمر فقط، بل سأبدأ بهذه الكأس وعلى سجّادة الصلاة هذه... وسأستمرّ في ارتكاب كلّ الآثام والمعاصي إلى أن أموت. ثمّ بعدها، نتحاسب أنا وأنت في الآخرة. ولو كنت أنت العدل حقّاً، فإنّني أجزِم بأن النتيجة ستكون لمصلحتي أنا. أمّا الشيخ، آخر أوليائك، فلن أنساهُ ما حييت. فبقيّة أفضاله هو، وأفضال كلّ البشر عليّ، لا تُعادل فضله الأكبر. أهم فضل له عليّ، وكأنّه وُلد فقط لكي يتفضّل عليّ أنا بهذه المنّة التي تفوق كلّ أفضال البشر ومكرماتهم.

ربّي، أنا لم أعد أطلب عفوك بعد الآن. وإيغالاً منّي في التمرّد، سأبدأ طريق المعصية من سجّادتك هذه تحديداً. لكن، إن كان لديك بعض من العدل والرحمة، أرجو ألّا تنسى إنصاف عبدك وخادمك المطيع الشيخ كاكه حمه البرزنجي، الوليّ الطاهر النقيّ الذي لم يرتكب في حياته كلّها إثماً، أو معصية، أو حتّى ظَلَم أحداً يوماً ما... لكن، مهلاً! من قال إنه لم يظلم أحداً في حياته ولو مرة واحدة؟ إن لم يكن ظلم، فلماذا أعيش أنا في هذا الجحيم إذن؟! لِمَ أجلس في غرفتي الباردة هذه مُمسِكاً بكأس عرق في برزخ يُنهي كلّ معاني حياتي برمّتها؟ ألم يكن هو السبب في كلّ ما حصل لي؟! لكن هل تعادل فعلته تلك وحدها الخطيئة الكبرى التي تستوجب الحكم عليه بسلبه كلّ ما يملك؟ لا بل وحتّى إبادة ذرّيته عن بكرة أبيها؟!

8

«إنني ككرة مضطربة في رأس صولجان، فلا أعلم قدمي من رأسي، ولا رأسي من قدمي».
فريد الدين العطّار

مع البدء بإنزال الجثمان إلى القبر، اجتاحتني موجة غضب غير مفهومة، لم أعرف على من أصبّها. لم أقدر على الحراك، شعرتُ كأنّني أُصبتُ بالشلل والخرس. كنتُ أسمع الهمهمات وموجات البكاء وصيحات الله أكبر... الله أكبر، وكأنّها تأتيني من بعيد. كُنتُ أتصبّب عرقاً بارداً وغمرتني فجأة موجة حزنٍ طفوليّ ممزوجٍ بالغضب العارم، من عبث الحياة وسطوة الموت وطغيانه. ماذا جنى آتيلا حقّاً ليعيش هكذا محروماً من كلّ شيء، وليموت بحسرة ممزوجةٍ بحالة ضياع أوصلته إلى الكفر بكلّ شيء، بحيث، بعد كلّ تلك السنوات من التوبة والالتزام الدينيّ القويّ، جاء مصوّباً فوّهة بندقيّته نحوي، إمّا قنّينة عرق أو يقتلني؟

قضى عمره في الدنيا محروماً وها هو يتركها مليئاً بالحسرة والغيظ على عدم تحقّق أيّ حلم من أحلامه. حتّى فاطمة راحت، حتّى والده مات قبل أن يشتري له لعبة جميلة أو هديّة تفرحه... كلّما كان الجدل يشتّد حول تصوّري عن أبناء جيلي، وأصرّ على أنّنا لم نشهد طفولة حتّى نستطيع أن نتحدّث عن ذكرياتها، كان آتيلا الذي يكبرني بما يقارب العقد من الزمان، يقول بضحكة مجلجلة مليئة بالتحسّر: لا تبالِ كثيراً، فأنا أيضاً لا أذكر أنّني حصلتُ في حياتي على هديّة أو لعبة. وعلى أيّ حال، إن كان يرضيك فأنا مستعدّ لأن أشتري لك لعبةً جميلةً الآن...

يااااااه! يا لحديث اللعب والهدايا الذي لا ينتهي. يااااااه! يا لشجونها التي تعجز الجبال عن تحمّلها. فخلافاً لكلّ بني البشر الذين يُعدّ هذا أحد أكبر مجالات سعادتهم وأكثر ذكرياتهم براءة ورقّة، شكّل لي هذا الحديث واحداً من أكبر مصادر شجني وغضبي وكآبتي.

إنّ توازن الكون مبنيّ على طغيان كميّة التعاسة على السعادة. حاله في ذلك حال ميزان العدالة المرسوم على مداخل المحاكم، حيث تقف كفّتاهُ بالتوازن ظاهراً، لكنّ الواقع هو أن هذه واحدة من أكثر الأكاذيب سخافةً. هكذا أيضاً، هي حال الحياة، فتوازنها الظاهريّ يُضمر صورة أخرى مختلفة تماماً. لا يمكن أن يصبح أتعس الناس فجأة أسعدهم. لكن، من المؤكد هو أنّ أسعد الناس قد ينقلبون في لمح البصر إلى أتعس الناس. هذا هو ناموس الكون الذي يختلّ توازنه إن فاقت كميّة السعادة فيه كميّة التعاسة أو حتّى إن تساوت الكفّتان. ولا يعود هذا التوازن مرّة أخرى إلّا إذا رجحت كفّة التعاسة من جديد...

يااااااه! يا لشجن ذكريات اللعب ومرارتها...

كانت الثورة، (لعبتنا وهديتنا الأجمل)، في أوج عنفوانها وإشعاعها. كان الناس يتداولون أخبار انتصارات قوّاتنا الكبيرة بسعادة غامرة. كان الحديث كلّه عن أنّ الثورة في طريقها إلى النهاية وأنّها ستنتصر بين ليلةٍ وضحاها، وأنّ الجيش قد فقد قدراته وأنّه بات أضعف حتّى عديداً وعدّة وسلاحاً من قوات البيشمركة، وأنّه على وشك الانهيار وسيُعلن عن استسلامه ويطلب إيقاف المعارك، وأنّ الانتصار الأكبر سيُعلَن قريباً. كلّ ذلك، خلق حالة شغف عجيبة لدى الجميع. فكان الرجال الذين يتجمّعون كلّ يوم حول مذياع قديم يربطون هوائيّهُ بعمود إحدى الخيام عن طريق سلك كهربائيّ مهترئ بغرض تقوية البثّ، كانوا يلتمّون كلّ يوم بشغفٍ أكبر من الذي قبله، كانوا ينتشون بأخبار انتصارات البيشمركة التي كانت تعزّزها الانتصارات السياسية للثورة وزعيمها

على صعيد العالم. وفي نهاية كلّ بثّ يوميّ، كان الشيء الوحيد الذي يكدّر صفو فرحهم غير المكتمل هو عدم الإعلان عن النصر النهائي... الإعلان عن الحكم الذاتي لكردستان.
انعكس فرح الرجال وتناقلهم كلّ هذا الكمّ الهائل من أخبار الانتصارات على سلوك الجميع. فكانت الأُمّهات أقلّ غضباً من سلوك أطفالهنّ المشاكس، وأكثر رقّةً وتسامحاً في تقبّله. ازدانت ملابس الفتيات بألوان كانت تبدو كأنّها خُلقت للتوّ. أمّا نحن، فبالتزامن مع تلك الانتصارات، كانت معاركنا مع زمرة سعيد الحاج علي، تشتدّ... وتشتدّ معها حماسة أناشيدنا أكثر فأكثر. كنت أُراقب الرجال الملتمّين كالعادة حول المذياع، وكلّي إيمان معهم بأنّ ذلك اليوم قد يكون هو اليوم الأخير للثورة وبُعدنا عن بيوتنا. تخيّلتُ نفسي في محلّتنا القديمة أركض بفرح غامر نحو دارنا، وأدخلها وأتمرّغ في الحديقة وأصعد على السطح راكضاً لأطمئنّ على تماثيل الطين التي كنت أصنعها وأُخفيها هناك خوفاً من غضب أمّي. كنتُ منتشياً بتلك الخيالات حين قَطَعها عليّ صوت تكسّر المذياع على صخرة محاذية للخيمة، ونحيب بعض الرجال وهم مذهولون من سماع البيان الذي يُعلن أنّ هذا هو اليوم الأخير وأنّ بثّ البرامج سيتوقف منذ يوم غد.
في البداية، لم أفهم شيئاً ممّا يُقال ويدور. ثمّ... ما هذا؟! ألم نكن ننتظر اليوم الأخير للثورة وإعلان انتصارها؟ أليس هذا ما كُنّا ننتظره بلهفةٍ متزايدة كلّ يوم؟ ألم نكن نتوق إلى الإعلان عن نهاية الثورة؟ ما الذي حدث إذن؟! لماذا تحوّل رقص الرجال على طريقة الدبكة الكردية المعتادة إلى نحيب تجاوز كلّ حدود خجل الرجال من البكاء، بحيث كان بعضهم يُهيل التراب على رأسه وينتحب بكلمات متقطّعة غير مفهومة؟ أهكذا تكون النهايات السعيدة؟! أهكذا تكون طريقة الناس في التعبير عن فرحهم بالاحتفال النهائي؟!
فجأة! ودون سابق إنذار، كُسِرَتْ لعبتنا الوحيدة أشلاءً. لكن لا كمذياع جارنا البدين، على الأرض أو على صخرة قاسية عاندت معاول أصحاب الخيمة، بل على رؤوسنا نحن... مع أنّني لا أذكر أنّي تلقيتُ هديّة أو لعبة أطفال، إلّا أن الثورة كانت حقاً هديّتي ولعبتي الأجمل. نعم، كُنّا حينها أصحاب أجمل الهدايا وأكثر الألعاب إثارةً ومتعةً. فجأة! وعلى غفلة... كأنّ يداً خفيّة حملت اللعبة وهوت بها بقوّة وحوش حكايات جدّتي على رؤوسنا، فأصبح الذهول سيّد الحال... كان الكلّ يبكي ويلطم. كان المشهد غريباً إلى درجة أنّ أحداً لم يكن يجد في نفسه القوّة ليهوّن على أقرب الناس إليه. يومها، حين سمعتُ الخبر، دخلتُ في ذهول أصابني بالصمم والخرس دفعةً واحدة. كان الكلّ يبكون ويصيحون ويهيلون التراب على رؤوسهم في مشهدٍ أشبه بالأفلام الصامتة بالنسبة إليّ.
عندما هزّتني أُمّي المنتحبة بكلّ قوتها تطلب منّي الذهاب إلى خيمة جارتنا أُمّ خالد التي عاد زوجها للتوّ من الجبهة، للسؤال عن أبي، لم أعلم حينها، وحتّى هذه اللحظة، كيف انفجرتُ باكياً؟ هل كان بكائي خوفاً من احتمال عدم عودة أبي، أم من هول الكارثة، وأنّ احتمال غياب أبي النهائيّ أجّج نيرانها هكذا بقوّة؟ في تلك اللحظة، كنتُ أشبه بالطير الذي يراقِصُ وليفهُ وتصيبه فجأةً رصاصة، فيتقافز في مكانه دون أن يُدرك، هل لا يزال مستمرّاً في الرقص حقّاً، أم هي سكرات اللحظات الأخيرة؟ في تلك اللحظة، كنتُ كالطفل المدلّل صاحب اللعبة الأغلى والأجمل، الذي شعر بضربةٍ قويّة على رأسه، فإذا به يبحث عن لعبته ولا يجدها، لأنّها قد هوت على رأسه بقوّة وتحوّلت إلى أشلاء، بحيث لم يعد ولا جزء واحد منها يُرى بالعين...
لم أذهب إلى خيمة جارتنا أُمّ خالد، بل أُصبتُ بحالة انهيارٍ ممزوجةٍ ببكاء ينهال داخل الصدر، كحزمة طعنات متتالية من سكاكين صدئة... وللمرّة الأولى في حياتي، شعرتُ بألمٍ قاتل في

صدري، ظلّ يُلازمني في ما بعد وحتّى هذه اللحظة. كنتُ مستلقياً على وجهي، أبكي وأضرب الأرض بكفّي، وأصرخ من آلام صدري الفجائيّة، بينما كان بعض التراب يتسلّلُ مع كلّ شهقة بدت لي كأنّها الأخيرة، إلى حلقي وعيني. عندما عادت أُمّي وحاولت تهدئتي وهي تبكي بحرقة، ضمّتني إلى صدرها بقوّة وحاولت أن تمسح دموعي التي اختلطت بالتراب وبدموعها الغزيرة. قالت في حشرجات، بالكاد فهمتُ منها أنّ أبي لم يعُد، لكنّ أبا خالد رآه للمرّة الأخيرة، وأنّه، حسب كلام أبي خالد، أخبرهم بأنّه لن يرمي سلاحه، وأنّه قد انتقل إلى مناطق القتال الشرس...
بالكاد استطعتُ، من بين حشرجاتي ودموعي، أن أستفسر من أُمّي عن حقيقة ما حدث ويحدث. نظرتْ إليّ بانكسارٍ، وقد غادرها الدمع للتوّ، وانفجرت من جديد باكيةً بقوّة أكبر، قائلةً: يقولون إنّ الثورة انهارت، لقد انتهى كلّ شيء، إنّها النهاية... لقد ضعنا، وضاع كلّ شيء. يا لهفي على ضياع كلّ شيءٍ هدراً! يا لهفي على دمك الذي ذهب هباءً يا أخي الغالي، يا قرّة عيني...
انتزعتْ صورة خالي من زاوية الخيمة وضمّتها إلى صدرها وهوَت عليها تبكي وتنتحب وتهيل التراب على رأسها وتلطم على وجهها بقوّة. كان المشهد صورةً طبق الأصل من ذلك اليوم الذي عاد فيه خالي للمرّة الأخيرة في نعش. لكنّ بكاء أُمّي ونحيبها كان أكثر حرقةً هذه المرّة. كان أشبه برقص الطير المذبوح، وظلّت على هذه الحال، إلى أن خرّت على ظهرها مغمضة العينين لا حراك فيها... لكنّني خلافاً لكلّ مرة، حيث كنتُ أجلس إلى جانبها، ملتصقاً بها وهي تبكي غياب خالي الشهيد، أو كنتُ أرتمي في حضنها أُشاركها حفل النحيب المتكرّر، تسمّرتُ هذه المرّة في مكاني... جفّت دموعي على آخرها... وكنتُ أنظر بجمودٍ وبلادة ولا أباليّة غريبة إلى أُمّي المرميّة على الأرض دون حراك، وقد التمّت حولها نساء الجيران وفتياتهم...
كان ذلك هو بعينه...
نعم، كان ذلك اليوم هو يوم الانهيار الأكبر الذي لم يعُد فيه أبي...

9

«إذا رماك المعشوق الثمل بحجر، فهذا أفضل من أن تنال جوهرة من غيره».
فريد الدين العطّار

يااااااه!

يا للشيخ كاكه حمه وأفضاله التي لا تنتهي...

وأخيراً... بعد أشهر طويلة من الهذيان والهلوسات، لَمحتُها وهي تجتاز المعبر الذي يربط تكيّة الشيخ بداره العائليّة. نعم، إنّها هي... لا يُمكن أن أُخطئها من بين كلّ نساء الأرض. نفس النظرة الساحرة التي تتغلغل برقّة لكنّها تصيب العمق في مقتل. ولو أخطأتُ أيّ شيء آخر، فإنّني يستحيل أن أُخطئ هذه النظرة التي هي نفس تلك النظرة الأولى بكلّ تفاصيلها. وكأنّني أرى امرأةً لأوّل مرّة في حياتي. في البداية، ظننتها نوبة هلوسة ناجمة عن مفعول الكحول. لكن عندما عادت محمّلة بطفلٍ تجتاز به المعبر مرّة أخرى، وهي تنادي أحدهم من داخل التكيّة لتسلّمه الطفل، أيقنتُ بأنّها حقيقيّة، وليست وهماً ناتجاً عن هلوساتي المتكرّرة.

لكن، من تكون هذه الإنسيّة النازلة برقّة الجنّيات؟ وماذا تفعل هنا في تكيّة الشيخ من جديد؟ ثمّ، مهلاً! من يكون الطفل الذي كانت تحمله وسلّمته لذلك الرجل في التكيّة؟ كنتُ أرتجف من شدّة أحاسيس شتّى اختلطت عليّ وتعقّدت، بحيث لم أعد أستطيع أن أميّز أيّاً منها، هذه الأحاسيس التي تجمّعت وشكّلت إحساساً طاغياً، جميلاً، رقيقاً، لذيذاً لم أُجرّبه من قبل. وعلى غفلةٍ، انتابتني موجة ذعر نتيجة التفكير في هويّة الطفل. للحظةٍ واحدة شعرتُ بنهاية الكون وأنا أُفكّر «ماذا لو كان ذلك الطفل ابنها؟».

سألت عنها بعض الأهالي، ولمّا أخبروني حقيقة هويّتها أُصبت بصدمةٍ كبيرةٍ مصحوبةٍ بموجة امتنان قويّة تجاه الشيخ وكرمه الشديد. أيُعقلُ أن يكون الشيخ كريماً معي إلى كلّ هذا الحدّ؟ نعم، لقد كان ذلك أهّم وأكبر أفضال الشيخ عليّ إطلاقاً. فلم يكن فضله محصوراً في إطار أنّني وجدتها أخيراً في تكيّته المباركة وحسب، لا بل كما أخبرني بعض الأهالي: «إنّها ابنة الشيخ.. نعم، إنّها ابنته المدلّلة. وإيّاك.. ثمّ إيّاك والتقرّب منها. فإن علم إخوتها بمن يقترب منها، فلن يتردّدوا في قتله لحظةً واحدة».

– لا تنسَ يا آتيلا أنّها ابنة الشيخ، وإن علم بالأمر فقد يدعو عليك أو يسخطك كائناً قبيحاً ذليلاً بائساً.

ما كان يهمّني من كلّ كلامهم المليء تحذيراً ومخاطر ودماءً، هو أنّهم بيّنوا لي أنّها لا تزال غير متزوّجة، وأنّ هذا الطفل قد يكون لإحدى نساء القرى المجاورة، وأنّ فتاتي الفاتنة الخدوم حمَلته للتكيّة لعرضه على الشيخ طلباً للدعاء والشفاء من مرض أو وباء ما. زالت جميع مخاوفي، وأصبحت الدنيا أحلى بعيني أكثر من ذي قبل. يااااااه! يا إلهي، شكراً لك لأنّ انتظاري وكلّ عذابي لم يذهبا هباءً. المهم أنّها حطّمت كلّ جدران الهذيان والهلوسات، وغزت الواقع واحتلّته بجبروتٍ غريبٍ على رقّة مثل هذه الكائنات. وبهذا، دخلتُ مرحلةً جديدةً من حياتي.. مرحلة، صبغتها الشيخة فاطمة، ابنة الشيخ كاكه حمه البرزنجي، وفقاً لمزاج ملابسها ونظرتها. فقد كنتُ ألمحها بين الفينة والأخرى، كنتُ أحترقُ شوقاً، وممنوع عليّ حتّى البوح لأحد خوفاً من الفضيحة. وكلّما

كانت تراودني هذه الأفكار كنتُ أستسلم لذعري بالكامل من أن تكون هذه الفتاة تكرهني، وألّا تكون تلك النظرات سوى نظرات كراهيّة سوّغتها لي موجات الهلوسة على أنّها نظرة حبٍّ وهيام.
ومع ذلك، كان الشيء الوحيد الذي يُصبّرني ويحيل خوفي ذاك إلى حالة امتنان غريبة، هو أنّني كنتُ أعود لأقول في نفسي: «كلّ شيء أفضل من عدم اكتراثها». فكنتُ أقبلُ، حتّى لو كانت تلك نظرات استياء وكراهية، فهي أفضل بالتأكيد من اللا نظرة. فماذا كنت سأفعل لو لم ألفت نظرها حتّى لو كان ذلك بسبب الاستياء؟ كان ذلك الإحساس يملأني بالرعب من الاحتقار في ما بعد، وحين اطّلعتُ على «الكتاب»، كنت أرى نفسي في تلك المرحلة أشبه بحالة إبليس وهو يتمرّد على أمر الله... رافضاً السجود لآدم، إذ يروي الهدهد «إنّ الله عندما نفخ الروح الطاهرة في جسد آدم المكوّن من ماء وتراب، طلب ألّا يدرك الملائكة كلّهم أيّ خبر عن الروح أو أيّ أثر، ثمّ قال يا ملائكة السماء، اسجدوا لآدم في هذا الزمان، فسجد الجميع حيث وضعوا جباههم على الأرض، لذا ما أدرك أحد منهم ذلك السرّ الأكبر، ولكنّ إبليس قال في التوّ والحال: لن يرى منّي أيّ شخص سجدة، فإن يقطعوا رأسي عن جسدي، يكن ذلك أهون عليّ من السجود، إنّني أعرف أنّ آدم ليس ترابيّاً، لذا أنا على استعداد لأن أضحّي برأسي لأعرف السرّ مهما كانت العواقب.
وهكذا أدرك إبليس السرّ الخفيّ لأنّه لم يضع رأسه على الأرض. فقال الحقّ تعالى له: يا جاسوس الطريق، لقد كنت لصّاً سارقاً في هذا المجال، وبما أنّك رأيت ذلك الكنز الذي أخفيته، فسأقتلك حتّى لا تفشي في الدنيا سرّه، وذلك لأنّ الملك أراد إخفاء كنزه، وأنت رأيت الكنز فمن الضروري مجازاتك بقطع الرأس. فإن لم أفصل رأسك عن جسدك في هذه اللحظة، فسيكون العالم بلا ريب تحت إمرتك.
قال إبليس: يا إلهي، لتمهل هذا العبد والتمس الحيلة لمن سقط. فقال الحق تعالى: لقد أمهلتك ولكنّني طوّقت رقبتك بطوق اللعنة، وسأطلق عليك لقب «الكذّاب»، حتّى تظلّ إلى يوم القيامة متّهماً.
قال إبليس بعد ذلك: إن كان الكنز الطاهر بدا لي، فأيّ خوف يعتريني بعد ذلك؟ اللعنة صادرة عنك وكذا الرحمة، والعبد عبدك ومنك الحظّ والقسمة. فإن كانت اللعنة من نصيبي، فلا خوف يعتريني، وما دام الترياق موجوداً، فلا بدّ من وجود السمّ. فما إن رأيت الخلق يطلبون رحمتك، حتّى آثرت أن أحظى أنا عديم الخلق بلعنتك، أوَليس للعنتك عبيد مثلما لرحمتك؟ إنّني عبد لعنتك الذي لا يتخلّى عنها مطلقاً».
حسبتُ نفسي أكثر الناس حظّاً في الدنيا. فقد حظيتُ منها بنظرة، حتّى إن كانت نظرة كُرهٍ واحتقار، فما أحلى أن تكون لعنتها من نصيبي أنا وحدي؟!
كانت هذه المرحلة هي مرحلة التصاقي الكامل بالقرية والاندماج فيها بكلّ ما أمتلك من جوارح. كنت كلّما خرجتُ لمعالجة مريض أو مداواة جريح، مهما كانت القرية بعيدة، ومهما كانت الظروف الجويّة قاسية، أُصرّ على العودة إلى بيتي في القرية التي أصبحت لا تعني لي سوى فاطمة، فلم أعد أقوى على البقاء بعيداً عن القرية التي كانت تتنفّس فاطمة حتّى لليلةٍ واحدة... بقيتُ على هذه الحال ممزّقاً بين سعادة تطال مستوى الخرافة بالعثور على فتاة أحلامي وهلوساتي، وبين رعب يجمّد مفاصلي من عدم تأكّدي من مشاعرها تجاهي وبين جنونٍ يكاد ينفجر نتيجة عدم إيجاد تفسير لتكرار نفس النظرة بتفاصيلها الدقيقة في كلّ مرة ألقاها صدفةً وبلمح البصر. فكنتُ أعود في النهاية لأقول: حتّى إن كانت نظرة احتقار وكراهية فإنّني ممتنّ لها ولن أتخلّى عن هذه اللعنة مطلقاً... فما أسعدني بها!

استمرّ هذا الوضع اللانهائيّ المضني لمدّة عجزتُ فيها عن حساب الأيّام والشهور، فتصوّرتها دهراً، إلى أن حلّ ذلك اليوم الفاصل الذي جاء فيه أحد الرجال يطلب حضوري أمام الشيخ، فذهبت إلى التكيّة وأنا مرتعد وأرتجف هكذا من دون سبب مفهوم. كان سبب استدعائي من قبل الشيخ هو الطلب منّي الاعتناء بفرسه الخليّة المريضة منذ يومين. تلك الفرس التي كانت لا ترتاح ولا تستكين إلّا للشيخ وزوجته وابنتهما فاطمة. حتّى أولاد الشيخ الذكور، كانت هذه الفرس ترفضهم جميعاً، فكان محرّماً عليهم التقرّب منها.

يا لتلك الأيّام، ويا لرقّة الشيخ وعذوبة كلامه! فحتّى لو كفرتُ بكلّ شيء.. حتّى لو كفرتُ بكلّ الكائنات.. لا يجوز أن أكفر بتلك الذكريات، خصوصاً سماحة الشيخ وطيبته وكرمه، ذلك الشيخ الذي لا أستطيع أن أقول إنّني اهتديت على يديه، لكن المؤكد هو أنّني أعلنت توبتي أمامه. فإكراماً للشيخ، واحتراماً لكلّ تلك الأيّام المليئة بنبض الحياة وصدقها وبراءتها وبساطتها، لن أعود للخمر والإدمان مرّة أخرى. وسأترك هذه الكأس ولن أعود للمعاصي. كما أعلنتُ ذلك أمام الشيخ في تكيّته وأمام يديه الكريمتين... وقمتُ أُصليّ للمرّة الأولى في حياتي، صلاتي التي لم تستطع أيّ ظروف، مهما كانت صعوبتها، منعي من إقامتها في ما بعد. حتّى تشكيك أبي سعد في صلاتي وتندّره على الطريقة التي أؤدّيها بها، لم تجعلني أتشكّك فيها وفي أسلوبها. فقد كان المهم هو أنّني تعلّمتُ الصلاة من الشيخ وعلى طريقة ومذهب الإمام الشيخ كاكه حمه البرزنجي، ولا تهمّني بقيّة التفاصيل والخلافات حول طريقة وأسلوب أدائها.

10

«إن كنت مجروحاً فلا تنطق بكلمة واحدة عن الدواء، واكوِ جرحك ولا تنطق بحرف».
فريد الدين العطّار

ها هم يهيلون التراب على تلك الأجساد الكريمة التي بذلت الروح دون انتظار أيّ مقابل. ها هم يوارون في هذه المقبرة العامرة بعبق الشهداء، أكرم الناس وأكثرهم سخاءً في البذل. فحتّى بعد دفنهم، يُحيلون المقابر الموحشة التي يسكنونها إلى أماكن عامرة بعبقٍ يضفي السكينة بدلاً من الخوف على كلّ من يمرّ بجوارها. فهل يا تُرى ستكون هذه الأجساد كغيرها موائد للدود؟ يا دود العالم كلّه، ملعونة أنتِ إن اقتربتِ من جثمان شهيد من أيّ ملّة وقوم ودين.. ومن أيّ زمان ومكان.

طلب الرجل المعمّم من الجميع أن يجلسوا وبدأ مراسيم الدفن بتلاوة نصوص التلقين الأخيرة: بسم الله الرحمن الرحيم...

كلّ نفس ذائقة الموت

(...)

وما تدري نفس بأيّ أرض تموت...

لم أستطع الجلوس كالآخرين وتسمّرتُ في مكاني. وها هي تنهال عليّ كما التراب الذي وارى منذ قليل أجساداً كانت إلى ما قبل ساعات معدودة تتفجّر حياةً وعنفواناً، وتدحر الموت وتزرعه في أجساد أعدائها... ها هي الذكرى تنهال عليّ من جديد، وتعزلني عن الجميع وتغطّيني وحيداً مع ديدان مخاوفي وهواجسي حول جدوى تعبّد آتيلا من عدمه، وعن مصير قنّينة العرق التي انتزعها منّي ليلة أوّل من أمس. ها هو ينهض بشحمه ولحمه ولحيته الكثّة الكثيفة ويُخاطبُ أبا سعد الذي كان يُمازحه حول صلاته مُذكّراً إيّاه بأيّام السكر والعربدة، قائلاً: استغفر الله يا رجل، استغفر ربّك، فكلّنا للدود ولن يبقى لنا سوى إيماننا وعملنا الصالح حين نقابل وجه ربّ كريم وحيث لن ينفعنا مالٌ ولا بنون.

ردّ عليه أبو سعد ممازحاً: عن أيّ مال وبنون تتحدّث؟ أنت تعرف أنّنا تركنا كلّ ذلك للمؤمنين أمثالك، أمّا نحن، فليس لنا سوى بنادقنا وقضيّتنا وقطعة أرض نُدفن فيها مرفوعي الرأس.

احتقن آتيلا وردّ عليه بلهجة المحذّر: ومن قال إن الله عزّ وجلّ سيمنحك هذه القطعة؟ فما تدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت...

يااااااه!

وما تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت...

بينما يسيطر عليّ هذا القول المتكرّر «ما تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت»، أتوهُ في لغز قطعة الأرض التي يُمكن أن يكون أبو سعد دُفن فيها. يا هل ترى، أين تقع؟ وهل تحمل شاهداً شامخاً كما يتمنّى جميع الناس، أم هو لم يحصل حتّى على ذلك؟ وما قيمة كلّ هذه الأمور أمام ردّ أبي سعد على آتيلا يومها حين خاطبه ممازحاً، بطريقة يملأها الودّ تصاحبها ضحكةٌ رقيقة: وهل يهمّ بأيّ أرضٍ نموت؟ نحن لم نترك ديارنا وأهلنا وحبيباتنا لكي نبحث عن قطعة الأرض التي نُدفنُ فيها... دع عنك كلّ حديث الآخرة هذا، وقل لي كيف تؤدّي صلاتك؟ هل هي على طريقة أبيك التركماني الشيعي أم على طريقة أمّك الكرديّة السنّية؟

لم أرَ آتيلا مرتبكاً بهذا القدر من قبل. بعد شيء من التردّد، قال بارتباك يروم الحسم: لا أعرف، فلم أرَ أبي يصلّي يوماً، ولم أُدقّق في صلاة أمّي وذلك لتيهي وانغماسي في الدنيا وملذّاتها. لكنّني الآن بعدما هداني الله وأعلنتُ توبتي أمام الشيخ فأنا والحمد لله مسلم أؤدي صلاتي على طريقة الإمام الشيخ كاكه حمه البرزنجي و...
قاطعه أبو سعد بابتسامةٍ مشاكسة: الإمام الشيخ كاكه حمه البرزنجي، أم... الإمامة الشيخة فاطمة البرزنجي؟
وغرقنا نحن الثلاثة في ضحكة جميلة تتفجّر فرحاً وصدقاً يتجاوز كلّ الخطوط الحمر الإيديولوجية المرسومة بالدم والبارود. لم يعكّر صفو تلك الجلسة المحرّمة علينا سوى نقاشي المحتدم مع أبي سعد الذي نكأ عليّ كلّ الجراح المتوارية وجعلني أتخبّطُ في بركة دم تجمّعت فيها كلّ الدماء التي شهدتها.. دماءُ من استشهدوا قبل أن أولد.. كلّ الدماء التي نَزفتها أمّي وهي تلدني بكلّ تلك الصعوبة وفي غياب أبي.. دماءُ من شهدتُ حكايات استشهادهم بأساليب بطوليّة تفوق خيال جدّتي في حكاياتها القديمة المتجدّدة. أحسستُ بآلام نزف كلّ تلك الدماء وأنا أناقش للمرة الأولى أسباب حدوث الانهيار الأكبر مع أبي سعد.
– هكذا هي حال الإقطاع والبرجوازية، عندما تنهارون تعلّقون هزائمكم على شمّاعة المؤامرات الدوليّة. إن حركتكم كانت من الأساس محكومةً بالانهيار لأنّها كانت حركةً إقطاعيّة مرتبطة بدوائر الإمبرياليّة والصهيونيّة العالميّة، وهي كعادتها خذلتكم فكان الانهيار محتوماً.
– إقطاعيّة.. وإمبرياليّة.. وصهيونيّة.. وبرجوازيّة؟ على رسلك، أخبرني أوّلاً هل أنت مناضلٌ أُمميّ من الأنصار كما تدّعون، أم ما زلت شوفينيّاً في داخلك، ككلّ ماركسيّ يدّعي الأمميّة وحقّ الشعوب في تقرير مصيرها، بينما الحقيقة هي أنّكم لا تستهدفون من هذا الكلام سوى استعباد الشعوب الأخرى وتوظيفها خدمةً لأغراضكم في تحقيق أهدافكم القوميّة الضيّقة؟
قاطعني بنبرة رافضة: نحن...؟
لم أدع له المجال ليكمل. كنتُ غارقاً في بحور كلّ الدماء التي نزفناها لعقود.. كنتُ كمن يخوض البحر وحيداً، يجذف بلا هوادة، مضطرّاً لفعل أيّ شيء من أجل الوصول إلى برّ ما، أو حتّى التمسّك بقشة حدّ الحياة. لم أسمح له بمقاطعتي، فقاطعته بنبرةٍ حاسمة: نعم أنتم.. أنتم، وكلّ زعمائكم في كلّ مكان. صحيحٌ أنّ أميركا قد خذلتنا كما تقول، لكن ماذا كان دور الاتحاد السوفييتي في كلّ ذلك؟ ألم يكن هو من دعم النظام في تأميمه للنفط وحصوله على كلّ تلك الأموال الطائلة التي جناها من نفطٍ نابع من أرض كردستان؟ ألم يكن، ولا يزال جميع السلاح، الذي يُحاربنا به النظام، روسي الصنع؟
قاطعني بعصبيّة: لن أسمح لك بالحديث عن الاتحاد السوفييتي بهذه الطريقة. وما هو نوع سلاحك، أليس كلاشنيكوفاً سوفييتيّاً؟
– روسي.. لا سوفييتي، إنه كلاشنيكوف روسي. وما الاتحاد السوفييتي سوى الكذبة التي تغطّي استعباد الروس لبقيّة شعوب ذلك الاتحاد القسري. أجل، إنه كلاشنيكوف روسي، لكنّه لم يأتِني كما يحلو لكم القول هديّةً من اتحادكم السوفييتي دعماً لثورة شعب كردستان، بل غنمتُه من جيش حليفكم وحليف اتّحادكم السوفييتي، نظام البعث الاشتراكي جداً.
– البعث ليس حليفنا، بل عدوّي كما هو عدوّك. أم تُراني موجوداً هنا للنزهة والصيد؟ ألا ترى كيف تركتُ الحياة وما فيها من أجل بناء الأُمميّة التي ستحرّر كلّ الشعوب من نير الإمبرياليّة

وعملائها؟ فنحن، بالإضافة إلى محاربة البعث، ابتُلينا بمحاربة برجوازيّتكم القوميّة الرجعيّة أيضاً.
– أتخدع نفسك أم تحاول خداعي؟ ألم تكونوا مع البعث في الجبهة التي تآمرت لإجهاض الثورة؟ لو لم تكونوا أنتم ومرجعكم السوفييتي، لكان النظام على وشك التسليم بمطالب الثورة وشروطها. لكنّكم أنتم وأُمميّتكم الفاشيّة، منعتمونا من الانتصار. حتّى المؤامرة الدوليّة، فإنّها حُبكت ونُفّذت في الجزائر الاشتراكيّة.
ردّ أبو سعد ساخراً: أنا لا ألومك، فهذا هو منطق كلّ بورجوازيّ صغير متلبّس بلبوس المذهب الماويّ...
– أنا لست ماويّاً، ولا حتّى ماركسيّاً.. فأنا لم أترك آلهة السماء ومذاهبها لأستبدلها بآلهة الأرض الزائلة...
حينها تدخّل آتيلا مكرّراً قوله: أستغفر الله... أستغفر الله... يا جماعة، تعوّذوا من الشيطان وصلّوا على النبي، فكلّنا إخوة.
انفجرنا في ضحكة أعادت مسح الخطوط الحمر التي تحرّم علينا جلسةً كهذه. فلو علمَتْ قيادتهُ أو قيادتي بمثل هذا اللقاء، لدخل كلّ منّا في تحقيقٍ وسين وجيم ليس له آخر. وقد ينتهي بإعدامنا بتهمة التقائنا بأحد أفراد العدوّ... وعلى صوت ضحكتنا التي أعادت الصفاء إلى جلستنا السرّية المحرّمة بالدم، أخرج أبو سعد من حقيبته قنّينة عرق وقال ضاحكاً: لنشرب نخب اجتماع الإخوة الأعداء ونتناسَ لبرهة بحور الدم التي نخوض فيها بعضنا ضدّ بعض. أم إنّ الله هداك أنت أيضاً، وستقول لي إنّك لن تشرب؟ هذه القنّينة وصلتني من المدينة قبل أشهر، فبقيت محتفظاً بها حتّى أحضرها لآتيلا هديّةً عزيزة. أمّا وقد وصلت الحال بأخينا إلى ما هو عليه، فإنّها لن تغلو عليك.. تعالَ ولنشرب نخب هذه الجلسة المحرّمة التي لن تتكرّر أبداً.
حاول آتيلا منعنا بكلّ قوّته لكنّه تراجع أمام حالة الصفاء الأخويّة التي غمرتنا بعد إنهاء نوبة العداء، وانطلاق حالة الحب والبراءة التي نزلت علينا من حيث لا ندري. لكنّه ظلّ يكرّر باستمرار قوله: أستغفر الله... أستغفر الله. وكلّما تغلغلنا في عمق الليل كانت الأغاني الكرديّة والعربية التي غنّيناها أنا وأبو سعد أثناء جلستنا المحرّمة لدينا بالدم، والمحرّمة في حسابات آتيلا بالخمر، تمسح أكثر فأكثر الخطوط الحمر وتحيلها بيضاء بلون العرق الذي كنّا نحتسيه بأقصى درجات الحبّ... وألحّ أبو سعد على آتيلا لكي يغنّي مُذكّراً إيّاه بأنّه لا يمكن أن ينسى صوته الجميل أثناء جلسات السمر في الأيّام الخوالي. لكنّ آتيلا ظلّ ممتنعاً، وتحت إلحاح أبي سعد لكي يُسمعني أنا الذي لم أكن قد سمعت صوته وهو يغنّي بعد، رضخ آتيلا مع ترديد قوله: أستغفر الله... أستغفر الله.
صدح بالأبيات الشهيرة، للشاعر الكردي الكبير هيمن موكرياني، التي غنّاها المطرب الكردي المشهور من كردستان الإيرانية محمد ماملي: «الشيخ صنعان، ارتدّ عن الإسلام من أجل ابنة النصراني، بينما أنا على وشك التندّم عن الحانة من أجل ابنة الشيخ». وصفّقنا أنا وأبو سعد بانتشاء. كنتُ قد سمعته صدفةً وهو يؤذّن عدّة مرّات، ومع عدم اكتراثي بالأذان، فإنّ حلاوة صوته كانت قد لفتت انتباهي، لكنّني لم أكن أتصوّر أبداً أن تكون على تلك الدرجة من العذوبة والتميّز. أحسستُ به يغنّي حاله بأفضل حتّى ممّا جادت به قريحة هيمن أو حتّى حنجرة ماملي.
حين أنهى أداء الأغنية، كان قد تعرّق كثيراً. قلت له بلهجة ملؤها الحبّ ومشوبة ببعض المشاغبة: طوبى لك يا دكتور، فأنت أكثر تقوى حتّى من الشيخ صنعان نفسه، فهل تعرف حكايته بالضبط؟

مسح عرقه وهو يستغفر الله على مشاركتنا جلسة السمر بالغناء، ثمّ بدأ يقصّ الحكاية كما سمعها متداولةً بين الناس. فقلت له: إنها ليست حكاية شعبية كما هي متداولة ووصلت إليك وحسب، لقد تغنّى بها الشاعر الكُرديّ فقي طيران أيضاً، في ملحمة شعريّة طويلة.
هنا قاطعني أبو سعد بلهجةٍ ملؤها الحبّ الممزوج ببعض المشاغبة: حتّى هذه تريد تكريدها؟ إنّها قديمة جداً. لكنّ أشهر من تغنّى بها هو الشاعر والمتصوّف الكبير فريد الدين العطّار في كتابه «منطق الطير»، حتّى إنّه مترجم للعديد من لغات العالم.
أجبته: حسناً أيّها الأممي، حتّى ملحمة الشيخ صنعان لفقي طيران، فإنّها مترجمة للغات عدة، ومنها الروسيّة، ومخطوطتها موجودة في المكتبة العامة في لينينغراد. وقد ترجمتها رفيقتكم مارغريت رودينكو على ما أذكر، أم أنت لا تأخذ بها لكونها كرديّة في الأصل؟ يبدو أنّه لا فرق بين موقف أمميّة اشتراكيّة ملحدة، وأُمميّة إسلاميّة مؤمنة، ما دامت مكتوبة بالكُرديّة.
أجابني ساخراً: يا صديقي القوميّ الرجعيّ، «منطق الطير» كتبها العطّار بالفارسيّة، والعرب هم آخر من ترجمها، ومع ذلك، أسمِعنا نسختك الكُرديّة حتّى أُسمعكم نسخة العطّار.
أجبته: كلّا، يجب أن نسمع نسختك أوّلاً...
– حسناً، قصّة الشيخ صنعان هي واحدة من الحكايات التي يزخر بها كتاب «منطق الطير» الذي يتحدّث عن رحلة الطيور للوصول إلى الإله، أو حضرة العنقاء، أو السيمرغ بالفارسية. وبالمناسبة، فإنّ عبقرية العطّار لا تتفجّر في دلالات الرحلة والوصول سوى باللغة الفارسيّة. فمن بين آلاف الطيور التي تعبر أودية سبعة قاسية، لا يتمكّن من الوصول إلى جبل القاف حيث تتربّع العنقاء، أو السيمرغ، سوى ثلاثين طيراً فقط، وتكون نهاية الرحلة بأن يدخل الثلاثون طيراً ليشهدوا شمساً عظيمة ساطعة كالمرآة، وليجدوا أنفسهم في مواجهة أنفسهم، أي الثلاثين طيراً... فهل تفهم الفارسيّة، أم أشرح لك الدلالات؟
– للأسف! أنا لا أجيدها، مع أنّني لم أربط معنى الحركة الأخيرة.
– كما قلت لك، المسألة تكمن في لعبة داخل اللغة، مارسها العطّار بإتقان عجيب، حيث إن الطائر الواحد يُسمّى بالفارسية (مُرغ) وكلمة (سي) تعني العدد ثلاثين.
– نعم حتّى نحن، نقول سي.
– إذن! كما ترى، فحينما يصلون إلى اكتشاف السيمرغ الذي قطعوا كلّ تلك الأهوال ليلقّبوه ملكاً عليهم، لم يجدوا سوى انعكاسٍ لصورهم وهم (سي) (مُرغ)، أي ثلاثون طيراً.
– يا إلهي! كم هي رائعة.
– نعم، هذه قضية معقّدة، ولنعد الآن إلى قصّة الشيخ صنعان، وهي أطول القصص التي يتضمّنها كتاب «منطق الطير» وأكثرها أهميّة. ملخّص القصّة يقول: إنّ شيخاً عابداً كان قد اعتكف في الحرم خمسين عاماً، ترك مكّة مع مريديه لأنّه رأى في المنام أنّه يسجد للصنم في بلاد الروم. فرحلوا جميعاً، وعند وصولهم رأى فتاةً مسيحيّةً فاتنة الحُسن، فوقع في حبّها من النظرة الأولى وفقد عقله وأصبح وصلها شغله الشاغل. فطلبتْ منه أن يشرب الخمر ويسجد للصنم ويحرق القرآن. فقبِل بشرب الخمر في البداية قائلاً لها في ما بعد: بما أنّي ثملتُ يُمكنني أن أحرق القرآن على أعتاب الصنم.
ما إن سمع مَن في الدير بالحكاية، حتى أخذوه إليهم فعقدوا حوله الزنّار وحرق هو خرقته، بعد أن ارتدّ عن دينه وقبِل الدخول في المسيحيّة. ومع إلحاحه على الفتاة، اشترطت عليه أن يعمل راعياً

للخنازير لمدّة عام كامل، فقبل الشيخ... ولما فشل مريدوه في إعادته إلى صوابه، قفلوا عائدين إلى مكّة. هنا تدخّل صديق مكّي للشيخ ورحل مع مريدي الشيخ إلى بلاد الفتاة مجدّداً. وظلّوا يدعون ويتضرّعون مدّة أربعين ليلة إلى أن رأى أحدهم في المنام، محمّداً، وهو يقول إنّه جاء لكي يشفع للشيخ. وتقول الحكاية إنّ الشيخ عاد إلى رشده وارتدى الخرقة من جديد وعاد إلى مكّة. لكنّ الفتاة حلمت بدورها أنّ الشمس قد سقطت بقربها وطلبت منها اللحاق بالشيخ، فرحلت وراءه، وما إن تصل إليه وتعلن إسلامها حتّى تموت بين يديه.

وحين حان دوري، قلت: أعترف بأنّها حكاية رائعة، لكنّها تختلف بعض الشيء عن النسخة الكرديّة، سواء المتداول منها شفاهاً أو ما كتبه فقي طيران شعراً.

– كيف تختلف؟ احكِها لنرى.

– بدايةً، لم يكن ما كتبه فقي طيران جزءاً من كتاب. بل كتبها أشبه بالملحمة المستقلّة على شكل رباعيّات. فالحكاية في نُسخها الكرديّة المتعدّدة شبه متطابقة، وهي قريبة كذلك من رواية العطّار. لكنّها تختلف عنها بحضور الشيخ عبد القادر الكيلاني في بعض الروايات، الذي يتضرّع إلى الله لكي يغفر للشيخ صنعان ويهديه من جديد. إلّا أنّ الغريب هو أنّ بعض الروايات تقول إن الشيخ صنعان كان مريداً لشيخ يُدعى الشيخ عطّار، وإنّه هو من تضرّع إلى الله يطلب له الشفاعة. وتقول الروايات أيضاً إنّ فقي طيران كان يجيد لغة الطيور والحيوانات. ومن ذلك أيضاً، جاء لقبه الذي يعني «فقيه الطيور».

قال أبو سعد: أعترف لك يا صديقي بأنّها رائعة حقاً، وتماماً كشاعرنا فقي طيران، حامت حول العطّار حكايات عجيبة، منها أنّه دخل عليه في متجر العطارة الذي كان يعالج فيه المئات من المرضى يوميّاً، درويش يطلب منه شيئاً لله، فلَم يُعِرهُ العطّار اهتماماً، فقال له الدرويش: كيف ستموت أيّها الرجل؟

فردّ عليه: كما تموت أنت.

فأجابه: حِملي أنا سهل، فأنا لا أملك سوى خرقتي وهذا القدح الخشبي، أمّا أنت فحِملك ثقيلٌ جدّاً.

ثم تمدّد ووضع قدحه تحت رأسه ومات. فترك العطّار كلّ شيء وتفرّغ للعبادة والتصوّف.

– يا إلهي! ما هذا، هل حدث ذلك حقاً؟! سأل آتيلا فجأة، والصدمة باديةٌ عليه.

– هكذا يُقال، لماذا؟ ما الذي لم يعجبك فيها؟

امتدّ صمت آتيلا المذهول، وما إن ألححنا عليه حتّى روى لنا حكاية ذلك الدرويش الذي جاء به رجال من طرف الشيخ لعلاجه، ومات على الأرض خارج الغرفة التي كنّا نجلس فيها ونحن في قمّة النشوة. فلم نتمالك أنفسنا من الذهول، لكنّني قلتُ له: إيّاك أن تتخلّى مثله عن عملك كطبيب، فنحن بأمسّ الحاجة إليك يا آتيلا الدين العطّار...

لكنّه بعدما أنهى كلامه، بدا كأنّه لا يزال غارقاً في ذهوله، لدرجة أنّه لم يسمعني، وقال لأبي سعد مباشرةً: يجب أن أحصل على ذلك الكتاب مهما كان الثمن...

وغرقنا في ضحكة صفاءٍ، مسحت جميع الحدود بيننا. شعرتُ وأنا أغرق في النوم ليلتها بأنّنا نذوب ثلاثتنا بالغرفة، وبالكون كلّه من حولنا...

11

«قال إبليس: ما دام الترياق موجوداً، فلا بدّ من وجود السُّم».

فريد الدين العطّار

يا إلهي! ماذا يعني ارتباط حياتي كلّها بالخمر، سواء أدمنتها أو تبت عنها أو امتنعتُ عن معاقرتها مؤمناً، أو حتّى في حالة الارتداد عن قبلتك والتوجّه صوبها في النهاية؟! لم أستطع أن أجد تفسيراً يوضّح لي سرّ انكشاف حكاية الشيخ صنعان والدرويش الذي يموت عند كلينا، والمزيد من علامات الشبه العجيبة بيني وبين فريد الدين العطّار، إلّا أثناء جلسة سمر، توصل عدوّين لدودين إلى الثمالة فيغنّيان معاً حدّ الذوبان كلّ في الآخر... فأصبحَ الحصول على كتاب «منطق الطير» هو كلّ ما يشغل بالي.

يا لهذه الكأس العنيدة الصامدة برقّة الفراشة التي تأبى أن تترك النار في حالها!... يا أيّتها الكأس الوفيّة، عودي إليّ...

الآن، وعلى سجّادة الصلاة، تتماهى هذه الكأس التي وضعتها أرضاً قبل قليل مقرّراً الثبات على توبتي وعدم نقضها مع تلك الكأس العتيقة التي أبيتُ أن أشربها تلك الليلة مع أبي سعد، إلى أن جاء شاسوار على غفلة ووجده مختبئاً عندي. فقرّر أن يقتله مدّعياً أنّه من الأعداء المتآمرين على الثورة. تمكّنتُ بشقّ الأنفس من إقناعه بأنّه في بيتي وأنّه عندما يتعرّف إليه سيغيّر رأيه كلّياً. لكنّه، بالرغم من اقتناعه بطلبي، برّر موقفه ذاك، إذ حاججني بأنّه لا يستهدف شخص أبي سعد أو غيره، وهو لا يعرفه من الأساس، بل إنّ المشكلة تكمن أصلاً في موقفه السياسي وفي القتال الدائر بشراسة بين فصيليهما المتقاتلين.

تعرّفتُ إلى أبي سعد لأوّل مرة، قبل سنوات، بعد تخرّجي وتعييني في مركز الطبّ البيطري في إحدى البلدات التابعة لمدينتنا. وكان هو قد نُقِل إليها قبلي بأسابيع قليلة، أو بالأحرى، منفيّاً إليها من الناصرية. شاب علاقتنا الجفاء والارتياب، إلى أن حضر أبو عمر ذاك اليوم إلى المركز، وشتم أبو سعد الذي رفض إعطاءه حصّته من أدوية ماشيته على حساب دور بقيّة الفلّاحين. حاولتُ منعه، لكنّه أراد مهاجمتي أنا أيضاً. فضربته بقوّة بحيث وقع أرضاً، ووضعته في غرفة وهاتفت مركز الشرطة التي بعثت بسيّارة تأخذه إلى السجن. لكنّه ترجّاني، ونتيجة توسّله وتوسّط بقيّة الفلاحين، قبلت أن أعفو عنه. فاحتضنني، وخرج وهو يتوعّد أبا سعد: أمّا أنت، فحسابي معك عسير، أيّها الرافضيّ النجس...

يومها بدأت علاقتنا التي تنامت في لمح البصر ووصلت إلى حدّ الثقة المخلصة. ذلك اليوم، أخبرني بأنّه لم يكن عليّ إيصال الأمور إلى ضرب أبي عمر، فهو مسؤول الجمعيّات الفلاحيّة التعاونيّة، وعضو المنظّمة الحزبيّة للبلدة، وهو لن يفوّت علينا ضربه أمام الفلّاحين. هوّنت عليه الأمر وقلت: ليفعل ما يحلو له، «آني بايع ومخلص»...

ليلتها، دعاني أبو سعد إلى العشاء، وكانت قنينة العرق حاضرة... تحدّثنا كثيراً، حدّثتهُ عن بعض ما مررت به في حياتي، وحدّثني هو في أمور لم أفهمها جيّداً. لكنّني فهمت منه أنّه خرّيج الفلسفة، وكان قد خرج من السجن للتوّ، وأنّه بعد توسّط بعض المعارف من النافذين في السلطة أعيد إلى الوظيفة ونُقل إلى قسم البيطرة، كما نُفي معها إلى هذه البلدة. ظلّت علاقتي بأبي سعد تتطوّر بسرعة مدهشة إلى أن غاب فجأة! وطال غيابه عدة أسابيع. لم أكُنْ أعلم كيف لي أن أعرف خبراً

عنه، إلى أن جاءت مجموعة من أفراد الأمن يتقدّمهم أبو عمر يسألون عنه متوعّدين من يخبّئه أو يخفي عنه معلومات بالويل والثبور. وقال لهم أبو عمر: كان هذا المخرّب معه أيضاً، حتّى إنّه ضربني مدافِعاً عن ذلك الرافضيّ عندما شتم الرئيس القائد والسيّد النائب، وهاجم الحزب والثورة.
دخلتُ يومها في مشكلة كبيرة كادت تقضي عليّ لولا التدخّل القويّ لصديقنا الشيخ عثمان، ابن رئيس العشيرة، والمسؤول الحزبي عن القطاع الطلابي في المنطقة. نُقلتُ على إثرها إلى بلدة أخرى مسؤولاً هذه المرّة عن مركزها البيطري. تسلّمتُ فيها سيّارة حكوميّة حديثة وبعض الموظّفين. أصبحتُ بفضل الشيخ عثمان، في مأمن من شرّ نوايا أبي عمر... كما أصبحتُ أشبه بالملك في مملكته المستقلّة. كان أهالي القرى المجاورة يزورون المركز في الحالات الطارئة، فيما عدا ذلك، كنتُ أتجوّل في السيارة على القرى التابعة لمحيط عملي. أُعاين مواشيهم وأُعالج مريضها وأحقن البقيّة بالأدوية الواقية من الأمراض والأوبئة. وكلّ ذلك، حسب جدول اتفقت عليه مع ممثّلين عن كلّ القرى بُعيد تسلّمي لأمور مملكتي. وفي المساء، كنتُ أختلي بقنّينة العرق وكأسي، وحدنا أنا والكأس، ولم يتمّكن أحد، حتّى الشيطان نفسه، من أن يكون ثالثنا.
في إحدى المرّات، وبينما كنت أؤدّي جولتي العلاجيّة في أرجاء مملكتي الساكنة الهادئة، قطع علينا تلك السكينة إطلاق عيارات ناريّة نحونا. أمرتُ السائق بالتوجّه صوب مصدر القوّة الناريّة لنرى ما يحدث. لكنّه حاول مرعوباً تبرير هربنا، والابتعاد بسرعة عن منطقة النار قائلاً: إنّهم هم يا سيدي، وإن وقعنا في أيديهم فلن يرحمونا، وقد يقتلوننا، حتّى قبل أن نصل إليهم.
– من هم؟
– الجيش يا سيّدي، إنّهم لا يرحمون حتّى آباءهم. أرجوك لنبتعد بسرعة، أنا صاحب عائلة، ولا أُريد أن أموت، لديّ أطفال عليّ أن أُربّيهم.
أمرته بالتوجّه مباشرةً إلى مصدر النيران: هذه سيّارة حكومية ولن يطلقوا النار على سيّارة حكوميّة وموظّفي دولة أثناء تأدية الواجب. هكذا حاولت تهدئة مخاوف السائق.
فتوجّه مرعوباً يتمتم بالدعوات وتلاوة آية الكرسي. مع اقترابنا من مصدر النيران، خفّت شدّة الإطلاقات إلى أن توقّفت تماماً. ووجدت نفسي أمام ضابط كبير وقد التمّ حوله مجموعة من الضبّاط والجنود. وكان بعض الرجال من الأهالي جالسين على الأرض واضعين أيديهم فوق رؤوسهم. تعرّفتُ إلى بعضهم، فقد كانوا من سكّان القرية التي دهمها الجيش. نزلتُ من السيّارة، وتوجّهتُ إلى الضابط الكبير مباشرةً، سألته: لماذا تؤذون هؤلاء الأبرياء؟ وماذا فعلوا لكي تعاقبوهم بهذه الطريقة؟
ردّ عليّ بعصبيّة: وصلتنا تقارير عن وجود بعض المخرّبين في القرية، ونسأل هؤلاء التعاون، لكنّهم يرفضون ويتستّرون عليهم.
– لكنّني كنتُ هنا هذا الصباح ولم أرَ شيئاً، وهؤلاء أبرياء، أرجو أن تطلق سراحهم.
– هؤلاء خونة يخدمون المخرّبين العملاء، أعداء الثورة والحزب، ويبدو أنّك معهم.
أمام اتّهامه هذا، جبُنتُ وحاولتُ الدفاع عن نفسي فقط: أنا موظّف حكوميّ، أؤدّي واجبي، ولا أحد يستطيع منعي من ذلك.
ردّ عليّ بعصبيّة ملوّحاً بعصاً كان يضرب بها جزمته العسكرية باستمرار: اغرُبْ عن وجهي وإلّا رميتُك معهم رمية الكلاب... حمّلوهم ولنذهب بهم إلى الجحيم.

بعدها، أسرع الجنود مرعوبين في تنفيذ الأمر الصادر إليهم، وحمّلوا الرجال في شاحنات الـ«إيفا» العسكرية، وابتعدوا بهم مخلّفين وراءهم سحابةً كثيفةً من الغبار المتصاعد من عجلات الآليّات العسكريّة المبتعدة بسرعة، ودخان كثيف متصاعد من ثلاثة بيوت أحرقوها قُبيل رحيلهم وصراخ ونحيب النساء والأطفال والشيوخ، المتداخل بعضه ببعض، بكاءً على الرجال الذين أخذهم الجيش.
كان هذا المشهد يتكرّر بين الفينة والفينة. وكان بعض الرجال يُطلَق سراحهم بعد طول تعذيب، بينما يبقى بعض الأطفال والأمّهات والزوجات ينتظرون عبثاً عودة آبائهم وأبنائهنّ وأزواجهنّ.
وبقيتُ أشهدُ كلّ ذلك بلا أبالاه، وأنا أُمارس وظيفتي في التجوال بين القرى، ومعالجة مواشيها وحيواناتها، وأختلي مساءً إلى كأسي أو حبوبي المهدّئة والمخدّرة إلى أن أفقتُ يوماً على خبر نتج عنه فقداني مملكتي وروتين حياتي الساكنة... وليس هذا فحسب، بل كان يفرض عليّ إن رضخت لنتائجه فقداني للخمر والحبوب المنوّمة والمخدِّرة. هذا الحدث لم يقتصر عليّ أنا وحدي، بل أفقد كلّ الناس توازن روتين حياتهم المعتادة. لقد هزّ البلد بأكمله...
يااااااه!
يا لسخريّة الأقدار! كنتُ خائفاً يومها من ابتعادي عن الخمر ومنعه عنّي. وها أنا ذا أقف الآن حائراً برعبٍ يتجاوز كلّ درجات الخوف أمام كأس عرق أتمزّقُ بين تجرّعها والكفر بكلّ شيء من جديد، وبين الامتناع العبثيّ الغارق في اللا جدوى من عدم ارتشافها. فبعد توبتي النهائيّة، لم أذق طعم الخمر، ولم أتعاطَ منوّماً أو مخدِّراً أو مهدّئاً، ولا حتّى لمرّة واحدة. ولم تستطع أعزّ المناسبات على قلبي إجباري على الرجوع عن توبتي، ومشاركة الآخرين صفاءهم وفرحتهم في جلسة سمر. نعم، حتّى في تلك الجلسة المحرّمة، التي جمعت الأنداد والأعداء في بيتي القرويّ، تلك المرّة التي تنبّأ فيها أبو سعد بعدم تكرارها.
يااااااه!
يا لنبوءات الصادقين التي تحلُّ كوقوع الصاعقة! خصوصاً نبوءاتهم الحزينة المتعلّقة بالموت...
بعد قضائه يومين في بيتي، عانقني أبو سعد مودّعاً بضحكة، حاول من خلالها السيطرة على دموعه. عانقته بقوّة عجزتُ فيها عن السيطرة على دموعي المنهمرة. حاول أبو سعد إنهاء الموقف الحزين بسرعة، فخاطبني مُمازحاً: لا أدرى إن كنّا سنلتقي أم لا؟ فمن مجموع من كُنّا أطراف العلاقة الملتبسة في تلك البلدة، لم يبقَ إلّا أبو عمر، وأنا، وأنت. وكما كنت تقول مساء أمس، «ما تدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت»... هكذا هي الحياة يا صديقي.
تسمّرتُ في مكاني وسألته: من الذي مات، وفي أيّ أرض؟ عمّن تتحدّث؟
– عن الشيخ عثمان، ذلك الرجل الفاضل الخدوم، الابن البكر لشيخ العشيرة، والمسؤول الكبير في حزب النظام آنذاك... بالتأكيد تتذكّره...
يا إلهي! كيف لا أتذكّرهُ وهو الذي أنقذني من الهلاك؟
زيارة أبي سعد لي، ثمّ توديعه الدرامي المليء بالدموع، وآخر أخباره المفجعة عن الشيخ عثمان، كانت من أغرب ما مرّ بي في حياتي. فقد سمع عنّي أبو سعد، كما أخبرني هو في زيارته الوحيدة، من الأخبار المتواترة عنّي بين الأهالي، وخصوصاً من أتباعهم والقوّات التابعة لفصيلهم، والتي كانت تزور هذه المنطقة سرّاً. ومنذ وصوله، لم يقطع حديثنا المتسارع معاً إلّا حضور شاسوار المفاجئ الذي صمّم على قتل أبي سعد في البداية، ثمّ استطعتُ بشقّ الأنفس ثنيه عن ذلك، ما فرض عليّ الرضوخ لرغبتهم في قبول شربهم للعرق في بيتي.

بعدما تيقّن من هويّتي وعنواني، كما حكى لي في ما بعد، جازف في التسلّل إلى هذه المنطقة المحرّمة على فصيلهم، حاملاً قنّينة عرق، لنسترجع بها معاً أيّامنا الخوالي. جاءني منتصف ليلة ماطرة، دخل مبلَّلاً بالكامل. لم أتعرّف إليه للوهلة الأولى، ولم يعرّف هو عن نفسه إلّا بعد أن ألقى سلاحه على الأرض وأنزل الحقيبة عن ظهره، وأخرج قنّينة العرق قائلاً بفرح يستهدف مفاجأتي: قلتُ آتيك بالحبيبة التي قد تكون انقطعتَ عنها منذ دهر... ما بك، ألَم تعرفني؟

كيف لي أن أعرفه؟ أنا لم أرَهُ أبداً بالملابس الكرديّة، وبكلّ هذا الشعر واللحية المبلّلة. عرفته من صوته، ولم أُصدّق نفسي في البداية. ولولا أنّني تبتُ منذ زمن، لتصوّرتُ الوضع كلّه هلوسةً ناتجة عن تأثير مخدِّر. يا إلهي! إنه أبو سعد، الشاب الكئيب الأنيق الآتي من الناصرية. جاءني مجازِفاً بحياته ليشاركني قنّينة عرقٍ كهديّة غالية للقاءٍ سرّي. وكان غائباً عن باله أنّني سأرفض مشاركته تلك اللحظة التي تسعده إلى أبعد الحدود. وعندما علم بخبر توبتي، حاول أن يصّر عليّ ممازحاً لكي نتشاركها. وعندما يئس من محاولاته، نظر إليّ باستسلام وأعاد القنّينة إلى حقيبة ظهره صامتاً. تلك اللحظة، كان غائباً عن حساباتي وحسابات أبي سعد، أنّ قنّينة العرق التي أعادها كسيراً إلى حقيبته، سيتشاركها مع أحد أعدائه وفي جلسة سمر صادقة منقطعة النظير. يااااه! يا لحديث الخمر الذي لا ينتهي أبداً. حتّى عندما يكرّمنا الله، فإنه يعدنا بالشراب في جنّة الخُلد...

أخبرني أبو سعد، بأنّه جاء أحد أفراد الأمن ليلقي القبض عليه. فرشاه بقنّينة عرق واعداً إيّاه بأن يذهب بنفسه لزيارة دائرة الأمن صباح اليوم التالي. وما كان منه إلّا أن سارع بإخبار الشيخ عثمان الذي نادى بدوره على فرد الأمن المذكور، وحذّره من مغبّة التقرّب ثانيةً من أبي سعد. وقتها، كان فرد الأمن، الذي هو ابن أحد الفلّاحين العاملين في مزرعة والد الشيخ، قد أخبرهما بأن أبا سعد في خطر، وأن الأوامر قد صدرت بإلقاء القبض عليه فوراً.

أصرّ الشيخ عثمان ليلتها على تهريبه كما علمت من أبي سعد، مُهدِّداً فرد الأمن بحساب عسير لتلقّيه رشوة، وأوصل أبا سعد بسيّارته إلى نقطة قريبة من المناطق الخاضعة لسيطرة قوّات فصيلهم. فيا لكرم الشيخ عثمان الذي لم يكن ليتوقّف للحظة إلى أن أودى به وبحياته! فقد أخبرني أبو سعد، في اللحظات الأخيرة وهو يودّعني، بأن النظام قد ألقى القبض على الشيخ عثمان قبل أشهر قليلة وعاقبه بتهمة التآمر وخيانة الحزب والثورة على حدّ قولهم. وكان أن لقي مصيره في المكان الذي لم يكن ليخطر على باله أبداً. فقد أعدم رمياً بالرصاص وسُلّمتْ جثته لأبيه الشيخ في سيّارة عسكرية وأجبروه على دفع ثمن الطلقات التي أعدموا بها ابنه...

زادتني اللحظات الوداعيّة الأخيرة ألماً بأخبارها المفجعة. وجدتني عاجزاً أقرب إلى الشلل، وأنا أشعر بألم فراق أبي سعد الذي دهمني تلك اللحظة وملأني خوفاً عليه من مخاطر عودته إلى مناطق فصيلهم. فمازحني قائلاً: أنا أتيتك مجازفاً ووحدي، وتجاوزتُ كلّ خطوط الموت سالماً، فلِمَ الخوف وأنا الآن في عهدة أخي وعدوّي اللدود شاسوار، الذي سيوصلني إلى مناطقنا؟ واستطرد وهو يعانقني للمرّة الأخيرة: لا تخف، فحتّى إن حصل شيء، فإننا سنلتقي في الجنّة. لكن شريطة أن يحضر اللقاء أخونا شاسوار... وأنا أتكفّلُ عن أخي شاسوار بأنّنا لن نفعل مثلك أنت. بل سنشرب معك نخب أخوّتنا. فكما تعلم يا صديقي، بأنّ الشراب ليس محرّماً عليكم، أنتم أهل الجنّة. قال جملته الأخيرة مقهقهاً وحمل سلاحه وانطلقا معاً.

حقّاً... ما تدري نفس بأيّ أرض تموت. لم يبقَ منّا إلّا أنا وشاسوار الذي كدت أقتله الليلة من أجل قنّينة العرق هذه التي لم أذق طعمها بعد. وأنا أُقابل من على سجّادة الصلاة هذه قنينة العرق،

تذكّرتُ قنّينة العرق الفارغة التي شربها شاسوار وأبو سعد والتي احتفظتُ بها إلى أن تركنا القرية، التي سُوّيت بعدنا بالأرض. لم يكن حينها يدري أحد من الأهالي، بمن فيهم عائلة الشيخ كاكه حمه، بأيّ أرض سوف يموت...
أصابتني فكرة إمكانيّة موت أهل القرية وفقداني كلّ أمل في احتمال عودة فاطمة برعب عارم. وامتلأتُ غضباً، لم أستطع معه إلّا أن أُركّز على الكأس الجالسة قبالي، وحيدة تماماً، كالعروس التي قابلتها منذ مدّة. تلك العروس التي فُجعت في ليلتها الأولى بخبر اختفاء عريسها، ولا تزال تنتظره بالرغم من مرور الأيّام والسنين. فامتلأتُ حُزناً على الكأس وعلى تلك العروس الأبديّة، فخاطبتها من سجّادتي: يا أيّتُها الكأس المفجوعة، إنّني أعتذرُ إليك وإلى الكأس التي رفضتُ مشاركتها مع أبي سعد وشاسوار... يا أيّتها الكأس المنتظرة بيأس، ارجعي إليّ راضيةً مرضيّةً واقبلي اعتذاري إليك وإلى كلّ الكؤوس التي رفضتُ احتساءها بعد توبتي التي انتشرت كالأساطير وأصبحت من الحكايات وضرب المثل. يا أيّتها الكأس العنيدة الثابتة في مكانك، تربّعي على عرشك كما تشائين، وأنا الذي سأعودُ إليك وأنا راضٍ ومرضيّ هذه المرّة. فماذا بقي لي بعد كلّ هذا العبث؟ فقد يحين الأجل قبل أن أحظى منك برشفة واحدة. إذن، فما همّني، متى، وكيف، وبأيّ أرض سأموت؟!

12

«وما دمتَ حيّاً فليتحمّل جسدك آلام الروح، وليتلقّ عنفك لطمات الزمن».
فريد الدين العطّار

– «يا أيّتها النفس المطمئنّة، ارجعي إلى ربّك راضيةً مَرضيّةً...».

وهكذا! يريد هذا الرجل المعمّم الذي يتلفّظ الآيات بلغة عربيّة، بالكاد تكون مفهومة، أن يسدل الستار على حياة آتيلا البائسة الفارغة من الاطمئنان. وها هو يغادرها، لا راضياً ولا مرضيّاً. فما كلّ هذا العبث المتكرّر عند دفن كلّ واحد منّا؟ وكأنّنا كائنات آليّة أو أشباه كائنات متطابقة. وكأنّه ليس لكلّ واحدٍ منّا حكاية موتٍ خاصّة يختتم بها آلاف الحكايات المتميّزة الخاصّة به هو وحده. وأنا أسمع الكلمات المعتادة التي يحفظها هذا الرجل المعمّم ويلقيها هكذا مليئة بالأخطاء عند التلفّظ، تذكّرتُ أبي الذي لم تكن تفوته إقامة صلاةٍ أبداً، وهو ينهرني تلك المرّة، أثناء حضورنا مراسم دفن جارنا، مانعاً إيّاي من السخرية بتلفّظ الرجل المعمّم لنصوص التلقين بتلك العربيّة الركيكة، تذكّرته وأنا ما زلتُ أمسك بالفوّهة الباردة لبندقيّتي وكأنّها جسد فارقته الروح. فقمتُ بحركةٍ لاإراديّة عصبيّة، فنزعتها عن كتفي اليمنى وأحلتها إلى كتفي اليسرى، حتّى تكون فوّهتها شامخةً متعاليةً متّجهةً إلى السماء لا منتكسةً صوب الأرض.

قبل أن يبدأ الرجل المعمّم تلاوته الركيكة لنصوص التلقين التي بدأت بآتيلا، وكان لزاماً أن يتلوها عند كلّ قبر من قبور شهداء معركة الأمس، وكلّ شهيد باسمه واسم والدته، كانت مراسم الدفن الثورية الخاصة قد اكتملت فقراتها الأساسية التي كنّا قد رسّخناها أثناء الثورة في الجبال. فبدأت بكلمة ألقاها ميران، بصوته الهادئ الواثق، تلتها فقرة إطلاق الرصاص. أمسكتُ بفوّهة بندقيّتي الباردة منذ الإطلاقة الأولى بحركة فجائيّة، وكأنّني أستعدّ للردّ على نيران كمين وقعتُ فيه. هكذا كانت مراسم دفن الشهداء تنفرد بطقوس وفقراتٍ خاصة: تبدأ بالدفن، ثم يتلو أحد الرفاق، وفي الأغلب أحد المسؤولين، كلمةً يتحدّث فيها عن الشهيد ومآثره ودلالات استشهاده، وينهيها بتأكيد الثبات على نهج الثورة وشهدائها حتّى النصر... ثم تنطلق الرصاصات من قبل صفّ من البيشمركة الواقفين بمنتهى الرهبة والاحترام.

مع أن لكلّ بندقيّةٍ أسلوباً خاصاً في الحمل، فإنّني في تلك اللحظة التي شعرتُ فيها ببرودة بندقيّتي وكأنّ الحياة قد فارقتها إلى الأبد، وأحلتها بحركة سريعة إلى كتفي اليسرى، خلطتُ دون أن أعي بين أُصول حمل البنادق. لم أمّيز حينها بين طريقة حمل بندقيّة الكلاشنيكوف، وبين طريقة حمل بندقيّة البرنو. نسيتُ أنّ بندقيّة الكلاشنيكوف عندما تُحمل على الكتف اليمنى، وهو الشائع، تكون فوّهتها نحو الأسفل، ودون أن يعني ذلك شيئاً. بينما بندقيّة البرنو، فعلى كلتا الكتفين، يجب أن تكون فوّهتها متّجهة نحو الأعلى.

لم أرَ قطّ، طيلة سنوات الثورة التي سبقت يوم الانهيار الأكبر، أحداً يحمل البرنو خلافاً لذلك القانون الصارم. فكانت الصدمة كبيرة حين شاهدتُ مقاتلينا وهم يعودون يوم الانهيار الأكبر، مجاميع وفرادى، وفوّهات بنادقهم منكّسة نحو الأرض. كان المشهد وحده يُغني عن كلّ شرح وتوضيح. فكانت تلك هي المرّة الأولى التي أرى فيها بندقيّة منتكسة. لكنّ المحزن هو أنّها لم تكن الأخيرة، إذ ظلّت تتكرّر كلّ يوم... ودون خبرٍ عن أبي وعن بندقيّته الغالية. كان أبي يحبّ بندقيّته

البرنو إلى أبعد الحدود، حتّى إنّه كان يردّ على كلّ من يخاطبه: «من الأحبّ إلى قلبك: بندقيّتك البرنو أم عائلتك؟»، بابتسامة العاجز عن المفاضلة...
أخذني أثناء إجازته الأخيرة التي قطعها قبل أوانها بسبب اشتداد المعارك والحديث عن قرب النصر النهائي، إلى سفح الجبل الواقف بشموخ خلف مخيّمنا الذي كنّا قد انتقلنا إليه أخيراً. وكان ذاك هو المخيّم الأوّل الذي يقع داخل الحدود العراقيّة بعد تنقّلنا بين العديد من المخيّمات داخل الأراضي الإيرانيّة. فقد كان اقتراب النصر كافياً لكي نكون على أُهبة الاستعداد موجودين عند أقرب نقطة ممكنة على طريق العودة إلى المدن. أخذني أبي تلك المرّة إلى السفح مُحمِّلاً إيّاي بندقيّته الغالية وأخبرني: إيّاك... ثمّ إيّاك أن تسمح لرأسك، أو لرأس بندقيتك، بالانتكاس نحو الأسفل مهما كان الثمن.
تلك المرّة الأخيرة، علّمني فيها أُصول الرماية، وكأنّ العمر لن يسمح له بتعليمي إيّاها في ما بعد.
طال غياب أبي، وطوابير المقاتلين المنكسرين ينزلون من الجبل منكّسي الرؤوس والبنادق، إلى أن أصبح هو المشهد المعهود الذي احتلّ مكان مشهد الرجال الفرحين حول المذياع، وهم يستمعون إلى محطّة إذاعة الثورة... والذين بقي بعضهم ممسكاً بمذياعه، لكنّه استبدل محطّة راديو الثورة بالمحطّات الدوليّة أملاً في الحصول على بصيصٍ ينقذ الحلم الضائع. فكان بعض الرجال يتناقلون أخباراً، بدا واضحاً أنّهم يوهمون بها أنفسهم ويصبّرونها على البلاء الكبير. فأخذوا يتحدّثون، ونحن في قمّة هزيمتنا، عن محطات بثّ تحدّثت عن حقّ الكرد في ما أخذوا يطلقون عليه «الاستقلال الذاتي»، وأنّنا سنحصل عليه قريباً، ثمّ شيئاً.. فشيئاً، وبعد أيّام، تحوّل الناس من الاستماع لراديو الثورة، الذي سكت نهائيّاً، إلى الاستماع للمحطّات الدوليّة. واقتصر في النهاية على الاستماع للراديو الرسمي للدولة، بحثاً عن أخبار ردود فعل النظام تجاه الناس ومصيرهم، وخصوصاً بعد أن نقل إليهم خبر إصدار النظام عفواً عمّن يلقي السلاح ويعود نادماً إلى العراق.
ظلّت أمّي تعاند تلبية طلب الأقارب للاستفادة من العفو والعودة إلى مدينتنا، مُصرّة على عدم التحرّك من مكانها إلى أن يعود أبي. فهو وحده الذي يقرّر المغادرة من عدمها. فرغ المخيّم تقريباً، إلّا من بضع خيام، كان ساكنو بعضها حائرين، لا يدرون ماذا يفعلون في ظلّ أخبارٍ مخيفة عن مصير مجهول، وبين أمل بتداول أخبار عن تقديم النظام ضمانات بالحفاظ على حياة الذين يعودون نادمين. كان أقاربنا جاهزين للعودة، لكنّهم يرفضون المغادرة من دوننا، ولا يكلّون من محاولاتهم المستميتة لإقناع أمّي بالعودة.
حتّى أخبار المعارك المتقطّعة اليائسة الأخيرة، التي لم يعد أحد يعبأ بها، كنت مرعوباً تماماً، وأبي لا يزال غائباً، إلى أن حلّ صباح ذلك اليوم الذي جاءت فيه سيّارات الشحن التي تنقل العائدين إلى المدن نادمين. فجاء أقاربنا، يلمّون حوائج بيتنا القليلة أصلاً، استعداداً للعودة نادمين. فخاطبتهم أمّي بعنادٍ غريب: ماذا أفعل بهذه التوافه؟ يمكنكم أن تحزموها، لا بل خذوها، فأنا تركت داراً عامرة، لم تكن تنقصها إبرة واحدة من أجل الثورة.. فماذا أفعل الآن بهذه الخرق التافهة. ما جدوى أيّ شيء بعد انهيار الثورة؟ ثمّ إنّني لن أتحرّك من هنا إلى أن يعود زوجي. وانهارت على الأرض تنتحب بجنون.
في تلك اللحظة التي كان فيها أقاربنا يهمّون بتحميل أمتعتهم البسيطة على الشاحنات العائدة إلى العراق، حلّ أبي فجأة. عاد هذه المرّة بصمت ولم يقل شيئاً لأحد الحاضرين، حتّى إنّه لم يتّجه نحوي. حمل أمّي الباكية المستلقية على الأرض، وحاول تهدئتها، لكنّه في كلّ ذلك لم يتفوّه بكلمة

واحدة. بينما أخذ الجميع يعانقونه، ويهنّئونه بسلامة العودة، لم يردّ هو على تحيّاتهم، ولو بكلمة واحدة. فهل هذا الرجل حقّاً أبي؟ أنا أعرفه من حركاته القاطعة، من صمته المعتاد، من حدّته، لكنّ شيئاً ما فيه تغيّر بدرجةٍ كبيرة. لم يكن التغيير هو مجرّد عودته من دون حبيبته الغالية، أو زوجته الثانية المدلّلة، كما كانت تنعتها أمّي. وكان هو يحاول كلّ مرة، أن يهوّن عليها، ثمّ ينهي الحديث مازحاً: أراكِ تغارين من بندقية؟

فكانت تردّ عليه بلهجةٍ حانقة: ولِمَ لا أغار؟ لا توجد امرأة لا تغار من ضرّتها...

وهكذا! لأوّل مرّة، عاد أبي في إجازته الإجباريّة الطويلة من دون بندقيّته البرنو. جلس على الأرض تملأه علامات الغيظ والغضب، وعيناه التائهتان تكشفان بوضوح حالة الحيرة والضياع التي كان يكابدها. حتّى عندما عانقتهُ بقوّة وباكياً بصوتٍ عالٍ، لم يهوّن عليّ، لم يحاول تهدئتي، لم يتفوّه بكلمةٍ واحدة، بحيث ظنّ الجميع أنّه أُصيب بالصمم، إلى أن صاح سائق الشاحنة التي كان من المقرّر أن تقلّنا للعودة نادمين. حينها، قبل أن يتفوّه أحد الأقارب بجواب، صاح أبي بنبرةٍ ملؤها الغضب: أنزِلوا تلك الحوائج، لن نعود نادمين. ودعوا هذه الشاحنة تذهب في سبيلها.

بقينا هناك عدّة أيام أخرى، حاول خلالها الأقارب ثنيه عن عناده وإقناعه بالعودة. إلّا أنّه اشترط عليهم في النهاية أن تكون المغادرة إلى مخيّم داخل الأراضي الإيرانيّة. فقبل بعض أقاربنا بذلك، ورفض آخرون. في اليوم التالي، حُمّلنا نحن وحوائجنا في شاحنتين. أجل، نحن الذين انقسمنا إلى فريقين. حُمّلنا في شاحنتين متعاكستي الاتّجاه: الأولى كانت شاحنة العائدين ندماً، والسائرة باتجاه المجهول، أمّا الثانية، فكانت تلك التي تقلّنا إلى ما وراء المجهول. كانت هذه حال كلّ من تركوا ديارهم وانتقلوا إلى المملكة السحرية التي كانت تحكمها الثورة، التي كانت لبرهة من الزمن، دولةً بكامل مؤسّساتها، لا ينقصها سوى الاعتراف والديمومة. وفي كلا الاتجاهين، كانت تتوارد أخبارٌ وشائعات مخيفة جداً.

لم أرَ أبي قطّ في تلك الهيئة المحبطة اليائسة. ولم أره قطّ هكذا، متخلّياً عن عناده، مُذعناً في استسلامٍ وعجز، وهو يقتنع بالمغادرة، لكن بعد ساعات من الصمت، ورأسه منتكس إلى الأرض. قبل ذلك، كان مُعانداً، محتفظاً بشيء من عنفوانه. وحتّى لمّا اشتدّ ضغط الأقارب عليه، استشاط غضباً وقال: لن نغادر هذه الجبال، سنبقى هنا، أو نحاول العيش في هذه القرى الحدوديّة. فمن المستحيل أن يصل الجيش إلى هذه المناطق الوعرة. أنا لن أعود نادماً. ثمّ كيف تسلّمون أنفسكم وعوائلكم إلى العدوّ؟!

ردّ عليه الأستاذ عزيز، مُعلّم المدرسة الابتدائية، الذي كان يدرّسنا تحت الخيم، بما لم يبقِ له حجّة. ردّ عليه بما لم يكن قد سمعه، نتيجة انقطاعه الكامل عن الأخبار، وانشغاله هو ورفاقه العنيدين، يحاولون بيأس قاتل، إنقاذ شرارة الثورة لكي لا تنطفئ نهائيّاً. فعندما وصل عناده لليوم الذي أُعلن فيه إغلاق المخيّم نهائيّاً، خاطبه الأستاذ عزيز بلهجةٍ حاسمة: يبدو أنك لا تفقه الوضع بما فيه الكفاية، فاتّفاقية الجزائر تنصّ، كما تقول الأخبار، على إقامة مناطق محرّمة على الحدود. أي إنّ الوضع الحالي لن يستمرّ، وخلال أيّام أو أسابيع، ستأتي الجرّارات لهدم هذه القرى، وتصاحبها مثل هذه الشاحنات لنقل سكّانها إلى ما لا يعلم سوى الله... إنّها النهاية، لقد انتهى كلّ شيء.

وهكذا... استسلم أبي في عجزٍ لم أره فيه، لا من قبل ولا حتّى بعد ذلك أبداً.

13

«أنا لا أطلب ملكاً ولا سلطنة، ولكن كلّ ما أطلبه منك هو أنت».
فريد الدين العطّار

وأخيراً... تمكّنتُ من الحصول عليه. بعد طول انتظار وسؤال، كان «منطق الطير» يقبع بين بعض الكتب القديمة في تكيّة الشيخ. فطلبته، وقبل الشيخ منحي إيّاه عن طيب خاطر، ودعاني إلى قراءة المزيد من الكتب الدينيّة. عكفتُ عليه كالمجنون، وأخذتُ أقرأه بشغفٍ عجيب، المرّة تلو الأخرى، إلى أن أدمنته حدّ الحفظ، ما دعا شاسوار إلى التندّر والإصرار على مناداتي بالعطّار.

وأنا أهيم الآن، بعد مرور كلّ تلك السنوات، في رائحة العرق المتفجّرة من هذه الكأس، التي طال انتظارها كثيراً، أتذكّر كيف تعجّب شاسوار، ومعه كلّ الناس، من توبتي المفاجئة الحاسمة. لكنّ تركيز شاسوار الذي اقتنع أخيراً بصدق توبتي وإيماني، كان على قدرتي الخارقة في ترك الخمر، بقرارٍ واحد مفاجئ، ودون العودة إليها مجدّداً.

سرعان ما انتشر خبر توبتي بين القرى وقوّات البيشمركة بسرعة البرق. وشكّل صدمةً للجميع، فأفراد البيشمركة الذين عرفوني من خلال معالجتي لجرحاهم، لم يستوعبوا كيف أنّ آتيلا السكّير المدمن الذي كادوا ينفّذون فيه حكم الإعدام لزراعته الحشيش، يتوب هكذا دون مقدّمات، ويقرّر أن يدير ظهره لكأسه ويتّجه إلى السماء مخلصاً، ملتزماً بطقوس الدين والعبادة!! كانت ردود الفعل متباينة، منها غير المصدِّق، ومنها المتشكِّك، ومنها الساخر الذي وصل في ذروته إلى ردّ الفعل السخيف الصادر من أحمد ماركس، الذي قال يومها ضاحكاً بطريقة مستفزّة: وهل تخلّيت عن الخمر بدافع الإيمان بالخرافة، أم أنت خائف على أنهار الخمر التي وعدتك بها السماء في الجنّة المزعومة التي لن تراها أبداً؟

أمّا الأهالي والقرويّون، فقد تفنّنوا في نشر الخبر الذي كان ينتقل بين القرى بسرعة الضوء.

– ليس صادقاً، إنّه يدّعي التوبة فقط، فمن ذا الذي يستطيع الشفاء من الإدمان هكذا دفعةً واحدة؟!

– إنّ الله يهدي من يشاء.

– مستحيل، شيءٌ لا يُصدّق، فأنا حاولت الإقلاع عن التدخين عدّة مرّات لكنّني فشلت.

– هو القادر على كلّ شيء.

– لا يوجد قرار قطعي في التخلّي عن العادات، وخصوصاً الإدمان، أنا حاولت وفشلت.

– قلنا يهدي من يشاء، فلماذا تُشكّكون في إيمان الرجل وتوبته الصادقة؟

– أنا لا أُشكّك في إيمانه لا سمح الله، لكنّ التخلّي عن حالة إدمان لا تكون إلّا بالتدريج.

– حتّى التدريج هذه، فشلت فيها، وبالرغم من تأثير الدخان على صحّتي، فأنا فشلت أكثر من مرّة في الإقلاع عنه.

– أنا لم أُفوّت فرصة صيام رمضان للتخلّي عن السيجار ومع ذلك فشلت.

– يُقال إنّ من يدمن الخمر لا يستطيع التخلّي عنه أبداً، أنا سمعت العديد من حكايات أناس قتلتهم الخمرة.

فتفرّق الناس في حديث توبتي الذي أصبح مادة ساخنة للقاءات الرجال الليليّة.

وأمام تشكيك بعض الناس في قدرتي على التخلّي عن الخمر نهائيّاً، واتّهامي بالاستمرار في تعاطيها سرّاً، كان ردّ الرجال الطيّبين الحاسم «إنّ الله قادر على كلّ شيء». وأصرّوا على أنّ ما

حدث معي ليس سوى معجزةٍ إلهية ليست فوق قدرة وكرامات ذلك الشيخ الورع التقيّ الذي شفى الأمراض المستعصية. فكيف نُشكّك في قدرة الشيخ وكرامته، وفي صدق توبة سكّير تاب على يديه؟ حفظ الله لنا الشيخ كاكه حمه، فمثل هذه الكرامات ليست غريبة عليه ولا على أجداده. نسأل الله أن يكرمنا بانتقالها إلى أولاده وذريّته.

أما الشيخ، الذي شعرتُ بقدرٍ كبير من الارتياح منذ مثولي في حضرته للمرّة الأولى، مع بدايات وصولي واستقراري في القرية، فقد كانت له ردّة فعلٍ من طراز خاصّ، وهو الذي غمرني بكرمه وسماحته عندما قرّر أهل القرية طردي بعد الإفراج عنّي من سجن الثورة أيضاً. واستمرّت زياراتي المتقطّعة له بين الحين والآخر، إلى أن أرسل هو تلك المرّة يطلب حضوري... والتي كانت مختلفة ومليئة بقدرٍ كبير من الخوف الممزوج بالأمل، ومزيج غريب من الأحاسيس التي أوصلتني إلى حالة ارتجاف واضحة. تلك كانت المرة التي مثلتُ فيها أمام الشيخ، حيث طلب منّي فحص فرسه الخليّة العزيزة، ومعالجتها والاعتناء بها إلى أن تُشفى تماماً.

كان الشيخ قد بدأ يغيّر من لهجته في الحديث عنّي بعد ذلك بفترةٍ من الزمن. فبعدما كانت لهجةً تمنع عنّي ضغط الأهالي وتطالبهم بأن يدعوا لي بالهداية، تحوّلت إلى لهجةٍ مليئةٍ بالاعتداد بالنفس. وكأنّني أشكّل إنجازه الأكبر الذي كان يحمد الله عليه بعد كلّ صلاة. وكلّما كان حديث الحاضرين في تكيّته ينحو نحو شيءٍ من القنوط واليأس، كان الشيخ يقول بلهجة ملؤها الفخر والعرفان للسماء: إنّ الله قادر على كلّ شيء. من منكم كان يتصوّر أن يتوب آتيلا؟ إنّ الله الذي هدى آتيلا إلى صراطه المستقيم، قادر أيضاً على اجتراح ما لا تتخيّلون أبداً من معجزات. سبحانك ربّي! نحمدك ونشكرك ونتوب إليك من كلّ ذنبٍ عظيم...

هكذا أصبحتُ، وصارتْ توبتي حديث الناس ومضرب المثل على معجزات الشيخ كاكه حمه وكراماته. وهكذا كانت قناعة الجميع. لكنّ الحقيقة كانت شيئاً مختلفاً تماماً. صحيح أنّني ارتحت للشيخ كاكه حمه من الوهلة الأولى، وصحيح أيضاً أنّ له عليّ ما لا يُعدّ ولا يُحصى من أفضال، وصحيح كذلك أنّني أعلنتُ توبتي في حضرته وعلى يديه الكريمتين، لكنّ حكاية التوبة تظلّ حكايةً مختلفة تماماً. فأنا لم أفعل شيئاً سوى إعلان التوبة أمامه، أمّا قرار التوبة، فقد سبق ذلك، ولم يكن على يديْ الشيخ كاكه حمه.

وقفتُ ذلك العصر، في حضرة الشيخ، أرتجفُ من شدّة الحماسة والرهبة، أتوسّل إليه أن يمنحني بركاته، ويغمرني بعطفه، ويهديني إلى الصراط المستقيم. ارتجف الشيخ من مكانه، مطلِقاً صيحة الله أكبر عاليةً، وفزع واقفاً على قدميه. ركّز في عينيّ بنظرة استغراب لم يغب عنها العطف الأبوي. ضمّني إليه، وأخذ رأسي على صدره، وأخذ يتمتم بآيات وأدعية بالكاد كانت مفهومةً لي. طالت غمضتي على صدر الشيخ، وهو يضع يدهُ الكريمة على رأسي ويتمتم... تُهتُ في عالمٍ غريب. دوّختني الرائحة المريحة التي غمرتني من صدر الشيخ. ثمّ فجأة قبّلني على جبيني ودعاني للجلوس. فلثمتُ بدوري يدهُ بحرارة. جلستُ قبالته الجلسة الأقرب إلى الركوع. نظر إليّ الشيخ وقد تفجّرت أساريره بنورٍ وهّاج، وخاطبني: أنا كنتُ متيقّناً من سريرتك النقيّة وقلبك الطيّب، وكنت متيقّناً من أنّ الله لن يترك شخصاً مثلك هائماً في معاصي الدنيا، تائهاً عن الآخرة وعبادة ربّ العالمين. أنا كنتُ أدعو لك بالهداية باستمرار. فسبحان الله، والحمد لله الذي استجاب لدعواتي.

حينها أمرني بالالتزام وإقامة شرائع الله والتمسّك بأدائها. ثمّ أمرني بالنهوض وأخذني في رقّة وحماسة وعلّمني الوضوء. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أجرّبُ فيها مثل ذلك الإحساس، والماء يضربُ كفّي ووجهي وقدميّ. ثمّ بعد ذلك أمرني بإقامة الصلاة خلفه. خاطبته مرتجفاً: ولكن يا شيخ، أنا لا أحفظ شيئاً، ولا أعرف حتّى كيف تؤدّى الصلاة...

ردّ عليّ بصوتٍ ناعمٍ واثق: ستتعلّم يا ولدي، هل نسيت أنّ ديننا هو دين العلم؟ ألم يكن النزول الأوّل يأمر نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم: «اقرأ»؟ أمّا الآن، فلا تفكّر في شيء، تعالَ وقِف مع بقيّة الرجال خلفي ولنصلِّ.

– لكن يا شيخ، أنا...

– لا تقل شيئاً يا ولدي، فقط قف في صفّ الرجال خلفي، وافعل كما نفعل نحن. إنّ الله أدرى بما في السرائر، وها أنت تؤدّي صلاتك الأولى التي يجب ألّا تكون الأخيرة. ثمّ، رويداً رويداً، سأعلّمك بقيّة أمور ديننا الحنيف.

كانت صلاتي الأولى تلك صامتة. كان بقيّة الرجال يؤدّون الصلاة وكأنّهم يهمسون. بينما كنتُ أنا مرتبكاً خائفاً حدّ الرعب في البداية، كنتُ أقلّد حركات الشيخ، لكنّني منذ سجدتي الأولى، لم أعرف ماذا أفعل. أصبتُ بحالة من الشلل نتيجة سيطرة الخوف عليّ. فكّرتُ للحظة أن أرفع رأسي وأنظر ماذا يفعلون لكي أفعل مثلهم، لكنّني تُهتُ في رعبي، وأخذتُ أدعو في سرّي... «يا إلهي، يا ربّ السماوات والأرض، أنا عبدك النادم، آتيلا سعد الله فيض الله، أسجدُ في حضرتك، وأتوب إليك وأطلب عفوك عن كلّ ذنوبي وآثامي...». داهمتني موجةُ بكاءٍ صامتة، وأنا أدعو الله في سرّي... ثمّ غمرتني حالة استعدادٍ عجيبة وقوّةٌ هائلة.

أحسستُ بالشيخ وهو يرفعني من سجدتي. كنت غارقاً في دموعي. ضمّني بحنانٍ ورفقٍ إلى صدره، وتعالت صيحات الله أكبر من الحاضرين. فقال الشيخ: ستحضر معنا حلقة الذكر التي سنقيمها الليلة.

هكذا كانت حكاية إعلان توبتي التي ملأت الآفاق وصارت الحديث الأوّل دون منازع لفترة طويلة. لكنّ حكاية قبولي للتوبة كانت على درجة من الخطورة، بحيث إن سمع بها أحدٌ لكان علاجها الدم وحده. من بين كلّ الناس، ظلّ شاسوار متعجّباً من قدرتي على الإقلاع عن كلّ أنواع المسكرات والمخدِّرات. وبقي يصرُّ على أنّ هذا خارج معايير العلم والمنطق، وأنّ العلم يرفض كلّ ذلك. فما كان منّي إلّا أن أجبته بهدوءٍ وقد غمرتني حالة الطمأنينة: يا أخي، كلّ ما تقوله صحيح، لكنّني لكي أُريحك ولا أقول لك شيئاً يتنافى مع العقل والمنطق، فأنا أُجيبك بأنّني أعيش حالة نشوةٍ كبيرةٍ دائمة، لم يستطع الخمر من قبل إيصالي إليها أبداً. أنا منتشٍ على الدوام بعبق ونور مَن تُبت على يديها المباركتين.

نظر إليّ وقد انفتحت عيناه من الذهول على وسعهما. فسردتُ عليه حكايتي بينما هو مستغرق في الذهول، مأخوذاً بالصدمة. وأنهيتُ قصّتي قائلاً: أرأيت؟! هذا هو سحر العشق، ها أنا ذا أشعر بنشوةٍ لم أشهدها من قبل، غارقٌ في درجة من الثمالة تعجز عنها أقوى الخمور في العالم.

نظر إليّ في دهشةٍ وصاح: مستحيل!

فقلتُ له بنبرةٍ ملؤها الحبّ: ألَم تحدّثني عن انتشاء شعبٍ بأكمله بسحر الثورة؟

جمد في مكانه ورمقني بنظرةٍ صامتة ثمّ قال بصوتٍ منكسرٍ ملؤه الحزن: أرجو ألّا تكون نشوتك كنشوتنا، ولا مصيرك كمصير الثورة...

14

«الخلق يخشونك، وأنا أخشى نفسي».
فريد الدين العطّار

هكذا كان مصير ثورتنا التي كُنّا مُنتشين بها حدّ الذوبان...
فكان العيش خارج عالم الثورة، كأنّه الانتقال من الحياة المعهودة إلى حالة الاستثناء المُربَكة والمُتعَبة. فمع انتقالنا إلى عمق الحدود الإيرانية، أسكِنّا هذه المرّة في بيوت كونكريتية، نظيفة وحديثة، تقي الحرّ والبرد وتسرّب مياه السيل في منتصف الليل البارد المطير، تحت أسّرتنا، ونحن في عزّ أحلامنا. لكنّني دخلتُ في حالةٍ غريبة غير مفهومة. دهمني إحساسٌ غريب بالاختناق. ومع أنّني لم أدخل السجن يوماً، فهمتُ في ما بعد أن السجن لا يمكن أن يكون أشدّ قسوةً من السكن في بيت كونكريتي نظيفٍ حديث، مجهّز بالكهرباء والماء الدائم، ومجهّز بحمّام.
في الخيمة، كنتُ أفتقر إلى كلّ تلك الخدمات. لكنّني كنتُ أُحنّ بشدّة إلى الاستحمام في الخيمة التي كانت تُشكلّ المطبخ وغرفة المعيشة وغرفة النوم الجماعيّة لكلّ أفراد الأُسرة. للحظة، تصوّرتُ أنّ الخيمة هي بيتي ووطني. ووصل بي الأمر إلى أنّني كنتُ أحياناً، أتخيّلُ نفسي، وأنا أُدفن في خيمة. ومع توفّر أغلب مستلزمات العيش، ومع التخلّص من قساوة الحياة في خيمةٍ واحدة، تشكّل الدار بكلّ مفاصلها، إلّا أنّني حين كنت أفتحُ عيني على السقف النظيف المدهون، كنتُ أشعر بأنّه سينهار ويطبق على أنفاسي. وخفتُ في المدرسة الكونكريتيّة النظيفة كذلك. شعرتُ بأنّي فقدتُ قطعةً من روحي. فقد أصبح الدوام المدرسي أشبه بواجب المعسكر القسري، حيث لا يبدأ بالنشيد القومي. دراسة وحياة كئيبة، خالية من الروح. حتّى الأصدقاء، أصبحوا أصدقاء العراك، والألعاب الشعبيّة السخيفة... ما دفعني إلى الانطواء أكثر فأكثر.
كنتُ، وكأنّ الروح قد سُلبت منّي، مغيّباً وحلقي مليء بطعم المرارة الدائمة. لم أفهم لماذا انقلب كلّ شيء هكذا فجأة! يا الله! ما الذي جنيناه حقّاً؟ كانت الحياة في ما مضى لعبةً ممتعةً مستمرّة، لا تتوقّف حتّى أثناء النوم، فقد كنّا نمارسها في الأحلام... وكأنّنا يا إلهي قد سطونا على سعادة وفرحة آخرين، فعاقبتنا بسلبها كلّها دفعة واحدة ودون أيّ مقدّمات. انقلبت أحلامي في العودة الغانمة إلى دارنا القديمة وحديقتها الجميلة، التي كانت الشغل الشاغل لأبي أثناء فترات حضوره... كلّها انقلبت إلى كوابيس مُرعبة. فكنتُ أستيقظُ على صوت صراخي العالي وأنا أرى السقف الكونكريتي النظيف ينهارُ عليّ بأكمله.
في هذا الجحيم القاسي، كان الشيء الوحيد الذي يهوّن عليّ كلّ تلك الكوابيس في الصحو وفي النوم هو الحضور الدائم لأبي. وأخيراً... أصبح أبي يُلازمني ويُلازم البيت باستمرار. وما عوّض عليّ فقداني لبريق الحياة الساحرة الأشبه باللعبة أيّام الثورة، كان وجود أبي وعدم خوفي من احتمال استشهاده. فكان ذلك أكبر تعويض، فقد أصبح الصديق الأقرب إليّ. ومع أنّه دخل في حالةٍ عصبيّة وانطوائيّة فريدة، إلّا أنّه عندما كان يحكي لي عن الثورة وتاريخ شعبنا، يستعيدُ ألقه، وتبرق عيناه من جديد. لكن سرعان ما يخفتُ البريق، بمجرّد وصول كلامه إلى الحديث عن نهاية الثورة. فكانت نظرته تفقد كلّ معاني الحركة والحياة. تلك النظرة التي لاحظتها مرعوباً، وهي تستقرّ للمرّة الأولى في عينيه، عندما فاجأه الأستاذ عزيز بذلك البند من الاتفاقية، الذي يخنق الثورة ويضطرّنا إلى أمرّ الخيارين: العودة نادمين، أو القبول بجحيم المخيّمات وذلّها.

في الغالب، كان ينهي كلامه بحديثه عن المؤامرة... فلولا المؤامرة، والتكالب الكبير عليهم، لتخطّت الثورة عتبة النصر الكبير، على حدّ قوله. ومنذ أن ذكّره الأستاذ عزيز بذلك البند من الاتفاقيّة في ذلك اليوم الذي تخلّى فيه عن عناده ورضخ للواقع الجديد، وأبي يحمرُّ عصبيّةً كلّما سمع باسم الجزائر حتّى ولو في الأخبار. فتحوّلت الجزائر في قاموسه، من نشيد حماسيّ جميل يَرفع به من معنويّات الأهل والأقارب ورفاق السلاح، إلى تعويذة شرّيرة كلّما سمع بها أو نطقها كانت تحوّله إلى كائن تشتعل في داخله جمرةٌ متّقدة من الغضب. لكنّها لا تتمكّن من الوصول إلى عينيه اللتين تذبلان وتفقدان فجأةً كلّ بريقٍ وحركة عند سماع أو نطق التعويذة تلك.
ذلك البند الذي لم يكن أبي قد سمع به أو أنّه تقصّد عدم إدراكه من قبل، ذاك البند من اتفاقيّة الجزائر، كان كافياً لإصابته بالمزيد من الصمت الذي انقلب إلى انكفاء على الذات وانطواء يلفّهُ غضبٌ مشوبٌ بالحزن، فانقلب علينا حديثُ الجزائر كعادته، لكنّه هذه المرّة في الاتجاه المعاكس تماماً.
حديث الجزائر الذي أزعج أبو سعد قبل أعوام في جلستنا المحرّمة الوحيدة، إلى درجة أنّه حتّى حين ودّعني وأنا أوصله إلى إحدى القرى الفاصلة بين مناطق كلّ فصيل من فصيلينا، أصرّ على رأيه، «إنّ الجزائر عاصمة الثورة وكلّ الثوار والأحرار في العالم». لكنّه لم يكن يعلم أنّه لا أحد يسعه أن يُدرك، كما أدركنا نحن، ماذا كانت تعني الجزائر حقّاً؟ فلا يقدّر النار إلّا من لعب بها. شعب الجزائر الذي لعب بنار الثورة التي ظلّت تحرق أصابعه ولم يتّعظ إلى أن روّضها وحوّلها، أثناء الثورة وبعدها، إلى منارة للثوّار وشعلتهم التي لا تُخمد، بحيث إنّنا كُنّا آنذاك نحاول أن نتشبّه بها وببطولاتها. حتّى إنّنا شبّهنا آنذاك ليلى قاسم الاستثنائية في التغلّب على الموت بجميلة بوحيرد. أجل، لا أحد يقدّر النار إلّا من لعب بها، ونحن أتقنّا اللعب بنار الثورة. لذا أدركنا ماذا كانت تعنيه جزائر الثورة مروّضة النار. لكن، فجأةً! انقلب كلّ شيء في لمح البصر، كما انقلبت بنادق البرنو، الشائعة الاستعمال في ثورتنا، رأساً على عقب.
ففي اللحظة التي كُنّا فيها على أبواب النصر، وكان الثوار والزعيم يمنّون النفس بخيالات استقبالهم المهيب والمنتظر على بوّابة النصر التاريخي الذي كانت تؤكّده، ليس فقط تلك الانتصارات الكبيرة المتحقّقة نتيجة بطولات أُسطورية في ميدان المعارك، حتّى إنّ نائب الرئيس ورجل النظام القويّ والممسك بزمام كلّ الأمور بقبضة من حديد، أكّد في ما بعد أنّهم كانوا يمرّون بأسوأ الأحوال، وكذلك مجموعة تقارير مختلفة كانت تؤكّد ميل كفّة التوازن على الأرض لمصلحة الثورة... في ذروة النصر تلك، وفي اللحظة التي كان كلّ شيء يسير، وفق هوانا وأحلامنا، فجأة!... انقلب كلّ شيء.
أجل، انقلب كلّ شيء وفي لمح البصر. لم يُعطنا المجال لنفهم ما يحدث. فقد حدث كلّ ذلك أسرع وأشدّ من البرق. انقلب علينا شاهنشاه، ملك الملوك. وطالب بإنهاء المعارك البطولية ضد النظام، وخيّرنا بين إلقاء السلاح أو مغادرة الأراضي الإيرانية فوراً... كما انقلبت علينا أميركا وخانتنا وخذلتنا بقسوة منقطعة النظير. لكنّ الذي كان يحزّ فينا أكثر من أيّ شيء آخر، من بين كلّ تلك الخيانات، وحتّى أكثر من كوننا قد أصبحنا ضحايا الصفقة التي أُنجزت بين رجل النظام القويّ وبين ملك ملوك إيران، فقد كان المؤلم جداً هو أن الجزائر كانت هي الراعية. جزائر الثورة، تحوّلت في غمضة عين إلى مجرّد سمسار ملطّخ اليدين بالنفط والدم. فكانت رائحة النفط والصفقة المريبة هي التي وأدت كلّ أحلامنا وآمالنا.

النار التي كانت مصدر إلهامنا بينما كُنّا نراقصُ نار ثورتنا ونلعب بها بإتقان.. نار الثورة الجزائريّة لم تحرق أصابعنا وحسب، بل كذلك أتت على الأخضر واليابس. فحوّلت مروج أرواحنا المتألّقة اخضراراً إلى رماد مغرق في الزرقة المتّشحة بالسواد.. فتحوّلت من نارٍ، طوع أيدينا، نلعب بها وتُلهمنا.. إلى نارٍ علينا فأحرقتنا حتّى أعماق الروح.

بدا كأنّ حبّنا للجزائر، وعشقنا وافتتاننا بها، لم يكن سوى حبٍّ ساذج من طرفٍ واحد. كانت هي الحلم، الحبيبة التي آمنّا بها وأمّنا لها، فإذا بها تطعننا في الظهر وتبيعنا بأبخس الأثمان، لتُشغّل طاحونة دمائنا وتطحن فيها عظام شهدائنا في صفقة عابقة برائحة الدم الملطّخ بالنفط والبارود.

كان ما حدث هو قفز على كلّ محرّم بما فيه استضافة أكثر الحكّام شراسةً ودمويّة للاتفاق على إجهاض ثورة شعب، لم يكن أقلّ في أيّ شيء، من شعب الجزائر العظيم. لكن، على الرغم من كلّ ذلك، لم يقبل أبي التوهين بالجزائر أبداً. لن أنسى أبداً، يوم أن شتمتُ الجزائر بعدما أنهى سرد حكايات الثورة. فنهرني بقوّةٍ قائلاً: ما ذنب الشعب الجزائري، وما ذنب شهداء الثورة الجزائرية، إن كان رئيسها انحرف عن مسار الثورة وخان دماء شهدائها؟

وحين رآني صامتاً فاغراً فمي من الدهشة، استدرك بنبرة حزن رافقتها دمعة، جاهد بعناد لكي يخفيها، وتمكّن من حبسها بشقّ الأنفس: إنّني أشفق على شهداء الجزائر، كما أشفق على شهدائنا. والفرق الوحيد، هو أننا لم نخن شهداءنا. وكما ترى، فإنّ التاريخ لا يذكر، ولو مرّة واحدة، شهداءَ.. لم يُغدر بهم.

إلّا أنّ كلّ ذلك لم يكن كفيلاً بإقناع أبي سعد، وظلّ مصرّاً على أنّ الثورة لا يمكن أن تنتصر، إلّا إذا اتّخذت من الجبهة الشيوعيّة العالميّة حليفاً ومن فكره الماركسي مناراً ومنهاجاً. كم أَشفق الآن، وأنا أقفُ في مراسم دفن هؤلاء الأبطال على أحلام أبي سعد التي انتهت في ما بعد إلى وهمٍ وأكاذيب مخجلة... وقد يكون الشيء الوحيد الذي كان محظوظاً فيه، هو أنّه لم يعش لكي يرى أحلامه وأحلام الملايين المتوهّمين بجنّة الاشتراكية تنهار بُعيد انهيار ذلك الجدار التاريخي الذي لم يصمد أمام توق الملايين إلى كسر القيود، وكلّ ذلك، بسرعة خاطفة، أذهلت العالم بأجمعه.

15

«قال إبليس: إن كان الكنز الطاهر بدا لي واضحاً، فأيُّ خوفٍ يعتريني بعد ذلك؟»
فريد الدين العطّار

يا لهشاشة الأحلام الرقيقة، وانهيارها المحزن!
ويا لغياب الأحبّة الذي يصبغ كلّ شيء بلونه القاسي المرّ...
هاجمته بكلّ ما أوتيت من قوّة... أضرب بكفيّ على صدره وأنا أنتحب: أنتم مجموعة مسلّحين لا أكثر، أنتم مجرّد عصابة، لا تمتّون للثورة بصلة. كيف تقتل الثورة الأحلام؟ كيف يقتل الثوار رفاقاً يسمّيهم أعداءً؟ إن كنتم كلّكم ثوّاراً، فلماذا تتقاتلون بهذه الدرجة من الوحشيّة والشراسة؟ منِ الثائر منكم، ومنِ المتآمر والخائن؟ قل لي، لماذا أنت صامت لا تردّ؟ إن كنتم متفرّغين هكذا لقتال بعضكم بعضاً، فلماذا يشغل النظام نفسه بكم أصلاً؟ كلّكم تنعتونه بالعدو، بينما أنتم مشغولون عنه، بقتال بعضكم بعضاً...
ضمّني إليه بقوّة، وقال بنبرةٍ متردّدة لم أسمعها منه من قبل: هذا هو واقع الحال، فحتّى لو وقعنا نحن بأيدي فصيلهم، فلن يفعلوا بنا أقلّ من ذلك. في المعركة المقبلة، قد تبكي عليّ أنا، بدلاً من أبي سعد.
لماذا قتلوا أبا سعد؟ لماذا قُتِلَ في تلك المعركة العبثيّة التي أودت بحياة العديد من ثوّار الطرفين؟ الغريب أن الطرفين يدّعيان الثوريّة والحقانيّة في مواقفهما، ويسطّرون العديد من التبريرات التي اقتنعوا بها فصدّقوها وأصبحت جزءاً من ثوابتهم ومقدّساتهم الوهميّة والخرافيّة... لقد وُئدت أحلامنا، وبالرغم من تيقّن أبي سعد، وهو يغادرني بأنّنا لن نلتقي، واشترط مازحاً أن يكون لقاؤنا الذي سيجري في الجنّة بحضور شاسوار، كنت مليئاً بالأمل في تحقّق لقائنا في ظروفٍ أفضل، تكون فيه العداوات بين فصائلهم قد انتهت، ونكون قد عُدنا إلى حياتنا الطبيعيّة في المدن، بعد تغيير الوضع وسقوط النظام، ذلك الوعد الذي كانت كلّ الفصائل المقاتلة تمنّينا به.
وما تدري نفس بأيّ أرضٍ تموت...
يا لهذا العبث! لم يكُن يهمُّ أبا سعد بأيّ أرض سيموت. لكنّه بالتأكيد، كان يهمّه كيف سيموت. والمؤكّد أنّه كان يتمنّى الموت مرفوع الرأس في معركةٍ بطوليّةٍ غير متكافئة ضدّ الجيش. لكنّه استُشهد في معركة شرسة متكافئة تماماً، دارت رحاها بين الفصيلين اللذين ينتمي إلى كلٍّ منهما أبو سعد وشاسوار. قد يكون غفا إلى الأبد وهو سعيد بأوهامه وأحلامه وقناعاته التي حاجج بها شاسوار في جلستهما المحرّمة عندي. راح أبو سعد ضحيّة تلك المعركة التي أصابتني باليأس من الثورة. حتّى إنّها أفقدتني بريق الانتصار المنتظر... لكنّ المثير للسخرية هو أنّ كلّاً من الطرفين ظلّ مصرّاً على أنّ قتلاه هو، هم الشهداء فقط.
كان شاسوار حزيناً لفقدنا أبا سعد ومجموعة المقاتلين الضحايا من رفاقه ورفاق أبي سعد أيضاً. وظلّ يذكر أبا سعد كلّ مرة وهو مليء بالحزن والأسى. أدخلني غياب أبي سعد الدرامي في حالة حزنٍ عميقة طال أمدها. فبالرغم من أنّني عشت مرارة غياب الأحبّة وفقدانهم، من وفاة أبي إلى استشهاد شقيقي تيمور إلى ابتعادي القسري عن أمّي، لم أعرف حقّاً معنى فقدان الأحبّة بهذا الكمّ الهائل من الرعب والحزن إلّا في حالتين غيّرتا توازن حياتي، فجاء الغياب الثالث القاتل الذي ما

زلت أمنّي النفس بأن يكون غياباً أو فقداناً مؤقّتاً ويكون كلّ ما أنا فيه الآن مجرّد كابوس سينتهي وألتقي مجدّداً بفاطمة.
يااااااه!
يا لغياب فاطمة الذي أنساني ألم ومرارة الفقد في الحالتين السابقتين.
يا لضحكتها التي بدأت تنهال كأمطار الخريف الأولى، التي تُسكر كلّ ذي روحٍ بعبقها المتميّز المليء بالحياة. الأمطار الخريفيّة الأولى التي تُجبر الجميع على تغيير نمط حياتهم بدءاً بالملابس وانتهاءً بطريقتهم في المشي... يا لضحكتها التي انهالت يوم انتقلتُ إلى فحص فرس الشيخ، التي لم يكن أحد يستطيع الاقتراب منها... تلك الفرس الخليّة، التي لم يستطع أحد امتطاء ظهرها سوى الشيخ. يومها، لم أعرف ما أنا فيه، كان كلّ جسمي في حالة ارتجاف واضحة. أخذت الشيخة الوالدة تحدّثني عن الفرس ومرضها، وكانت تصّر على أن الفرس قد أصابتها العين، وأنّ هذه الأدوية لن تجدي نفعاً، وأنّها تستغرب من موقف الشيخ الذي يعالج الجميع، بينما يصّر على عدم معالجة فرسه العزيزة عليه حتّى أكثر منها ومن الأولاد، بنفسه، ويبقى متمسّكاً بعلاجها باللجوء إلى الطبيب والأدوية.
لمَ لا تعلمين لماذا يمتنع عن معالجة فرسه بنفسه؟ إنّها نعمةٌ منّ عليّ الشيخ بها، لكي ألتقي وليّة العهد وأميرته الصغيرة عن قرب.. لكي أتوه في عبق عرقها الذي بدأ يتصبّب وينزل أحياناً من خلف الأُذن إلى رقبتها التي أصابتني بالذهول. إنها النعمة التي جعلتني أقف تحت انهمار هذه الضحكة إلى حدّ الغرق في سيولها.
– ماذا وجدتَ يا دكتور؟ هل علاج الفرس سهل إن شاء الله؟ أعادني سؤال الشيخة الأُمّ من شرودي بينما كنتُ أشكر نعمة الشيخ عليّ في سرّي: آه... نعم، اعذريني... نعم، الأمر بسيط إن شاء الله، الفرس تحتاج إلى إبرة صباحاً، وأخرى مساءً كلّ يوم، ولمدّة أسبوع.
عندما نطقتُ بذلك، انفرجتْ أسارير فاطمة بابتسامةٍ غريبةٍ عذبةٍ منّيتُ النفس بأنّها ابتسامة راحة، بينما كنت مرعوباً من فكرة أن تكون ابتسامة سخرية وازدراء.
انتهى الحفل اليومي، المسائي والصباحي. وأُصبتُ مع انتهائه بحالة فراغٍ مخيفة، تملأها التساؤلات والأفكار السوداوية. هي ابنة شيوخ، وبنات الشيوخ لا يمكن أن يحببن أو يدخلن في قصص حب، فقد يكون هذا الأمر مُحرّماً عليهنّ، أو قد يكون نتيجة التزام ذاتي... فهُنّ من ذريّة محمّد، ولسن مثلنا نحن البشر العاديين. وأنا (في عُرفهنّ)، أقلّ حتّى من البشر العاديين، أنا مجرّد سكّير زنديق، قد يُحرّمون معاملته.
هكذا فتح عليّ الجحيم كلّ أبوابه من جديد. فلو لم ألتقها، وهي حاضرة جلسَتَي العلاج اليومي لفرس والدها الشيخ... لما سمعتُ صوتها الذي دخل في كلّ خليّة ولم يخرج. في نهاية جلسة العلاج، في المساء الأخير، حسدتُ هذه الفرس التي تلمسها فاطمة وتناجيها، وتختلي إليها وتحبّها.
يااااااه! كم هي محظوظة هذه الفرس المتميّزة؟ يا إلهي! أنا مريض حقّاً... أنا مريض بها. حين يمرض الناس يذهبون إلى الطبيب. ولكن ماذا لو تمرّض الطبيب نفسه؟ فإلى أين سيلجأ حينها؟ المؤكّد أنّه لن يجد حلّاً آخر سوى اللجوء إلى الشيخ، ولن يجد علاجه إلّا عند الشيخ.
بقيتُ أعاني في هذا الجحيم، وقد بدت عليّ علامات الوهن الواضحة، إلى أن جاء أحد دراويش الشيخ، ينقل إليّ طلب الشيخ بالذهاب إلى بيته لمعالجة مريضة هناك. عندما دخلتُ بيت الشيخ للوهلة الأولى، أحسستُ بقلبي يضرب بقوّةٍ جدران صدري من الداخل، ووصل نبضه إلى حالةٍ

أقرب إلى الانفجار. عندما لمحتُ فاطمة تقفُ أمام باب الغرفة التي ترقد فيها المريضة، أردتُ الاقتراب لأسلّم عليها وكلّ جسمي يرجف من الخوف الممزوج بالعشق الأقرب إلى الحمّى. فابتعدت بسرعة وقالت كلمات لم أفهم منها سوى: ابتعد بسرعة، فإن رأونا معاً فسيقتلوننا فوراً.
– من الذين سيقتلوننا، ولماذا؟
– ابتعد بسرعة أرجوك...
لا أعرف كيف دخلت، وكيف سلّمتُ، وكيف فحصتُ المريضة، وكيف عالجتها. كنتُ تائهاً في معنى تصرّف فاطمة الغريب، وكلماتها المستعجلة الخاطفة المذعورة. أنهيتُ العلاج وخرجتُ من الغرفة حاملاً حقيبة الأدوية. كانت هي تقف في الخارج، بعيداً عن البيت، وقريباً من الباب الفاصل بين بيت الشيخ وتكيّته. اقتربتُ منها، كانت ترتجف. لم أعرف ماذا أفعل، كنتُ أرتجفُ أكثر منها. كنت أُجذّف لكيلا أغرق. لا أعرف كيف قلتُ في ذعرٍ بيّن: فاطمة، لماذا تنظرين إليّ بهذه الطريقة كلّما لمحتني؟ هل أنا مخيف، أم مزعج إلى تلك الدرجة، حتّى ترمقيني بتلك النظرات التي تسلبني روحي؟
لا أعرف كيف استعدتُ السيطرة على نفسي، وأنا أسمع كلامَها البسيط المباشر الصادق: أُقسم بالمصحف الذي يتلو منه أبي كلّ صباح، إنّني لم أشعر في حياتي كلّها بمثل ما أشعر به تجاهك. يشهد الله بأنّني لم أحبّ في حياتي كلّها أحداً كما أحببتك أنت...
ارتبكتُ... وقع كلامها صادماً، لا أعرف هل أرقص فرحاً، أم أسقط من شدّة المفاجأة؟ لا أعرف إلى الآن كيف استطعتُ أن أقول: أُقسم لك، بأنّني منذ سنتين، لم أعرف طعم نومٍ أو أكلٍ أو شراب. كانت حياتي مجرّد جحيم، وأنا مرعوب من أن تكون تلك النظرة، نظرة ازدراء... دهمني صمت، بينما هي خجلة ترتجف، لا تقدر أن ترفع رأسها. فسألتها: كنتُ مرعوباً من فكرة أن أُصارحك فترفضيني، أو تخبري عنّي أهلك، وتؤدّي بي إلى فضيحةٍ كبيرة... وهذا ما منعني من الاقتراب والكلام معك. لكن، قولي لي، منذ متى وأنت على هذه الحال؟
أجابت في ارتباك مغرق في الخجل: منذ أن لمحتك للمرة الأولى واقفاً تنظرُ إلينا ونحن نودّع بعض الضيوف منذ سنتين.
يا إلهي! ما كلّ هذا العبث؟ سنتان بالتمام والكمال، وأنا غارق في رعب تلك النظرات التي لم تكن سوى الشعاع الذي يبقيني على قيد الحياة... سنتان كاملتان من العذاب والرعب والكآبة، لتكون النهاية كلّ هذا الكمّ الهائل من الفرح الذي أخشى ألّا يكون بمقدور قلبي الصمود أمامه. ليلتها... لم أتمكّن من النوم كبقيّة الليالي، لكن هذه المرّة من الفرحة التي انهمرت سيولاً تجرفني وأنا أتلذّذ في الغرق فيها.
ذلك اليوم، دخلتُ مرحلةً جديدةً من حياتي، كانت أشبه بالولادة من جديد. كان كلّ شيء حلواً، عذباً مليئاً بطعم الحياة. ويزداد حلاوةً مع كلّ لقاء كان يتكرّر على نبع الماء، أو أمام التنّور الذي كانت نسوة بيت الشيخ يخبزن فيه. وكلّما لمحنا أحداً، كنتُ أتظاهر بأنّني إمّا قد ذهبتُ لأجلب الماء، أو كأنّني أتسلّمُ منها رغيف خبزٍ حارّاً. يااااه! يا لتلك الأرغفة التي كانت تفوح بعبق فاطمة... فاطمة التي دعتني إلى التقرّب إلى أبيها وحضور التكيّة باستمرار، لعلّهُ يتعرّف إليّ أكثر. فقد كانت مصرّة على أنّ والدها، إن عرف نقاء سريرتي كما تعرفها هي، فلن يرفضني أبداً. وهكذا، أصبحتُ مواظباً على حضور تكيّة الشيخ.

في أغلب الأحيان، كان الشيخ يتحدّثُ بالغيبيّات. وكان الكلّ يجمعون على أنّه يرى ما لا تراه أعين البشر. إنّه صاحب الكرامات التي تنهال على عينه الباطنيّة، فتُلهِمه الشفاء للمرضى وتنزل غضباً على السيّئين لتمسخهم إلى كائناتٍ مقيتة كثرت الحكايات عنها. فكنتُ كلّما أستمع إلى مثل هذه الكلمات، وأنا أحضر مجالس الشيخ وضيوفه في التكيّة، أُخاطبه في سرّي: «يا صاحب الكرامة، يا ذا العين الباطنيّة التي ترى بشفافية ما في دواخلنا، لماذا أُصبتَ بالعمى وأنت تصل كلّ مرّة إليّ أنا؟ لماذا لم تتعطّف عينك الباطنية الواقفة بكبرياء، وهي تستنكف النظر إلى مسكينٍ ذليل يتوسّل إليك أن تنظر إليه نظرة عطف واحدة لا غير؟ يا شيخ، يا من تشفي المرضى والمجانين، هل هناك في الكون مريض، محتاج، مسكين، يحتاج إلى عطفك ورحمتك، وقلبك الطيّب، كما أحتاج إليها أنا؟ إذن، لِمَ لا تُبصر عينك الباطنيّة ولا ترى ما أنا فيه من عذاب، وأنا أمنّي النفس بوصل ابنتك... حفيدة الرسول وذريّته الصالحة التي رفعتها السماء فوق مستوانا نحن؟».

أحياناً... كُنّا نلتقي في الغرفة الصغيرة المحاذية لباب التكيّة البعيد. في المرّة الأولى، رأيتها تبتعد وظهرها إلى الجدار وكأنّها تخافُ منّي. فطمأنتها بأنّني يستحيل أن ألمسها، فأنا لا أطمح سوى بالزواج وعلاقة الحبّ العفيفة. ويستحيل أن أفعل ما يُعكّر صفو نقاء هذا الحبّ العفيف. فاطمأنّت لبرهة، إلّا أنّ سحابة خوفٍ وقلق بانت في نظرتها المتشكّكة الخائفة، وتحت ضغطٍ منّي لتبوح بما تخشاه، قالت وهي ترتجف من الخوف: أخشى أن يأتي يومٌ وترحل وتتركني وحيدة.

أجبتُ على الفور: لن يمنعني عنك سوى الموت، أُقسم إنّني لن أتخلّى عنكِ حتّى لو دُمّر الكون بأكمله.

ردّت هي متردّدة: لا أعرف، لماذا لا أستطيع تصديقك...

– بماذا تريدينني أن أُثبت لك ذلك؟ أنا مستعدّ لأن أفعل أيّ شيءٍ يرضيك. سأذهب اليوم إلى الشيخ وأطلب يدك رسميّاً...

فقالت مذعورةً: أرجوك، لا تتسرّع، فهذا الأمر يحتاج إلى دقّةٍ كبيرة. فإذا رفضك، فلن يعود ليوافق أبداً، أنا لا أطلب منك الآن سوى أن تُقسم أمامي بأنّك لن ترحل وتتركني وحيدة.

أقسمتُ أمامها ثلاث مرات متتالية، بأنّني لن أتركها أبداً، حتّى لو انهار الكون، وبأنّني إمّا أن أكون لها أو للتراب والدود.

استمرّت هذه الوتيرة من الحياة المليئة بفاطمة، إلى أن نادتني من بعيدٍ رافعةً يدها، وهي واقفة بقرب الغرفة الصغيرة. ذهبتُ إليها، وجدتها منهارةً تبكي بحرقة، لم أعرف كيف أُهوّن عليها. لم ألمسها، لكنّني بقيتُ أتوسّل إليها كي تكفّ عن البكاء وتخبرني بما حدث. فقالت في حشرجات متقطّعة: لقد قرّر أبي نقلنا إلى المدينة، ويقول إنّ أطفالنا يجب أن يدخلوا المدارس لكي يتعلّموا. حاولتُ المستحيل، وأخبرتهم بأن عمر الدراسة قد فاتني، لكنّهم أصرّوا على أن أذهب لرعاية وخدمة الصغار.. وبذلك سنرحل غداً مساءً... سيبعدني عنك هؤلاء القساة، العديمو الرحمة.

يا إلهي! ما هذه العقوبة؟ هل أسعدتني لكي تعاقبني بهذه القسوة؟ يومها لم أستطع أن أُثني فاطمة عن البكاء وحسب، بل دخلتُ أنا أيضاً معها في موجة بكاءٍ تشبه نحيب الأطفال، ما حدا بفاطمة للجوء إلى محاولات تهدئتي، وطلبت منّي فجأة أن أضع يدي في يدها وأُعاهدها بأن أنتظرها وبأن لا أتخلّى عنها أبداً.

رفضتُ بقوّة فكرة أن أضع يدي في يدها، قائلاً والدموع تقطع وجنتي: أنا لن أصافحك حتّى أكون صادقاً، متى ما اضطررت يوماً ما، إلى أن أُقسم بأنّي لم ألمسك أبداً. لكنّي أُعاهدك بكلّ غالٍ، أنّني

لن أكون إلّا لك أو للتراب، وأنّني لن أتخلّى عنك حتّى لو دمّرت الدنيا على آخرها.
انهارت في موجة بكاءٍ جديدة، وخاطبتني بصوتٍ متقطّع أقرب إلى التوسّل والترجّي: أنا أُريد منك أن تتوب إلى الله توبةً صادقة. لعلّهُ يرحمنا ويجازينا خيراً، أقسم لي بأنك ستتوب، وأنّك لن تعاود شرب الخمر، وأنك ستبدأ صلاتك وعبادتك ودعواتك الصادقة الخالصة إلى الله فوراً.
لم أستطع مناقشتها، كنتُ مرعوباً من فكرة رحيلها إلى المدينة، قلت لها: إذا رحلتِ، فستأخذين معك روحي، ومع ذلك، ها أنا أقف أمامك، وأتوب على يديك المباركتين.
وركعتُ أمامها، وأنا أتوسّل إلى الله أن يرحمني ويغفر لي ذنوبي ويعفو عنّي، ويجمعني وفاطمة في بيتٍ واحد، لا أن يبعدها عني بكلّ هذه القسوة. ارتاحت فاطمة لتوبتي على يديها، وسألتني ماذا أنا فاعل؟ قلتُ بصوتٍ منهار: سأذهب اليوم عصراً إلى التكيّة وأعلن توبتي التي منيتُ بها على يديك المباركتين أمام الشيخ، لعلّهُ يلين قلبه.
ذهبتُ عصر ذلك اليوم، وأعلنتُ توبتي التي تلقيتُها من قبل على يدي الشيخة فاطمة، أمام الشيخ كاكه حمه، وأنا أقف بين يديه الحنونتين، ثمّ أصلّي للمرّة الأولى في حياتي، تلك المرّة التي كانت صلاةً صامتة، تخلو من أيّ كلام سوى التوسّل إلى الله، لكي يحول دون رحيل فاطمة وابتعادها عنّي. وكان أن أعلن الشيخ توبتي وسط صيحات «الله أكبر» المتعالية، وإعلانه حضوري لحلقة الذكر المُقامة في الليلة ذاتها.
يا إلهي!
يا قويّ، يا من تأمر، «كُن... فيكون»، يا من أنعمتَ عليّ بالتوبة، على يديْ ملاك من أرقّ ملائكتك، وقدّرتني على ترك المعاصي كلّها، بدءاً بالخمر والمخدِّرات، إنّني أستغفرك وأتوب إليك من كلّ ذنب عظيم، فحرقتي لفراق فاطمة تحيل الروح رماداً. وحتّى لو مُنعتُ من ترديد اسمها، فإنّ الروح تخرج زفرات رماديّة. فأنا لستُ نبيّاً... بل، حتّى الأنبياء ما سلموا من هذا المسّ، فالمحبّة تقضي على العقل، كما حدث لسيّدنا يعقوب، وكما يروي الهدهد: «ما إن افترق يوسف عن أبيه، حتّى ابيضّت عينا يعقوب لفراقه، وتلاطمت أمواج الدماء في عينيه، وظلّ اسم يوسف يتردّد على لسانه، فجاءه جبريل قائلاً: إن يرِد اسم يوسف على لسانك مرّة أخرى، فسنمحو اسمك من قائمة الرسل والأنبياء، وما إن جاءه الأمر من الحقّ في ذاك الزمان، حتّى كفّ عن ترديد اسم يوسف على اللسان، ولكن على الرغم من امتناعه عن ترديد الاسم ممّا به من خشية، ظلّ الاسم في الروح مقيماً.
وذات ليلة، رأى يوسف في منامه، فرغب في أن يدعوه إليه، ولكن سرعان ما تذكّر أمر الحقّ، فلزم الصمت في لهفةٍ واضطراب، وعلى الرغم منه انطلقت زفرةٌ تنمّ عن جزعه. وما إن نهض من رقاده الهنيء، حتّى جاءه جبريل قائلاً: إنّ الله يقول – ما معناه – مع أنّك لم تورد اسم يوسف على اللسان، فإنّك أطلقت زفرةً في ذاك الزمان، وأنت تعرف ما تنطوي عليه الزفرة، لذا فقد نقضت في الحقيقة توبتك، فأيّ جدوى؟
هكذا تقضي المحبّة على العقل بهذا التصرّف، فانظر ماذا يفعل العشق بنا...!».
يا خالق العشق الذي أودى بالعقل، فحتّى لو كان ذنبي زفرة واحدة، فإنّني أبقى طامعاً في بحر رحمتك الذي وسعه السماوات والأرض. إنّني أستغفرك، وأضع هذه الكأس جانباً وأُصلّي مجدّداً لعلّك ترحمني وتحقّق لي أُمنيتي الوحيدة في أن تُعيدها من تلك الصحراء الخانقة، وتجمعنا أنا وفاطمة تحت سقفٍ واحد...

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين،
إيّاك نعبد وإيّاك نستعين...

16

«لا تطلب الملك إن لم يكن لك عقل حمار،
إذ يعطي الملك للدوابّ أيّها الجاهل».
فريد الدين العطّار

يا لحديث الموت وحرقته!...
يا لحديث الموت وشماتته وعبثيّته!...
حقّاً، لا تدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت... وماذا تُخلّف وراءها... حرقة أم شماتة...
بعيداً عن حسابات الخلافات والصراعات الأيديولوجية، وبعيداً عن أوهامنا وحساباتنا، ظلّ بعض الناس يعتقدون بأنّ الله يُمهل ولا يُهمل، وأنّه المنتقم الجبّار، وأنّه عاقب كلّ أطراف مؤامرة الجزائر عقاباً نهائيّاً. فذلك العام الحاسم الغريب، حدثت فيه من الأمور، ما فاق كلّ تصوّر وخيال. لا بل كأنّ التوقيتات أيضاً كانت محسوبةً بدقّة وبفعل فاعل.
كان أبي قد بدأ منذ فترة بمتابعة وتداول أخبار اشتعال الثورة في الجبال من جديد من قِبل من كان يسمّيهم الشباب، فعادت إلى وجهه الخشن المتخشّب بعض النضارة والارتياح وقدر من الاطمئنان الذي لا يواري نهائيّاً كمّيةً واضحةً من القلق. حين سألته عن سبب قلقه، وهل الأمر خوف من أن تَلقى هذه الثورة نفس مصير السابقة، فتنهار، أجابني وقد فقد وجهه كلّ تعبيرٍ يمكن أن أستشفّ منه ما يجول في صدره: هناك أسوأ وأخطر من المؤامرات وتكالب القوى الدوليّة علينا، وهو ما يخيفني أكثر.
– عمَّ تتحدّث يا أبي؟ لكن قبل يوم الانهيار الأكبر، كان كلّ شيء يسير بمنتهى النجاح، ولولا المؤامرة، لانتصرت الثورة.
– المؤامرة الدولية أكبر منّا، وهي خارج إرادتنا. لكن ما هو أخطر منها، هو انشغال فصائل الثورة بالاقتتال في ما بينها. إنّهم يكرّرون، بمنتهى الغباء، نفس الحماقة التي أدّت إلى شقّ صفّ الثورة ودخولنا في حرب بعضنا ضدّ بعض.
– وهل حدث ما يدعوك إلى كلّ هذا القلق؟
– حدث وانتهى الأمر، لقد بدأوا بمقاتلة بعضهم بعضاً، ودوّامة اقتتال الإخوة هذه لها بداية فقط، وحيث إنها بدأت، فلن نرى لها نهايةً أبداً...
ومع كلّ ذلك، إلا أن إدمان أبي على ملازمة المذياع بدأ بالازدياد. فكنتُ أراقبه يتابع بقلقٍ وانغماس غريبين، سرعان ما أصبحا شيئاً فشيئاً أقرب إلى الحماسة، وبعض الابتسامة على وجهه، وهو يستمع لتلك الأخبار العجائبيّة التي كانت تنهال في مشهدٍ غريبٍ جدّاً.
بدأ ذلك مع اشتداد الخريف الثالث الذي تلى يوم الانهيار الأكبر...
أخذت الأخبار بالتوارد عن مرض الوسيط، الرئيس الذي جمع على مائدة النفط طرفي الاتفاقيّة وذبح على ضريح الثورة الجزائرية، ثورتنا اليافعة الموعودة بالنصر العاجل. هذه الأخبار جعلت أبي الذي لا يكلّ، يهرع من محطّةٍ خبريّة إلى أخرى، وباللغات العربيّة والفارسيّة. كنت أسمعه، وهو يهمس بالدعوة بعد كلّ صلاة، للشباب الذين أشعلوا الثورة من جديد في الجبال. لكنّ صوته كان يعلو أكثر فأكثر، وهو يدعو الله للانتقام من كلّ من خاننا وتآمر على ثورتنا. ومع توارد هذه الأخبار، تغيّر أسلوبه في شكر الله وحمده. فقد أضاف إليها، عند نهاية كلّ صلاة، الحمد والشكر

على نعمة الثورة الجديدة، وكذلك انتقام الله من الوسيط الذي استضاف الحفل البترولي الذي ذبح ثورتنا على مذبح جزائر الثورة، مصدر الإلهام ومنارتنا الأولى...
عاش الوسيط شهوره الأخيرة مُحيّراً العالم من خلال أخباره المتناقضة. وعاش أبي هذه الشهور مُلازماً مذياعه الجديد، يتلاطم ما بين مدّ وجزرٍ أفضل الأخبار وأسوئها عن الوسيط وعن صحّته.
قيل:
«إنّه مصاب منذ عدّة أسابيع بمرضٍ غريبٍ يمنعه من الظهور وممارسة مهامه».
«إنّه أصيب بالرصاص نتيجة تعرّضه لمحاولة اغتيال فاشلة قيل إنّه ألقى القبض على القائمين بها».
وفي محاولةٍ لإخفاء خبر «أنّه أُسقط من الحكم»، ردّوا بخبرٍ آخر يقول «إنّ الرئيس، حفظه الله، موجود في عاصمة الشرق للتفاوض حول صفقة سلاح لمصلحة جبهة الصمود والتصدّي».
«إنّ الرئيس يستعد لملء فراغ مصر، بعد زيارة رئيسها لبلاد العدوّ، وإنه، حفظه الله، يستعدّ لقيادة الأمّة إلى النصر».
«إن السبب وراء عدم ظهور الرئيس، هو إصابته بمرض خطير يصعب تشخيصه».
«الأخبار الواردة من عاصمة النور، تؤكّد أنّ حالته جيّدة وسيعود بعد علاج طويل في العاصمة التي قيل إنّه زارها من أجل السلاح».
«لقد فقد صوته بالكامل نتيجة آلام شديدة في الحلق».
... وهكذا، استمرّ توارد الأخبار من كلّ حدبٍ وصوب، من أبعد العواصم إلى أقربها:
«تأكيد إصابة الرئيس بآلامٍ في الحلق».
«خبر آلام البلعوم مؤكّد، إنّ الرئيس مصابٌ بالسرطان».
«طُرد صحافيّ فرنسيّ لنشره أخباراً مُفبركةً مُغرِضة عن مرضٍ أصاب الرئيس».
«إنّ الرئيس بصحّة ممتازة، وهو يعدّ لحملةٍ كبيرةٍ للتخلّص من الخوَنة والمتآمرين عليه وعلى نظامه».
«الرئيس مُصابٌ بمرضٍ بسيطٍ في المسالك البوليّة».
«الأطبّاء عاجزون عن تشخيص وتحديد مرض الرئيس الذي يتفاقم باستمرار».
«الرئيس على وشك الظهور عاجلاً بعد إحباط محاولة الانقلاب من قِبل الفرنسيّين».
مع حلول نهاية الخريف، بدا أنّ الوكالات قد حسمت أمرها، وأفادت بأنّ الرئيس مُصابٌ بمرضٍ نادر جدّاً. ومع بداية الشتاء، ظهر على العالم أحد رفاقه ليعلن للجميع: «إنّ الرئيس قد مات نتيجة إصابته بذلك المرض النادر». وبذلك، أسدل الستار على أخبار غيابه المثير للجدل، ليبقي الباب مفتوحاً على مصراعيه في إثارة شكوك كثيرة عن أسباب موته الذي أبقى الأطبّاء مختلفين حولها:
«إنّ الرئيس قضى نتيجة موتٍ طبيعيٍّ ناجمٍ عن مشاكل في الكلى».
«إنّ مرض الرئيس ليس مُفاجئاً، فقد بدت عليه بعض الأعراض منذ سنوات».
«لقد اغتيل الرئيس غيلةً».
«لقد سُمّم، وهذا مصير كلّ من يرفض المشاريع الاستسلاميّة للقوى الكبرى».
«لا يمكن استثناء أحدٍ، فكلّ رئيس دولة، وحتّى رفاقه، قد يكونون متورّطين في قتله».
لكن ظلّ الاحتمال الأغرب والأكثر إثارةً للسخرية، هو اتّهام «السيّد النائب»، الذي استضافه الوسيط لكي يوقّع الاتفاقية مع الإمبراطور، بالضلوع في تسميمه.

بالتزامن مع مرض الوسيط وموته ثمّ دفنه في مراسم مهيبة، كانت شوارع العاصمة الإمبراطوريّة والمدن الإيرانيّة الأخرى قد اكتظّت بجموعٍ هائلة، تهتف بصوت عالٍ مصاحبٍ لأزيز الرصاص وزمجرة الآليّات العسكريّة. فملك الملوك الذي احتفل قبل ذلك بسنوات قليلة عبر إقامة مراسم خرافيّة تفوق خيال ألف ليلة وليلة، بمناسبة مرور 2500 عام على تأسيس الإمبراطورية، ودعا إليها كلّ ملوك ورؤساء العالم، استيقظ هذه المرّة فجأةً على مشهد الشوارع الممتلئة بالناس والعسكر المتأهّب. ولكنّ خلافاً لكلّ مرة، لم تنزل كلّ هذه الحشود من العسكر والمدنيّين لتحيّة الإمبراطور وتجديد الولاء له. فهذه الأيّام، ليست تلك التي ظلّ هو والعالم يستذكرها في ما بعد بقدرٍ كبيرٍ من الدهشة.

تلك الأيّام التي كان فيها الإمبراطور غارقاً في أحلامه وهو يتبختر بحضور ملوك الشرق والغرب في غمرة نشوة الاحتفال الخرافيّ المهيب، الذي قيل في ما بعد، إنّه قد قدّم أثناءه، بالإضافة إلى كلّ ما لذّ وطاب، أطباقاً من لحم ستين من طيور الطاووس، التي كان يستهدف منها إضفاء كلّ ما في الدنيا من مظاهر الهيبة والرهبة والطقوس الإمبراطوريّة على الاحتفال بمناسبة تأسيس الإمبراطورية، وتتويجه لتاريخ البلاد، الذي يبدأ بالمؤسس الأوّل، قورش الأكبر، ليصل إليه هو، محمد رضا شاه، ملك الملوك. ذلك الحفل تخلّلته المسيرات والمظاهر العسكريّة الخرافيّة المهيبة، التي من خلالها أراد الإمبراطور، الربط بين لحظة تأسيس الإمبراطورية قبل 2500 عام، وبين لحظة حكمه حين تضمّنت تلك الاستعراضات العسكريّة لجيشه العتيد، عرضاً لآلاف من الجنود وهم يُقدّمون فقرتهم الخاصة بكامل زيّ الجيش الأخميني القديم، وبكلّ أنواع عدّته وعتاده وحتّى أساطيله.

كان نزول الجموع المحتفلة هذه المرّة من أجل إحياء أربعينيّة دماء ضحايا كلّ وجبة من الذين كانوا يسقطون على الشوارع برصاص قوّات الإمبراطور الأمنيّة، يزداد بصورةٍ عجيبة. كانت هذه الجموع النازلة إلى الشوارع، بالتزامن مع موت الوسيط، لا تكلّ ومستمرّة في الهتاف لا للإمبراطور، بل للمطالبة برحيله هذه المرّة. حتّى جيشه الذي كان يتباهى بقوّته وشدّة ولائه له، حين أمره بالنزول لقمع الجموع المطالبة برحيله، رفض الانصياع لأوامره. وكان العديد منهم ينضمّون إلى الجموع المتظاهرة باستمرار، بينما بقي كمؤسّسة، يحاول أن يحفظ دوره في عدم التورّط في إراقة دماء الناس.

وأخيراً، وبعد مرور أسبوعين فقط على دفن الوسيط في جنازة عسكريّة وشعبيّة مهيبة، ها هو ملك الملوك يهرب. بالرغم من كلّ محاولات الترقيع التي ضحّى فيها بإيداع البعض من أقرب المقرّبين إليه في السجون لتحميلهم أسباب استياء الناس، بدءاً برئيس الوزراء وتعيين حكومة جديدة، لكنّها كحال كلّ المحاولات الترقيعيّة فشلت. ولم تصمد أمام حجم استياء الناس واستعدادهم للموت من أجل طرده، فكانت النهاية محتومة. واضطرّ هو وعائلته إلى الهرب وترك البلاد. مشى، تُصاحبه زوجته الإمبراطورة الفاتنة، يستعرض حرس الشرف وهو يهبط في مطار القاهرة ويحظى باستقبال الملوك... وربّما راودته في تلك اللحظة آمال بأنّ الأمر كلّه مؤقّت وأنّه سرعان ما يعود، وأنّ التاريخ كفيلٌ بأن يعيد نفسه مرّة أخرى. فحلفاؤه الذين توّجوه وأعادوه إلى العرش بعد طرده، وهو لا يزال شابّاً ضعيفاً، قبل عقود مضت، كيف سيتخلّون عنه الآن وقد غدا الإمبراطور القويّ ملك الملوك؟

كانت هذه هي المرّة الثانية التي يهرب فيها. أمّا المرة الأولى فقد كانت قبل عقود، وكان لا يزال في ريعان شبابه تُصاحبه زوجته الثانية، ملكة الجمال، التي لم تُنجب له وليّ العهد وريث العرش. قيل إنّه حينها نزل في بغداد، وزار المراقد الدينيّة في كلٍّ من الكاظميّة وكربلاء والنجف، ثمّ توجّه منها إلى حيث يحوك المؤامرات للعودة. وقتها، كان الإمبراطور قد دخل في صراع مع رئيس وزرائه الملقّب بالدكتور، انتهى بانتصار غريمه، وأدّى إلى هروبه هو. لكنّه، بعد مرور عدّة أسابيع، سرعان ما عاد إلى العرش، بعد العديد من الدسائس التي جرت بإشراف حلفائه من القوى العظمى، والتي كانت تفوح برائحة النفط، وأدّت إلى الحكم على الدكتور، رئيس الوزراء، بالسجن ثلاث سنوات، ثم الحبس تحت الإقامة الجبرية، بقيّة حياته الغارقة في الحزن والانزواء الأبديّ.
بدا الأمر مُختلفاً تماماً هذه المرّة، فبعد مرور أسابيع من هروبه هو وعائلته، نزل بخطوات بطيئة واثقة، شيخٌ متّشحٌ بالسواد من أعلى عمامته إلى أخمص قدميه، تُناقِض كلّ ذلك السواد وبشكل صارخ، لحيته البيضاء الطويلة المنسدلة على صدره. نزل على سلّم طائرة الإيرباص، التي قيل حينها، إنّها أعادته من عاصمة النور في القرن العشرين إلى القرن الثامن عشر، يُمسك بيده ضابط وينزل من خلفه مجموعة رجال معمّمين، وقد أطلقوا لحاهم السوداء. نزل وأعلن انتهاء النظام وبداية عهدٍ جديد، سُمّي بعهد الإمام على اسم الشيخ المعمّم الملتحي. ومسح بسرعة البرق، كلّ مظاهر الألوان، وصبغ كلّ شيءٍ بلون سواد عباءته... وظلّ يضغط على كلّ بلد ينزل فيه الإمبراطور وزوجته الفاتنة الحزينة وأسرته، ويصرّ على تسليمهم.
حوّلت هذه الضغوط حياته إلى جحيمٍ لا يُطاق. فالإمبراطور الذي كان يتفاخر بأنّه من بين أهم ملوك ورؤساء العالم، وأنّ نظامه هو الأقوى... الإمبراطور الذي كان الآخرون يهرعون إليه... الإمبراطور الذي أسكن العشرات من ملوك العالم وزعمائه لعدّة أيّام في خيامٍ يشهدون حفله الأسطوري الذي أقامه لا في قصوره، بل في خيام نصبها لهم خصّيصاً في موقع الأطلال التي بناها مؤسّس الإمبراطورية قورش الأوّل، والمُسمّى تخت جمشيد، البعيد عن عاصمة البلاد الحاليّة... ذلك الإمبراطور، أصبح الآن، لا يجد قطعة أرض يسكنها في سلام. فبعد استقراره في أميركا، ونزوله في قاعدة عسكريّة للعلاج من مرضه الخطير، بعدما كان قد تنقّل بين عدّة بلدان، ظلّ الشيخ الملتحي (الإمام)، يُصرّ على تسليمه الإمبراطور وأسرته، أو طردهم خارج أراضيها. وأمام رفض الأميركان الاستجابة لطلبه، امتلأت الشاشات بنشر أخبار تحرّك جموع غاضبة من الطلبة المستميتين في ولائهم للإمام، وهم يهاجمون سفارة «الشيطان الأكبر» كما كان يحلو لهم تسميتها، وطغت هذه الأخبار وصور الأميركان المحتجزين في سفارتهم على كلّ ما عداها من أخبار.
الكثير من أقاربنا كانوا فرحين بما يحدث، معتبرين إيّاه منّة من الله وانتقاماً لتآمر الأميركان علينا وخيانتهم لثورتنا الفتيّة..
– هذا هو جزاء الأميركان على خيانتهم للثورة وزعيمها.
– إنّ الله يُمهل ولا يُهمل، إنّه المنتقم العزيز الجبّار، فكما يعزّ، ها هو يذلّ الإمبراطور، لدرجة أنّه سبحانه لا يمنحه الموت ليعفيه من عذاب ضيق الأرض عليه وعلى أهله.
– يعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء...
كان حديث الأهل والأقارب يدور في هذا الإطار، فرحين إلى أبعد الحدود، مُتشفّين بما حصل لمن خانونا أو تآمروا علينا. وطبعاً، دون أن ينسوا ذكر موت الوسيط قبل ذلك... كلّ هذا، وأبي

مواظبٌ على متابعة الأخبار بشغفٍ كبير. كان مليئاً بالتشفّي ممّا يحدث، ويحمد الله على نعمة الانتقام. إلّا أنّني لم أره بعد يوم الانهيار الأكبر بتلك الضحكة التي كان الغلّ والتشفّي يتطايران منها. هكذا نزل عليه وقع الخبر. فقد مات الإمبراطور منفيّاً مطروداً في منفاه الأخير، وأراح بذلك زعماء العالم الذين كانوا يدينون له من قبل، لكنّهم أداروا له ظهورهم ورفضوا استقباله في أيّامه الأخيرة. فحتّى مرضه الخطير لم يشفع له...

ضرب أبي المذياع بكلّ قوته على الأرض، وتلاشى أجزاءً متطايرة... بدأ يشتم ويكفر ويضرب الحائط بكفّه، ثمّ خرّ مستنداً بظهره إلى الجدار، وسلّم رأسه إلى ركبتيه، ودخل في صمت رهيب، سرعان ما تحوّل إلى نحيبٍ بصوتٍ عالٍ، يتمتم بدعوات غير مفهومة، مصحوبة بعبارات كفرٍ أكثر وضوحاً، لم أنسها بقيّة حياتي. وقع الخبر على الجميع كضربة شمس تفقدك القدرة على فعل أيّ شيء. جاء الخبر ليُعكّر على أبي والأقارب حفلة الشماتة المستمرّة منذ عدّة أشهر.

علمتُ بعد ذلك ببرهة، أنّ ذنب المذياع المسكين، هو أنّه نقل خبراً يكمل به كارثة الانهيار الأكبر، ليقول: «لقد مات الزعيم»... هكذا بكلّ بساطة، مات في مستشفى في عاصمة الأميركان الذين خانوه وأداروا له ظهورهم قبل ذلك بأربعة أعوام... مات نتيجة نفس المرض الذي أودى بحياة الإمبراطور، بعد ذلك بعدّة شهور... تذكّرتُ يومها، المذياع الذي كسره جارنا، وهو يضرب به بكلّ قوته على الصخرة الكبيرة التي كانت تقف بعناد أمام باب خيمته... فأصبحتُ أتخوّف من المذياع وأخباره حتّى لو كانت سعيدة... بدا كأنّ المذياع يستمرّ في نقل الأخبار المفرحة، أو التي تُريح من الشماتة، وكأنّه كان يفعل ذلك ليستدرجنا إلى المنطقة الحاسمة، الزاوية الحرجة، التي لا مخرج لها، ليهوي على رؤوسنا بخبرٍ يحوّل فرحتنا الشامتة إلى مراسم عزاء سرّية صامتة... أو يغرقنا في الحزن واليأس، ليذكّرنا بأنّه ليس من حقّنا أن نفرح حتّى لو كان ذلك من قبيل الشماتة.

كنتُ خائفاً عليه هذه المرّة حقّاً، امتلأتُ بالذعر حينما رأيتُه ينتحب كاليتيم. خوفي عليه هوّن عليّ وقع كارثة موت الزعيم التي أدخلته قسراً للغرفة التي لم يخرج منها طيلة يومين، لم يذق خلالهما طعم الأكل، رافضاً دخول أحدٍ عليه. في نهاية اليوم الثاني، فتحت الباب لكنّه لم يصرخ كعادته، ازداد نبضي بصورةٍ جنونيّةٍ، بدا الأمر وكأنّني أشتعل من شدّة الحُمّى. للحظة، ملأتني فكرة احتمال موت أبي بحالة الارتجاف من شدّة الخوف... كان مُستلقياً على وجهه... وأخيراً، وأمام بكائي، نهض أبي... ضمّني إليه بقوّة وأخذ يبكي بحرارة، أسندتُ رأسي إلى صدره الذي كان يتلاطم كالموج الهائج المجنون. للمرّة الأولى في حياتي، أحسست برائحة الإعياء الممزوجة بعرق الحزن، التي كانت تفوح من صدره. ثمّ بعد أن تعبنا من البكاء، مسح عينيه وسألني في محبّةٍ غامرة: هل تناولت العشاء؟

فأخبرته بأنّني أيضاً لم أذق طعاماً منذ يومين. ردّ مُحاولاً السيطرة على الوضع، يدعوني للعشاء. وكأنّ ذلك العشاء، كان الحدّ الفاصل بين كلّ ما حصل من قبل، وكلّ ما سيحصل في ما بعد. لقد تغيّر كلّ شيء... غيّر موت الزعيم موازين وطعم الحزن والبكاء والضحك. فأبكى الجميع كاليتامى، لكنّه أبكاني أنا بُكاءً مختلفاً تماماً، كانت تلك هي المرّة الثانية التي أبكي فيها بهذا الطعم واللون من البكاء. لقد كانت المرة الأولى هي تلك التي بكيت فيها عند سماعي خبر الانهيار الأكبر وموت الثورة. يومها كان بكائي ذاك، هو بكائي الأخير كطفل، وبكائي الأوّل كرجل. بعد ذلك، أصبحتُ كمن اختلّ توازنه، اختفت مع كلّ شيءٍ جميل طفولتي أيضاً... فمع موت الثورة، وبطلان سحرها، ماتت طفولتي المليئة بمتعة لعبة الحياة، وحلّ محلّها كائن آخر يختلف في كلّ شيء

ومحكوم بهاجس الرجولة التي يضحّي من أجلها بكلّ شيءٍ أمام مفترقات الطرق التي تفرض عليه الاختيار، ما بين رجولته، وبين الدنيا وما فيها.
ما تدري نفسٌ ما كسبت وما تدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت...
وأنا أقف الآن، في هذه المقبرة، أرافق آتيلا في لحظاته الأخيرة، داهمتني أفكارٌ غريبة، وكأنّني أستعيد كلّ ما حدث لأستخرج أو أدرك دلالاتها. وأنا أقف أمام موت أعزّ صديق، أستحضر كلّ ما قرأتُ وسمعتُ وشاهدت لسنوات طويلة، وأغرق في حيرة، تقفز أمامي الدلالات وتعرض نفسها بدرجةٍ من الوضوح أصابتني بالذهول. يا إلهي! وكأنّ كلّ شيءٍ كان مدبّراً وموقوتاً. يمرض الوسيط الذي انقلب قبل ذلك بسنوات على رفيقه وأودعه السجن ليعتلي العرش الذي كلّف الجزائريين مليون شهيد. ثمّ يُحيّر الأطبّاء في مرضه الذي أصابه في أيّامه الأخيرة بفقدان الوزن، وقدر كبير من الوهن، ويموت لأسباب غامضة مجهولة. أمام هذه النهاية العجيبة، لم أفهم حقّاً لمن انتقم الله من الوسيط، هل كان ذلك لرفيقه ورئيسه، أم لشهداء الجزائر التي حوّلها الرئيس من منارة الثورة إلى مذبح لثورتنا؟ أم كان ذلك انتقاماً لنا ولثورتنا المغدورة؟
بعد ذلك بمجرّد أسابيع قليلة، يهرب الإمبراطور الذي كانت حياته ومماته سلسلة من أغرب القصص على الإطلاق. فهو الذي اعتلى العرش تحت وصاية الأجانب نتيجة إطاحة أبيه الملك ونفيه. أبوه الذي تنقّل من منفى إلى منفى، إلى أن مات منفيّاً في جنوب أفريقيا، ونُقل جثمانه إلى القاهرة ودُفن فيها. أمّا هو، فقد كُتب عليه أن ينتقل من القاهرة إلى المكسيك، ثمّ إلى أميركا طلباً للعلاج، ثمّ خروجه منها بطلب من الحكومة إلى المكسيك التي رفضت استقباله، فتوجّه إلى بنما، ليستقرّ في دورة عبثيّة أعادته إلى القاهرة حيث مثوى أبيه السابق.
فقصور الإمبراطورية التي حوّلها الإمام بعد هربه إلى متاحف يزورها الناس من كلّ حدب وصوب، وطول بقائه على العرش، قد يكونان أصاباه بخرافة الأبديّة، وأوصلاه إلى الاعتقاد بأنّه لن يموت أو أنّه سيُخلَّد على الأقل، كأعظم أباطرة بلاد فارس، بعد المؤسِّس كورش الكبير، وتكون له وباسمه مقبرة خاصة، ليُدفن فيها إلى جانب والده الذي أعاد رفاته بعد أن طلّق زوجته الأولى. فإذا بالدنيا تضيق به ويموت في أرض لم تخطر لا على باله هو، ولا حتّى على بال أحد أبداً. بعد طلاقه زوجته الأولى، سليلة الخديوي، التي لم تُنجب له الابن الذكر، وريث العرش الإمبراطوري، حدثت أزمة كبيرة بين البلدين، ما دعا الإمبراطور إلى إعادة رفات أبيه ودفنها في طهران في قبر كبير مهيب... لكنّ ذلك القبر دُمّر على أيدي مؤيّدي الإمام، في ما بعد...
أنا لا أعرف لمن انتقم الله حقّاً؟ هل لضحايا نظام الإمبراطور؟ أم بسبب فسق نظامه ومظاهر الخلاعة التي ملأت البلد، كما كان يحلو للنظام الجديد والناس المتديّنين القول؟ أو ربّما يكون انتقم لطيور الطاووس الملكية الجميلة الرقيقة، التي قدّمها وليمةً للرؤساء والملوك في احتفاله الخرافي؟ لكنّ أهالينا ظلّوا يصرّون على أنّه انتقام الله، لما فعله الإمبراطور بنا وبثورتنا، فأنزل مع هذا الخبر كلّ ذلك الفرح. كلّ ذلك الكمّ الكبير المتفجّر من الغلّ والشماتة، أصابني أنا بقلقٍ كبير. فبعد ذلك الانهيار الذي أنهى حياة الخيام الاعتيادية وحوّلها إلى جحيم بيوت نظيفة، تفتقد عبق الثورة وجذوتها وحرارتها... حوّلها من لعبة مستمرّة لا تنتهي، إلى مللٍ قاتل، منذ ذلك الانهيار ونزول تلك الصاعقة، بدأتُ أخاف من كلّ ضحكة وكلّ فرحة، حتّى الشماتة لم أستطع تذوّقها كالآخرين. وكأنّ قلبي كان متحسِّساً لما سيحلّ بنا. ففي الوقت الذي كانت فيه أميركا تنذر الإمبراطور بالخروج من أراضيها، يموت زعيمنا، ويصل جثمانه بعد ثلاثة أيّام فقط إلى عاصمة الإمبراطور

السابقة، والعاصمة الحالية للإمام، ويُدفن في مقبرة في كردستان الإيرانيّة وفي مراسم شعبيّة مهيبة. وكلّ ذلك، قبل حلول الذكرى الرابعة ليوم الانهيار الأكبر، أي بعد اكتمال السنة الرابعة لتوقيع اتفاقيّة الجزائر بيوم واحد فقط! فمن الذي دبّر هذه التوقيتات بكلّ هذه الدقّة، ولماذا؟!

وأخيراً، بعيداً عن أبّهة القصور وتخت جمشيد، ها هي الإمبراطورة الفاتنة، التي منحت الإمبراطور وريث العرش الذي لم يُقدَّر له أن يعتليه، تمشي خلف جنازة الإمبراطور في الغربة. تسير وقد فقدت كلّ شيء، فقد كانت يوم تتويجها كأوّل امرأة تُتوَّج إمبراطورة في تاريخ البلاد، تكتسي كلّ مظاهر العظمة والكبرياء، وهي تقف إلى جانب الإمبراطور، وقد اصطفّ ملوك الشرق والغرب ليسلّموا عليهما وكأنّهم جاؤوا يباركون عيد ميلادها، الذي صادف، في توقيتٍ غريب، نفس ذلك اليوم الذي تأسست فيه الإمبراطورية قبل 2500 عام.

ها هي تعود إلى القاهرة، لتسير مع مشيّعين يمشون ببطء خلف عربة مدفعٍ يجرّها الخيل، تحمل جثمان الإمبراطور. لقد ضاع كلّ شيء، ولم يحضر الجنازةَ ملكٌ ولا رئيس. وكلّ من حضر، كان يحمل صفة زعيم سابق أو ملك سابق. وكان الزعيم الفعليّ الوحيد، هو الرئيس السادات، رئيس الدولة المضيفة له ولجثمانه. وكلّ ما عدا ذلك، كان يحمل صفة السابق. ومن سخريات القدر أنّه حتّى العلم الإيراني الذي كان يلفّ جثمانه، كان قد أصبح سابقاً... إذ كان قد استُبدل في تلك اللحظات تحديداً، وفي غفلة من المشيّعين، بعلمٍ آخر ظلّ محتفظاً بألوانه الثلاثة، لكن طُرد منه الأسد حامل السيف، والشمس التي تشرق عن ظهره، ووُضع مكانهما مجموعة أهلّة حمراء مرتبطة بعضها ببعض، ترمز إلى اسم الله.

حين أستغرق في كلّ الدلالات التي تخفيها هذه الأحداث، يتملّكني ذهولٌ غريب، إذ إنّ دلالاتها وتوقيتاتها تفوق أكثر الخيالات خصوبةً. فلم يُدفن الإمبراطور كما كان قد خطّط بجانب قبر أبيه في عاصمة إمبراطورتيّه، ذلك القبر الذي بناه بجانب قبر الشاه عبد العظيم، وحوّله إلى مزار بعد أن أعاد جثمانه من منفاه في غرفة في المسجد الرفاعي في القاهرة. فقد قضى الملك المنفيّ بعيداً عن عرشه المسلوب بجوهانسبرغ في توقيتٍ غريبٍ جداً. حدث ذلك في يوم صيف قائظ، وكأنّه كان متواعداً بتوقيت لوفاة الإمبراطور ابنه في المنفى أيضاً، الذي مات في القاهرة في يوم صيف قائظ وبعد مرور يوم واحد فقط على الذكرى السادسة والثلاثين لموت أبيه المنفيّ.

لم يُدفن الإمبراطور بجانب الضريح المهيب الذي بناه لأبيه. أبوه الذي مات معزولاً ومنفيّاً، وأُعيد جثمانه بعد طلاق الإمبراطور لزوجته الأولى، سليلة العرش الملكي الفرعوني، وأعيد الجثمان من القاهرة. وكان في استقباله عشرات الآلاف من الناس، في مدن وبلدات البلاد الإمبراطورية، وحظي بتشييع مهيب مشى فيه الإمبراطور يرافقه زعماء وملوك العالم. في المقابل، ها هو الإمبراطور يموت وحيداً منفياً لا يسير خلفه سوى الزعماء السابقين، ويلفّه علم تحوّل صبيحة ذلك اليوم إلى راية سابقة. ولا يُدفن في قبرٍ مهيبٍ بجانب قبر أبيه في المزار، بل يُدفن في مدينة القاهرة، وفي الغرفة ذاتها التي كان والده يرقد فيها منفيّاً، قبل إعادة جثمانه وسكونه المؤقّت في ضريحه المهيب الذي دمّره مؤيّدو الإمام... بينما دُفن زعيمنا، في إحدى بلدات كردستان التابعة للإمبراطورية، في جنازة شعبيّة مهيبة، أضفى عليها الحزن الجماعي المزيد من المهابة.

جرى كلّ ذلك، والناس يتمايلون يميناً ويساراً، مع الأحداث وقسوة الأخبار وفرحها. إلّا أنّهم كانوا لا يزالون يستغربون كيف استثنى الله الطرف الأساس في التوقيع على الاتفاقية من انتقامه العادل؟ كيف استثنى، لا بل وحتّى كافأ رجل النظام القوي الذي بدا في اللحظة التي قفز فيها على كلّ

الأعراف الدبلوماسية، ليُصافح الإمبراطور ويوقّع معه الاتفاقية؟ حينها، بدا كأنّه هو الرئيس الفعليّ للبلاد، لا نائب الرئيس... الرجل القويّ الذي وقّع الاتفاقية مع الإمبراطور على وقع تصفيق ملوك العالم وزعمائه، ثمّ عاد بعد سنوات قليلة، ليمزّقها ويعلن إلغاءها، وسط حفل تصفيقٍ قلّ نظيره...

17

«ما أجمل جرأته، ما أجملها، فقد جعلت هذا المجنون شبيهاً بالنار».
فريد الدين العطّار

يا لسخرية القدر وعبثيّة الحياة!
كيف يمكن للحرب أن تكون رحيمة إلى هذا الحدّ المخيف؟!
فبعد حضوري حلقة الذكر التي دعاني إليها الشيخ، والتي كنتُ أثناءها تائهاً ومنقطعاً عن كلّ شيء، عدا دعواتي لكي يحدث ما يؤدّي إلى منع فاطمة من الرحيل إلى المدينة، قضيتُ ليلتي تلك، وأنا أبتهل وأبكي وأتوسّل إلى الله، أن يفعل ما يمنع ذلك الرحيل المفجع. حتّى النهار الذي تلى تلك الليلة، قضيتُ معظمه مهموماً لا تنقطع دموعي ودعواتي. كنتُ أركع أحياناً على السجادة التي منحني إيّاها الشيخ مساء اليوم الذي أعلنتُ فيه توبتي أمامه. وأدخل أحياناً أخرى في سجدةٍ طويلة، وأنا لا أحفظ شيئاً من الصلاة. حتّى سورة الفاتحة لم أكن أحفظها، ولم أكن أعلم حتّى ما الذي يردّده الناس أثناء إقامة صلواتهم. لم أذق طعم النوم، فتورّمت عيناي، ولم أعرف طعم الغذاء والماء. وكأنّني كنتُ في حالة صومٍ قسرية، أو غيبانيّة، رفعت رأسي، وقد غمرتني حالة ارتياح غريبة، تصوّرتها نتيجة كثرة البكاء وانزياح كلّ الحزن من قلبي، نتيجة تفريغها ببحور الدموع التي ذرفتها باستمرار منذ سماعي قرار الشيخ بإرسال عائلته إلى المدينة، وتلك الدموع التي ذرفتها أثناء صلاتي الأولى في تكيّة الشيخ، لا بل وحتّى أثناء إقامة حلقة الذكر.
قرّرت التوجّه إلى تكيّة الشيخ لإقامة صلاة العصر، مُمنّياً النفس برؤية فاطمة ولو للمرّة الأخيرة. ففوجئتُ بوجود أناس غرباء كثيرين في القرية، تشي هيئتهم بأنّهم ليسوا من سكّان القرى. كانت التكيّة أيضاً مليئة بالرجال الغرباء، وكان الحديث ساخناً عن هروبهم من المدينة صباح ذلك اليوم. فقد كانت الطائرات الإيرانيّة قد قصفت صبيحة ذلك اليوم المدينة، فأدّى ذلك إلى هرب الكثير من سكّانها إلى القرى، ما دفع بالشيخ إلى العدول عن فكرة إرسال أولاده إلى المدينة.
يااااااه!
يا لقدرة القادر حين يجترح المعجزات؟!
هل يُعقل أن تكون الحكمة من إشعال تلك الحرب الطاحنة، وموت عشرات الآلاف، ودمار البلاد، لكي ينعم الله عليّ أنا بمعجزة تمنع رحيل فاطمة إلى المدينة؟
يا لقسوة الرحمة وضريبتها الكبيرة! عندما تقع المعجزات...
كانت الحرب قد قامت منذ فترة على إثر التصفيق المنقطع النظير الذي لقيه قرار الرئيس الجديد إلغاء اتفاقيّة الجزائر بعد تمزيقها...
يا لسخرية الأقدار، وتفنّنها في التلاعب بنا! طيلة حياتي التي قضيت شطراً كبيراً منها في الإدمان والسكر والعربدة، وقفتُ ثلاث مرّات أمام وقع انقطاعي عن الخمر والمسكرات. المرّة الثانية كانت تلك الفترة التي قضيتُها في سجن الثورة بتهمة زراعة الحشيش، وكانت هذه المرّة قسريّة. وكانت الثالثة هي التي قرّرتُها أنا، بمحض إرادتي، وأدّت بي على الفور إلى التوبة، التي لم أذق بعدها طعم الخمر، لغاية هذه اللحظة التي أصارع فيها الله بهذه الكأس بعبثيّة لا تنتهي. أمّا المرّة الأولى التي اضطررتُ فيها إلى ترك الخمر قسريّاً، فقد كانت قبل انتقالي أصلاً إلى القرية الواقعة في إحدى المناطق التي تحكمها الثورة... وكانت مرتبطة بحدثٍ هزّ البلد بأكمله.

صحوتُ ذلك اليوم على قرار استدعائي أنا وأغلب شباب ورجال البلد، للالتحاق بالخدمة العسكريّة... وهاجت الدنيا. كان الناس يصلّون ويتضرّعون إلى الله لكي ينهي هذه الحرب بسرعة. وكان الأمل السائد هو أنّها ستتوقف اليوم أو ربّما غداً. بدأوا يقدّمون القرابين ويصلّون خلسة لانتهاء الحرب. فقد كان الحديث العلنيّ عن تمنّي انتهاء الحرب، جريمةً ترقى إلى مصاف الخيانة العظمى، بينما كنتُ أنا منقطعاً عن كلّ هذا تماماً. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي استُدعيتُ فيه للالتحاق بالجيش. كنتُ مرعوباً من احتمال انقطاعي عن الخمر لا خوفاً من الموت في المعارك. لم يكن منظر النعوش وهي تعود ملفوفة بالعلم العراقي ذي النجوم الثلاث الخضراء، وكلّ النحيب والبكاء الحار يعنيني في شيء. لحظتها، كان كلّ تفكيري منصبّاً على كيفيّة الحصول على الخمر والمهدِّئات وكيفيّة ممارسة هذا الإدمان، بحيث لا ينكشف أمري.
انهارت مملكتي الهادئة المعزولة عن العالم.. مملكتي التي كنتُ أعانق فيها كلّ ليلة، قنّينة خمرٍ مختلفة. فكنتُ كالملوك الذين يعانقون كلّ ليلة جاريةً مختلفة. كنتُ تائهاً في ألف ليلة وليلة ضياعٍ وعزلة. إلى أن جاءت الحرب، وأنهت بقرارٍ صارمٍ كلّ شيء. فكانت تلك هي المرة الأولى التي أشعر فيها بمرارة الحرمان، إلى تلك الدرجة من القسوة. مرّت الأيام الأولى في المعسكر صعبةً جداً. قضيتُها وكأنّني في الجحيم، بعيداً عن كلّ أنواع المُسكرات، إذ أدّت بي إلى فقدان أعصابي والاصطدام ببعض الجنود. فتلقّيتُ العقوبة ودخلتُ السجن للمرّة الأولى في حياتي. كانت الجبهات قد بدأت تحتاج إلى المزيد من الجنود. فأخذوا يتساهلون أكثر فأكثر في التعامل مع مشاحنات الجنود، فأُطلق سراحي، ونُقلنا على إثرها إلى الجبهة في أقصى جنوب البلاد.
في الجبهة، لم تعد هناك أسماء نحملها. لم نعُد نُشكّل بشراً تربطنا علاقات محبّة، أو نفور، أو كراهية... بل أصبحنا مجموعة أرقام مسجّلة إلى جانب أسمائنا على قطعة المعدن التي كان علينا أن نتقلّدها كقلادةٍ معلّقة في أعناقنا. أرقام تصطفّ لتسلّم الأكل الذي لم يكن يمتّ بصلة، ولو من قبيل الرائحة، إلى أكل البشر. أصبحنا قطعاناً تحت مسمّيات وحداتٍ عسكرية تُنقل كقطيع بأكمله إلى النقطة الفلانيّة، ثم تُسحب بكاملها إلى النقطة الفلانيّة. لم أكُن أعي حقيقة ما يدور حولي. وبالرغم من كلّ محاولاتي لم أتمكّن حتّى هذه اللحظة، من استيعاب ما كان يحدث حقاً. ما زلتُ لا أفهم إلى الآن، لماذا كان الناس يصرّون على مناداة جميع الجنود بكُنيةٍ واحدة؟ حتّى عندما كُنّا ننزل من المعسكرات أثناء زياراتنا القصيرة للمدن والبلدات القريبة؟ كُنّا جميعاً نحمل كُنيةً واحدة، وكأنّنا لسنا بشراً، بل مجرّد أجهزة موت تحمل كُنيةً واحدة. وما لم أفهمه حتّى هذه اللحظة، هو لماذا اختار الناس كُنية «أبو خليل» تحديداً لكلّ الجنود؟
الحالة الوحيدة التي كُنّا نترك فيها القطيع، ونستعيد أسماءنا، كانت تلك التي يُقتل فيها الجنديّ، الذي كان يُوضع في نعش، ويُلفّ بالعلم العراقي ذي النجوم الثلاث الخضراء، ويُعاد إلى عنوان بيته. حتّى في هذه الحالة، لم يكن كلّ جندي ميت يستعيد فيها اسمه الحقيقي. فقد حدثت حالاتٌ وُضعت فيها القطعة المعدنيّة حاملةً اسم جنديّ بالخطأ، في نعش جنديّ آخر غيره... فكان الأهل ينهون مراسم العزاء كاملة ليعود ابنهم سالماً في إجازته بعد فترة، أمّا الجندي الميت الذي دُفن مكان العائد، فقد كان يجري إخبار أهله الذي كانوا يبحثون عنه، أو عن خبرٍ يقينٍ عن مصيره، بأنّه في عداد المفقودين.
في إحدى المرّات، كُنّا في أتون جحيمٍ مستعر. كانت المعركة غير متكافئة أبداً. فقد كان الهجوم مباغتاً، ولم تكن قيادة الجبهة متحسّبة بدقّة لمثل هذا الهجوم الكاسح. فلم نستطع المقاومة،

واضطُررنا إلى الهرب. ووصلنا إلى المنطقة التي خرجنا فيها من دائرة مدى نيران الإيرانيّين. وفي اللحظة التي تنفّسنا فيها الصُعداء، وعلى غفلةٍ أخرى منّا، فُتحت النار علينا من عددٍ لا يُحصى من فوهات البنادق الملتهبة. لكن كانت هذه المرّة من الخلف. فبدأنا بالردّ على النيران، ثمّ تلقّينا الأوامر بالتوقّف الفوريّ عن الردّ على مصدر النيران، إلّا أنّ سعير البنادق المنفتحة على جهنّم زاد من قوّة نيرانها علينا.

أُلقي القبض علينا، وأُعدم آمر وحدتنا على الفور رمياً بالرصاص ووُضع في نعشٍ من دونٍ أن يُلفّ بالعلم ذي النجوم الثلاث الخضراء، وكُتب عليه «جبان»... فقد كانت تلك النيران آتيةً من فرق الإعدام التي كان الجيش قد نصبها لمن يهرب من المعركة. فأصبحنا أمام موتٍ مُتربّص بنا من العدوّ، وموتٍ آخر من بنادق زملائنا يمنعنا من الخلاص، ويحتّم علينا النهاية في حرب لم نكن نفهم لماذا قامت أصلاً؟ ولماذا علينا أن نموت فيها؟ ليُكتب على نعشنا «جبان»، أو يُلفّ بالعلم ذي النجوم الثلاث الخضراء، ليُستبدل باسمٍ وعنوانٍ آخر، ونصبح في عداد المفقودين الذين كُتب عليهم حتّى الحرمان من الرقود في قبرٍ يحمل شاهده اسمنا، ويزورنا فيه الأهل من حين لآخر. لم يكن الحرمان ضمن هذه الحدود وحسب، بل إنّ من كان يُكتب على نعشه «جبان»، بالإضافة إلى الإهانة الكبيرة التي يتعرّض له أهله، فإنّهم كانوا يُحرمون من الامتيازات الماليّة الكبيرة، وقطعة الأرض السكنيّة التي كان يحظى بها ذوو من كانت نعوشهم تعود ملفوفة بالعلم ذي النجوم الثلاث الخضراء.

بقي العدد الضئيل جداً من وحدتنا. فقد قُتل من قُتل، وبقيت جثثهم أمام العدوّ، ومنّا من أُسر، أمّا البقية فقد عالجتنا بالموت فرقُ الإعدام التابعة لجيشنا. ولم يبقَ منّا سوى خمسة جنود نجونا بأعجوبة. وقد أودعنا السجن المُهين، وتعرّضنا لأساليب تعذيبٍ قاسيةٍ ومذلّة للغاية. فكان علينا البقاء في غرف صغيرة للنوم والأكل الذي كان يُمنع عنّا لعدّة أيّام أحياناً، وكذلك حتّى لقضاء الحاجة. فتحوّلت تلك الغرف الصغيرة إلى جحيمٍ لا يُطاق. وكُنّا نُستدعى كلّ يومٍ لجلسة تحقيقٍ مُهينة. ونُتّهم فيها بالخيانة والخذلان ونُهدَّد بالموت القريب.

تشاجرتُ إحدى الليالي مع أحد الجنود. فقد ضرب قدمي التي وقعت على صدره أثناء النوم. أنا كنتُ نائماً، ولم أقصد إيذاءه، وكانت هذه حال الجميع. وكلّ منّا، كان يضع قدميه على صدور آخرين، بينما يضع آخرون أيضاً، أقدامهم على صدورنا أثناء النوم. فقد كان حجم الزنزانة لا يسمح بأكثر من ذلك... شتمني قائلاً: ماذا يفعل خائن مثلك في الجيش والجبهة معنا؟

أجبته بعصبيّة: أنا لم آتِ باختياري، وكما ترى، نحن لسنا هنا في نزهة، إنّنا عالقون في الجحيم... حتّى عندما أموتُ معكم ومن أجلكم، تعتبرونني خائناً؟!

تطوّرت المشاحنة، فأودع كلّ منّا في زنزانة انفراديّة مظلمة، وقُطع عنّا الأكل والماء لمدّة أسبوع كامل، لم أعرف فيه الليل من النهار لشدّة الظلمة. بعد خروجي من الزنزانة الانفرادية، تصالحنا من جديد، ودخلنا في حديثٍ أقرب إلى الودّي، فقال لي: نحن ابتُلينا بالموت، ولا حلّ لنا إلّا البقاء في الجبهة. لمَ لا تستفيد أنت من القرار الجديد وتعود إلى بيتكم؟

لم أعرف عن أيّ قرار يتحدّث؟ وكيف لي أن أعود بينما يبقون هم في الجبهة؟ خاطبني بنبرةٍ لا تخلو من الحسرة الممزوجة بالحسد: القيادة أصدرت قراراً بمنع الأكراد من أداء الخدمة العسكريّة في الجبهات. فأنتم مشكوك في إخلاصكم وولائكم، تأخذون كلّ شيء في البلد وتتركون لنا الموت. ومع ذلك، لستم راضين وتتآمرون مع الأعداء، وتتمرّدون على الدولة والوطن باستمرار.

كيف ذلك؟! هل هي معجزة تُنقذني من الموت المحقّق وتعيدني من جديدٍ إلى حبيبتي.. إلى كأسي؟
آه...
يا أيّتُها الكأس الساكنة كنعوش الجنود المحظوظين، الذين حظوا بنعمة العودة إلى أهلهم لتقام لهم مراسم عزاءٍ خاصّة بهم، وشاهد قبر يحمل اسمهم الحقيقيّ، عودي إليّ، فهذا أنا آتيلا الجالس على سجّادة التوبة النادمة، والذي قرّر الرحيل عنكِ وفاءً لمعجزةٍ إلهيّة تحقّقت في ليلةٍ واحدة، فشرّدت مدينةً بأكملها نتيجة حربٍ شعرتُ بيقينٍ عجيبٍ حينها، أنّ الله قد أشعلها خصّيصاً من أجلي أنا، وأنّها استمرّت تطحن البشر فترةً طويلة لتنتج ذلك القصف، وكلّ ذلك فقط... ليمنع رحيل فاطمة عنّي. فتوهّمتُ أن ما طلبته منّي فاطمة مساء ذلك اليوم، الذي كانت تشعُّ فيه من فرحةٍ أقرب إلى الطفوليّة، أعادت إلى وجهها الشاحب الباكي كلّ نضارة الطفولة والبراءة، نعمةً دائمةً حين قالت وهي مليئة بالبراءة والإيمان الواثق: كما رأيت يا آتيلا، إنّ الله قد استجاب لدعواتك بمجرّد العودة إلى الطريق الصحيح في ليلةٍ واحدة، وأحدث المعجزة التي منعت رحيلي وابتعادي عنك إلى الأبد، وطلبي الوحيد منك الآن، هو أن تبقى ملتزماً دينك وتترك الخمر إلى الأبد. ولا تنسَ أن تواظب على حضور مجالس أبي، عسى أن يؤثّر فيه ذلك، ويوافق يوماً ما على زواجنا...
آه... يا فاطمة، أين هو أبوك؟ وأين هي مجالسه لكي أحضرها أصلاً؟ إنّني نادم الآن كما كنتُ نادماً يوم تبتُ على يديكِ المباركتين. أنا نادم حتّى على توبتي وصدقي مع إلهٍ لم يفِ بوعوده، كما وفيتُ بها أنا عبده الآثم العاصي.. نادم على وعدي لك بملازمة السجّادة إلى الأبد، وإقامة الصلوات لإلهٍ فاقت معجزاته السيول في طغيانها، فإذا به يقفُ جاحداً غير مبالٍ تجاهي، أنا عبده الصادق المخلص النقيّ التقيّ، في توبتي وعباداتي.
يا إلهي، أتحسبني أيّوب؟ وحتّى لو كنت تختبرني، كما اختبرت أيّوب من قبل؟ فقد أعدت إليه بمنتهى الكرم، كلّ ما فقد من الجاه والمال والبنون، لا بل وحتّى الشباب ونضارته... بينما أنا الذي فاق صبري وعرفاني، صبر أيّوب نفسه، فلم أطلب منك جاهاً ولا مجداً، ولا خيلاً، ولا بنين، ولا حتّى شباباً ضائعاً في الحسرة والانتظار العبثيّ العاجز.. أنا لم أطلب منك سوى أن تجمعني بفاطمة، فإذا بك تأخذها إليك. كان يجب أن أفهم من جميع الصعوبات والعوائق التي وقفت أمام كلّ محاولات التقرّب إلى الشيخ وطلب يد فاطمة، أنّ صلاتي وعباداتي وتوبتي ليست سوى عبثٍ لا طائل من ورائه...
تعالي أيّتها الكأس المحظوظة.. تعالي إليّ، واغفري جحودي وعصياني وتمنُّعي أمامك. تعالي أيّتها العزيزة، فقد تكونين أنتِ الكأس الأولى التي يتوب بك وليّ تقيّ من إيمانه.. ويتوب من عباداته على شفتك المُسكرة. أنت الكأس الأولى التي على شفتك سيتوب الليلة عابدٌ مخلص من عبادته، ومن سجّادة صلاته وعباداته الصادقة. فطوبى لكِ أنتِ.. طوبى لكِ في الحياة الدنيا، فأنت التي تضعين النهاية لحكاية الآخرة ووعودها البرّاقة...

18

«ولكن متى وجدت السلامة في طريق النار، ومتى وُجّه لومٌ لمجنون؟».
فريد الدين العطّار

تصفيق... تصفيق... تصفيق...

تبدو الأمور أغرب وأصعب على الفهم وأنا أستعرضها الآن لأستخرج دلالاتها المعقدة والمتداخلة في حكايات بلون الدم، وطعم الدم، ورائحة الدم، وملمس الدم، وكذلك صراخ الدم وصمته في ذات الوقت. فكأنّنا نتحسّسها ونُدركها بحواسّنا الخمس دماً في دم. أمّا المشاهد الغامضة، فقد كانت تصطبغ بظلّ الدم أو يخيّم عليها شبح الدم...

ها أنا أستحضر المشهد، وأنا أتذكّر ما حصل حينها، وكذلك من خلال اطّلاعي عليها قبل سنوات عدّة من خلال التلفاز. ها هو الرجل القويّ، المُكنّى بالسيّد النائب، أو الشيطان على حدّ قول أبي، الذي بدا أنّه صبغ النظام بلونه، يحسم الأمر ويحكم قبضته رسميّاً على كلّ شيء، إذ بدا المشهد حتّى قبل تولّيه الحكم نهائيّاً، وكأنّ من يحكم البلد هو ثنائيّ، لا رئيس له نائب. ذلك الرجل القويّ الممسك بزمام الأمور، بدا كأنّه هو الرئيس الفعليّ حين خطا يتقدّم وسط تصفيق الرؤساء والزعماء، ليصافح الإمبراطور ملك الملوك، ويوقّع معه على اتفاقية الجزائر، متخطّياً بذلك كلّ الأعراف الدبلوماسيّة، ثم يتقدّمان معاً نحو المنصّة التي كان يعتليها الرئيس الوسيط، ليتلقّى قبلاتهما بعد أن تبادلاها وسط ذلك التصفيق الطويل من الرؤساء والملوك. وها هو أيضاً، يمزّق... بعد مرور خمسة أعوام، نفس الاتفاقية ويعلن إلغاءها، لتقابله عاصفة تصفيق منقطعة النظير. عندما وقّع، تصفيق.. وعندما مزّق أيضاً، تصفيق. وما بين تصفيق وتصفيق، كُنّا نحن الضحايا في كلتا الحالتين.

ففي الأولى، كان الثمن هو ثورتنا ومصير شعبنا. أمّا في الثانية، فقد كان البلد كلّه هو الضحيّة هذه المرّة. ها هي الحرب تقوم على وقع التصفيق لتمزيق تلك الاتفاقيّة، لا على قرع الطبول كما هو معهود دائماً. كان السيد النائب قد انقلب قبل موت الإمبراطور بعامٍ واحد، على معلّمه ورئيسه.. وأجبره على الاستقالة من كلّ مناصبه، فارضاً عليه الإقامة الجبريّة بعد ذلك في أيّامه الأخيرة التي طالت.. وكان هو قد تولّى كلّ المناصب العليا في الدولة والحزب بصورةٍ رسميّة هذه المرّة، وسط حفل دم انتهى بإعدام العديد من أعضاء قيادة الحزب والعشرات من كوادره. وكلّ ذلك أثناء مراسم علنيّة أُذيعت تفاصيلها على شاشة التلفزة، تخلّلته موجات تصفيق وإطلاق شعارات تتبعها موجات تصفيقٍ أقوى...

فأصبحتُ في عداوة مع كلّ تصفيق. بدأتُ أكره التصفيق، حتّى في حالة التقدير في الصفّ المدرسيّ. فكلّ موجة تصفيق بدت أشبه بالعلامة التي تُنذر بوقوع كارثة. هذا النفور والتحسّس ظلّا يلازمانني إلى الآن، بحيث لم أستطع التصفيق لأغنية، حتّى وأنا وسط الأصدقاء أقضي معهم جلسة سمَر. فكنتُ الوحيد الذي لا يستطيع التصفيق، لا بل كان تصفيق الآخرين يصيبني بقدرٍ كبير من النفور والاستفزاز. لكن بالرغم من كلّ ذلك، أصبح التصفيق جزءاً لا يتجزّأ من حياتنا. أصبح أقرب إلى الروتين اليوميّ الذي يمارسه الناس حتّى دون أن يفهموا ما يدور ولماذا يصفّقون أصلاً.

طلع علينا الرئيس الجديد.. القديم، بتقليعةٍ جديدة، إذ كان يحتلّ كلّ مساء محطّتيْ التلفزة الوحيدتين في البلد. فبعد مشاهدة أفلام الكرتون التي كانت تعقب تلاوة آياتٍ قرآنيّة على عُجالة، والأخبار المحلّية لقادة النظام، كان الرئيس يظهر وهو يتجوّل في القرى، حاملاً ابنته الصغيرة المدلّلة على كتفه، بينما الجماهير الهائجة تصفّق وتهلّل وتتقافز في مكانها، مردّدة أهازيج وهوسات لا يُجيدها سوى العراقيّ.. أو كان يملأ الشاشة وهو يستقبل مجموعة من الناس، ويظلّ يتحدّث بينما يقاطعونه بموجات تصفيقٍ متتابعة. الشيء الوحيد الذي ظلّ ينافس احتلال الرئيس للشاشتين الرسميّتين، كان مشاهد الدم والدمار المصاحبة للمارشات العسكرية التي كانت تُبثّ من جبهات القتال، وكان التلفاز الرسميّ يقدّمها تحت عنوان «صور من المعركة».

تصفيق... تصفيق... تصفيق...

من يجرؤ على عدم التصفيق، حتّى للمأساة؟ كُنّا نعيش مشهداً غرائبيّاً، وكأنّ من لا يُصفّق هو من زمرة الخونة والمتآمرين، وعليه أن يتقن هذا الفن الذي يمنحه الهويّة الوطنيّة دون عناء. كان الشيء الوحيد الذي يهوّن عليّ بؤس التصفيق، هو متابعة أبي لأخبار الثورة المشتعلة من جديد، في الجبال البعيدة. كما أنّني كنتُ أسمعه وهو يدعو على الرئيس الجديد، أو على الشيطان كما كان يسمّيه، الذي هو الطرف الأخير في إنجاز الاتفاقيّة، وكان لا يزال حيّاً، مُمسكاً بالحكم بقوّة منقطعة النظير... إلّا أنّه في كلّ مرّة كان يفتح فيها هذا الموضوع، كان يُصبّر نفسه بأن عقد التآمر، كما كان يحلو له أن يسمّي اتفاقية الجزائر، بات هو نفسه، السبب الذي ورّط النظام ورئيسه في هذه الحرب التي طال أمدها. وكان يمنّي النفس بأنّ هذه الحرب ستؤدّي به إلى حتفه، ويلحق بالإمبراطور والرئيس الوسيط. إلّا أنّ الحرب طالت، وطالت... وبقي أبي يدعو الله بعد كلّ صلاة بحرقةٍ أكثر، بينما كان الرئيس يزدادُ احتلالاً للشاشات، وكأنّه يحتلّ حتّى بيوتنا وهو يفرض نفسه علينا كلّ ليلة من الشاشتين اللتين لم نكن نملك غيرهما.

ما كان يُفرح أبي أكثر فأكثر، ويظلّ يعلّق عليه الآمال، ويحاجج به الأصدقاء والأقارب، أنّه كان يعتقد بأنّ النظام قد أصبح في وضعٍ سيّئ، وأنّ الحرب إذا استمرّت أكثر من ذلك، فإنّه سيسقط لا محالة. وبذلك، تكون عمليّة الانتقام الإلهي من كلّ أقطاب الاتفاقيّة الكارثيّة قد اكتملت. وكلّما كان الجيش ينكسر في جبهةٍ ما، كان يقول: «هذا انتقام الربّ العزيز لنا ولثورتنا». كلّما كان أمد الحرب يطول، بدا أنّ النظام قد وصل إلى وضعٍ صعبٍ فعلاً. ففي البداية، كان يتعامل مع محاولات الوساطة الرامية إلى إيقاف الحرب بغرورٍ واضح. ثمّ بدأ يغيّر نبرته شيئاً فشيئاً، حتّى بدا أنّه نسي، أو تناسى بالكامل، شعاره الأوّليّ الذي كان يقول «إنّ طريق القدس يمرّ عبر طهران». ومع أنّ حسابات الجغرافيا، وعلم مساحة الطرق كلّها، ترفض مثل هذا المنطق الأشبه بالسوريالي، كانت دلالة الشعار واضحةً جداً.

رويداً رويداً، أُضيفت إلى كلّ ذلك فقراتٌ طويلة، تعرض الرئيس في التلفزة وهو يستقبل وجباتٍ من العسكريين ويمنحهم الأوسمة والأنواط. ثمّ دخلت هذه الدراما مرحلتها المقزّزة المثيرة للسخرية. وهو ما كان يُفرِح أبي، ويُدخله في موجة ضحكٍ تقطعها أحياناً دعواتٌ غير مفهومة. وذلك عندما كان النظام يجبر أعداد كبيرة من الناس على لقاء الرئيس وهم يمثّلون بأسلوبٍ بائسٍ مكشوف، مشاهد التبرّع بالمال والذهب في حملاتٍ سُمّيت حينها «المشاركة في المجهود الحربيّ». فكان الرجال يزايدون في إعلان أموال تبرّعاتهم، بينما كانت النسوة يتبرّعن بالحُليّ، ما

أنتج عباراتٍ ومصطلحات أصبحت شائعةً ومتداولةً بصورةٍ رسميّة وشبه رسميّة، مثل «الماجدات» ككنية للمرأة العراقيّة آنذاك.
لم يعد أبي ذات مساء إلى البيت، وبعد أن بدأنا بالبحث عنه، أخبرنا أحد الأقارب بأنّه قد أُلقي القبض عليه، وأنّه يخضع للتحقيق في دائرة الاستخبارات العسكريّة التي لم يكن من يدخلها كمتّهم يخرج منها بريئاً أبداً... كان أبي قد دخل يومها، كما أخبرني في ما بعد، في مشادّة مع الحاج علي، بسبب حضوره هو وزوجته أحد الاجتماعات المتكرّرة التي كان الرئيس يدعو إليها العشرات والمئات من الناس... بعدها حكى لي أبي، كيف أنّه عاب على الحاج علي أن يقبل التبرّع بأموالٍ ضخمة لنظام يحاربنا ويقتلنا، وتآمر من قبل على ثورتنا؟ وكان الحاج علي قد استشاط غضباً، حين سخر منه أبي، مُلمّحاً إلى أنّه لو أخذ زوجته إلى أماكن أخرى، لكان ذلك أشرف بكثير من عرضها هكذا على التلفزة وهي تقف أمام الرئيس متبرّعةً بنسبةٍ كبيرة من حليّها الكثيرة، بينما يضع الرئيس يده على كتفها ويضحك.. حينها لم يكن من الحاج علي إلّا أن هدّد أبي بالويل وأنّه سيدخله جحيماً لن يخرج منه أبداً. فكانت وشايته التي أدّت بأبي إلى دخول سجن الاستخبارات العسكريّة.. قضى فيه ليلة، خرج في اليوم الثاني نتيجة توسّط مسؤولٍ كبير تدخّل لإطلاق سراحه مقابل رشوةٍ دسمة.
ولم تكن تلك هي المرّة الأخيرة التي يدخل فيها السجن، بل قُدّر له أن يدخله مرّة أخرى بسببي أنا.
فقد كانت السلطات الأمنيّة تلقي القبض على أهالي الشباب الذين يلتحقون بصفوف البيشمركة.
كانت ممارسات اعتقال وحبس أهالي البيشمركة، تقتصر أحياناً على وليّ الأمر بغية ممارسة الضغط عليه، لكي يذهب ويعيد ولده إلى المدينة. فيما كانت تتجاوز ذلك الحدّ في أحيانٍ أخرى، فتؤدّي إلى إلقاء القبض على كلّ أفراد الأسرة، بمن فيهم النساء الحوامل، ما نتج عنه ولادة أطفال في السجون والمعتقلات.. وفي بعض الحالات التي كانت تُخفِق معظمها في تحقيق هدفها، كانت السلطات تطرد الأسرة بكاملها إلى المناطق الخاضعة للثورة، بعد أن تكون قد جرّدتها من جميع ممتلكاتها.
كان أبي، بالرغم من استيائه من موقف هؤلاء الناس الذين كان يسمّيهم القطعان، وكذلك من مظهرهم البائس وهم يقفون أمام الرئيس في حفلات التبرّع، كان فرحاً إلى أبعد الحدود بما يحدث. فقد كان يرى ذلك علامةً واضحةً من علامات ضعف النظام، وأنّه بدأ يقترب من الإفلاس، ما حدا به إلى الاستجداء من الناس أو فرض إتاوات عليهم. لم يكن أبي يتمنّى للجيش الآخر، النصر.. ولم يكن يبالي أصلاً بمن سينتصر. لكنّه كان يتمنّى أن تؤدّي الحرب إلى انهيار النظام وقتل أو محاكمة رئيسه الذي كان، بالفعل، مهندس اتفاقيّة الجزائر ومُنفّذها.
هكذا، دخلت الحرب كلّ تفاصيل حياتنا. فأخذ المدرّسون يرتدون الملابس العسكريّة وهم يحضرون الصفوف الدراسيّة. كانت الأمثلة التي تُساق، كلّها عن الحرب وعن الرئيس. وكان كلّ مَثَل يُقابَل بموجة تصفيق مثيرة للاشمئزاز. ثمّ بدأ بين الحين والآخر يتوافد على الصفوف الدراسية مسؤولون في الحزب، يشرحون ويخطبون في الطلبة أموراً كانت تتغيّر وفق الوضع على جبهات القتال. بعد ذلك جاؤوا يطلبون التبرّعات من المصروف اليومي المتواضع للطلبة.
هذه التبرّعات والجلسات أصبحت مادّة للمشادّة وإثارة المشاكل بيني وبين سعيد الحاج علي، فقد بدا لي المشهد وكأنّنا محكومون بالاستمرار في ممارسة دورنا في الحياة، كما كان مرسوماً ومقدّراً لنا أثناء اللعب قبل ذلك بعدّة سنوات.

كان الحاج علي من أغنياء المنطقة. وعند اشتداد المعارك بين قوّات الثورة والجيش قبل يوم الانهيار الأكبر، كان الجيش قد دهم قريتهم.. ودمّرها وسلب كلّ ما يملك الأهالي، بما فيها مواشي الحاج علي. قيل في ما بعد، إنّه حاول أن يحكي مع الضابط المسؤول عن المداهمة، فأخذ الضابط يهينه أمام الأقرباء من أهل القرية، فاضطرّوا جميعاً إلى ترك القرية، والتوجّه بعد ذلك إلى المناطق الحدوديّة، والاستقرار في المخيّمات، حيث كانت خيمتهم غير بعيدة عن خيمتنا. حينها تعرّفتُ إلى ابنه سعيد الذي كان يقود زمرة الجحوش، بينما كنتُ أنا أقود مجموعة البيشمركة أثناء ممارستنا لعبتي المفضّلة الوحيدة «لعبة البيشمركة والجحوش».

ها هي الخيم تعود من جديد، لتنكأ عليّ كلّ الجراح وتصيبني بنوبة نزف ذكريات قاتلة... لكنّ عودة الخيم هذه المرّة، لم تكن كتلك الخيم الصغيرة نسبيّاً، التي أصبحت تُمثّل الحياة الطبيعيّة لي، والتي بقيتُ أشتاق إليها طيلة حياتي وكأنّ الثورة لا تعني إلّا حياة الخيام، وكأنّ الخيام قد أصبحت الدليل الوحيد على أنّ الحياة أشبه بلعبة في غاية الاستمتاع والإثارة، في ظلّ عنفوان الثورة وسحرها. هذه المرّة، كانت الخيم كبيرة، وكانت تُدمج معاً أحياناً، حيث كانت تُقام فيها مراسم العزاء للجنود العائدين داخل نعش محمَّل على سيّارة تاكسي، يلفّه العلم ذو النجوم الثلاث الخضراء.

وأنا أقف الآن أمام هذه القبور التي وارت، نهائيّاً، جثامين آتيلا ورفاقه قبل قليل، يملأني حديث الموت بعبثيّة الناس في سلوكيّاتهم التي لم تكن تعني سوى الحماقة وحدها. ففي بدايات الحرب، كان الناس، مع وصول كلّ سيّارة تاكسي، محمّلة بنعشٍ ملفوفٍ بالعلم ذي الثلاث نجوم، يتبارون في عرض مشاهد باذخة، تمتدّ لسبعة أيّام بلياليها، يظلّ الناس يتحدّثون عن تفاصيل ما قدّمه فلان أو فلان من أنواع المأكولات، وأنواع القهوة والسيجار في مراسم العزاء. فلم تكن فاجعة موت أحد الجنود تذكّرهم بالموت بل كأنّهم خالدون أبداً لا يموتون، كانوا يدخلون في مباريات مثيرة للسخرية في التبجّح بكرمهم الزائف. وكان أبي يعلن تبرّمهُ واشمئزازه من هذه التصرّفات أكثر من أيّ شيء آخر.

مع ازدياد عدد سيّارات التاكسي ذات اللونين الأبيض والبرتقالي، المحمّلة بالنعوش الملفوفة بالعلم ذي النجوم الثلاث الخضراء، والتي أدّت بدورها إلى ازدياد عدد الخيم الكبيرة المنصوبة لإقامة مراسم العزاء، بدا كأنّ الناس تعبوا من الأمر، وأنّ ادّعاء الكرم انكشف وظهر على حقيقته، فتقلّصت مدّة مراسم الحداد إلى ثلاثة أيّام من دون لياليها. وشيئاً فشيئاً، اختُزل الأمر إلى تقديم بعض القهوة والسيجار فقط، ومن دون الموائد الخرافية، التي انتهت بدورها بعد فترة من استمرار الحرب، إلى استقبال الناس في الخيم الكبيرة الخالية من دون تقديم أيّ خدمات والاكتفاء بشيخ ضرير، يتلو عن ظهر قلب، آيات من القرآن تتبعها تلاوة سورة الفاتحة همساً من قِبَل الحاضرين.

كان الأدهى من كلّ ذلك، أن النعوش ذاتها، ومن يسكنونها، فقدوا شيئاً فشيئاً صورتهم الأولية الرومانسية الممزوجة بالحزن، فأصبح حديث النعوش والجنود القتلى أشبه بالأمور العاديّة التي تتعب الناس، إلى أن تطوّر الأمر، فتحوّلت النعوش الملفوفة بالعلم ذي النجوم الثلاث الخضراء، والمثيرة لنوبات حزن وبكاء ونحيب مصحوب بعروض البذخ والتفاخر بالكرم في الخيم الكبيرة المنصوبة لإقامة مراسم عزائهم، إلى مادّة للتندّر وإطلاق النكت والطرائف. وأتذكّر أن أكثرها سخفاً وإثارة للحنق والسخرية الممزوجة بالعبث، كانت تلك التي شاعت أكثر من غيرها، حيث قيل إنّ أحد سائقي التاكسي، كان يحمل على سيّارته القديمة ذات اللونين الأبيض والبرتقالي، ثلاثة

نعوش بعضها فوق بعض.. وكان يستمع من خلال مذياع سيّارته إلى أخبار الحرب وبياناتها الرسميّة، التي أكّدت ذلك اليوم «قتل العشرات من أفراد العدو، واستشهاد جنديّ عراقيّ واحد في كافة القواطع والجبهات»، على حدّ قول البيان الصادر عن قيادة الجيش، فما كان من سائق التاكسي إلّا أن أنزل اثنين من النعوش، ورماهما عن جسر قائلاً: «إنّ عدد الركاب زائد عن حدّه بنفرين». اصطبغت تلك المرحلة بالنوادر الساخرة من كذب البيانات العسكريّة وأخبارها الرسميّة.. وازدادت معها زيارات مسؤولي الحزب للمدارس.

كان وصول الوضع إلى ما هو عليه، يدفع بأبي إلى بيان قناعته بأنّ إلغاء اتفاقيّة الجزائر كان في الحقيقة أشبه بإلغاء العقد الذي فرض موت الثورة وخنقها بإغلاق الحدود علينا من الجانبين. لذا، كان يقولها علناً: «إنّ سقوط الشاه وإلغاء الاتفاقيّة وقيام الحرب، كلّها أسبابٌ تُشكّل الأرضيّة لكي تقوى خلالها ثورتنا الجديدة المندلعة أخيراً في الجبال»... وبدا كأنّه محقّ في آماله التي كان الكثير من الأصدقاء والأقارب يلومونه عليها ويتّهمونه بنبرة ساخرة بالتوهُّم، وبأنّ ثورة التي كادت تُسقط الدولة قد أُجهضت، وأُنهيت ودُمّرت، فما الذي يمكن لمجموعات صغيرة من شباب، لا يملكون ظهيراً، ولا سلاحاً كافياً، ولا مالاً، أو ملاذاً، أن يقدّموا؟ المؤكّد هو أنّهم سيفشلون ولن يحقّقوا شيئاً... إنّه مجرّد عبثٍ لا طائل من ورائه. وكانوا في كلّ مرّة يسألونه: هل يمكن ثقب الجبل بإبرة؟

وأمام صمت أبي الطويل، كانوا يردّون شامتين: إذن! لا طائل من مثل هذه المحاولات المحكومة أصلاً بالفشل.

هكذا، ظلّ أبي يتابع الحرب التي طالت، وكانت تصبغ أيّامه بمزاج يماثل حال الجبهات. وهكذا أيضاً، قضت الحرب على الصورة الرومانسيّة الرقيقة لبيت أحلامي، صورة الخيمة، بيت الثوة.. بيت الطفولة والحلم الذي ارتبط في مخيّلتي بسحر الحياة وعنفوان الثورة وقرب انتصارها النهائيّ. غدوت كأنّي أدرك، للمرّة الأولى في حياتي، أنّ الخيمة حالة سكن استثنائيّة، وأنّها ليست أبداً بيتاً دائماً، بل هي مجرّد قطعة قماش متينة تقي الناس من المطر وأشعّة الشمس، وتُستخدم حسب حاجة أصحابها. وحاجة أصحابها هذه، نادراً ما تكون هي الثورة... وإنّ القاعدة في استخدامها أصبحت تعني الاستعمال المؤقّت لأيّام معدودة لإقامة مراسم العزاء. كانت تلك هي المرة الأولى التي أدركتُ فيها بحزن، وعلى حين غرّة، أنّ الناس يستخدمون الخيم أيضاً، بصورة مؤقّتة، لإقامة حفلات السيرك في مختلف مناطق العالم.

أمام مشهد الموت المفجع، في هذه المقبرة العامرة بمعاني العنفوان والقيم العظيمة، دهمني اختناق شديد من فكرة فقدان تلك المعاني الجميلة.. من انكشاف زيف الصور الجميلة في أحلامنا.. من فكرة أنّ الخيم ليست بيت السكن الاعتيادي، وأنّها ليست كذلك بيت الأحلام في الحياة الساحرة، الأشبه باللعبة الممتعة في ظلّ الثورة.. بل هي مجرّد خرق طيّعة، تخضع لرغبة الناس واحتياجاتهم، لا أكثر ولا أقل. يا إلهي! من أين جاء كلّ هذا العبث؟! ما أقسى أن تفقد معنى وكأنّ عزيزاً ما قد غدر بك ورحل؟ ما أصعب أن تشعر بالدوران والغثيان نتيجة فقدانك قيمةً ارتبط بها كلّ وجودك، لتصبح فجأة! وكأنّك تدور في الفراغ، وقد انقطعت قدماك عن الأرض؟

19

«ما دمتَ جاهلاً بالجسم والروح، فكيف تدرك خبراً عن الأحبّة في أيّ وقت؟».

فريد الدين العطّار

لم تُعمّر الفرحة التي دهمتني، نتيجة الخبر الذي بشّرني به بنبرة حسد واضحة، زميلي أبو خليل ونحن نقضي في سجن المعسكر عقوبة ما سُمّي حينها بالجبن والتخاذل في الجبهة. فحين طرحتُ الأمر على الضابط المسؤول عن السجن، أمر بمضاعفة إجراءات التعذيب ضدّي، فاضطررت للانتظار، إلى أن أُفرج عنّا وعدنا إلى الجبهة مرّة أخرى. ومع حلول إجازتي الأولى، انطلقتُ مليئاً بالفرح بسبب ذلك القرار الذي سيعفيني من جحيم الجبهة وأهوالها، ويعيدني مرّة أخرى إلى كأسي.

مع وصولي إلى مدينتي، ذهبتُ إلى الدوائر الرسميّة المعنيّة، أطلبُ وثيقة رسميّة يؤكدون فيها أنّني كرديّ، ويطلبون من خلالها إعفائي من العودة إلى الجبهة، لكنّهم أصرّوا على أنّني لست كرديّاً، بل تركمانيّ، أنتمي إلى عشيرة الهنداويّة. للوهلة الأولى، أحسستُ بأنّي فقدت الأمل في الخلاص من الجبهة وجحيم الحرب وكوارثها، وأنّ الموت المحقّق في الجبهة، بعيداً عن كأسي وخمري، بات هو مصيري المحتوم.. لكن، مع عودتي إلى البيت، استشاطت أمّي غضباً. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي أراها على تلك الدرجة من الغضب.. لقد كانت مصرّة على أنّنا كُردٌ ولسنا تركماناً.

وحين حاججتها بأنّي كرديّ لأنّ أمّي كرديّة، لكن يبقى أبي تركمانيّاً، وذلك هو المعيار الأساس في تحديد النسب.. وعليه، فإنّ قرار عدم إعادتي إلى الجبهة بات مستحيلاً، وبأنّني يجب أن أستسلم لمصيري، روت لي حينها أنّ جدّي قد رفض تزويجها لأبي بدعوى أنّه ليس كردياً وأنّه تركمانيّ من عشيرة الهنداويّة، وأنّه لم يوافق على تلك الزيجة إلّا حين أثبت أبي، بالأدلة، وبشهادة العديد من الوجهاء والشيوخ، أنّ الهنداويّة عشيرة كرديّة لا تركمانيّة.

حينها، أحسستُ للمرّة الأولى بحالة من الدوار، وكأنّني أدور حول نفسي في الفراغ، وقدماي لا تطالان الأرض.. فباتت المسألة أكبر من النجاة من الموت عبثاً في الحرب، بل إثبات هويّتي التي يرفضون الاعتراف بها. أصبح الأمر فجأةً مسألة وجود. فأصبح لِزاماً عليّ، لكي تطال قدمي الأرض ثانيةً وأقف على أرضيّة صلبة لأنهي حالة الدوران المهين في الفراغ، أن أثبت مَن أكون حقّاً. للمرّة الأولى في حياتي، أحسستُ بأنّي كرديّ حقّاً. في ما سبق.. وبالرغم من الكوارث التي حلّت بعائلتي من دمار، وسلب أموال ومواشٍ وهدم بيت وصولاً إلى استشهاد تيمور، لم أشعر إلى ذلك الحدّ، ماذا يعني أن أكون كُرديّاً. بدا الوضع وكأنّ عليّ أن أخوض حرباً لكي أثبت أنّني كُرديّ. ولم يعد بعد ذلك يهمّني، أين، ومتى، وكيف سأموت. أحزنني وحزّ في نفسي كثيراً، وأنا أرى نفسي أُمسخ وتُفرض عليّ هيئة وهويّة على حساب هيئتي وهويّتي المعرّضة للطمس، لأسباب أنستَني إيّاها حالة السكر الدائمة التي كنت أحياها. فكانت المفارقة الغريبة التي وجدت نفسي غارقاً فيها، هي أنني بدأت رحلة إثبات هويتي الكردية بغرض الهروب من الحرب، فإذا بها تخلق مني كائناً مستعدّاً لخوض حرب كاملة من أجل ذلك الإثبات فقط.

أصبح الهنداويّة فجأةً حديث أهل المدينة وشغلهم الشاغل، فانقسموا كما انقسم الهنداويّة أنفسهم، بين من يقول بأنّهم من الكُرد، وبين من كان يقول بأن لا جدال في تركمانيّتهم. وكان كلّ طرف يسوق

الحجج ويستعيد الحوادث ويستعين بأقوال الشيوخ والمعمّرين. ظلّ الجدل محتدماً وراح يتزايد. عُقدت المجالس الكبيرة بين ممثّلي الطرفين للخروج باتفاق على المسألة، لكن كلّ جلسة كانت تؤدّي إلى العكس من الغرض الذي أقيمت من أجله أصلاً؛ فكانت تنتهي في الغالب بمشادّة قويّة تتبعها خصومة تدوم لعدّة أيّام.

هذا الخلاف لم يبقَ محصوراً على صعيد مجالس الرجال في المقاهي وحسب، بل دخل كلّ بيت... فكانت بعض العوائل مُتماسكة ومتّفقة على كونها كرديّة، وبعضها الآخر أيضاً مُتماسكة ولا يخامرها شكّ في تركمانيّتها. أمّا اللعنة فقد حلّت ببعض العوائل كعائلتي مثلاً، فانقسمت بحدّة بين طرف يُصّر على كُرديّته ويتّهم الطرف الآخر بالخيانة، وطرف آخر يُصّر على تركمانيّته ويتّهم الطرف الآخر بالجبن والإذعان لابتزاز الأكراد الذين لا يشبعون أبداً، على حدّ قولهم. وإثر تدخّل بعض رجال الدين، قرّر الطرفان اللجوء إلى عماد بك، ليحكم بينهما ويحسم المسألة، ويثبت للجميع حقيقة الأمر... وصحّة أو بطلان ادّعاء كلّ من الطرفين.

كان عماد بك رجلاً متنوّراً يسكن بيته الكبير الأشبه بالقصر الذي كان مليئاً بالكتب. كان يقضي أكثر وقته، بعد إحالته على التقاعد، في القراءة في مكتبته الكبيرة. ولا يقطع صفو عادته تلك، سوى خروجه العصري للجلوس على المقهى ساعة واحدة، أو الاهتمام بضيوف من عليّة القوم، كانوا يأتون من المناطق البعيدة لزيارته. أمّا وقته المفضّل، فكان موسم الصيد الذي يغادر فيه المدينة ولا يعود إلّا بعد أن يكون الموسم قد شارف على النهاية. وفي الغالب، كان يرافقه في رحلاته هذه، الغرباء القادمون من بعيد.

كان عماد بك، قبل إحالته على التقاعد، يعمل قاضياً في محكمة المدينة القاطنة في البناية التي يعود عمرها إلى أكثر من مئة عام. وكان يُشهد له بالنزاهة والحدّية في أحكامه. كما كان يحظى باحترام شديد لدى الجميع. فكان هو المرجع المُعوّل عليه في حسم الجدل بشأن كرديّة أو تركمانية عشيرة الهنداويّة، فاحتكم إليه الطرفان المتخاصمان. استضاف عماد بك، كلّاً من الطرفين في مكتبه على حدة، واستمع إلى حججه وبراهينه ومطلبه الملحّ في الحكم لمصلحته. وبعدما استمع إلى كلا الطرفين، طلب منهما إمهاله عدّة أيّام لكي يستطيع أن يحكم بالعدل.

خرج كلّ طرف من مكتب عماد بك، فرحاً... متأكداً من أنّ الحكم سيكون لمصلحته. فالقاضي عماد بك، وعدهُم بأن يحكم في القضية بالعدل، وهو القاضي الذي تشهد له سمعته بأنّه لم يحكم ولو مرّة واحدة بغير العدل. فبالإضافة إلى كونه لم يتسلّم ولو مرّة واحدة رشوة، أو جامل أو رضخ لرئيس عشيرة، أو رجل دين، أو حتّى لمسؤول في الدولة، كان الكلّ يصمت أمام أيّ حكم من أحكامه. فالرجل عُرف عنه أنّه ضليع في القانون وعمل المحاكم، وكان يمتاز بهيبة تجعل أكبر شخص في المنطقة يظلّ واقفاً في حضرته في غاية الأدب والاحترام، لا يجرؤ على الجلوس أمامه في المحكمة إلّا إذا أمر هو بذلك.

طالت الأيام، والطرفان على أحرّ من الجمر. أثناءها... كان أفراد الطرف الذي يصرّ على كُرديّته، فرحين بعودة أبنائهم من الجبهات، يدفعونهم للاستمرار في إكمال الإجراءات الرسميّة للقرار الخاص بعدم إعادتهم للجبهات، وفرحين كذلك بأنّ كُرديّتهم أصبحت تُميّزهم في شيء. في المقابل، كان أفراد الطرف المُصرّ على تركمانيّته، يطعن في شرف الطرف الآخر، ويتّهمه بالجبن والأنانية وعدم النزاهة... مُشكّكاً في وطنيّته وإخلاصه وصدقه، مؤكّداً أنّ قرار الدولة هذا، هو في حدّ ذاته إهانة مكشوفة، وأنّ الموت في الجبهة أهون وأشرف ألف مرّة من تلك الإهانة، دافعين

شبابهم للعودة إلى الجبهات عنوةً وسط دعوات ودموع لا تنتهي... لم تكن دوافع إعادة الناس لأبنائهم متشابهة، بل كانت متعدّدة هي أيضاً. كانت الأغلبية تفعل ذلك مدفوعة بخوفها من ردّة فعل السلطة، الذي قد يؤدّي إلى إبادة العائلة بأكملها. إلّا أنّ البعض كان يفعل ذلك لدوافع أخرى، حتّى إنّ بعضها بدا غير مفهوم لأقصى درجات القسوة.

فقد استقبل الرئيس في إحدى المرّات رجلاً، ومنحه الوسام والكثير من الامتيازات، على مرأى ومسمع الناس، وعلى شاشة التلفزة الرسمية آنذاك، فقد كان ذلك الرجل قد ضغط على ولده للعودة إلى الجبهة، وحين فشلت كلّ محاولات الابن في التوسّل إلى الأب بغرض حمايته من الموت، بدلاً من الضغط عليه للرجوع إلى الموت المحقق في الجبهة، كان الأب قد خاطبه بحدّة متّهماً إيّاه بالجبن... فما كان من الابن إلّا أن اتّخذ خيار الصمت بغرض الالتفاف على ضغوط أبيه. فغادر البيت على أنّه متّجه للجبهة، وحين علم الأب بأنّ ابنه مختبئ في بيت خاله، توجّه من فوره إلى مقرّ المنظمة الحزبيّة ليشي بابنه الهارب من الجبهة. فدهمت قوّة عسكريّة في منتهى القسوة، بيت الخال. وأخذت كلّ من فيه، ثمّ انتهى الأمر بإعدامهم جميعاً.

بعد زيارتين من الطرفين، كان القاضي عماد بك قد غضب منهم في المرّة الأخيرة، مُتّهماً كلّاً من الطرفين، بمحاولة استدراجه إلى الحكم لمصلحته، فقرّر أن يُنهي مهمّته، وأن يدعهم وشأنهم ليحلّوا هم مشكلتهم بأنفسهم. ولكن... أمام دعوات الترجّي والتوسّل، عاد وقبل بالاستمرار في مهمّته، مُخاطباً إيّاهم في عصبيّة: أنا الذي لم أحكم في حياتي كلّها في قضيّة، إلّا كنتُ متيقّناً من كلّ الإجراءات، ومن دقّة وصحّة حكمي، تريدون باستعجالكم هذا دفعي لكي أدوس على ضميري وشرفي، وأفصّل لكم حُكماً وفقاً لأمزجتكم؟! لم أفعلها من قبل، ولن أقبل على نفسي أن أفعلها أبداً.

وأخيراً... ها هو القاضي يدعو رجال الطرفين، ووجهاء المدينة وأعيانها، إلى مأدبة عشاء في صالونه الفخم الذي يدخلونه للمرّة الأولى. بعد العشاء الذي كان قد خلق جوّاً وديّاً، اعتلى عماد بك الجلسة فيما بقينا كلّنا صامتين، ننتظر على أحرّ من الجمر حكم القاضي. بدأ كلامه بنبرة وديّة تدعو إلى أنّ حكمه يستند فقط وفقط، إلى الأدلّة الدامغة، وأن لا مصلحة له في نوع الحكم. وطالت مقدّمته التي أنهاها قائلاً: إنّ هناك ما هو أهم من حكم القاضي، وأنا كما تعلمون لست قاضياً هنا. وهناك ما هو أهم حتّى من العدل نفسه في مثل هذه المواضيع. ومهما تكن النتيجة، فإنّ ذلك لا يعني فوز طرف وخسارة طرف... حقّانية طرف، أو بطلان موقف طرف. الأهم من كلّ ذلك، هو أنّني لم أكُن أمام قضيّة نسب، أحكم فيها لأحد الطرفين، لأحكم بالسيف باقتسام من تتناحرون عليه. فكلّ من الطرفين على حقّ من وجهة نظره، وإنّ دافع كلّ منهما هو الإخلاص والتمسّك بما يعتقده هويّته... لكنّ هذا التنوّع الذي أدّى بكم إلى هذا الشقاق، هو بذاته، مصدر غنىً لكنّكم غافلون. فكما تعلمون، قال الله تعالى في كتابه العزيز «يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم... صدق الله العظيم». كما جاء في الحديث النبوي الشريف أن «لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلّا بالتقوى... صدق الله العظيم».

إذن... يا إخوتي، مهما تكُن الحقيقة فيما أنتم مختصمون بشأنه، فإنّ النتيجة يجب أن لا تزيدكم إلّا إيماناً ومحبّة وتكاتفاً... ومع ذلك ها أنا ذا، بناءً على رغبة منكم، أعرض عليكم ما توصّلتُ اليه.

هنا تحديداً، أخذت لهجته تفقد ودّيتها، وفقدت أساريره ابتسامتها العريضة، وعاد إليها الجمود، كأنّه عاد يجلس على دكّة القضاء، وها هو يحكم في أمور الناس وخلافاتهم بالعدل... واستدرك: طيلة هذه الفترة لم أبقِ مصدراً واحداً في القانون لم أراجعه، ولم أبقِ مذهباً فقهيّاً واحداً لم ألجأ إليه، كما

لم أترك مصدراً أو مرجعاً تاريخيّاً يخصّ القضيّة، إلّا درسته بمنتهى التأنّي... كما استدعيتُ المعمّرين ورجال الدين، وكلّ من كتب ولو قصاصة واحدة قد تفيد في الحكم في قضيّتكم.
ثمّ أخرج صحيفةً كبيرة بحجم سجّادة الصلاة، وعرضها على الطاولة الكبيرة أمامه، وقال: وأخيراً استطعتُ أن أرسم شجرة لكلّ عائلة منكم، وجمعت بعضها ببعض وربطتها، إلى أن خرجتُ بهذه الشجرة الكبيرة، التي تشرح بوضوح، أنساب عشيرة الهنداويّة. وبإمكان كلّ منكم الاطّلاع عليها... وبناءً على كلّ هذه الأدلة والبراهين، وبعد التأكّد من صحّتها، وبعد التيقّن من أنّني قد توصّلتُ إلى الحكم بالعدل، فإنّني أستطيع أن أقول لكم، وكلّي إيمان ويقين، بأنّ الهنداويّة في الأصل، عشيرة كُرديّة تداخلت في علاقات اجتماعيّة أخويّة وجيرة متينة مع التركمان، أدّت بمرور الزمن إلى أن يتعلّم كلّ فرد منهم اللغتين التركمانيّة والكُرديّة، ويتقنها ويتحدّث بها بطلاقة وكأنّها لغته الأم...
أنهى القاضي عماد بك النطق بالحكم كأنّه في قاعة المحكمة، فقد أنهى مُرافعته بلغة رسميّة وصمت.. وكأنّه يصدر أحكامه التي لا تقبل الجدال والنقاش. طال صمت الحاضرين. ثمّ، بعد برهة، تعالت أصواتُ همهمات غير مفهومة. كان الجميع يتحدّثون في وقتٍ واحد، لم أفهم حقّاً ماذا يقولون، فاستشاط عماد بك غضباً: أنا حكمتُ وفقاً لطلبٍ منكم وأخذتُ وقتاً أكثر من اللازم للحكم. كلّ ذلك، لكي أحكم بما يمليه عليّ ضميري، شاء من شاء، وأبى من أبى.. والآن بإمكان من يقبل أو لا يقبل، الاطّلاع على شجرة العائلة الكبيرة هذه.. ثمّ بعد ذلك أنتم أحرار... وبعد برهة صمت لفّت الجميع، عاد ليقول بصوت عالٍ: اللعنة على الحرب التي قسّمتكم فِرقاً ومذاهب. اللعنة على الحرب التي لم تكتفِ بتدمير البلد، فدفعت بكم إلى التخندق بعضكم ضدّ بعض، حتّى داخل بيوتكم وعوائلكم.
قال ذلك غاضباً، وقام من المجلس يُغادر صالته الفخمة الكبيرة. ثمّ.. عاد فجلس وسط رجاء الحاضرين، وانتهت تلك الجلسة بأن احتضن الرجال بعضهم بعضاً.

20

«الرجال لا يطلبون إنصافاً من أحد، ولكنّهم كثيراً ما يبذلونه طواعية».
فريد الدين العطّار

دهمتني موجة ذعر غريبة، وأنا أتخيّلُ نفسي سأدفن يوماً ما في هذه المقبرة وعلى مقربة من آتيلا وعظماء الرجال الذين استرخصوا أرواحهم وحضنوا الموت كعاشق مجنون. أرعبتني فكرة أن نتساوى نحن معهم، في الحياة وفي الممات أيضاً. فتملّكتني فكرة أين يُمكن أن يكون سعيد الحاج علي راقداً الآن؟ المؤكّد هو أنّه مدفون في هذه المقبرة التي تحتضن رفات شهدائنا بدفء الأمّ... لكن مهلاً! من قال إنّها تحتضن الشهداء بحنان الأمّ وحبّها؟ أفلا تحتضن في الوقت ذاته أجساد المجرمين وقطّاع الطرق والميتين نتيجة حادث سير أو لدغة أفعى؟ والأدهى والأقسى من ذلك، ألا تحتضن أيضاً، سعيد الحاج علي وأقرانه كما تحتضن شهداءنا؟

تركتُ مراسم الدفن، وأخذتُ أبحث بين الشواهد، عن قبر سعيد الحاج علي. كنت مُتلهّفاً، مُتعطّشاً في تلك اللحظة، لكي أعرف مكان قبره. كنتُ أبحث عنه، كأنّني أبحث عن عزيز فقدته. بدا لي الأمر وكأنّ كلّ شيء أصبح الآن مرتبطاً بمكان قبر سعيد، والأبعاد التي تفصله عن قبور عظماء رجالنا، أولئك الفدائيّين المجهولين الذين لم يبقوا شيئاً إلّا استرخصوه. لا مال، ولا أهل، ولا مستقبل، ولا حتّى أرواحهم. استرخصوها فداءً لهذه الأرض الجاحدة التي تحتضنهم بنفس الطريقة التي تحتضن بها من خانوها، وتآمروا عليها، واغتنوا على حسابها.

بعد سنوات طويلة، بدا كأنّ القدر حكم بأن الحروب والصراعات، تبدأ كمجرّد لعبة، ولا تنتهي إلّا بالدم. فبعد عشرات الجولات، ونحن نتواجه في معارك، متسلّحين ببنادق خشبيّة، وعياراتنا مجرّد حجارة، حين كُنّا نلعب بحماسة أيّام الثورة الخوالي، لعبة البيشمركة والجحوش. ها نحن من جديد، نقف وجهاً لوجه.. أنا وسعيد الحاج علي. وكأنّ القدر رسم الأدوار في البداية، في لعبة تحاكي الواقع في كلّ شيء، إلّا الدم، ليثبتها في ما بعد كأدوار حقيقيّة نكون محكومين بممارستها حتّى النهاية، وعلى أكمل وجه.

ثمّ بعد أن أصبحتُ من الطلبة غير المريحين، والمشاغبين سياسيّاً.. ها هو سعيد يواجهني، إذ ينتمي لحزب السلطة ويشارك في المناسبات والحفلات الحزبية المستمرّة على مدار السنة بحماسة منقطعة النظير. لن أنسى أبداً، كيف اصطدمنا بعضنا ببعض عدّة مرّات في ما يخصّ تاريخ الكُرد والأدب الكُردي الكلاسيكي، والشعر الكُرديّ الحماسيّ. كان سعيد كطفولته طويلاً نسبياً، قويّ البنيان، أشبه بالمصارعين في جسمه الضخم. أمّا أنا، فقد كنتُ ضئيل الجسم، حسّاساً إلى أقصى درجة. فيما كنتُ أنا أُشبَّه بالناسك الزاهد في مصاريفي.. كان هو يعيش حياة البذخ المبالغ فيها، ويصرف كيفما شاء، وعلى شلّة صغيرة مقرّبة منه. فيما كنتُ أنا، من الطلبة المسيطرين في ما يخصّ الجانب الدراسي، كان هو واحداً من أغبى الطلبة على الإطلاق. بينما كنتُ أنا زاهداً في لبسي، كان هو يرتدي أغلى الملابس الكُرديّة التي كان يغيّرها باستمرار. المادّة الدراسية التي كانت أشبه بالنزال، كانت هي التي تخصّ الحرب التي أخذت تُسمّى باسم الرئيس نفسه، فقد كان لزاماً على كلّ الطلبة أن يكتبوا عنها. وكان الشائع أن يحفظ الطلبة قطعة يكتبها في العادة مدرّس المادّة عن ظهر قلب. فكان سعيد يتبارى في إلقاء القطعة عن ظهر قلب، بعد أن يكون قد كتبها كما هي في الامتحان. كانت هذه المادّة بالنسبة إليّ ميدان المنازلة الذي لا يجاريني فيه أحد من الطلبة،

لا بل حتّى بعض المدرّسين أيضاً. وكنتُ في العادة، أدخل في سين وجيم، ومشاكل لم أكُن في الحقيقة في غنىً عنها. كنتُ أكتبُ ما أنا مقتنع به، وهو ما كان المدرّسون ومسؤولو الحزب يرفضونه تماماً.
كان الحاج علي من الذين اغتنوا بعد الانهيار الأكبر، نتيجة انتمائه وولائه القويّ لحزب السلطة. فبعد أن تطوّرت الثورة الجديدة واشتدّ عودها، لجأت السلطة التي كانت لا تثق بأيّ كُرديّ مهما كان ولاؤه، إلى إبعاد الكُرد عن جبهات القتال. ومع أنّ الكثيرين من الشباب الكُرد قُتلوا في الجبهة في حكايات أصبحت مضرب المثل في الشجاعة والبطولة بين رفاقهم من الجنود غير الكُرد، فإنّ كلّ ذلك لم يشفع لهم أبداً. فكان اشتداد عود الثورة وسيطرتها على المزيد من المناطق من جديد، وازدياد حجم وعدد المعارك، سبباً في تخوّف السلطة من التحاق الكثيرين من الرجال بالثورة. لذلك، أسّست أفواجاً جديدة للجحوش، سمّتها «الأفواج الخفيفة»، كانت تتشكّل من مئات، أو آلاف الأسماء التي كانت نسبة كبيرة منها وهميّة، يرأسها كرديّ أسّسها، كان يُدعى مستشار الفوج ويُشرف عليها ضابط من الجيش.
كان الحاج علي من أوائل من تقدّموا لفتح الباب أمام الناس لكي ينضمّوا إلى الفوج الذي شكّله حديثاً. فكان يتسلّم مبالغ ضخمة من السلطة، وسيّارات وأسلحة متنوّعة بالمئات. فغدت بعض شوارع المدينة وأحيائها مليئة بمسلّحين يرتدون الملابس الكرديّة ويحمون بيوت المستشارين والمسؤولين في تلك الأفواج. كان الناس قد تعوّدوا، منذ انطلاقة أوّل ثورة، على تسمية من يحمل السلاح لمصلحة الحكومة لمحاربة الثورة بالجحوش. كان الكثير من هؤلاء يغضب من هذه التسمية، فيطلق على مسلّحيه لفظ المقاتل، بينما كان بعضهم يحاول استغلال الوضع للاغتناء لا أكثر، فكانوا يتنذّرون حينما يطلق الناس عليهم لفظ الجحوش، حتّى إنّ أحدهم، بينما كان يهمّ بالدخول إلى النادي الليلي الذي كان أشبه ببار المدينة الوحيد، قال أحد الشباب الموجودين هناك: ها هم الجحوش...
فما كان منه إلّا أن توجّه إليه قائلاً: يا قليل الأدب، لفظ الجحش يُطلق على المسلّح العادي، أمّا أنا فأكبر بكثير، أنا مسؤول الجحوش، ما يعني أنّني كبرت وأصبحت حماراً. بينما كان مجرّد إطلاق نفس العبارة تجاه آخرين من المستشارين، يكفي لكي يؤدّي إلى قتل من أطلقها في الحال. كانت هذه هي حالنا، إلى أن خفّت محاولات سعيد المستمرّة للاصطدام بي، وانتقل في الصفّ الدراسيّ إلى المقعد الذي يقع خلفي مباشرةً. بعد مرور فترة من الزمن، علمتُ من بعض أصدقائي المقرّبين بأنّهم قد أخذوه إلى مكان بعيد، وهدّدوه بأنّه إن أصبت أنا بسوء، فسيكون هو المسؤول. لكنّي لم أعرف سرّ ثقتهم العالية، بأنّهم قد أسكتوه ومنعوه من محاولات الإضرار بي.
كانت ردّة فعلي الأولية عصبيةً للغاية. فقد كنت مستاءً جداً من اللجوء إلى هذه الأساليب. وكنّا حينها قد بدأنا مع بعض الشباب بتنظيم أنفسنا ضمن خلايا صغيرة ترتبط بأحزاب الثورة في الجبال، وتُمارس النضال السياسي سرّاً. في هذه الخلايا، لم أكُن أتردّد أبداً في مباركة قتل أو حتّى تنفيذ حكم القتل بأحد الخونة، لكنّني في الوقت نفسه، كنتُ أرفض أسلوب التهديد والابتزاز. ما إن واجهوا ردّة فعلي الغاضبة، حتّى انفجر أحدهم قائلاً: ألم تسأل نفسك لماذا خفّت محاولات سعيد للاحتكاك بك؟ ولمَ انتقل إلى الجلوس خلفك مباشرةً؟ لقد كان يتجسّس عليك، ويرفع كلّ حركة وكلّ حرف يصدر منك، في تقارير إلى المسؤولين في الحزب.

استمرّت الحرب، واستمرّت شكوك السلطة فينا، واستمرّت معها أيضاً هذه الوتيرة الصاخبة الدمويّة من الحياة. كان ايقاعاً صاخباً مرسوماً بالدم والرعب والخيانات والبطولات والتضحيات الجنونيّة الصادقة... كان الشيء الوحيد الذي يهوّن عليّ كلّ ذلك، هو الاستماع إلى ساعة البثّ اليوميّة لمحطة إذاعة الثورة الجديدة التي كانت تتعرّض لمحاولات تشويش مستمرّة. وكان دوامنا الدراسي اليوميّ منقسماً إلى وجبتين، فكانت الأيّام الثلاثة الأولى من الأسبوع صباحيّة، بينما كانت البقيّة مسائيّة، ما كان يحرمني من ساعة البثّ الممنوعة هذه لنصف الأسبوع بالكامل... لكنّ أبي كان يسجّل ساعة البثّ كاملةً على شريط ويسلّمني إيّاه بعد عودته في المساء إلى البيت.
واستمرّ كلّ شيء، إلى أن وصل بي الأمر إلى وضع عصبيّ ونفسيّ لم أستطع معه الاحتمال أكثر من ذلك... واتخذت قراري النهائيّ. كانت لحظات الوداع باهتة مرتبكة. ورغم التوتر الذي شاب علاقتنا في الأشهر الأخيرة، أبيتُ أن أرحل دون توديعها. وجدتها تتجوّل في الساحة. بعد إلقاء تحيّة عابرة، قلتُ مرتبكاً: أنا راحل... قد لا نلتقي مجدّداً و... جئت أودّعك...
رفعت رأسها عن الأرض بينما نحن واقفان وقالت: إذن! ستحمل السلاح؟
داهمتني موجة عارمة من الفخر والإحساس بالبطولة، لكنّها كموجة وحيدة تراجعت بسرعة مخيفة. فأجبتُ ببرود: نعم. وحين لمحتُ وأنا أنظر في عينيها بصورة خاطفة، ما يُشبه الاستصغار، استدركتُ بعصبيّة: نعم، أنا ذاهب، فحياتي لم تعد تحتمل شيئاً آخر غير حمل السلاح والدفاع عن كرامة هذا الشعب الذي تُنتهك كرامته كلّ لحظة.
لم أفهم ابتسامتها المفاجئة الغامضة. هل كانت ابتسامة سخرية، أم فخر، أم أنّ الأمر كلّه لم يتجاوز حدود إخفاء ارتباك اللحظة؟ لكنّني لم ألمح فيها، ولم أفكّر مطلقاً في أن أجد فيها مسحةً من الخوف عليّ. واستدرتُ حتّى من دون أن أصافحها. وهكذا التحقتُ بالجبال، واستبدلتُ بندقيّتي الخشبية، التي كنتُ أقود بها مجموعتي حين كنّا نلعب ضدّ زمرة الجحوش التي كان يقودها سعيد الحاج علي، ببندقيّة حقيقيّة.. واستعدتُ معها المعنى المطلق للرجولة التي كنتُ أستميتُ للاحتفاظ بها، إذ كنتُ كلّما واجهت مفترق طرق لا أستطيع التفكير لكي أختار. لقد كان الاختيار واضحاً جداً بالنسبة إليّ. فبين أيّ شيء آخر ورجولتي، لم أكُن أتردّد ولو لحظة، في التضحية بكلّ الدنيا، من أجل الرجولة التي فُرضت عليّ يوم الانهيار الأكبر الذي بكيتُ فيه للمرّة الأخيرة كطفل، وكانت تلك هي ذاتها المرّة الأولى التي بكيتُ فيها كرجل.
إنّ القدر الموغل في تحويل لعب الطفولة إلى معارك دموية في ما بعد، لم يتوانَ عن إكمال لعبته، فسمعتُ بعد أشهر من التحاقي بصفوف البيشمركة في الجبال، بأنّ سعيد الحاج علي قد ترك دراسته أيضاً ليلتحق بفوج أبيه، وليصبح مسؤولاً عن إحدى سرايا الجحوش فيه. والأكثر غرابةً في الأمر، هو التقاؤنا للمرّة الأخيرة في ساحة المعركة الحقيقيّة.
كُنّا قوّة صغيرة مكوّنة من عشرين فرداً من قوّات البيشمركة. بعد تجوالنا في المنطقة، كُنّا نبيت في إحدى القرى القريبة، من الخطّ الرئيس لتحرّكات الجيش. بعد طلوع الفجر، وبينما كُنّا لا نزال نياماً، أطلق من كان يتناوب على الحراسة النار بكثافة. فانطلقنا نلملم أنفسنا، ونتوزّع داخل القرية للدفاع عنها وعن أنفسنا. أخذت القوّة المكوّنة من جحافل كبيرة من الجيش والجحوش، تُساندها المدفعيّة وبعض الدبابات والآليّات العسكريّة، بتكرار هجماتها التي كانت تفشل أمام استبسال قوّاتنا ودقّة إدارتنا للمعركة. فتدخّلت المروحيّات عصراً، واشتدّت القوّة الناريّة أكثر فأكثر. أمّا الأهالي، فقد تركوا القرية منذ الصباح الباكر، فكان خروجهم يوفّر لنا وضعاً مريحاً.

طالت المعركة حتّى المساء، عندها اشتدت القوّة النارية المتنوّعة، ووصلت إلى أقصى مداها. فكانت كلّ أنواع الأسلحة جوّاً وبرّاً تمطرنا دون هوادة. استمرّت القوّة الناريّة بنفس الشدّة، لكنّها ابتعدت شيئاً فشيئاً ثم خفّت. كانت هذه القوّة الناريّة الشديدة للتغطية على انسحابهم النهائيّ من ساحة المعركة التي كانت غارقة في الدخان والغبار. كانت أكثر البيوت مهدّمةً بفعل قصف الجيش، وبعضها الآخر كُنّا قد فتحنا في جدرانه فتحات نتّخذها خنادق أثناء المعركة.
كانت حصيلة المعركة التي دامت أربع عشرة ساعة كاملة، الاستيلاء على الكثير من الأسلحة المتنوّعة وسقوط العديد من القتلى في ساحة المعركة... وكان هذا هو المعهود في ما أخذنا نسمّيه بحرب القرى التي كانت تبدأ بهجوم الجيش، تمرُّ بانتصار كبير لنا، مخلّفاً خسائر كبيرة في صفوفه. مقابل ضحايا قليلين منّا، وكانت تنتهي بقدوم الجيش، في اليوم التالي، مصحوباً بالجرّارات الكثيرة التي تدمّر القرية وتحرقها بالكامل. الأمر العجيب الذي حدث في هذه المعركة، وكان أغرب بكثير من أيّ صدفة، حدث عند نهاياتها. فمع اقتراب المساء، وأثناء إحدى هجماتهم، وقد كانت أكثرها شراسةً وقوّة نارية، وجدتُ نفسي في مشهد لا يُصدّق، وجهاً لوجه مع سعيد الحاج علي، كلّ منّا يُصوّب بندقيّة حقيقيّة، تنفث الموت من فوهتها نحو الآخر. أخذنا بالمفاجأة، وبدا الذهول الذي اعتراني مُسيطراً على كيان سعيد، الذي بدا لي وكأنّ المفاجأة المختلطة بالخوف قد تمكّنت منه تماماً، ولم تصدر عنه سوى جملة واحدة: أهذا أنت؟
ولا أدري كيف ضغطت على الزناد، قبل أن يتمكّن هو من ذلك، وأفرغتُ على غير عادتي، مخزن العتاد كلّه فيه. فسقط أمامي على وجهه وهو غارق في دمه. ثم جلستُ في مكاني مُنقطعاً عن كلّ ما حولي، وأنا غارق في عبثيّة المشهد. وكأنّنا قلبنا المعادلة بأكملها. فبينما تُصبح المعارك مادة للألعاب، ها نحن قد قلبنا اللعبة التي كنّا نلعبها ونحن في مخيّماتنا. ها نحن نُعيدها بكلّ حذافيرها، هو متمسّك لدرجة الحياة بدوره وقد أصبح مع الجحوش، مستمرّاً على سلوك أبيه، بينما أنا الوريث العنيد لتراث أبي ونهجه، متمسّك حدّ الموت بدوري أثناء اللعبة والواقع كذلك، كبيشمركة يقاتل من أجل الحريّة. ما تغيّر في اللعبة وهي تتماهى مع المعركة الحقيقية في ذلك اليوم الصيفيّ الملتهب، كان بركة الدم التي غرق فيها سعيد وعلى يدي أنا. يا إلهي! ما هذا؟ أيُعقل أن تتحوّل الألعاب هكذا إلى معارك حقيقيّة بالدم؟ لكن ما أحزنني من جديد، هو تلاوة النشرة لأسماء شهدائنا الثلاثة في تلك الملحمة، بينما كُنّا نستمع في اليوم التالي، إلى إذاعة الثورة وهي تنقل للناس بحماسة كبيرة أخبار انتصارنا الكبير. فقد جُرح منّا، بالإضافة إلى هؤلاء الشهداء، أحد عشر فرداً.. لكنّ النصر كان كبيراً جداً.
يا إلهي! ماذا أفعلُ هنا؟! عليّ أن أعود إلى قبر آتيلا لإكمال مراسم الدفن. ما الذي أبعدني هكذا عن المراسم؟ وما الذي جاء بي هكذا إلى هذه البقعة من المقبرة؟ يا إلهي، يا للصدمة! أنا كنتُ أبحثُ عن شاهد قبر، كُتب عليه سعيد الحاج علي، فإذا بي أقف في مواجهته تماماً. يا للسخرية! كيف يجوز أن يُدفن الشهداء في نفس مقابر الخونة؟ ما كلّ هذ العبث؟ من أين جاءت هذه الأرض بكلّ هذه الكمّية الهائلة من اللا أباليّة والقسوة؟ لكن ما أصابني برعب أقرب إلى الموت من شدّة الصدمة، كان بقعة الأرض الفارغة التي تقع إلى جانب قبر سعيد. تصوّرت نفسي للحظة، وأنا أُدفن فيها بجانبه، أو في مواجهته تماماً.. فامتلأ حلقي بالمرارة، واعتراني شعور بالتفاهة والغبن. حينها تذكّرتُ قول سيبيو الأفريقيّ، وهو يعبر البحر المتوسط ويهاجم قرطاج في عقر دارها، لكي يُجبر هنيبعل على فك الحصار عن وطنه روما.. في تلك اللحظة، قرّرتُ أنّني لن أسمح لنفسي

بالموت على هذه الأرض. المؤكّد هو أنّني سأموت من أجلها، لكنّني لن أسمح أبداً لنفسي بالموت بطريقة، أو بمكان يُمكن أن يؤدّي إلى دفني داخل تراب وطن يحتضن الشهداء كما يحتضن الخونة. حينها عدت إلى مراسم دفن آتيلا ورفاقه، وأنا أردّد بصوت مسموع ما قاله سيبيو الأفريقي، منقذ روما وبطلها الساخط آنذاك «أيّها الوطن الناكر للجميل، لن تكون لك عظامي»...

21

«أفنِ نفسك في الله، فهذا هو التوحيد، وأفنِ الفناء نفسه فهذا هو التفريد».
فريد الدين العطّار

يا ربّ، يا خالق السماوات والأرض...
يا من تحيي وتميت...
يا من بيدك الحياة والموت، يا من أنقذت يونس ومنحته الحياة حتّى في بطن الحوت، هل تعجز الآن، أستغفرك.. سبحانك، عن إعادة فاطمة إليّ؟
إنّني أستغفرك، وأتوب إليك ألف مرّة، وأعيد هذه الكأس، التي لم أذقها بعد، إلى مكانها، وسأستمرّ في عبادتك والالتزام بدينك الحنيف وإلى الأبد. إنّني عبدك الذليل المطيع آتيلا.. وأعلم أنّك غفور رحيم، وأنا على يقين من أنّك ستعفو عني. فأنت العليم بما يجول في أعماقي، وأنّني لم، ولن أشرك بك شيئاً. لكنّ آلام النار التي تحرق روحي دون أن تحيله رماداً، وشدّة طمعي في عطفك وكرمك، دفعاني لتجاوز حدودي فتطاولت، أستغفرك ربي، وحاولت أن أتجرّع كأس الكفر هذه، وأعود بعد ذلك للمعاصي وارتكاب كلّ الآثام.
يا ربّ..
أنت أعلم بما في داخلي.. هل يمكنني القول إنّ الشيطان أغواني ودفعني للعودة إلى السكر والعربدة؟ هل أستطيع القول إنّني صمدتُ أمام محاولات الشيطان المستميتة، وإنّني بقيتُ مُتمسّكاً بإيماني الخالص وورعي وعبادتي إيّاك؟ يا ربّ، يا من تُمسك بمقادير الكون في عليائك.. أعِد إليّ فاطمة، كما أعدت يونس من بطن الحوت ووهبته الحياة.. أنقِذ فاطمة وهبْها الحياة، وأعِدني إلى ذاتي.. إلى حياتي.. إلى جادة الصواب التي أحمدك ربّي، أنّني تمكّنت من السيطرة على نفسي، وبقيت مُتمسّكاً بصراطك المستقيم... وكما اجترحتَ يا إلهي معجزة.. ودفعت بالسلطة إلى عدم الاعتراف بما توصّل إليه القاضي عماد بك، فاضطررتُ إلى الهرب من الموت إلى هذه القرية، ليس بكثير أيضاً على عظمتك وجبروتك وقوّتك، أن تُعيد إليّ فاطمة من جديد، وتجمعني بها تحت سقف واحد في الحلال وإلى الأبد. إنّني أنا عبدك المطيع آتيلا، أدرك أنّ لك حكمة في كلّ ما مرّ بي، حتّى إصرار الدولة على اعتبارنا تركماناً لا كُرداً.
بالرغم من كلّ الشدّ والجذب، وكلّ المجهود الجبّار الذي قام به القاضي المتقاعد عماد بك، ظلّت الدولة مصرّة على أنّنا أبناء عشيرة الهنداويّة ولسنا كُرداً، وأنّ جميع الهنداويّة هم من التركمان. وحينها فهم الجميع أنّ حكم عماد بك هذه المرّة، لم يكن حكم سيادة القاضي المشهور، والمشهود له بالعدل والنزاهة والحديّة، بل كان اجتهاداً لقاضٍ متقاعد، ليست لنتائج أقواله أيّ صفة إلزاميّة.. ولا تُعدّ أحكاماً أبداً. بعد مأدبة بيت القاضي عماد بك الخرافيّة بيوم واحد، كانت مفارز الانضباط العسكريّ قد بحثت عنّي لإلقاء القبض عليّ بتهمة الهروب من الخدمة العسكريّة. وحين قيل لهم إنّ الهنداويّة كُرد، وإنّ الدولة أعفت الكُرد من أداء الخدمة في الجبهات، كان مسؤولهم قد انتفض في عصبية، مؤكّداً أنّ «الهنداويّة تركمان أقحاح، وأنّ عليهم خدمة بلدهم، وبذل الأموال والأنفس في حربه العادلة ضد الفرس المجوس».
سيطر عليّ إحساس لم أشعر به من قبل أبداً. كان خليط أحاسيس من الشعور بالغبن والحنق والتفاهة، أمام قوّة غاشمة كبيرة عمياء لا يُمكن إفهامها. يا إلهي، إن لم أكُن كُرديّاً، فلماذا دمّر

الجيش بيتنا وأحرقه قبل سنوات؟ لماذا سلبوا كلّ ما كنّا نملك آنذاك؟ لماذا استشهد أخي تيمور، وهو يحارب من أجل كردستان حرّة، كما كان يقول؟ وفهمتُ مصيبتي المغرقة في السخرية والانتقائيّة الظالمة. فعندما يكون في مصلحتي أن أكون تركمانيّاً ومحميّاً من بطش الجيش، تراني الدولة كُرديّاً متمرّداً خائناً متآمراً، فتدمّرني وتسلبني ما أملك. وعندما يكون في مصلحتي أن أكون كُرديّاً لكي أتفادى الموت في الجبهات وفقاً لقرار من قيادة الدولة نفسها، يصرّون على أنّني تركمانيّ.

ماذا أفعل أمام هذه القوى التي تمزّقني وتستغلّني وتقتل في داخلي كلّ شيء يخصّ ذاتي؟ ماذا نفعني حين كنت كُرديّاً وفقدت الدار والمال والشقيق؟ وماذا نفعني أن أكون تركمانيّاً، أتحدّث التركمانية بكلّ طلاقة عندما أُستثنى من قرار الدولة بالإعفاء من العودة إلى الجبهة، والموت في ذلك الجحيم الذي قد يؤدّي بي إلى مصير الآلاف الذين لا يعرف أهاليهم أيّ خبر عنهم؟ ففي كلتا الحالتين أنا الخاسر، والدولة تستغلّ وضعي لكي تحكم بأنّني كُرديّ وقتما كان ذلك في مصلحتها.. وتفرض عليّ أن أكون تركمانيّاً حين يصبّ ذلك في مصلحتها. وفي كلتا الحالتين تُحقّق الدولة مصلحتها هذه على حسابي وحساب أهلي، لا بل وحتّى حياتي.

للمرّة الأولى في حياتي، شعرتُ بأهميّة أن أكون منتمياً بوضوح إلى هويّة ما، أيّ هويّة كانت. لم أشعر بتلك الدرجة من الإهانة من قبل أبداً. أحسستُ بنفسي ضائعاً، وعلى استعداد لتقبّل أيّ اسم، أو أيّ تسمية، أيّ عشيرة، أيّ دين. المهمّ هو أن أخرج من حالة التفاهة التي احتلّتني إثر تمعُّني في التمزّق الذي أعيشه، بين أن أكون كرديّاً أو تركمانيّاً. وما عمّق شدّة شعوري بالإهانة، هو أنّني أحسستُ للمرّة الأولى بأنّني أصبحتُ ألعوبةً بيد الدولة، وهي التي تقرّر وفقاً لمزاجها ومصلحتها، من أكون، ومتى أكون.. ومتى لا أكون.

أنا الذي لم تهمّني تلك الأمور أبداً. ولَمْ أسأل، ولم يعنِني سواء كنت كُرديّاً، أو عربيّاً، أو تركمانيّاً... مُسلماً، أو من غير دين، أو حتّى عديم الإيمان بأيّ دين. ما كان يهمّني هو حصولي على كأس العرق والحبوب المنوّمة والمخدّرة.. أصبحتُ اليوم في حالة صدمة قاسية. وكأنّني أتمزّق من الداخل ولا أقدر على لملمة ذاتي.

أشعر بحالة دوار مصحوبة بالغثيان والتفاهة والدوران في الفراغ، بينما قدماي منقطعتان عن الأرض. وأمام هذا الشعور بالتفاهة، تجاه هذه القوّة الجبّارة التي تفرض عليّ كلّ شيء، كان الغريب أنّني بدلاً من الاستسلام واللامبالاة، اخترت التمرّد هذه المرّة.

لا أعرف ما الذي جعلني فجأةً مُتمسّكاً بكُرديّتي هكذا؟ هل كان بسبب الحقيقة التي أعلنها القاضي عماد بك بطريقة لم تدع لأحد منّا مجالاً للشك؟ أم هو يخفي خوفي من الموت في جبهات القتال؟ أم التضحيات التي تكبّدتْها أسرتي من أجل تمسّكها بكونها كُرديّة، وكنتُ غافلاً عنها دهراً؟ حقيقة، حتّى الآن وأنا أجلس بعد كلّ تلك السنين على سجّادة الصلاة هذه، أقابل قنّينة العرق والكأس المنتظرة، أتضرّع إلى الله أن يعيد إليّ فاطمة ويجمعني بها إلى الأبد، لا أعرف أيّاً من تلك الأسباب قد غيّرني ذلك اليوم فجأة وأغرقتني في حالة أشبه بالتوق إلى كُرديّتي. كان شعوراً غريباً حقّاً، إذ كان العجيب في الأمر كلّه، هو أنّه في الوقت الذي سينقذني فيه إثبات كُرديّتي من الموت في جبهات القتال، غمرني إحساس غريب، فأصبحتُ مستعدّاً في تلك اللحظة بالذات، حتّى للموت، من أجل إثبات ذلك.

في صبيحة اليوم التالي، كنتُ غاضباً جداً. وكنتُ قد شربتُ منذ الصباح كميّة كبيرة من العرق، وأضفتُ إليها حبّةً مهدّئة، واتّجهت إلى العاصمة الصيفيّة التي كانت تقطنها الدوائر الخاصّة بإدارة المناطق الكُرديّة المسمّاة وقتها مناطق «الحكم الذاتي». مع وصولي إلى البناية الكبيرة، قلتُ في عصبيّة: أين رئيسكم؟ أريد أن ألتقيه بسرعة، فلديّ حاجة ملحّة وهامّة للغاية.
أرادوا إقناعي بالجلوس متذرّعين بأنّ هذه هي الاستعلامات، وبأنّ عليّ أن أنتظر ريثما يبلّغون المسؤولين، لكنّهم أمام إصراري وحالة الانفعال البادية عليّ بوضوح، أدخلوني على رئيسهم الذي استقبلني ببرود متسائلاً: تفضّل، ماذا تريد؟
أجبته بجملة قاطعة ومن دون مقدّمات: أنا من عشيرة الهنداويّة، فهل أنا كُرديّ أم تركمانيّ؟
أجابني بلهجة باردة أقرب إلى الحسم: أنت تركمانيّ طبعاً...
– إن كنتُ تركمانيّاً حقاً، فلماذا استشهد أخي وهو بيشمركة يدافع عن كردستان؟ لماذا أحرق الجيش بيتنا وسلب كلّ مواشينا؟ فهل بعد كلّ ذلك تقول إنّني تركمانيّ؟
أجاب بنفس اللهجة الباردة الرسميّة مع نبرة حسم أكثر وضوحاً: نعم، أنت تركمانيّ وانتهى الأمر.
حاولتُ أن أشرح له وضعي، لكنّه منعني من الكلام وصاح بالحرس أن يرموني خارج البناية كلّها. بينما كان الحرس يجرجرونني، أخبرته بأنّنا أقارب. أوقف الحرس ووقفت أخبره عن مدينتي، وعنواننا في المدينة، فتغيّر فجأة وقال بلهجة بدت أكثر وديّة: نعم، تذكّرت، أنا أعرف أهلك، صحيح أنا من عشيرة الزنكنة التي تنتمي إليها أمّك... تعال معي سآخذك إلى رجل كان جاركم.
ذهبنا معاً وتعرّف الرجل إليّ، وقال كلاماً عن طفولتي، ولم أبالِ بمثل هذه الأمور. لكنهما في النهاية، بعد حديث ودّي، واسترجاعهما بعض ذكرياتهما معاً ومع أبي وأهلي، زوّداني بكتاب رسمي كُتبت فيه عبارة، حفظتها عن ظهر قلب في الحال ولم أنسها حتّى هذه اللحظة، فقد كُتب فيه «نبيّن لكم أن آتيلا سعد الله فيض الله، كُرديّ الأصل». غمرني شعور غريب بالطمأنينة والثقة والاعتداد بالنفس المفاجئ، وأنا أتسلّم ذلك الكتاب. وكأنّي انتزعتُ منهم اسمي الضائع. وللمرّة الأولى في حياتي، فارقني ذلك الشعور المُلازم لي دائماً بأنّني كائن ضعيف يمسخونني وقتما يشاؤون وكيفما يشاؤون. وبدلاً من الاستفادة من الكتاب الذي يحميني من الإعادة القسريّة إلى الجبهة والموت العبثيّ فيها، والعودة إلى حياتي الطبيعيّة المليئة خمراً وثمالة، قرّرتُ لحظتها أن أرحل إلى المناطق التي كانت تُسيطر عليها قوّات البيشمركة.
عندما سألتني أمّي بقلق مشوب بالعصبيّة: أين كنت طيلة اليومين الماضيين؟
أجبتها وكلّي فرح غريب: ذهبتُ إلى العاصمة لأثبت أنّني كُرديّ.. وها أنا أحمل كتاباً رسميّاً من الدولة يؤكّد ذلك. ليس من المعقول أن أكون كُرديّاً من عائلة قدّمت كلّ تلك التضحيات، وأخدم الجيش الذي قتل أخي وأحرق بيتنا وأخذ كلّ شيء. لذا قرّرتُ الذهاب إلى إحدى القرى وسأستقرّ هناك.
فردّت عليّ بحزن بالغ ولهجة أقرب إلى الاستجداء وإثارة العطف: ستذهب وتتركني وحيدة في هذا البيت؟ ماذا أفعل أنا وحدي وقد استقرّت كلّ أخواتك في بيوت أزواجهنّ.
بعد استشهاد تيمور، كنتُ أنا وحيد أمّي، لذا حزّ في نفسي كلامها. وأصبحتُ كمن لا يقوى على فعل شيء، فقلت في يأس: يا أمي، يا حبيبتي، أتقبلين أن أذهب إلى الجبهة لأموت في صفوف جيش دمّر عائلتنا؟

فردّت: افعل كما يفعل أصدقاؤك وأقرانك، اذهب إلى «معسكر السلام»، وسجّل اسمك هناك، لترتاح من خطر إرسالك إلى الجبهة. ألا تقول إنّهم كتبوا لك أنّك كُرديّ؟ هذا يعني أنّهم لن يعيدوك إلى الجبهة، فلماذا تتركني وتذهب إذن؟!

لم تكن أمّي تُدرك ما تغيّر في داخلي، ومع ذلك لم أستطع تركها هكذا، وحيدة مكسورة القلب، فطاوعتها وذهبتُ إلى «معسكر السلام» الذي كان، حسب القرار الذي أخبرني عنه أبو خليل بعد شجارنا وخروجنا من السجن الانفرادي، يستقبل الشباب الكُرد الهاربين من الجبهة، ويسجّل أسماءهم ويفرض عليهم الحضور ليوم واحد في الأسبوع، وبعد البقاء ليلة واحدة، كانوا يعودون إلى بيوتهم وأعمالهم دون أن يلاحقهم أحد. كانت الدولة حينها ترضى بأيّ شيء من الشباب الكرد، ما عدا شيئاً واحداً، هو الالتحاق بصفوف البيشمركة. فكانت تقدّم لنا شتّى الخيارات المريحة التي لم يكن يحظى بها وقتها غير الرجال الكُرد.

بعد زيارتي الثانية للمعسكر وعودتي إلى المدينة بيومين، ألقت مفرزة مسلّحة تابعة للاستخبارات العسكريّة القبض عليّ. وبعد قضاء ليلة واحدة في سجن الاستخبارات التابع للمدينة، نُقلت من جديد إلى الوحدة التي كنت أخدم فيها سابقاً، لكن بدل نقلي هذه المرّة إلى الجبهة، أودعوني السجن وعرضوني على المحكمة العسكرية ثلاث مرّات ثمّ أفرجوا عنّي. كانت تهمتي هي ترك جبهات القتال والهروب من أداء الخدمة العسكريّة. لكنّني شعرت بالغيظ، بينما كان القاضي يتلو قرار الإفراج، لكوني قضيتُ المدّة التي كان عليّ المكوث فيها مسجوناً كعقوبة. ملأني شعور بالغضب تجاه القرار الذي فسّرته على أنّه حَكَم عليّ ضمناً بأنّني لست كُرديّاً، وبأنّني تركمانيّ يجب أن أؤدّي الخدمة العسكريّة في جبهات القتال كأيّ عراقيّ آخر. وكانت المحكمة قد قرّرت تبرئتي من تهمة تزوير النسب نظراً لأنّي كنتُ أحمل كتاباً رسمياً من الدولة.

شعرتُ بوقع الحكم القاسي، الذي يقضي بالتلاعب بي ثانية ويملأني بالتفاهة، إلى أن غمرني إحساس بالتميّز حين قال القاضي إنّ عليّ أداء الخدمة كأيّ فرد عراقيّ مخلص، لأنّي لستُ كُرديّاً.. لا أعرف لماذا انتابني شعور بالفرح فجأة، وكأنّ القاضي لم يحكم لي بالإفراج من السجن فحسب، بل كأنّه قد حكم لي بالإفراج النهائي من كوني عراقيّاً مخلصاً. اختلطت عليّ مشاعر عجيبة غريبة لم أشهدها من قبل.. حينها تذكّرتُ أنّني كُرديّ، وأنّ ذلك يعني حسب تفسير قرار القاضي، أنّني لستُ عراقيّاً مُخلصاً. شعرتُ للمرّة الأولى بأنّني تخلّصتُ من قيود ثقيلة كانت قد أدمت قدميّ ومعصميّ وحتّى روحي.

بعد خروجي من السجن وعودتي إلى البيت، طرحتُ على أمّي فكرة الرحيل والاستقرار في إحدى القرى الخاضعة لسيطرة قوّات البيشمركة، حتّى أكون كآخرين كثيرين في مأمن من كلّ تلك العذابات والإهانات المتواصلة. وعلى عكس المرّات السابقة، لم تعارضني أمّي ولو بكلمة واحدة. فقط أخذت تدعو لي بالسلامة والعمر الطويل. ونصحتني بالتوجّه إلى القرية التي يقطنها بعض أقاربها. فهناك سأكون في مأمن ولن أكون غريباً، بل سأكون بين أقاربي الذين سيخدمونني كأحد أبنائهم. وهكذا، وقبل حلول الذكرى السنوية الأولى للحرب التي طالت بعد ذلك لسبع سنوات أخرى، تركتُ أمّي ومدينتي وكأسي، وانطلقت إلى حيث قدري الأجمل.

يا ربّ السماوات والأرض، يا من لك في كلّ شيء حكمة، اغفر لي عصياني وحماقاتي وهذياني. أنا الذي كنتُ مستاءً من قرار الدولة بالحكم عليّ بمسخي من جلدي وإلباسي لباساً آخر، ورحلتُ عن المدينة حزيناً مُجبراً على ترك أمّي وحيدة في البيت القديم، لم أكُن أعلم حتّى هذه اللحظة، بأنّ

الحكمة من كلّ ما واجهت، تكمن في أنّه كان لا بدّ لي من أن أتوجّه إلى تلك القرية، هرباً من الموت والإهانات المتواصلة لكي ألتقي فاطمة روحي، وأتوب إليك على يديها المباركتين.. ويصبح ملك العالم كلّه ملكي أنا. لم يكن عشق فاطمة سوى ما قالته العبّاسة لأحد الرجال كما يروي الهدهد «قالت العبّاسة لأحد الرجال: ليس العشق إلّا ذرّة تقع على من يشرق عليه ألم العشق، فإن كان رجلاً تُنجب المرأة منه، وإن كان امرأة، فحسبها أنّها تنجب الرجل، لقد علمت أنّ المرأة من نسل آدم، أولم تعلم أنّ الرجل من نسل مريم؟ وإن لم يظهر ما يجب أن يكون تامّاً، فإنّ الأمر لا يمكن أن يتّضح لك تماماً، وعندما يتّضح الملك، ويُحصَّل لك، فسيتم كلّ ما يصبح حاصلاً في قلبك، واعلم أنّ هذا هو الملك وتلك هي السعادة، واعتبر أن ذرّة من هذا العالم ما هي إلّا قبس من الدين، وإن تقنع بملك هذه الدنيا، فستظلّ ضائعاً إلى الأبد، أمّا السلطنة الدائمة ففي المعرفة، فاجتهد حتّى تحصل على تلك الصفة، وكلّ من يكون ثملًا في عالم العرفان، يكون بالنسبة إلى خلق الدنيا جميعاً بمثابة السلطان، ويصبح ملك العالم ملكاً له، وتصبح الأفلاك التسعة فلكاً في بحره، وإن يدرك ملوك الأرض طعم جرعة واحدة من ذلك البحر اللانهائيّ، فإنّهم يجلسون جميعاً في مأتم، لما اعتراهم من ألم، وما رأى بعضهم وجوه بعض من شدّة الألم».

يا ربّ...

يا إله العشق والعاشقين، اعذرني إذ كُنتُ غافلاً، فلم أدرك أن حكمتك لم تكن تكمن في منحي قدراً من العقل الذي هداني إلى الهرب من الموت في الجبهة. بل إنّ كلّ ما حدث، وكلّ تلك العذابات، كلّ تلك الإهانات اللانهائيّة، إنّما حدثت لكي تُجبرني على اللجوء إلى البقعة الوحيدة في العالم، التي كان مقدّراً لي أن أجد فيها فاطمة.. ومن خلالها أعثر على نفسي الضائعة التائهة منذ الأزل.. وأبدأ رحلتي المقدّرة بين الأودية السبعة لكي أفنى فيك...

22

«العشق القديم يرغب في عشق جديد،
إنّ البحر المتلاطم الأمواج يرغب في كلّ قطرة جديدة».
فريد الدين العطّار

يا إلهي! ما كلّ هذه القسوة؟ ها هو آتيلا يغيب. ها هو يرقد تحت كومة من التراب، وقد أنهى هذا الرجل المعمّم عمله المعتاد بعباراته وكلماته المتكرّرة أبداً. ها هو يُعلن للمرّة الأولى، غياب آتيلا الأبديّ، ليصبغ غيابه هذا بالتميّز في كلّ تفاصيله. كان آتيلا دائم الغياب، لكنّه لم يُعلن ولو مرّة واحدة نيّته التواري، أو السفر، أو الغياب.. وكان كما يغيب على غفلة، يعود كذلك فجأة دون سابق إنذار، لكنّ عودته كانت تتّسم بقدر كبير من الصخب الأقرب إلى الحدث الفريد.

كان كلّما غاب يعود وقد تغيّر فيه شيء. يحمل حكايات، ملابس غريبة، تغيير لهجة كلام، التحدّث بمفردات لغة جديدة لم يكن يتحدّثها أو يفهمها من قبل. لكنّ غيابه الأكثر غرابة كان تلك المرّة التي غاب فيها لفترة تقارب أربعة أشهر. وهو ما لم تكن تسمح به القيادة ولم يفعلها من قبل أبداً. كان قد غادر بعد أن ودّعني، وأنا أنصحه باتّخاذ الحذر التام، وأؤكّد عليه أن يعود بسرعة. ما تغيّر فيه تلك المرّة لم يكن في هيئته، ولا في شكله وطبيعة ملابسه، ولا حتّى سلوكيّاته فحسب، بل كان في أمور أخرى بادية للعيان بصورة لا تخفى على أحد.

كان ذلك بعد مرور أكثر من عام على انتهاء سلسلة المعارك الطويلة، التي كانت تبدأ كلّ مرحلة فيها بالآية التي تقول «يسألونك عن الأنفال...»، والتي بدأت فجأة، ودون سابق إنذار، واستمرّت لأشهر موجعة غطّت بلدنا كلّه بلوحة مرسومة بالدم والغبار والثلوج والبارود والدخان الأسود، وألوان أخرى من الدخان الذي يحمل روائح مختلفة.. كان أشهرَها دخانٌ أبيض يغطّي ببطء المكان الذي ينتشر فيه برائحة التفّاح. وكانت القرية التي يسكنها آتيلا وكلّ القرى في المنطقة، قد سوّتها بالأرض سلسلة المعارك القاسية التي كانت تبدأ كلّ مرحلة فيها بتلك الآية القرآنيّة.. وحوّلتها إلى خراب في خراب منذ فترة طويلة. وكان آتيلا قد ودّع فاطمة وأهلها، في مشهد قيل في ما بعد، إنّه أبكى الجميع من دون استثناء.

كانت تلك هي المرّة الثالثة التي غاب فيها بعد دمار البلد وتوقّف المعارك، واستقرارنا في مناطق ضيّقة قاسية وعرة، كان كلّ شيء فيها محدوداً ومرسوماً بدقّة وصرامة شديدة، بدءاً بالحركة، مروراً بما كان يحقّ لنا ممارسته، وصولاً إلى نوع وكميّة ما كان يحقّ لنا أن نأكل، لا بل حتّى كمّية الشمس المسموح لها بالوصول إلينا. عاد هذه المرّة وهو يحتضن حبيبته كما سمّاها. عاد وهو أقرب إلى إتقان اللغة الفارسيّة. للوهلة الأولى كان كعادته مليئاً بالعاطفة الجيّاشة إلى أصدقائه ورفاقه. احتضن الجميع بقوّة وبطريقة صميمية بدت أقرب إلى المبالغ فيها. لكن هكذا كان آتيلا، فهو لا يعرف أن يُخفي، ولا يعرف أن يُمسك عن التعبير عن مشاعره، فينطلق معبّراً عنها بعفويّته المعهودة إلى أقصى حدود الانطلاق. بدأ يحدّثنا عن بعض غيبته الطويلة. وأخذ يمازح الرفاق ممّن كان لديه بعض الإلمام باللغة الفارسية، فيُخاطبهم بلغة فارسية أقرب إلى إتقان الفرس أنفسهم. كان يستخدمها وكأنّه يوحي بأنّهم لا يعرفون التحدّث بهذه اللغة، وأنّهم عاجزون عن التحدّث بها كما يتحدّث بها هو.

عندما انفردنا قبل العشاء كان فرحاً جداً، فأخرج نسختين من كتاب «منطق الطير»، الأولى باللغة الفارسية، والأخرى كانت الترجمة العربية.. ونظر إليّ وهو يقول مبتسماً: لم أجد هديّةً أغلى من هذه!

أخذتها من يده بمنتهى الرهبة وأنا أقول: ولا توجد فعلاً هديّة أغلى منها. أنا عاجز عن شكرك حقّاً... فأنا أعرف أنّه بمثابة الإنجيل بالنسبة إليك.

– لا أخفيك يا أخي، يبدو أنّه قد أصبح دليلي في الحياة. لا أدري لماذا أشعر أحياناً، بأن العطّار حين كتبه كان يتحدّث عنّي أنا؟ وفي أحايين أخرى أشعر بأنّني أنا من كتبته فعلاً...

كان فرحاً بغيبته التي كانت مليئة بالمغامرات العجيبة، كما وصف لي. بدا كأنّه يحمل الكثير، وأنّه مُتعجّل جداً ليحكي لي كلّ شيء بالتفصيل. لكنّ الوقت لم يكن يُسعفه، لذلك كان سريع التنقّل بين أحداث وأمور مرّت عليه في غيبته. فكان يقطع الحديث عن كلّ حادثة أو مسألة، ليعود على غفلة ودون مقدّمات إلى الحديث عن حبيبته التي وجدها واندمج بها بصورة جنونيّة. قال بلهجة الأقرب إلى من يريد أن يبرّر شيئاً وفرحاً كالطفل الذي حصل على الهديّة التي كان يحلم بها: لقد تزوّجتُ بها وإلى الأبد، فما رأيك؟

في المساء، بينما نحن نجلس منتظرين بعد العشاء، لفّ سجّادة الصلاة بعدما أنهى نوبة الدعاء الطويلة التي أعقبت صلاة العشاء. ثمّ تصدّر الجلسة في الغرفة الكبيرة المصنوعة من الطين. وعلى ضوء الفانوس الوحيد، بدأ بكثير من البطء، بتجريد حبيبته من كلّ ما كان يغطّيها برفق شديد أقرب إلى الحذر، إلى أن أصبحت عارية تماماً. تخيّلته للوهلة الأولى، كأنّه يفكّك لُغماً شديد الانفجار، يحتاج إلى الاندماج والتركيز الشديد الذي يؤدّي بالمرء أحياناً إلى أن يتصبّب عرقاً غزيراً.

ما إن أصبحت عارية تماماً، حتّى وضعها في حجره وضمّها إليه برفق. ثمّ أخذ يمسح على جسدها كلّه ببطء شديد. وبدا كأنّه يخاف أن يخدش جسدها، إن مرّر كفّه، أو أصابعه على أيّ جزء منه بلمسات أقل رقّة ممّا كان يفعل. كان يتنفّس بعمق أحياناً، ويتوقّف عن التنفّس أحياناً أخرى، وكأنّه أصبح على شفير الاختناق. عندما كان يتنفّس بعمق، وهو يمسح على كلّ جزء من جسدها العاري، بدا كأنّه يحاول مستميتاً استنشاقها، لدرجة أنّ المشهد أعاد إلى ذاكرتي آتيلا أيّام كان مُدمناً على الخمر والمواد المخدّرة.

كان مشهداً لم أرهُ من قبل أبداً. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أرى فيها اندماجاً كهذا. كان جميع الحضور من الرفاق في حالة من الذهول التي أصابتهم بصمت أقرب إلى الخرس. عيونهم مفتوحة على وسعها لا يطرفونها. قطعنا أنفاسنا ونحن نستمع إلى كلّ هذا الكمّ الهائل من الأصوات الصادرة من آتيلا وحبيبته العارية وهي في حضنه. كان الجمع أشبه بالحفلة الكبيرة، فلم يكتفِ بحضور هذا الحدث الغريب والفريد والشديد الإثارة رفاق مقرّنا فقط، بل اجتمع كلّ الرفاق من كلّ المقارّ التي كانت منتشرة في شريطنا الحدودي الذي كان يُضيّق علينا حتّى أنفاسنا.

كان الجمع غفيراً، والمشهد غريباً على الجميع. فبالرغم من الحبّ الشديد الذي كان يكنّه الجميع لآتيلا وشوقهم إليه، كان واضحاً أنّ سبب الحضور الهائل والمنذهل هذا لم يكن فقط بسبب حبّهم لآتيلا واشتياقهم إليه، نتيجة غيبته الطويلة وحكاياته التي لا تنتهي، بل إنّ السبب الرئيس كان أنّ أحداً منّا لم يحضر في حياته، مثل هذه المشاهد والأوضاع من قبل. كنت أعرف آتيلا أكثر ممّا كان يعرف نفسه. وكنت أتصوّره كيف يبدو عندما يكون صادقاً في الحب والاندماج، لكنّي لم

أتصوّر في حياتي أبداً، أن تكون هنالك في الواقع درجة اندماج جنونيّة ومذهلة ومدهشة إلى هذا الحدّ.
بدأ بمداعبتها برفق بأصابع يديه الاثنتين، مُصدراً وهو يغمض عينيه، بعض الهمهمات غير المفهومة والأقرب إلى من يسعى جاهداً للتوحّد أو الذوبان. وكانت هي، كلّما داعبها بأصابعه تُخرج أصواتاً خافتة مرتبكة، وكأنّها مغرقة في الخجل. ثمّ رويداً رويداً، أصبح يحاول معها في مداعبات، بدا واضحاً أنّه يحاول أن يستدرجها للاستعداد وضبط استجابتها له في جولته الجنونيّة التي أذهلت جميع الحاضرين في ما بعد.
على العكس من توقّعات الجميع المتشكّكة، بدا كأنّه خبير في ما يفعل، حركاته ونظراته، ثمّ الأصوات التي كان يُصدرها، كانت تكفي لكي يجزم من يراه للمرّة الأولى بأنّ هذه الممارسة ليست نتاج أشهر قليلة، بل سنوات طويلة من التفرّغ والممارسة المستمرّة. بدأ بمداعبات رقيقة لطيفة، تُقابلها أصوات خافتة مرتبكة غارقة في الخجل من الحبيبة. ثمّ بدأ شيئاً فشيئاً، بتصعيد وتيرة ضرباته، إلى أن وصلت حدّ العنف الذي ظننتُ أنّ المسكينة لن تتحمّل أبداً ما يفعله بها، وأنّ شيئاً فيها سيتمزّق لا محالة. ثمّ بدأ بأصوات بطيئة خافتة، بدأت ترتفع وتتصاعد بوتيرة متجانسة من جديد.
أصبح في حالة اندماج كاملة. لم أشهده هكذا، إلّا في تلك الليلة التي أصرّ عليّ لحضور حلقة الذكر التي أقامها الشيخ في تكيّته، يوم أعلن آتيلا توبته على يديه. بدأ يطلق أصواتاً عالية، كنت أخشى على حنجرته والأوردة والشرايين المزرقّة التي كانت تتجسّم في رقبته وكأنّها أصبحت على وشك الانفجار. ثمّ فجأة كان صوته يخفت في نوبة دافئة غريبة، ينكّس معها رأسه على صدره، ثم يرفع رأسه إلى أقصى أمدائها ويبدأ بالصراخ، وكأنّه يستخرج أعلى درجات الصوت من أعماق حنجرته. كانت نوبات الصراخ العالية الطويلة والهمهمات الخافتة الدافئة، مستمرّة وراسمة معها إيقاع حركاته المجنونة.. ثمّ الساكنة حدّ الجمود والموت.
بدأ يتعرّق وهو غارق في ملكوته، ثمّ أخذ يتصبّب عرقاً أكثر. كان مع تلك الحركات المغرقة في الجنون.. والسكينة بالتناوب، وأصواته الخافتة، الأقرب إلى المناجاة والتوسّل، يغمض عينيه، مُحرّكاً رأسه في نوبات، كانت تتبعها نوبات، يفتح فيها عينيه على وسعهما، ويبدو معها في حالة أقرب إلى الذهول الناتج عن اندماج جسديّ وروحيّ كامل.
لم يتوقّف آتيلا منذ ما بعد صلاة العشاء، إلى ما بعد منتصف الليل ولو لحظة واحدة، كان مجهوداً خرافيّاً فعلاً. لم يترك خلاله لغة كان يعرف منها شيئاً، إلّا تحرّش بها. طيلة تلك الساعات الطوال، لم يتحرّك أحد من الحضور، لم يترك مكانه، لم أسمع صوتاً واحداً، لم يشرب أحد، لم يخرج أحد. كان الصمت المندهش عميقاً لدرجة أنّني للحظات، أحسستُ بنفسي وببعض الرفاق وكأنّنا فقدنا القدرة على التنفّس. فعلاً.. كان الثنائي رائعاً في الاندماج والإدهاش.
فجأة! توقّف بعد بعض الحركات المجنونة التي بدت كأنّها أقرب إلى سكرات الموت، ثم خرّ فجأة غارقاً في عرقه وتركها جانباً، وهوى على ظهره. كان الذهول لا يزال يلفّ الحضور الذي صفّق طويلاً لهذا العرض الهائل. ثمّ بدأوا ينهالون عليه، يقبّلونه ويباركون له قدرته وأداءه الرائع، بينما كانت حبيبته العارية مركونة في زاوية الغرفة الكبيرة.
بعدما انفضّ الحضور جميعهم، نهض وهو ينظر إليّ متشكّكاً، وأنا أنظر إليه صامتاً، غارقاً في الإعجاب. سألني بانكسار: ما رأيك؟

لم أستطع أن أقول شيئاً، كنت مذهولاً بما رأيت، وقد أصابني الإعجاب بحالة أقرب إلى الصمم. بدأ يمسح بقايا العرق عن رقبته ووجهه ولحيته الكثيفة. توجّه إليّ وهو في حالة قلق واضحة: ها... لم تقل لي ما رأيك؟ ألم يعجبك أدائي، أم لم تعجبك حبيبتي؟

أجبت: أداؤك أكثر من رائع. لم أكن أتوقع ما فعلته أبداً، أمّا في ما يخصّ حبيبتك، فما فعلته بها يجعل الحجر ينطق ويصرخ بهياج. أنا أهنّئك فعلاً، لقد كانت غيبتك خرافيّة هذه المرّة.

تنفّس بعمق وبدأت شفتاه ترتجفان، وهو يُغالب أنفاسه لكي يسألني: أتعتقد بأنّ من حقّي أن أحظى بحبيبة أخرى، بينما ما زلت أمنّي نفسي وأتوق وأتنفّس من أجل الوصول إلى فاطمة مجدّداً والارتباط بها إلى الأبد؟ ثمّ بعد برهة استدرك: أقسم لك أنّني لم أستبدل فاطمة بها. لكن يحزّ في نفسي أن ألمس غيرها.. إنّني طاهر في داخلي إلى أقصى درجات النقاء. لكنّني منزعج الآن جداً، أرى نفسي نجساً، خنتُ فاطمة، ونكثتُ بوعدي لها.

كان في حالة لم تكن تنفع معها أيّ تبريرات أو محاولات بائسة للمواساة، لذلك حاولتُ جاهداً الابتعاد عن كلّ تلك الأجواء فقلتُ له مازحاً: أنت مسلم متديّن، ويحقّ لك كرجل مسلم، مثنى وثلاث ورباع، لا بل وحتّى ما ملكت أيمانكم، إذن فأنت لم تجرم في شيء.

نظر إليّ وانتابته قهقهة عالية وارتمى في حضني وانفجر في نوبة بكاء حارقة، بينما ظلّت حبيبته مركونة في زاوية الغرفة، عارية تماماً وغارقة في الصمت.. بدت كأنّها في غاية الإعياء...

23

«إن كان نصيب العظماء المصائب والنوائب، فكيف يستطيع الصغار إدراك الكنز؟».
فريد الدين العطّار

وأنا جالس على سجّادة الصلاة العزيزة هذه، وتجلس قبالتي كأس العرق التي تفصل بيني وبين الله، أتأمّل حياتي وأجدها غارقة في السخرية المريرة.. إلى درجة، يداهمني فيها إحساس بأنّه لو أن أحداً طلب منّي الآن أن ألخّص له حياتي كلّها، لأجبته دون تردّد: «السخرية... السخرية الغارقة في المرارة ولا شيء آخر». فبعد أن هوّن عليّ شاسوار، برقّته المعهودة ممازحاً، بأنّه يحقّ لي كرجل مسلم، مثنى وثلاث ورباع، وما ملكت يميني، وجدت نفسي غارقاً في السخرية التي لفّتني بنوبة ضحك هستيريّة انتهت بنوبة بكاء مريرة تُشبه بكاء الطفل اليتيم على رفات أمّه.

بعد انتهاء المعارك، التي كانت كلّ مرحلة منها تبدأ بنص الآية «قل الأنفال لله والرسول»، وخلّفت دماراً وخراباً في كلّ مكان، استقرّ بنا المطاف في هذا الشريط الحدوديّ الذي كنّا من شدة ما ألمّ بنا، نتهكّمُ على أنفسنا ونحوّل صعوباتها إلى طرائف يجري تداولها. مرّت علينا شهور ونحن لا نملك سوى الشاي والخبز الجاف. فكنا نسخر ونقول إنّنا نفطر خبزاً مع الشاي، ونتغدّى الشاي مع الخبز، أمّا العشاء، فحالة بذخ استثنائيّة، إذ نحن نتعشّى الاثنين معاً. كثرت النكات التي كانت تتوارد، إلّا أنّ أكثرها إثارةً للضحك المرير، كان أنّ أحد ركاب السيّارات القليلة، التي نادراً ما كانت تعبر هذه المنطقة الحدوديّة الوعرة، قد قال وهم يجتازون مقارّنا المبنيّة من طين، يا لأدب هذه القرية وسكّانها، فلم أرَ قطّ طفلاً، ولا حتّى امرأة، خارج البيوت وعلى قارعة الطريق.

كانت المنطقة جبليّة وعرة، وقاسية في كلّ شيء. كانت بعض البيوت المتفرّقة المشيّدة من الطين، لا يقطنها سوى مسلّحين لا يملكون غير أسلحتهم وبعض البطانيّات القديمة، وبعض حاجيات الطبخ والأكل البسيطة والكثير من الحطب المطلوب للتدفئة والطبخ والاستحمام. كان الخروج من المنطقة محسوباً بصرامة، وممنوعاً ويحتاج إلى موافقات قد يطول انتظارها في كثير من الأحيان.

كانت الحياة في غاية القسوة، الكثير من الثلج، والقليل من الحرارة والشمس. حتّى إنّ شاسوار كان يتندّر أحياناً فيقول: إن سُئلت يوماً أين كنت طيلة تلك الفترة؟ فسأجيب في الحال بأنّني كنتُ أسكن القطب الشمالي، فليس غير المناطق القطبيّة بمثل هذا الثلج، لا تصل إليها الشمس في اليوم إلّا لمدة ثلاث ساعات فقط.

كان كلام عابر السبيل الذي أثنى متوهّماً على مقارّنا بأنّها قرية في غاية الأدب، أشبه بالتتويج لكلّ سلسلة السخرية التي رافقت وصبغت حياتي بلونها القاسي... ها هي أمّي تحلّ ضيفةً عليّ مع أخواتي الثلاث قبل وقوع كارثة الأنفال بأشهر قليلة، بينما كنت لا أزال أسكن في القرية قبالة تكيّة الشيخ وبيته المهيب. ها هنّ أخواتي يرفضن ساخرات، فكرة زواجي بفاطمة، بذريعة أنّني وُلدتُ وتربّيتُ في المدينة وأحمل شهادة وكنتُ موظّفاً حكوميّاً، فكيف يجوز أن أتزوّج قرويّة أمّية لا تفكّ الخط أصلاً؟ أمّا أمّي المسكينة، فقد كانت تنظر إليّ بعينين خائفتين مرعوبتين، تتمتم بدعوات لكي يحفظني الله من الشرّ. وكانت تتوسّل إليّ كي أتخلّى عن فكرة الزواج بفاطمة، وهي تردّد دون توقّف، وبصوت مرتجف غارق في الخوف والترجّي: يا حبيبي، يا بُنيّ، هداك الله، اترك هذه الفكرة نهائيّاً وإلّا فسيسخطك الشيخ، فأنت لا تعرف هؤلاء الشيوخ وقدراتهم وكراماتهم، ولو شاء

لسخطك في لحظة. أتوسّل إليك لا تغضبهم أكثر من ذلك، فإن سخطوك فماذا نفعل من بعدك أنا وأخواتك؟
ماذا يمكن أن أسمّي فرض الهويّات والمسمّيات عليّ، وفقاً لمصالح الدولة وأمزجة وحسابات الآخرين، من أهلي وأهلها والناس، سوى بالسخرية؟ فمتى ما رغبتُ في أن أكون تركمانيّاً، كانت الدولة تفرض عليّ أن أدفع ضريبة كوني كُرديّاً. وحين كنتُ أستميتُ من أجل إثبات كُرديّتي، كانت تفرض عليّ التركمانيّة مُجرّدةً إيّاي من الامتياز المغرق في السخرية الذي مُنح للكُرد، وهو منعهم من المشاركة في جبهات القتال، لا حُبّاً بسواد عيونهم، ورفقاً بهم، وحفاظاً على حياتهم، بل لأنّهم ليسوا أهلاً للثقة، ومشكوك في ولائهم وإخلاصهم، ولأنّهم العنصر المتآمر والمستعدّ للتمرّد على الدوام.
بينما كنتُ أستجدي عطف أهل فاطمة، لكي يقبلوا بي زوجاً لها، جاءت مواقف أخواتي العزيزات قمّةً في السخرية تجاه الجواب الثابت والراسخ، الذي بقي صامداً لا يتزحزح قيد أنملة، للشيخ وزوجته وحتّى بعض أولاده بين الحين والآخر.. وهو أنّني لستُ من طبقتهم، وأنّهم ينتمون إلى طبقة أعلى منّي شأناً، ولا يجوز تزويج ابنتهم لشخص مثلي، لدرجة وصلت إلى الحدّ الذي يدفع بأحدهم إلى القول: «كيف نُزوّج ابنة الشيخ لسكّير تركمانيّ، وهو من طبقة المساكين ولا أحد يعرف له أصلاً ولا فصلاً».
بدأ فصل التوسّل والاستجداء، والرفض القاطع بسهولة ويسر، وعن طريق الصدفة المحض، لكنّه لم ينتهِ بتلك السهولة. أذكرُ ذلك اليوم، الذي بدا أشبه بالفاصل في ما بعد، حين زارني كاكه حمه سي خراني، وظلّ يلحّ عليّ كي أبوح له بما ألمّ بي، فيما بقيتُ صامداً في إجابتي التي تعوّدت عليها منذ فترة طويلة. لكنّه ظلّ يلحّ بلهجة ودودة: يا عزيزي، أنت تعرف كم نحبّك، وتهمّنا سعادتك، إنّني أراك منذ فترة طويلة شارداً، ساهماً.. يبدو الحزن على هيئتك لكلّ من تقع عيناه عليك. فقل لي ما بك، لكي أستطيع مُساعدتك، هل أنت بحاجة إلى المال؟
أجبته بلهجة قاطعة: لا طبعاً، لستُ بحاجة إلى المال، وصدّقني أنا على ما يرام.
– يا دكتور، أنت طبيبنا وصديقنا العزيز. تخدمنا وتعالجنا، وتعالج مواشينا وخيولنا، ولك علينا ما لا يُعدّ ولا يُحصى من الأفضال. فكيف يمكن أن نتركك هكذا شارداً حزيناً لا نفعل شيئاً؟ أرجوك، خبّرني بمشكلتك، لعلّي أستطيع المساعدة... فأنت قد أصبحت بمنزلة أحد أبنائنا.
أمام كلّ هذا الكمّ الكبير من الحرص والحبّ، وأمام الضغط الهائل الذي تحمّلته طيلة تلك السنين وأنا أحملُ همّ فاطمة وحبّها، لم أعد قادراً على التحمّل أكثر من ذلك، فانهارت كلّ خطوط الصمود في داخلي. وكأنّ سدّاً ما انهار فجأة، فتدفّقت مشكلتي ومشاعري سيولاً جارفة من عينيّ وصوتي الباكي المنفعل، وجسدي الذي كان يرجف بشدّة وبحتُ له بكلّ شيء. حين أستذكر الآن كلّ تفاصيل ذلك البوح، وأنا أصارع السماء مع الكأس التي صببتها من قنّينة العرق التي انتزعتها قبل ساعات من شاسوار، وبينما تنهال عليّ مشاعر ذلك المشهد بكلّ صميميته وآلامه، أرى حالي لحظة البوح تلك، متماهياً مع حال البحر الذي يحكي عنه الهدهد فيقول: «غاص رجل ذو بصيرة في بحر، فقال: لمَ تبدو أزرق اللون أيّها البحر؟ ولمَ ترتدي لباس الحداد، ولمَ تفور وتغلي ولست بالنار شبيهاً؟
أجاب البحر على طيب القلب قائلاً: إنّني مضطرب لفراق الحبيب، كما إنّني ضعيف الشأن ولست ندّاً له، ولذا نشجت لباس المأتم الأزرق حزناً عليه، وجلست صادي الشفتين مشتّت الفكر، فقد

جعلتني نار عشقه مضطرباً، فإن أحظَ بقطرة من ماء كوثره، أعِش إلى الأبد على أعتابه، وإلا فأمثالي من العطشى كثيرون، وهم في طريقه طوال الليل والنهار يموتون»...
طيلة تلك السنوات الطويلة بأيّامها ولياليها ودقائقها ولحظاتها، كنتُ أكابد وحدي عبء حمل هذا السر، بكلّ أثقاله، بحلوه ومرّه. وبقيتُ صامداً أمام محاولات الأصدقاء والأهالي وهم يسألونني عن سبب تغيّر مزاجي وحزني الدائم. كنتُ أتمزّق من شدّة الثقل الذي أحمله. كنتُ أتوقُ لمن أبوح له، بأفراحي وأحزاني، التي أكابدها في حبّ فاطمة، لكن لا أحد سوى البراري وسكّانها الجامدين. فقد كان غياب شاسوار الطويل والدائم، الذي كان الشخص الوحيد الذي يعلم بحكاية عشقي، قد سلبني راحة البوح.. فيما كان بوحي فائضاً، لا تكفيه جميع آذان البشر وصدورهم.
ضمّني كاكه حمه إليه بشدّة، وهو يحاول أن يُهدّئ من شدّة انفعالي: لا تبكِ يا رجل، كيف يُمكن للرجال أن يبكوا، وماذا أبقيت للنساء إذن؟ على أيّ حال، اهدأ ولنرَ ماذا يمكننا أن نفعل.
بعد نقاش طويل، تخلّله الكثير من الانفعال والحسرات منّي، والكثير من الابتسامات والرقة والحبّ من قبل كاكه حمه، لخّص لي الموضوع في جملة واحدة: هل تعتقد أنّه يمكن أن نثقب الجبل بإبرة؟
أجبته بالنفي، فما كان له إلّا أن استطرد بلهجة واثقة حاسمة: إذن... دع عنك هذه الفكرة نهائيّاً، فاحتمال موافقة الشيخ على زواجك بابنته، أقل بكثير من احتمال الوصول إلى جبل القاف، ثمّ محاولة ثقبه بواسطة إبرة.
قلت له متوسّلاً: إن كان ليس بإمكانك أن تساعدني، فلماذا تصعّب عليّ ما هو صعب أصلاً، أنت الشخص الموثوق الذي أبوح له بسرّي، وكنتُ متيقّناً من أنّك لن تدّخر شيئاً في سبيل مساعدتي، فإذا بك تُحبطني وتُدمّرني بكلامك اليائس.
ردّ برفق: يا دكتور، يا حبيبي.. ثق بأنّني لن أدّخر كلّ ما في وسعي لكي أساعدك، لكن هذه هي الحقيقة، وعلى أيّ حال، أنا سأبذل كلّ ما في استطاعتي لكي أجد الفرصة المناسبة لمفاتحة الشيخ في موضوعك، هذا وعد منّي.
احتضنته وقبّلته امتناناً، ومضى وهو يحاول أن يهدّئ من روعي، ويدعوني إلى الصبر، ويؤكّد لي أنّه سيسرع في التوسّط لدى الشيخ... لكنّ فكرة ثقب الجبل بإبرة، أصابتني بالذعر، فتخيّلتُ نفسي وأنا مُمسك بإبرة صغيرة، مُنهمكاً في محاولة ثقب الجبل. رأيتُ كفّي وأصابعي وقد أُدميت، أحسستُ بالألم، رأيتُ الدم، تحسّسته في كفّي وعلى أصابعي، وأنا أحاول تفتيت الحجر الصلب الذي يشكّل بدن الجبل العنيد القاسي.
عندما رويتُ بعد مرور أيّام هذا المثل الكرديّ لشاسوار، وأنا أحكي له عن بوحي لكاكه حمه، ووعده لي بمساعدتي، وسألته عن مغزاه، وهل سمع به أصلاً؟ امتعض... وقال بلهجة أقرب إلى السخرية الغاضبة: إنّه منطق الضعفاء والمتخاذلين المنهارين.. كلام يُشبه السمّ في مفعوله، إيّاك أن تُعيده على مسامعي مرّة أخرى!
كنتُ خائفاً جدّاً، حاولتُ أن أحاججه في دقة هذا المثل الشعبي، لكنّني في الحقيقة كنت كمن يحاول أن يفكّر بصوت عالٍ، وكنتُ متشبّثاً باحتمال صدور كلام يفنّد المثل المسموم، ويعيد إليّ بعض الطمأنينة التي غادرتني منذ أن تفوّه به كاكه حمه، فسألتُ شاسوار بلهجة متشكِّكة: منذ متى وهذه الجبال موجودة على هذه الأرض؟
أجابني بسرعة وبلهجة من يجيب شخصاً ساذجاً: منذ الأزل، وهي باقية إلى الأبد، وهي واحد من أهم أسرار بقائنا وعنفواننا. إنّها الصديق والظهير الأوحد حين يخذلنا الجميع. ألم تسمع القول

الشائع بأن ليس للكُرد صديق سوى جبالهم؟!
أجبته بلهجة متردّدة خائفة، كنتُ أتمنّى أن يفنّدها، ويقول لي إنّ ثقب الجبل باستخدام إبرة صغيرة أمرٌ ممكن، فحاججته: إن كان الأمر كما تقول، وأنّ هذه الجبال العنيدة القاسية استطاعت أن تقاوم كلّ الثلوج والسيول والانهيارات، وقسوة الطبيعة كلّ هذه القرون، لا بل وستظلّ تقاومها بعناد دائم، فكيف لي أن أثقبها باستخدام إبرة صغيرة؟ المؤكّد أنّ هذا هو المحال بعينه، لقد صدق كاكه حمه.
استشاط غضباً: منذ طفولتي، وأنا أسمع من المتخاذلين هذا المثل السخيف الذي يُمكن أن يصيب أقوى الرجال وأكثرهم شجاعة بالانهيار والاستسلام. لكنّ الشجعان الواثقين من أنفسهم وإيمانهم، لا يمكن أن يستسلموا لهذا المنطق البائس السخيف. آتيلا، لا تكرّر مثل هذا الكلام أبداً، فمجرّد التفكير فيه، سيؤدّي بك إلى الانهيار والاستسلام أمام أيّ تحدٍّ يواجهك... وكما قلتُ لك إنّ مفعوله أقوى من السحر والسموم، أتعرف شاهو؟
– بالتأكيد، ومَن لا يعرف شاهو، إنّه واحد من أشجع الرجال، سُمعته تجاوزت كلّ الحدود.
– أتعرف أنّ شاهو التحق بالثورة منذ أسابيعها الأولى؟ نعم، لقد كان هو الوحيد الذي لم يلقِ سلاحه بعد يوم الانهيار الأكبر في منطقته. ثمّ بعد ذلك التحق بطلائع مفارزنا. كان مُختبئاً إحدى المرّات في جبل زردة برفقة حمه عزيز. كان شاهو يحبّ فتاةً في قرية تقع على الجانب الآخر من الجبل، وكان أهلها يرفضون زواجهما، وفي كلّ مرّة بذريعة مختلفة. كان حمه عزيز، الذي كان كادراً سياسيّاً حاصلاً على بعض التعليم، قد حاول إقناع شاهو بالتخلّي عن السلاح والاستسلام مرّة أخرى للنظام. فسأله: ماذا لو كان بإمكاننا أن نثقب هذا الجبل الآن، لكي نحفر فيه ثقباً ترى من خلاله الحبيبة؟
فردّ شاهو: لو قُدّر لي ذلك الآن، لمنحت من يساعدني فيه كلّ ما يطلب.
– إذن، أتعتقد بإمكان ثقب هذا الجبل؟
– ...
– وهل يمكن أن يُثقب بإبرة صغيرة؟
حينها أجابه شاهو بفتور: بالطبع كلّا...
– إذن كيف لنا نحن، أن نهزم الحكومة ونسقطها، بأسلحتنا الشخصيّة هذه؟!
أمام محاولات شاهو العنيدة للتملّص من الوقوع في فخّه، كان حمه عزيز قد تمكّن من إقناعه بالاستسلام، من خلال لجوئه إلى هذا المثل السخيف الذي أصاب شاهو في مقتل، فانهار، وذهب يتبعه إلى المعسكر القريب مُسلّماً سلاحه للنظام.
وعندما رأى شاسوار على وجهي علامات الاستغراب والتعجّب، استطرد قائلاً: لا تستغرب، فحتّى شاهو ذلك الرجل الشجاع العنيد، لم يصمد أمام هذا السّم، لكنّه لحسن الحظ، لم يستطع تحمّل المعاملة المهينة التي رآها هناك. وما إن تركوا المعسكر بعد تسليم الأسلحة والتوقيع على تعهّدات بعدم الالتحاق مرّة أخرى بالثورة، عاد مساء نفس اليوم والتحق مجدّداً.
عندما رآني صامتاً، لا أتفوّه بكلمة وأنا أنظر إليه متشكّكاً غير واثق، تغيّرت أساريره، اكتسب هيئة مختلفة، واستطرد بصوتٍ أكثر وثوقاً لا يخلو من نبرة التفاخر: الرجل الوحيد الذي رأيته يرفض هذا المنطق البائس المتخاذل، وهم يحاججونه بهذا المثل الذي أصبح في مفعوله أشبه بكلمة

السرّ التي تنهي أيّ عناد، وتؤدّي حتّى إلى استسلام الرجل المُصرّ على رأيه وموقفه، هو أبي، فافعل مثله.
حين سألته: وماذا يفعل أبوك أمام هذا السمّ كما تقول؟
– يجيبهم بصمت ساخر أبلَغ من كلّ حجج الأرض والسماء. ثمّ يا عزيزي، هذه الجبال الكثيرة في بلادنا، ليست موجودة لكي نحاول ثقبها بواسطة إبرة فنفشل. بل هي موجودة لكي نقوى بها. هكذا هي طبيعة الأمور في هذه البلاد العنيدة.. لا تُوجد مشكلة ليس لها حل. دع عنك سموم الأمثال البائسة المحبطة، واقتدِ بسلوك أبي البيشمركة الصلد كالجبل، الذي لم يُصب إيمانه بالنصر وبالثورة، حتّى الانهيار الأكبر الذي أنهى ثورتنا السابقة، فما بالك بكلّ سموم بعض أمثالنا السخيفة؟
– ولكن...
– ما بك؟ ليست هناك طريقة أخرى سوى وصفة أبي. ومع ذلك، إن كان ذلك يريحك، فهناك حكايات عن عُشّاق هزموا الجبال فاتّخذهم مثالاً يا أخي...
– هل حقّاً هناك من هزموا الجبال؟
– ألم تسمع بحكاية فرهاد الذي عشق شيرين وهزم قساوة الجبل من أجل عينيها؟
– كلّا لم أسمع بها أبداً... فأخذ يرويها لي بتفاصيلها مُستذكراً ما كان قد شاهده بعينيه قبل سنوات من آثار ملحمة فرهاد...
كان كاكه حمه سي خراني المكنّى هكذا، على اسم قريته سي خران من وجهاء المنطقة الميسورين والمحبوبين من قبل الجميع. رجل في منتصف العمر، يحظى باحترام كبير بين أهالي المنطقة، وعلى رأسهم الشيخ كاكه حمه البرزنجي، وكذلك مسؤولو البيشمركة. وكان من أهم الرجال الذين يشترط حضورهم في جلسات حلّ المشاكل المختلفة. بدءاً بمشاكل الناس وخلافاتهم على حدود أراضيهم الزراعية، مروراً بجلسات التوسّط لحلّ الخلافات العشائريّة ومحاولات التوسّط للزيجات المعقّدة، وصولاً إلى جلسات الفصل العشائريّ الناتجة عن قتل أحد الأفراد والتي إن لم تُحَلّ، كانت تؤدّي أحياناً إلى عداوات وثارات تدوم لعقود طويلة.
عاد إليّ كاكه حمه سي خراني، بعد ما يُقارب الشهر من جلسة البوح، وحكاية الجبل والإبرة. وأخبرني بأنّ الشيخ قد بدأ منذ فترة يشتكي من نصيب ابنته، التي يخشى أن يفوتها سنّ الزواج، وأنّه يخشى أن يغضب الله عليه، لأنّ هذه الفتاة المسكينة لم يأتِها النصيب حتّى الآن. وقال لي: بعد أن تكرّر حديث الشيخ هذا للمرّة الثانية، وجدتها أفضل فرصة لكي أطرح الموضوع فخاطبته: يا شيخ، لماذا تقول ذلك، وأنا أرى أنّ نصيبها موجود، لماذا لا تزوّجها لآتيلا؟
شعرت بكلّ جسدي يرتجف من الخوف الممزوج بالفرح والترقّب الذي يقطع الأنفاس وأنا أمسك بمعصم كاكه حمه بشدّة، وأحثّه على إكمال حديثه، فاستطرد أنّ الشيخ قد قال له: وكيف ذلك؟ طبعاً لا يجوز تزويج بنات الشيوخ لرجال من طبقة المساكين، أنت تعلم ذلك جيّداً.
حاججته: يا شيخ، كما تعلم آتيلا نموذج للشاب المتعلّم المتديّن الملتزم الخلوق، وهو قد تاب على يديك، وأنت أعلم منّا بإيمانه وتديّنه. ثمّ إنّه ليس ابننا فقط، إنّه كما تعلم طبيبنا الذي يُسعفنا حين يمرض أو يُجرح أحدنا. فأرجو أن تزوّجه ابنتك، وأنا أضمنه وأضمن معه سعادة ابنتك واحترامها...

قاطعني بلهجة حاسمة: أنا أعرف آتيلا، وأشهدُ له بالتديّن والاحترام وكلّ شيء، لكن لا يجوز لي تزويج ابنتي بأحد من غير طبقة الشيوخ.
فحاججته: يا شيخ، هذا الكلام يخالف شرع الله والدين الإسلامي...
فأجابني بحدّة: هذه وصيّة جدّنا الأكبر، ولا نستطيع مخالفتها.
فأجبته متوسّلاً: يا شيخنا، كيف يُمكن أن نقتدي بشيء يُخالف شرع الله وسنّة قدوتنا وحبيبنا، فخر العالم محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ألم يُزوّج واحدة من أقاربه لأحد العبيد؟ ثم إنّ آتيلا ليس من العبيد، وأعتقد أنّ جدّكم الأكبر هو نبيّنا محمّد، أليس من الأولى أن نتّعظ به جميعاً ونقتدي بسلوكه وسنّته؟
يبدو أنّه انزعج من كلامي فردّ بحدّة: لا تلحّ عليّ أكثر من ذلك، لقد انتهى الأمر، هي ابنتي وأنا حرّ لمن أزوّجها، ولن أزوّجها لأحد من طبقة المساكين حتّى لو بقيت العمر كلّه عانساً من دون زواج.
شعرتُ كأنّ جبلاً قد انهار عليّ، لم أتمالك نفسي من الغضب الممزوج بالحزن واليأس، وبكثير من المشاعر التي لم أستطع فهمها أبداً، فبدأ كاكه حمه محاولاته لتهدئتي ومواساتي، وختم كلامه بقول واضح صريح: أرجوك يا أخي، تخلَّ عن فكرة الزواج هذه نهائيّاً. أخشى أن تواجه بسببها ما لا تحتمل من المصائب. ألم أقل إنّك أشبه بمن يحاول ثقب جبل القاف بواسطة إبرة؟
جملته الأخيرة ملأتني بثقة عجيبة نزلت عليّ فجأة، فخاطبته: أنت تعلم يا كاكه حمه، بأنّني أعشق فاطمة، ولن يثنيني عن الزواج بها سوى الموت. وأنا عاهدتها على ذلك، وأملي وإيماني بربّ العالمين أكبر من كلّ عناد الشيوخ وخرافاتهم.
استاءت فاطمة جدّاً عندما أخبرتُها بعد ذلك في أحد لقاءاتنا السريعة، بمحاولة كاكه حمه وفشلها.
وخاطبتني بلهجة الغضب الأقرب إلى اللوم: ألم أقُل لك أن لا تُخبر أحداً عن حكايتنا؟ هذه هي المرّة الثانية التي تبوح بسرّنا، أتعرف مدى خطورة انكشاف هذا السرّ؟ أنا أخشى عليك من أهلي، أتوسّل إليك ألّا تعيدها مرّة أخرى.
– في كلتا الحالتين كان الناس أهلاً لثقتي، ها أنت ترين أنّنا نلتقي هذه المرّة في هذا البيت، وإنّ لقاءنا هنا أكثر أماناً من أيّ مكان آخر، فلا تخافي يا عزيزتي.
ودّعتني بدموعها الغزيرة قائلةً: أرجوك، لا تحاول أن تُرسل أحداً لطلب يدي مرّة أخرى، ولتمرّ فترة من الزمن، والله لا أعرف كيف يُمكن أن أواجه أبي بعد الآن؟
أجبتها وأنا أتمزّق في داخلي بسبب عجزي، حتّى عن مسح دموعها، لأنّني كنت قد أقسمت بأن لا ألمسها: لا تخافي يا روحي، فكاكه حمه لم يخبر أباك بسرّنا.
كنتُ قد زرتُ بيت أحد أقارب أمّي في القرية، وكان بيتهم ملاصقاً لبيت الشيخ، فأخبرتني زوجته التي كانت هي أيضاً من أقارب أمّي، بأنّها تعلم بكلّ ما بيني وبين فاطمة، وأنّها رأتنا عدّة مرّات ونحن نلتقي. بعد محاولات إنكاري، طمأنتني بأنّها تعرف بهذا السرّ منذ فترة طويلة، وأنّها لم تبح به لأحد، وأنّها على استعداد لمساعدتنا، فانتقلت بعض لقاءاتنا إلى ذلك البيت.
يا لها من امرأة طيّبة، كانت أشبه بالملاك وهي تجازف بمساعداتها الكثيرة لنا، التي بدأت باستضافتنا في بيتها، ولم تنتهِ عند ذلك فقط. وقد كانت تجازف وهي تعلم تماماً خطورة انكشاف دورها، بالإضافة إلى خوفها الشديد من قدرة الشيخ وكراماته، وكانت كلّ مرّة تذكّرني بأن هذه

الحكاية ليس لها آخر، وأنّ الشيخ إذا علم بما بينكما فسيسخطك، إنّهم أناس مليئون بالقدرة والكرامة التي تمكّنهم من إيذاء من يشاؤون.
شعرت لحظتها بأنّ الموت أو التحوّل إلى أيّ كائن آخر، أهون عليّ من عدم الزواج بفاطمة، فخامرتني للحظة فكرة طفوليّة امتلكتني بالكامل، ماذا لو يسخطني الشيخ إلى حيوان تستطيع فاطمة الاحتفاظ به؟ ضحكتُ من هذه الفكرة.. ثمّ أدركت أنّ كلّ شيء أهون من البُعد عن فاطمة، فهذه المرأة ومن بعدها كلّ من عرف بسرّي، وصولاً إلى أمّي، كانوا يحذّرونني وهم مرعوبون من قدرة الشيخ على إيذائي وسخطي، وهم غافلون عن أن كلّ مصيبة أهون عليّ من بُعدي عن فاطمة. فكنتُ أضحك هذه المرّة على نفسي. كنتُ أمتلئ شعوراً بالسخرية. فيا للسخرية التي صبغت حياتي كلّها بقسوتها المريرة.

24

«اعرف نفسك بالله، ولكن لن تعرّفه بنفسك، فالطريق إليه نابعة منه لا من العقل».
فريد الدين العطّار

يا للسخرية!

ها هو آتيلا يترك كلّ شيء على الأرض ليرقد تحت التراب. يترك فاطمة وسلاحه، كأسه وحبيبته التي لم تفارقه منذ أن عاد بها بعد غيبته الخرافيّة الطويلة. حبيبته التي كان يُطربنا بها الأماسي، بعد أن نكون قد تجمّعنا وأنهينا الاستماع لبعض النشرات الإخبارية المسائية من المذياع. يبدأ بإخراج طنبورته الحبيبة من غلافها. كان يفعل ذلك بكلّ رقّة كما فعلها أوّل ليلة عاد فيها من غيبته الطويلة، وكأنّه يُعرّي امرأة ويمارس معها أرقى درجات الوصل وأكثرها جنوناً.. ثمّ بعد ذلك يبدأ وهو مُغمض العينين ومنكّس الرأس، مُدندناً بأصوات خافتة غير مفهومة، بضبط أوتارها التي كانت تُخرج أصواتاً أقرب إلى الأصوات الخافتة المرتبكة من الخجل.

ينطلق بعد أن يكون قد اطمأنّ إلى أنّ كلّ شيء على ما يُرام في موجة الغناء والمواويل التي كانت تستمرّ إلى ما بعد منتصف الليل. قدرته وصوته العذب المتميّز فاجآ الجميع. صحيح أنّ صوته كان قد لفت انتباههم وهو يتلو بين الحين والحين في بعض الصباحات آيات من القرآن بصوت مسموع، لكنّ أحداً لم يكُن يتصوّر درجة قوّة وعذوبة صوته وهو يغنّي.

كان يبدأ بمواويل كرديّة يكملها بأغانٍ كردية حزينة من الفولكلور، وأغاني المطربين الكرد المشهورين المغرقة في الحزن والشجن... ويكمل القسم الكردي بأغنيته المعهودة التي تقول «الشيخ صنعان ارتدّ عن الإسلام من أجل الفتاة النصرانيّة، أمّا أنا، فعلى وشك أن أتوب نادماً، من أجل ابنة الشيخ». ويُنهي القسم كلّه وهو منطلق بقوّة بأغنيته التي تقول «هيا نذهب لزيارة أويس، إنّه أويسنا... لنتوب من كلّ شيء إلّا الحبّ»، ثمّ يدخل بعدها على المقامات، وينطلق بمواويل عربيّة تؤدّي إلى أكثر أغاني العرب حزناً. وكان يكمل هذه الوصلة ببعض أغاني الشجن الريفي العراقي، الذي كان يدفع البعض من الحاضرين إلى الإغراق في البكاء، فيُكمل الليلة ببعض الأغاني التركيّة التي يصل معها إلى أقصى درجات التوحُّد مع طنبورته، وكأنّه خُلق هو وحبيبته الطنبورة لأداء هذه الأغاني التركيّة... ثم ينهي الليلة ببعض المقامات الفارسيّة التي تتطلّب أعلى درجات الصوت وأوسع أمداء التنفّس التي قد توصل صاحبها إلى مشارف الاختناق.

لم يكن البكاء المتواصل يقطع على آتيلا اندماجه الكلّي بأغانيه وطنبورته الحبيبة، كان يؤدّي هذه الأغاني بأعلى الأصوات، ثمّ أكثرها خفوتاً، بحيث تغدو شبه مسموعة، ممتلئة بالدفء والشجن، تنزل معها دموعه التي تخنق الكلمات في حنجرته، فتزيد صوته عذوبة وصدقاً وشجناً. كانت درجة حدّة الصوت، وإيقاع عزفه الرقيق الهادئ أحياناً، والعنيف والجنونيّ في أحايين أخرى، ترسم معها حركاته وإيماءاته وسكناته. كان يغرق مع هذا الاندماج الغريب لساعات في الدموع والعرق، فكانت دموعه تختلط بالعرق المتصبّب من وجهه وشعره، وتنزل لتختلط بدموعه وتختبئ بين شعر لحيته الكثيفة، إلى أن يتحول كلّ جسمه وملابسه إلى قطعة من العرق.

أحياناً، كان بعض الحضور من الرفاق يُلحّون عليه لأداء أغنية معيّنة، لكنّه كان يظلُّ متمسّكاً بعناد كبير، بما في مزاجه ولا يلبّي تلك الطلبات إلّا نادراً، بل كان يُقابلها بجملته القاطعة «أتحسب نفسك في برنامج ما يطلبه المستمعون؟» فكنتُ أعرف أنّه إذا لبّى طلب أحد لأداء أغنية معيّنة،

فإنّما كان من قبيل أنّها كانت تلائم مزاجه الخاص، لا إكراماً واستجابة لمن طلبها. المرّة الوحيدة التي حاول فيها تلبية طلب أحد الرفاق فضحته حركاته التي بدت أقرب إلى التمثيل. بدا بصورة جليّة وكأنّه غير مندمج أصلاً، لا مع طنبورته، ولا حتّى مع نفسه. وفي النهاية لم يكمل الأغنية وظل صامتاً إلى أن انفضّ الجميع أكثر حزناً تلك الليلة.

بالرغم من سماعي له وهو يؤدّن أحياناً، لم أندهش من حلاوة وفرادة صوته حتّى تلك اللحظة التي كان يصلني فيها من بين كلّ أصوات الدراويش، عندما رأيته للمرّة الأولى وهو يُرتّل أثناء حلقة الذكر التي أقامها الشيخ تلك الليلة ودعا إليها كلّ الدراويش والشيوخ من كلّ القرى في المنطقة. لم أكن أنوي حضور مثل هذه الاستعراضات التي حضرتُ بعضها أثناء طفولتي في بيتنا القديم قبل أن نتركه ذلك اليوم، برفقة الرجل الغريب وإلى الأبد. إلّا أنّ آتيلا ظلّ يضغط لإقناعي، وأنا أخبره بأنّني أشكّك أصلاً في جدّية توبته، إذ لم أكُن أعلم وقتها أنّه قد تاب أصلاً على يدي الشيخة فاطمة ذلك الصباح، وأنّ ما أصبح في ما بعد حديث القاصي والداني، لم يكن سوى التخريجة الرسميّة لتوبته. فقد كان الأمر مجرّد إعلان التوبة عصر ذلك اليوم في التكيّة وأمام الشيخ.

لم يكلّ من محاولاته في سبيل إقناعي لحضور حلقة الذكر. ولم أكن أودّ أن أقول ما يُمكن أن يُزعله، لكنّني أمام محاولاته التي غدت مُزعجة وملحاحة في النهاية، قلت له دون تردّد: اسمع يا آتيلا، أنا أحترم ما تعتقده أنت توبة، لكنّي لا أؤمن به، ولا أؤمن مطلقاً بالخرافات التي تودُّ حضورها، وتلحّ عليّ لحضورها أيضاً، الأمر كلّه خبال في خبال. أنا أعرف ما يدور فيها، نصيحة منّي لا تحضرها لأنك ستندم في ما بعد على حضورها. لكنّني في النهاية لم أستطع الفكاك من محاولاته المستميتة التي لم تكلّ، واضطررت مُكرهاً على مرافقته إلى تكيّة الشيخ.

عندما وصلنا إلى فناء التكيّة الواسع، كانت حلقة الذكر قد بدأت فعلاً، كنتُ أراقب آتيلا بتركيز شديد، كنتُ متلهّفاً لرؤية سلوكه وردّة فعله. وقف صامتاً مرتبكاً للحظات. ثم أخذ يتحرّك في مكانه ببطء، مع إيقاع الدفوف وصوت الدراويش وهُم يرتّلون ويتهادون محرّكين رؤوسهم في كلا الاتجاهين. كانت الفوانيس تُضيء المكان بنور خافت. دخل آتيلا مع صف الرجال المنقطعين عن كلّ شيء إلّا ذكرهم «الله حيّ... الله حيّ». أخذ مكانه وسطهم، وأخذ يتهادى معهم مُردّداً ترتيلهم الثابت المتكرّر. لم أستطع التركيز على بقيّة المراسم، تقافُز بعض الدراويش ولعبهم بالنار.. أكلهم للزجاج وطحنه بين أسنانهم.. وحتّى مشاهد استعمال الأسياخ وهي تخترق بطون وخدود آخرين غير مخلّفة قطرة دم. كلّ ذلك لم يشدّني، إذ إنّها فقدت قدرتها على إدهاشي حين كنتُ أرقبها في بيتنا القديم بخوف وذهول، قبل أن يأتي ذلك الرجل الغريب ويصحبنا للمرّة الأخيرة، تاركين بيتنا ومتّجهين لعالم الثورة السحريّ المُغرق في عبق الخيام.

كان كلّ تركيزي مُنشدّاً إلى آتيلا الذي لم يُقنعني كلامه ذلك المساء وهو يُخبرني بقرار توبته وتخلّيه عن الخمر نهائيّاً. كنتُ مشدوداً بقوّة للتعرّف إلى ما تغيّر فيه، لعلّه يُظهر شيئاً ولو بإشارات خافتة على وجهه وسلوكه، بينما هو مندمج تماماً في حركاته وتراتيله مع الدراويش.. كان غارقاً في عرقه، بينما شعره الطويل الخشن يقاوم حركات رأسه فيضرب وجهه معانداً التسليم، لاستسلام آتيلا الكامل للحالة التي يبدو أنّها تمكّنت منه نهائيّاً. مع اشتداد جنون الدفوف ورقص الدراويش، فقد آتيلا وضعه الاعتيادي، وخرج عن صفّ الرجال، وأخذ يؤدّي حركاته وسط الباحة حيث الفراغ. كان المشهد يبيّن كأنّ الجميع غائبون عمّا يدور حولهم. كان الاستثناء

الوحيد للانغماس في الحال، هو الشيخ الذي كان يقود حلقة الذكر، وهو يُقرّر فقرات الحلقة وتفاصيلها.
حين أسترجع حركاته وذوبانه في تلك الليلة التي لم أكن أجد لها تفسيراً، يقفز أمامي مجدّداً ليملأ عليّ هذه المقبرة الصامتة، بحركاته وصوته الذي يطغى على كلّ أصوات الكون والنجوم، وتقفز معه حكاية الدرويش الذي ظلّ يرقص عشرين يوماً، لعلّها تمنحني بعض الفهم للحال التي دخلها آتيلا بينما تحوّل من درويش إلى مايسترو يقود هو حلقة الذكر كلّها، فتقول الحكاية كما يرويها الهدهد: «عجباً! لقد كان أحد المجانين يعيش في القفار، وكان يستقرّ مع النمور بالليل والنهار، وأحياناً كانت تسيطر عليه حالة جنونه، فيفنى عن نفسه. وذات مرّة استمرّت هذه الحالة عشرين يوماً وتبدّلت حالته إلى حالة أخرى، وقد قضى العشرين يوماً من الصباح حتّى المساء في رقص دائم وحديث لا ينقطع، حيث كان يقول: كلّما كنّا نحن الاثنين بمفردنا بعيداً عن الجميع، ساد السرور كلّه واختفت الهموم.
كيف يموت من قلبه متعلّق به، فأسلم القلب له، فهو يحبّ حبيب القلب، وإذا ابتُلي قلبك بالشوق إليه، فلن يكون الموت من نصيبك مُطلقاً».
كانت ليلة متميّزة تماماً. وبالرغم من أن كلّ تلك الفقرات الأخرى لم تحرّكني ولو قيد أنملة، أذهلتني بالفعل حلقة الدراويش وهم غائبون في حالهم يتوسّطهم آتيلا الذي أحسسته في إحدى اللحظات وكأنّه هو المايسترو الذي يقود الدراويش، وأعادتني هذه الحلقة إلى بيتنا القديم بحلقات ذكره ولياليه التي كان يُضيئها مصباح معلّق على شجرة التوت التي كان أبي يغضب جداً عندما يقترب منها الدرويش قادر، لأنّه عندما كانت تتمكّن منه الحالة تماماً، كان يهاجم كلّ شيء ويلتهمه. فكان التهامه لأوراق شجرة التوت يُغضب أبي إلى أبعد مدى، بينما كان خالي الذي ينظرُ إلى الأمر كلّه ببعض السخرية، يقول لأبي في اليوم التالي: لماذا لا نضع الدرويش قادر في مكان ما بعد التهامه أوراق التوت، فقد ينتج لنا بعض الحرير المتميّز.
فكان أبي يردّ حانقاً: قد ينتج حبالاً ذلك البغل السمين، لقد التهم كلّ أوراق شجرتي المباركة.
كانت شجرة التوت هي الأعزّ على قلب أبي من بين أشجار حديقته في بيتنا القديم. كان قد أتى بها وهي لا تزال صغيرة من القرية التي جاؤوا منها حتّى قبل ولادتي. كان قد جلبها، كما حكى لي في ما بعد، من مقبرة القرية التي كانت تحتضن الأهل، وعندما اشترى ذلك البيت الذي تركناه في ما بعد، من دون رجعة في ذلك اليوم الماطر، زرعها في الحديقة مع بعض الأشجار الأخرى، وكان يقاوم كلّ محاولة من الناس تستهدف إقناعه باقتلاعها، بحجّة أنّ أشجار التوت تضرب بجذورها في العمق، وتؤثّر بذلك على تماسك البناء، فكان يردّ عليهم، والتفاخر يملأ وجهه: ولذلك أنا أعشقها، إنّها قويّة بجذورها الضاربة في العمق، تستطيع أن تتغلّب حتّى على العطش وقلّة المياه، فما بالك ببقيّة الكوارث؟ مع ذلك انظروا إليها، إنّها تجمع الرقّة والقسوة في آنٍ واحد، تستمرّ خضراء طوال العام، تنتج أحلى الثمار وأقوى الجذوع، لكنّها تنتج أيضاً ما يجمع الحالتين معاً، انظروا إلى الحرير الذي يُنتج منها، منتهى الرقة، وكذلك منتهى القوّة... أنتم لا تفهمون معنى قدسيّة شجرة التوت.
فكان خالي يمازحه بطريقة لا تخلو من بعض المشاغبة: ولذلك عشقتك أختي من بين كلّ الأقارب بينما أنت الغريب، أنت شاعر دون أن نعلم.

كانت المرّة الوحيدة التي فارق فيها آتيلا حبيبته كما كان يُصرُّ على تسمية طنبورته، التي كان يغار عليها ويرفض أن يلمسها أحد، هي تلك المرّة التي عبر فيها الشريط الحدودي الضيّق ضمن مفرزة محدودة العدد، نزلت إلى عمق المناطق التي دمّرها الجيش نتيجة الأنفال التي استمرّت عدّة أشهر وقضت على البشر والضرع والزرع وكلّ ذي حياة. وبقيت تتنقل في المناطق القريبة إلى المدن، إلى أن قامت الحرب من جديد وتمكّنا من تحرير المدن، وعودة كلّ العوائل والقوّات المرابطة، إمّا على الحدود أو داخل الأراضي الإيرانيّة.

كان أوّل ما فعله آتيلا بعد عودة الناس من المخيّمات، هو أن هرول إلى بيت الأسرة التي أودع لديها قبل نزوله مع مفرزة ميران، طنبورته وخنجره وسجّادة الصلاة ونسخ كتبه كلّها، إلّا نسخة التكيّة التي لم تفارقه أبداً. وبعد أن استعادها، دعاني ليلتها إلى تجمّع ضيّق جداً، اقتصر على ميران والأفراد الباقين من المفرزة التي رافقها في الفترة الأخيرة، وظلّت تتنقّل سرّاً بين الكهوف وخرائب القرى التي دُمّرت أثناء الأنفال. كانت ليلة متميّزة في كلّ شيء، شربنا نحن جميعاً حدّ الثمالة، بينما بقي آتيلا منتشياً باندماجه الروحي والجسدي بطنبورته، لا يتوقّف ولو للحظة في تجلٍّ غريب أغرقنا جميعاً في نوبة طليقة من البكاء.

أمّا الآن، فها أنا أقف وسط جمع يغرق في البكاء من أجل فراقه الأبدي. تُسيطر عليّ فكرة واحدة فقط. بينما ها هو آتيلا يتركنا إلى الأبد خالي اليدين، لا يغطّيه سوى كفن أبيض. مَن الذي أخذ سلاحه؟ وهل هو مرميّ الآن في مخزن للجيش، أم أخذه أحد الجنود الذين جادلنا جنكي كاردوخي حين دافعنا عنهم؟ ويا هل ترى ماذا فعلوا بخنجره الغالي الذي حمله من تلك الأقاصي؟ وأين يا ترى تسكن الآن حبيبته، طنبورته؟ وماذا عن قنّينة العرق التي انتزعها منّي عنوةً ليلة أمس؟ ماذا فعل بها؟ هل شربها وكفر بكلّ شيء؟ أم ضرب بها الأرض في نوبةٍ من نوبات غضبه الجنونيّة؟ تُرى أين هُما الآن، قنّينة العرق، وحبيبته التي كانت وليف روحه الذي يعينه على الانفجار في التعبير عن جحيم فراق فاطمة الأبديّ؟

إلّا أنّ ما عكّر عليّ في النهاية صفو هذه التساؤلات على حين غرّة، وأغرقني في حالة من الشعور بالألم الممزوج بالحزن اليائس أكثر من أيّ شيء آخر، هو أنّ آتيلا يرقد الآن أمامي تحت التراب، لا يجتمع بفاطمة التي فقدها إلى الأبد، حتّى إنّه لا يتشارك معها نفس التراب الذي يرقدان تحته، بل يتشارك في مشهد قمّة في السخرية، مع سعيد الحاج علي، الذي يقطن نفس هذه المقبرة البليدة، يغطّيه نفس التراب. وحتّى الدود الذي سيأكل جسده، هو من أحفاد الدود الذي تغذّى من قبل على جسد سعيد.. فيا لهذه السخرية القاتلة في مرارتها وقسوتها.. لكنّ روحه المتمرّدة أبداً، تأبى أن تخضع لهذه المعايير الجسديّة الساذجة. فها هي روحه المندمجة بروح العطّار، تتجسّد بصوته العذب وهو ينشد من الكتاب، حيث يقول الهدهد: «عندما كان أبقراط في النزع الأخير، كان معه تلميذه، فقال: أستاذي الكبير، كيف نكفّنك ونطهّر جسدك؟ وفي أيّ مكان من الأرض نضعك؟

قال: إن كُنت ترغب في العثور عليّ مرّة أخرى، فادفنّي في أيّ مكان ترغب. ولكنّي عشتُ عمراً مديداً، ولم أجد نفسي، فكيف تجدني أنت بعد موتي؟ فإذا ما رحلت، فهذا وقت الفناء، حيث لن تعرف شعرةً واحدة منّي، أيّ خبر عنّي!»...

25

«العاشق كالريح بالنهار وفي الليل يبدو في حرقته كالقمر».
فريد الدين العطّار

وهكذا...

كانت محاولة كاكه حمه سي خراني، في طرح مسألة زواجي بفاطمة على الشيخ، مجرّد بداية رحلة عذاب طويلة، وجهد جبّار يفوق الوصف والخيال. فبالرغم من تحذير فاطمة لي بعدم الاستعجال والتريّث لفترة، لعلّ وعسى أن يرقّ قلب الشيخ، كنتُ في حالة من العجلة المغرقة في الاحتراق. لم أعُد أحتمل العيش بدونها ليلة واحدة. فطلبتُ مرّة أخرى من كاكه حمه سي خراني، مفاتحة إخوة فاطمة هذه المرّة، راقته الفكرة، ووعدني بأن يفاتح أحدهم قريباً.

عاد كاكه حمه هذه المرّة وهو أكثر إيجابيّة من المرّة الأولى، وأخبرني بأنّه فاتح الشيخ حسن، الابن الثاني للشيخ كاكه حمه، وأنّ موقفه كان أكثر من رائع، وأنّ الشيخ حسن أخبره بأنّه يحبّني كثيراً ولو كان الأمر بيده، لقدّمها لي عروساً بالثوب الذي عليها، لكنّ الأمر ليس بيده، بل بيد أبيه الشيخ. وأكمل كاكه حمه كلامه قائلاً: ومع ذلك.. وعدني بأنّه سيحاول كلّ ما في وسعه، لكنّه ترجّاني أن نُبقي الأمر سرّاً، ولا نتقدّم لطلب يدها إلى أن يرى ماذا يمكنه أن يفعل.

اضطربت أنفاسي، شعرت كأنّ قلبي عازم على الخروج من صدري، احتضنتُ كاكه حمه بقوّة، أشكرهُ على جهوده التي لا تكلّ من أجلي. وعلى الرغم من مرور تلك الفترة، بين محاولته الأولى والثانية، لم يسمع أحد، ولو من بعيد، بشيء عن سرّ حبّي وعلاقتي بفاطمة. كان كاكه حمه رجلاً في غاية الأخلاق والكرم، ويبدو أنّ الشيخ أيضاً قد أغلق الموضوع، دون أن يخبر أحداً، وإلّا لكانت القيامة قامت. قرّرتُ أن أستغلّ كرم كاكه حمه وردّ الشيخ حسن الإيجابي، فتشجّعتُ وسألت كاكه حمه: كيف يُمكن أن نعرف موقف أمّها من الموضوع، وماذا نفعل لكي نعرف ذلك؟

قاطعني بلهجة حاسمة: أرجوك، دعك من أمّها الآن، فأنا أخشى من موقفها كثيراً. ثمّ علينا أن نحترم وعد الشيخ حسن لنا، وننتظر ما الذي يمكن أن يفعله؟ وفي النهاية، إن لم يتمكّن الشيخ حسن من إقناع أمّه، فمن تتصوّر أنّ بإمكانه إقناعها؟ أرجوك، لا تُفسد الأمر علينا بعجلتك هذه..

ثمّ استطرد ضاحكاً: يا أخي، العجلة من الشيطان، وأنت رجلٌ متديّن...

ها هي القرية كلّها متجمّعة، الدخان يتصاعد، والغبار أصبح أكثر كثافةً، والطبل والمزمار لا يتوقفان، بل يتصاعدان بوتيرة جنونيّة مصاحبة لأغاني الفرح التي يتناوب عليها المغنّيان الشعبيّان، ما يدفع الرجال والنساء الذين تشابكت أيديهم في دبكة كرديّة، إلى التطرّف في حركاتهم وضربات أرجلهم القويّة على الأرض، لترفع معها نسبة الغبار المتصاعد من الأرض. وكلّما ضمّن أحد المغنّين اسم أحد الرجال في أغنيته، كانت وتيرة الدبكة تتصاعد فجأة. كانت النسوة مشغولات بالدخان الكبير المتصاعد من النار التي يطبخن عليها الأكل لجميع أهل القرية وبعض القرى المجاورة، وبعض أفراد البيشمركة الحاضرين.

الكلّ كان حاضراً ما عدا الشيخ وعائلته، فتقاليد المنطقة تعيب على الأب والإخوة حضور زفاف بناتهم وأخواتهم. وأخيراً ظهرت فاطمة. كنتُ أنا أرتدي أجمل الملابس الكرديّة، اعتليتُ جدار بيتي الطينيّ مُمسكاً بقصبة طويلة. ما إن وصلت فاطمة إلى باب الفناء، حتّى ضربتُ برفق ثلاث مرّات بالقصبة على رأسها الذي كانت تغطّيه بقطعة قماش حمراء شفافة. تصاعد صياح الرجال

وزغاريد النسوة... بدت حمراء كتفاحة مغربية، تلبس أحمر في أحمر، حتّى حذاؤها كان أحمر. لم يكن يقطع هذا البحر من اللون الأحمر سوى الأساور والأقراط، وباقي الحليّ التي كانت تزيّن العروس.
نزلتُ عن الجدار العالي بقفزة واحدة، ما أغرق الحضور في نوبة قهقهات عالية. أمسكتُ بيدها، أخطو بها نحو الباب بخطوات بطيئة، وقطع الحلوى الصغيرة الملفوفة بأوراق ملوّنة تنهال على رأسينا. عندما أمسكتُ بيدها، بدت كأنّها ستذوب حياءً، لكنّ جفونها المنسدلة من الخجل، لم تمنع ابتسامتها العذبة من التفجّر.. عند دخولنا الغرفة احتضنتها بقوّة وقلت: سأظلُّ العمر كلّه ممتنّاً لأخيك الشيخ حسن، الذي أقنع الجميع بزواجنا وها نحن بفضله، في بيت يجمعنا إلى الأبد... ما رأيك أن نُسمّي ولدنا الأول على اسمه؟
سمعت من الخارج أصوات طرقات. هل هي أصوات إطلاق الرصاص التي تعوّد عليها الأهالي والتي يطلقها أحد الشباب الواقفين تحت شبّاك الغرفة التي دخلها العروسان بانتظار خبر إتمام الدخلة؟ نعم... ها أنا لا أسمع سوى أصوات الطرقات المتتالية. فقد اختفت كلّ الأصوات الأخرى فجأة، واستمرّت الطرقات، ثم تعالى صوت امرأة يناديني: دكتور، يا دكتور آتيلا...
أنا أعرف هذا الصوت، ليس صوت فاطمة وهي توقظني، آه.. نعم، لقد تعرّفتُ إليه الآن.. لكن مهلاً، أيُعقل أن تكون هي؟ نعم، بالتأكيد إنّها هي، فأنا أعرف هذا الصوت، ولا يمكن أن أنساه أبداً. سمعتُها تناديني وتكرّر مناداتي من الخارج. فتحتُ عينيّ، وكان النهار قد طلع ولم تكن فاطمة موجودة. خرجتُ مُتعجّلاً لأفتح لها، فكانت هي الواقفة هناك على الباب. نعم، إنّها هي بشحمها ولحمها. غرقتُ في حالة من الارتباك العجيب، وأنا أدعوها بشيء من المبالغة إلى الدخول.. نعم، كانت هي، كما توقّعتُ وتعرّفتُ إلى صوتها وهي تناديني من الخارج. نعم، إنّها حماتي... دخلت وجلست على طرف السرير الحديدي الموجود في الفناء.
بعد مغادرة الشيخة أم فاطمة، شعرت بنفسي أكاد أسقط من الشعور بالإعياء التام. فعُدت بشقّ الأنفس إلى الغرفة، واستلقيت على ظهري وأنا أفكّر في مجيئها وكلامها المليء بالتهديدات وطريقة خروجها... كنتُ أنظر إلى السقف وكأنّي أراه للمرّة الأولى، بدأت أعُدُّ العارضات الخشبية المصطفّة التي تسند سقف الغرفة، كرّرت عدّ العارضات أكثر من مرّة دون أن أصل إلى نهاية العدّ، ولو لمرّة واحدة. كنتُ مُنهكاً تنهال عليّ الأفكار والخيالات المختلفة العجيبة، فكانت تُعكّر عليّ العدّ، فأنسى أنّني أعُدُّ العارضات، لأعود مرّة أخرى وأكرّر العدّ ودون الوصول إلى نتيجة أيضاً.
شعرتُ بالاختناق من رائحة الدخان الذي بدأ ينزل من بين عارضات السقف، ليملأ الغرفة، انتهى برائحة زكيّة لم أتعرّف إليها في البداية. نعم، لقد تعرّفتُ إليها، كانت رائحة التفاح. يا إلهي، كم أعشق رائحة التفاح.. شعرت برائحة التفاح تطغى على كلّ ما عداها من الروائح. هبّت عاصفة قوية من الغبار الممزوج بدخان أسود كثيف، أحالت ما في الغرفة إلى زوبعة دخان وغبار، وابتعدت بسرعة، تلفُّ معها فاطمة وهي تصرخ وتستنجد بي، لكنّني لا أتمكّن من سماع صوتها. كان صوت الطرقات المتكرّرة يطغى من جديد، على ما عداه من الأصوات الأخرى.
فتحتُ عينيّ وأنا في أشدّ حالات الإعياء. كان صوت امرأة يناديني مرّة أخرى. إنّها المرّة الثانية التي أصحو فيها اليوم من النوم على صوت طرقات يُصاحب صوت امرأة... قمت أفتح الباب، فإذا بقريبة أمّي التي واظبت في الفترة الأخيرة على مساعدتي أنا وفاطمة، واقفةً فعلاً بالباب. بدا

عليها الارتباك وخاطبتني على عجالة: تعالَ إلى بيتي بسرعة. أنا سأسبقك وأنتظرك في البيت، أرجوك لا تتأخر. تعالَ بسرعة.. الأمر لا يحتمل التأخير.. أرجوك يا دكتور، بسرعة.
كانت فاطمة جالسة بصمت، عندما وقعت عيناها عليّ، أخذت تبكي بحرقة وهي تخرج بالكاد كلمات من بين تنهّداتها الباكية: لقد حلمتُ بك تختفي في زوبعة سوداء، وشعرت بنفسي أختنق من رائحة التفاح، دون أن أرى أثراً حتّى لتفاحة واحدة.
وأغرقت فاطمة أكثر فأكثر في البكاء. شعرتُ بالصدمة وهي تنهال على رأسي. هل يُعقل أن يرى شخصان نفس الحلم، أو نفس الكابوس في وقت واحد؟ يا إلهي، شعرتُ بنفسي أرتعد من شدّة الرعب الذي أصابني. إنّه نفس الحلم الذي أتاني حين كنتُ غارقاً في نوم عميق، عصر ذلك اليوم الذي جاءتني فيه للبيت قبل ذلك، الشيخة أم فاطمة صباحاً...
حاولت قريبة أمّي المستحيل، وهي تحاول تهدئتي وإقناعي بالكفّ عن الجلوس وكأنّي مشلول هكذا. لم تدّخر شيئاً وهي تحثُّني على الكفّ عن البكاء كالنساء، كانت تكرّر على مسامعي: أنت رجل، كيف يكون الرجال ضعفاء هكذا؟ كنتُ أظنّك أكثر رجولة من ذلك.
كانت تحثّني بقوّة لكي أقوم وأفعل شيئاً بدل الجلوس هكذا والبكاء كالنساء. عندما وجدت أن محاولاتها عقيمة، أخذت تحاول بالكلام اللين، وبمنتهى الرفق والحنان، تدعوني إلى الكفّ عن البكاء وأن أسترجل قائلةً: من المعيب أن يجد الرجل نفسه في موقف كهذا عاجزاً كالمشلول.
عندما يئست من محاولاتها معي، خاطبت فاطمة بصوت يخنقه الدموع: قومي أنتِ يا فاطمة، وقولي له شيئاً، قولي إنّ عليه أن يسترجل بدل البكاء. أدعو الله أن ينتقم ممّن يحرمكما من الوصال، هكذا من دون رحمة...
ردّت فاطمة بحرقة مصاحبة لنوبة متصاعدة من البكاء الذي كان يحرّك كلّ جسمها معه: ماذا أقول له، لقد انتهى كلّ شيء. لماذا استعجلت يا آتيلا، ألَمْ أقُل لك أن لا تستعجل وتدع الأمور تهدأ؟
بدأ ذهول الكابوس يخفّ وطأة عليّ، واسترجعتُ بعضاً من وعيي وقوّتي وسألتها: ما الذي حدث؟ ما الذي انتهى؟ احكي يا فاطمة، أخبريني ماذا حدث؟
– لم أتمكّن الليلة من النوم، والفترات القليلة التي كنت أغفو فيها من الإعياء كنتُ أصحو على صوت أمّي التي كانت تدعو عليك، وتخرجني بذلك من قلب الزوبعة التي كانت تلفّني بعيداً عنك، وأنا غائبة للحظات في غفوة قصيرة.
– ما الذي حدث لكي يدفع بأمّك لتدعو عليّ؟
– البارحة مساءً، جاء أخي الشيخ حسن للبيت، وفاتح أبي وأمّي في موضوعنا، فما كان من أمّي إلّا أن أجابت حتّى قبل أن يفتح أبي فمه رافضةً الفكرة من أساسها. وظلّت تقول «كيف يجرؤ مسكين تركمانيّ على التقدّم للزواج بابنة شيوخ؟». لم تغفُ إلى أن طلع النهار، كانت تُهينني وتشتمني بقسوة، وظلّت تهدّدني بالموت حرقاً إن لم أتخلَّ عنك.
خرّت باكيةً من جديد... شعرتُ بنفسي أكثر شللاً، لكنّني في لحظةٍ ما، نهضتُ على وقع عبارات التشجيع التي كانت تُطلقها قريبتي، وأنا مجتمع بفاطمة في بيتها، وتحثّني على أن أسترجل وأحاول تهدئة فاطمة، توجّهتُ إليها مهدّئاً إيّاها: أرجوك اخفضي صوتك، أخشى أن يسمعك أحد، وينكشف سرّنا.
فردّت بنوبة بكاء أشدّ حُرقة: لينكشف، وليحدث ما يحدث، لم يعد يهمّني ما يحدث، ألم أقُل لك إنّ هؤلاء عديمو الرحمة، ولن يقبلوا بزواجي بك؟ دعهم يقتلونا وننهِ هذا العذاب. فأنا متيقّنة بأنّهم إن

قتلونا هكذا، فسنكون شهيدين طاهرين في سبيل حبّ عفيف لم يلمس فيه أحدنا الآخر.
أصابتني عبارتها الأخيرة بالرعب، وأنا أتذكّرُ الكابوس الذي رأيته عصر ذلك اليوم، وكانت فاطمة قد رأته كذلك. لكنّني تمالكتُ نفسي، وأنا ألملم قواي المنهارة: لا تخشي يا عزيزتي، فلن يمنعني عنك سوى الموت، كما وعدتك، وها أنا أعاهدكُ من جديد، على أن أخلص لوعدي إلى آخر نفس في حياتي.
ردّت عليّ والبكاء يقطع أنفاسها ويجعلها في حالة أقرب إلى الارتجاف: لا أعتقد بوجود فرصة لزواجنا، فلن يكون لمُّ شملنا مُمكناً إلّا في الجنّة.
وهكذا، ظلّت محاولاتي المستميتة اليائسة التي لم تكن تنتهي. وكنت مع بداية كلّ محاولة أمتلئ أملاً وخيالات جميلة، تجمعني بفاطمة في بيت واحد، يحوم حولي أطفالنا. ولكن مع فشلها، كنتُ أتمزّق من الحزن واليأس والغضب. وكان فشل كلّ محاولة يؤدّي إلى تفاقم الوضع أكثر فأكثر. واستمرّت جنّة الخيالات العذبة تتقاذفني مع جحيم الواقع المرير المُصاحب لكلّ محاولة، بدا أنّها كانت محكومة بنفس النتيجة سلفاً، مع تداعيات أكثر خطورة، تُعقّد الوضع أكثر ممّا هو معقّد أصلاً. فكان خطّ اليأس في تصاعد مستمرّ، يقابله خيط الأمل الرفيع أصلاً في تدهور كارثيّ سريع، ومن دون توقّف.
يا إلهي!
على الرغم من ازدياد إيماني وتمسّكي بتوبتي النصوح الخالصة، إلا أنك لم تبالِ بكلّ ذلك، حتّى إنّني تركت بعد فترة كلّ أغنية تتنافى وأبسط أساسيّات الالتزام الدينيّ، واتّجهتُ نحو أداء الموشّحات والأغاني الدينية أكثر فأكثر. لكنّ كلّ أبواب رحمتك قد أُغلقت في وجهي بمنتهى القسوة. لم يرقّ قلب الله، كما لم يرقّ قلب عبده التقيّ الشيخ كاكه حمه، الذي كنتُ ألومه على قساوة قلبه، وعدم تزويجي فاطمة، بالرغم من إعلان توبتي الخالصة على يديه. إلّا أنّني الآن، وأنا أدرك للتوّ قساوة قلب الله الذي تخلّى عنّي وحيداً مع هذه الكأس والطنبورة وسجّادة الصلاة وهذا الكتاب، أتذكّر الشيخ وإحساس طاغٍ يغمرني بالشفقة عليه.
يا طنبورتي.. يا رفيقة الجحيم!
يا مفجّرة الدموع ومزيلة الكرب الذي يكبس على نفسي، وأنا أمتلئ شوقاً قاتلاً إلى فاطمة ولُقياها، وعينيها العذبتين، وصوتها الرقيق، وابتسامتها الساحرة، تعالي إليّ، تعالي إلى حضني، ولنندمج معاً على سجّادة الصلاة هذه.. تعالي أفرغ فيك كلّ طاقتي.. روحي.. شبقي.. كلّ دموع عيني، وكلّ دموع روحي، التي تتصبّب من أعلى قمّة رأسي إلى آخر إصبع في قدمي. تلك الدموع التي يحسبها الآخرون عرقاً، وتعلمين أنت أنّها ليست سوى الدموع المحبوسة المختنقة بين ثنايا الروح والجسد. وإذ تضيق على تدفقها العيون، فإنها تحطم جميع سدود الروح لتتدفّق سيولاً تغرق جسدي كلّه في طوفانها... إنّك الوحيدة القادرة سبحانكِ على تفجير الروح والجسد معاً، وتمكين بحور دموع الروح تلك من التدفق كالسيل الذي يغرق كلّ الروح وكلّ الجسد المنهك من الوحدة والعزلة.
سأصل معك هذه المرّة في نشوتي واندماجي حدّ الموت، بعد أن أشرب كلّ قطرة في قنّينة العرق المنتظرة بشبق. لن أشرب هذه المرّة تلك الكأس الخالدة الصابرة صبر أيّوب. بل سأجعلها تدخل التاريخ كشاهدة على رِدّة مؤمن متديّن، وإعلان توبته الأبدية من الصلاة والصوم وكلّ العبادات، وعودته إلى طريقه القويم المليء بالإثم والمعاصي. سأشرب القنينة كلّها دفعة واحدة، دون أن

أضيف إليها قطرة ماء واحدة... إنّ التوبة الخالصة من الالتزام بدين إله لم يفِ بوعوده، لن تكتمل وتكون نصوحاً.. صادقة.. خالصة، إلّا بتجرّع العرق الخالص، وعلى سجّادة الصلاة تحديداً...

26

«ضع قدمك في طريق العشق الحقيقيّ تماماً
واشرب الكأس مع التنانين كالرجال».
فريد الدين العطّار

وأخيراً... ها هو يتجرّعها!
ويعلن ذلك على الملأ، ليُصبح حديث العالم...
ثمّ ها هو الشيطان، كما كان يحلو لأبي تسميته أحياناً، يُعلِن انتصاره.
امتلأت الشوارع بالناس الذين يتقافزون، وامتلأت شاشات التلفزة بصور ومشاهد الحشود الضخمة وهي تملأ الميادين والساحات العامة. للوهلة الأولى، أحسستُ بالخوف الشديد على أبي. تُرى ما الذي سيفعله؟ وكيف سيتحمّل وقع الخبر الذي سيخيّب كلّ آماله؟ تُرى كيف سيؤثر كلّ ذلك بمجمله على أبي؟ وهل سيقاوم كما كان صلباً دائماً، ويتغلّب على كلّ شيء بعناده دافعاً كعادته الضريبة القاسية، من روحه ودمه وأعصابه وحياته، أم سينهار هذه المرّة تحت تأثيره؟
المرّة الأخيرة التي رأيته فيها كانت قد سبقت كلّ ذلك ببضعة أشهر، أي قبيل بدء سلسلة معارك الدمار الأخيرة، التي كانت تبدأ كلّ مراحلها بالآية القرآنيّة، وأسابيع عدّة على وقوع جريمة الخنق الكبير... جاءني في زيارة عاجلة، حاملاً منها رسالة، أدخلتني في موجة ذهول، وأعادتني إلى استغراقي في الحيرة والآمال... وأشعلت في داخلي حزناً شديداً على آوات كردستاني الذي مزّق قبل أشهر من ذلك رسالتها السابقة... بدت زيارة أبي تلك وكأنّها الأخيرة. لم أرَهُ قطّ على تلك الدرجة من القلق عليّ وعلى الثورة. كان خائفاً مذعوراً من الدسائس والمؤامرات، وبالرغم من حنقه على الصراعات والافتراءات التي تعرّضتُ لها أخيراً، والتي كادت تودي بي مقتولاً بسلاح الثورة، ومتجرّداً حتّى من لقب الشهيد، ظلّ أبي مُعانداً. وأكّد أنّه لا يخشى انكسار الثورة في ظلّ وجود شباب كهؤلاء يُصارعون المستحيل ولا يستكينون. لكنّه كان يؤكّد في كلّ مرة، أنّنا يجب أن نحذر المكائد والمؤامرات الخارجيّة التي لا تُريد لهذا الشعب الحرّية والانتصار.
كانت المعارك الجبهويّة القاسية قد بدأت حتّى قبل ذلك اللقاء الأخير، بما يقارب العامين. حينها كان أبي قد جاء لزيارتي أيضاً، لكنّني كنتُ قد انطلقتُ مع القوّة المتّجهة للدفاع عن مقارّ القيادة قبل وصوله بيومين فقط. فعاد مُكبَّداً بالإجهاد والحزن، ومن دون أن تتسنّى له رؤيتي. استمرّت تلك المعارك أكثر من مئة يوم.. وعلى امتداد عشرات الأميال، في جبهة غير متكافئة أبداً. استخدم فيها الجيش جميع أنواع أسلحته الحديثة من الجوّ والبرّ. في المقابل لم نكن نحن نمتلك أكثر من أسلحتنا الخفيفة، بالإضافة إلى بعض القطع المتوسّطة التي كان يحلو لنا تسميتها بالثقيلة.
كُنّا نعتقد حينها، بأنّ الجيش لم يدّخر سلاحاً إلّا واستخدمه. كانت تلك هي المرّة الأولى التي نقاوم فيها ذلك الكمّ الكبير من الدبابات وأنواع الطائرات، وكان الأكثر إزعاجاً هو القصف بالمدافع وصواريخ الكاتيوشا الذي لم يكن يتوقّف إلّا نادراً، وخصوصاً أثناء الليل، إذ كان يخفتُ ليستمرّ إلى الصباح بصورة متقطّعة، وكان الرفاق الذين خدموا في الجيش من قبل، يسمّونه الإزعاج الليلي.
بدأ القصف منذ أوائل العصر، وكان شتاء الجبال الثلجي القاسي قد بدأ. كان بإمكاننا رؤية كلّ شيء بوضوح، فالجبل الذي كان يقابلنا، لم يكن يفصله عنّا سوى وادٍ ضيّق. أخذ القصف يتزايد

مع حلول الظلام، بحيث بدا لي المشهد، وكأنّ مجموعة من الناس يمسكون بفوانيس يتقافزون في مساحة محدودة.. ثمّ بدأ الهجوم الأوّل، فالثاني، فالثالث.. مع بداية فتح البنادق للنار من منتصف الجبل باتّجاه قمّته، كان القصف يخفُّ شيئاً فشيئاً. ومع نهاية كلّ هجوم، كان القصف يعود على أشدّه.

كانت القياسات والمعايير واضحة، نحفظها عن ظهر قلب. فمع خفوت كلّ موجة شديدة من أصوات إطلاقات البنادق وصواريخ الآر بي جي، كانت أنفاسنا تتقطّع بانتظار موجة القصف المتزايد من جديد، التي يعني اشتدادها من جديد أنّ هجوم الجيش قد اندحر. ومع كلّ بداية قصف مجنون جديد كنّا نتنفّس الصعداء. دامت الحال هكذا حتّى صباح اليوم التالي، ولم يحدث ولو مرّة واحدة، أن توقّف القصف بعد نوبة نيران البنادق الذي، إن حصل، فسيشكلّ مؤشّراً على أنّ الهجوم قد نجح في احتلال خنادق رفاقنا، وأنّ الجيش وقوّات الجحوش المرافقة له قد تمكّنوا من السيطرة على تلك القمّة.

مع بدايات الصباح، بدأت الأخبار تتوارد، كان فقط أربعة عشر من رفاقنا يحمون ذلك الجبل الاستراتيجي. دفعوا أربعة عشر هجوماً، يقاومون جميع أنواع الأسلحة. وكانت النتيجة أن اثنين من رفاقنا استشهدا، بينما جُرح منهم ستة ظلّوا يقاومون مع رفاقهم الستة الباقين بتلك الصورة الخرافيّة، ودون أن يخسروا خندقاً واحداً. بينما فاقت خسائر الجيش العشرات من القتلى، كان غالبيّتهم من القوّات الخاصّة. هكذا كانت الحال طيلة تلك الفترة التي لم تتوقّف فيها المعارك إلّا نادراً، ما أنهك قوّاتنا التي لم نكن نملك غيرها لتتناوب معنا على التمركز على خط القتال. وشيئاً فشيئاً زادت خسائرنا، وبدأ عتادنا ينفد. كُنّا ندفع في الأسبوع حصّتنا من ليلة أو ليلتين من الهجوم، الذي كان ينتهي بخسائر كبيرة من الطرف الآخر. لكنّ خسائرنا تلك، بالرغم من ضآلتها مقارنةً بخسائر الجيش والجحوش، كانت تؤثّر في حجم قوّاتنا المقاومة.

كُنّا نحن نتمركز على سلسلة من الجبال التي تقع في مقدّمة الجبهة الأماميّة. وعندما تأكّد الجيش من أنّه لن يتمكّن من السيطرة عليها، أخذ يخفّف الضغط علينا مركّزاً إيّاه على القمّة التي قاوم فيها رفاقنا الأربعة عشر في تلك الليلة الأسطورية. كانت تلك القمة تقع خلفنا مباشرة، وتُعدّ المفتاح لكلّ السلسلة الجبليّة التي كانت تحاذي سلسلتنا، وتزيد عليها ارتفاعاً.

في الليلة الأخيرة، استمرّت المعارك خلفنا ونحن نشاهدها إلى ما بعد منتصف الليل، ثمّ ارتفعت فجأة من أماكن متفرّقة من القمّة ومن فوق خنادق رفاقنا، مجموعة من الطلقات الناريّة الملوّنة التي كانت تطلق أدخنة من نفس ألوانها. كان الوضع صادماً حقاً. الألوان التي اعتدنا على انطلاقها أثناء الاحتفالات، ملأت المكان دون أن نتمكّن من إيجاد تفسير لما يمكن أن تعني، إذ كانت تلك هي المرّة الأولى التي أرى فيها مثل هذا المشهد. في الصباح التالي، كان الوضع قد تغيّر برمّته، فبعد مقاومة مئة يوم، تمكّن الجيش أخيراً من السيطرة على السلسلة التي كانت تقع خلفنا. فأجبرنا على الانسحاب من مواقعنا وسط معارك متقطّعة.

بدا هذا النوع من المعارك قاسياً جداً مقارنة بمعارك الكرّ والفرّ الخاطفة التي كُنّا نخوضها ضدّ مقارّ الجيش والجحوش وثكناتهم. ففي تلك، كُنّا نحن المهاجمين ونملك زمام المبادرة، وأسلحة الطرفين كانت أقرب إلى التكافؤ. حتّى المعارك التي كان يفاجئنا فيها الجيش مدعوماً ببضع دبابات وآليّات وآلاف الجحوش، بدت مقارنة بالحرب الجبهويّة أشبه بالنزهة، إذ إنّها لم تكن تدوم

أكثر من يوم واحد، لينزل جنرال الليل، ويأمر الجميع بإيقاف القتال وإنهاء المعارك بعد أن تكون القوّات المهاجِمة قد اندحرت وانسحبت تماماً، تحت غطاء كثيف من نيران المدفعية المجنونة.
انتهت معركة المئة يوم، وتمكّن الجيش والجحوش في النهاية من السيطرة على عدد من السلاسل الجبليّة. وخسرنا خلالها العشرات من رفاقنا على طول جبهة واسعة. إلّا أن الجيش لم يتمكّن في النهاية من السيطرة على مقارّ القيادة التي بقيت صامدة في مكانها. انتهت تلك المعركة التي دامت مئة يوم، وكانت هي الأولى من نوعها، لكنها لم تكن الأخيرة، فقد تلتها معارك أشدّ شراسةً، كُنّا نحن والجيش نتناوب على إشعالها. فلم تمرّ سوى بضعة أشهر على معركة المئة يوم، حتّى قرّرت القيادة مع حلول ذلك الربيع الساخن، استعادة كلّ المناطق والسلاسل الجبليّة التي خسرناها أثناء معارك الشتاء الماضي. فحشدت لها من كلّ المناطق الغالبيّة الساحقة من خيرة قوّاتنا المقاتلة.
تخلّلت الشهور الواقعة بين معارك المئة يوم ومعركة الربيع الساخن التي سُمّيت حينها بملحمة التحرير، العشرات من معارك الكرّ والفرّ في جميع المناطق. بعضها كان كبيراً، وبعضها الآخر كان صغيراً، تمكّنت فيها قوّاتنا من السيطرة على مواقع مختلفة من ثكنات صغيرة، مروراً بمعسكرات كبيرة نسبيّاً وصولاً إلى كمائن على طرق تحرّك القطعات العسكريّة. كما تخلّلتها هجمات نوعيّة على سلاسل جبليّة، والسيطرة على العديد من الثكنات والمعسكرات. وهكذا، بدأت حدّة المعارك، وتطوّر نوعيّتها، تأخذ في الازدياد المتسارع. كانت الانتصارات المتتالية ترفع من الروح المعنويّة لقوّاتنا وللناس أيضاً، وتُبشّر بقرب النصر النهائيّ وسقوط النظام الذي كان يعاني أصلاً من ضغط الجبهات مع القوّات الإيرانيّة.
قيل في ما بعد، إن عدد قوّاتنا التي شاركت في ملحمة التحرير تلك، قد قارب الخمسة آلاف بيشمركة، وكان هذا هو العدد الأكبر الذي يشارك في معركة واحدة، على طول وعرض جبهة تجاوزت مساحتها الآلاف من الأميال المربّعة. وكانت القيادة المركزيّة هي التي تدير كلّ الجبهات، من مركز عمليّاتيّ واحد. كانت هذه المعركة نوعيّة في كلّ شيء حتّى في قيادتها.. فقد أشرف عليها الزعيم شخصيّاً.
استعدنا في ليلة واحدة، أثناء ذلك الربيع الساخن، كلّ ما خسرناه في الشتاء القاسي السابق، لا بل وأضفنا إليه من المناطق التي حُرّرت بمقدار الضعف. فقد سيطرت قوّاتنا، في أواسط نيسان ذلك العام، على أكثر من مئة وعشرين معسكراً وثكنة، ومقرّ قيادة.. أضاف تعامل النظام معنا، ومع نتائج هذا الانتصار النوعيّ الكبير، المزيد من التميُّز على هذه المعركة الفريدة. فقد جُنّ جنونه، ولم يدّخر شيئاً من أسلحته حينذاك، إذ كشف المستور، وهاجمنا بأسلحة نوعيّة جديدة لم نعهدها أو نشهدها من قبل أبداً.
أمّا بالنسبة إليّ أنا، فلم يكن ما يُميّز تلك المعركة هو كلّ هذه الأمور العامّة فقط، وليس اقتنائي مجموعة من الكتب والمجلّات المطبوعة في مطابع الثورة، المتمركزة في منطقة القيادة... ولا حتّى مشاهد أفراد البيشمركة وهم مُنهمكون في المساء الذي سبق هجومنا الملحميّ بدبكاتهم الفرحة ووجوههم المبتسمة المقبلة على إنجاز كبير وحسب، بل كان الحدث الأكثر تميّزاً هو لقائي بآوات كردستاني. فقد كانت المعارك الكبيرة مناسبة للقاء أصدقائنا ورفاقنا المتمركزين في مناطقهم بعيداً عنّا. وكان آوات هو الحالة الأكثر تفرّداً في الثورة إلى درجة أنّني تساءلت عمّا يربطه بثورتنا، وأنا أتعرّف إليه للمرّة الأولى، حتّى إنّ شياطين الشكوك داهمتني عن سبب حمله السلاح معنا. ثم

غدا صديقي الأكثر قُرباً، وأصبحتُ مخزن أسراره وأحلامه. ومع ذلك لم أعرف حتّى هذه اللحظة، اسمه الحقيقي، ولا حتّى عنوانه.
قبل انتقال كلّ منّا إلى فرقة أخرى من قوّات البيشمركة، كُنّا أثناء تجوال قوّتنا بين القرى، نُصرّ على أن نسير معاً. فقد كُنّا نسير تفصل بين كلّ اثنين مسافة، وذلك لتفادي الخسائر أثناء مباغتتنا بكمين أو حتّى مفاجأتنا من قبل طائرات مروحيّة أثناء السير. لم تبق مسألة لم نسردها بعضنا لبعض، إلا اسمه الذي لم أسأله عنه قط. كانت بعض الأغاني تفصل أحاديثنا، وكانت أغنية واحدة هي سيدة الأغاني التي كانت طاغية الحضور أثناء كلّ جولة غناء كانت تتخلّل جولاتنا، ونحن نسير بين القرى حاملين أسلحتنا.
بعد إنهاء السيطرة على كلّ الأهداف المحدّدة في معركة ملحمة التحرير الكبيرة بيومين، وبينما نحن نتّخذ الاستعدادات لصدّ الهجمات المحتملة للجيش التي تستهدف استعادة المناطق الاستراتيجية المحرّرة من قبلنا، تمكّنتُ، عن طريق جهاز اللاسلكيّ، من التحدّث مع آوات والاتفاق معه على موعد. لم يكن الأمر بتلك البساطة. فقد كانت وحداتنا وفرقنا المقاتلة منتشرة على طول وعرض جبهة غير مسبوقة في تاريخ الثورة. لكننا من خلال بثّ أخبار المعارك عن طريق محطة إذاعة الثورة، كُنّا نعرف أيّ وحدة أو فرقة تولّت تحرير أيّ منطقة، وتتمركز فيها للدفاع عنها.
وأخيراً التقينا، كان لقاءً فريداً في كلّ شيء. حين تمّ لنا ذلك اللقاء، لم يكن يخطر على بال أحدنا أنّه قد يكون اللقاء الأخير، إذ إن حجم الانتصار الذي كان قد أدخلنا في حالة نشوة، نستطيع معها رؤية النصر النهائي، على بُعد عدّة أسابيع، أو مجرّد أشهر قليلة لا أكثر، حوّلنا إلى كائنات لا تعرف للموت معنى، أو حتّى مجرّد الذكر. كان انتظار آوات يفوق انتظاراتنا جميعاً، فعلاوة على انتظارنا سقوط النظام، وتحرير المدن وإعلان النصر، كان آوات يتطلّع إلى اللقاء بأهله الذين لا يعرفون عنه شيئاً منذ سنوات طويلة.
حدث اللقاء على نبع ماء، عند منتصف الجبل الذي يمرّ بقربه الطريق العسكري الذي سيطرنا عليه في الملحمة الأخيرة. لم يكن الوقت ليكفينا، فكُنّا ننتقل بين المواضيع والأحاديث بسرعة دون أن نُكمل منها موضوعاً واحداً، إذ إن الوقت كان ضيّقاً جداً، والأحاديث والأحلام وسع الكون بأكمله. سألني عنها بصورة فجائيّة، والابتسامة العذبة تملأ وجهه صدقاً وحبّاً. نزل عليّ سؤاله المفاجئ، وأصابني بحالة من الارتباك، لم أستطع معها سوى أن أمُدّ يدي في جيبي لأخرج منه الرسالة.. وسلّمتُها له دون أن أتفوّه بكلمة واحدة، وأسندتُ ظهري إلى الصخرة الكبيرة التي كنت أجلس بجانبها.
حتّى القصف المدفعي المتقطّع، والظهور المتكرّر للطائرات المروحيّة العسكريّة، لم يستطع كلّ ذلك أن يخرجنا من الجوّ الحميميّ الذي سيطر علينا وعلى الطريق العسكريّ، والنبع الجاري برقّة وعذوبة بمائه البارد الرقراق. ما إن أنهى قراءة الرسالة، حتّى نظر إليّ وقد تغيّرت ملامحه تماماً، وفقدت ابتسامتها، وغطّاها نوع من التعبير الذي لم أره من قبل، ولم أتمكّن من فهمه بعد ذلك. رمقني بتلك النظرة التي أصابتني بالذعر نتيجة عدم فهمي لها، وسألني بصوت أصبح فجأةً أكثر ميلاً إلى البحّة: منذ متى وأنت تحمل هذه الرسالة في جيبك؟
أجبته بصوت مخنوق: ألا ترى التاريخ الذي كُتبت فيه؟
حينها أجابني بعصبيّة: لستُ بأعمى، ولقد قرأتُ التاريخ. سؤالي هو، منذ متى وأنت تحملها في جيبك؟ متى وصلت إليك تحديداً؟

أجبته دون أن أنظر في عينيه: وصلتني بعد ما يقارب الشهر من كتابتها... لماذا؟
جنّ جنونه، وصاح بعصبيّة كبيرة: أتعني أنك تحمل في جيبك كلّ هذا الكمّ الكبير من الإهانات والتفاهات، منذ أشهر؟ كيف سمحت لك كرامتك وكبرياؤك الثوري بتحمّل كلّ هذا القدر من الإهانة؟ كم مرّة قلتُ لك إنّها لا تستحق رجلاً مثلك؟
ومزّق الرسالة بعصبيّة قائلاً: إن كنتَ لا تعرف قدر نفسك، وتقبل تحمّل كلّ هذه الإهانات، فأنا لن أقبلها أبداً، ولك أن تفعل بي ما تشاء.
كانت تلك هي الرسالة ما قبل الأخيرة، وكانت هي الخبر الأخير الذي وصلني منها آنذاك. كانت أشبه بالتعويذة التي يجب ألّا يراها أحد. وكان الهاجس الذي يُسيطر عليّ مع بداية كلّ معركة وفي أثنائها، هو كيف سيتسنّى لي تمزيقها قبل استشهادي؟ وذلك للحيلولة دون وقوعها بيد الجيش، أو أحد أفراد الجحوش، أو حتّى أحد رفاقي الذين كانوا يجهلون تماماً قصّتي معها. وصلتني بعد انتظار خرافيّ، كجواب على رسالة، تركتها لها في المدينة التي تسلّلت إليها ليلاً في مجازفة جنونيّة منقطعة النظير، لكي ألقاها بعد الغياب الطويل الذي تلى التحاقي بالثورة... لكنّها رفضت المجيء للقائي كما أخبروني حينها.
جاءت الرسالة بعد أن أوصلني انتظارها إلى حالة الإنهاك التامّ. كنتُ أتخيّل باستمرار، كيف يُمكن أن يكون ردّها على رسالتي تلك. تخيّلته بكلّ الألوان والنبرات الرقيقة المليئة بالعشق والاحتراق شوقاً، لكنّني لم أتخيّله على تلك الدرجة من القساوة واللا أباليّة ولو لمرّة واحدة. كنتُ أمنّي النفس بردّ حميميّ مغرق في الحبّ والأشواق والاستعجال للقائنا الأبديّ الذي سيجمعنا بعد سنوات الفراق. وكان الإحساس الوحيد الذي يُعكّر صفو خيالاتي تلك ويُصيبني بالرعب، هو احتمال عدم ردّها على رسالتي. وصلت كميّة الإهانة التي كانت تحملها الرسالة إلى أقصى مداها، إذ طلبت منّي فيها نسيان كلّ شيء، وقالت إنّني منذ التحاقي بالثورة أصبحتُ في حكم المنتهي في حياتها وإنّها بدأت حياة جديدة. وأنهت ردّها برجاء عدم التعرّض لها مجدّداً والكفّ عن محاولات إزعاجها والاتصال بها إلى الأبد.
لم يكن آوات يعلم بأنّه هو الشخص الوحيد على الأرض الذي ليس بإمكاني أن أفعل به ما أشاء، ومهما فعل، فما بالك بتمزيقه لرسالتها التي بقيتُ أحملها كلّ تلك المدّة وأقرأها في اليوم عدّة مرّات. كان الغريب في الأمر هو أنّني لم أنفعل إثر تمزيقه للرسالة. بل دخلتُ في حالة ارتخاء عجيبة شعرتُ معها كأنّني فقدتُ الاتجاهات. فجأةً.. وكأنّ التعويذة فقدت سحرها إلى الأبد ومعها فقدت اشتياقي لمعشر النساء بأكمله، ما عدا أمّي التي بقيت خارج كلّ معايير البشر... وأخيراً، حين رآني صامتاً مُركّزاً نظري على الماء المنساب بهدوء من النبع الذي يقع خلفنا، بادرني هذه المرّة برقّة: لمَ أنت صامت هكذا؟ هل آلمتُك بتمزيق تلك الرسالة؟ ثمّ استدرك «جاوبني»، فنظرتُ إليه مُتمسّكاً بصمتي، فانهال على الموقف يبتسم بقلق بادٍ، بسيّدة الأغاني: «جاوبني تدري الوكت بوكاته غفلاوي... موش أنت نبعة عشك بالحسن متغاوي».
لم يُطل آوات في كلامه، ولم ينزل عليّ بمحاضرة طويلة عريضة يستعرض فيها خبراته في الحياة والنساء. كلّ ما قاله، هو «أنّني مثقل بمسؤوليّات أكبر، وأنّ رجلاً مثلي، يجب أن يستنكف عن التعامل مع مثل هذه الكائنات المغرقة في التفاهة» كما قال يومها على ذلك النبع الذي جمعنا في لقاء غريب. بعد حديث الرسالة، لم يطل لقاؤنا كثيراً، فقد حان وقت الرحيل وكان على كلّ منّا

العودة إلى ثكنته ورفاقه. عانقني بقوّة كأنّه يريد أن يعتذر عن تمزيقه الرسالة. لكنّني مازحته قائلاً: ما بك تحضنني وكأنّك لن تراني مجدّداً؟ أعدك بأنّني لن أموت، فلا تخف يا صديقي.
أجابني بلهجة صارمة تُسيطر على ملامحه وابتسامته التي أعادت إلى وجهه نضارته وصفاءه: من الذي تحدّث عن الموت؟ أؤكّد لك أنّنا سنلتقي قريباً في بغداد، لكنّني أنوي تركها لأستقرّ معكم في كردستان. فهل ستمنحونني اللجوء حينها؟ أخشى أن لا تمنحوني حتّى التأشيرة لدخولها.
أجبته دون تردّد: أنت صاحب البلد، ونحن من سنطلب منك اللجوء في كردستان حينها.
وافترقنا على عجالة حاملين أسلحتنا وأحلاماً متعجّلة كلقائنا...
غيّر هذا النصر الكثير من الأمور. فقد التحقت بعض قوّات الجحوش بصفوفنا. وبدا الوضع كأنّه بداية انهيار كبير في صفوف الحكومة. فشجّعت قيادة الثورة مسؤولي أفواج الجحوش ووحداتهم للالتحاق بصفوف الثورة التي باتت على أعتاب النصر. صاحب كلّ ذلك هيستريا النظام. فأخذ يهدم الكثير من القرى ويُجبر سكّانها على الانتقال إلى مجمّعات سكنيّة كبيرة، ما أدّى في مجموعه إلى إشعال انتفاضة الناس في بعض المدن. فبدأت تلك المدينة، التي لم تكن تعلم لحظتها بأنّها موعودة بالخنق، انتفاضتها التي وصلت إلى بعض المدن والبلدات الأخرى.
في ما بعد حين وصلتنا التقارير التي بثّتها إذاعة الثورة، علمنا بأنّ بعض الشباب قد تجمّعوا هناك وأخذوا يهتفون ببعض الشعارات السلمية ضدّ إجراءات تدمير القرى ونقل سُكّانها عنوةً إلى المجمّعات الكبيرة، وأنّ قوّات الأمن قد هاجمتهم بإطلاق الرصاص الذي أدّى إلى استشهاد أحدهم وجرح آخرين، لكنّ المُحزن حقاً كان تصرّف النظام مع الجرحى. كان الناس قد نقلوا الجرحى إلى مستشفى المدينة الحكومي، وأثناء معالجتهم من قبل الأطبّاء وطاقم المستشفى، دهمت قوّة أمنيّة المستشفى وأخذت جميع الجرحى إلى مكان بعيد في العراء خارج المدينة، وقتلتهم ودفنتهم في قبر جماعي هناك. لم تكن هذه هي الانتفاضة الأولى على مرّ سنوات الثورة، ولا كانت هي الأخيرة كذلك.
كانت سنةً تشي بقرب الانتصار في كلّ شيء. كانت سنة متميّزة بحقّ، كان كلّ شيء محمّلاً بعلامات النصر النهائي القريب، لم تبدُ ولو لحظة واحدة علامة من علامات النصر تلك وهماً. بالتزامن مع كلّ هذه الانتصارات العسكرية الكبيرة، وارتفاع معنويّات الناس حتّى في المدن، بدا أنّ ما تغيّر ليس توازن القوى العسكري أو السياسي فحسب، بل إنّ أحد أعداد الصحيفة الشهريّة الناطقة باسم الثورة، نشرت ذلك العام تقريراً موثّقاً يؤكّد أنّ عناوين الكتب من سياسيّة إلى روايات مكتوبة ومترجمة ودواوين أشعار، وكذلك المجلّات والمطبوعات الصادرة من مطابع الثورة البدائيّة، قد فاقت بكثير كلّ ما صدر من مطبوعات كرديّة في كلّ مدن العراق بما فيها العاصمة...
وقد تميّزت فرقة الشهيد كارزان الموسيقيّة في ذلك العام حين أصدرت ألبومها من الأغاني والأناشيد الثوريّة التي كان بثُّ احداها قبل بدء فترة بث راديو الثورة كافياً لكي يبشّر المستمعين بأنّها تحمل خبراً عن ملحمة جديدة لقوّاتنا.
بالتزامن مع كلّ هذه الأحداث، بدأ الجيش وقوّات كبيرة من الجحوش هجماته المستمرّة مستخدماً فيها أقصى ما لديه من طاقة وأسلحة، حتّى العجيبة منها. فكانت تلك هي المرّة الأولى التي أشاهد فيها قذيفة مدفع تسقط على الأرض ولا تُصدر صوت انفجار عند ارتطامها بالأرض.
لم يطل أمد الهجمات هذه المرّة لأكثر من شهر، فقد قرّرت القيادة الانسحاب من بعض المناطق مبقيةً السيطرة على كلّ المناطق التي كنّا قد خسرناها في الشتاء الذي سبق تلك المعارك. فقد كانت

الخطّة الاستراتيجيّة المعلَنة للقيادة، هي عودة قوّاتنا إلى مناطقها الأصليّة والعمل على إشعال وإنجاح انتفاضة المدن ثمّ تحريرها نهائيّاً.
وصل بي التهوّر إلى أن أعود إلى مدينتنا مصحوباً باثنين فقط من رفاقي. كُنّا مختبئين في بيت أحد الرفاق الذين كانوا يعملون معنا في الخفاء، والتقيت بمجموعات من الرفاق الآخرين الذين شجّعتهم على الاتصال بمن يثقون بهم في البداية لكي نشعل الانتفاضة، لكنّ أحد الرفاق المسؤولين داخل المدينة وقف بقوّة ضدّ الفكرة، قائلاً: كيف لك أن تُشعل انتفاضة في هذه المنطقة المستوية البعيدة عن الجبال وعن قوّاتنا؟ إنّ النظام لن يتوانى عن قتل كلّ من فيها. فمن يتحمّل حينها مسؤوليّة مغامرة كهذه؟
وامتلأت الشوارع بالناس الذين يتقافزون، وامتلأت شاشات التلفزة بصور ومشاهد الحشود الضخمة وهي تنزل إلى الميادين والساحات العامة.. تحمل صوراً لشخص واحد في أوضاع وهيئات مختلفة.

27

«وشغلي الشاغل هو عشقه فقط، وهذا العشق ليس في مقدور كلّ إنسان».
فريد الدين العطّار

عندما أفقتُ على صوت الطرقات القويّة، حسبتُها لأوّل وهلة إطلاق الرصاص الذي يُعلِن دخولي على فاطمة يوم زفافنا، لكن.. حين فتحتُ عينيّ وتعرّفتُ إلى صوت الشيخة الأم، وفتحتُ الباب وأنا أدعوها للدخول.. وما إن جلست على طرف السرير الحديدي الموجود في الفناء، لم تدّخر وقتاً ولا جهداً، ودون أيّ مقدّمات قالت بنبرة حادّة: اسمع يا ولدي، أنت طلبت يد ابنتنا من ولدي الشيخ حسن، وها أنا جئتك لأخبرك برفضنا النهائي لطلبك. فأرجو ألّا تكرّر محاولتك لأنّ ما تطلبه مستحيل.

أجبتها وأنا خائف وأستميتُ في تهدئتها قدر الإمكان: وماذا فعلت أنا؟ هل أخطأتُ في شيء لا سمح الله؟

قاطعتني بحدّة وعصبيّة وبصوت أعلى هذه المرّة: نعم أخطأت، كيف وصلت بك الجرأة لتطلب يد ابنة الشيخ، وأنت من طبقة المساكين؟

أجبتها هذه المرّة وأنا أحاول أن أمنع نفسي من التهوّر والتفوّه بكلمة أو عبارة تُخرّب عليّ الأمر برمّته: أنا لم أخطئ ولم أرتكب جُرماً. أنتم لديكم صبيّة، ومن حق أيّ شخص أن يتقدّم لها. ولكم أن تقبلوا أو ترفضوا. ثمّ أنت تشرّفين بيتي للمرّة الأولى، اسمحي لي لحظة أعدُّ لك شاياً... اعذريني فدخولك العصبيّ المفاجئ أنساني تقديم واجب الضيافة.

ردّت بحدّة أكبر هذه المرّة: أنا لستُ ضيفة ولن أشرب شيئاً، أنا جئتُ أحذّرك. لن أقبل أن تتقدّم للزواج بابنتي مرّة أخرى.

وخرجت بعصبية حتّى من دون أن تسمح لي بمرافقتها إلى الباب. وقعتُ على الأرض مُنهاراً، وظهري مسند إلى الجدار الطينيّ. كان أقسى انهيار لي في حياتي. أفقتُ من النوم على صوت حماتي، وأنا غارق في حلم زفافي أنا وفاطمة، لأصحو على رفض أمّها القاطع والنهائيّ. يا للسخرية... ها هي تمارس دور الحماة بإتقان، حتّى قبل زواجي بابنتها. أحسستُ بتعب غير مسبوق كأنّني سرتُ على قدميّ لمدّة عام أو أكثر دون توقّف. لم أتمالك نفسي، بالكاد وبشقّ الأنفس، تمكّنت من دخول البيت واستلقيتُ على ظهري منهاراً من الإعياء وعيناي مذهولتان على منظر عوارض السقف الخشبية التي بدأتُ بعدّها دون نتيجة. ودخلتُ في كوابيس مفزعة لم أصحُ منها إلّا على صوت قريبة أمّي وهي تدعوني لزيارة بيتها للقاء عاجل طلبته فاطمة.

وانتشر الخبر بسرعة غير مسبوقة. انتشر خبر طلبي الزواج من فاطمة من إذاعة مونت كارلو، كما كان الأهالي يسمّونه. انتشر بين نسوة القرية أولاً، ومن نبع الماء الرئيس الذي كانت النسوة يجلبن منه الماء للاستخدام المنزلي. ثمّ أصبح حديث مجالس الرجال في القرية والقرى المجاورة بسرعة. في ما بعد، علمتُ بأن امرأة كانت قد سمعت حوارنا أنا والشيخة يوم جاءت تحذّرني من التقدّم للزواج بابنتها. فكان أصدقائي يسألونني عن مدى صحّة الخبر لكنّني كنت أنفي بكلّ ما أوتيت من قوّة، ما خلق حالةً من الغموض والارتباك لدى الجميع.

وانقسم الناس قسمين، فأهالي القرية ومريدو الشيخ المخلصون منهم، كانوا يستنكرون الخبر: «كيف يتجرّأ غريب من طبقة المساكين ويتقدّم للزواج بابنة شيخنا صاحب الكرامات؟ ألا يخشى

على نفسه من غضب الشيخ؟». ومنهم من كان يتعاطف معي ويحاجج بأنّ على الشيخ أن يوافق وهو ممتنّ: «فآتيلا رجل تقيّ، وطبيب الجميع، ثم إنّ كلّاً منهما يحب الآخر، وحرام أن يمنعهما من الزواج». وبين هذا وذاك، حيكت العشرات من الحكايات والإشاعات. ويبدو أنّ إنكار الخبر من طرفي أنا، وعدم بوح الشيخ بمحاولة كاكه حمه سي خراني، والتكتُّم على تقدّمي للزواج بابنته، قد خلق حالة يصعب معها تأكيد الخبر أو نفيه.. ما أشعل سوق الجدل أكثر فأكثر.

أصبحت حياتي جحيماً بكلّ معنى الكلمة، فالكلّ يسألني عن حبّ أتوق إلى البوح به للعالم كلّه، لكنّني محكوم بالتكتّم الخانق عليه وإنكاره بالكامل. وصارت إمكانية لقاءاتي بفاطمة أصعب بكثير، لكنّنا مع ذلك لم نقطع اللقاءات نهائيّاً... إلّا أن لقاءاتنا في تلك المرحلة كانت مليئة بالدموع وفراقنا تملأه الكوابيس المرعبة. لم نكن نعرف ماذا نفعل، لكنّ الشيء الوحيد الذي كُنّا متيقّنين منه نحن الاثنين هو أنّ قرارنا وخيارنا الوحيد كان واضحاً جداً، وهو أنّنا تعاهدنا على أن يكون كلّ منّا للآخر أو للتراب.

كانت تسألني وهي تبكي بحرقة: ألم أقُل لك إنّ هؤلاء الكفرة ليس لديهم قلب حتّى يرقّ، وإنّهم لن يسمحوا بزواجنا أبداً؟

لم يكن بيدي شيء أفعله سوى أن أواسيها وأن أحترق يأساً أكثر منها، وأؤكّد لها أنّني سأبقى وفيّاً لعهدي حتّى لو انهارت الدنيا وأصبح العالم على شفير النهاية. لكنّها كانت في وضع تصعب معه أيّ مواساة... وبالرغم من وضعها المأساويّ، كانت تؤكّد في كلّ مرة أنّها ليست خائفة على نفسها، وأنّ بإمكانها تحمّل كلّ ضغوط أهلها، بل هي تخاف عليّ من ظلمهم وبطشهم قائلةً: أمّي تكرهك بشدّة، وتدعو عليك ليل نهار، خصوصاً عندما تسمعك وأنت ترفع الأذان مع حلول مواعيد الصلاة، وتهاجمك بأسوأ الشتائم.

يا لفاطمة وقلبها الكبير، فبالرغم من كلّ الآلام التي تعانيها، هي قلقة وخائفة عليّ أنا، لا على نفسها ومصيرها المظلم معي. إنّها تتحمّل المرّ في حياتها، ومع ذلك، فكلّ خوفها منصبّ عليّ وعلى صحّتي وحياتي المهدّدة من دعوات أمّها الخطيرة. فبعد انتشار الخبر، بدأت عائلة الشيخ وخصوصاً الشيخة الكبيرة، باضطهاد فاطمة والضغط عليها وخنق تحرّكاتها. أمّا الشيخ وأبناؤه، فلم يغيّروا من سلوكهم تجاهي حتّى إنّني بقيتُ مُستمرّاً في التردّد على تكيّة الشيخ ومجالسه وصلواته.

أخيراً، حدث ما لم يكن في الحسبان أبداً، فازدحام تكيّة الشيخ بالرجال الغرباء هذه المرّة ليس ككلّ المرّات. فقد جاء هذا الجمع من الرجال من إحدى القرى البعيدة التي تقع عند سفح ذلك الجبل البعيد الذي بالكاد يُظهر لنا قمّته بعناد. جاؤوا من دون مرافقة نساء أو أطفال أو مرضى، ما يعني أن زيارتهم ليست للأسباب الشائعة ذاتها. وكعادتي، هرعتُ إلى تكيّة الشيخ لأعرف ما يدور. كان يرافق الشيوخ الضيوف رجلٌ من معارفي، كان قد ترك المدينة ولجأ إلى تلك القرية البعيدة الحصينة تلك هرباً من الحرب، وكان اسمه عبد الكريم، فاستأذنتُ الشيخ بأن يسمح لي باستضافته.

– هل صحيح ما نسمعه من إشاعات عن علاقتك بابنة الشيخ؟ سألني عبد الكريم.

حاولتُ أن أنكر بكلّ السبل.. وسألته عن سبب زيارتهم التي كانت ترعبني. فلم يتردّد في الجواب: نحن جئنا لخطبة فاطمة للشيخ محمد، الابن البكر للشيخ صالح، الذي أويت إليه مع عائلتي بعد هروبي من صفوف الجيش...

كان وقع الخبر عليّ خطيراً إلى درجة أنّني أحسستُ بسوء وضعي من ردّة فعل عبد الكريم وملامح وجهه التي ملأها القلق. وبدأ يلحّ عليّ مرّة أخرى في السؤال عن مدى صحّة تلك الإشاعات: إذن، هي صحيحة، كما يقولون؟ لا تخف يا صديقي، إن كانت تحبّك حقاً فلن تقبل بالزواج بالشيخ، وإن قبلت بالزواج به فإنّك تكون قد تخلّصت منها ومن همّها.
آلمني كلامه بقوّة، فقلت له بعصبيّة: كيف أتخلّصُ منها وهي روحي؟ أنا لن أعيش من دونها ولو للحظة واحدة. ثمّ ما كلّ هذه الثقة التي أنت فيها؟ منذ متى كان لرأي الفتاة قيمة عند الزواج؟ لقد انتهى كلّ شيء، فإذا تقدّم ابن شيخ للزواج بابنة شيخ، فسيوافقون لا محالة. فهُم لا يزوّجون بناتهم سوى للشيوخ، خصوصاً أن الشيخ أصبح يخاف على ابنته. فهو من طرف، يريد تزويجها قبل أن يفوتها العمر، ومن طرف آخر، هذه هي فرصتهم الذهبية ليتخلّصوا منّي نهائيّاً.
أصبح لزاماً عليّ أن أخطر فاطمة بالأمر، فخرجتُ أنظر إلى البيت والتكيّة لعلّي أراها.. لكن دون فائدة. وعدتُ إلى عبد الكريم بعد أن شربنا الشاي، خرجتُ من جديد ورأيتها تقف في الفناء قرب باب التكيّة، فذهبت إليها حاملاً حبلاً. وما إن اقتربتُ منها، حتى خاطبتها بصوت عالٍ: هذا الحبل لكم، جئت أعيده إليكم مع شكري الجزيل، ثمّ قلت لها بصوت خفيض وبعجالة: هؤلاء الضيوف جاؤوا خطّابة يطلبون يدك، فاحذري أرجوك.
تسمّرت في مكانها، اكفهرّ وجهها العذب، لم تستطع أن تنبس ولو بكلمة واحدة، وتسلّمت الحبل منّي واستدارت، فتركتها وعدت إلى عبد الكريم في بيتي.
بعد العشاء توجّهنا إلى التكيّة، وجلستُ بعيداً كما نصحني عبد الكريم الذي جلس قريباً من الشيوخ الضيوف. طال الليل ولم يُطرح الموضوع علناً في التكيّة. قام الشيخ من مجلسه مستأذناً الضيوف للذهاب إلى بيته. قُمنا جميعاً احتراماً له ثمّ جلسنا ننتظر عودته. دخل المجلس في صمت في البداية، ثم دخل الحاضرون في أحاديث كانت جانبيّة أحياناً، ويُمسك بدفة الحديث أحد الأشخاص ويسترعي انتباه البقيّة لسماعه أحياناً أخرى. طالت الأحاديث وتعدّدت والشيخ لا يزال في بيته لم يعد إلى مجلس الرجال في التكيّة.
قارب الوقت منتصف الليل وبدا على الرجال التعب الشديد، ما دفع بعضهم إلى مغادرة التكيّة عائداً إلى بيته، فطلب منّي عبد الكريم أن أغادر أيضاً، إذ لم يبق سواي أنا والضيوف. فطلبتُ منه أن يرافقني لينام عندي، فرافقني إلى الباب قائلاً بصوت عالٍ: أنا سأبقى هنا مع الشيوخ. وعند خروجنا أخبرني بأنّه يريد البقاء ليعرف الخبر اليقين ويأتيني به في الصباح.
لا أعرف كيف قطعت المسافة القصيرة بين تكيّة الشيخ وبيتي؟ وما إن وصلت، حتّى دهمني خليط من الأفكار والمشاعر التي لم أستطع أن أميّز منها شيئاً. كنتُ مُصاباً بالرعب، غير قادر حتّى على تخيّل إمكانية موافقة الشيخ وزواج فاطمة بغيري. كانت واحدة من أطول وأصعب الليالي التي عشتها. ما هوّن عليّ كلّ تلك الأهوال، لم يكن سوى موقف الشيخ حسين الهزار كاني الصادق الشهم.
كان الشيخ حسين من كبار شيوخ عائلة وأقارب الشيخ كاكه حمه، وكان رجلاً مهيباً محترماً لدى الجميع، بمن فيهم قيادات الثورة وحتّى رجال الدولة على حدّ سواء. لا تُرَدّ له كلمة. كان الضيوف، كما أخبرني عبد الكريم عصر ذلك اليوم، قد نزلوا في الليلة التي سبقت زيارتهم لتكيّة الشيخ كاكه حمه ضيوفاً على الشيخ حسين في قريته الحلوة النضرة المسمّاة هزار كاني.. وهي حقّاً اسم على مسمّى، قطعة من الجنّة التي أقرأ عنها في كتاب الله.

هزار كاني اسم قريته، وهو يعني الألف نبع، ويبدو أنّها سُميّت كذلك لكثرة ينابيعها المتدفّقة باستمرار، وفي رقّة عجيبة تملأ المنطقة خريراً واخضراراً وكأنّها قطعة غريبة نزلت من السماء لتستقرّ في هذه المنطقة الجرداء. كان الشيخ حسين يسكنها مع عائلته وبعض الأهالي. كنتُ قد ذهبتُ إليه من قبل، وكان ذلك بعد فترة من رفض الشيخ لمحاولتَيْ كاكه حمه سي خراني وابنه الشيخ حسن. وتوسّلتُ إليه أن يتوسّط لي لدى الشيخ وأن يُرافقني لخطبتها، لكنّه أجابني بمنتهى الرقّة: والله يا بُنيّ، لو كان الأمر بيدي، لجئتك بها إلى بيتك بالثياب التي عليها، ولكن.. لا أظنّ أنّهم سيوافقون.

ألححتُ عليه طيلة المساء الذي كنت ضيفاً عليه، لكنّه قال لي في النهاية بلهجة متيقّنة: أنت لا تعرف هؤلاء وتخلّفهم، إنّهم أقاربي وأنا أدرى بما في عقولهم ونفوسهم، إنّهم لا يلتزمون شرع الله، وبالتأكيد سيعيبون عليّ الخروج عن تقاليد آبائنا وأجدادنا وسيرفضون وساطتي، عندها سندخل في مشكلة وخصام. فأرجو أن تعذرني يا ولدي.

في اليوم التالي، وأنا أغادر جنّة الشيخ حسين ذات الألف عين.. رجوته بطلب أخير قائلاً: يا شيخ، أنا أقدّر صدقك وشاكرٌ لك ولكرم ضيافتك، لكنّ طلبي الأخير هو أنّني أعود لأقول لك إنّني أقدّر حرج مُرافقتك لي وتعقيداته، لكنّني أترجّاك ألّا ترافق أيّ شخص آخر لزيارة الشيخ والتوسّط لديه للموافقة على زواج ابنته بغيري.

عانقني بصميميّة، لم أشعر بها منذ مدّة طويلة، ووعدني بأنّه لن يفعل ذلك حتّى إذا طلب منه ابنه مرافقته للزواج بفاطمة.

يااااااه!

يا للشيخ حسين وكرمه ورقّته وصدقه. فها هو يصدق وعده ويرفض مرافقة ضيوف الشيخ الذين نزلوا ضيوفاً على تكيّته لليلة واحدة، يترجّونه مرافقتهم لزيارة الشيخ كاكه حمه. ها هو يرفض طلب أقاربه الشيوخ إكراماً لي، ولوعد قطعه أمامي... كان صدقه هو الشيء الوحيد الذي هوّن عليّ أهوال تلك الليلة التي لم أتمكّن فيها من النوم لحظة واحدة.

يا إلهي!

يا أيها الجبّار المهيمن القاسي!

يا إله القسوة العمياء، كيف طاوعك قلبك وقَبِلت بموت البشر والزرع؟ كيف طاوعك قلبك على السماح بدمار جنّة الشيخ حسين؟ كيف لك أن تسمح بدمار أرض تحتضن بقوّة جنّة الشيخ حسين ذات الألف عين؟ ألم يكن موقف الشيخ حسين الأخير في حياته، الذي أجزم بأنّه فاق فيه شجاعة وإيمان وإيثار سيّدنا إسماعيل، كافياً لتمنحه وتمنح كلّ من معه شفاعتك وعفوك؟

لم يعد يجديني.. حتّى شُرب جميع بحور العالم من الخمر. بعدما جازيتَ يا إلهي ذلك الموقف الفريد من قبل الشيخ حسين، بكلّ تلك الكميّة اللانهائيّة من اللا أبالاة، لم تعد هناك درجة إثم أو عصيان يمكن أن تروي غليل من ترك كلّ المعاصي وتفرّغ لرضاك... فماذا أكون أنا بجانب الشيخ حسين الذي كانت حياته كلّها ملحمة من الإيمان والتقوى والإيثار والكرم والشهامة، وكان موته ملحمة أعلى وأرقى من ذلك بكثير؟

أمّا الآن.. فلكي أكفر بك، لا تكفيني كلّ خمور الأرض والسماء، لذا لن أشرب هذه الكأس البائسة وقطرة العرق المستكينة ببؤس وهي تملأ القنينة المسكينة التي لن تُسكر حشرة من حشراتك

المُضرّة. فاعذرني يا ربّي، أنا لن أشرب الخمر فحسب هذه المرّة، بل سأبحث عن معاصٍ وآثام لم تخطر على بال.

28

«وإن كنت تدّعي العزم على خوض هذا الميدان، فعليك أن تُسلّم رأسك للريح».
فريد الدين العطّار

وأخيراً.. ها هو يتجرّعها..
ويُعلن ذلك على الملأ ليصبح حديث العالم كلّه...
وها هم الناس ينزلون إلى الشوارع وهم يحملون صور الشيطان، الذي كان يحلو لأبي تسميته هكذا، كانت جلّها صوره هو، في هيئات وأوضاع مختلفة.
وأخيراً... وبعد ثماني سنوات من الحرب، أعلن الإمام أنّه يتجرّع كأس السمّ ويقبل بوقف الحرب. رافقت صدمة قبول الإمام تجرّع كأس السُّم الشهيرة تلك، تجمّعات ومسيرات حاشدة ملأت الساحات والميادين والشوارع، احتفالاً بما سُمّي وقتها يوم النصر العظيم. يومها، كانت الجولة الأخيرة من المعارك الأشدّ قسوة بيننا وبين الجيش، التي كانت تبدأ بنصّ الآية «ويسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول»، قد بدأت منذ أكثر من ستّة أشهر، أي بعد أن جاء أبي في زيارته الأخيرة التي كان قلقاً فيها عليّ وعلى الثورة بما يقارب الشهر، والتي جاءت كذلك بعد كلّ المشاكل التي كادت تودي بحياتي على أيدي رفاقي، متّهَماً بشتّى التهم التي لا تخطر على بال.
في ذلك النهار الصيفيّ الذي أعلن فيه الإمام تجرّعه كأس السمّ، أصابت الصدمة الكثير منّا بحالة من البلاهة وحصار فظيع من الأسئلة الكابوسيّة التي تستحضر جميع انكسارات ثوراتنا عبر التاريخ. أسئلة.. أسئلة.. أسئلة، ولا جواب البتّة، أو أنّ الإجابات المخيفة كانت تستعصي على الذكر، أو حتّى مجرّد الاعتراف والقبول بها، ولو في سرّنا. فهل كان ما يحدث مُدبّراً فعلاً منذ أشهر، ما دفع النظام إلى حشد كلّ قدراته وأسلحته لإبادتنا بالكامل؟ ولماذا لم يخطر على بال قياداتنا، ولم يتهيّأ له بما فيه الكفاية؟ إلّا أنّ السؤال الأصعب والخانق الذي كان يبدو بوضوح على وجوه الجميع، ولا أحد يجرؤ على الجهر به هو: هل هي الكارثة من جديد؟ هل هي نهاية الثورة مرّة أخرى؟ ومتى سيظهر الزعيم ليعلن نهاية هذه الثورة أيضاً؟
كانت الجولة الأخيرة من المعارك هي الأشدّ والأقسى على مرّ تاريخ ثوراتنا، لا بل وحتّى ما شهدته المنطقة كلّها. بدأت في أواسط ذلك الشتاء الذي تلى الربيع الساخن الذي كُنّا فيه على أعتاب النصر النهائي واستمرّت لعدّة أشهر.. وعلى مراحل عدة، كانت كلّ مرحلة منها تتّخذ نفس الاسم، «الأنفال»، مُضافاً إليها العدد بالتتابع، وتبدأ بنصّ الآية ذاتها «ويسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول». عندما أعلن الإمام تجرّعه كأس السمّ، كانت أغلب مراحل الحرب الشاملة التي أعلنها الرئيس علينا بغرض الإبادة الكاملة، ليس فقط لقوّات الثورة فحسب بل بغرض إبادة الكُرد نهائيّاً، قد انتهت. وكان قد سوّى جميع القرى في تلك المناطق الشاسعة بالأرض.. وأخذ جميع سكّانها عنوةً في سيّارات كبيرة، بعد فصل الرجال عن النساء، إلى المجهول الذي كانت ولا تزال تلفّه عشرات الحكايات المرعبة.
كيف لم ندرك كلّ تلك الإشارات الواضحة؟ هل كانت حُمّى النصر ونشوته مُخدِّرة إلى تلك الدرجة التي أعجزتنا عن رؤية كلّ تلك الدلالات والإشارات الواضحة على قرب وقوع الكارثة؟ فمنذ أكثر من عام، وقبيل ملحمة التحرير وانتفاضة بعض المدن، خوّل الرئيس الصلاحيّات المطلقة لابن عمّه المُكنّى سابقاً بالعريف، لإخماد ثورتنا وإبادة شعبنا بالكامل. وقد بدأ حينها بإصدار جملة

قرارات واضحة منها: اعتبار كلّ مدنيّ يقطن خارج سلطة الدولة خائناً عميلاً تنطبق عليه عقوبة الموت في الحال. ومنها أيضاً: أنّه مُنع كلّ سكّان القرى والمناطق المحرّرة، التي أطلق عليها بصورة رسميّة المناطق المحرّمة، من التسجيل في التعداد السكاني العام الذي أجري في ذلك الصيف، وعُدّ كلّ من لم يُسجّل، لا وجود له أصلاً، كذلك فرض حصاراً قاسياً على كلّ تلك المناطق. لكنّ أخطر قرارته وإجراءاته كان إحراق الكثير من القرى ونقل أهاليها إلى مجمّعات سكنيّة كبيرة بُنيت خصّيصاً لهذا الغرض وتخضع لسلطة الأجهزة الأمنيّة ورقابتها الشديدة، يا إلهي! كيف لم ندرك تداعيات كلّ تلك الإجراءات الخطيرة في حينه؟ وهل نشوة الانتصار القريب غيّبتنا إلى تلك الدرجة الكارثيّة؟ أم هي المؤامرة من جديد؟ فكلّما أصبحنا على أعتاب النصر، تدخّلت قوى من خارج إرادتنا وأنهت بسرعة البرق كلّ إنجازاتنا ومكاسبنا، وضربت بتضحياتنا المنقطعة النظير في صفر القسوة القاتلة!

في أواسط ذلك الشتاء القاسي، وبعد زيارة أبي الأخيرة بأسبوعين، كان آتيلا قد طلب منّي أن أتحدّث مع ميران وبعض المسؤولين الآخرين، الذين يحظون بثقل واحترام كبيرين بين الأهالي، للذهاب معاً إلى الشيخ وطلب يد فاطمة. وقد وعدته بذلك وحصلتُ على موافقتهم خلال أسبوع، وحدّدنا موعداً أقصاه أسبوع ريثما يتجمّع المسؤولون من مناطقهم لنزور فيه آتيلا ونذهب من هناك إلى الشيخ. حين أخبرته بالموعد، انتفض فرحاً وكانت ردّة فعله أقرب إلى الهستيريا. فقد كان واثقاً جداً، كما أخبرني يومها، بأنّ الشيخ لا يمكن أن يرفض وساطة هؤلاء الرجال.

ها نحن من جديد، نصل وبأقصى سرعة ممكنة إلى منطقة مقارّ القيادة، إذ كانت المرحلة الأولى من أشرس الهجمات التي تحمل إسم «الأنفال» مصحوبةً بالرقم واحد قد بدأت فعلاً للسيطرة على المنطقة وإخراج القيادة منها نهائيّاً. كانت بعض قوّاتنا المقاتلة قد وصلت إلى حالة الإنهاك التامّ، خصوصاً بعد أن فقدت الكثير من أفرادها. كان عدد ضحايانا في هذه المعارك أكبر بكثير من السابق. فقد كان الجيش قد حشد أقصى ما في طاقته من جنود وأسلحة وعتاد. لقد كانت بحق المعركة الفاصلة التي كان يستخدم فيها جميع أنواع أسلحته، حتّى التي كانت تُسمّى محرّمة. حتّى كميّات الثلج الهائلة وقساوة البرد لم تمنعه، كما كان في السابق، من الاستمرار في الهجوم علينا. كانت القذائف التي تسقط على الأرض لتنفجر دون أن تُصدر صوت الانفجار المعهود، تحدث رعباً أقرب إلى الجنون.

قبل ذلك بعامين، وفي إحدى ليالي معركة المئة يوم، بينما كنتُ أقضي دوري في الحراسة الليليّة، وكان الوقت قبيل الفجر بما يقارب الساعة، كانت الريح الباردة التي تهبّ على الثلوج المتراكمة تُجمّدني حتّى النخاع. لذا قرّرت أن أغيّر المكان الذي أقف فيه وأنتقل إلى الجهة الأخرى للجدار. فبدأت أحسّ بدفء مُفاجئ بعد أن جلست مُسنداً ظهري إلى الجدار الذي كان يقيني من الريح المجمّدة. فجأة! أوصلني صوت اقتراب سقوط قذيفة مدفع إلى حالة هلع كبير.. شعرت لوهلة، أنّها ستسقط على رأسي مباشرةً.

لم أسمع في حياتي كلّها صوتاً أكثر رعباً من اقتراب سقوط قذيفة مدفع. وقد عشتُ حالة الرعب تلك مئات المرّات. فدرجة الصفير الذي يُصاحب قُرب سقوط قذيفة مدفع هي التي تُخبرك عن مدى قُرب أو بُعد المسافة التي ستسقط فيها القذيفة. ويبقى صوت الصفير الخافت من أحلى الأصوات، إذ إنه يخبرك بأنّ القذيفة الآتية ليست من نصيبك، وأنّها ستذهب بعيداً عنك. وكلّما اشتدّ الصفير وتسارع، كان ذلك إيذاناً بأنّها أقرب إليك... لكن عندما يتحوّل الصفير المتسارع إلى

زعيق وصراخ.. عندها لن تجد مفرّاً من سقوطك أشلاءً قد لا يتعرّف إلى ملامحك أحد من الرفاق.
درجة زعيق تلك القذيفة التي سقطت فجر ذلك اليوم، تجاوزت كلّ ما سبقها من رعب، حتّى تلك القذيفة التي سقطت قبل ذلك بأسبوع بجانب الجدار الترابي للملجأ البدائيّ الصغير، الذي كان سقفه لا يقي أيّ خطر، ومَلأ الملجأ بالغبار والدخان ورائحة البارود الخانقة، لم يصل في رعبه وسرعته إلى تلك القذيفة التي كانت أقرب إلى السقوط على رأسي مباشرةً فجر ذلك اليوم المتجمّد. كنتُ مُتيقّناً من أنّها ستُحيلُني أشلاءً، لكنّها صمتت فجأة! وساد سكون مخيف لعدة لحظات... لم أدرك ماذا يحدث. ثمّ غمرني ارتياح كبير بنجاتي هذه المرّة أيضاً... فهذه القذيفة التي بدت كأنّها من نصيبي لم تنفجر لسبب أجهله. في الصباح، وبعد مرور عدّة ساعات، حين عدت إلى نفس المكان، أصبت بحالة ذهول لم أفهمها ولم أتمكّن من تمييز الفرح فيها من الخوف... فقد كانت القذيفة من عيار المدفعية الثقيلة وقد انغرزت في الأرض أمام المكان الذي كنتُ جالساً فيه، مُسنداً ظهري إلى الجدار، بمسافة لا تتعدّى عدّة أمتار فقط.
غريبة هي حكايات القذائف وصفيرها، أو زعيقها وجنون انفجارها، أو حتّى صمتها. في ما مضى كان صفير أو صراخ وزعيق انفجار قذيفة يدبُّ الرعب في الأوصال، لذا لم أتصوّر يوماً أنّ هناك ما هو أكثر رعباً من صوت انفجار القذائف، إلى أن واجهنا ذلك النوع الجديد من القذائف التي بدأ الجيش يستخدمها ضدّنا منذ أشهر. حدث ذلك مع بداية ملحمة التحرير تحديداً. فأخذنا نُفضّل أن يؤدّي انفجار القذيفة التي تُصفّر أو تصرخ بسرعة متّجهة نحونا إلى إصابتنا بالصمم، على احتمال عدم إصدارها صوت الانفجار الجنونيّ المُعتاد.
في ما مضى.. كان صمت القذائف بعد الصفير أو الزعيق يصيبنا بالهلع من شدّة الفرح، بينما أصبح صمتها الآن يصيبنا بالهلع أيضاً، لكن من رعب الموت والاختناق. كانت القذيفة الصامتة تُلامس الأرض بعد صفيرها أو زعيقها المتسارع، لتصدر صوتاً مخنوقاً أقرب إلى صوت سقوط حجر صغير في بركة راكدة يعقبها صمت مرعب. فتتصاعد منه أدخنة بيضاء تملأ المكان برائحة التفّاح القاتلة. عندها فقط، أدركنا درجة الرعب التي كُنّا قد سمعنا بها عن الأسلحة الكيماوية التي كانت تنشر الموت الجماعي بصمت مخيف.. لتتوّج في ما بعد ابن عم الرئيس بلقبه الجديد، وتعفيه من كنية العريف التي كان يخجل منها، والتي لم تستطع أعلى الرتب العسكرية التي منحه إيّاها الرئيس مجّاناً إنقاذه منها، فقد توّجه موتنا الجماعيّ المجّانيّ باللقب الذي ظلّ يُميّزه بين كلّ البشر. فأصبح يُكنّى بعد ذلك بـ«علي الكيماوي». أُطلقت الكنية في البداية بطريقة عشوائيّة شعبيّة، وأصبحت في ما بعد كُنيته المتداولة، حتّى في العديد من وكالات الأنباء العالميّة.
شيئاً فشيئاً... وليلة بعد أخرى، كُنّا نفقد المزيد من مواقعنا وكذلك قوّاتنا. فجأة! انقلب كلّ شيء ضدّنا، الثلج والبرد والليل الطويل، حتّى الهواء أصبح يحمل رائحة التفّاح القاتلة، التي توزّع علينا الموت بسرعة وصمت. نخبة فيالق الجيش بكامل أسلحتها حُشدت لهذه المعركة الطويلة بمراحلها المتعاقبة، بينما نحن، أنهكت آخر وجبة من قوّاتنا التي كان عليها أن تتمسّك بكلّ طلقة لأنّها قد تكون الأخيرة. وهكذا بقينا ننتقل من خندق إلى خندق.. من تلّة إلى أخرى، من وادٍ إلى آخر.. إلى أن فقدنا آخر المواقع. وأخيراً سقطت آخر مقارّ القيادة، بعد معارك في غاية الشراسة، كُنّا نضغط فيها على كلّ زناد بمنتهى الحقد المتولّد من الإحباط واليأس والإحساس بالوحدة، في عالم تكالب علينا ببشره وثلجه وهوائه.

بدأت رحلة إخلاء المنطقة والتوجّه نحو الحدود. وها نحن مرّة أخرى، نُخلي مواقعنا مأخوذين بالصدمة، لا ندري ما الذي يحدث فعلاً؟ مرّة أخرى نقاوم الموت بكلّ أنواعه. لا تستطيع أكبر وأخطر أنواع الأسلحة والقذائف إرغامنا على ترك مواقعنا.. وعندما يفشل الجيش في إرغامنا على ترك خنادقنا، عندما يفشل في احتلالها، يبدأ باحتلال الهواء، فيحتلّ أنفاسنا ويملأها برائحة التفّاح القاتلة.. لم يكتفِ التفّاح القاسي في رائحته المميتة بنا نحن وحسب، بل أخذ يحصد في طريقه النساء والشيوخ والأطفال أيضاً. يحتلّ قراهم وبيوتهم وينابيعهم، فأخذوا يخلون المنطقة برفقتنا تاركين بيوتهم بما فيها. بدت أعمدة الدخان المتصاعدة من مقارّ القيادة وقرى المنطقة المشتعلة أشدَّ سواداً على خلفيّة بياض الثلج الذي ظلّ يحتلّ، بالرغم من كلّ سواد البارود وحمرة الدم الغزير الذي أراقه الجانبان.. جُلّ المشهد بقساوة مجنونة. ارتفعت صيحات البكاء المتداخلة بهدير المدافع والرشاشات المنطلقة بهياج، فرحاً بتمّكُنهم من احتلال أهمّ معاقلنا التي فشلوا لسنوات عدّة حتّى في الاقتراب منها.

طغت أصوات البكاء الصادرة من امرأة على بُعد عدّة أمتار، على كلّ ما عداها من هدير وأزيز. كانت تبكي بحرقة، وتصرخ بجنون تطلب طبيباً. عندما وصلنا إليها، كانت جالسة على الثلج، تتقافز في مكانها أمام بطانية صغيرة. عندما فتحناها، كانت تضّم رضيعاً تجمّد الدم في أوصاله. كان الوجه مزرقّاً جامداً لا يشي بأيّ إحساس. بينما انفجر الجميع في نوبة بكاء يائسة، حاول بعض الرجال انتزاعه منها دون جدوى، فقد احتضنته بقوّة، رافضة تركه في الثلج «كي لا يموت». وظلّ الرجال يصرخون فيها «أنّ علينا أن نُخلي المنطقة بسرعة لأنّ الجيش سيصل خلال لحظات وسيقتل الجميع». وأخيراً حفروا في الثلج حتّى الركب، وواروا الرضيع في قبر من الثلج، وغرزوا فيه حجراً كبيراً كشاهد له، وأخذوا يجرجرون المرأة وهي تنتحب بجنون رافضةً ترك رضيعها الوحيد، مُخلّفة وراءها آثار خطّين لقدميها اللتين كانتا تفقدان قوّتهما شيئاً فشيئاً، ويضعف معها عمق الخطّين المتوازيين على الثلج.

كُنّا بقايا قوات منهكة، احتفظت بما بقي من عتاد وأسلحة شخصية خفيفة، مُحمّلين بالعديد من الجرحى، مُخلّفين الكثير من رفاقنا شهداء، بالكاد تمكّنا مع بعض الأهالي من دفنهم.. لنُخلي المنطقة على وقع هدير المدافع وجنون الرصاص المنطلق من كلّ مكان حولنا. التقينا ببعض قوّاتنا الأخرى التي كانت قد اتّجهت إلى القرية الكبيرة التي تقع فيها مقارّ القيادة المركزيّة. كانت بقيّة قوّاتنا المنسحبة، وأهالي القرى القريبة من تلك القرية الكبيرة، قد تجمّعوا كلّهم هناك.

صدرت لنا الأوامر بسرعة التحرّك، لأنّ سرعة اقتراب الرصاص الذي أخذ الجيش يطلقه بجنون متزايد، كانت تنذر بأنّهم سيصلون إلينا بين لحظة وأخرى وبأنّنا سنكون ضحايا مجزرة جماعيّة، خصوصاً أنّ عتادنا الباقي لم يكن يكفي للمقاومة في معركة اعتياديّة لأكثر من مجرّد دقائق. كانت الأوامر صارمة بإحراق جميع الأوراق والوثائق وتدمير جميع الأسلحة الثقيلة والمطابع، وعدم ترك أيّ جريح أو مريض سواء من القوّات أو من الأهالي. وأخذت القافلة الطويلة تسير ببطء مترنّحة بحركات مرعوبة، بينما كان رصاص الجيش وصيحات بعض أفراده وأهازيجهم تقترب أكثر فأكثر.

29

«وإن تحرقني كالرماد فلن يكون لي معين آخر غيرك، وأنا أعرفك أنت، ولا علم لي بالدين والكفر».
فريد الدين العطّار

بعد تلك الليلة الطويلة التي لم أذُق فيها طعم النوم، وأنا أحصي الدقائق حتّى طلوع النهار لمعرفة مصير مهمّة الشيوخ، ضيوف تكيّة الشيخ، الذين وصلوا في اليوم السابق لخطبة فاطمة، رأيتها على التنّور مشغولةً بإعداد الخبز، لم أتمالك نفسي وتوجّهتُ إليها كأنّني أطير من الفرح: صباح الخير، ألن تُخبرينا عن أخبار خطبتك الميمونة؟

أجابت وكلّها براءة تتفجّر فرحاً: إلى أن طلع الفجر، ظلّت أمّي تضغط عليّ للقبول به. لم تُبقِ شتيمة إلّا أطلقتها في وجهي. كانت تقول لماذا لا تتزوّجين بالشيخ ابن الشيوخ؟ هل أنت مغرمة بذلك المسكين السكّير؟ لم تكلّ ولو لحظة، إلى أن أجبتها بأنّني لن أتزوّج به حتّى لو قطّعوني إرباً.

وحين وجدتها لا تستكين، قلت لها: «إن كان يعجبك إلى هذه الدرجة، فتزوّجي به أنت». في تلك الأثناء جاء صوتك العذب وأنت ترفع أذان الفجر، حينها اشتعلت من جديد في نوبة دعاء قاسية. لم أتمالك نفسي فقلت لها: «أليس لديك أبناء؟ ألا تخشين أن يدعو عليهم أحد؟ إنه وحيد أمّه، فكيف يطاوعك قلبك على الدعاء بسوء على وحيد أمّه؟ كيف لك أن تتوسّلي إلى الله أن يحرق قلب أمّ على وحيدها؟». حينها اشتدّت غضباً وهاجمتني متّهمة إيّاي باتهامات مخبولة.

– ياه! يا قلبي حتّى وأنت في خضمّ كلّ هذا الضغط والظلم، وتدافعين عنّي؟ أنا أعشقك والله، ولن أعيش من دونك لحظةً واحدة.

– عندما تدعو أمّي عليك بالسوء، أدعو وأتضرّع بدوري إلى الله لكي يحفظك من كلّ سوء. أنا واثقة من أنّك حتّى إن دخلت النار، فإنّها لن تحرقك ما دمت ملتزماً دينك وعهدك بكلّ هذا النقاء.

– دعي عنك كلّ هذا، لقد كان موقف والدك من أقاربه الشيوخ في غاية الشهامة. فبعد إلحاحهم، حسم الأمر بلهجة حازمة... وانتهى الموضوع على خير والحمد لله، حقّاً.. إنّها المعجزة من جديد.

– ولكن من أين لك بكلّ هذه الأخبار؟ حتّى يوم أمس، أنت الذي أخبرتني بأنّ الضيوف قد أتوا لخطبتي، حقاً... كيف عرفت كلّ ذلك؟

قلت لها بقدر كبير من التفاخر: ألا تعلمين يا كلّ الروح بأنّه ليس لي عمل سوى أن أعيش لك، أتنفّسك، أعرف كلّ أخبارك، وحتّى جميع الأخبار التي تخصّك؟

انفجرت بتلك الابتسامة الخجولة التي أتحوّل معها إلى كائن يسكن في المسافة الفاصلة بين الأرض والسماء.. بين الروح والجسد.. بين الإله والبشر.

لم تدعني الشيخة الكبيرة أهنأ بفرحتي التي ابتدأت لحظة جاءني فيها عبد الكريم يبشّرني بفشل الخطبة، وأنّ الشيخ كاكه حمه قد حسم الموضوع كلّه بجملة واحدة، «إن كانت ابنتي لا تريد الزواج، فلن أجبرها على ذلك». ففي صباح اليوم التالي، جاءت قريبة أمّي تطلبني للقاء الشيخة الكبيرة في بيتها. كانت في غاية الاستياء من رفض فاطمة الزواج بابن الشيخ. وبطبيعة الحال، كانت تراني أنا المسؤول عن ذلك. ومع أنّها بدأت الحديث بنبرة حاولت أن تظهرها ودّية ومقنعة، لكنّها في الحقيقة كانت قد جاءت لتهدّدني وحسب.

حاولت بشتّى الوسائل استعطافها كي تُغيّر موقفها، لكنها كانت كالصخر، تكرّر باستمرار: لماذا لا تحلّ عنا؟ نحن من الشيوخ، وأنت مجرّد واحد من طبقة المساكين.. حتّى إنّنا لا نعرف شيئاً عن

أصلك وفصلك، كلّ ما نعرفه هو أنّ لأمّك أقارب هنا، ويسمّونك آتيلا التركمانيّ السكّير.
– نعم، كنت سكّيراً تائهاً وتبت، حتّى الله في عليائه يقبل التوبة، فلماذا ترفضينها أنت؟ حتّى عمر بن الخطّاب كان كافراً، لكنّه عندما تاب أصبح خليفة للمسلمين.
ما إن نطقت بكلماتي الأخيرة حتّى هاجت: وهل تقارن نفسك بالخليفة عمر؟ يبدو أنّ الكلام الطيّب لا ينفع مع أمثالك، اسمع إذن، حتّى لو اضطررت إلى التضحية بأبنائي الخمسة قتلى، فلن أسمح بزواجك بابنتي.
عندها قاطعتها بحدّة وبعصبيّة: اسمعي أنت إذن خلاصة الكلام، أنا كنت تائهاً سكّيراً، واهتديتُ وتبت على يديْ فاطمة، وهي في دمي ولن أتخلّى عنها حتّى لو قتلتموني، لكم أن تريقوا دمي وتنهوا المشكلة.
عندما رأتني بتلك العصبية وجادّاً في ما أقول، أخذت تتذلّل وتستعطفني: يا ولدي، هداك الله.. اترك هذا الموضوع لأنّه مستحيل، ولن يحدث أبداً...
– لو رقّت قلوبكم قليلاً، وتواضعتم عن غروركم هذا الذي يتعارض وشرع الله، فإنّ كلّ مستحيل يكون مُمكناً، أنا لا أريد سوى الخير. أريد أن أكون ابنكم السادس والله يشهد عليّ، لا أكثر من ذلك...
– أنا لا أريد ابناً مثلك.
– إن شاء الله، سيرقّ قلبك...
فقاطعتني بحدّة: قلبي أقسى من الصخر تجاهك.
– لو شاء الله، فإنّه سيحصل بإذنه تعالى...
– حتّى لو شاء الله وقدّر، فإنّني لن أقبل وسأمنعك من الزواج بها.
وغادرت...
وهكذا... يوماً بعد آخر، أخذت قصّة حبّي أنا وفاطمة، تنكشف وتنتشر أكثر فأكثر. وترك الناس حديث توبتي التي شغلتهم لفترة من الزمن، وقسّمتهم بين مُصدّق ومُتشكّك.. بين مؤيّد ومتهكّم، وانشغلوا هذه المرّة بحكاية حبّي لفاطمة. وكالعادة انقسموا في ما بينهم في مجالسهم ومناسباتهم الجامعة: كيف يتجرّأ مسكين حقير على التفكير في الزواج بابنة شيخ؟ هل أدّى به تخلّيه عن الخمور إلى الجنون؟
– ما الفرق بين مسكين وشيخ؟ كلّنا عباد الله، ولا فضل لعربيّ على أعجميّ إلّا بالتقوى، والرجل تاب ولا ريب في تقواه.
فيردّ متهكِّم: نعم، ولكنّ كتاب الله لم يذكر التركمان...
– هذا حرام والله، هؤلاء الشيوخ عديمو القلوب، وإلّا فكيف لهم أن يفرّقوا بين قلبين أحبّا بكلّ هذا الصدق والنقاء؟
– وما أدراكم عن النقاء؟ السكارى والمدمنون لا يتورّعون عن فعل أيّ شيء.. أستغفر الله...
بالتوازي مع كلّ هذا الشدّ والجذب، أخذ وجهاء المنطقة يذهبون فرادى وجماعات، لزيارة الشيخ يحاولون طرح الموضوع عليه ويستعطفونه لكي يوافق. وكان أغلبهم يفعل ذلك حتّى دون علم منّي. كلّ ذلك أكّد لي حبّهم أكثر فأكثر. فأنا كنت لهم الابن والطبيب الذي يعالج مرضاهم وجرحاهم، وكذلك يعالج حيواناتهم ومواشيهم. أمّا جواب الشيخ الوحيد فكان: كيف يمكن تزويج ابنة شيخ لرجل من طبقة المساكين؟

وعندما يحاول البعض محاججته بأنّ هذا التمييز يتنافى مع شرع الله... كان ينفجر قاطعاً الحديث بأنّ «هذه تقاليدنا التي توارثناها عن جدّنا الأكبر».
– ولكن يا شيخنا، هذا الكلام يتنافى مع سلوك جدّكم الأكبر، وفخر العالمين محمّد صلّى الله عليه وسلّم.
فكان يردّ بصمت ينهي الحديث بصورة قطعيّة. لكن ما لم أفهمه وكان يصيبني بالغيظ أكثر من أيّ شيء آخر، هو أنّ هذه التقاليد السخيفة التي تمنع بنات الشيوخ بالزواج بشباب ليسوا شيوخاً أبناء شيوخ، هي ذاتها التي تسمح لأبناء الشيوخ بالزواج بمن يشاؤون.. فكنت أتشكّك حتّى في إيمانهم. من الذي سمح لهم بتصنيف البشر هكذا إلى طبقتين، بينما كتاب الله واضح يساوي بين كلّ البشر؟ وما الذي يميّزهم عن بقيّة الناس لكي يطلقوا تسمية المسكين على كلّ من لا ينحدر من نسلهم الذي يقولون إنّه يعود إلى الرسول وآل البيت؟
يا إلهي، ها أنا أكمل عامي السادس داخلاً في السابع، وأنا أخدم الأهالي وقوّاتنا ما يعني أنّني أحترق حتّى العظام في هذا العشق الصادق النقيّ، وكذلك في جحيم قسوة الشيوخ...
ذهبتُ من جديد إلى بيت قريبتي، حيث كانت فاطمة تنتظرني، وهي في أسوأ حالاتها إطلاقاً. حاولت تهدئتها لكن دون جدوى... وفهمت من بين حشرجاتها أنّ الكارثة قد حلّت مرّة أخرى، وأنّ المعجزة الثانية التي أنعم بها الله عليّ جرّاء رفض الشيخ كاكه حمه تزويج فاطمة بالشيخ محمد ابن الشيخ صالح، لن تدوم. عاتبتني فاطمة: ألم أحذّرك من عدم الحديث عن حبّنا؟ ألم أقُل لك ألّا تُكثر من إرسال الناس لخطبتي؟ لقد انتهى كلّ شيء، لقد ضعنا يا آتيلا.
توقّفت الدماء في كلّ عروقي وتمالكت صوتي بصعوبة كبيرة لأسألها: بالله عليك ماذا حدث؟ أخبريني أرجوك، لم أعُد أحتمل كلّ هذا الظلم.
– ليلة أمس، دعت أمّي كلّ أخوتي للبيت لتضع حدّاً لحبّنا. وأخذت تحرّضهم بكلّ ما فيها من قوّة وجبروت، لتدفعهم باتجاه موقف سريع ينقذ سمعتنا وشرف عائلتنا.
– ما هذا الهراء؟ ألا يعلمون بأنّني لم ألمسك حتّى الآن؟ ألا يعرفون أنّك أشرف وأنقى فتاة على الأرض كلّها؟
– إنّهم كُفّار عديمو الرحمة، ألم أقُل لك إنّهم لا يملكون قلوباً حتّى تلين تجاهنا؟ في غمرة هجوم أمّي عليّ وتحريضها لإخوتي، دخل أبي واستفسر عن الأمر وعن سرّ الاجتماع المتأخّر. فسكت الجميع لوهلة، إلّا أنّ أمّي تدخّلت بسرعة وقالت، «ألا تدري أنّ ابنتك عشقت التركمانيّ المسكين، وأنّ الناس لم يعد لهم حديث سوى فضيحتنا؟». وحسم أبي الموضوع قائلاً: «لا داعي لكلّ ذلك، سأذهب بأسرع وقت إلى بيت الشيخ صالح، وأخبره بأنّني موافق على زواجها بابنه الشيخ محمّد، وينتهي كلّ هذا. والآن... أنهوا هذا الاجتماع، وليذهب كلّ واحد منكم إلى بيته».
يا إلهي، ماذا سأفعل الآن؟ هل أصبحت مُعجزاتك مؤقّتة محكومة بموعد لانتهاء الصلاحيّة؟.. أستغفر الله.. تسمّرت في مكاني، وأنا تائه بين انتهاء مدّة صلاحيّة المعجزة الإلهيّة ونتائجها الكارثيّة علينا، وبين إدراكي لخطيئة الكفر بعظمة الربّ ومعجزاته؟ أحسستُ بندم لم يبق لي سوى أن أردّد باستمرار: «أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله...». فاجأتني فاطمة بصوتها الباكي الأقرب إلى الصياح: قل لي يا آتيلا، ماذا سنفعل الآن؟ قُضي الأمر وسيزوّجونني بقريبنا الشيخ، ماذا ستفعل؟ قل لي أرجوك... أنا لن أعيش من دونك لحظة واحدة...

تمالكتُ نفسي بصعوبة كبيرة وقلت لها: لا تخافي يا حبيبتي، إنّ الله الذي جمعنا من دون ميعاد، والذي وهبنا كلّ هذا العشق النقيّ، ومنع فراقنا بمعجزاته، سيحمينا ويحمي حبّنا بالتأكيد، وتأكّدي من أنّني سأبقى على عهدي لك، حتّى لو انهارت الدنيا برمّتها.
عدتُ إلى بيتي تائهاً، غائباً عن الدنيا وما فيها. انتابتني نوبة بكاء جنونيّة غريبة، اختلطت عليّ الأسباب والمشاعر. من جهة شعرت بغبن كبير، كان العالم كلّه يتآمر عليّ وعلى حبّي النقيّ العفيف الطاهر. ومن جهة أخرى، انتابتني نوبة حزن ممزوجة بالندم نتيجة تفكيري في إمكانية أن تكون المعجزة الإلهيّة منتهية الصلاحيّة. فأخذت السجّادة ووقفتُ عليها ووجهي صوب القبلة، وبدأت بالصلاة: إلهي.. إنّي نويت أن أصلّي لك صلاة التوبة والترحّم هذه، وكلّي طمع في عفوك ورحمتك، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... بسم الله الرحمن الرحيم... الحمد لله ربّ العالمين... إلى أن دخلتُ في سجدتي الأولى ولم أستطع النهوض منها. وانهرتُ في نوبة أكثر جنوناً من البكاء بصوت عالٍ. لا أدرى كم طالت سجدتي تلك، ولم يُخرجني منها سوى طيبة وكرم كاكه حمه سي خراني، الذي أمسك بي عن سجّادة الصلاة وحاول تهدئتي بكلّ الوسائل مستفسراً عمّا حدث، وأنهى كلامه: ما بك يا رجل؟ منذ ساعة وأنا واقف كي تنهي صلاتك، وإذا بك في سجدة واحدة، ما الذي حدث لتفعل كلّ هذا؟ ثمّ ماذا أبقيت للنسوة؟ كيف يبكي الرجال هكذا؟ كفكِف دموعك وأخبرني بما حدث. لا توجد مشكلة ليس لها حل...
حين أخبرته بمصائبي العديدة، حاول أن يهوّن عليّ الأمر، فسألته: أتعتقد بأنّ الله سيغفر لي خطيئة التشكيك في معجزاته؟ أستغفر الله...
– أنت أنقى وأطهر من أن يحاسبك الله على هفوة ارتكبتها في لحظة غضب. أنا أخبرتك منذ البداية بأنّ هذه الزيجة مستحيلة. أنا أعرف هؤلاء الشيوخ وأعرف غرورهم. قلت لك إنّها أشبه بمن يريد أن يصل إلى جبل القاف، ومن ثمّ يثقبه بواسطة إبرة، لكنّك أبيت إلّا أن تستمرّ.
– كاكه حمه، أنا مدين لك بكلّ شيء، فبالرغم من قناعتك هذه، لم تدّخر شيئاً لمساعدتي ولن أنسى، ما حييت، أفضالك الكثيرة عليّ. قل لي، ماذا سأفعل الآن؟ فالرجل جاء يطلب يد فاطمة وهو شيخ وقريبهم، لكنّ الشيخ كاكه حمه رفض حينها، أمّا الآن فهو يريد أن يذهب إليهم بنفسه ليبلغهم بموافقته، ما يعني أن الزيجة قد تمّت وانتهى كلّ شيء، قل لي بالله عليك ماذا أفعل؟
– لا عليك، وإن شئت فأنا مستعدّ لكي أذهب بنفسي إلى بيت الشيخ صالح لإقناعه وإقناع ابنه بالعدول عن الفكرة كلّها. وكلّ هذا من أجلك أنت والله. فعمل كهذا سيخرب وإلى الأبد علاقتي بالشيخ كاكه حمه، لكن إن كان هذا سيحلّ الأمر، فليكن.
شكرت كرم هذا الرجل وتضحياته الكثيرة من أجلي، ثمّ سألته: هل تعتقد بأنّ الشيوخ يمكن أن يأخذوا بمثل هذا الكلام؟ أخشى أن يعودوا مع الشيخ كاكه حمه لإتمام الزيجة على الفور. لم يبق لي أيّ تدبير أبداً، هذه الزيجة حتميّة، لقد ذهب كلّ شيء هباءً، وليس هناك ما أستطيع فعله.
– هوّن عليك يا رجل، إن الله يغلق باباً ويفتح آخر بمكانه، لا تيأس هكذا ولنفكّر في إرسال من يقنع الشيخ صالح وابنه بالعدول عن طلبهما وينتهي الأمر هذه المرّة أيضاً.
– دعني أفكر فيمن أكلّفه بهذه المهمّة... وفي كلّ الأحوال ليس أمامي سواها، وعليّ أن أجرّبها بالرغم من يأسي.
فحضنني كاكه حمه سي خراني بكثير من الحبّ قائلاً: ليست الدنيا بهذا الوضع القاتم، فأنت لا ترى الجانب الأهم من هذه المشكلة.

– وهو...؟
– وهو أنّ الأمر قد حُسم، ويستحيل أن يقبل أيّ رجل بالزواج بها بعد أن عرف الناس جميعاً بقصّتها معك. إنّ أهمّ شيء في انكشاف الحكاية هو أنّها ستظلّ هكذا بلا زواج. فلا تخف من ذلك، بقي عليك أن تصبر، وستكون في النهاية من نصيبك بالتأكيد...
ياه! يا لهذا الملاك الذي يهوّن عليّ ويساعدني بالرغم من عدم اقتناعه هو بجدوى المحاولة أصلاً. فأجبته وقد استعدت بعضاً من شجاعتي: سأصبر الدهر كلّه لأنّ طعام الجنين هو الدم. سأقتدي بمن يقتدي به المؤمنون، سيّدنا أيّوب وسيّدنا يعقوب عليهما السلام.
– ماذا قلت؟ طعام ودم؟
– آه... نعم، اسمعْ ما يقوله الهدهد عن هذا الصبر: «كان يوسف الهمداني إمام العصر، كما كان عليماً بأسرار الروح، بعيد النظر. قيل إنه كلّما نظر إلى شيء من أعلى إلى أسفل، تحوّلت كلّ ذرّة فيه إلى يعقوب آخر يسأل عن يوسف الذي افتقده.
لا بدّ من الألم في طريقه وكذلك الانتظار حتّى ينقضي عمر في هذين الأمرين. وإن لم تجد لك عملاً في هذين الأمرين، فحذارِ أن تخلي فكرك من هذه الأسرار، إذ لا بدّ للرجل من الصبر في الطلب، ومتى كان صبرك لائقاً بأهل الألم؟ ولتزد من صبرك، سواء أكنت راضياً أم لا، فلعلّك تدرك الطريق بمساعدة آخر. أنت شبيه بطفل في بطن أمّه، فاجلس وحيداً وسط خضمّ الدماء، ولا تخرج عن طبيعتك لحظة. وإذا كان الخبز ضرورة، فاطعم الدم لحظة، فطعام الجنين الدم وكفى! إنّه أفضل من كلّ ما هو خارج البطن، فاطعم الدم وتحمّل الآلام وتذرّع بالصبر كالرجال، حتّى تحقق الأيّام ما تصبو إليه من آمال».
رويت لكاكه حمه تلك الحكاية، بينما كلّ تفكيري كان منحصراً بإرسال من سيرحل إلى القرية التي تربض عند سفح الجبل العنيد، الذي يُظهر لنا من تلك المسافة البعيدة قمّته المتعالية بصلابة مخيفة.. وقرّرت حينها أن أصوم أسبوعاً لكي أكفّر عن حماقتي وضعف إيماني.

30

«وستُسفك الدماء بكلّ شدّة».
فريد الدين العطّار

ها هو الليل يُغرق المقبرة في ظلمة خانقة، ويُغرقني معها وحيداً في دوّامة غير مسبوقة من الأفكار والأسئلة التي لا أتمكّن من فهم أحدها، حتّى تتلاطمني أمواج دوّامة أخرى توصلني إلى حالة الغرق من جديد. يبقى الليل هو الوحيد مركز كلّ أسئلتي وأفكاري وخيالاتي. تبدو هذه الليلة الفريدة، وكأنّها الليلة الأخيرة التي تسبق القيامة. فبعد أن ألحّ عليّ الجميع لمصاحبتهم وهم يغادرون المقبرة بعد انتهاء مراسم دفن آتيلا وبقيّة رفاقنا، بقيت أعاند كطفل فقد أمّه ويصرّ على عدم التخلّي عما بقي من رائحتها متشبّثاً بجثّتها الباردة. فجلستُ على الأرض بجانب الشاهد الحجري الذي يشير إلى مكان رأس آتيلا في قبره.

حتّى الليل، انقلب علينا. فبعد أن كان مليئاً بأحلام العودة إلى بيتنا القديم، وإيجاد تماثيل الطين التي خبّأتُها على سطح بيتنا العتيق خوفاً من غضب أمّي بعد انتصار الثورة التي كانت هي كلّ الحياة تحت سقف خيمة كانت وسع الكون بأكمله، وبعد أن تحوّل إلى قلعتنا التي تحمينا، وموعد الرعب اللا نهائي للجيش وأفراده، ها هو ينقلب علينا فجأة. وها نحن نبتعد عن مقارّ القيادة والقرى المجاورة لها وهي تحترق. وها هو الليل إذ يخيّم لا يحمينا كما كان سابقاً، بل صار يحمل لنا الموت من شدّة البرد الذي يحاصرنا به. فأصبحت خيوط النهار الأولى التي كانت تعني لنا في السابق الخطر الكاشف الذي يهدّد حياتنا، أصبحت الآن.. هي الموت بعينه تحت رحمة بنادق الجيش مع قدر ضئيل من حرارة الشمس، لكنّها أرحم بكثير من هذا الموت الذي يصيبنا بالتجمّد حتّى العظام في هذه الظلمة مخيفة.

يبدو أنّ الجيش وأعوانه من الجحوش قد توقّفوا عند احتلال مقارّ القيادة التي أذاعتها وكالات الأنباء ومحطّات الراديو ليلتها، ما أعطانا المجال للابتعاد. بعد مسير طويل، وعند منتصف ليلة الشتاء الطويلة تلك، وبعد أن انهار العديد ممّن معنا في القافلة، صدرت الأوامر بالتوقّف لأخذ قسط من الراحة، خصوصاً بعد أن كنّا قد وصلنا إلى واد عاصٍ يقع بين جبلين شديدي الوعورة. لكنّ الأوامر ضمّنت كذلك التشديد على عدم إضرام النار كي لا يكتشف الجيش مكاننا. كانت الظلمة الشديدة الخانقة، هي التي تزيد في قسوة البرد وشدّته. كان الأمر أشبه بمن يضربك على غفلة بين الفينة والفينة على رأسك في غرفة مظلمة، فتصير الظلمة نفسها أشدّ إيلاماً من الضربة.. لكنّنا كنّا في أشدّ الحاجة إلى التخفيف من قسوة الظلمة والبرد. لذا، ودون إيلاء أيّ أهميّة للأوامر الصادرة، أخذ الجميع يضرمون النار في كلّ ما تقع عليه أيديهم من بقايا الأشجار المتيبّسة تحت وطأة الثلج وجبروته.

في اليوم التالي، كان علينا التحرّك للابتعاد بسرعة باتجاه الحدود، وبقينا نمشي النهار بأكمله. مع بدايات المساء الأولى، ومع اقتراب موعد انسحاب الشمس وهجوم الظلمة من جديد، وصلنا إلى جثّة ممزّقة لبغل أسود. الطريقة الوحشيّة التي مزّقت بها جسده تدلّ على أنّ مجموعة حيوانات مفترسة، على الأغلب مجموعة ذئاب جائعة، هي التي فعلت به ذلك، ما كان يكشف رعب النساء والأطفال، لا بل وحتّى غالبيّة الرجال على وجوههم بوضوح شديد. فكانت الخطى تغدو أسرع لمن كان يصل إلى مكان البغل الأسود الممزّق.

ها هي الليلة الثانية تهجم بمنتهى القسوة، فلا تكتفي ببرودتها المخيفة المظلمة وحسب، بل إنّ الرياح القوية بدأت تهبّ وتحوّل حتّى الهواء والفراغ إلى جليد مُظلم خانق. كان من الصعب حتّى على النيران أن تهزم ذلك البرد. فكانت النيران سرعان ما تنطفئ، وكأنّ ناموس الطبيعة قد انقلب رأساً على عقب. فبعد أن كانت النار هي المُهاجمة التي تهزم الظلام وتبدّد الخوف، أصبح الظلام الآن، بالتواطؤ مع الريح السوداء، هو الذي يهزم النور ويطفئ النار ويغرق كلّ شيء في قسوته المُظلمة المجنونة من جديد. لكن ما كان يزيد رعب المشهد ويوصله إلى حدّ تمنّي الموت حقّاً، كان الصفير المتوحّش المخيف للريح المجنونة المتواطئة مع الجميع ضدّنا.

عند منتصف الليل، أخذ الجميع يتراكضون دون أن يعلم أحد لماذا يركض. وسألتُ العديد دون أن أحصل على جواب، لكن في النهاية قال أحدهم، «إنّ أحد الحرّاس قد نبّه إلى أنّه سمع أصواتاً تحوم حولنا وأنّ الجيش أصبح يحاصرنا من كلّ مكان، ها قد جاؤوا». فاتّخذ البعض منّا، بعد أن تمكّنا من إعادة تنظيم ما بقي من القوّات، مواقعنا. بينما كان العديد من أفرادنا يتراكضون دون اتّجاه معيّن مع الأهالي. بعد طلوع النهار من جديد، وعندما استفسرنا عن الأمر، ظلّوا يؤكّدون أنّ «أحد الحرّاس قد سمع أصواتاً ولمح أشباحاً لقوّات في الظلام تجول بالقرب منّا»، لكن دون أثر لقوّات أو حتّى لأشباح.

أصبحت تلك العبارة «ها قد جاؤوا»، هي الكلمة السحرية التي تصيب الناس بالذعر الذي يفوق أخطر الأسلحة وأشدّها فتكاً ودماراً. فقد كانت تلك العبارة كافية للانهيار والهرب من الموت الوهمي الذي كان تَرقّبُه أصعب بأضعاف المرّات من حدوثه فعلاً. كانت تلك هي مرحلة الشائعات التي لا تكلّ ولا تهدأ، وكانت تلك العبارة اللعينة هي سيّدة الشائعات دون منازع.

أخذنا نلملم من تفرّقوا نتيجة ذعر الشائعة ليلة أمس، فإذا بنا نصطدم بمنظر حصان بدا أنّه يصارع الموت بأنفاسه الأخيرة، وإلى جانبه أمّ تحتضن وليدها. عندما أردنا إيقاظ الأم، كانت منعدمة الحركة، تنظر ببلادة إلى لا شيء. عند رفعنا البطانيّة عنها، كان الرضيع متمسّكاً بكلّ قوّة بثدي الأم الميتة وقد تجمّدت محاولته في التغلّب على الموت. لقد جمّد الظلام المتجمّد إرادة الحياة في الرضيع الذي تبيّن أنّه قد فارق الحياة، لكنّه ظلّ يأبى أن يترك ثدي أمّه بعناد لا يضاهيه سوى عناد الظلمة الباردة التي لا تُقهر. تركنا الحصان في مكانه، وأخذنا نُبعد البطّانية التي تحتضن الأم ووليدها إلى مكان بعيد عن أعين القافلة، وعُدنا إلى الجميع ونحن نطرح عليهم فكرة التغلّب على الموت جوعاً بأكل الحصان المحتضر...

في البداية رفض الجميع، ومع أنّ الطعام قد بدأ ينفد، ظلّوا يعاندون، بين من يمنعهم الحرام، «فكيف يمكن أن نأكل الحرام، إنّه حصان.. لقد حرّمه ديننا»، وبين من كان يرفض الأمر، بملامح يملأها شعور واضح بالتقزّز، فيما كانت ذريعة الفريق الأخير أضعف من أن تقاوم منطق الجوع الشديد. فقد كانوا يتحجّجون بأنّه حيوان مسكين، وإن كُنّا عاجزين عن علاجه، فالأولى هو أن نتركه بدلاً من ذبحه وشيّه دون رحمة.

حاججناهم بتذكير الجميع بالبغلة السوداء التي مزقتها الوحوش في الطريق، وأنّ الحصان في النهاية ميت لا محالة، ونحن أولى به من الوحوش والذئاب. فبدأنا بذبحه بينما كان ينظر في أعيننا بلامبالاة غريبة مخيفة. ثم أخذنا نسلخه. وأضرمنا النار، وبدأنا حفلة الشواء، وأخذنا نأكل اللحم المشويّ الحارّ وحدنا. ثمّ.. رويداً رويداً، بدأ الجميع بالسيطرة في النهاية على كلّ مشاعرهم المقززة وحرامهم وحلالهم، واضطروا إلى أن يشاركونا طعامنا الحار الأوّل منذ خروجنا من

مقارّ القيادة والقرى المجاورة لها. يبدو أن سلطان الجوع والارتجاف من البرد، وإغراء حرارة اللحم المشوي ورائحته، قد طغت على كلّ الموانع، وهكذا أنقَذَنا الحصان المُحتضر من الموت المؤكّد جوعاً.
بعد الظهر، أصبحنا مستعدّين للتحرك، فالوقت متأخّر وعلينا أن نُسرع. وإن تمكّنّا من السير تحت هذه الشمس الساطعة الدافئة، وحالة الشبع وابتعادنا عن الموت قتلاً على أيدي أفراد الجيش وأعوانه، فإنّنا سنصل إلى الحدود قبل الغروب بوقت كافٍ يسمح بعبوره. كانت حال القافلة بالنظر إلى كلّ ما سبق أفضل من اليومين السابقين. وإن تمكّنا من عبور الحدود، فسنجد بالتأكيد قرىً حدوديّة مأهولة، ما يعني أنّنا سنتخلّص من المبيت تحت هجمة النجوم التي تسخر من عليائها بكلّ وقاحة ولا أبالاة من مأساتنا.
على بُعد ساعتين، كانتا تفصلاننا عن الحدود، كانت القافلة العسكرية تبدو من بعيد سوداء مسرعة بجنون وكأنّها تُريد أن تُغلق علينا الحدود وتحاصرنا حتّى الموت. فكان الذعر هو المحرّك والدافع الذي فاق ما عداه من دوافع. ليجعل الجميع مسرعين بأقصى قوّة كانت تفوق التوقّع والخيال. إذن... ها نحن من جديد أمام الموت الذي يسدّ علينا آخر منافذ الخلاص. ها أنا أراها بوضوح. قافلة طويلة، تسير باتجاه الحدود لقطع الطريق علينا.
عندما وصلنا إلى مشارف الحدود، كانت القافلة العسكرية الضخمة المكوّنة من الآليات والدبابات الكثيرة، على وشك الوصول أيضاً. لكنّها لم تتّخذ مواقعها بعد للبدء بالاشتباك معنا، ما منحنا فرصة أكثر للوصول إلى الحدود التي كانت مليئة بثكنات القوّات الإيرانيّة، وأنّنا كلّما اقتربنا أكثر فإنّ أيّ اشتباكٍ معنا، سيؤدي بالتأكيد إلى الاشتباك مع القوات الإيرانيّة الموجودة على الحدود أيضاً. ويبدو أن هذا السبب هو الذي دفع القافلة إلى فتح النار علينا حتّى قبل انتشارها واتخاذ مواقعها القتالية حسب الخطط العسكرية.
كانت نيران البنادق تنزل بكثافة، وكان أزيز الرصاص من كلّ أنواع الرشاشات يثقب السمع ويستقر في العمق من الرعب الذي يسلب الروح ببرود شديد.. ثم بدأت المدفعية تنهال علينا بقذائفها، وهي مسرعة تصفر وتصرخ وتزعق بجنون لكي تنفجر في كلّ مكان. ثم جاءت القذائف التي تقتل صمتاً ورعباً بدخانها الأبيض الحامل لرائحة التفّاح الخانقة. كلّ ذلك، أفقدنا آخر ما بقي لنا من سيطرة، فأخذ بعضنا يهرب باتجاه الثكنات الإيرانيّة التي أخذت تطلق النار عليهم، بينما بقي بعضنا يُطلق ما بقي لديه من رصاصات باتّجاه القوّات المهاجِمة، فيما كان آخرون من أفرادنا ومن الأهالي الذين وجدوا أنفسهم منتشين برائحة التفّاح الخانقة يتقافزون اختناقاً، بينما يسيل زبد أبيض كثيف من طرف أفواههم.
بصعوبة بالغة، وبعد أن أعدنا تنظيم بعض قوّاتنا، تمكّنّا من الابتعاد عن مرمى النيران مقتربين بشدّة من الثكنات الحدوديّة، فقد كانت تلك هي المسافة الفاصلة بين القوّة المهاجمة والثكنات الإيرانيّة التي استغربنا بشدّة عدم ردّها على نيرانهم.. وكان الأغرب من ذلك، هو تراجع القصف عنّا، كلّما اقتربنا أكثر من الحدود ومن الثكنات الإيرانيّة. كانت تلك المسافة هي الهامش الذي يفصل بين موتنا تمزّقاً تحت القصف أو اختناقاً، نتيجة رائحة التفّاح المغرقة في إغراء الموت، وبين الثكنات الإيرانيّة التي بدأت تطلق النار في الهواء لكي تمنعنا من عبور الحدود.
بعد جهد كبير، وبعد محاولات مستميتة، تمكّن أحد قادة قوّاتنا من إقناع المسؤول عن الحدود بالسماح فقط بنقل الجرحى، خصوصاً أنّنا بتنا محمّلين بجرحى من نوع جديد.. جرحى لا تسيل

منهم الدماء، بل بدا كأنّ الأنفاس والروح هي التي تسيل منهم زبداً أبيض من أفواههم بدلاً من حمرة الدماء. ما إن نقلنا الجرحى وحملتهم السيارات مبتعدة بسرعة عن الحدود، حتّى أصبحنا موعودين بليل مُتجمّد مُظلم، فقد حذّرتنا الثكنات الحدوديّة بأنّها ستطلق الرصاص على أيّ نيران مُشتعلة، بينما كانت نيران متفرّقة مشتعلة على طول الحدود تثير لديّ التساؤل حولها، كما كنّا موعودين أيضاً بنهار سيشهد، لا محالة، إطباق كفّتي كمّاشة الموت علينا جميعاً.

31

«انظر إلهك في قلبك».
فريد الدين العطّار

ها أنا أقضي يومي الثالث بعيداً عن فاطمة. تفصلنا مسافات بعيدة وقرى وأودية. لا أدري كيف استطعت احتمال كلّ هذه الساعات بعيداً عنها. حينها أدركت جوهر كلام كاكه حمه سي خراني، الذي قال لي قبل أيّام وهو يُبشّرني باستحالة قبول أيّ رجل الزواج بها بعد الآن.. حين قال: احمد الله على أنّها قريبة منك يا رجل، فلو كانت بعيدة، فماذا كنت ستفعل؟

دهمني إحساس رهيب أصابني بالخوف الشديد. يا إلهي، كيف سأقضي حياتي بعيداً عنها. يا إلهي... يا صاحب المعجزات، أنت القدير الجبّار القادر على كلّ شيء، ها أنا أُصاب بالجنون وأرى الموت يخنقني بمجرّد بُعدي عنها لثلاث ليالٍ لا أكثر، فكيف سأحتمل فراقها عمراً بأكمله؟

جاء صديقي نعمان بعد أن أرسلتُ في طلبه لكي أناقشه فيمن سأرسل إلى الشيخ صالح وولده محمد، في مهمّة إقناعهم بالتخلّي عن فكرة تقدّم الابن للزواج بفاطمة. وتأخّر بنا الليل ونحن نتناقش ونطرح الأسماء ونحسب أوجه الموضوع كلّه. قطع حديثنا طرقات متتالية على الباب، حين فتحت، كانوا مجموعة من البيشمركة يطلبون منّي مرافقتهم إلى إحدى القرى البعيدة. فقد كانت قوّات الجيش وأعوانهم قد هاجموا تلك المنطقة وأحرقوا قريتين. وهم أتوا الآن لاصطحابي بغية معالجة جرحاهم هناك، فانطلقنا على جرّار زراعي بسرعة. قلت لنعمان: البيت بيتك، لا تذهب إلى أن أعود، وكن على حذر وتابع الأخبار أوّلاً بأوّل.

طلبت من الحاج عزيز، الذي كنتُ أقضي في بيته يومي الثالث، أن يؤمّن لي وسيلة نقل كي أعود بها إلى بيتي. لكنّه توسّل إليّ يدعوني إلى الانتظار ريثما تتوقف الأمطار التي بدأت تنهال دون توقّف منذ صباح أمس، وأنّ السيول التي ملأت الأودية ستمنع حتّى الجرّارات الزراعيّة القويّة من الخوض فيها. وتحت إلحاحي الشديد، أحضر لي حصانه الخليّ المُسمّى «البرق»، والذي كنتُ قد عالجته من قبل، قائلاً: يا دكتور، أنت تعلم بأنّي لم أسمح حتّى لأبني بامتطاء ظهر البرق، لكن معزّتك عندي تفوق كلّ شيء. ثم أنا أعلم بأنك لا تستطيع المبيت بعيداً عن بيتك. فخذ الحصان، لكنّي لن أوصيك.. أرجوك يا دكتور، أنا أحبه كأحد أولادي بالضبط.

كنت أفكر في كيفية احتمال فاطمة لتلك الليالي التي قضيتها في بيت الحاج عزيز، وأنا أعالج الجرحى. كانت تلك هي المرة الأولى التي أبيت فيها خارج القرية بعيداً عن فاطمة وأنفاسها، التي كنت أشعر بها في الدار القروية المهيبة، التي كانت تقع مقابل داري بالضبط. كانت حقاً من أصعب ليالي العمر، مليئة بالكوابيس ذاتها التي أرى فيها ذلك الدُخان، الذي يلُفّ فاطمة في زوبعة هائجة، مبتعداً بها بلمح البصر، مخلفاً رائحة التفّاح، الذي يملأ كلّ ما حولي إلى درجة الاختناق. كانت تقول على الدوام: أرجوك يا آتيلا، أتوسّل إليك، مهما ذهبت، لا تغب ولو ليلة واحدة. فعندما لا تكون موجوداً في القرية أصاب بالذعر، أظل أرتجف للصبح. تهاجمني جميع أنواع الكوابيس.

لذا لم أستطع البقاء أكثر من ذلك، فانطلقتُ بالبرق، حصان الحاج عزيز الأبيض، نصارع معاً، الريح والمطر والطرق الطينية الوعرة. كانت رحلة عجيبة بكلّ المقاييس، لم يتوقف المطر لحظة واحدة. عند العصر، بدا لي الوضع وكأنّي تهت، وفقدت الاتجاه للعودة. فتوقفتُ في الطريق، وخصوصاً أنّني أصبحت على مشارف الغرق مرّتين متتاليتين. كان السيل من القوّة بحيث لفّ في

موجه المجنون، الحصان، فوقعت عن ظهره. غرقتُ في تيه لا أمّيز رأسي من قدمي، حين أخذت تتلاطمني الأمواج الهائجة للسيل، الذي جعله لونه الطيني الأحمر، أكثر رعباً... وما زاد في رعبه، هو أنني كنتُ سأموت بعيداً عن فاطمة التي كانت قد أخذت هي الروح، وأنا لكي أقارع الموت وأهزّه عليّ أن أعود إليها، أن أمثل بين يديها المباركتين، فهي صاحبة القدر والروح، وهي من تملك إبقاءه أو إخراجه من الجسد المتعب هذا.
في غمرة احتضاني للموت المُحمرّ بدم الأرض المختلط بسيل بكاء السماء، تخيّلتني أغرق مع فاطمة، فتلبّستني حالة العاشق، الذي تمنيتُ أن أكون مكانه فأغرق مع الحبيبة، والذي يذكره الهدهد: «ما إن وقع أحد المعشوقين قضاءً وقدراً في الماء، حتّى أسرع عاشقه وألقى بنفسه في الماء، وعندما اقترب كلّ منهما من الآخر، سأل المعشوق العاشق قائلاً: أيّها الجاهل إن كنت سقطت أنا في هذا الماء الجاري، فلمَ ألقيت بنفسك في لجّته؟ فقال: لقد ألقيت بنفسي في الماء، لأنّني لم أعرف نفسي من نفسك، فقد مضى وقت بلا ريب حتّى أصبحت أنا أنت وأنت أنا، وأصبحنا واحداً، فهل أنت أنا، أم أنا أنت؟ وإلامَ كانت الثنائية؟ فإما أنني أنت، أو أنك أنا؟ أو أنك أنت أنت، وعندما تكون أنت أنا، وأنا أنت على الدوام، يكون جسدانا واحداً والسلام. وإن كانت الثنائية بيننا، فالشرك قد أصابك، وإذا امّحت عنّا الثنائية، فالتوحيد قد أدركك».
وأخيراً... بعد تلاطم مع الأمواج، وجدت نفسي وقد جرّني البرق إلى الطرف الآخر، مُنقذاً إيّاي من الغرق، ومتحدياً السيل في قوّة جريانه، وطغيان أمواجه المتلوّنة، بحمرةٍ كأنّها الدم.
كانت المرة الثانية أصعب بكثير، حيث جرفنا السيل معاً. ولم يكن لي سوى التمسّك مرّة أخرى، باللجام الذي كان يعني لي كلّ الحياة. وها نحن... أنا والبرق، الذي أنقذني من الغرق قبل قليل، نخوض معركتنا الثانية ضد السيل الأحمر المجنون. وكان واضحاً أننا إمّا سنموت، أو سنتجاوز معاً غضبة السيل الأحمر، هذه المرة أيضاً. ومن ثم سنكمل طريقنا باتجاه فاطمة، معاً أيضاً. رأيتُ فاطمة وهي تلطم على جثتي المصطبغة بحمرة السيل الغاضب، الذي يكسوني ببقايا الطمي الأحمر، الذي غطّى كلّ مكان في جسدي.. ثمّ شعرتُ بضربة قويّة على ظهري، وتمكنتُ بصعوبة شديدة من فتح عيني، فإذا بي على اليابسة، مستلقياً على ظهري، تهاجم الأمطار وجهي بشراسة. بينما كان البرق يتقافز في مكانه بجانبي. كانت موجة قوية قد قذفتنا بقوّة، في تلك المنطقة التي ضاق فيها ممرّ السيل، إلى أقصى درجاته.
تمكنتُ من النهوض بصعوبة شديدة. وكان السيل قد استقر بنا أمام تلة صخرية مهيبة. كان هناك في التّل الصخري الكبير، مكان لا يطاله المطر، وكأن الزيادة التي خرجت من قمّته، قد حوّلته إلى مظلة تقي التجويف الذي يقع تحت سقفه، من الأمطار الغزيرة. فربطتُ البرق هناك، ثم أخذتُ أبحث عن مكان مستوٍ أؤدّي عليه صلاة العصر. فجأة! وقعت عيناي على صخرة رمادية كبيرة مستوية السطح، تبعد عدّة أمتار عن مكاني، لكن الأمطار كانت تغسلها بسرعة جنونية، وكانت الرعود تملأ المكان بأكمله. ذهبتُ إلى هناك حيث الصخرة وجنون المطر، ووقفتُ أحاول أن أجد القبلة للتوجّه إليها، بغرض أداء الصلاة. لكنّي لم أفلح. عندها توجهتُ باتجاه النتوء الذي كان في أقصى طرف الصخرة المسطحة الكبيرة، والذي كان يشبه مقدمة سفينة..
– ربّي إنّي نويت لك الصلاة، وها أنا أتخلى عن اليابسة، وأتوجّه إلى وجهك الكريم، صادقاً مخلصاً. أنا أعلم بأنك في كلّ مكان، لذا اخترت هذه الصخرة، لكي أقف عليها خاشعاً، أتطهّر تحت رحمتك.. فلتغسل هذه الأمطار كلّ ذنوبي وخطاياي، أو فلتضربني إحدى هذه البروق، وتحرقني

حيث أنا، وتحيلني رماداً، يذوب ويندمج في لون الصخرة الرمادية العنيدة، أو لتحمل هذه الامطار والسيول الهائجة رمادي ذاك إلى حيث تشاء.. إلهي، أنت أعلم بما في روحي، فأنت الذي فتحت أبواب روحي المغلقة، بوجه حبّك الذي تجلى في عشقي الجنوني لفاطمة. إلهي، إنّني أتضرّع إليك أن تقبل صلاتي التائهة الخالصة هذه. فأنت قبلتي أينما حوّلت وجهي. أنت الذي أرشدتني إلى القبلة من خلال هذا النتوء الصخري. وها أنا أرحل إلى ملكوتك، مبحراً بهذه السفينة، وسط كلّ هذه الأمواج والعواصف والبروق والرعود، التي يبدو أنّها عازمة على إحراق العالم هذا المساء. فلا تؤاخذني لأنّي ضيّعتُ قبلتي، تحت سماء تحتلها غيوم رمادية، أقرب إلى السواد، ويبدو أنّها من شدّة كثافتها وكثرتها، لن تنجلي مرّة أخرى. إنني أتوجّه إليك في قلبي وروحي، فقبلتك هي الروح والقلب.. حيث لا تطاله الشياطين. إني نويتُ لك صلاة العصر... بسم الله الرحمن الرحيم... الحمد لله ربّ العالمين، الرحمن الرحيم، ...

كنت أشعر بكلّ قطرة مطر، تضرب رأسي وظهري وقدمي، وأنا خاشع في حالة السجود، التي كانت تطول بفعل حالة الخدر الأقرب إلى الثمالة، التي كانت تحتلني أكثر فأكثر، مع كلّ قطرة مطر، فتطيل سجودي... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... أنهيتُ صلاتي، ورفعت وجهي ويديَّ المفتوحتين بمستوى صدري، وأنا أتضرّع إلى الله بدعواتي التي دهمتني خلالها موجة بكاء غريبة.. فاختلطت دموعي بقطرات المطر التي كانت تضرب وجهي بجنون، وتغدو بطعم جديد. مزيج من طعم الدموع والأمطار.. مزيج من دموعي، ودموع السماء؛ دموعي على سفينتي الحجرية المتجهة بعزلة رهيبة إلى الله، ودموع الله من علياء ملكوته. فأحال الطعمين معاً، إلى مزيج من روحي المندمجة بروح الله، الذي تلبّسني في تلك اللحظة، وأنا أرى كفّي المتلاصقتين، تمتلئان بماء المطر، فأشربه بنهم، كتائه لم يذق طعم الماء منذ دهر.

شعرتُ بنشوة كبيرة، لم أشعر بها من قبل أبداً. فركبتُ البرق، الذي كان لونه الأبيض قد تحول إلى أحمر مُمزّق. ووجدت جسدي نظيفاً، مسحت الأمطار كلّ الطين العالق فيه. شعرتُ بحالة طُهر ونقاء غريبة. أحسستُ نفسي وكأنّي ذلك الطفل الذي وُلد وسجلّه خالٍ تماماً من كلّ أنواع الذنوب. انطلقت بالبرق، حتّى من دون أن أعرف الاتّجاه الذي عليّ أن أسلكه. دهمني شعور غريب، وثقة وإيمان مطلقان، بأنّني على الطريق والاتجاه الصحيح نحو بيتي، في تلك القرية التي تنتظرني فيها تلك الملاك الطاهرة.

كنت أسابق الريح والزمن، والمطر الذي غسلنا نحن الاثنين من جديد. لم أشعر بالوقت وأنا أطير على ظهر البرق، الذي كان يلتهم الأرض تحت حوافره بقوّة ونهم عجيبين. كنت طائراً صوب فاطمة التي كانت تلوّح لي من بعيد، وهي فاتحة ذراعيها، وقد تحوّل المطر إلى طرحة شفافة تكسوها بالكامل. فأخطفها عن الأرض، وأطير بها بعيداً، إلى ما وراء المطر والسحاب.

دهمني الظلام الذي زاده كثافة الغيم الأسود، والأمطار المتساقطة بجنون، سواداً وظلمة. وعلى الرغم من ذلك، كان لديّ شعور غريب، وأنا أسابق الأمطار والرعود الكثيرة، بأنّني لن أتوه، وأنّني طائر باتجاه القرية.. باتجاه قبلة الروح والقلب، فاطمة. فحتّى لو أخطأتُ جميع الاتجاهات، فإن لقلبي البوصلة التي لا يمكن أن تُخطئ أبداً، حتّى لو عصبوا عينيّ تماماً، فإنني قادر على إيجاد الاتجاه إلى حيث فاطمة، من خلال بوصلة الروح والقلب ذاتها، التي هدتني إلى القبلة، حين كنت أصلي قبل قليل، فاقداً الاتجاهات كلّها.

لمحتُ أطياف أضواء خافتة، تتراقص في الظلام، ومن خلف ستار المطر الكثيف. تُخفيها عنّي البروق القويّة المستمرّة، التي بدت كأنّها عازمة على إنارة الكون بنور الله القوي الذي يغشي الأبصار. إنه روح الله الذي يتجلى في نور البروق الشديدة القوية، التي تغشي الأبصار... إنه نور الله الذي ذُكر في كتابه العزيز. ثم كانت أطياف الأضواء الخافتة، تعود لتتراقص من جديد، بين كلّ موجة برق وأخرى تتبعها ببرهة قصيرة. سمعتُ صوت الأذان من بعيد، آتياً، بحزن وكأنّه ابتلّ حتّى الغرق، آتياً هكذا، من جهة الأنوار الخافتة المتراقصة خلف ستار المطر الشفاف. إنني أعرف ذلك الصوت، فبالرغم من أنني لا أعرف حقاً أيّ موعد هو للأذان، هل هو للمغرب، أم العشاء، إلا أنّني لا يُمكن أن أخطئ أبداً صوت الشيخ أسعد، وهو يرفع الأذان.
إذن! ها أنا ذا من جديد، أعود إلى القرية، وأقف أمام باب بيتي المقابل لبيت فاطمة، فتجتاحني موجة طاغية من الحنين، تدفعني إلى أن أحضن المطر والحصان وباب بيتي. فأسجد على الأرض الطينية، وأحضن المكان الذي قد تكون فاطمة وطئته بقدميها المباركتين. نهضتُ وأدخلت البرق إلى الغرفة المجاورة لغرفتي التي كان الضيوف عادة ينزلون فيها. ثمّ أخذتُ أنادي نعمان بصوت عالٍ: تعال يا نعمان، اجلب شيئاً نطعم به هذا الحصان البطل.
جاء حاملاً بعض الخبز، يضعه أمام الحصان. رحّب بي بنبرة بدا فيها بعض الفتور. كنت في غاية الفرح غير المفهوم. كنتُ غارقاً في نشوة ما بعدها نشوة، ولم أكُن لأسمح لنفسي بأن أؤذي أحداً. رجوته أن يخبرني عن سرّ هذه اللهجة الباردة معي، فأكّد بأنّني لم أفعل شيئاً يحزّ فيه، بل بالعكس إنه يحبني وكان قلقاً عليّ، ينتظر عودتي بفارغ الصبر. شعرتُ بالراحة، وهذا ما دفعني إلى سؤاله: بشّرني، ما هي الأخبار... هل من جديد يا صديقي؟
أجابني ودون مقدّمات هذه المرّة: نعم، لقد حدث الكثير في غيابك، إنّها الكارثة بعينها، لقد حلت الكارثة يا دكتور!

32

«في أيّ مكان تضطرم هذه النار، فإنها تحرق أرواح العُشاق وأكبادهم».
فريد الدين العطّار

طوال تلك الليلة، ظلّت قواتنا تحرس المنطقة التي اضطررنا فيها إلى البقاء بقرب الحدود، كانت الجبهة على الجانبين اللذين كُنّا نقع في المنتصف بينهما، هادئة تماماً مثل القبور. قضينا ليلة متجمّدة هادئة مليئة بالخوف وآلاف الاحتمالات، لنهار يحمل لنا الموت الجماعي المؤكد. مع طلوع أولى خيوط النهار، دبّت الحركة والضجيج في معسكر الجيش الذي كان يطاردنا، وكان قد انتشر الليل كلّه بجانبنا لينقضّ علينا، مع بوادر الفجر الأولى. فعلى مرّ السنوات الطوال للثورة، ظلوا يهاجموننا في الفجر وينهزمون أمامنا مع بوادر الليل الأولى. اتخذنا مواقعنا القتالية، بينما الأهالي شلّ الخوف حركتهم تماماً.

فجأة! ومن دون أيّ مقدّمات، أخذت قطعات الجيش الكبيرة تبتعد عنّا شيئاً فشيئاً، مخلفة وراءها غباراً ودخانا كثيفين. كان المشهد غير قابل للفهم وعصيّاً على التصديق. فمن دون أن يُطلقوا رصاصة واحدة، ها هم ينسحبون بعيداً عنّا. ومع ذلك، بقينا متخندقين في مواقعنا، مذهولين من هول انسحابهم المفاجئ، الذي استغرق وقتاً طويلاً، ولم يكتمل إلّا في ما بعد الظهر. فأصبحت مهمتنا العاجلة، هي تأمين حياة من بقي من الأهالي، أمّا المهمّة الأكثر استعجالاً، فقد كانت هي الحصول على الطعام لنا جميعاً، والعتاد لقواتنا.

بعد العصر بقليل، نزلت سيّارة من الجانب الآخر من الحدود، محمّلة ببعض الخبز الجاف والماء وبعض المعلّبات. وتحدّث الضابط الذي نزل من السيّارة، مع أحد قادتنا. فهمنا منه أنّهم سيفتحون الحدود بعد قليل، للأهالي فقط، وخصوصاً النساء والشيوخ والأطفال، وأنهم لن يسمحوا للشباب، وخصوصاً من يحمل سلاحاً، بعبور حدودهم.

لم أتمالك نفسي من الضحك بسخط شديد، من عبارته الأخيرة. عن أيّ حدود يتحدّث هذا المعتوه؟ هذه الحدود الوهمية القسّرية التي رسمها لهم الاستعمار كما يدّعون. ولكنهم، مع أنّهم يشتمون هذا الاستعمار على حد قولهم، يقدّسون ما خلّفه وفرضه عليهم من حدود، رُسمت بالألم على أرواحنا، قبل أن تُخط بالدم على أرضنا. إنها أرضُنا، أرض أجدادنا. فعلى الجانب الآخر من الحدود، وبعمق عشرات ومئات الأميال، تمتدّ منذ آلاف السنين، مئات وآلاف القرى والمدن الكردية، التي لا يحق لساكنيها حتّى القراءة والكتابة بلغتهم الأم، وكأنّها ليست لغة من خلق الله، بل رجس من عمل الشيطان. إنه وطننا الذي قسّموه ببرود غريب.. وها هُم، غدوا هُم الأسياد الذين يتحكمون في كلّ شيء، وليس لنا سوى التوسّل. عاودني الشعور القوي بالألم الذي استقرّ في صدري منذ يوم الانهيار الأكبر، فأحسستُ بتلك الثكنات التي ترفع تلك الأعلام ذات الألوان الثلاثة، والتي يتوسّطها اسم الله مكتوباً، من خلال مجموعة من الأهلّة الحمراء المتداخلة، أحسستها جراحاً تنزف قروحاً في العمق من روحي، وداخل قلبي.

مع بدء تدفق الأهالي إلى الجانب الآخر، خلف الثكنات المتقرّحة، بدأت قواتنا المنهكة مسيرها بمحاذاة المنطقة الحدودية، إلى أن وصلنا إلى القرية التي يقع فيها مقرّ قيادة قواتنا في تلك المنطقة. فتوزعنا على البيوت والمقارّ، مُنهكين نأكل كلّ ما تقع عليه أيدينا بطريقة غريبة، كأنّها عملية افتراس شرسة، لا مجرّد تناول طعام اعتيادي. عند انقضاء الليلة الثانية، وبعد الاستحمام واستعادة

بعض الراحة الجسدية، بدأ العذاب الحقيقي في أقصى درجاته، مع حصولي على جواب للتساؤلات التي أرّقتني حول النيران المتفرقة المشتعلة على طول الحدود أثناء ليلة حصارنا المظلم المتجمّد.. نعم لقد كانت نيران الاحتفال بعيد نوروز... انهالت عليّ الأفكار والخيالات المجنونة، محاولاً تذكّر كلّ ما حدث وفهمه، ولكن دون جدوى. فكلّما حاولتُ أن أفهم أكثر، تعقدت الصورة وعمّقت حالة الضياع التي دهمتني فجأة. يبدو أن حصار الموت والبرد والجوع، كان أرحم بكثير من حصار الاسئلة التي لا أجد لها أجوبة تقنعني، أو توضح لي هول ما حدث حقاً. شعرتُ بحالة التفاهة التي اجتاحتني وأنا أرى نفسي كيف كنتُ غافلاً عن هول الكفر الذي مرّ دون أن أشعر به، نتيجة وطأة الخوف من الموت، وحصار الظلمة والثلج والجوع والجيش.

مرّت الأيام القليلة الأخيرة لمقاومتنا اليائسة، في الدفاع عن مقارّ القيادة الرئيسية، غريبة جداً، إذ بدأت بالأخبار المُفرحة لتحرير مدينة مهمّة على أيدي قواتنا. وكان للخبر وقع السحر علينا، فتحرير مدينة كبيرة بحجم حلبجة، كان يعني لنا الكثير.. إنها أولاً، دليل على أن الثورة ما زالت قادرة على تنفيذ عمليات كبيرة موجعة ضد النظام، حتّى في ظل حصار القيادة المركزية، وضربها بكلّ انواع القوات والأسلحة. وكانت تعني أيضاً أن مقارّ القيادة يمكن أن تنتقل إلى هناك، إذا احتُلّت مقارّها في منطقتها الاصلية الوعرة. وفي النتيجة فإن استقرار القيادة في مدينة، يعني الكثير سياسياً.

الغريب أنّ هذه العملية التي ألهبتنا حماسةً، وأشعلت في الروح مزيداً من المقاومة الشجاعة، انقلبت خلال ساعات رأساً على عقب، إذ بدأت الأخبار الغامضة تردنا ونحن متحصّنون في خنادقنا، نقاوم أشرس هجمات يمكن أن يواجهها بشر. كانت في البداية أشبه بالشائعة التي تأكدت لبعض من كنّا نمتلك قدراً من رتب المسؤولية، من خلال أجهزة اللاسلكي، التي أكدت أن الخبر صحيح، وأنّ عدد الضحايا لا يُعّد ولا يُحصى، وأن البقاء في المدينة أصبح أشبه بالبقاء في منطقة وباء فتّاك، وهذا ما استدعى ممّن بقي من الأهالي إخلاءها هرباً من الموت. يا إلهي، ما هذا الموت الحديث، الذي بدأ ينتقل من قتل أفراد ومجموعات، إلى قتل مدينة بأكملها، وفي ساعات قليلة؟

في الأوقات القليلة التي كانت تهدأ فيها موجات القصف، أو الهجمات المستمرة، كنت أبحث في كلّ محطات الإذاعات العالمية، عن خبر لما حدث حقاً. أحسستُ بسخط شديد على العالم كلّه، فلم يكن هناك خبر البتة. تلك الإذاعات والوكالات، التي كانت تصمت عن انتصاراتنا الحقيقية، كان العديد منها، يتسابق في الحديث عن انتصارات وهميّة كاذبة ومفبركة عن تمكّن النظام من احتلال مواقع ومناطق، كانت لا تزال بالفعل تحت سيطرتنا. لكن الغريب أنّها كلّها كانت مُجمعة، بقسوة غريبة، على الصمت عن ذكر أيّ أخبار عن جريمة بهذا الحجم المروّع. في غمرة استماعي لإحدى تلك المحطات الدولية الناطقة بالعربية، تحدّث المراسل عن استعادة الجيش كامل مقارّ قيادة «التمرّد الكردي» على حدّ قوله. فاستشاط أحد الرفاق قائلاً: لا أدري لماذا تستمع إلى هذه المحطة؟ ألم أقُل لك إن عليها تغيير اسم مراسلها في العراق من «معن الكاتب» إلى «معن الكاذب»؟ هذا الكذاب تحدّث مساء أمس عن تمكن الجيش من احتلال هذا الجبل الذي لا نزال نقاوم عليه إلى الآن.

قصف حلبجة بالقنابل الكيماوية، عن طريق الطائرات المقاتلة، كان جريمة الخنق الكبير. وكانت حقاً سابقة، أصابتنا بالصدمة التي اعتقدت بأننا لن نخرج منها أبداً. لكن الغريب أن تأثيرها العسكري علينا كأفراد، كان على العكس تماماً. فبدلاً من أن تصيبنا بالانهيار، ملأتنا بكمّ كبير من

الحقد والشعور بالتحرّق إلى الثأر. دخلت حالة غريبة، كنت فيها على استعداد لارتكاب واستخدام كلّ ما في مقدوري، ضد العالم الصامت، ببرود يفوق بكثير برودة الخندق الذي أقف فيه، بينما تلفحني الرياح المتجمّدة من فوق، فيما قدماي غارقتان في الماء المتجمد، الذي تجمع في قعره. ذلك الخندق البارد الذي لو خرجت منه، فإن آلاف الشظايا ستحيلني في لحظات، إلى أشلاء ممزقة.

مع أخذ ذلك القسط الضئيل جداً من الراحة في المقارّ الحدودية، شعرنا بهول جريمة الخنق الكبرى. فبدأت الأخبار ترد عن قتل الآلاف، وجرح الآلاف بالقنابل الكيماوية. وكنت لا زلت أبحث في الوكالات التي كانت تتسابق في نشر أخبار السيطرة النهائية للجيش على مقارّ القيادة، وتصمت عن الوسائل والأسلحة التي استخدمها في تحقيق مهمته تلك. تصمت عن مقاومتنا الأسطورية، التي لولا احتلال الهواء عن طريق القذائف الكيماوية، لكان على معن الكاذب أن يستمر في نشر أخبار السيطرة على مقارّ القيادة، إلى أن يملّ الناس حتّى من تصديق أخباره الصحيحة. ها هي الوكالات تتبنّى صمت القبور، إزاء خنق مدينة بأكملها. كلّ هذه المعارك وأخبارها منذ أكثر من سنة، توّجت ذلك المراسل بلقبه الجديد، الذي انطلق من أحد رفاقنا بصورة عفوية، ولا أحد يدري كيف أصبح شائعاً، بحيث إن من لم يسمع باسمه من قبل، كان يعتقد فعلاً بأن «معن الكاذب» هو اسمه الحقيقي.

لم يكن لدينا المجال للاستمرار في أخذ قسط أكثر من الراحة في تلك المقارّ، إذ أصبح لزاماً علينا العودة بأقصى سرعة ممكنة، إلى مناطقنا الأصلية، لأنّها ستتعرّض بالتأكيد لهجمات مشابهة، فيجب أن نُسابق الزمن للوصول والدفاع عنها ضد الهجمات المحتملة، ولذا انطلقنا في اليوم التالي. ومع أننا دخلنا الربيع فعلاً، فإن هذه المنطقة الجبلية الوعرة لا تزال تقاوم بشتائها القارس وثلجه الغزير، الذي كان يلوّن كلّ شيء بلونه وجبروته.

يا إلهي، هل هو الربيع فعلاً؟ ما حكايتنا مع الربيع حقاً؟ فكلّما نستبشر خيراً بربيع ونعدّه ربيع الانتصار النهائي، يكون هو ذاته ربيع الهزيمة القاسية. دهمتني كلّ ذكريات انكسار الثورة، في يوم الانهيار الأكبر قبل ثلاثة عشر عاماً بالتمام والكمال. يومها... كنّا نتهيّأ كلّ يوم، لسماع الإعلان عن النصر النهائي، من خلال محطة راديو الثورة في الأيّام القليلة التي سبقت عيد نوروز. إلّا أننا تلقينا أكبر ضربة في أرواحنا، لم تستطع حتّى الثورة الفتيّة المشتعلة بعد ذلك، محو آثارها نهائياً. يومها تحوّل حلمي بلقاء أبي وهو مُحمّل بالنصر، إلى كابوس انتظاره الطويل، الذي أدّى بنا في ما بعد، إلى أحد المخيّمات في عمق الأراضي الإيرانية. وها أنا أحمل السلاح بعد أبي، وأستمرّ على الدرب الذي أورثني إيّاه. ووصلنا إلى أن نقف في الربيع الملتهب السابق، على أعتاب النصر النهائي، فإذا بنا ندخل الآن، الربيع، بهذه الهزيمة التي كُتب علينا أن نُصاب بها بطريقة غير عادلة، وأمام صمت العالم أجمع، وحيدين منعزلين، نكفر بكلّ شيء. فما سرّ هذا التوقيت الغريب مع الربيع؟ يا إلهي، ما كلّ هذا العبث المتزايد؟

عندما تتلقى ضربة على الرأس، تكون مؤلمة حقاً، لكن إن تلقيتها بنفس القوّة، وعلى غفلة، ومن حيث لم تتوقع، فإنّها ستكون أشدّ وقعاً وألماً، أمّا حين تتلقاها في اللحظة التي تكون منتشياً فيها بالأمان، وتأتيك الضربة من حيث لم تكن تتصوّر أبداً، عندها يكون من العسير أن تشرح لأحد، ما شعرت به حقاً. ويستحيل على الآخرين أيضاً، فهم ما تقول وتشرح. ذروة السخرية في حكايتنا، تتجلى في أنّنا كلّ مرّة نُهزم بفعل قوّة أشبه بالغيب. يكون توقيته أكثر قرباً من الربيع وبدايته

الميمونة بالنسبة لنا. سبق يوم الانهيار الأكبر، يوم نوروز، عيدنا القومي الذي يصادف اليوم الأول من أيّام الربيع، بأسبوعين لا أكثر... وها هي المسافة الزمنية بين نوروز والهزيمة تتقلص مرّة أخرى، إذ لم يسبق خنق تلك المدينة بأكملها، إشعال نار نوروز سوى بأربعة أيام فقط... فيما كانت المدّة التي فصلت بين احتلال مقارّ القيادة المركزية ويوم نوروز أقلّ من ذلك بطبيعة الحال.
ما بين ذلك الانهيار الأكبر، الذي حدث قبل ثلاثة عشر عاماً، وخرّب علينا حلاوة إضرام النار عشيّة نوروز ذاك، وبين نوروز هذا العام، تربض سنوات من التحدّي الجنوني، من أجل إضرام النار التي تحرق سنة بأكملها مضت، لتضيء الدرب لبداية سنة كردية جديدة. كان مساء يوم العشرين من مارس، يتحوّل إلى مساء للتحدّي وإضرام النار، التي كانت تعني أنّ البطل الكردي كاوا الحداد الذي أشعل النار ذلك المساء – كما تتحدث الأسطورة الكُردية – سوف يقتل الطاغية ويُخلّص الناس من ظلمه، فيحتفل الناس في اليوم التالي بيوم الحرية، الذي يصادف أول أيام الربيع، ويُصادف أيضاً، اليوم الأول من التقويم الكُردي الذي بقينا نصرّ على استخدامه في ما بيننا، دون الالتفات إلى كلّ المخاطر والمحظورات التي كانت تترتب على ذلك التصرّف. طيلة تلك كلّ السنوات، وعلى الرغم من كلّ الطغيان والقسوة، بقينا مُصرّين على إشعال النيران في الأماكن العالية كلّ عام، ونحن عُزّل. وكانت تؤدّي في كلّ مرة، إلى ردّ فعل قاسٍ من السلطة، التي كانت تردّ علينا بمنتهى القسوة. ومع ذلك، بقينا مستمرّين في أداء هذا الطقس، الذي ارتقى عندنا إلى مرتبة القداسة.
هذه الروح المتمرّدة المتحدّية، لم تركن يوماً إلى الاستسلام، أو تستكِن، حتّى عند أوج قوّة النظام، وفي ذروة عزلتنا، لم تنطفئ نارها النوروزية لحظة، فأدّت إلى العديد من انتفاضات الشباب وتظاهراتهم، كانت تشتعل بعض السنوات محدودة المكان والزمان، بينما كانت شرارتها تنتشر لتشعل عدّة مدن وبلدات في سنوات أخرى. حدث إحداها في ذلك العام، حين اجتاحت التظاهرات الجامعة والمدارس الإعدادية وحتّى بعض المدارس المتوسّطة. كان النظام مرعوباً من اشتعالها، فعالجها بالعنف وإطلاق النار الذي أدّى إلى جرح العديد من الشباب في أكثر من مدينة، وأدّى كذلك إلى تتويج تضحياتنا العنيدة تلك، بدماء اثنتين من أرق الكائنات في مدينة قلعة دزة.
بقيت تظاهرة قلعة دزة التي تربض في ظلال قمم قنديل الشامخة متميّزة، إلى درجة تتويجها بدماء الكثير من الشباب، لكن استشهاد كلّ من صنوبر وآمنة، كان الحدث الأهم والأبرز فيها، كانت مشاركة النساء في تلك التظاهرة سابقة بكلّ المقاييس، وأعادت تضحيات كلّ نسوتنا في التاريخ وأشعلت النار في الروح المتمرّدة أصلاً، وعملت على استعادة ذكرى الشامخة ليلى قاسم، طالبة جامعة بغداد التي قُبض عليها مع مجموعة من زملائها وأُعدموا قبل يوم الانهيار الأكبر، أي حين كانت الثورة في أوج قوتها. قيل حينها إن شجاعة ليلى أثناء السجن والتعذيب الوحشي وحتّى أمام المشنقة كانت بدرجة أذهلت جلّاديها وأصابتهم بالرعب، فكان أن تماهت في تلك اللحظة مع سمعة جميلة بوحيرد في الشجاعة، ولتثبت أن هذا الشعب المستعدّ للتضحية بكلّ شيء من أجل حرّيته، ليس بأقلّ من شعب الجزائر العظيم، منارة الثورة وشعلتها في العالم آنذاك. كان ذلك قبل سنوات من تحوّل الرئيس الجزائري إلى وسيط يستضيف حفل ذبح ثورتنا على مذبح الثورة الجزائرية، وسط مراسم اختلطت فيها رائحة نفطهم بدماء شهدائنا، وصرخة ثورتنا المذبوحة.
كان قدر هذه الجامعة المتمرّدة، جامعة السليمانية، أن تظلّ رمزاً للتمرّد والشموخ. فحين كانت الثورة أشبه بالدولة في مؤسّساتها، وبعد انهيار الاتفاق مع النظام الذي استمرّ أربع سنوات وانتهى

بمرحلة المعارك التي أوصلتنا إلى اعتاب النصر النهائي، وأدّت بنا إلى الانهيار الأكبر، نقلت الثورة، من ضمن ما نقلت، جامعة السليمانية التي استقرّت حينها في مدينة قلعة دزة. كان ذلك كافياً لكي يدفع بالنظام إلى قصفها بالطائرات المقاتلة وقنابل النابالم الثقيلة، فقصفت المدينة والجامعة المستقرّة هناك حديثاً، وبعدها بيومين فقط قصفت، بنفس القنابل والطائرات، حلبجة، وذلك قبل أن تعود لتُخنق بالقذائف الكيماوية بعد ذلك بأربعة عشر عاماً... كلّ هذه الروح العنيدة المشتعلة بنار الثورة النوروزية، التي ظلّت متّقدةً بالرغم من كلّ العنف وكلّ القسوة، أدّت في النهاية إلى نقل الجامعة التي كانت قد عادت إلى مكانها الأصلي بعد الانهيار الأكبر، إلى مدينة إربيل، وغُيّر اسمها إلى جامعة صلاح الدين، التي ما لبثت أن اشتعلت هي الأخرى، بعد عام واحد، بالمظاهرات، فكانت دماء الجرحى والشهداء منهم الدليل الأكبر على خسارة النظام لكلّ رهاناته.

يا إلهي، ماذا أفعل بكمّية السخط التي تخنقني الآن؟ ماذا أفعل بهذه السيول المتراكمة من النقمة والسخط، التي أحملها في روحي، والتي لو أتيح لي افراغها لأغرقت العالم كلّه؟ لو كان الأمر بيدي لحطمت هذا العالم القاسي الظالم، بضربة واحدة. ما هذه السخرية؟ حتّى حين كُنّا عُزّلاً، لا نملك أسلحة ونحن لا نزال مجرّد طلبة مدارس ولم نبلغ بعد عمر الرشد كما يقال، كُنّا نمارس طقسنا المقدّس في إضرام النيران مساء كلّ نوروز. وكانت المدن والقرى تتغطى في تلك المساءات، بستار كثيف من الدخان الأسود، الذي كان يُشكلّ مع ألوان اللهيب التي كانت تشتدّ جاذبية كلّما اشتد الظلام، أجمل لوحة نعبّر بها عن وجودنا. أمّا الآن، فبينما أنا ورفاقي مدجّجون بالسلاح، فإذا بنا نقضي مساء نوروز، أي المساء الموعود بإضرام النار المقدّسة، بين قوّة كبيرة من الجيش، تُحاصرنا.. وتُحاصر حتّى الهواء وأنفاسنا بسلاحها الخانق الجديد.. وبين ثكنات للإيرانيين تمنعنا من إضرام النار، حتّى لو كان بغرض تدفئة أنفسنا من التجمّد في الثلج المظلم، الذي أصبح هو الكون بأكمله..

يا إلهي! ماذا فعلنا لكي نُعاقب بكلّ هذه القسوة الرهيبة؟ ألم تجد موعداً آخر تحرمنا فيه من إضرام النار؟ وهل هذا هو عقابنا على اتهامات لنا بعبادة النار؟ لم أكُن أتصوّر في حياتي كلّها، عقوبة أقسى من هذه قط. وعليّ أن أعترف بأنّني، حتّى هذه اللحظة التي أشارف فيها على منتصف الليل، في هذه المقبرة بجوار قبر آتيلا، لم أشهد أقسى من تلك العقوبة في حياتي كلّها... فحتّى قتل عشرات الآلاف، وتدمير البلاد بأكملها، لم يضاهِ في قسوته على أعماق روحي، قسوة ذلك المساء النوروزي، الذي كُنّا نَعِدُ فيه الأنفس بالنصر والحرّية كما تقول أسطورتنا القومية.. فإذا به ينقلب نوروزاً منسيّاً، من هول الموت في عزلة، ونُمنع فيه من إضرام النار، حتّى لو كان بغرض التدفئة.. وليس للاحتفال بالحرية.

درجة السخط تلك لم تفارقني إلى هذه اللحظة، التي أشعر فيها بأنّني أزداد احساساً بالسخط على الأرض والسماء. بينما أنا أقف بجوار قبر آتيلا، يحتلّ سؤال وحيد كامل كياني وروحي: تُرى أين ترقد الآن فاطمة، وعشرات الآلاف الذين لا نعرف مصيرهم؟ لو أتيحت لي السلطة الآن، لما تردّدت لحظة واحدة، في إحالة العالم كلّه إلى قبر واحد.

33

«فلتنعم عليّ يا إلهي العادل، بقبض روحي، حيث فقدتُ طاقة التحمّل».
فريد الدين العطّار

عندما عدتُ طائراً على ظهر «البرق»، ذلك الحصان الأبيض الرائع، كانت فاطمة قد حُبست في البيت، كما أخبرني نعمان، ومُنعت من الخروج نهائيّاً. كانت إحدى النساء من القرى المجاورة، قد جاءت إلى بيت الشيخ أسعد وأخبرتهم بأن حكاية حبّي أنا وفاطمة، باتت حديث الليل والنهار، وأنّ الناس لم يعد لديهم سيرة سوى فضيحة ابنة الشيخ التي عشقت التركمانيّ السكّير المسكين. لم أستطع النوم ليلتها، وبقيت بملابسي المبللة التي عليّ. كانت الأمور قد وصلت إلى حدّ يستحيل معه التفكير في الاحتمالات والخيارات والحلول. لقد وقعت الكارثة كما قال نعمان، وقُضي الأمر.

في الصباح التالي، جاءني الشيخ عزيز شقيق فاطمة، وأراد التحدّث معي على انفراد، وكان عندي مجموعة من الضيوف. لكنّي، وقد وصل بي اليأس إلى أقصى درجاته، قلت له: لا داعي للحديث على انفراد، قل ما عندك وأنا بخدمتك.

قال منفعلاً: لمَ لا تحلّ عنا؟ هل وعدناك بتزويجك أختنا؟ فهي تقول إنّها لن تقبل بك، لماذا تصرّ إذن على أن تقع كارثة لا نريدها لك؟

وصل بي الغضب إلى درجة لم أعد أتمالك فيها نفسي فقلت: أنا وفاطمة كلّ منّا يحبّ الآخر منذ ستة أعوام، وتعاهدنا على أن يكون كل منّا للآخر أو نهلك دون ذلك.

– إذن، أنت تقول إنّ أختنا قد خانتنا وأحبّت مسكيناً واستغفلتنا؟

– حاشا لله.. يا أخي، هداك الله.. هي لم تخنكم ولا استغفلتكم، لقد غيّرتني من سكّير مدمن إلى عابد مؤمن، واختارت شريك حياتها. كلّ ما نريده منكم هو الزواج الشرعيّ وعلى سُنّة الله ورسوله... فلماذا لا تفهمون؟ لو كانت في قلوبكم ذرّة من إيمان ورحمة، لحُلّت المشكلّة كلّها بسهولة. أرجوكم.. أتوسّل إليكم أن لا تؤذوها، فهي أشرف وأطهر امرأة على الأرض. اقتلوني أنا إن كان ذلك يرضيكم، لكن لا تؤذوها هي، بحقّ السماء والأنبياء والأولياء جميعاً.

ودون إرادة منّي انهرت في موجة بكاء وأنا أنهي كلماتي الأخيرة. لم يقل شيئاً، بل نظر إليّ بعض الوقت ثمّ قال ببرود: حسناً.. أعدك بأنّها لن تتعرّض للأذى، فهي ابنتنا في النهاية، وغادر ببرود.

كان المطر قد توقّف نهائياً بعد وصولي إلى البيت، وكانت شمس النهار التالي ساطعة قويّة. خرج الضيوف وبقيت وحيداً مع نعمان. جاءت قريبة أمّي وطلبت الانفراد بي وكانت تحمل رسالة من فاطمة. كان ذلك أوج الذهول بالنسبة إليّ، فهذه الملاك لا تكلّ ولا تملّ، ولا يمنعها عن حبّي حتّى الحبس، لا بل وحتّى عدم معرفتها بالقراءة والكتابة. وها هي تستعين بمن يكتب ما تريد أن تبعثه لي. يا إلهي، لم أكن أتخيّل وجود كلّ هذا الكمّ الهائل من العشق الخالص، وهذه الشجاعة والإرادة، وهذا الإصرار الخرافيّ. كنت أرتجف بالكامل، انهمرت بموجة بكاء وأنا أقرأ كلماتها البريئة التي كانت تحمل كلّ ما في العالم من ألم وعشق.

– كفّ عن البكاء واكتب لها الردّ بسرعة، فقد وعدتها بإيصال ردّك اليوم. كفّ عن البكاء مثل النسوة واسترجل واكتب لها رسالتك، وضع ثقتك بالله وبعشق فاطمة، وبي أنا.

انتهى ذلك اليوم الدافئ على العالم والناس والأرض المبلّلة بالأمطار والسيول، والبارد عليّ بظلمه الذي لا يجيرني منه سوى عظمة فاطمة وشجاعتها الجنونيّة. عند المساء، عاد نعمان يهوّن عليّ

الوضع الجديد: لقد جئتك بالأخبار، ولديّ فكرة أعتقد أنّها ستحلّ المشكلة كلّها.
كنت غارقاً في اليأس، منتشياً برسالة فاطمة ورائحة يديها المباركتين على الورقة، مذهولاً بجنونها وصدقها، فقلت بفتور: تفضّل، هاتِ ما عندك.
– بعد ذهابك لمعالجة الجرحى، أرسلت في غيابك الشخص المناسب إلى الشيخ محمد ابن الشيخ صالح، وأخبرته بأن يذهب إلى صديقنا عبد الكريم الذي جاء معهم لخطبة فاطمة، لكي يتفاهموا على طريقة مفاتحته في قضيّة ترك فكرة الزواج بفاطمة، وقد تحرّك لكنّه لم يعد بعد.
شكرته بفتور، لم أكن أعلم جدوى كلّ ذلك بعد وقوع كارثة انكشاف كلّ شيء، لكنّه استدرك: لا تيأس، فإذا اقتنع الشيخ محمد بطلبنا، نكون قد أبطلنا أكبر خطر يقف بينكما. ثمّ.. إذا حصل ذلك، فأنا أقترح أن نذهب إلى سلمان نترجّاه في التوسّط لدى الشيخ لقبول زواجكما. فكما تعلم، هو من مدينتنا ويحبك كثيراً. وهو القائد الأعلى لقوّاتنا في كلّ المنطقة، ولا أعتقد بأنّ الشيخ يستطيع أن يرفض وساطته.
على الرغم من هول الكارثة، لكنّ رسالة فاطمة ووعد الشيخ عزيز لي بعدم إيذائها، وكلّ ما فعله صديقي نعمان من أجلي، جعلتني أستعيد بعضاً من إرادتي. لكنّ الحقيقة هي أنّني حين وصلتُ إلى أقصى درجات اليأس، وأحسستُ بأنّ كلّ ما كنت أجهِد نفسي في إخفائه، قد انكشف نهائيّاً، وأنّ الأمور قد خرجت من اليد إلى درجة لم يعد لأحد القدرة للسيطرة عليها، غمرتني موجة شجاعة مفاجئة مصاحبة لقدر كبير من الارتياح، وها أنا أقف أمام انسداد الأبواب كلّها، لكنّني أصارع المستحيل لكسر تلك الأبواب. وحين تعجّب نعمان من استعادتي الفجائيّة لوضعي وشجاعتي، قلت له: أنا أملك فاطمة بكلّ شجاعتها الجنونيّة وعشقها الصادق المطلق، كما أمتلك أناساً متفانين كقريبتي، والأهم من ذلك، أنّ لديّ صديقاً وفيّاً مثلك. وفي النهاية لقد انهار كلّ شيء، فما الذي بقي كي أخاف منه. المبلّل لا يخاف المطر يا صديقي العزيز.
بعد أيّام، بينما كنت أستعدّ للمغادرة إلى بيت الحاج عزيز لإعادة حصانه الأبيض وكذلك لإكمال معالجة الجرحى هناك، جاءني الشيخ حسن شقيق فاطمة منفعلاً. طلب منّي التحدّث، فأخذنا نتمشّى، قال لي بانفعال بادٍ: اسمع يا دكتور، كلّ القرية، لا بل كلّ المنطقة، أصبحت تعلم بحكاية علاقتك بفاطمة، وكما تعلم فإن مثل هذه العلاقة المحرّمة معيبة جداً ولن نتحمّل المزيد من الفضائح.
قاطعته: وما هو المعيب فيها؟ ما العيب الذي رآه الناس لكي يكيلوا لنا كلّ هذه التهم الباطلة؟ أنا لن أقبل بهذه الاتهامات، إنّ عشقنا طاهر نقيّ. أقسم لك أنّني لم ألمسها حتّى الآن. ثمّ إن كنتم تعلمون بأنّ كل واحد منّا يحبّ الآخر هكذا، فلماذا لا ترقّ قلوبكم وتحلّوا المشكلة؟ وافقوا على زواجنا ولا تظلمونا أكثر من ذلك، والله العظيم، إنّ ما تفعلونه بنا هو الحرام بعينه.
زاد جنوناً وصاح: أنا أحذّرك، عليك أن تغادر هذه القرية نهائيّاً. وأقسم أنّك إن لم تغادرها خلال شهر واحد، فإنّني سأقتلك بيديّ هاتين.
– وهل هذا قراركم جميعاً، أم هو رأيك أنت وحدك؟
– إنّه رأيي أنا، وأقسم أنّني سأنفّذه ما لم تغادر خلال شهر واحد.
– إذن، أنا سأشكوك للشيخ الكبير.
– افعل ما شئت، لكن، أقسم أنّه لن يمنعني شيء من قتلك إن لم ترحل.

ذهبتُ إلى الشيخ بسرعة فاصطحبني للتكيّة، أخبرته بما دار بيني وبين ابنه، وسألته: يا شيخ، هل هذا هو قرارك، أم هو تصرّف من الشيخ حسن وحده؟
اضطرب كثيراً وقال بنبرة مستاءة: كلّا يا بنيّ، هذا تصرّف غبيّ منه وحده، فعلى العكس من ذلك، إذا رحلت أنت فسيتعقّد الوضع أكثر، وتكون الفضيحة أكبر، بقاؤك هو عين العقل.. ابقَ حيث أنت.
هنا دخل الشيخ حسن وأمّه إلى التكيّة، وقبل أن يجلسا، خاطب الشيخ ابنه بلهجة غاضبة: كيف تفرض على آتيلا الرحيل؟ ومن الذي سمح لك بذلك أصلاً؟ ألا تعلم أنّه إذا رحل فستتعقّد الأمور أكثر فأكثر؟ هذا الشاب عاقل، بقاؤه يخدمنا ويخدم سمعتنا أكثر من رحيله.
توجّهت إلى الشيخة مخاطباً: كلّ فتاة تحكي لأمّها عن كلّ أسرارها، وأنت الوحيدة التي تعلمين جميع أسرار فاطمة، بالله عليك، هل لمحت ولو من بعيد ما يعيب علاقتنا؟
ردّت بحزم: لا والله، فعلاقتكما أنقى وأطهر ما شهدتُ وسمعت.
هنا خاطب الشيخ حسن أمّه غاضباً: إن كانت علاقتهما على تلك الدرجة من الطهارة، وهو شريف لهذا الحدّ، إذن، لماذا تردّدين باستمرار أنّنا تورّطنا مع هذا التركمانيّ السكّير؟
هنا تدخّل الشيخ حاسماً الموضوع بأكمله: لا يحقّ لأحد التفوّه بمثل الكلام، فالرجل قد تاب، والله سبحانه وتعالى يقبل التوبة، ولن أسمح لأحد بأن يقول عنه سكّير.. ثم توجّه إليّ: وأنت يا ولدي، ابقَ في بيتك معزّزاً مكرّماً، ولن أسمح لأحد بالتعرّض لك مجدّداً. أنا لديّ زيارة بعيدة بعض الشيء، سأذهب لزيارة قريبي الشيخ صالح، ولن أتأخّر. وعندما أعود، سأكون بخدمتك.
تسمّرتُ في مكاني، ولا أدري كيف قمت وودّعته. قبّلت يده وخرجت كالطير المذبوح وأنا مرتعب من زيارته تلك. كان كلّ تفكيري في تلك اللحظة منصبّاً على المهمّة المستحيلة التي تكفّل بإنجازها صديقي نعمان في محاولة لثني ابن الشيخ صالح عن فكرة الزواج بفاطمة. وبالرغم من البصيص الضئيل الذي ظلّ ينيرني في الأعماق، أُصبت بيأس أقرب إلى الانفجار.
انطلقتُ بالبرق، بعد أن سلّمتُ قريبة أمّي رسالة أشرح فيها لفاطمة كلّ ما حدث... كانت الأرض قد جفّت تماماً. كانت على العكس تماماً من رحلة عودتي إلى البيت. فقد كان النهار مشرقاً وليس هناك سيول هائجة على الأرض وفي الأودية. لكنّ سيولاً أخرى اجتاحت كياني كلّه، فأخذت أنتحب وحيداً في تلك البرّية وأنا أصيح وأتوسّل إلى الله تارة، ثمّ أنزل تارة عن الحصان وأنتحب وأهيل التراب وبقايا الطين على رأسي وأبكي بحرقة اليتامى. حين وصلتُ إلى القرية، كان الحاج عزيز واقفاً بقرب بيته ينتظرني، وما إن نزلت حتّى خاطبني متعجّباً: ما بك يا بنيّ؟ أنت في غاية الإنهاك، تبدو أشبه بالمجانين، من الذي فعل بك هذا كلّه؟
لم أستطع أن أردّ عليه سوى بالمزيد من البكاء، ما جعله يزيد في إصراره لعلّه يساعدني. فقلت له وأنا أنفجر في نوبة بكاء جديدة: لا أحد يستطيع مساعدتي، علاجي فقط عند الشيخ، وهو جامد في مكانه لا يفعل بي شيئاً.. لا هو يعالجني ويفرحني، ولا هو يسخطني أو يدعو عليّ لكي أموت وينتهي هذا العذاب.
– أقسم بالله إذا وافق الشيخ على زواجك بابنته، فسأمنحه كلّ ثروتي، وسأذبح الآن فوراً الكبش الكبير، نذراً وقرباناً، لعلّهُ يشفع لدى الله في تليين قلب الشيخ.
– لا تتعب نفسك يا حاج، فالشيخ لا يملك قلباً حتّى يلين.

عندها ارتفع صوت زوجته قائلةً في حرقة وحنان: نذر عليّ، إذا وافق الشيخ على زواجكما، لأذبحن أنا أيضاً قرباناً لله ورسوله والأولياء.
بقيت ليلتها في بيت الحاج عزيز، حيث حلّ سلمان ذلك المساء ضيفاً، فحاولتُ أن أشرح له الأمر، قاطعني: ماذا تشرح يا دكتور؟ ليس في المنطقة كلّها من لم يسمع بقصّتك. وأنا أعرف أنّ الكثير من الناس يتعاطفون معك، بل إنّ الكثيرين منهم حاولوا مفاتحة الشيخ في الموضوع، حتّى من دون علمك أنت.
– إذن، أتوسّل إليك، الكلّ يقولون إنّ هذه المهمّة لا يقدر عليها أحد غيرك، فالشيخ أو أيّ أحد لن يرّد لك كلمة، أتوسّل إليك أن تتوسّط لدى الشيخ بسرعة. والله العظيم سأموت من القهر والحزن، لم أعد أحتمل المزيد.
– أنا بخدمتك، لكنّني مضطرّ للسفر إلى الخارج بأسرع ما يمكن لمعالجة مرض تعاني منه زوجتي، ويُقال إنه خطير، ويجب أن تتلقّى العلاج بأقصى سرعة. أعدك بأن أذهب للشيخ ولن أتركه إلى أن يوافق، لكن انتظر عودتي من السفر.
أُصبت بحالة شعرت فيها بأنّني لا أسيطر على أجزاء جسمي، وبأنّ رأسي أصبح عبئاً ثقيلاً، وقلت له بانكسار: ولكن... إلى أن تعود أنت من السفر، تكون القيامة قد قامت، ويكون كلّ شيء قد انتهى.

34

«وإن تعرف النهاية فأيُّ جدوى من تلك النهاية؟».
فريد الدين العطّار

عندما بدأت طلائع قوّاتنا المنهكة بالوصول إلى مناطقنا الأصليّة، لم تكن المعارك قد وصلت إليها بعد. وكان الجيش وأعوانه قد بدأوا بمهاجمة المنطقة التي كانت تفصل منطقتنا عن المنطقة التي كانت تقطنها مقارّ القيادة قبل أيّام مضت. لكنّ المرحلة الثانية من سلسلة المعارك التي امتدّت لعدّة أشهر بعد ذلك وجرى مجملها تحت مسمّى واحد هو «الأنفال»، وحملت كل معركة منها رقماً يدلّ على إنهاء إبادة منطقة بأكملها، كانت خاطفة... سريعة. مع استخدام أقلّ القوّات، لكنّ القذائف التي كانت تنفجر بصمت مرعب، بدأت تفعل فعلها، خصوصاً بعدما خنقت تلك المدينة الكبيرة. فكان يكفي قصفها بصمت خانق لأكبر القرى التي كانت تتوسّط تلك المنطقة، ليؤدّي ذلك في الحال إلى انهيار الناس والقوات القليلة الباقية هناك.

خلّف ذلك القصف خنق القرية بأكملها، ولم ينجُ منها سوى من كانوا خارجها، أو أنّ رائحة التفّاح الخانقة لم تتمكّن من إزهاق أرواحهم فتركتهم نهباً للغيبوبة.. فراح أهالي المنطقة بأكملها يهربون دون معرفة الوجهة الصحيحة. فرحل منهم من تمكّن من الوصول إلى المدن القريبة، ومنهم من وقع في الكمائن الكثيرة التي كان الجيش وأعوانه ينصبونها للإيقاع بقوّاتنا وبالأهالي. أمّا البقية، فقد هربوا من الموت المحقّق عابرين السلسلة الوعرة الشاهقة من الجبال باتجاه منطقتنا المنبسطة في غالبيّتها.

كان لاحتلال مقارّ القيادة الذي لم يكن يخطر على بال أحد، أثر خطير على معنويّات الأهالي في مناطقنا. وكان ضرب المدينة وخنقها بالقنابل المرعبة في صمتها، وكذلك هرب الأهالي من مناطق المرحلة الثانية من تلك المعارك الوحشيّة، وحديثهم المفصّل عمّا شاهدوه من ممارسات مخيفة، ورعب القذائف التي تنفجر بصمت مصاحب لرائحة التفّاح الخانقة، قد أوصلت الكثير من أهالي تلك القرى إلى حالة اليأس. وبدأ بعضهم بالتواصل مع أقاربهم في المدن القريبة ومع معارفهم في السلطة لكي يهبّوا لإنقاذهم.

مع ذلك كلّه، بقيت الغالبيّة الساحقة من الأهالي تتلاطمها موجات الرعب مع موجات القوّات المهاجمة، فتصيبها بالشلل التام عن التفكير الذي يؤدّي إلى فقدانهم كلّ وجهة. فكانوا يصلون إلى منطقة ما، وحين يصل الجيش إلى هناك، يهرعون هرباً بعيداً عن هجماته باتّجاه المناطق العاصية. فيسمعون هناك قصصاً مخيفة عن قرب وصول الجيش إلى احتلال تلك القمم التي يرومون اللجوء إليها، فيعودون هاربين مبتعدين عن الجبل. وهكذا ظلّوا في العراء، فكان النهار يكشفهم كأهداف واضحة للطائرات المروحية التي كانت تتفنّن في معالجتهم بضربات إبادة كاملة. لذا استبدلوا مواعيد تحرّكهم وسكونهم، فأخذوا يختبئون أثناء النهار في الأودية وبين الأحراج، ويتحرّكون ليلاً.

لكنّ المفاجأة الصادمة وقعت عندما أثبتت الطائرات المروحيّة أن الليل لا يمكن أن يمنع عنها الرؤية ويحمي الأهالي من بطشها الناري النازل من السماء. عجيب أمر النصر والهزيمة، فعندما كنّا نحن المسيطرين، كانت هذه الطائرات المروحيّة العسكريّة جبانة إلى الحدّ الذي كانت تخشى فيه حتّى نيران أسلحتنا الشخصيّة، فتضطرّ إلى الطيران في أمداء أعلى من أن تطالها نيران

بنادقنا الخفيفة. فكُنّا نعالجها بالأسلحة المتوسّطة، لكنّها الآن... أصبحت تطير بمستوى قريب من الأرض وكأنّها تتنزّه أو تنزل لتخطف من تشاء ثم ترتفع من جديد.
هذه الطائرات أصبحت الآن لا تكتفي النزول إلى أمداء مرعبة تكاد تلامس الأرض فحسب، بل بدأت تقصف قوافل الأهالي حتّى في الليالي الحالكة، وتصيب أهدافها بدقّة غريبة رغم الظلام. فكان الجيش بذلك قد احتلّ النهار بالكامل، وها هو يحتل السماء نهاراً، وفي وضع غير مسبوق، ها هو يحتلّ السماء ليلاً أيضاً... ويحتلّ الهواء برائحة التفاح الخانقة فيصيب الناس بحالة مجنونة للهرب دون وجهة معيّنة، ولم يبقَ له سوى أن يحتلّ كامل الأرض بإطباق هجماته على المنطقة بأكملها.
كان الأهالي تتلاطمهم موجات الموت المرعب من كلّ مكان دون هوادة، وحيدين.. معزولين وقد تخلّت عنهم الأرض والسماء. كان السبب الوحيد لتأخير ذلك القدر المحتّم هو مقاومة قوّاتنا المنهكة التي باتت تفتقر إلى السلاح والعتاد الكافي لخوض تلك المعارك. فكنّا نقاوم بأقصى ما نستطيع، فتنزل ريح التفّاح الخانق لتحتلّ الأنفاس وتجبرنا على أن نلوذ بما بقي من أنفاسنا وأسلحتنا وعتادنا.. فكُنّا نفقد المرتفعات تلو الأخرى ونعبر الأودية الواحد بعد الآخر.
إلّا أنّ الأكثر خطراً والأشدّ رعباً من تلك الحشود الضخمة وكلّ أسلحتها من الأرض والسماء وحتّى من قذائفها الصامتة التي كانت تبسط الموت بسرعة محمّلة برائحة التفّاح الخانقة، تلك العبارة السحريّة الجديدة التي كانت تصيب أيّ قوّات، مهما كانت قويّة، بحالة ذعر عجيبة وتفقدها التوازن ولو لبعض الوقت، «ها قد جاؤوا»، وكانت تُقال عادةً بنبرة الخائف المرعوب الذي انقطعت به سبل النجاة، فكان الناس يهربون دون هوادة ودون تحديد الوجهة فور سماعها.
لم أكن أتصوّر أن يوجد حتّى أخطر من تلك العبارة. لم أتوقّع أن يكون هناك ما هو أشدّ فتكاً منها، لكنّنا كُنّا نعيش عصراً تسقط معه كلّ حدود التوقّعات، وتحدث كلّ الأمور التي يعجز الخيال عن تصوّرها، فجاءت الضربة القاصمة التي نقلت الخطر من جهة المواجهة المباشرة إلى داخل صفوفنا، لا بل حتّى إلى جبهتنا الخلفيّة. ومع ذلك كلّه، بقينا نقاوم بشراسة اليائس. كلّ هذه الانكسارات، وكلّ الصدمات المتلاحقة أصابت الكثير من قوّاتنا بحالة فقدان معنويّاتها المنقطعة النظير، فبدأ الكثيرون يتحدّثون علانية عن محاولة مساومة الجيش والنظام من أجل الاستسلام، وأخذت العديد من قوّاتنا تتخذ طريقها في الاتجاه المعاكس لنا، نحن المقاومين.
كانت تلك ظاهرة لم تحدث في أحلك وأخطر سنوات الثورة. لذا، بدا الوضع وكأنّه انهيار شامل، إلّا أنّ الأمور لم تتوقّف عند هذه الحدود الخطيرة وحسب، فمقابل عرض العفو عن بعض أفرادنا بعدما كانوا يوسّطون أقاربهم من أعوان النظام وجحوشه، كان النظام يشترط في البداية تسليم الأسلحة الثقيلة والوثائق المهمّة الخاصّة بالثورة. ثم بدأت مطالبه هذه تتصاعد خطورةً، إلى أن وصلت إلى حدّ الطلب إلى أيّ فرد يريد أن يستسلم للنظام بسلاحه، ويكون بمأمن من الموت، أن يقتل من يستطيع من رفاقه.
تحوّلت نوبات الحراسة الليليّة في تلك الليالي القليلة التي كُنّا ننعم فيها ببعض الهدوء على الجبهة، إلى حقل موت ملغوم. فقد تكرّرت حوادث إطلاق بعض أفرادنا النار على رفاقهم وهم يغطّون في النوم وذلك أثناء نوباتهم في الحراسة الليليّة. فأصبحت الحراسة في حدّ ذاتها واحدة من أخطر المعضلات. فصار لزاماً علينا أن نضع جدول الحراسة الليليّة بحيث لا تحمينا من هجمات الجيش المفاجئة المحتملة وحسب، بل كان يجب أن تؤدّي إلى حمايتنا من محاولات الخيانة والغدر بنا من

قبل رفاقنا أثناء النوم. وبذلك أصبحنا نقصر الحراسة على القلة القليلة جدّاً ممّن لا نزال نثق بهم ثقة مطلقة.. ما أدّى إلى تقليص خياراتنا في إسداء واجب الحراسة إلى دائرة في أضيق الحدود، وهو ما كان يؤدّي بدوره إلى إصابة هذه النخبة الصغيرة بأقصى درجات الإنهاك الجسدي والعصبي.

كان الرجال الذين كانوا يتسابقون في ما مضى في الموت استشهاداً بفرح غامر، أصبحوا الآن يصطفّون في قوافل منكسرة تتهيّأ للاستسلام، تكفر بكلّ ما يمتّ للثورة بصلة. كان مشهداً عجيباً في غاية الغرابة، يفوق كلّ حدود الكوابيس. المؤكّد أنّ الكوابيس كانت أرحم من ذلك بكثير، فقد كانت مؤقّتة، نفيق منها على واقع يخبرنا بأن الكارثة لم تحلّ فنتنفّس الصعداء. أمّا هذه الكوارث، فقد كانت أقسى من كلّ الكوابيس، فبالإضافة إلى كونها غير مؤقّتة، حتّى حينما كنا نفيق من هول صدمتها، كنّا، على العكس من الكوابيس، نصحو على وقوع الكارثة.

وهكذا.. كنا وحيدين في العراء، لم يكتفِ القدر بعزلتنا وموتنا وقد احتلّ العدو الأرض والسماء والهواء والأنفاس وحسب، بل أخذ يحتلّ كذلك نفوس بعض أفرادنا الذين كانوا قد انهاروا تماماً تحت وقع تراكم كلّ تلك الكوارث والهزائم المروّعة غير المتوقّعة أبداً. كُنّا نفقد يوماً بعد يوم المزيد من القرى التي كان الجيش وأعوانه يحرقونها بالكامل، بينما كان أعوان الجيش ينهمكون في مشاهد في غاية السخرية والخزي بنهب بيوت القرويّين ومواشيهم التي اضطرّوا إلى تركها بينما هم يهربون من الموت المحقّق. فكُنّا نقف أحياناً على مقربة ونحن نرى كلّ تلك المشاهد التي تطعننا في الروح. ها هم أناس منّا.. يرتدون نفس ملابسنا الكرديّة ويحملون السلاح. لكنْ ليس للدفاع معنا عن شعبهم، بل مع الجيش يهاجمون بني جلدتهم ويقتلونهم، وينهبون قراهم وثرواتهم في مشاهد مخزية إلى أقصى مدى.

لم يكتفِ هؤلاء الخونة بكلّ هذه المخازي وحسب، بل ارتكبوا الجريمة الأكبر التي أدّت إلى المجزرة بأكملها، فقد كانوا يعطون الأمان للأهالي شرط أن يتركوا مناطقهم وقراهم بأقصى سرعة، وعندما كان هؤلاء الأهالي يهرعون إلى من سمّوا أنفسهم شيوخاً، أو آغاوات، واصطفّوا مع العدوّ ضدّ أقاربهم وشعبهم، كان هؤلاء يسلّمونهم للجيش الذي كان يسوقهم إلى المجهول، كما كُنّا نسمع في ما بعد.

35

«لقد أقبلت على عشق الحبيب بكلّ روحي،
وإذا حدث وتقاعست الروح، فقد جاء الوقت لأوقفها عند حدّها».
فريد الدين العطّار

غادرتُ بيت الحاج عزيز عائداً إلى بيتي في الصباح التالي بعد أن عالجت الجرحى للمرّة الأخيرة، وتركتُ لهم مستلزمات استكمال تطهير جروحهم يوميّاً. مع وصولي، كانت قريبة أمّي تنتظرني حاملةً رسالةً من فاطمة، وكان نعمان في استقبالي أيضاً قائلاً: أبشِر...

قلت: ماذا حدث؟ هل عاد الشيخ كاكه حمه من زيارته للشيخ صالح؟

– كلّا لم يعد بعد، لكن من عاد هو من كلّفناه بالمهمّة المستحيلة لزيارة الشيخ صالح وولده.

تسمّرتُ في مكاني، وقد وقفت الدماء في كلّ عروقي وانقطعت أنفاسي تماماً.. فاستطرد نعمان: لقد قابل رسولنا بصحبة عبد الكريم، الشيخ محمّد ابن الشيخ صالح. وتحدّثوا في كلّ شيء، وكان ردّ الشيخ محمّد بأنّه لن يقبل بمثل هذا الظلم. فكيف يمكن لشخص مؤمن أن يكون قاسياً إلى هذا الحدّ الذي يفرّق فيه بين قلبين صادقين عاشقين. «فوالله... حتّى لو جاء الشيخ بنفسه وتوسّل إليّ، فأنا من سأرفض الزواج بابنته هذه المرّة، ولن أكون جزءاً من ظلم كبير كهذا»...

بدا كأنّ الأمور تتطوّر بغرابة شديدة، فحيث تتعقّد وتنسدُّ أبواب الرحمة تماماً، تنفتح أبواب أخرى في المقابل. فلم أكن أتوقّع أن يكون لرجل قرويّ يُفترض فيه العناد والكبرياء والتعصّب، هذا الموقف الرائع. إذن، فأنا قد أمنت جانب هذا الخطر. لا أعلم ما السرّ وراء هذا الوضع المتقلّب، لكنّني أعلم أنّ هذا الموقف قد تعارض تماماً مع حركة المشاغبة الخبيثة التي قامت بها امرأة ثرثارة فضوليّة... حيث أجّجت علينا نار الفضيحة كما أرادت أن تسمّيها، حين حكتها أثناء زيارتها لبيت الشيخ أسعد عمّ فاطمة... هذان التطوّران المتناقضان أدّيا معاً إلى انعطافة في غاية الغرابة في المسألة برمّتها. ففي العادة، كان انكشاف قصة حبّ في مجتمع قرويّ كهذا، يؤدّي إلى القتل غسلاً للعار كما تعوّدوا على تسميته، أو تزويج الفتاة بشخص آخر رغماً عنها وإبعادها عن المنطقة بأكملها بسرعة كبيرة. لكن في حالتنا نحن، أدّت إلى نتائج عجيبة.

فمع أنّهم حبسوها ومنعوها من الخروج إلّا نادراً بصحبة أمّها فقط، ولوقت قصير جدّاً وفي الحالات الاضطراريّة، إلا أنّ فاطمة ابتكرت وسيلة الرسائل بالرغم من عدم فكّها للخطّ أصلاً! كما أنّ مشكلّة تبادل الرسائل قد حُلّت بطريقة غريبة أيضاً. كان من الصعب على قريبة أمّي أن تُكرّر كلّ تلك الزيارات، خصوصاً أنّ الشيخة كانت قد طلبتني للّقاء في بيتها عندما هدّدتني بأنّني إن لم أتخلّ عن فكرة الزواج بفاطمة، فإنّها ستشعلها حرباً طاحنة حتّى لو راح ضحيّتها أبناؤها الخمسة قتلى. ومع انسداد هذا الباب، انفتح فجأة باب آخر. فتحوّلت أغلب نساء القرية إلى مراسيل. فكانت الواحدة منهنّ تتطوّع للذهاب إلى فاطمة متذرّعة بزيارة الشيخ من أجل الدعاء وتلقّي الشفاء لطفل، أو ما شابه، وكانت تأتيني متذرّعة بطلب للعلاج لها أو لطفلها، مسلّمةً رسالة فاطمة ومتسلّمةً الردّ منّي.

على الرغم من انقطاعي عن رؤية فاطمة، وسماع صوتها العذب، والذوبان حتّى النشوة المطلقة في رائحتها النادرة جداً، إلا أنّ طيبة هؤلاء النسوة، ومخاطرتهنّ من أجلي أنا وفاطمة، كانتا أشبه بالمعجزة في ذات الوقت... وكان لذلك كلّه تأثير السحر الذي جعلني أقف مرّة أخرى على قدميّ،

وأنا أقارع كلّ هذه الكوارث والمرارات.. فلو عَلم أحد بما كُنّ يفعلنه، لكان مصيرهّن إمّا الطلاق الفوريّ، أو القتل، أو حتّى كليهما.
كلّما كنتُ أفكّر في انفتاح كلّ هذه الأبواب، كنت أحتار في إيجاد أيّ تفسير لها. فمن جانب، التطوّع العجيب لكلّ هؤلاء النسوة مع كلّ مخاطره، وعلى الجانب الآخر، موقف الشيخ محمد ابن الشيخ صالح الرائع غير المتوقّع. تُرى، هل هي معجزة أخرى؟ ثمّ توصّلتُ إلى ذلك التفسير الذي لا يمكن اللجوء إلى غيره أبداً، نعم.. إنّه استجابة السماء لكلّ تلك الدعوات، وطيبة الناس من كلّ القرى في المنطقة بأكملها، وحرصهم وإصرارهم على الاستمرار في محاولاتهم التي لا تكلّ، لا على الأرض تجاه الشيخ، ولا في التضرّع إلى ربّ العرش العظيم في السماء.
في مشهدٍ غريبٍ جدّاً، أخذ جميع أهالي المنطقة ينذرون القرابين الكثيرة لكي يليّن الله قلب الشيخ ويقبل بتزويجي بفاطمة. إلى ذلك الحين، لم أكن أعلم كيف كنت قد تحوّلتُ حقّاً إلى الابن والطبيب والحبيب لكلّ الأهالي بدون استثناء. حتّى أهلي وأقاربي، كان من المستحيل أن يتعاطفوا ويقفوا معي إلى تلك الدرجة الصادقة. فتحوّلت حكايتي مع انكشافها، من حكاية يجب إخفاؤها خوفاً من الفضيحة، إلى قضيّة شعبيّة تخصّ كلّ فرد من أفراد المنطقة. كان ذلك مشهداً يضجّ بالحبّ والصدق والإيثار إلى درجة الخرافة.
في يومي الثالث بعد عودتي من بيت الحاج عزيز، حدث ما لم يكن في الحسبان. فقد كنتُ أقرب من أنفاسي إلى الموت طعناً بخنجر. لكنّ الغريب في الأمر، هو أنّني بدلاً من الفرح لنجاتي، حزنت إلى أقصى حدّ. كنت خارجاً من البيت، فإذا بالشيخ حسن يظهر لي من الخلف. ألقيتُ عليه التحيّة، لكنّه أخرج خنجراً كبيراً وقال بانفعال شديد: سأقتلك يا آتيلا الكلب، ألم أحذّرك؟ ألم أقُل لك أن تبتعد عنّا؟ سأقتلك... سأرحّلك إلى جهنّم وبئس المصير.
قلت له ببرود: أنا أحمل بندقية كما ترى، وعدم الدفاع عن نفسي ليس خوفاً أو جبناً أو حتّى ضعفاً، لكنّني أريد أن أكون واحداً منكم، وابنكم السادس، وأخاكم الصغير الخدوم.
اشتدّ حمرةً من الانفعال وهاجمني قائلاً: نحن لا نريد أخاً سكّيراً مسكيناً مثلك، أقسم بالله سأقتلك.
أمسك أخوه الشيخ قادر الذي ظهر فجأةً يده المرفوعة الممسكة بالخنجر، وانتزعه منه، وتوجّه إليّ: أرجوك يا دكتور أن لا تُؤاخذه إكراماً لي أنا، اعفُ عنه.
وأخذه مُبتعداً وسط انفعال وشتائم الشيخ حسن وتهديداته المجنونة. عدتُ إلى البيت وأنا أندب حظّي العاثر: يا إلهي، ما الذي جاء بالشيخ قادر في تلك اللحظة التي وصل فيها حظّي إلى أقصى درجات تجسّده؟! يا إلهي، لماذا عاقبتني بكلّ هذه القسوة؟! لمَ نجّيتني من طعنة الشيخ حسن القاتلة تلك وخنجره الكبير؟ فلو قتلني، لصرتُ شهيداً على طريقك وطريق العشق النقيّ الطاهر، شهيد فاطمة. ولو جرحني، لكانت أبواب الحظّ كلّها انفتحت أمامي على مصاريعها ولضمنتُ بذلك زواجي بفاطمة. تذكّرتُ الهدهد وهو يروي حكاية ذلك العاشق الذي رأيته يتماهى معي في طلب الموت من أجل المعشوقة، فيقول: «عشق شخص يتّسم بالهمّة والكمال فتاةً في غاية الجمال، وقضاءً وقدراً دهم المرض قلب المعشوقة، فأصبحت نحيلةً كعود الزعفران، مصفرّة الوجه، وأصبح النهار المشرق مظلماً على قلبها، وجاءها الموت من بعيد، واقترب منها...
خبر العاشق بذلك، فهرول مسرعاً وبيده سكّين، وقال: أريد قتل الحبيبة، حتّى لا تموت المعشوقة بفعل الموت نفسه...

فقال له الخلق: إنّك في غاية الاضطراب، وأيّ حكمة تراها في هذا القتل؟ لا تسفك دمها، وكفّ يدك عن هذا القتل، لأنّها ستموت ميتةً طبيعيّةً هذه الساعة، فإن لم تمت، فليكن القتل، ولا يقطع رأس الميت إلّا جاهل!

قال: إن أُقدِم على قتل المعشوقة بيدي، فسأُقتل قصاصاً لها، وعندما تقوم الساعة، أمام الجميع سيحرقونني كالشمع، فإمّا أن أقتل اليوم بسبب تعلّقي بها، وإمّا أن أُحرق غداً بسببها، فكلّ رغبتي هنا أو هناك أن يكون اسمي المحروق أو المقتول بسببها...».

في تلك اللحظة التي كنت أندب فيها حظّي العاثر، كنت أقول في نفسي، لو كان الشيخ حسن طعنني، للجأتُ إلى إحدى العادات والتقاليد الشائعة في هذه المنطقة، التي يطلب فيها أهل القتيل، أو من يُعدّون في حكم المجنيّ عليهم، تزويج إحدى بنات العائلة الأخرى لأحد أبنائهم. فكّرت بأنّني لو مُنيت اليوم بتلك الطعنة لامتنعتُ عن قبول الصلح مع عائلة الشيخ إلّا بعد أن يمنحوني فاطمة زوجةً على سبيل الدية، لكنّك يا إلهي، لحكمة ما أجهلها، قد حرمتني من تلك الفرصة التي قد تكون الأخيرة أو حتّى الوحيدة. لكن، على حين غرّة دهمتني موجة ذعر، وأنا أتخيّل نفسي أموت على يد غيرها، فقد غرقتُ لحظتها في شوق الموت على يدها المباركة ومن دون أيّ وساطة. فكنتُ أتماهى مع إبراهيم في نزعه الأخير، حسبما يروي الهدهد: «عندما كان خليل الله في النزع الأخير، لم يسلم الروح لعزرائيل بسهولة ويسر، فقد قال له: عد مرّة أخرى وقل لله: لا تقبض في النهاية روح خليلك، فقال الحق تعالى: إن تكن الخليل حقّاً، فاترك الروح تسلك طريقها إلى خليلك، لا يليق بك أن تفيض روحك بحدّ السيف، ومن ذا يندم على تسليم روحه لخليله؟

وقال أحد الحاضرين: يا شمع الدنيا، لمَ لا تسلم روحك لعزرائيل؟ إنّ العشّاق يضحّون بأرواحهم في الطريق، فلمَ تحافظ أنت على روحك في النهاية؟

فقال: كيف أقول بترك الروح الآن وقد تدخّل عزرائيل بيننا، فقد جاءني جبريل ساعة إلقائي في النار، وقال: أيّها الخليل، قل لي حاجتك، فلم أعره التفاتةً في ذلك الوقت، لأنّ طريقي أُغلقت تجاهه ولم تفتح إلّا في اتّجاه الله، فإن كنت أشحت برأسي عن جبريل، فكيف أسلم الروح لعزرائيل؟ لذا لا أستطيع نثر الروح، حتّى أسمع من الله الأمر بتسليم الروح. فإذا جاءني الأمر بتسليم الروح، فإنّ الدنيا لا تساوي بالنسبة إلى روحي نصف دانق، وكيف أسلم روحي لأيّ شخص في كلا العالمين؟ إنّني لن أسلّمها إلّا بأمره، وهذه هي القصة وكفى...!».

كنتُ غارقاً في حالتي هذه وأنا أندب حظّي العاثر عندما سمعتُ أحدهم يدقّ بابي، لمّا فتحته استغربت بشدّة، كانت الشيخة أم فاطمة تطلب الدخول بكلّ رقّة وأدب. رحّبتُ بها، فتبعها ابنها الشيخ حسن مطأطئاً رأسه. ما إن جلست، حتّى بدأت تطلب منّي أن أسامح ولدها على ما ارتكب بحقّي، وترجّتني أن أستمرّ في التردّد عليهم، فقلت لها: ألم تهدّديني بإشعال الحرب التي تضحّين فيها بأبنائك الخمسة؟ ها أنت كنت اليوم على وشك أن تضيّعي أحدهم.

قاطعتني: أرجوك يا ولدي، حاول أن تنسى كلّ ما حدث، ها أنا جئتك بنفسي مصطحبةً ولدي لكي يعتذر لك وتتصالحا، فتنتهي خصومتكما.

– يعلم الله أنّني لا أريد سوى أن أكون الأخ الأصغر الخدوم للشيخ حسن وبقيّة أبنائك. أنا من أتوسّل إليك أن تكفّي عن عنادك هذا. يا أمّي، أرجوك أن تكفّي على الأقلّ عن تحريض أبنائك عليّ، يعلم الله أنّني أقول هذا الكلام فقط حرصاً عليهم لا على نفسي. وقمتُ مصافِحاً الشيخ حسن الذي حضنني بقوّة وطلب منّي أن أسامحه دون أن يرفع عينيه لينظر في عينيّ.

في عصر اليوم التالي، وصلتني رسالة من فاطمة تُبلغني فيها عن علمها بكلّ ما حدث بيني وبين شقيقها، ومن خلال رسالتها علمت أيضاً بأنّ أباها الشيخ هو من فرض على زوجته وابنه زيارتي وطلب السماح والصلح، قائلاً: «من يُزعّل آتيلا، عليه أن يرحل عن هذا البيت، فهو رجل شريف محترم ومؤمن صادق، من لا يحترم آتيلا عليه أن يرحل». لكنّ الرسالة تلك أغرقتني في موجة من الحزن الذي فجّر دموعي بشدّة، كانت كلّ كلماتها التي كانت قد أملتها على ذلك الشخص الذي يجيد قدراً من القراءة والكتابة، مليئة بالخوف عليّ من بطش أهلها وإخوتها، كنت أستطيع أن أرى وأحسّ من خلال تلك الكلمات، كلّ دموعها وتنهّداتها الحارقة.

مرّت فترة تتلاطمني فيها أمواج القسوة والصدمات التي ظلّت تتوالى رحمة أو تعاطفاً وحبّاً كبيرين من الناس، إلى أن جاءني صباح ذلك اليوم الشيخ قادر شقيق فاطمة، طالباً منّي الكفّ نهائيّاً عن محاولات التقدّم لخطبة فاطمة وإرسال رجال يتوسّطون لي لدى الشيخ. وعندما تساءلت مستغرباً عمّا يتحدّث، وأنّني لا أفهم فعلاً ماذا يقصد، نظر إليّ باستغراب كبير، لكنّه حسم الأمر بجملة مقتضبة: لن نقبل أن تُكرّر التقدّم لطلب يد ابنتنا، لن نسكت هذه المرّة أبداً.

وعدته وأنا أكرّر استغرابي من كلامه بأنّني لن أحرجهم أكثر من ذلك. ومرّت الأيّام، وعلاقتي بآل الشيخ قد وصلت إلى أقصى درجات التوتّر. حتّى إلقاء التحيّة مصادفةً على الطريق توقّف وانتهى، وعندما كُنّا نلتقي أثناء الصلاة في المسجد، كانوا يصطفّون للصلاة بعيداً عنّي ثمّ يشيحون بوجوههم عنّي كي يتفادوا إلقاء التحيّة أو الرّد على تحيّتي.

لقد انتهى كلّ شيء إلّا نذور الأهالي وقرابينهم المستمرّة التي كانت تُراق دماءً غزيرة، لكن دون جدوى. وكأنّ السماء كانت قد أصيبت بالعمى وفقدت الإحساس برائحة دماء كلّ تلك القرابين. يا إلهي، لقد استجبت لابراهيم وكافأته على إيمانه بكبش فديت به إسماعيل، فلماذا لا تُحرّك دماء كلّ تلك القرابين شعرة واحدة منك، أستغفرك ربّي؟ هل يجب أن أكون أنا بنفسي تحت السكّين لكي تستجيب؟ أوَلَم أكُن تحت رحمة خنجر الشيخ حسن؟ لكنّك، أستغفرك ربي، أرسلت شقيقه الذي حرمني من تلقّي طعنته... ثمّ ألا ترى السكاكين وهي تنغرز في روحي وتصيبني بنزف لا ينتهي؟ إنّني أحس كلّ تلك الأرواح التي تزهق نذوراً، وكلّ تلك الدماء التي تُراق من كلّ تلك المواشي من أجلي، هي نزف روحي أنا... أم تراك يا إلهي، تفعل بي كلّ ذلك، انتقاماً لكلّ تلك الدماء التي ليس لي يد في إراقتها؟ وكلّ ذنب من ينذرونها هو أنّهم يحبّونني ويقدّرون عشقي الصادق الطاهر الذي أنت أعلم به من كلّ البشر.

في أحد الصباحات، بينما أنا أقرب إلى الجنون شوقاً إليها، ومن أثر قلّة النوم والحزن الشديد، لمحتها من بعيد وهي ترفع يدها كي أذهب إليها، كنت أحترق جنوناً وفاقداً للعقل تماماً، فاندفعت متناسياً كلّ المخاطر والمحظورات. ما إن التقينا في مكان تحجبه جدران التكيّة عن الأعين، وانتهت فترة الصمت انبهاراً حتّى انهمرنا في موجة بكاء قطعتها هي بسؤالي: أتعلم عن الكارثة التي حلّت أخيراً؟

– عن أيّ كارثة تتحدّثين، وهل بقي المزيد من الكوارث؟

علمت منها بأنّ أهالي القرية، وكلّ القرى المجاورة، بعد استمرارهم في ذبح النذور والقرابين، أخذوا يُداهمون منزل الشيخ وتكيّته أفواجاً للتوسّط لديه كي يوافق على زواجي أنا وفاطمة، وكلّ ذلك دون أن يعلموني بجهودهم الكثيرة تلك، وأنّ أباها قد حسم الموضوع مع الوجبة الأخيرة مُهدّداً إيّاهم: إن لم تكفّوا عن محاولاتكم هذه، فسأرحل أنا وعائلتي عن المنطقة بأكملها.

وعلمت أن كلّ ذلك، ومحاولات الأهالي التقرّب إلى أشقّائها، وطرح الأمر عليهم كلّما رأوا الفرصة مناسبة لذلك، قد أدّى بهم إلى حالة أشبه بالجنون، وأنّهم قرّروا إنهاء المسألة فارضين على أبيهم موعداً أقصاه عشرة أيّام لكي يزوّجها بأحد أقاربه الشيوخ... ثمّ انهمرت في موجة بكاء: أنا لن أتزوّج بغيرك أبداً، فإن أصرّوا على ذلك، أقسم بالله أنّني سأضرم النار في جسدي. فالنار أرحم وأقلّ ألماً من نار الجحيم التي يريدون إحراقي فيها عمراً بأكمله بعيداً عنك.
عندها حاولتُ أن أهدّئ من روعها، مؤكّداً أنّني لن أتخلّى عنها ولو قامت القيامة، وأنّ الله العليم بنقاء حبّنا وطهارته، سيرفع عنّا هذا الكرب أيضاً، وهو الكريم القادر على كلّ شيء، وإن شاء الله لن تتمّ هذه الزيجة كما لم تتمّ سابقتها. عندها نظرت إليّ منفجرةً في نوبة بكاء يائسة: أتعلم ماذا قال أشقّائي لأبي؟ لقد هدّدوه، إمّا أن يحسم المشكلة كلّها بتزويجي بأحد أقاربه الشيوخ خلال عشرة أيّام فقط، أو سيقتلونني غسلاً لعارهم...

36

«إنّني لا أرى نفعاً من وجودي لأنّ ما قلته وفعلته تبدّد وضاع».
فريد الدين العطّار

كانت تنتظرني بثوبها الأبيض الطويل، كانت حقّاً العروس التي تنتظر بشوق كبير، فاتحةً ذراعيها على وسعهما وتناديني بجنون. وبنفس الجنون، اندفعت أنا راكضاً كي أحضنها بشوق سنوات الفراق الطوال. تعثّرتُ بشيء لم أدرِ ما هو، لكنّني بدل السقوط على وجهي، استمررت في الركض وأنا أصارع نفسي لإبقاء التوازن الذي سيمنعني من السقوط على وجهي. بدا الأمر وكأنّ قوّة خارقةً كبيرة دفعت بي بأقصى قوّتها، فكان ركضي أقرب إلى انطلاق الصاروخ المتعثّر. ما إن فتحتُ عينيّ، حتّى وجدتني أجاهد بقوّة وأصارع الظلمة الحالكة لأتمالك نفسي من السقوط في الطين، وأستعيد مشيي الاعتيادي ضمن الطابور الطويل.

كان تجمّعنا الأخير في إحدى القرى الواقعة في سفح الجبل العالي الذي كان علينا أن نصعده بأقصى سرعة، قبل أن تدهمنا القوات المهاجمة، التي لم تُبقِ لنا سوى هذا الجبل الذي حوّلت قبل أيّام كلّ ما في الوادي الواسع الذي يقع خلفه إلى دمار وقفار موحشة، بفعل قنابلها المرعبة المنفجرة بصمت، وبلدوزراتها التي كانت تسوّي بلمح البصر القرى بالأرض، لا بل كانوا أحياناً يطمرون حتّى عيون الماء بالإسمنت، لكي يخنقوا الحياة في مهدها. كان المتجمّعون قوّة كبيرة ممّا بقي من قطعاتنا المنهكة تماماً وزوجات وأطفال بعض رفاقنا.

قرّر بعض رفاقنا عدم المغادرة والبقاء في مجموعات صغيرة في المناطق المفرغة من الحياة تماماً. بينما تهيّأ الآخرون لترك المنطقة نهائيّاً. لم تكن هي الهزيمة وحسب، بل بدا الوضع كأنّه الانهيار الشامل المصاحب للإبادة الكاملة لكلّ تجلّيات الحياة في بلدنا. لم أدرك ألم الفراق الحقيقيّ إلى أن حلّت تلك اللحظة التي كُنّا نتهيّأ فيها للانسحاب الكامل، وكنّا مشغولين بإعداد بعض العجين الذي يُقلى في الزيت لكي يدوم فترة أطول تناسب انسحابنا الكبير الذي لم يكن أحد يعرف كم سيطول، أم هل سينتهي بنجاحنا في تجاوز كلّ خطوط الكمائن الخطيرة التي أصبح الجيش يحيط بها كامل منطقتنا وكلّ مداخلها ومخارجها، أم سنكون فريسة لهذه الكمائن الكثيرة المنصوبة؟

ما يحزُّ في نفسي الآن وأنا أستذكر تلك اللحظات، هو سير الأحداث التي أدّت إلى عدم استجابتي لأهمّ وأقدس طلب وُجّه إليّ في حياتي. فقد جاءني كلٌّ من سلام ودارا وسيوان، يطلبون منّي أن أبقى وأنّهم قرّروا البقاء، لكنّهم لن ينضمّوا إلى أيّ مسؤول، بل واختاروني أنا تحديداً. أمام كلّ ذلك الإيمان بالمقاومة الذي كان يملأ هؤلاء الشباب، وأمام كلّ هذا الكمّ الهائل من الثقة، لم أكن أملك سوى أن أقبل بكلّ فخر ودون أدنى تفكير، لكنّ أنور تدخّل ومنعني بقوّة مُذكِّراً إيّاي بأنّني حتّى إن بقيت بين الأنقاض والكهوف للمقاومة، فإنّني سأزيد من كميّة الاتهامات والشائعات التي طالت كلينا في الأشهر الأخيرة، وبأنّني يمكن أن أعود إلى هؤلاء الشباب بعد استكمال التحقيقات التي قرّرت قيادة حزبنا إجراءها معنا.

ما إن هممنا بصعود الجبل، حتّى بدأتُ أسمع صراخاً من داخل القرية التي هجرها أهلها، عدتُ إلى مصدر الصوت. كان شابّاً أشقر ملتحياً وقد أصيب في كلا فخذيه، كان يتوسّل كيلا نتركه ونحمله معنا، لكنّ تلبية طلبه كانت مهمّة مستحيلة، إذ كانت الأوامر صارمة، علينا أن نكون مُحمَّلين بأقلّ الأشياء وأنّنا سنضطرّ لقضاء أوقات طويلة في مكامن صامتين، لذا كان أنين

الجرحى يُشكلّ خطراً على القوّة بأكملها. لن أنسى أبداً عينيه اللتين كانتا تتوسّلان وتستنجدان، لكنّني أمام عجزي الكامل، لم أستطع سوى أن أمنحه نصف ذخيرتي من الطعام وبندقيّة وبعض العتاد.. وتركته لقدره المحتوم.

كان الكثيرون يبكون بحرقة، يا إلهي، ما هذا؟ هل هي الهزيمة النهائيّة مُجدّداً؟ وامتلأت فجأةً بصور ذلك النهار الربيعيّ الذي حطّم فيه جارنا البدين مذياعه على الصخرة العنيدة، وهو يسمع خبر إذاعة انهيار الثورة قبل ثلاثة عشر عاماً بالتمام. تذكّرتُ المقاتلين وهم ينزلون من الجبال منكّسي الرؤوس والبنادق، وحيرة الناس في التوجّه صوب أيّ جهة.. وعودة أبي المتأخّرة التي كانت بمثابة الدليل الأخير الذي أقنعني قسراً بنهاية الثورة وانهيارها. هذه المرّة ليست فقط انهياراً سياسيّاً تعلن معه القيادة انهيار الثورة، وانتهاء كلّ شيء، بل هي عمليّة إبادة كاملة للناس والزرع وحتّى لعيون الماء والبساتين.

امتلأتُ ببكاء ممزوج بالحقد على الأرض والسماء، فها نحن نُذبح من جديد على مذبح مصلحة أيادٍ خفيّة لا نُدرك حتّى هويتها، كما كُنّا ندركها قبل سنوات يوم الانهيار الأكبر. ها نحن نُذبح وحيدين، لا بل ها نحن نُقتلع هذه المرّة من جذورنا بمنتهى الألم والقسوة، وحدنا، دون أن يُرَفّ لأجلنا جفن في الأرض ولا في السماء. بدأتُ أشعر بالحنين المفاجئ إلى كلّ حجارة في هذه القرية التي بدت كأنّها المحطّة الأخيرة والنهائيّة للوجود بأكمله. تلك القرية التي خلت من كلّ ذي روح، إلّا الدرويش حكيم، الرجل المسنّ الذي كان الأهالي يرون أنّه مخبول بعض الشيء، والذي ظلّ يردّد باستمرار مع دعوات ومناجاة غير مفهومة، أنّه لن يتخلّى عن بستانه وأشجاره التي زرعها، كما زرع أولاده، وأنّ الله لن يتخلّى عنه، وأنّه إمّا أن يبقى ليروي أشجاره ويخدمها، أو يموت في بستانه ليرويه بدمه.

كانت تلك واحدة من أصعب الليالي، فقد خيّمنا في الجانب الثاني من الجبل، لكن دون أن ننزل إلى الوادي وأنقاض القرى التي دمّرها الجيش قبل أيّام. ما إن خيّم الظلام، حتّى أدركنا تماماً حجم بعض القوّات المعسكرة من خلال النيران الكثيرة التي كانت تنتشر بقسوة وسخرية كبيرة في كلّ أنحاء الوادي. كان البرد يجمّدنا، بينما كانت نيران المعسكرات تتراقص بقسوة ساخرة منّا، ونحن لا يحقّ لنا إضرام النار. كانت ليلةً قاسيةً في صمتها الذي فرضته على جوع الأطفال المرافقين لقافلتنا. فكان الطفل الذي يبكي من الجوع أو البرد، ويرفض أن يسكت باللين، يُضطرّ إلى الإسكات بأقسى الأساليب.

ليلتها، بقي بعض رفاقنا وأنا منهم، ساهرين نحرس القوّة، لا من احتمال هجوم الجيش علينا، بل لمنع من يحاولون التفكير بالهرب والاستسلام للجيش. فكان استسلام شخص واحد، يكفي لكشف مكان اختباء كلّ هذا الكمّ الكبير من الناس في هذا الجبل الوعر. كانت الأوامر شديدة الصرامة بمنع حدوث خروقات كهذه بأيّ ثمن، حتّى إن كان الاضطرار إلى التخلّص ممّن يحاولون تعريض الجميع للخطر.

طلعت شمس ذلك النهار الربيعيّ الحزين على طائرة مروحيّة تُحلّق فوق مكان اختباء كلّ هذا الحشد الكبير. بدا كأنّنا انكشفنا، وأنّ هذه طائرة استطلاع تُحلّق لتحديد موقعنا الدقيق تمهيداً للهجوم علينا. أخذنا نتحسّب لكلّ الاحتمالات، ومنها بالطبع إمكانية هروب أحد الأفراد والتحاقه بالجيش وكشفه عن مكاننا. كانت كلّ الإشارات والدلائل لا تدلّ سوى على الكارثة.

حتّى المذياع الذي بدأ ينقل الأخبار من كلّ بقاع العالم، انقلب هو الآخر عليّ. فبدلاً من خبر مفرح واحد، نقل ذلك الصباح الربيعيّ القاسي الحزين المغرق في الرعب، خبر استهداف أحد الثوّار على بعد آلاف الكيلومترات واغتياله في منزله القابع بحزن في المنفى البعيد. ومع أنّ هذا الثائر لم يكن منّا، إلّا أنّ اغتياله في ذلك التوقيت بالضبط، شكلّ إشارة على فصل خريف الثورة وتساقط أوراقها ليس في بلدنا فقط، بل في كلّ مكان آخر أيضاً. لقد كان سماعي لخبر اغتيال «أبو جهاد» على بُعد آلاف الأميال من وطنه، وفي منفاه في تونس، دافعاً للغضب المُغرق في اليأس والحزن.
كانت شمس ذلك النهار الأشبه بالقبر، دافئةً جداً، فبدت كأنّها جاءت لتُخرج من الأجساد تجمّد الليلة الماضية، بدت في سخائها وكأنّها تعتذر لنا عن الليلة المتجمّدة التي عشناها بصمت. إلّا أنّني، بدل الامتنان لذلك السخاء، كنتُ أخشى تواطؤها مع الجيش بكلّ ذلك الإشراق لكي تكشف مكاننا، إذ كُنّا نفضّل الضباب والغيم الذي يُمكن أن يوفّر لنا بعض الستار الذي يمنع الرؤية على الجيش ومروحيّاته المتربّصة بنا. مرّ ذلك النهار قاسياً بطعامه البارد الذي كان يتكوّن فقط من العجين المقلي بالزيت ومن دون تسخين، خوفاً من إحداث أبسط دخان يدّلُ على مكان اختبائنا.
مع حلول بوادر الليل، صدرت الأوامر بالاستعداد للتحرّك وترك المنطقة. كان لزاماً علينا أن نستمرّ في المشي حتّى الصباح، لأنّ هذه القوّة المنهكة لم تكن تستطيع السير بسرعة معتادة، خصوصاً مع وجود العديد من النساء والأطفال والمرضى. مع بدايات النهار التالي، كانت المنطقة التي وصلنا إليها للتوّ محاصرة من كلّ الجهات. كُنّا قد استقررنا في قرية كبيرة تقع في منتصف امتداد الوادي الذي كنا قد غادرناه قبل ساعات قليلة. تفرّق الجميع في البيوت المهجورة بحثاً عن بعض بقايا طعام أو تفادياً للبرد الشديد.
مع خيوط الشمس الأولى، كُنّا قد تمكنّا من اصطياد بعض الدجاج والأرانب التي تركها الأهالي للأبد. وتفرّغ في كلّ مجموعة، كانت قد توزّعت بصورة عشوائيّة، شخصٌ ينشغل بإعداد الطعام المعتاد الحارّ الذي كنّا قد انقطعنا عنه لأيّام عدّة. توزّع الشباب في مداخل القرية وعلى بعض الأماكن المرتفعة التي كُنّا نعتقد بأنّها قد تنفع للتخندق استعداداً للاشتباك الانتحاريّ الحتميّ الذي سنواجهه خلال ساعات، أو حتّى دقائق.
كنتُ قد اتّخذتُ صخرةً كبيرة بين بعض الأشجار التي قد تحجبني عن رؤية القوّات المنتشرة على امتداد الوادي كلّه، مع حرصي على ألّا تمنع عنّي أشعّة الشمس الدافئة، التي كان دفئها يصل إلى أعماق العظام والشرايين. بدأت الانفجارات والإطلاقات الكثيفة ترتفع مع سحب الدخان الكثيفة من القرى المحيطة بنا على جانبي الوادي وفي منتصف المسافة بين الجبلين وفي السفوح أيضاً. كنت على درجة من الإنهاك وقلّة النوم، بحيث كنتُ على الرغم من وجود كلّ هذا الكمّ الكبير من الخطر المحتّم الذي يحاصرنا، أفقد السيطرة أحياناً، فأغفو بين الحين والآخر. بعض الأحيان كنت أصحو على صوت انفجار أو إطلاق كثيف للنار، أو بعض أهازيج الجنود التي كانت تصلني من بعيد. وأحياناً أخرى، كنتُ أصحو مرتجفاً من شدّة البرد الذي يكون قد تسلّل من ظهري مخترقاً ملابسي واصلاً إلى أعماق العظام.
حتّى أجواء الموت المُحْدقة التي تُحاصرك، يُمكنك أن تتعوّد عليها إن طال أمدها وهي بعيدة عنك إذ أنّ أخطر ما في الموت هو أن يكون مُباغتاً، فلا يدع لك المجال حتّى لتفهّم ما الذي يدور من حولك. أمّا لو أنّه جاءك مُنذراً من بعيد، وبقي يستعرض نفسه بأشكال مختلفة، وعن مسافة ليست

في حدود الاشتباك المباشر معك، فإنّ من الممكن أن تتعوّد عليه إلى درجة أن تدخل معها في غفوات طويلة بعض الشيء.
ذلك الصباح الذي حسبته أفضل من سابقه، لأنّنا بتنا تحت سقوف طينيّة تقي المطر والبرد وإمكانية انكشافنا للعدو، بالإضافة إلى حصولنا على بعض الطعام الحقيقيّ، كان على العكس، أسوأ بكثير من الذي سبقه تحت رحمة العراء وطائرات الاستطلاع المرعبة التي كانت تؤدّي مهامها العاديّة، بينما تحوّلت لدينا إلى استطلاع مؤكَّد وانكشاف لمواقعنا، فتفرض علينا انتظار الموت المحتّم الآتي بعد بضع دقائق أو حتّى ساعات على أكثر تقدير. مُنعت الحركة في القرية تماماً تفادياً للفت أنظار القوّات الكبيرة التي كانت تُمشّط سلاسل الجبال على جانبي الوادي وتحرق الأخضر واليابس معاً. لذا منعني كلّ ذلك حتّى من تناول فطوري.
طال ذلك النهار الربيعيّ الذي كنا نتوق إلى غروبه لكي نترك القرية والمنطقة تحت جنح الظلام. وقبل الغروب بقليل، بدت القوّات المهاجمة كأنّها استقرت في مواقعها الجديدة، إذ صمتت المدافع والرشاشات وكذلك بدأت نيران الكثير من القرى المحترقة تخفت تحت سماء الوادي التي غطّتها بأكملها سحابة دخان سوداء كثيفة متّصلة وكأنّها سحابة واحدة، تخيّلتها روح القرى التي قرّرت الالتقاء والتوحّد في سحابة الدخان التائهة تلك. ومع بدايات الغروب، تمكّنتُ أخيراً من تناول فطور ذلك النهار الذي اندمج بالغداء والعشاء في آن واحد.
للمرّة الثانية، لا بل الثالثة ها هي تتكرّر، وها أنا أغفو ثمّ أتعثّر بشيء لا أدري ما هو، ثم كأنّ هناك قوّة خارقة تُطلقني كصاروخ هائم لا يستقرّ على وجهة، وكلّ ما يلي ذلك الانطلاق المُرعب، يُصبح فقط محاولة الحفاظ على توازن الجسم وعدم السقوط على الوجه في الطين. ومن ثمّ، العودة إلى صفّ الطابور الطويل السائر في الظلمة الحالكة. هكذا أفقتُ من غفوتي الأولى على حلم العروس التي تنتظرني بشوق السنين، فاتحةً ذراعيها على وسعهما.
في ما مضى، كنتُ أستغرب كيف يمكن للناس أن يناموا أثناء ركوبهم السيّارة، ثمّ رفضتُ تصديق أن يكون الناس قادرين على النوم في عربة يجرّها جرّار زراعيّ على طريق وعرة. وبقيتُ على عنادي هذا، إلى أن رأيتُ وعشتُ ما هو أغرب بكثير. في البداية لمحتُ الحالة عند الآخرين وكنتُ أشكّك في صدقها، كنت أشكّ بأنّهم يمثّلون وأنّهم يتظاهرون بأنّهم ينامون وهم مستمرّون في المشي.. لقد كانوا يخرجون عن الطابور الطويل السائر في ظلمة الليل. فكان لزاماً علينا أن نعيدهم مرّة أخرى إلى الطابور، مع التشديد على أن يكفّوا عن هذا السلوك، إلى أن عشتُ التجربة بنفسي. تلك الليلة التي كانت هي الثالثة التي امتنعتُ فيها عن النوم كلّياً. فلم أكتفِ بالنوم سائراً وحسب، بل حتّى إنّني غفوتُ ورأيتُ حلماً، وكلّ ذلك وأنا بكامل ملابسي وسلاحي وعتادي وحملي، وكلّ ذلك بينما أنا لا أزال أسير على قدمي، فأتعثّر بنتوء طينيّ أو حجر على الطريق الترابيّ الوعر فأكاد أسقط، وبما أنّني أكون قد غفوتُ بالكامل، فإنّ أثر التعثّر كان أقرب إلى الموت رعباً. إنّه أشبه بالسقوط في الظلام الحالك ومن مكان مرتفع جداً.
انطلقنا من جديد مع بدايات الظلام، بعد أخذ القسط القسري من الراحة المحاصرة من كلّ حدب وصوب بكلّ ألوان الموت. وسرنا الليل بأكمله. بينما أطلّت الشمس بأشعّتها الدافئة من جديد على قرية غير ساكنة، كان فيها بعض الحركة، ظننتها في البداية من بعيد حركات الجيش وأعوانه، إلى أن اقتربنا، فاكتشفت أنّهم أهالي القرية يُمارسون يومهم الجديد المعتاد بعيداً عن كلّ الكوارث التي مررنا بها. وفي الحقيقة، فإنّني ظننتُ الأمر في البداية حلماً عابراً، ناتجاً عن إحدى غفوات تلك

الليلة، وهي تدهمني بينما أنا لا أزال سائراً، أو مجرّد حلم يقظة لا أكثر، لكنّه كان واقعاً حيّاً، فلم تكن الصاعقة قد وصلت إلى هذه المنطقة بعد، وكان كلّ شيء لا يزال على حاله.
قضينا ذلك النهار متوزّعين على تلك القرية والقرى القريبة في تلك المنطقة المحاذية لنهر كبير. كانت الحياة تبدو كأنّها طبيعيّة، وكأنّ كلّ ما عشناه وشاهدناه لم يكن سوى مجرّد كابوس مخيف. وبعد ليلة راحة كاملة، وطعام حارّ ينبض بالحياة، عبرنا النهر في صباح اليوم التالي، عن طريق بعض القوارب المملوكة لأهالي المنطقة. واستقررنا نجول لبضعة أيّام بين مجموعة القرى الواقعة في الطرف الثاني من النهر الذي بدا مجنوناً بفيضانه الربيعيّ.

37

«ذهب العقل وانقضى الصبر وولّى الحبيب،
فأيُّ عشق هذا وأيُّ ألم وأيُّ فعل؟!».
فريد الدين العطّار

كان الموعد النهائيّ الذي قطعه الأبناء لأبيهم الشيخ لتزويج فاطمة بأحد أقاربه، أو قيامهم بقتلها غسلاً للعار، مرعباً حتّى النخاع. فلم يكن الخطر عليّ أنا هذه المرّة، لم تكن طعنة خنجر أتمنّاها لأقع شهيد العشق الطاهر، بل إنّه التهديد بقتل فاطمة، وهو بالتأكيد تهديد جديّ، والمصيبة هي أنّني لا أعلم من هو قريب الشيخ الذي سيطلب منه الشيخ تزويجه فاطمة هذه المرّة لكي أعيد معه ما فعلت مع الشيخ محمّد ابن الشيخ صالح، ذلك الرجل الشهم النبيل الذي، بالرغم من حبّه لفاطمة، أبى الزواج بها حين علم بعشقنا الطاهر.

كنتُ في حالة عجز مرعبة إلى حدّ الشلل الذي لم يصب الجسد فحسب، بل والعقل أيضاً، فكنت عاجزاً تماماً عن التفكير في إيجاد الحلول أمام الهجمات الشرسة للأفكار والخيالات والصور التي كانت تتوالى عليّ وأنا أتخيّل ما قد يحلّ بي وبها نتيجة زواجها، أو محاولة انتحارها؟ كنت أُصاب برعب أكثر يوصلني إلى حدّ الإصابة بالحمّى وكأنّ قلبي أخذ يتوقّف من شدّة ضرباته المتسارعة القويّة المؤلمة. هكذا كانت الأيّام العشرة، تنفلت بسرعة جنونيّة الواحد تلو الآخر، ويأتي الليل الذي لا ينتهي.

رأيتها فجأة وهي تناديني من خلف باب التكيّة. ذهبت إليها مندفعاً بجنون، كانت مبلّلة بالكامل، وتحمل في يدها مشعلاً، بدت كأنّها إلهة من تلك الآلهة التي رأيت رسوماً لها في بعض كتب ومجلّات شاسوار التي كان قد تركها عندي قبل رحيله الأخير للمشاركة في معارك الدفاع عن مقارّ القيادة، الذي بالرغم من كلّ الظلم والافتراء الذي تعرّض له، ظلّ عنيداً في قراره مرافقة القوّة المغادرة إلى منطقة القيادة. أردت أن احتضنها لكنّها توارت وكأنّها شبح، ثمّ سمعتُ صوتها وهي تناديني من داخل التكيّة، دخلتُ وكانت خالية تماماً إلّا من المصحف وبعض الكتب المجلّدة القديمة. قالت: لن تحضنني كما وعدتني منذ لحظة البوح الأولى.

– لكنّني يا روح الروح، وصلتُ إلى حدّ الإعياء وأصبح وصلنا ضرباً من المحال، ولم أعد أحتمل أكثر من ذلك.

– لماذا تتحدّث عن المستحيل؟ ألم أقل لك مراراً إنّ وصلنا في الجنة لأنّنا طاهران كالملائكة؟

– حتّى لو احتضنتك، فإنّ عشقنا لن يزيد بذلك إلّا نقاءً وطهارة، فلا تخشي يا قلبي، أنت تعلمين بأن عشقي لك قد ارتقى إلى مصاف العبادة.

– استغفر ربّك يا آتيلا، كيف تقول ذلك؟ إنّ هذا يكفي لكي نُعاقَب بعدم دخولنا الجنّة، ما يعني أنّ وصلنا سيكون مُحالاً بالتأكيد.

– لو حكم الله على ملاك مثلك بالنار، فمن سيدخل الجنّة إذن؟ ومع ذلك، إن كانت الجنّة من دونك أنت، فأنا أفضّل أن أموت كافراً مُرتدّاً مئة مرّة لأكون معك في نار الجحيم، فأنا متيقّن من أنّها لن تكون أشدّ إيلاماً من نار فراقك.

– إذن، تعال لكي تحضننا النار معاً، فإذا ما احترقنا الآن بهذه النار، فإنّ الله سيكافئنا بالجنّة، وما دمنا نحترق معاً، فإنّ الله سيحشرنا بالتأكيد معاً، وسيدخلنا معاً جنّته حيث لا أحد يقف بيننا وحيث

لا مزيد من الفراق، بل وصل أبديّ.
كانت تفوح منها رائحة النفط الذي بلّلت به جسدها كلّه، بينما كنت أهُمّ بالاندفاع نحوها وهي تلوّح بالمشعل الذي تحمله، هبّت موجة ريح جعلت ألسنة اللهب تتراقص بطريقة مجنونة وملأت المكان برائحة التفّاح، لوهلة، ظننتُ أنّنا آدم وحواء وأنّ رائحة التفّاح هذه هي الفاصل بيننا وبين الفراق. وعلى غفلة، هبّت موجة ثانية من ريح قوية بيضاء مغبرّة وملأت التكيّة بهبوبها العاصف المجنون لفّت فاطمة في دورانها الذي تحوّل إلى زوبعة بيضاء مغبرّة، وأخذتها بعيداً وهي تصرخ بينما أنا لا أستطيع سماع صراخها. ووقع المشعل من يدها واشتعلت التكيّة بما فيها. من فرط الرعب الذي اعتراني نتيجة ابتلاع الزوبعة العاصفة لفاطمة، لم أتمكّن من إنقاذ المصحف والكتب الأخرى من النار التي التهمت التكيّة بالكامل، ثمّ انقضّت على القرية بأكملها واندفعتُ أركض كالمجنون في كلّ الاتجاهات.
أفقتُ على صوت طرقات الباب الذي كان يقف خلفه شاسوار مُلتحياً، مُنهكاً حدّ الإعياء، وكانت القرية تضجّ بالكثير من الأصوات والناس الغرباء الذين أراهم للمرّة الأولى. رجال ونساء وأطفال كثيرون. احتضنته بقوّة، وأنا غارق في عرقي الغزير نتيجة حلمي العجيب، انفجرتُ بالبكاء وأنا أحضنه: ألم أقُل لك أن تفي بوعدك وتذهبوا إلى بيت الشيخ أنت والجماعة لطلب يد فاطمة؟ ألم أقُل لك إلى أن تعود ستكون القيامة قد قامت؟
– لم تقم القيامة ولا هم يحزنون، إنّها مجرّد معارك نخسر بعضها فيما سنكسب أخرى كثيرة، لا داعي للانهيار هكذا، هذه هي طبيعة الثورة والحرب.
كان شاسوار منهكاً، غارقاً في علامات الهزيمة التي كانت تغطّيه، لكنّه ظلّ يكابر كعادته. في البداية، لم أفهم شيئاً من كلامه، فقلت له بحرقة: لقد انهار كلّ شيء، انكشفت علاقتي بفاطمة وأشقّاؤها هدّدوا أباهم بأنّه إذا لم يزوّجها بأحد أقاربه الشيوخ خلال عشرة أيّام فإنهم سيقتلونها، وها نحن في اليوم الرابع من المهلة القاتلة، فقل لي ماذا أفعل؟
حكيتُ له كلّ ما حدث في غيابه، وذكّرته مُعاتباً بعض الشيء: لو أنّكم ذهبتم لطلب يدها قبل رحيلكم، لاختلف الأمر.
فردّ بلغة مبرّرة: أنا فاتحت الرفاق وهم رحّبوا بذلك، وحدّدنا الموعد كما أبلغتُك، لكنّنا في اليوم السابق للموعد، انطلقنا للدفاع عن مقارّ القيادة. لا أعرف هل هو حظّك العاثر، أم حظّ هذا الشعب الذي كُتب عليه أن يتعرّض للإبادة وحيداً أعزل؟
حينها تذكّرتُ أنّه كان في جولة معارك قاسية وصعبة، فانهالت عليه أسئلتي التي كان يجيب عنها باقتضاب. سألته: ما كلّ هؤلاء الناس الغرباء في القرية؟ أخشى أن يكون الشيخ اتّفق مع أحد أقاربه على زواج فاطمة وأنّ كلّ هؤلاء قد يكونون ضيوف حفل الزفاف.
وانتابني رعب شديد من هذه الفكرة.. لكنّه ضحك بسخط مردّداً: أيّ عرس هذا الذي تتحدّث عنه؟ هؤلاء أهالي القرى التي تقع خلف تلك السلسلة الجبليّة، وهم هربوا من إبادة قراهم ومنطقتهم بأكملها. بعضهم من أهالي قرية سيوسينان، التقيت بهم على عجالة، وتحدّثوا عن قصف قريتهم الكبيرة بالقذائف الكيماويّة.
كانت ليلة متعبة حقاً، امتلأت أحاديثنا بالشجن والحزن. وعلى العكس من شاسوار الذي ظلّ أقرب إلى الصمت على غير عادته، ويردّ على كلّ أسئلتي باقتضاب شديد، كنت أنا متفجّراً بالبوح بكلّ الآلام والجراح التي أثخنت روحي أكثر من جسدي. لم يكن النوم حاضراً إلّا قليلاً. في صباح

اليوم التالي، بعد أن تناولنا فطورنا، كانت القوّة قد تجمّعت بغرض الرحيل إلى القرى التي كان الجيش قد بدأ بالهجوم باتجاهها، فبقيتُ ألحّ عليهم للموافقة على مرافقتهم، على الأقل أكون حاضراً بحقيبتي وأدويتي لعلاج الجرحى.
وافقوا.. فرافقتهم، كنتُ مُندفعاً بجنون بحثاً عن الموت، أصبحت الحياة بانتظار انقضاء مهلة العشرة أيام التي تفصل تهديد الأشقاء بقتل فاطمة، مرعبة أكثر من الموت نفسه. كنت ممتلئاً بالإيمان بوقوع المعجزة التي ستمنعهم من تزويج فاطمة رغماً عنها، كما أنّ الله لن يخذلنا بالتأكيد وهو سبحانه كفيل بمنعهم من تنفيذ تهديدهم بقتلها. إنّه القادر على كلّ شيء، ومتى ما أراد (كُن، فيكون) وهو القادر على أن يفدي فاطمة ملاكه الطاهر النقيّ، كما فدى إسماعيل بكبشه.
كان اليوم الأوّل صعباً جدّاً، كانت القوّة المهاجمة كبيرة جداً، تستخدم شتّى أنواع السلاح من الجوّ والبرّ، بينما كانت المدفعيّة لا تتوقّف إلّا نادراً. قضيتُ يومين مع قوّتنا التي كانت تقاوم بشراسة بدت أقرب إلى اليأس، ومع احتفاظنا بمواقعنا في اليوم الأوّل، ورغم أنّ أرض المعركة كانت سهلاً منبسطاً، إلّا أنّهم تمكّنوا في عصر اليوم الثاني من إجبارنا على الانسحاب. فانسحبت القوّة بأمان ما خلا حدوث بعض الإصابات الطفيفة أثناء الانسحاب، بعدما كُنّا قد أخلينا الشهداء والجرحى الذين كانت إصاباتهم بالغة.
في مساء اليوم الثاني، وبعد وصولنا إلى منطقة آمنة، طلبتُ من القوّة السماح لي بزيارة بيتي، فعدت إلى القرية راكباً درّاجةً ناريّة. أثناء كلّ تلك الأخطار المُحدقة والموت المؤكّد الذي يحاصرنا من كلّ جهة، كان كلّ تفكيري مُنصبّاً على أنّني سأُستشهد اليوم، كنت أُصاب بالرعب من فكرة ماذا يمكن أن تفعل فاطمة من بعدي، فكنتُ أتخيّلها في عشرات الصور والاحتمالات. أراها بوضوح في كلّ الأوضاع، وهي تتلقّى خبر استشهادي، وكلّما اشتدّ وضوح الصورة في خيالي، كانت درجة الرعب التي تنتابني تصبح أشدّ فتكاً.
كانت القرية فارغة من كلّ ذي روح، وقد تحوّل ضجيج الحياة فيها إلى صمت القبور المخيف. ذهبتُ إلى التكيّة وكان بابها مُقفلاً، وكذلك أبواب بيت الشيخ. فذهبتُ إلى التنّور الذي كانت تعدّ فيه فاطمة أشهى أنواع الخبز وأكثرها تفجّراً برائحة الحياة. كان التنّور بارداً، بينما كان المكان كلّه مليئاً برائحة فاطمة التي أسكَرَتني. جلستُ حيث كانت تجلس، ثم قمتُ وابتعدتُ قليلاً لأجلس قبالتها وانفجرت بالبكاء وسجدت على الأرض أقبّل التراب المبارك الذي كانت تجلس عليه في العادة. الغريب أنّني كلّما أكثرت البكاء والقبلات شعرت بالمزيد من الظمأ إليها، حيث كان ينفجر هذا الظمأ بكاءً وقبلات تتوالى بجنون ودون توقّف على تلك الأرض.
ركبت الدرّاجة، التي كنت استعرتها من أحد الأصدقاء، باتجاه القرى التي كانت تبعد عن مناطق القتال، فقد كان الأهالي يعانون من حالة سيّئة جدّاً ويهرعون في كلّ الاتجاهات هرباً من تقدّم الجيش وأعوانه، لكن في العادة كان اتّجاههم صوب القرى التي تقع في العمق بعيداً عن مناطق القتال. في الطريق، التقيتُ بأحد أهالي القرية وكان عائداً باتّجاه بيته يأخذ بعض الملابس لعائلته. أكّد أنّ أهل القرية بمن فيهم الشيخ وأولاده قد اتّجهوا يوم أمس إلى قرية «عليان القديمة». فهرعتُ إلى هناك بأقصى سرعة ممكنة، لكن عند وصولي فهمتُ أنّهم قد رحلوا عن تلك القرية التي بات الجيش قريباً منها باتّجاه قرية «كاكه برا».
وصلت إلى القرية التي كانت أشبه بالقيامة، فقد كانت مئات العوائل وآلاف الناس قد تجّمعوا فيها بيأس هرباً من قوّات الجيش وهجماته الشرسة التي كانت تُضيّق طوق الحصار والخناق من كلّ

الاتجاهات. كان الطريق من هذه القرية باتّجاه قرية «ملّه سوره» التي كان الجيش وبعض كبار أعوانه ينتظرون فيها، حيث كانت تلك القرية تقع على الطريق المؤدّي إلى المدينة التي كان الأهالي المتجمّعون يحاولون الوصول إليها. وقد كانت العشرات من القصص المخيفة قد وصلت عمّن سبقهم في التوجّه إلى هناك، بينما كان البعض يقولون: نحن عوائل عُزّل، وهم بالتأكيد لن يقتلونا. ثم يُقال إنّ مستشاري الأفواج الخفيفة مع الجيش، ومنهم الآغوات الذين وعدوا بأن يحموا العوائل من كلّ سوء، فلا داعي لكلّ هذا التردّد والخوف، فبقاؤنا هنا هو الخطر بعينه. فإن جاء الجيش ولقينا هنا، فإنّه سيحسبنا من المقاتلين وسيقتلنا بالتأكيد.
لمحتها من بعيد تقف تائهة تنظر في كلّ الاتجاهات وكأنّها تبحث عنّي، أو تنتظر لحظة وصولي. لم أتمالك نفسي هرعتُ إليها كالمجنون، ووقفت قبالتها مندهشاً مبهوراً، فانفجرت بالبكاء. كدتُ أموت من الغصّة وشعوري بالعجز تجاه دموعها التي تفتك بروحي، فهذه الملاك، مُذ عرفتني وأنا لم أكُن سوى سبب بكائها وعذابها. حاولتُ أن أهدّئ من روعها، لكنّني أنا الذي انفجرتُ هذه المرّة بالبكاء المُرّ.. كان كلّ من هناك، من أهالي القرية والقرى المجاورة، ينظرون إلينا ويبكون بحرقة.
– من كان يتصوّر أن يوصلنا القدر إلى هذا المصير المجهول؟ ها نحن الآن، يُحكم علينا بالفراق الأبديّ، ولن يتحقّق لقاؤنا سوى في الجنّة.
فانفجرت تبكي بصوت أعلى وهي تقول: أتوسّل إليك، لا تتحدّث عن الفراق والجنّة هكذا، وثق بأنّني سأنتظرك إلى آخر نفس في حياتي.
أجبتها بيأس أصابني في الصميم: سنلتقي مُجدّداً يوماً ما إن شاء الله، وسيتحقق وصلنا الأبديّ ونحن مرفوعا الرأس، فلا تقنطي من رحمة الله.
سألتها عن أبيها وإخوتها كي أذهب لتوديعهم، أخذت تُهيل التراب على رأسها وهي تنتحب، كان جميع الموجودين يبكون وينتحبون بصوت عالٍ. قلت لها: يا روح الروح، أرجو أن تغفري لي وتبرئي ذمّتي أمام الله، ما كنتُ أنوي أن أحوّل حياتك كلّها إلى هذا العذاب، لكن لم يعد هناك ما يُقال أمام هذا القدر الجماعيّ الجائر.
– وأنت، إلى أين ستذهب؟ أنا لن أعيش من دونك لحظة واحدة.
كان وداعاً طويلاً، مليئاً بالدموع التي تفيض بمرارة تملأ الروح قبل الأنفاس. انطلقتُ بحركة سريعة، أروم من خلالها إنهاء الوداع المؤلم الذي كنت عاجزاً تماماً عن إنهائه. دخلتُ عليهم الديوان الكبير الذي كان مليئاً بالرجال، سلّمتُ على الجميع، وجلستُ من جديد في حضرة الشيخ وأبنائه، فبادرني الشيخ بالسؤال: إلى أين أنتم متّجهون الآن؟ لقد حاصر الجيش كلّ منافذ الخروج حتّى باتّجاه الجبال.
– إنّ الله الذي يسّد باباً يفتح بدلاً منه أبواباً يا شيخنا، إنّ الله كريم... يقول الهدهد: «قال أحد الوالهين مخاطباً الله: يا إلهي، لتفتح باباً أمامي في النهاية! لعلّ رابعة كانت تجلس هناك، فقالت: أيّها الغافل، ومتى أُغلق هذا الباب؟ إنّ الباب مفتوح، أيّها الغلام، عليك أن توجّه وجهك تجاهه وتبحث على الدوام».
– ونِعم بالله يا ولدي، لكن مع ذلك، فالحذر والحيطة ضروريّان خصوصاً مع انسداد جميع منافذ الخروج.
قلت له: إنّ الله كريم، أنا جئتُ أودّعكم يا شيخنا، ولا أطلب سوى دعواتك المخلصة لنا.
– أنا أدعو لكم جميعاً من كلّ قلبي بالسلامة.

– وأنا أرجو أن تُسامحوني وتبرئوا ذمّتي أمام الله في لحظة الفراق النهائيّة هذه. أمّا أنا، فأؤكّد لكم جميعاً أنّ قلبي لا يحمل لكم سوى كلّ الحب.
انفجروا بالبكاء وهم يحتضنونني مودّعين، وعندما سألت عن الشيخ حسن، أخبروني بأنّه في الطريق، فطلبتُ منهم أن يؤكّدوا عليه أن يسامحني ويبرئ ذمّتي... فانفجر الشيخ الذي كان يحتضنني ولا يزال حتّى تلك اللحظة محتفظاً بصلابته، ببكاء حارّ ممزوج بالدعوات.. فلثمتُ يده بحرارة.
وقبل خروجي من ذلك الديوان، استدرتُ وقلت للشيخ: يا شيخنا، أنا سامحتُ الشيخة الكبيرة من كلّ قلبي وها أنا أبرئ ذمّتها أمام الله وأمامكم جميعاً، لكنّني لا أستطيع أن ألتقي بها، فقد ظلمتنا كثيراً. ويشهد الله أنّنا كُنّا وما زلنا طاهرين كالملائكة، مع ذلك أدعو الله من كلّ قلبي أن يسامحها.. وللأسف كنتُ أتمنّى أن ألتقي الشيخ حسن أيضاً. فقد لا نلتقي مرّة أخرى إلى الأبد... وانطلقتُ باكياً. عندما خرجت، بدأ الناس جميعاً يتهيّأون للتحرّك باتّجاه «ملّه سوره»، حيث كان ينتظرهم الجيش وكبار أعوان النظام، ووعودهم بحمايتهم والكثير من الحكايات المرعبة اللا نهائيّة. للمرّة الأخيرة، لمحتُ فاطمة جالسةً على الأرض تنظر إلى لا شيء، لم أستطع سوى أرفع يدي مودّعاً، ورفعت يدها تلوّح لي مودّعة، وأنزلتها بسرعة واحتضنت وجهها بكلتا كفّيها مُنفجرة في موجة بكاء بصوت عالٍ.
التقيتُ في الطريق بدرّاجة ناريّة وجرّار زراعيّ يجرّ عربة مليئة بالناس تتّجه صوب كاكه برا. توقّفوا وترجّل منها رجل واتّجه نحوي يطلب التحدّث معي على انفراد.. خاطبني باقتضاب: إلى أين تذهب يا دكتور؟ يقولون إنّ الأنفال تحاصر المنطقة كلّها، وإنّ الجيش قد سدّ جميع المنافذ.
– أنا خارج مع قوّات البيشمركة، وسأبقى معهم. فلم يعد لنا خيار آخر سوى القتال، أو الموت، فأهلاً بالموت.
– إذن، أتوسّل إليك أن تكون حذراً، يُقال إنّ بعض أفراد هذه القوّات يتّفقون مع الجيش، أو مع أحد أعوانه فيطلقون النار على رفاق لهم ويستسلمون مع سلاحهم، لكي يضمنوا عدم قتلهم من قبل الجيش.
– إنّ الله كريم، لكن قل لي بماذا تنصحني أنت، هل أذهب معهم أم لا؟
– أنا لستُ في وضع يسمح لي بنصيحتك، وها أنت ترى أنّ القيامة قد قامت، ولا أحد يعلم الصواب من الخطأ.
– على كلّ حال، أنا أشكر حرصك، ولكن مهما تكن نصيحتك، فإنّ قراري واضح، فهُم لم يبقوا لنا خياراً آخر سوى القتال حتّى الموت. لكن أشكر الله الذي منحني فرصة اللقاء بك للمرّة الأخيرة، فعندما لم أجدك مع الشيخ وبقيّة أشقّائك، ظننتُ أنّنا لن نلتقي، فامتلأ قلبي بغصّة حارقة على ذلك، لكن يشهد الله أنّني سامحتكم جميعاً وأبرأت ذممكم أمام الله.
عندها لم يعد الشيخ حسن يتمالك نفسه أكثر، فانفجر يبكي كالأطفال، واحتضنني بقوّة، وأخذنا نبكي كلّ على كتف الآخر، كما كان الكلّ في العربة وعلى الجرّار الزراعيّ يبكون بصوت عالٍ. قلت له: حتّى الشيخة الكبيرة التي أوغلت في ظلمنا كثيراً، يشهد الله أنّني سامحتها من كلّ قلبي... بقي أن أقسم لك من جديد، أنّني لم أخُنكم أبداً، لا بل حتّى لم أفكّر في خيانتكم ولو لحظة واحدة. أنا أحببتُ فاطمة بمنتهى الطهارة والنقاء، ويشهد الله أنّني لم ألمسها حتّى هذه اللحظة. لقد كان كلّ أملي هو أن أكون أخاكم الأصغر لا أكثر ولا أقل.

وانفجر ينتحب ويندب بكلمات بدت غير مفهومة، وبقينا نبكي إلى حدّ الإعياء، عندها انطلقنا كلّ في طريقه، هم باتجاه «مله سوره» والجيش وقادة الجحوش ووعودهم الكثيرة، وأنا باتجاه قوّات البيشمركة المتجمّعة في تلك القرية عند السفح. لكنّني لم أتمكّن طوال الطريق من التوقّف عن البكاء ولو لحظة واحدة. واستمرّ الليل وأنا أقود الدرّاجة الناريّة. طال الليل وهو يُحاصرني بآلاف الأفكار المرعبة عن مصير فاطمة وكلّ الأهالي. لمرّات عديدة دهمتني أفكار مجنونة بأن أعود وأنضمّ إلى عائلة الشيخ لكيلا أنفصل عن فاطمة أبداً. حتّى إن كان الموت يبعد على مدى سويعات لا أكثر، ثمّ أعود وأفكّر في العودة لكي أخطفها وأنطلق بها مع القوّات البيشمركية المنسحبة. لكنّ العجز كان قد تمكّن منّي تماماً.

38

«يا للحسرة على ما تحمّلناه من آلام في الطريق، لقد قطعنا الأمل بأنفسنا، ولم نقطع الأمل بالهدف المنشود».
فريد الدين العطّار

هنا تنتهي أسطورة الحياة الزائلة، لتبدأ حقيقة الموت الأبديّة الخالدة...

هنا.. في هذه المقبرة الموحشة، إذ تُحاصرني الأشباح من كلّ الاتجاهات، ولا ملاذ لي سوى قبر آتيلا ورفاقه.. تُعيد أشباح الذاكرة احتلالي من جديد...

أصبح الموت هو الأساس والقاعدة، فيما الحياة هي الاستثناء...

هكذا، بلمح البصر، انقلبت معادلة الحياة لتتحوّل بكلّ بساطة إلى معادلة للموت. وكما كان للحياة أشكال وأنماط، أصبح الموت هو الحاضر بكلّ تجلّياته، وبكلّ أشكاله وألوانه وأنماطه. لكن يظلّ الموت الجماعيّ أشدّ أنواع الظلم فتكاً وقسوة. فهو ينتزع منّا خصوصيّتنا، إنّه ينتزع بكلّ قسوة تفرّد كلّ واحد منّا في طريقة موته ومعانيها ودلالاتها التي لا تشبه غيرها.. إنّه النهاية الحزينة لكلّ ما سطّرناه من ملاحم ومآثر. ليدمجنا في حفل جماعيّ ويمسح كلّ أنواع التفرّد؛ فيكون موت البطل كموت الجبان، ويكون كذلك كموت الحمار، أو الحيوان الذي شاء قدره أن يكون ضمن دائرة رائحة التفّاح الخانقة.

بعد أن نكون فقدنا كلّ شيء، وأصبحنا وجهاً لوجه مع كلّ الأسئلة المحرجة التي كُنّا نعتقد بأننا نقف على قمّة أجوبتها التي لم تكن سوى مجرّد أوهام اقتنعنا بها، ها نحن نواجه آخر أنواع الظلم وأشدّها فتكاً وقسوة. فلم يبقِ لنا القدر سوى الموت الذي يحاصرنا من الأرض والسماء ومن كلّ الاتجاهات في معارك خاسرة لا تنتهي إلّا بالهزيمة المُرّة. وحتّى إن انتهت إحداها بمقاومة جزئيّة، فهي لا تعدو كونها سوى جولة تمهيديّة للهزيمة القاسية المؤكّدة. والأدهى من كلّ ذلك، أنّه لا يريد أن يُبقي لنا حتّى شرف التفرّد في نوع الموت، بل يُريد أن يُحيله إلى إبادة أشبه بإبادة الفئران، أو إبادة الجراد في موسم هجومه لا أكثر.

بعدما عبرنا النهر بقوارب الأهالي، كنّا في غاية الإنهاك، فتوزّعنا ليلتها على القرى في تلك المنطقة التي لم تصل إليها الأنفال بعد. في اليوم الربيعيّ الدافئ التالي، انتشرنا على ضفّة النهر نحاول أن نغلي الماء في صفائح لنغسل بها ملابسنا ونستحمّ في العراء في أماكن غير مرئيّة للقرى وساكنيها. فأنا لم أستحمّ منذ أسابيع. كنتُ كبقية رفاقي مليئاً بالقمل كما بعد كلّ معركة جبهويّة طويلة. يا إلهي، هذ القمل هو الوحيد الذي ظلّ يرافقني منذ تلك المعارك ومستمرّاً معي في سلسلة معارك الإبادة التي كانت تبدأ بنصّ الآية ذاتها. فحتّى السموم المتخفّية في رائحة التفّاح المغرية، لم تتمكّن من إجبار القمل على مغادرتي والتخلّي عنّي. لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي أشاهد فيها القمل. ففي طفولتي، وأثناء انتقالاتنا الكثيرة بين المخيّمات والمناطق النائية التي كانت تُشكّل المنفى القسريّ لنا، كنتُ أُصاب بها أحياناً وأعاني ليالي كثيرة من البراغيث، لكنّنا كُنّا نتخلّص منها في نفس اليوم الذي نكتشفها فيه.

أمّا هذا القمل المليء بالوفاء، الذي يرفض أن يتخلّى عنّا، ويرفض كذلك أن يقتات بدماء غيرنا، فإنّه عنيد لدرجة أنّني، للتخلّص منه، آثرت أن أرميه في الصفيحة التي كانت تغلي ماءً ممزوجاً بمسحوق الغسيل، فتغلي ملابسي فيها فوق نيران هائجة، كانت تحرّك الصفيحة من شدّة لهيبها وازدياد حرارتها. إلّا أنّني مع إخراج الملابس، وبعدما جفّت، اكتشفت أنّ الكثير من القمل لا يزال

عالقاً بين ثنايا الخيوط، بينما فقدت كلّ لون وتحوّلت إلى كائنات شفّافة، لكنّ الغريب أنّ الحركة قد دبّت فيها من جديد، وأخذت تتحرّك ببطء، فاضطررتُ لأن ألبسها وأنا أشهد محاولات بعض الرفاق المجازفة بعبور النهر سباحة.
ها هو التفرّد يدغدغ ستار الذي عبر النهر سباحة إلى الضفّة الأخرى. وبالرغم من برودة الماء الشديدة وفيضانه الربيعيّ المجنون، عبره ستار مرّتين سباحة، ما شجّع ودغدغ آخرين لقبول دعوته للمجازفة والدخول في التنافس على قطع النهر سباحة. فهدّدتُ كلّ من يحاول ذلك بإطلاق النار عليه، وطلبتُ من ستار الذي كان يقف على الضفّة الأخرى، أن يكُفّ عن ذلك اللهو ويعود إلى ضفّتنا. فعلينا أن نتحرّك بعد إنهاء حملة النظافة، ونستعدّ للتالي.
بينما كان يقطع النهر عائداً، غاب للحظة في المياه وعاد ليظهر مُصدراً صوتاً مخنوقاً أشبه بصيحة لهو. وأعاد الكرّة وبدا كأنّه يلهو ويمثّل علينا دور الغريق. ثمّ غاب وعاد للمرّة الثانية، ثمّ الثالثة... بينما كان التيّار القويّ يجرفه جنوباً. وكان ظهوره الرابع هو الأخير. بعدما كان التيّار قد جرفه بعيداً عن مكان وجودنا، فيما انطلقت الأعيرة الناريّة المنذرة بوجود حالة غرق وأدّت إلى تجمّع الأهالي على الضفة. ولم يظهر ستار مجدّداً... فأسرع السبّاحون من الأهالي الذين كانوا يعرفون مسالك التيّارات ومواطن قوّتها وجروف ضعفها، إلى الجرف القويّ الذي بدا أقلّ عمقاً من الركبة بقليل، لكنّه أقوى في جريانه.
أخرجوا ستار الذي كان قد تحوّل إلى قطعة من اللون الأزرق المتباين في شدّته. كان أزرق بالكامل، حتّى عيناه المفتوحتان اللتين بدتا كأنّهما غارقتان في حلم يقظة، تقاومان الغرق في النوم، بينما هما على وشك الاستسلام بعجز لسلطة النوم، كانتا مكسوّتين باللون الأزرق الباهت، وتضفيان على وجهه المكتسي بالأزرق الحالك مزيداً من التنسيق مع لون شفتيه المفتوحتين بشهيّة غريبة على اسوداد يعجز عن السيطرة على الزرقة التي احتلّتهما، طاردةً منهما كلّ ما يمتّ لأحمر الحياة بصلة، بينما جسده استحال ساحة لتنازع موجات الأزرق في شدّته أو بهوته.
بدا ستار الجسد، وكأنّه سلب النهر كلّ زرقته، النهر الذي تحوّل لونه مع بدايات المساء إلى سمرة أقرب إلى لون ستار. بينما كُنّا منهمكين بالحفر في مقبرة القرية التي كانت تقع على بعد أمتار فوق رابية بالقرب من مجرى النهر، بدا الأمر كلّه كأنّه مجرّد لعبة تبادل ألوان، أو تبادل أرواح بين النهر العابث بجنون، وبين ستار الذي كان يلهو بعبث مع النهر الذي لم يتمكّن من إغراقه بعمقه، ولا بتيّاراته القويّة الضاربة بجنون، بل خنق فيه كلّ الألوان ببرودته الصامتة بقسوة، ليسلبه كلّ ألوانه المختلفة، وليفرض عليه احتلال لونه الأزرق المستمرّ ببرود وصمت غريبين.
كان مشهداً في غاية القسوة ونحن ندفن ستار هكذا، حتّى بعيداً عن قريته، ومن دون علم عائلته وحضورهم. وما زاد في قسوة المشهد، هو ذلك البرود الذي صبغ الغضب الذي كان يغلي في كلّ واحد منّا، ولا يعرف كيف وعلى من يصبّه، والذي انتهى بحفل البكاء الذي فجّرته تلاوة آتيلا لسورة يس من القرآن أثناء مراسم الدفن... لكنّ تلك الحادثة صبغت لنا الأيّام التالية في تلك المنطقة بمزاج غارق في الحزن الذي يكابر على البوح. كانت تلك الأيّام، على الرغم من جوّها الربيعيّ، وسكوت المعارك التي كانت تنتهي بالدمار والموت الجماعي الوحشيّ، قاسيةً جدّاً في كشف حقيقة ما وصلنا إليه. كُنّا جالسين ننتظر احتساء الشاي بعد تناول الغداء في ظلّ شجرة صغيرة. جاءت زجاجات كبيرة كانت في الأصل زجاجات لتعليب معجون الطماطم، بدلاً من الأقداح، وليس فيها ملاعق شاي، وما إن كسرتُ غُصناً من الشجرة التي كانت تُظلّلنا لاستخدامه

كملعقة، حتّى أحسستُ بغصّة، إنّ تلك الثورة العظيمة التي كانت قاب قوسين أو أدنى من النصر النهائي الكبير، أصبحت لا تمتلك الآن حتّى ملاعق شاي.
لم يمرّ وقت طويل حتّى أصبحت القوّات المهاجمة تحتشد على أطراف المنطقة، ومن كلّ الجهات. وأدركنا أن المعركة الحتميّة واقعة لا محالة خلال ساعات لا أيّام. كانت قوّاتنا منهكة تماماً، ولم تكن كافية أو حتّى مهيّأة لدخول تلك المعركة غير المتكافئة. فخلق كلّ ذلك حالة تململ واضحة، تتساءل عن جدوى الدخول فيها، وتطلب تفاديها. وقد انفجر سربست بأنّ الحكمة تقتضي تحاشي المعركة وترك المنطقة من دون قتال، فجاءه الردّ واضحاً لا لُبس فيه وحازماً: نُدرك أنّها معركة خاسرة، وأنّنا سنخسر المنطقة بالتأكيد، ودخولنا المعركة والإصرار عليها ليس بغرض كسبها المستحيل، بل من أجل ألّا نترك لهم شبراً واحداً من دون مقاومة، ونكون بذلك قد قدّمنا مثالاً في البطولة يُلهم شعبنا في ما بعد ويؤكّد لهم أنّنا قاتلنا حتّى آخر طلقة وآخر قطرة دم حتّى أثناء الهزيمة الكبرى.
في صباح ذلك اليوم، بدأ الهجوم من كلّ الجهات. في اللحظات الأخيرة اكتُشفت ثغرة لم يُحتسَب لها من قبل. كانت هناك رابية خلف تلك القرية تقع من جانب أعلى السهل المنبسط الذي يقبع أسفلها، وعلى اليمين من التلال المرتفعة التي كنّا قد حفرنا فيها الخنادق قبل ثلاثة أيام، تحسُّباً للهجوم. فتوزّعنا في الحال، أنا ومجموعة، على تلك الرابية التي باتت تشكّل ثغرة خطيرة، بينما هرع أنور وسربست وآخرون لتعزيز القوّة المتمركزة في الخنادق على القمّة العالية. كنتُ أركّز من مكاني على القوات التي تتقدّم ببطء في السهل الذي يقع أسفل الرابية التي أجلس عليها مع رفاق من دون خنادق تسترنا، كُنّا هكذا في العراء. تقدّم جسمٌ غريب مُسرعاً يشقّ حقل القمح الذي يقع في الأسفل منّي. كان منظراً غريباً. ثمّ.. على غفلة، ارتفع مُهاجماً بإطلاقات قويّة المُرتفعات التي تقع فيها خنادق الرفاق على يسارنا. كانت واحدة من الطائرات المروحية الخمس التي ظلّت تجوب سماء المنطقة، تمشّطه بالنار، وتطلب منّا عبر مكبّرات الصوت، الاستسلام.
دامت المعركة غير المتكافئة أبداً إلى ما يقارب ما بعد الظهر، ونحن قابعون في مكاننا، نرفض الانسحاب. إلى أن هبطت الطائرة المروحية الكبيرة أعلى التل الذي حفرنا فيه الخنادق قبل أيّام. ما يعني أنّهم احتلّوا أعلى قمّة تُشرف على المنطقة بأكملها وكانت تقع على اليسار منّا وتقطع علينا طريق العودة إلى القرية التي انطلقنا منها. فأصبح الانسحاب أمراً حتميّاً، يبدو أنّهم اعتبرونا زاوية ميتة لا داعي للدخول في اشتباك معها، وأنّهم باحتلال تلك القمّة القريبة منّا، يكونون قد حاصرونا في زاوية لا تبقي أمامنا سوى الاستسلام أو الموت.
حاولنا الانسحاب، فبدأت المروحيّات بمهاجمتنا. كان الشيء الوحيد الذي نستفيد منه، هو المجال الذي كُنّا نحظى به بينما تدور المروحيّات لإعادة الهجوم علينا لكي نركض بأقصى سرعة، بينما كنّا نحاول الاختباء داخل الحقل الذي كنّا نأمل أن يحجبنا عن نظر الطائرات المهاجمة، إلى أن نصل إلى منطقة الأشجار التي تمتدّ إلى داخل القرية. مع وصولنا إليها، أخذت قوّة من الجيش والجحوش تهبط مسرعةً نحو القرية لنهبها. فلم يكن أمامنا سوى الاشتباك الفوريّ لمنعها من الوصول إلى البيوت والتخندق خلف جدرانها. فهرعت منسحبةً بسرعة إلى حيث هاجمت منه، فدخلنا القرية التي كانت خاليةً تماماً.
بحثنا في العديد من البيوت لعلّنا نجد أحداً، لكنّ الجميع كانوا قد انسحبوا. يبدو أنّنا كنّا قد اعتُبرنا في عداد الأموات وانتهى الأمر. وبما أنّ المنطقة لم تكن منطقتنا، ولم نكن نعرف مداخلها

ومخارجها، فقد اختلفنا بشدّة حول الوجهة التي علينا أن نسلكها للوصول إلى قوّاتنا المنسحبة، بينما ظلّت المروحيّات تقصف القرية وما حولها باستمرار، وبشراسة أكبر، إلى أن استقرّ بنا الرأي على التوجّه صوب الوادي العاصي المليء بما يشبه الكهوف. فكانت المسيرة متقطّعة مستغلّين فيها الفترات الواقعة بين ابتعاد المروحيّات للدوران وعودتها لتصبّ الموت علينا.
طال مسيرنا إلى أن وصلنا ما بعد العصر إلى المنطقة الوعرة العاصية، وكانت القوّات والكثير من أهالي القرى قد تجمّعوا هناك. ودخل البعض في جدال ومشاحنات حول تركنا هكذا في العراء دون إنذارنا بالانسحاب، إذ كان عليهم التأكد من انسحاب القوّات. رأيتُ بعض الجرحى الذين كانت جراحهم بسيطة، بينما كان بعض الرفاق مشغولين بما كان يبدو أشبه بالجثة، فذهبت إليهم. كان طاهر، ذلك المقاتل الشجاع الذي كان نموذجاً في الإقدام والتحمّل. كان مُثخناً بالجراح، فقد أصيب نتيجة قصف طائرات البيلاتوس التي كانت تمتاز بدقة إصاباتها. كان طاهر غائباً عن الوعي تماماً. فسألت عن أنور وسربست وبقيّة الرفاق الذين انطلقوا قبل بدء الهجوم بقليل لتعزيز الخنادق الواقعة على القمّة العالية. فقيل إنّهم لم يعودوا بعد.
جُنّ جنوني وصحت غاضباً: أنا لا يمكن أن أغادر هذه المنطقة من دون أنور، لا أستطيع، أنا عائد إلى منطقة المعركة. فكلّ هذا الكلام الغامض الذي أسمعه عن أنّه استُشهد أو جُرح، لن يثنيني عن العودة لاصطحابه.
كانت قوّتنا الموجودة على القمّة قد انقطعت أخبارها بالكامل، إلّا من بعض الكلام الأكثر شبهاً بالشائعات التي نقلها من قالوا إنّهم تمكّنوا من الهرب في اللحظات الأخيرة. أي إنّ أكثر من عشرين من رفاقنا لا يزال مصيرهم غامضاً، ومنهم أنور الذي كان يستحيل عليّ أن أغادر من دونه. فانبرى ثلاثة من الرفاق لمرافقتي، عثمان الذي قرّر العودة معي بحثاً عن خبر شقيقه الغائب في ميدان المعركة، وعمر الذي كان صديقاً لي ولأنور.. ثمّ صابر الهادئ الذي قال إنّه سيعود فقط إكراماً لي أنا. فأصبحت المسؤولية أكثر ثقلاً، فقد تؤدّي محاولتي لإنقاذ من وجب عليّ عمل المستحيل لإنقاذه، إلى التضحية بحياة رجال نبلاء تجاوزوا قضيّة الواجب وأصبح أيّ مكروه يصيبهم في عنقي أنا شخصيّاً. كان الطريق طويلاً وبدأ الظلام يهبط علينا وعلى المنطقة كلّها بالتدريج.
وصلنا إلى مشارف القرية المركزيّة من جهة الخلف والأقرب إلى القمّة العالية، لعلّنا نجد طريقاً إلى أقرب نقطة على القمّة التي كانت مليئة بكلّ أنواع القوّات والأسلحة والآليّات العسكريّة. كان هناك من يلبسون مثلنا الملابس الكرديّة من أعوان النظام وجيشه، يحرقون بقايا القرية وينهبون كلّ ما بقي فيها، بينما كانوا يعذّبون شخصاً ليُقرّ بوجهة قواتنا المنسحبة. تُرى من يكون؟ وبعد قليل حضر من تحدّث إليهم بالعربية وأمرهم بتهديده برميه في النار المشتعلة في أحد البيوت، وعندما سألوه: وإن رفض التعاون، يا سيّدي؟
ردّ عليهم بعصبيّة: إذا رفض، ارموه في النار.. وليذهب إلى الجحيم.
كنتُ قريباً خلف تلك الصخرة. أرى كلّ شيء بوضوح شديد، لا يزال يؤذيني في ذاكرتي وعينيّ. صبّوا عليه في البداية سائلاً، وهدّدوه بأنّه إن لم يخبرهم بمكان القوّات والوجهة التي ستسلكها للانسحاب من المنطقة، فسيحرقونه. كنتُ أرى النار تتوهّج وهي تنعكس على جسده المبلّل بالسائل، وأتحرّق لمعرفة من يكون هذا الشخص العنيد، إلى أن ارتفع صوته مُجدّداً بسيل من الشتائم ناعتاً إيّاهم بالخونة. وعندما سحبوه صوب النار، ارتفع صوته بأحد أناشيد الثورة

الحماسيّة. يا إلهي، لم أصدّق ما أرى.. إنه سربست. فيا للغرابة! كان هذا العنيد، مساء أمس، يتعارك معنا بصوتٍ عالٍ متسائلاً عن جدوى المقاومة في معركة خاسرة، لكن، مع ذلك، ها هو يقاومهم حتّى أمام التهديد بالموت حرقاً.
ما زلتُ أسمع صرخاته الأخيرة وهو يحترق في النار المشتعلة في القرية. كان مشهداً في غاية القسوة، كنتُ عاجزاً، شعرت بالضآلة أمام سربست، فأخذنا نحن الأربعة متفادين التجمّعات، مُركّزين على ما يدلّنا إلى أحد رفاقنا الذين قد لا يزالون يقارعون الموت في مكان ما بعيداً عن عيون القوّات المهاجمة. فطال بحثنا، لكن دون جدوى. لم نجد أيّ أثر لأحد من رفاقنا الذين كانوا على القمّة حين هبطت المروحيّة الكبيرة مكانهم ظُهر ذلك اليوم الطويل. فقرّرنا العودة بسرعة قبل أن تنسحب قوّاتنا من المنطقة بأكملها وتتركنا في منطقة لا نعرف عن مرتفعاتها وأوديتها ومداخلها ومخارجها الكثير، أي نكون قد ضعنا في المنطقة التي يعرفها العدوّ أفضل منّا بكثير.
وحين وصلنا بعد السير في ذلك الطريق الطويل، وفي ظلّ تلك الظلمة، كان مكان قوّاتنا فارغاً تماماً وكان الجميع قد غادروا وتركونا لمصيرنا...
بعد تلك المعركة بعدّة أيام، بدأت تصلنا الأخبار عمّا كُنّا تائهين خلفه، أي مصير بقيّة قوّاتنا. كانت القوّات الباقية في الضفة الأخرى من النهر، التي أبت أن تترك المنطقة من دون قتال، قد حوصرت تماماً وقُصفت بكلّ قسوة بالقذائف الكيماويّة، ومن تمكّن من الهرب من القوّات المهاجمة، كانوا فقط هم الذين لجأوا إلى المناطق الوعرة وقرّروا البقاء في المنطقة المدمّرة تماماً، فيما أخذ الجيش الأهالي إلى نفس المصير المجهول الذي ما زلنا نبحث عنه دون جدوى.
ووصلتنا أخبار عن طريق بعض أعوان الجيش من الكُرد، بأنّ أحد أفرادنا كان من العناد والشجاعة، بحيث إنّ قادة الجيش المهاجم استُفزوا من شجاعته وموقفه المعاند، بعدما تمكّنوا من أسره جريحاً، وقد نفدت كلّ ذخيرته، قرّروا أن يضعوه على متن إحدى طائراتهم المروحيّة، وارتفعوا به مبتعدين في السماء، وفتحوا الباب ودفعوه وألقوا به من ارتفاع عالٍ جداً صوب الأرض. وكانت كلّ الأوصاف التي ذكروها تنطبق بشدّة على أنور.
هكذا كان الموت يتجلّى في كلّ صوره وألوانه وأشكاله، وكُنّا نعانده ونعاند القدر الذي أراد أن يسلبنا التفرّد حتّى في الموت. وكانت تلك الصور والألوان في أقسى تجلٍّ ممكن. ففي خضمّ الموت الجماعيّ المجّاني، كانت صور موت ستار غارقاً وحيداً في النهر، وسربست الذي أحرقته النيران التي أشعلها الجيش وأعوانه في تلك القرية، وكان موت أنور بطوليّاً كحياته، فقرّر أن يفرض على جلّاديه أكثر أنواع الموت تفرّداً برميه من علياء السماء.
إنّ موتي المحقّق أنا ورفاقي الثلاثة في تلك المنطقة التي كُنّا نجهلها تماماً، قد فشل لسبب غريب جداً. عندما وصلنا تلك الليلة إلى القرية التي تقع أسفل الوادي، بعد أن كانت القوّات قد رحلت نهائيّاً، كانت خالية إلّا من بعض الأهالي الذين حاولوا أن يدلّونا على الطريق الذي انسحبت منه قوّاتنا. في تلك الأثناء، سمعنا أصواتاً آتية من ذاك الطرف الذي كان علينا أن نسلكه دون هداية للنفاذ من دائرة الموت المحقّق، فاضطررنا إلى التخندق مع ذخيرتنا التي كانت على وشك النفاد للاشتباك مع الخطر المقبل. فميّزنا منها أصواتاً مألوفة. يا للغرابة، إنهم بعض من رفاقنا الذين كانوا قد رحلوا مع قوّاتنا، فما الذي أعادهم ثانية؟ كان طاهر قد أسلم الروح في الطريق فاضطرّت القوّات إلى التوقّف ريثما تعود هذه المجموعة لدفنه في مقبرة القرية، وهذا هو السبب الوحيد لالتحاقنا مُجدّداً بقوّتنا المغادرة من جديد.. فرفض الأهالي بقاءنا طويلاً، مُحذّرين من أنّنا إن

تأخّرنا أكثر من ذلك، فلن نتمكّن من الوصول إلى منطقة آمنة قبل طلوع النهار، ما يعني إبادة القوات كلّها، فتكفّلوا هم بمراسم دفن طاهر حتّى من دون حضور رفاقه.
عندما أفكّر الآن بهذا الكمّ الهائل من الغرابة التي صبغت مشاهد الموت في ذلك اليوم، أُصاب بنفس الاندهاش الأوّل منها. لقد كان موضعنا الذي تخندقنا فيه هو الأخطر باعتبار أنّنا كُنّا في العراء تماماً من دون خنادق، وفي الزاوية الميتة التي يحيط بها الموت من كلّ جانب، بينما كان رفاقنا المتمركزون في خنادقهم التي حفرناها قبل أيّام قليلة، فوق أعلى قمّة تُسيطر على المنطقة كلّها. ومن غرائب الأمور، أن رفاقنا المتخندقين قد استشهدوا بعد مقاومة بطوليّة، بينما بقي موقعنا الميّت، الذي كان بحكم الانتحار، مؤجّلاً إلى أن يفرغ الجيش من المواقع العالية، عندها نكون عالقين في مصيدتهم. انتحاريّة موقعنا كانت هي ذاتها السبب الوحيد في تأجيل الهجوم وتمكّننا من الانسحاب.
وأنا أستعيد كلّ ذلك بالقرب من شاهد قبر آتيلا، لا أستطيع أن أمنع نفسي من الغرق في الذهول من هول دلالات ما حدث. لقد حظي ستار بمراسم دفن من دون أقاربه وأهله، لكنّه مع ذلك كان بحضور رفاقه.
لكنّ طاهر لم يحظ حتّى بمراسم دفن بين رفاقه، فتكفّل الأهالي الذين لا يعرفونه وهو لا يعرف أحداً منهم، بدفنه وحيداً من دون حضور أهله أو حتّى رفاقه.
والأدهى والأشدّ ألماً، هو أنّ كلّاً من سربست وأنور وبقيّة الرفاق المتمركزين على القمّة العالية لم يحظوا حتّى بقبور...
إنّني أمتلئ الآن حقداً على الحياة التي تحوّلت بكلّ عناصرها الأساسيّة إلى أسباب للموت يفتك بنا بأساليب مبتكرة، تُجرّدنا من كلّ خصوصية وتفرّد، لتُضيّع على كلّ فرد منّا احتفاظه بسيرة تخلّده وتُلهم الآخرين من بعده، لتخلط كلّ تلك المآثر والبطولات بسيل جارف من الموت الجماعيّ الذي يساوي موت البطل بموت الجراد. فهل هناك ظلم وقهر أكبر من ذلك؟ لقد تحوّلت عناصر الخلق ذاتها في مشهد مُغرق في العبثيّة والظلم والسخرية إلى عناصر لا تحمل لنا سوى الموت، فهل هناك سخرية أكبر من أن تتحوّل عناصر الخلق بذاتها إلى عناصر للموت والفناء؟
الماء: أُغرق ستار في مشهد في غاية الحزن والعبثيّة، لكنّه حظي بقبر ومراسم دفن وسط رفاقه ومن دون أهله، أو حتّى علمهم بموته.
التراب: رفض أن يتشرّف باحتضان رجال أبطال ظلّ الموت يخشاهم لفترة طويلة، فقد كان هو نفسه السبب الرئيس في استشهاد طاهر، ليأتي ويحتضنه في النهاية بعيداً عن أهله وحتّى رفاقه. فقد علمتُ في ما بعد، أن الطائرة حين استهدفته بصاروخها، أوقعته في قعر الخندق الذي انهار عليه، محوّلاً جسده كلّه إلى جروح تنزف، وأنّه ظلّ تحت التراب لفترة طويلة إلى أن تمكّن رفاقه من إخراجه والتراب قد غطى كلّ جسده، وأنّه استنشق الكثير منه.
النار: التهمت سربست بكلّ شراسة، غير مبالية بموقفه البطولي، موقفه الذي كان رافضاً للمعركة التي اعتبرها عبثاً، لكنه احتفظ بإيمانه وشجاعته إلى اللحظة الأخيرة. وحتّى من دون أن يحظى بقبر، وبعيداً عن أهله وحتّى رفاقه، ينفردُ به خونة من بني جلدته، ليرموه في النار امتثالاً لأوامر تلقّوها حتّى بغير لغتهم.
الهواء: الذي تحوّل من عنصر للحياة، ومن عنصر لا بديل منه للحياة ولو للحظة واحدة، إلى سبب الموت الرئيس. الهواء الذي نتنفّسه لنبقى أحياءً، أصبح هو ذاته حامل الموت الأقوى، فقتل كلّ من

استنشقه في الضفّة الأخرى من النهر.
لكن يبقى موت أنور مُتفرّداً، عصيّاً على الوصف والفهم، وكأنّه أضيف كعنصر خامس للخلق، كان لا بدّ من إبادتنا نحن، حتّى يتجلّى ويتجسّد كعنصر خامس للموت. لقد أسقطوه من ارتفاع عالٍ ومن طائرتهم المروحيّة، بعد أن استفزّت شجاعته كلّ غضبهم وحقدهم، فأحالتهم إلى أقزام لا يفقهون سوى لغة الموت الحاقد الجبان. فكان أن تحدّى السماء، ليُثبت أنّه يهبط من تلك العلياء بموته، ليفوق كلّ صعود إلى السماء.
بعد مسيرة الموت بكلّ ألوانه، أصبح لزاماً على هذه القوّة المنهكة، أن تسير الليل بأكمله، وألّا تتوقّف إلّا عند الفجر، في منطقة آمنة تقي أشكال الموت وألوانه لغاية المساء وحلول الظلام للانطلاق من جديد، ما يعني أنّنا كُنّا محكومين بالسير طيلة الليل لنكون داخل المصيدة التي لا يعرف أحد هل سننجو منها، أم ستطبق علينا جميعاً**؟!**

39

«هل يوجد شخص يقضي عمره مديداً، كتلك اللحظة التي قضاها إسماعيل؟».
فريد الدين العطّار

ها هي تقطع كلّ تلك المسافات...
ها هي تجتاز كلّ المخاطر، وتزور مناطق لم ترها من قبل أبداً...
وكلّ هذا فقط، لتلتقيني بعد ذلك الفراق الطويل الذي قارب السنة. ها هي بكلّ شوق العالم، بالرغم من الخوف والرعب الذي يلفُّ زيارة كهذه يمكن أن تؤدّي بها إلى الموت المحقّق، ومع ذلك لم يثنِها الخوف من الموت وأصرّت على المجيء دون اعتبار لكلّ تلك المخاطر. أبلغوني، عن طريق جهاز اللاسلكي، بأنّها قد وصلت إلى تلك القرية الكبيرة التي تقع في سفح ذلك الجبال المورق بكلّ أنواع الشجر.. والتي لم يكن جيش الأنفال قد دمّرها بعد، كما دمّر القرية وأخذ فاطمة والجميع إلى المجهول. ما إن وصلني الخبر، حتّى أسرعتُ في التوجّه إلى حيث وصلتْ هي. فكان عليّ الاستعجال لأنّي كنتُ لا أزال بعيداً عن تلك القرية الكبيرة.. وكذلك لأنّ الإنهاك الذي ألمّ بي لا يمكن أن يخرج منّي، إلّا إذا استرحتُ في حضنها الدافئ. أقسمتُ أن أركع أمامها وأقبّل قدميها.
بعد أن ودّعتُ الشيخ وأبناءه، وبعد أن أبكيتُ كلّ الأهالي الذين شهدوا وداعي لفاطمة، تمكّنتُ، وبشقّ الأنفس، من الوصول في اللحظات الأخيرة التي سبقت انسحاب قواتنا الكبيرة من منطقتنا الأصلية، وانطلقتُ معهم في تلك الرحلة القاسية المضنية التي تخلّلتها أهوال لم أتصوّر أن أراها في أكثر الكوابيس رعباً. وبقيتُ معهم ونحن نعبر منطقة الخطر لنصل إلى النهر الفائض الذي أغرق ستار في ذلك اليوم الربيعي الحزين. وأبكيتُ جميع من حضروا مراسم دفنه في تلك المقبرة الواقعة أعلى الرابية المحاذية لضفة النهر، أبكيتهم جميعاً وأنا أتلو سورة «يس» تجويداً. وانهمكتُ في معالجة من كانت المعارك تسمح لي بمعالجتهم من الجرحى، الذين كثر عددهم وتعدّدت جراحهم بصورة غريبة جدّاً. لكنّ كلّ ذلك لم يتمكّن من إجباري على نسيان فاطمة ولو للحظة واحدة. وبدا الأمر كأنّي أصبت بلعنة الحرمان من النسيان حتّى أثناء النوم، الذي كان يتحوّل إلى سلسلة متواصلة من الكوابيس التي تخطف فاطمة في زوبعة الدخان الذي يلفُّها بينما توصلني رائحة التفّاح المنتشرة في كلّ مكان إلى حافة الاختناق لأستيقظ على صوت صراخي وأنا أكاد أختنق بالفعل.
في اليوم التالي للمعركة القاسية التي كانت تحمل اسم الآية القرآنية والرقم أربعة، والتي انتهت بالعديد من الشهداء، وكادت تودي بشاسوار وثلاثة آخرين لولا استشهاد طاهر في اللحظة الأخيرة، وهو مُمدّد بصمت مُحزن على الأريكة التي وفّرها كيسا التبن الكبيران المتدلّيان من على جانبَي ذلك البغل الأسود. وجدنا أنفسنا في هضبة أقرب إلى الانبساط لا تتخلّلها سوى أودية صغيرة تكاد لا تقي حتّى أشعّة الشمس تماماً. ومع ذلك، أُبلغنا بأنّ علينا محاولة الاختباء والتمويه إلى أقصى درجة ممكنة. لكن لم تكن تلك هي المشكلة الوحيدة، فالطعام كان قد نفد وأصبحنا مُحاصرين بين الموت على يد الجيش أو نتيجة للجوع. فأخذ العديد من الشباب يستطلعون المنطقة بحذر شديد. والغريب أنّهم وجدوا العديد من الأماكن التي خبّأ فيها الأهالي في ما مضى بعض الدقيق، مع صاجات خاصّة بشيّ الخبز، فقد تعوّد الأهالي على ترك قراهم بين الفينة والأخرى،

واللجوء إلى تلك الأودية هرباً من هجمات الجيش، والبقاء في البريّة أحياناً لمدّة تتجاوز اليوم. فدفعهم كلّ ذلك إلى إخفاء تلك الحوائج في منطقتهم.
وجدنا جدول ماء صغيراً، وحوّلنا الدقيق إلى عجين يفتقر إلى الملح والخميرة. وكان علينا أن نجد طريقة لتسخين الصاج الذي يُشوى عليه الخبز. ولم تكن المنطقة تحوي أشجاراً لكي نستخدمها في الحرق، فلجأنا إلى كلّ ما تقع عليه أيدينا من الأشواك والنباتات البرّية القليلة التي جفّت. فلم تكد تسخن الصاج، حتّى بدأ العديد من الشباب يضع قطع العجين عليها لكي تشوي الجانبين فقط لا أكثر. عندما سألت أحدهم كيف يمكنك أن تأكل هذه العجينة، أجابني بأنّها أفضل من الخبز المشويّ، لأنّها ستبقى تقاوم في المعدة لفترة أطول من الخبز المشويّ تماماً.
انقضى ذلك النهار وتهيّأنا لترك المنطقة والعبور من خلال الجبل العالي الذي يلوح من بعيد للمنطقة الآمنة التي تقع خلفه. فسرنا الليل بأكمله، ووصلنا إليها فانتشرنا في القرى الواقعة في سفح الجبل من جهته المقابلة الذي كان يشكّل جانب الوادي الأخضر المليء بالقرى والبساتين الكثيرة. فكان استقبالاً يشوبه الكثير من الحفاوة الممزوجة بنوع من الشفقة. وأمضينا العديد من الأيّام نجول بين القرى، وشاهدتُ كيف أنّ شاسوار كان حريصاً جداً على أن يقصر نوبات الحراسة الليليّة على أفراد بعينهم دون آخرين، ما أدّى بالعديد منهم إلى نوع من الاستياء من حركة تبدو كأنّها تشكيك فيهم، فتذكّرتُ تحذير الشيخ حسن لي أثناء وداعنا الأخير.
لم يطل بقاؤنا في تلك المنطقة أكثر من أسبوعين. انطلقنا بعدها في رحلة استغرقت عدّة أيّام إلى أن وصلنا. علمتُ في ما بعد، أن القيادة أصدرت الأوامر بتحرّك هذه القوّات المنهكة إلى منطقة جبال قنديل الوعرة، ذلك لأنّها أُنهكت تماماً نتيجة المعارك المتلاحقة... وبينما كنّا ننطلق، أبلغوني بأنّها وصلت إلى تلك القرية الكبيرة، وأنّها تنتظرني. كان الطريق بعيداً، لذا أسرعت، وكنت مُتشوّقاً، مُنهاراً، مُحبَطاً. تخيّلتُ نفسي وأنا أرتمي في حضنها وأنفجر في البكاء الطفوليّ. كنتُ أستطيع أن أشُمّها من مكاني. كنتُ أتخيّلُ نفسي وأنا أرتمي على قدميها، أقبّلهما بجنون.
ما إن وصلتُ، حتى أبلغوني بأنّها انتظرتني ثلاثة أيّام، وبعد أن يئست من حضوري تماماً، عادت أدراجها. كانت تلك واحدة من أقسى الضربات التي تلقّيتها لتُكمل تدميري. يا إلهي، حتّى تلك الخيالات التي أرهقتني وكانت الدافع القويّ لاستعادة بعض من قوّتي، ذهبت أدراج الرياح. فلم يُقدَّر لي اللقاء بها، على الأقل لكي أعتذر لها عن كلّ ما سبّبته لها من آلام طيلة عمري. في تلك اللحظة، لم يكن يشغل بالي سوى الألم الذي اعتصر أمّي وهي تقطع كلّ تلك المسافات والمخاطر لتلتقي بي في منطقة بعيدة لم تكن تتخيّل أن تراها حتّى في الحلم. انفجرت في البكاء اليائس حين تخيّلتُها وهي تعود محبطة يائسة وهي لم تلتقِ بي.
بعدها لم يبقَ لي سوى الالتحاق مجدّداً بالقوّة التي انفصلتُ عنها بغرض لقاء أمّي المُستحيل، الذي لم يتحقّق. وصلنا إلى منطقة قنديل التي كانت حقّاً أكثر خرافيّة من الجنّة التي كنّا نحلم بها. ولم أستمرّ في البقاء مع القوّات، إذ انطلقتُ بعدما ودّعت شاسوار وبقيّة الإخوة الذين تمركزوا على طول المنطقة الوعرة وعرضها. انطلقتُ عابراً الحدود الدوليّة المليئة بالثكنات والمعسكرات. وذهبتُ مباشرةً إلى المدينة التي كان قد استقرّ فيها سلمان، القائد الأعلى للقوات في منطقتنا سابقاً، لكي أحاول الحصول على معلومة بخصوص مصير فاطمة، والآلاف الذين ساقهم الجيش إلى المجهول.

استقبلني الرجل في بيته بحفاوة كبيرة، وكان قد استقرّ لبعض الوقت في تلك المدينة بغرض السفر لمعالجة زوجته في الخارج. ما إن وصلتُ، حتّى قلت له وقلبي يعتصره الألم: ألم أقُل لك إلى أن تعود وتتوسّط لدى الشيخ لكي يزوّجني فاطمة ستكون القيامة قد قامت وانهار العالم كلّه؟ وأكملت عبارتي الأخيرة وأنا عاجز عن منع نفسي من الانفجار في البكاء. لكنّه صمت، وكان صمته هو الجواب الوحيد الذي يمكن أن يرُدّ به أحد في مثل تلك الحالة التي لن تتكرّر أبداً.
لقد قامت القيامة وانتهى كلّ شيء. قامت قبل أن يحلّ الموعد النهائيّ لمهلة الأيّام العشرة التي فرضها الأشقاء الخمسة على والدهم لتزويج فاطمة أو قتلها. حين أفكّر الآن في كلّ ما حدث، أكتشف فجأة، أن الله كان يستجيب لدعواتي في كلّ مرّة بطريقة أكثر بُطئاً، وبضريبة أشدّ قسوة. لمحت الفكرة في سرعة البرق، فذُهلت من حقيقة أنّ أيّ معجزة لا تأتي هكذا مجّاناً، بل إنّ لها ضريبتها التي يجب أن يدفعها أحد ما. في المرّة الأولى التي توسّلتُ فيها إلى الله بعد إعلان توبتي ذلك العصر في تكيّة الشيخ، استجاب الله لدعواتي في ليلة واحدة، فبعث طائرات ترمي المدينة بالقذائف ليشرّد أهلها ويؤدّي بالشيخ إلى العدول عن فكرة إرسال العائلة إلى المدينة، في لحظة اندماج غريبة أحسستُ بأنّ الله قد أشعل الحرب المدمّرة التي طالت ثماني سنوات فقط لكي يهرب أهل المدينة تلك ويمنع رحيل عائلة الشيخ، ويحميني من فراق فاطمة.
بعد ذلك، كلّما توسّلت إليه، كانت استجابته تتأخّر بعض الشيء، وحدث ذلك أثناء زيارة الشيخ صالح وولده مع عبد الكريم وبعض أقارب الشيخ لطلب يد فاطمة، ومن ثمّ دعواتي المكلومة ليمنع الله زواج فاطمة، وتحقّق المعجزة بموقف الشيخ محمّد البالغ في الشهامة، عندما أبى أن يُفرّق بين قلبين عاشقين بكلّ تلك الطهارة والنقاء. كلّ ذلك طمّعني أكثر فأكثر في كرمك يا إلهي، فطلبتُ الكثير، وبقيتُ أتوسّل إليك يائساً أن تمنّ عليّ بمعجزة تمنع تزويج فاطمة بأحد أقاربها، وتؤدّي في الوقت نفسه إلى حمايتها من القتل المجنون على أيدي أشقّائها بدعوى غسل العار. أنا طلبتُ معجزة تحمي فاطمة من التزويج القسريّ أو الموت. فماذا فعلت أنت يا إلهي؟
كنتُ أنتظر أن تفديها كما فديت إسماعيل، لكنّك يا ربّ العرش العظيم، أيّها القاسي المُتكبّر في عليائك، أنزلت الصاعقة المميتة على كلّ ذي روح، فحوّلتنا كلّنا إلى ذلك الكبش الذي لا أعلم من فديت بنا حقّاً؟ كان قُربانك هذه المرّة غالياً وكبيراً يفوق حدّ تصوّر البشر. لكن المؤكّد هو أن قُربانك هذا، لم يكن هذه المرّة لأجلي أنا. لأنّك قدّمت الجميع بما فيهم فاطمة قرباناً. حتّى الشيخ حسين هزار كاني الذي مُنح هو وأهله الحياة، فإنّ موقفه الأخير يُنهي احتمال أن تكون فديته وأهله بنا كلّنا، أم تُراه فاق حتّى إسماعيل في الإيثار ورفض قرابينك الغالية. ها أنا أغرق أكثر فأكثر في ظلمة هذه الليلة الفاصلة التي تُشبه ليلة الحساب بيني وبينك، ولم يبقَ أمامي بعد أن اكتشفتُ أنّني أنا وفاطمة وكلّ شعبي كُنّا قرابين لمشيئتك، لكن دون أن نعلم من هو المُفتدى هذه المرّة، إلّا أن أقدّم توبتي الصادقة تلك قرباناً أمام هذه الكأس المقدّسة التي ستنقلني بمجرّد شربها إلى ملكوتها الواسع المغرق في الكفر، حيث لا ألم ولا فراق، ولا قرابين مظلومة. وها أنا أشربها...

40

«إلهي لماذا يستبيح الجريمة من لا يدفع دية ما يفعل؟!».
فريد الدين العطّار

ها هو يتجرّع كأس السمّ، وها هي الحرب تنتهي بعد ثمانية أعوام من الدمار، والرئيس لا يزال يحكم قبضته على كلّ شيء. في اللحظة التي أعلن عن كلّ ذلك في المذياع، دهمني خوف فُجائيّ شديد على أبي الذي كان ينتظر بشدّة أن تؤدّي الحرب مع الثورة الجديدة إلى القضاء على الرئيس. بعد أن شهد من قبل النهاية المأساويّة للإمبراطور ملك الملوك، والرئيس الجزائريّ المضيف لوليمة الاتفاق علينا على مذبح البترول.

على العكس تماماً من كلّ ما كان يتمنّاه أبي، ها هو الرئيس يملأ الشوارع والساحات العامّة بصوره التي يحملها الناس وهو يرتدي مختلف الملابس، بينما نحن تُلاحقنا الهزائم، ونُقتل وحيدين أمام الله، وفي معارك غير متكافئة مُشتعلة في كلّ المناطق الواسعة، التي لا تزال تحت سيطرة بقيّة قوّاتنا. أمّا نحن، تلك القوات التي أنهكت في معارك الشتاء والربيع، فها نحن نتمركز في جبال قنديل استعداداً للمعارك الأخيرة. بعد وصولنا وتمركزنا في قمم وسفوح تلك المنطقة الوعرة، اشتدّت المعارك في كلّ المناطق التي لم تكن قد وصلتها بعد. وكالعادة، فإنّ استمرارها مع عدم قدرة الجيش على حسمها، كان يضطرّهم إلى استخدام الأسلحة الكيماويّة، فباتت من كثرة استخدامها وكأنّها أصبحت أحد الأسلحة التقليديّة، خصوصاً في ظلّ التعتيم الكبير الذي كانت عملية إبادتنا تجري أثناءه.

شيئاً فشيئاً كان الجيش يدمّر القرى، ويسوق الأهالي إلى المصير المجهول ذاته، واستحدث أساليب جديدة للقتل الشامل. منها صبّ الكونكريت في عيون الماء لكي تجفّ الحياة بأكملها. كانت تلك الأسابيع والشهور التي قضيناها في تلك المنطقة قاسية جداً، فبالرغم من روعة المكان البارد في عزّ الصيف، والمليء بكلّ أنواع الأشجار والعيون والجداول، التي كانت كلّ رهانات القدرة على تحمُّل وضع اليد فيها لدقائق معدودات تفشل، فكانت برودة الماء تهزم كلّ عنيد مكابر، بالرغم من كلّ ذلك، كان انتظار نتائج المعارك المشتعلة في كلّ تلك الجبهات الواسعة، وخسارة المواقع بعد تلك المقاومة المستميتة، أقسى وأشدّ وقعاً من البقاء في أتون المعركة نفسها.

كان المذياع يُلازمني كالعادة، أستجدي خبراً واحداً عن كلّ ما يحلّ بنا، فلا أجد إلّا أنّ الجيش تمكّن من حسم مرحلة أخرى من سلسلة معارك الإبادة تلك، المسمّاة رسميّاً بالأنفال، فكانت المحطّات والوكالات تتسابق في نشر أخبار انتصار الجيش، وكانت بالعادة تُذكّر بانهيار ثورتنا السابقة وغدر الأميركان وخيانتهم لها قبل أعوام مضت، وكأنّهم بذلك أصبحوا جزءاً من التواطؤ، يريدون الإجهاز على البقيّة الباقية من معنويّاتنا. ثم بدأت الأخبار ترد في البداية على شيء من الهامشيّة والخجل، تتحدّث عن «احتمال» استخدام الجيش للسلاح الكيماوي في معاركه ضدّنا، خصوصاً في مدينة حلبجة التي قُتل فيها أكثر من خمسة آلاف من المدنيين في ساعة واحدة.

بعيداً عنّا كان بعض المصوّرين الأجانب قد تمكّنوا من التسلّل عبر الحدود الإيرانيّة إلى أنقاض تلك المدينة المسكونة برائحة التفّاح القاتلة، وكانوا قد نشروا بعض الصور التي كانت تُظهر هول ما حدث من إبادة. فكانت صورة سيّارة حمل واقفة على أهبة الاستعداد للانطلاق مليئة في الخلف بجثث لنساء ورجال وأطفال بمختلف ألوان الملابس. وأخرى لرجل يرتدي ملابسه الكرديّة وقد

جثم على الأرض وهو يحتضن رضيعه للهرب به وإنقاذه بينما اصطدم رأسه بعتبة باب في الشارع وهو لا يزال يعتمر شماغه الكردي. كانت الآلاف من تلك الصور قد بدأت تنتشر في العالم. وبدأت المحطات والوكالات تتحدّث في خجل عن احتمال استخدام السلاح الكيماويّ المحرّم دوليّاً، كما كانوا ينهون تعريفه في كلّ مرة.
نتيجة لذلك بدأ النظام حملته في اتجاهين، الأوّل: في تكثيف استخدام السلاح الكيماويّ في المناطق التي كُنّا لا نزال نقاوم فيها بشراسة.. والثاني: حملة دوليّة لإنكار استخدامه ذلك السلاح. فكانت تبريراته التي تُشكّل مادّة للسخرية لدينا، تلقى آذاناً صاغية في العالم. فأخذ يروّج في البداية، أنّ مَن قصف تلك المدينة هم الإيرانيّون لا الطائرات العراقيّة المقاتلة بعد تحريرها من قبل قوّات البيشمركة.. ما أضعف جدل استخدامها لقتلنا في أكثر من موقع، وأشعل الجدل حول هويّة من استخدمها، بينما كان العنصر الأساس، الذي هو نحن الضحايا، غائباً تماماً عن كلّ تلك الحسابات وكلّ ذلك الجدل.
في غمرة ذلك الجدل، كان المذياع ينقل إلينا أخبار وقف الحرب على كلّ الجبهات مع إيران، والوفود التي كانت تزور بغداد لتكون حاضرة في ما درج النظام على تسميته بيوم النصر العظيم. كان صوته واضحاً، إنّه يتحدّث في مؤتمر صحافيّ برفقة العديد من المسؤولين العراقيّين، ها أنا ذا أسمعه من خلال المذياع وهو ينفي بكلّ ثقة احتمال استخدام الجيش للسلاح الكيماويّ ضدّنا بغرض إبادتنا. ها هو يردّ على أسئلة الصحافيين مؤكّداً لهم أنّ كلّ ما يُقال محض افتراء وأكاذيب، وأنّ الجيش بريء من تهمة إبادة الكُرد عن طريق السلاح الكيماويّ وتدمير وحرق مدنهم وقراهم. إنّني أعرف صوته جيّداً، إنه كلوفيس مقصود، الأمين العام للجامعة العربيّة.
بدا الأمر وكأنّ القضيّة في جوهرها هي مجرّد استخدام سلاح معيّن، يُبرّأ مستخدمه بكلّ الوسائل. وكأنّ إبادتنا ليست مهمّة البتة، وأنّ تدمير قرانا ومدننا وسَوق عشرات الآلاف من نسائنا وأطفالنا وشيوخنا وشبابنا ليس له أيّ أهميّة. بدت الصورة وكأنّ المشكلة في جوهرها ليست في إبادتنا، بل هي في الطريقة التي تتمّ بها تلك العمليّة، فتغدو القضيّة برمّتها جدلاً حول احتمال استخدام هذا السلاح أو ذاك، لا أكثر ولا أقل، أي إنّ المشكلّة في جوهرها هي أيّ نوع من الأسلحة استُخدم في إبادتنا، وإن كان السلاح المُستخدم غير محرّم دوليّاً، فلا بأس من إبادتنا به.
في خضمّ ذلك الجدل الذي لم يلبث أن خمد تماماً، وجرى نسيانه وعدم ذكره من جديد، أخذ الجيش يُضيّق خناقه علينا بالكامل، وها نحن في أيّامنا وساعاتنا الأخيرة من مقاومتنا العبثية، ولم يدم الهجوم الأخير كثيراً، ما لبثنا أن تركنا كلّ المواقع، ملتجئين إلى الشريط الحدوديّ الضيّق الوعر جداً على الحدود الإيرانيّة، بينما تدفّق الأهالي بعشرات الآلاف إلى كلّ من إيران وتركيا اللتين تردّدتا كثيراً في فتح حدودهما أمام نزوح المدنيّين. بدأ المذياع ينشر خبر الانتصارات النهائيّة للجيش. وطغى عليها خبر إصدار الرئيس عفواً عاماً عن كلّ من يعود نادماً ويستسلم للحكومة، ما عدا «الخائن العميل جلال الطالباني» على حدّ قولهم. والغريب أنّه بالرغم من بقاء مصير عشرات الآلاف مجهولاً، وعلى الرغم من كلّ الأخبار المخيفة التي كانت ترد عن إبادتهم، إلّا أنّ الكثير من الناس قبلوا بذلك العفو وعادوا مستسلمين للجيش الذي ساقهم بدوره إلى نفس المصير الذي بقينا نجهله. في خضمّ كلّ تلك الهزائم الموجعة، ظلّ ذلك الخبر طاغياً برومانسيّته الغرائبيّة المغرقة في الحزن والعبث.

نعم، لقد تلقّينا خبر استشهاده في اللحظات الأخيرة التي سبقت الانسحاب من آخر المواقع. لقد أصابته إحدى الطائرات بينما كان يقود المقاومة في أحد محاور القتال المشتعلة. لقد استشهد كاك آزاد.. الرجل المثقّف الرزين الذي كان يحظى بحبّ عارم من كلّ مقاتلينا، ذلك القائد الصلب في مواقفه الشُّجاعة وتحمّله لأهوال المعارك، والرقيق رقّة الوتر الذي كان يعزف عليه وهو يداعب غيتاره الذي لم يفارقه طيلة سنوات الثورة. بدا الخبر وكأنّ القدر قرّر القضاء على كلّ ما هو جميل، وعلى كلّ ما يرمز إلى الحياة، وأنّنا محكومون بالموت، لكن الموت الصامت الذي يصمّ العالم كلّه آذانه عنه ببرود.

ثمّ فجأة، بدأت الوكالات تكتظّ بأخبار الحملة التي تستهدف إيقاف عمليّة الإبادة. أخذت تتسابق في نشر الأخبار عن تلك الحملة التي بدأت تقودها تلك الممثّلة الحسناء، التي كنّا قد عرفناها من خلال أفلامها المشهورة وهي تطلّ علينا أحياناً في فقرة الفيلم الأجنبي، في المحطّة التلفازية الثانية المملوكة من قبل الدولة. نعم بدأت الحملة قويّة، والوكالات مُحقّة في كلّ ذلك الاهتمام، فالتي تقودها هي الساحرة بريجيت باردو. يا إلهي! حتّى أنت يا بريجيت؟! شعرتُ بغضب ممزوج بالسخرية والاشمئزاز، وأنا أستمع إلى تلك الأخبار. نعم، لقد أقامت حسناء الشاشة الدنيا ولم تقعدها في حملتها الكبيرة من أجل إيقاف إبادة حيوانات الفقمة وإنقاذها. بينما لم نرتق نحن بعد، أمام الله وأمام ضمير البشر، حتّى إلى مستوى تلك الحيوانات. يا إلهي، يا من قرّرت التفرّج علينا ونحن نُذبح، ألم تخلق من يهبّ ليرفع صوته ويقول إنّ هناك بعيداً عن تلك الشواطئ، في هضاب وسهول وجبال كردستان حيواناً، اسمه الكُرديّ، يُباد بالكامل؟! حتّى إن كان الفارق الوحيد بيننا وبين الفقمة أن جلده ثمين بينما جلودنا الآدميّة لا نفع لها.. فهل أصبحت قيمة الكائن مرهونة بنوعيّة وسعر جلده؟!

لم أكن أتصوّر أبداً أنّ هناك أقسى من الهزيمة، إلى أن اكتويت به حتّى العظام. ما إن انتهى كلّ شيء، حتّى ذهبتُ لزيارة بعض المخيّمات في الجانب الآخر من الحدود، خصوصاً تلك التي فيها بعض ممّن تمكّنوا من الفرار من رائحة الدخان القاتل الذي صبّته الطائرات المقاتلة على تلك المدينة. منذ دخولي المخيّم، شعرت بانقباض كبير، كأنّ يداً خفيّة ضغطت بكلّ قوّة على كلّ الجراح القديمة، وفتحت نزيفها من جديد. شعرتُ بحرارة الدم الممزوج بالدموع وبرائحة الدم تملأ صدري الذي يكاد ينفجر من شدّة الآلام القديمة، وأنا أشاهد اللاجئين يسكنون في بيوت صغيرة تفصلها طرق ترابيّة ضيّقة.

يا إلهي، ماذا تفعل هذه البيوت في هذا المخيّم؟ وأين هي الخيام؟! يا إلهي، أيكون ذلك مؤشّراً على انهيار ثورتنا هذه أيضاً؟ أنا أعلم أنّ الثورة تبقى مستمرّة، طالما بقيت الخيام منصوبة عنيدة تقاوم الحرّ والبرد والثلوج والسيول، وإنّ البيوت كما شاهدتُ قبل أعوام ليست سوى المحطّة التي تشير إلى انهيار الثورة بكلّ أحلامها والعودة إلى كنف النظام نادمين مستسلمين. لم أستطع البقاء هناك سوى ليلة واحدة، اجتمع فيها الكثير من الناس في ذلك البيت الذي استضافني. كان الخوف هو السمة الجامعة بين الجميع، كانت النظرات لا تشي سوى بالخوف، والخوف، ثم الخوف.

كان عدد المخيّمات كبيراً، وما ميّزه في ثورتنا هذه عن أيّام الثورة قبل الانهيار الأكبر، هو أنّ الناس الذين لجأوا إلى المخيّمات هذه المرّة هرباً من الموت اختناقاً برائحة التفّاح القاتلة، قد انقسموا على إيران وتركيا وطالت أيّامهم الكالحة، واستمرّت محاولات النظام لإجبارهم على العودة لكي يسوقهم أسوة بمن سبقهم إلى المجهول، وحين فشلت محاولاته لإجبار الجميع على

العودة نادمين، أخذ يستخدم أساليب جديدة. فقد وصلتنا أخبار من المخيّمات التركية عن محاولات رجال من مخابرات النظام بإغراء الناس بغرض العودة وحتّى تهديدهم، وحين لم تثمر تلك المحاولات، لجأوا إلى تسميم مياه الشرب لبعض المخيّمات ما أودى بحياة الكثير من اللاجئين بعيداً عن قراهم غارقين في أحلام العودة الغانمة، معاندين كلّ ضغوط إعادتهم المُخذلة.
ها هو المذياع من جديد، إنّني على موعد مع الأخبار التي أستجديها. ها هو صوته يلعلع في خضم كلّ هذه الهزائم، وبعد أسابيع قليلة فقط من انتهاء المرحة الأخيرة والثامنة من سلسلة معارك الإبادة التي كانت تبدأ بياناتها بنص الآية القرآنية «ويسألونك عن الأنفال»، ها أنا أتابع خطابه عبر المذياع، وأنا أتخيّل تماماً حركاته وسكناته. ها هو يُرحّب بالوفود الكثيرة ويشكر الرئيس المضيف، ويشتعل صوته مُلقياً خطابه أمام المجلس الوطني، بينما تشتعل القاعة بالتصفيق وهو يُعلن قيام الدولة. استمعت إلى الخطاب الذي كنتُ قد انتظرت بثّه المباشر على المذياع منذ ساعات.
عندما تنسدُّ كلّ الأبواب، وحين تنطفئ كلّ أنوار بيتك، قد يصيبك بصيص نور آتٍ من الخارج أو من دار أحد الجيران، بنوبة أمل مفرحة. وهكذا هي حال الثورات أيضاً، فما إن تُحقّق ثورة ما على الجانب الآخر من العالم نصراً، حتّى يهوّن عليك ذلك قساوة هزائمك، ويؤكّد لك أنّ انتصار الثورات حقيقة حتميّة غير قابلة للتشكيك، وأنّ كلّ مؤامرات العالم وكلّ جيوش الطغاة لا يمكنها أن تُطفئ نار تلك الحقيقة الخالدة. فكان فرحي وفرح بعض الرفاق بخطاب إعلان قيام الدولة ذاك له ما يبرّره. لكنّها بقيت فرحة ممزوجة بالغصّة التي تنزل في الحلق لتصيب الجسد والروح بمرارة قاسية.
إنّها الجزائر من جديد، ها هي الجزائر، تتحوّل مرّة أخرى من جزائر المؤامرة إلى جزائر الثورة. ها هي الجزائر تحتضن في المنفى اجتماع المجلس الوطني، وها هو الزعيم بعقاله وكوفيّته الشهيرة يعلن أمام العالم كلّه «قيام دولة فلسطين على كامل أراضيها وعاصمتها القدس الشريف».
لم أستطع النوم ليلتها، وتوالت الدول وهي تُبارك وتُعلن اعترافها بقيام الدولة الفلسطينيّة المعلنة من الجزائر العاصمة. الجزائر، صاحبة المليون ونصف المليون شهيد، جزائر الحلم والثورة، احتضنت قيام الدولة الفلسطينيّة، وها هو العالم يعترف بحق الفلسطينيّين بتقرير مصيرهم في دولتهم المستقلة.
في ذات الوقت، كُنّا نحن لا نطلب سوى الإقرار بجريمة إبادتنا بالكامل، لا حقوقنا الأساسيّة، بينما العالم نفسه يرفض حتّى الإقرار بموتنا الجماعيّ القاسي... فرحتي بقيام الدولة الحديثة كانت غامرة، إذ من الطبيعيّ أنّ الثوّار يرون الثورات كلّاً متكاملاً، وأنّ هناك رابطاً عاطفيّاً خفيّاً بين كلّ الثوار في العالم، وهو ما عزّزته قراءتنا لأدبيّات الثورات في كلّ العالم. لكنّ الذي أغرق فرحتي تلك بالحزن، هو قيامها في الجزائر ذاتها التي استضافت حفل ذبحنا وذبح ثورتنا بدم بارد في معبد النفط. وها هي تستضيف انتصاراً تاريخيّاً للثورة الفلسطينيّة.
لم أكن أتصوّر أبداً أنّ هناك أقسى من الهزيمة، إلى أن اكتويت بها حتّى العظام... بينما يخوض المرء في وحل الهزيمة، يُجاهد للخروج منها مستحضراً جميع طاقاته بيأس، لكن حين تنتهي المعركة بهزيمتك، لا يبدأ جحيمه الحقيقيّ إلّا بعد أن تكون قد ارتحت من بعض الإجهاد والإنهاك الجسديّ الذي أصابك. فتبدأ شياطين الهزيمة تتلقّفك في معركة أطول وأشدّ ضراوةً لا تنتهي أبداً.

فتدخل في الحرب من جديد مع الكون، مع نفسك، ثمّ.. مع الله. إنّها أقسى من كلّ الحروب التي تواجه فيها الأعداء بشتّى أسلحتهم حتّى إن كانت أسلحة دمار شامل.
مرّت الشهور الطويلة ونحن نتندّر بسخرية، من طعامنا الذي كُنّا نقول عنه «الخبز الجاف مع الشاي للفطور، بينما غداؤنا مختلف، فهو الشاي مع الخبز الجاف، وكان عشاؤنا فاخراً ملكيّاً يتكوّن من الاثنين معاً». صحيح أنّ ثورتنا هذه، بالرغم من عدم رؤيتي لخيم اللاجئين الذين بدلاً من ذلك يسكنون البيوت الصغيرة البائسة التي ارتبطت في مخيّلتي بانهيار الثورة تماماً، لم تُعلن انهيارها هذه المرّة.. وصحيح أيضاً أنّنا لم نسلّم أسلحتنا.. وصحيح أيضاً أنّ العديد من المفارز الصغيرة بقيت تعيش في البريّة مع ما بقي من الوحوش والحشرات بين خرائب القرى والكهوف الصغيرة، لكنّ الحرب مع الذات بدأت أشدّ قساوة من كلّ ما مرّ.

41

«كلّ من لا يفنى في بحر الوحدة، غير خليق بالآدميّة حتّى لو كان آدم نفسه».
فريد الدين العطّار

بقيت تائهاً بين المخيّمات وعلى الحدود أستجدي خبراً واحداً عمّا حلّ بمن أخذهم الجيش. لكنّ المشكلة لم تكن في شُحّ الأخبار، بل في كثرتها وتناقضها لدرجة أنّها كانت تغرقني في دوّامة من الحكايات التي ينقض بعضها بعضاً. فغدا تدفّق الأخبار والحكايات في حدّ ذاته هو الجحيم بعينه. كانت الشائعات التي تنقل أخباراً غير سيّئة عن مصيرهم، تتحوّل إلى أخبار كنت أمنّي النفس بتصديقها، وفي المقابل كنت أحاول عدم تصديق السيّئة منها، مُمنّياً النفس بأنّها ليست سوى شائعات غير مؤكّدة.

بعد انتهاء المعارك، استقرّت قوّات الثورة في مقارّ على طول الحدود في مناطق متباعدة، بعضها في الداخل بينما انتقل بعضها الآخر إلى الطرف الآخر من الحدود. وأصابني الإعياء من كثرة تعرّضي لسيول الأخبار والشائعات التي لم تتأكّد ولا واحدة منها. فوصلت بي الحال وأنا التحق بالمقارّ وأنضمّ إلى مجموعة شاسوار، أنّني كُنت أتحرّق للوصول إلى خبر يقين واحد.. وأدركت جحيم اللا يقين.. فكنت في بعض لحظات الإعياء، أصل إلى مشارف تمنّي أيّ خبر حقيقي، حتّى إن كان سيّئاً، لعلّهُ يريحني من جحيم اللا يقين. ثمّ، بعد مرور فترة من الزمن، بدا الأمر وكأنّ شيئاً لم يكن. فقد سكتت كلّ الأخبار والشائعات. ومع بدء تلك المرحلة، أصبحتُ كمن فقد القدرة حتّى على التنفّس.

كانت المنطقة التي استقرّت فيها المقارّ ضيّقة إلى حدّ الاختناق ومعزولة لدرجة أنّ شاسوار كان يسمّيها القطب الشمالي بسبب عدم وصول الشمس إليها إلّا لثلاث ساعات لا أكثر. كما كان الأكل مُنحصراً في تبادل مواقع الشاي والخبز الجاف في تسميتنا للوجبات الثلاث التي كانت مُقدّرة لنا. وعلى الرغم من يقيني بأنّ ما أصبح يفصلني عن فاطمة الآن، ليس الجيش وحده ولا حتّى المسافات الطويلة فحسب، بل زاد عليها مانع الحدود الدوليّة أيضاً، لكنّني بقيتُ أبحثُ عنها في كلّ مكان.

كُنت أتسلّق المسافة القصيرة المسموح لنا بالتحرّك فيها من الجبل الذي يقع خلف المقرّ.. أناجي أشجار البلّوط العنيدة والصخور الخرساء الضخمة التي كانت تتجلّى للحظات في صورة فاطمة، فأحضنها بقوّة ليصطدم وجهي بصلابة الصخر وينتزعني من خيالاتي العاجزة ويعيدني إلى واقع غيابها الأشدّ قسوة من روح الصخرة وجسدها.. فأنفجر في نوبة بكاء أشبه بنحيب الطفل اليتيم. وبعد عودتي إلى المقارّ، حيث كان شاسوار يسألني عمّا ألمّ بي، وسبب كلّ تلك الدماء الجافّة التي تغطي وجهي، لا يعود لي من حيلة سوى أن أرتمي في حضنه وأنفجر في موجة البكاء الأكثر حرقة التي كانت تطول أحياناً، بحيث يدخل معي بقيّة الرفاق في كورس عجيب لأداء سيمفونيّة البكاء التي بدا كأنّ الظلم والقهر والشعور بالحرمان التام، والموت في عزلة قاتلة، قد تكالبت كلّها على تأليفها.

حين كانت وجبات المساعدات الماليّة تصل من القيادة، كنت أسارع في المغادرة والضياع في المدن الإيرانيّة. وأصبحت تلك الجولات والزيارات هي ملاذي الوحيد الذي يحميني من الجنون التام. كان الضياع في الشوارع تيهاً بكلّ ما للكلمة من معنى، وحوّل حجاب النسوة هذا البلد إلى

جحيم حقيقيّ لي.. كلّ النسوة محجّبات، سواء أقبِلن أو لم يقبَلن. فنظام البلد يفرضه على كلّ الفتيات منذ بدايات العمر، حتّى في المدارس الابتدائيّة. لكنّ نسوة هذا البلد مبدعات بطريقة غريبة، فقد حوّلن هذا الحبس القسريّ في قطعة قماش على الرأس إلى وسيلة أخرى لإظهار ذوقهنّ الرفيع في ارتداء الملابس. فأبدعن في التفنّن باستخدام ألوان متنوّعة. وكان بعضهنّ وكأنّهن يقلّدن تماماً طريقة الشيخة فاطمة في ارتداء الحجاب، يغطّين جزءاً من الشعر ليظهر بقيّته ويتفجّر جمالاً وذوقاً.

ما إن خرجتُ من باب الفندق، حتّى لمحتُها على بُعد خطوات تسير مع امرأة أخرى على الرصيف. انتابتني حالة ارتجاف جمّدتني من الصدمة في مكاني، بينما ظلّت هي تسير مبتعدة. استجمعتُ البقيّة الباقية من قوّتي المشتّتة وتبعتها كالمجنون، أدفع المارّة يمنة ويسرة لكي أفتح طريق الوصول إليها بسرعة، قبل أن تضيع منّي مرّة أخرى. إنّها هي.. لا يمكن أن أخطئ فاطمة، حتّى من بين آلاف النساء. ها هي تسير مبتعدةً أمامي، نفس القامة، حتّى نفس قطعة القماش التي كانت تضعها على رأسها أثناء وداعنا الأخير.. لكن، ما الذي جاء بها إلى هنا؟ وكيف وصلت؟ وأين تسكن في هذا البلد؟ وأين الشيخ وبقيّة أفراد أسرته؟

ما إن وصلت إليها، حتّى تقدّمتها بخطوة أو خطوتين وناديتها بصوت عالٍ وبمزيد من الانفعال وارتباك التنفّس: توقّفي يا فاطمة.

استدارت غاضبةً: ماذا تريد؟ ومَن فاطمة، أتعرفني؟

تسمّرتُ في مكاني بينما ارتفع صوت المرأة الأخرى بلهجة كُرديّة غريبة بعض الشيء بالشتائم ما دفع كلّ الرجال القريبين إلى التجمّع حولي يحاولون الهجوم عليّ وضربي... لكنّها منعتهم بابتسامة رقيقة، عندما قلت لها: لقد ظننتك حبيبتي التي أخذتها الأنفال إلى المجهول منذ فترة طويلة... كلامي الأخير خلق تعاطفاً حتّى عند المرأة المسنّة التي كانت ترافقها فأخذت تواسيني، وتدعو لحبيبتي بالسلامة والعودة. وتركني الرجال وتفرّقوا لكنّني تسمّرتُ في مكاني أتصبّب عرقاً، فجلستُ على الرصيف باستسلام. لم أدرك كم من الوقت فات. عندما رفعت رأسي رأيتها تمُرّ من أمامي مسرعة، هذه المرّة لا يمكن أن أخطئها، إنّها بالتأكيد فاطمة. فتبعتها، وتكرّر مشهد تجمّع الرجال حولي، ونجوت منها مرّة أخرى، بعد تلقّي ضربة على وجهي. فبقيت إلى المساء وأنا أتبع قامات تغطّي الرأس بقطعة قماش ملوّن، وما إن أصل إلى الوجه حتّى أُصاب بالألم الذي أحسست به وأنا أودّع فاطمة للمرّة الأخيرة.

في المساء، عندما قرّرتُ العودة إلى الفندق، كنتُ قد تهت ولا أعرف إلى أين وصلت. حاولتُ أن أجد ولو علامة دالّة واحدة ترشدني إلى اتجاه الفندق، وسألت أحد المارّة لكي يدُلّني على مكان الفندق، فأخبرني بأنّه بعيد جداً يقع في الطرف الآخر من المدينة ولا يمكنني العودة إليه سوى عن طريق سيّارة تاكسي. وعند عودتي سألني الموظّف في الاستعلامات: أترغب في تناول العشاء يا سيدي؟

أجبته بفتور وعجز دون أن أنظر إليه: كلّا... أشكرك، سأتناول غداء اليوم غداً على الفطور.

– ماذا..؟! أتعني أنّك لم تأكل منذ أن خرجت صباحاً؟

لم أجبه ودخلت غرفتي وغرقتُ في موجة بكاء أصابتني بحالة من الإعياء التام. في اليوم الثاني تكرّر نفس سيناريو اليوم الأول، وعذاب القامات التي تغطي قمّتها قطعة قماش ملوّنة من الخلف. وانتهت مدّة إجازتي وأنا أذرع الشوارع كلّ يوم ضائعاً خلف كلّ القامات التي أصبحت هكذا

ودون سابق إنذار، فاطمة. وبعدد المرّات التي اصطدمتُ فيها بوجه امرأة أخرى، كان الألم الذي أصابني لحظة وداع فاطمة، يعتصرني حدّ طلوع الروح.. فحملت الكتب التي كنتُ قد اشتريتها لشاسوار، وعدت محبطاً إلى المقارّ مُنهاراً محمّلاً بالألم والدموع.
حدث ذلك في مغامرتي الأولى، كما صار شاسوار يسمّيها في ما بعد، وذلك لأنّه لم يكن غيابي الأخير عن المقرّ، ولا زيارتي الأخيرة للمدن. كانت المشكلة تكمن في أن زيارتيّ الأولى والثانية كانتا محكومتين بمنطقة معيّنة. والورقة الرسمية التي كنت أحملها لم تكن تسمح لي بالخروج من حدود المحافظة، لكنّني كنت مُتشوّقاً لزيارة مكانين على الأقل، وكنت مستعدّاً للمخاطرة بأيّ شيء للوصول إليهما، ومهما كلّفني ذلك من ثمن.
اتفقتُ مع صاحب سيّارة آذري، كانت لغته أقرب إلى التركمانيّة، عرّفني إليه عامل الاستعلامات في الفندق. وانطلقنا صباح اليوم التالي باتّجاه المكان الذي كنت أتحرّق شوقاً إلى زيارته، لكنّنا مُنعنا في إحدى نقاط التفتيش على الطريق. فعاد السائق أدراجه، ولم تُجدِ معه محاولاتي للضغط عليه، إذ أخبرني بأنّهم هدّدوه، وأنّه لن يجازف، لأنّ التهمة والعقوبة ستكونان قاسيتين جدّاً. عُدنا للفندق وأنا أحاول إقناعه بالتوجّه في اليوم التالي إلى المكان الآخر، فانطلقنا. وأعادتنا نقطة تفتيش أخرى، فما كان منّي إلّا أن طلبتُ منه الذهاب إلى أقرب مكتبة، اشتريتُ منها بعض الكتب لشاسوار كما اشتريتُ نسختين من كتاب «منطق الطير» بلغته الأصليّة، أي الفارسيّة، واحدة لي والأخرى كانت لشاسوار الذي بدأ يفهم الفارسية من خلال استماعه المستمرّ إلى النشرات الخبريّة التي كانت تبثّها المحطّات العالميّة بالفارسيّة. كنت أتحرّق لتعلّم الفارسيّة لكي أقرأ الكتاب بلغته الأصليّة، ومع أنّني كنت أدرك أنّه لا توجد في العالم كلّه نسخة تُضاهي نسختي التي حملتُها معي من تكيّة الشيخ، وبقيتُ مُحتفظاً بها رغم كلّ المعارك والكوارث المتلاحقة، كانت قراءتها بالفارسية التي كتبها بها العطّار تُشعل روحي استعجالاً لتعلّمها.
في مغامرتي الثانية التي تلت الأولى بثلاثة شهور، حاولتُ المستحيل للوصول إلى المزار، ولمّا لم تؤدِّ الطرق العامّة إلى نتيجة، اضطررت للاتفاق مع سائق آخر لكي يسلك بنا طريقاً جانبياً غير الطرق الرئيسة التي تملأها نقاط التفتيش. وكنت قد بدأت أفهم الفارسية وأتحدّث بها قليلاً. بينما كنا نسلك طريقاً ترابيّاً، وقعنا في أحد كمائن الشرطة المنتشرة على مساحات شاسعة بين المدن والقرى. فكانت التُّهم تهبط علينا من كلّ نوع، إلى أن نادى الضابط الذي كان قد بدأ التحقيق معي أحد حرّاسه باللغة الآذريّة. بعد أن اطّلع على أوراقي التي أخذوها منّي وسألني لماذا أنا مُتنكّر هكذا في زيّ الرعاة؟ وما هي نوع مهمّتي التخريبيّة؟ أجبت عن الجزء الأخير من سؤاله الذي كان خطيراً جداً، يدمج تهمتيْ التجسّس وتهريب المخدّرات في توليفة تُهَم نادرة. وعندما لم تنفع أجوبتي، خاطبتُه هذه المرّة بالتركمانية القريبة إلى لغته الآذريّة: أتسمح لي بأن أحكي لك حكاية غريبة بعض الشيء؟
نظر إليّ باستغراب دون أن يجيبني، ثم نادى على الحارس بصوتٍ عالٍ، وطلب منه إحضار سائق السيّارة الذي كان محجوزاً في الغرفة المجاورة، وأخبره بأنّه سيُطلق سراحه شريطة أن يغادر فوراً قبل أن يضطرّ لتسليمه إلى السلطات العليا بتهمة تهريب المخدّرات ومساعدة أعداء الثورة. ثمّ توجّه إلى الشرطي الذي كان يترجم أسئلته وأقوالي: اخرج أنت أيضاً ودعنا وحدنا.
«يحكي لنا الهدهد فيقول: لم يكن أهل ليلى يسمحون للمجنون بالحضور إلى قبيلتهم ولو للحظة، وما إن صادف راعياً في الصحراء حتّى أخذ منه فرو الخروف الذي كان يملكه ووضعه على

رأسه فبدا شبيهاً بالخروف، واستحلف الراعي أن يتركه وسط القطيع ويسوق صوب ليلى، لكي يراها ولو للحظة. فسار مع القطيع وهو في غاية السرور فتملّكه الاضطراب وفقد عقله وهاج عشقه حتّى صار يتصبّب عرقاً... فحمله الراعي إلى الصحراء من جديد وحاول أن يطفئ ناره بواسطة الماء.

بعد ذلك بفترة، تجمّع حوله بعض من أهله في الصحراء، فقال له أحد أقاربه: لقد ظللت عارياً فترة طويلة، فأيّ رداء تفضّل حتّى آتيك به حالاً؟

فردّ المجنون: ليس كلّ رداء يليق بالحبيب، ولا رداء عندي أفضل من الفرو... لقد أدرك القلب سرّ الحبيب عن طريق الفرو، فليكن لي رداء أن أفقد العقل.

فيقول الهدهد: العشق ضرورة حتّى يحرّرك من عقلك، ثم يبدّل صفاتك ويمحوها، وأقلّ شيء في محو الصفات هو هبة الروح وترك التزّهات، فاسلك الطريق إن كنت ذا همة، إذ لا مجال فيه للعب بل كلّه مخاطرة».

عندما أنهيت سرد حكايتي عليه، أجابني الضابط بسؤاله: وما الذي يدفع بك إلى كلّ هذا الجنون؟

– أنا تنكّرتُ في زيّ الراعي فقط، فماذا أكون أنا بجانب المجنون الذي قبل حتّى بفرو الخروف؟ إنّني مستعدّ لكي أكون الخروف نفسه في سبيل الوصول والبحث عنها هناك.

تغيّرت لهجته وكذلك أسلوبه في التعامل، وسألني عن مصدر تعلّمي للغة التركمانيّة، حين أخبرته بأنّني أجيدها منذ طفولتي وأنّنا كنّا نتحدّث بها في البيت، أمر الحارس بأن يأتيني بكوب من الشاي، ثم أخذ يُمازحني بلهجة في غاية الودّ والأدب. وعندما سردتُ عليه حكايتي وغرضي من الزيارة، استمع إليها وهو في غاية الاستغراق، لكنّه أخبرني بأنّه كان يتمنّى أن يوصلني بنفسه إلى حيث أطلب، لكنّ نتائج فعلته تلك ستكون وخيمة جداً، علاوة على أنّ الطريق طويل جداً ويستحيل الوصول إلى المزار دون الحصول على الموافقات الرسميّة. لذا فإنّه سيتركني أعود إلى الفندق، ولن يُسلّمني للسلطات العليا. فقلت له: لكنّي سأكون صادقاً معك، أنا لن أتوقّف عن المحاولة حتّى أصل إلى هناك، فلعلّي أجدها؟

نظر إليّ باستغراب وقال: وكيف ستجدها هناك، ألم تقل إنّهم أخذوها إلى ذلك المكان الذي أصدّقك بأنّه يبدو لي من شدّة بعده، وكأنّه نهاية العالم؟

أجبته بأنّ الهدهد يخبرنا أيضاً أنّ «العزيزي قد رأى المجنون مهموماً ينخل التراب في الطريق، فسأله: عمَّ تبحث هنا أيّها المجنون؟ أجابه: أبحث عن ليلى؟ فسأله العزيزي ثانية: وكيف لك أن تجدها في التراب؟ ومتى كان الدرّ الطاهر كامناً في تراب الطريق؟ فأجابه المجنون: إنّني أبحث عنها في كلّ مكان، لعلّ يدي تصادفها بغتةً في أيّ مكان». وأضفت:

– وأنت أعلم يا سيدي، بدلالات هذين المكانين.

– إلى هذا الحدّ؟! أنت مجنون حقّاً! دَعْ عنك هذا الجنون، وعُد من حيث أتيت.

شكرته وقلت له: لا تلُمني هكذا، سأسرد عليك الحكاية الأخيرة ثم أغادر، ممتنّاً لسماحتك وكرمك الكبيرين..

يقول الهدهد: «كان هناك صوفيّ مشهور، أصابه الوهن من شدّة عشقه لبنت الكلاب، فتلاطمت الدماء في قلبه كموج البحر... وأخذ ينام كلّ ليلة مع الكلاب أملاً في رؤيتها. فاكتشفت والدة الفتاة حيلته، وقالت للشيخ الصوفي: أيّ ضلال هذا الذي أنت فيه؟ إن كنت صادقاً، فعملنا هو تربية الكلاب، فإن تكن على شاكلتنا وتربِّ الكلاب مثلنا نعقد قرانك بعد عام ونقيم حفل العرس.

ولأنّ العشق كان قد تمكّن منه تماماً، فقد ألقى عنه الخرقة وبدأ بمزاولة العمل، وقضى فيه قرابة عام كامل، وذهب إلى السوق يصطحب كلباً، فسأله صوفيّ آخر كان صديقه حين رآه في حاله هذه: يا صاحب المروءة، لقد قضيت ثلاثين عاماً رجلاً ونِعم الرجال، فلمَ فعلت هذا؟ ومن الذي فعله بك؟

أجابه: أيّها الغافل، لا تُطِل الحديث حتّى لا يرتفع الستر عن هذه القصّة. إنّ الحقّ تعالى يعلم بهذه الأسرار، وبإمكانه إصابتك بمثل ما أصابني، فإن يستمرّ لومك لي، فقد ينقل الكلب من يدي إلى يدك».

فسألني الضابط باستغراب شديد:

– ماذا تقصد؟

– كما قلت لك يا أخي، لا تلُمني. فقد ينتقل الكلب من يدي إلى يدك...

فامتقع وجهه بشدّة وأمر الحارس الواقف بالباب: أحضِر لي محمود دارابي في الحال.

42

«كلّ من كان رأسه أعزّ لديه من الحبيب،
فإنّ مزاولة العشق بالنسبة إليه أكبر ذنب».
فريد الدين العطّار

«كان في مصر حاكم شهير، أُغرم به رجل فقير، وما إن وصل خبر عشقه إلى الحاكم، حتّى استدعى العاشق الهائم، وقال له: إن أصبحت عاشقاً للسلطان، فعليك باختيار أحد هذين الأمرين، إما أن تغادر هذه البلدة وهذا الإقليم، وإمّا أن تتخلّى عن رأسك فداءً لعشقي. لقد قلت لك الأمر مرّة واحدة، فإمّا قطع الرأس وإمّا الرحيل!

لم يكن هذا الرجل خليقاً بالأعمال، لذا اختار الرحيل عن الديار، وما إن همّ ذلك الفقير بالذهاب متخلّياً عن عشقه، حتّى قال السلطان: اقطعوا رأسه عن جسده.

فقال الحاجب: إنّه لم يرتكب أيّ جريرة، فلمَ أمر السلطان بقطع رأسه؟

فقال السلطان: إنّه ليس بعاشق، لم يكن صادقاً معي في طريق العشق، فلو كان يتصرّف كالرجال لاختار قطع الرأس في هذا المجال.

كلّ من كان رأسه أعزّ لديه من الحبيب، فإنّ مزاولة العشق بالنسبة إليه أكبر ذنب، ولو اختار قطع الرأس لأصبح أميراً في هذه المملكة، ولصار ملك العالم تابعه، ولبادرتَ أنت إلى خدمته، لكن لمّا كان مدّعياً في عشقه، فقطعُ الرأس علاجُه، وكلّ من يتشدّق بعشقي، فهو مدّعٍ وغاية في النفاق. وقد أمرت بذلك حتّى يقلّل كلّ من ادّعى عشقنا من التفاخر كذباً».

هكذا، حين قرأت على رفاقي هذه الحكاية من الكتاب، هاجموني من جديد، متّهمين إيّاي بالمبالغة في الحديث عن دورنا في هزيمة الثورة بتلك الطريقة القاسية. كانوا هم يبحثون عن كلّ الأسباب والتبريرات الخارجيّة لتفسير الهزيمة وهذا ما كان يريحهم، بينما كنت أنا أغوص في داخلي، أستجمع كلّ ما كنت أظنّه دورنا نحن، وتقصيرنا الذي أدّى إلى الهزيمة والكارثة... فكان آتيلا ينبري لكي يلملم النقاش حين يحتدم خارجاً عن سياقاته، ليدخل في منحى الشخصنة المؤذية.

– إنّك تقسو على نفسك وعلى رفاقك كثيراً.. فرفقاً بنفسك وبهم أرجوك، فجلد الذات هذا لن يُجدي في شيء.

– هل أقسو حقّاً؟ بينما كان الأجدى أن ننتحر لأنّنا لم نستشهد كرفاقنا الآخرين. لو لم تكن رؤوسنا أعزّ من عشقنا لما حدث ما حدث، نحن حفنة مدّعين، لا نستحقّ تسميتنا بالثوّار العاشقين.

– أرجوك، ليست الأمور كما تقول، فالهزيمة كانت أكبر من قدراتنا. وكما رأيت بنفسك، لم يُقصّر أحد في بذل كلّ ما بإمكانه، وأنت كذلك، لم تقصّر في شيء.

– هل حقّاً لم نُقصّر؟ وماذا تسمّي من رضخوا واستسلموا مع أسلحتهم؟ الهزيمة لم تأتِ من الخارج فقط، بل علينا أن نعترف بأنّها لم تكن ثورة من الأساس، ونحن كأفراد قصّرنا كثيراً.

– الثورة هي بالضبط، كما أخبرتك من قبل يا صديقي، أشبه بعبور الأودية السبعة التي يسردها الهدهد للوصول إلى حضرة العنقاء في جبل القاف. وكما تعلم فإنّ لكثير من الطيور أعذاراً للتخلّي عن الركب المُنطلق نحو الحضرة. أليس كذلك؟

وعندما لم أرُدّ، استدرك آتيلا بنبرة جدّية: إنّ طريق الثورة وأوديتها السبعة ليست أقلّ قساوةً من أودية الإيمان، هذا إن لم تكن أكثر قساوةً وخطورة. فهناك من يتخلّى، وهناك من يموت دون ذلك،

ولا تنسَ أنّ من وصل من آلاف الطيور، كان عددهم ثلاثين فقط.
كان هذا هو الحديث الذي ظلّ يتكرّر لفترة طويلة بيني وبين بقيّة رفاقي الذين كانوا ينفعلون في البداية، ثم بدأوا ينفضّون من حولي واحداً بعد الآخر، بينما بقي آتيلا بالرغم من مصابه وبكائه ليل نهار على فاطمة، دون أن يحصل على جواب واحد حول مصيرها ومصير عشرات الآلاف الذين التهمهم المجهول. ظلّ يحاول مواساتي والتخفيف عنيّ بكلّ السبل. وحين أوصلني ذاك الحديث المتكرّر يومها مع مجموعة من الرفاق إلى أقصى حدود الانفعال، وأنا أذكّرهم بأخطائنا وممارساتنا، وكيف كُنّا نُقصّر في أن نمنح الثورة وقضيّتنا كلّ ما تستحق، وظلّ آتيلا والرفاق يحاججون متمسّكين بآرائهم، أخرجتُ الكتاب الذي أهدى لي آتيلا نسخة منه وبدأتُ أقرأ له ولبقيّة الحضور:
يقول العطار يا آتيلا: «كان أحد الحرّاس عاشقاً ولهاً، لا ينام الليل ولا يقرّ له قرار بالنهار، فقال صديق حميم للعاشق المسهّد: يا من لا تنام، لتنم في النهاية لحظة من الليل.
فقال العاشق: لقد أصبح العشق قرين الحراسة، فكيف ينام من له هذان الأمران؟ ومتى كان النوم بالحارس لائقاً، خاصة إن كان هذا الحارس عاشقاً؟ فإن كان الإنسان يخاطر أبداً، فكثيراً ما يدفع كلّ أمر الإنسان إلى أمر آخر، وكيف أستطيع النوم لحظة، وأنا لا أستطيع استعارة النوم من أحد؟
في كلّ ليلة، كان العشق يعقد للحارس امتحاناً، حيث يجعله مشغولاً بالحراسة، فكان يمضي هنا وهناك ضارباً بالعصا، وأحياناً يضرب وجهه ورأسه حزناً، وإذا غفا لحظة هذا المسهّد الجائع، رأى العشق في منامه، فكان الخلق جميعاً في سبات طوال الليل، أمّا هو فأسير النواح والأنين.
فقال له حبيبه: يا من قضيت الليل كلّه في حرقة واضطراب، لمَ لَمْ تنَم لحظة؟
قال: ليس للحارس أن ينام، ولا رِواء لوجه العاشق إلا بالدمع، فطبيعة الحارس عدم النوم، وطبيعة العاشق شحوب الوجه، (مثلك أنت تماماً يا آتيلا)، وإن كان الدمع ينهمر من العين وهي موضع النوم، فكيف يمكن لها أن تكتحل بالنوم؟
لقد اتّفق العشق والحراسة، وسلبا النوم من عينيه، وألقياه في البحر، وقد خاطب العاشق الحارس بكلام عذب، فوقع أمر سهده موقعاً حسناً في عقله، فمن يُسرّ للسهاد ويطرب، لا يمكن للنوم أن يسيطر على رأسه ولبّه، فلا تنم أيّها الرجل إن كنت طالباً، أو لينعم عليك الله بالنوم الهانئ، إن كنت بالقول متشدّقاً. وكن على الدوام حارساً في محراب القلب، فما أكثر اللصوص المتربّصين بالقلب، وقد انتزع القلب الطريق من أيدي اللصوص، فإن تحلّيت بصفة الحراسة، فما أسرع ظهور العشق في المعرفة، ففي هذا البحر المليء بالدم ستنبثق المعرفة للرجل من عدم النوم، وكلّ من يتحمّل كثرة السهاد سيمضي إلى الحضرة متيقّظ القلب، فقلّل من النوم وكن وفيّ القلب، إن كنت من السهاد يقظ القلب، ويجب القول إنّه حينما يغرق جسدك، لن تخلّصك الاستغاثة من الغرق».
وتنفّستُ بعمق ورميت الكتاب على الأرض، وأنا أنظر في عينيه نظرةً مليئة بالغضب والتساؤلات.
– لم أفهم ماذا تقصد، بصراحة. لم أعُد أفهمك، كما يقول بقيّة رفاقنا.
– لماذا لا تفهم، ألم تكن تُردّد باستمرار قول العطّار بأن العاشق لا ينام إلّا في الكفن؟ نحن لم نكن حرّاساً عاشقين، كنّا متشدّقين كما يقول الهدهد، وإلّا فإنّ واجب الحراسة الليليّة هو أبسط واجبات

البيشمركة، حتّى هذه، كُنّا نغفو أثناءها أحياناً، وأجزم بأنّني لو لم أرتكب ذلك التقصير، لما كانت هذه حال الثورة ومصيرها الآن.
فقال أحد الرفاق غاضباً: لقد تجاوزت كلّ حدود الجنون، كفاك هذياناً!
تُرى هل تجنّى عليّ صديقي يومها، أم كان صادقاً حقّاً حين اتّهمني بتخطّي كلّ حدود الجنون؟ كان هذا هو السؤال الذي سيطر عليّ ليلتها ومنعني من النوم إلى أن طلع النهار. فهاجمتني شياطين الجنون من كلّ مكان وزمان، وحاصرتني الأسئلة الحاملة للعنة، وهي تنهال حول كلّ ما حدث منذ البدء.
قبل سنوات كثيرة، وحين كنت منتشياً بعبق الثورة وسحرها حتّى الثمالة قبل الانهيار الأكبر، لم أكُن أفهم لماذا كان لدينا أقارب على الجانب الآخر من الحدود، فهم ليسوا كُرداً مثلنا وحسب، بل كانوا من أقاربنا القريبين جداً، وكان عددهم كبيراً منتشرين بين القرى والمدن التي كُنّا نزورهم فيها أحياناً.
– كيف يكونون أقاربنا وهم إيرانيّون بينما نحن عراقيّون؟ ولماذا يعيشون هم في بيوتهم؟ ولماذا ليس لديهم ثورة مثلنا؟ حين سألت أبي يومها، وهو يقضي إحدى إجازاته القصيرة بينما كان يصطحبني معه للتنزّه في سفح ذلك الجبل العالي الذي تتوسّطه لوحة صخرية ضخمة تظهر فيها بوضوح شديد صورة امرأة تجلس على الأرض وهي تحمل عجينة دائرية كبيرة، على يدها اليمنى، وتستعدّ لوضعها على الصاج الذي أمامها لكي تخبزه. سكت أبي بُرهة حين فاجأته يومها بذلك السؤال، ثمّ قال بعد تردّد وارتباك: هذه هي طبيعة الأمور. صحيح أنّهم أقاربنا، وكما رأيت إنّ لي أبناء عمومة، ولأمّك أيضاً أقارب كثر، لكنّنا نظلّ من بلدين مختلفين.
يومها، لم يُقنعني ردّه، بل على العكس تماماً، بدل أن يمنحني بعض الفهم، فقد عقّد الصورة أمامي أكثر فأكثر، واشتدّ عليّ الغموض. وحين عُدنا نادمين بعد قضاء عدة أشهر في المخيّم المكوّن من البيوت النظيفة بعد يوم الانهيار الأكبر، نُقلنا دون أيّ توقّف إلى قرية في أقصى الصحراء الجنوبيّة للبلاد. فزادني ذلك تمزُّقاً، دون أن أفهم ما يجري حقاً. فكيف نكون نحن وأقارب لنا من بلدين مختلفين، بينما نكون مع هؤلاء الغرباء الذين لا يفهمون حتّى لغتنا، من بلد واحد؟ كانوا غرباء عنّا بحيث إنّهم كما أخبرونا في ما بعد، بأنّهم كانوا يرتعدون خوفاً من قوم سيأتون يأكلون لحم البشر. فكانت معاملتهم في البداية غريبة وعدوانيّة بعض الشيء، لكنّها تغيّرت لدرجة أنّنا حين قرّرنا المغادرة إلى المدينة القريبة بعد ذلك بأشهر، ودّعونا بكثير من الدموع والمحبّة.
لم أفهم سرّ كلّ تلك التمزّقات والألغاز التي لم يكن حتّى أبي يمتلك إجابات لها، إلى أن كبرت وأدركت أنّ التاريخ هو الذي مزّقنا هكذا دون رحمة على طرفي تلك الحدود اللعينة. ومع ذلك، لم أشعر حقّاً بقساوة الأمر، إلّا حين عشت تداعيات تلك التمزّقات كما هي. كان يوم صيف قائظاً، وكعادته يحمل المذياع الكوارث وأخباره المفجعة التي ظلّت تنهال على رؤوسنا دون توقّف... لقد اغتالوه، أمّن لهم ودخل معهم في حوار في عاصمة السحر فيينا، فغدروا به، دون أن يأبه لدمه المسفوك غدراً، لا سحر المدينة ولا لياليها التي ظلت ليالي أنس وسحر للآخرين، وحين وصل الأمر إلينا، انقلبت هي الأخرى علينا لتصبح كالكهف الغادر وتتحوّل إلى مثوى لضرب أحلامنا المنفيّة...
بعد سنوات طويلة من المعارك، ركن قاسملو إلى الحوار مع السلطة التي حاورته جولات في الخارج، إلى أن أمّن لهم، فاغتالوه في تلك اللحظة في مدينة السحر وليالي الأنس، بينما هو يحمل

غصن زيتون ويمدّ يده للسلام... كنت قبل ذلك بأعوام وفي عزّ الثورة وعنفوانها قبل كارثة الأنفال بعامين، قد رافقت قوّةً من رفاقنا بزيارة منطقة تقع على الحدود، فسرنا يومين وليلة كاملة، كان أغلبها سيراً على ثلج متجمّد كان علينا أن نكسره، فأدّت بإحدى قدمي حمه فرج أن تسودّ بالكامل، فنقلته مجموعة من المقرّ الرئيس الذي كان يتبع لحزب قاسملو، بسيّارة خاصة إلى بغداد، حيث قال الأطبّاء بوجوب بترها.

لم يهوّن علينا خبر قدم حمه فرج سوى الاحتفالات التي أقامها المقرّ الرئيس بمناسبة مرور الذكرى السنويّة الحادية والأربعين لإقامة جمهورية مهاباد التي قادها وترأسّها بُعيد الحرب العالميّة الثانية، القاضي محمّد على رأس حكومة كان قائد قوّاتها هو زعيم ثورتنا التالية الذي مات منفيّاً في واشنطن بعد يوم الانهيار الأكبر بأربعة أعوام... كان حفلاً مهيباً، يصادف الكثير من الثلوج التي تصبغ اسم الشهر الكرديّ المسمّى «ريبندان» أي انسداد الطرق.. كان حزب قاسملو هو نفس الحزب الذي أسّسه القاضي محمّد قبل عقود. ثمّ بدأ النضال المسلّح بعد فشل العديد من محاولات السلام مع النظام الجديد الذي أعقب سقوط الإمبراطور.

عاد حمه فرج حينها رافضاً بتر قدمه حسب قرار الأطبّاء في بغداد، فداواه مُشير النوري بمجموعة أدوية أعدّها من عدّة أعشاب، كانت توصل حمه فرج من فرط الألم الذي كانت تسبّبه إلى صراخ لا ينفع معه أيّ نوع من أنواع المنوّمات والمخدِّرات، وطال عذابه، إلى أن جاء مشير النوري وفتح قدمه بعد مرور أربعين ليلة، فكان السواد قد غادرها، لكنها كانت قد طرحت عنها جلدها الخشن فأصبحت ناعمة الملمس كقدم طفل. كان مشير النوري، آخر من رافقوا القاضي محمّد يوم استسلمت مدينة مهاباد، فأعدموا الرئيس قاضي ورفاقه فجراً وسط المدينة، وفي نفس الساحة التي أعلن فيها قبل عام، قيام جمهورية كردستان، بينما رفضوا إعدام الشاب مشير النوري الذي ظلّ يبكي طيلة عمليّة الإعدام ويشتم القوّات الإيرانية المهاجمة.

بعد مرور أشهر على زيارتنا الغريبة تلك، ومشاركتنا لذلك الاحتفال المهيب الغارق في بياض الثلج، وفي غمرة انشغالنا بالمعارك الشرسة الطويلة، أخذت وكالات الأنباء ومحطّات الراديو تنقل أخبار اتّفاق الرئيس هذه المرّة مع الجارة الشماليّة، على أنّه يحقّ للجيش التركي التوغّل داخل الأراضي العراقيّة لمطاردة القوّات الكرديّة التي تناضل من أجل تحرير كردستان الواقعة خلف الحدود التركيّة.

لم أستطع أن أنسى أبداً منظر الحدود ونحن نعبرها في طريق العودة نادمين منفيّين، قبل أكثر من عقدٍ من الزمن. أنزلتنا الشاحنات الكبيرة مع بعض الحاجيات البسيطة أمام قوّة من الجيش ينتشرون بين شاحنات طويلة، ثم أخذوا يوزّعوننا عليها لتغادر بنا إلى حيث لم نكُن ندري. في تلك اللحظة التي كُنّا نستعدّ فيها لركوب الشاحنة الكبيرة مع الأهل والأقارب، جاء اثنان من الجنود معهم ضابط وحملونا أنا وأخي سيروان ورموا بنا في شاحنة أخرى. وحين حاول أبي التدخّل، دفعوه بقوّة فوقع على الأرض. امتلأتُ رعباً من هول الأمر، هنا تدخّلت أمّي بشراسة لم أعهدها فيها من قبل، هاجمت الضابط وجنوده بشتّى الشتائم، بينما هي تهدّدهم كي ينزلونا عن تلك الشاحنة التي كُنّا نُراقب منها ما يحدث ونحن مرعوبان.

حاولوا أن يُقنعوا أمّي بأن الشاحنات كلّها سائرة في اتّجاه واحد، وستتوقّف في مكان واحد. إلّا أنّ كلّ ذلك لم يجدِ نفعاً، فصوتها العالي وهجومها عليهم جمع الضبّاط والأهالي والجنود حولنا. فأمر ضابط آخر جنوده بإنزالنا فوراً. لن أنسى ما حييت شجاعة تلك المرأة العظيمة التي لم تنل منّي

سوى العذاب الذي وصل في ذروته بأن أفقدها ابنها الثاني على الطريق الذي آمنت به بشدّة. عُدنا إلى الشاحنة التي حملت الأهل والأقارب، وظلّت سائرة حتّى صباح اليوم التالي. فكانت تلك واحدةً من أقسى الليالي التي مررت بها. بلغ بنا الإعياء حدّاً اضطررنا إلى النوم على الأرضيّة الحديديّة الباردة للشاحنة، وما زلتُ حتّى هذه اللحظة التي أقف فيها وحيداً على قبر آتيلا، ممتلئاً بالقشعريرة التي سكنتني ليلتها ولم تخرج أبداً.

لم تتوقّف الكوارث، كما لم يتوقّف حصار الأسئلة وشياطين الجنون. وكلّما كنتُ أقترب من إيجاد الأجوبة لبعض أسئلتي، كانت تحلّ كوارث أخرى لتحكم طوق الحصار وتتركني في عزلة مع شياطيني ولعناتهم. فكنت ألجأ إلى الذاكرة وأبحث فيها بتخبّط عمّا يفرح ويمنحني بعض الخدر من آلام الروح، إلّا أنّ الذاكرة التي كانت وطناً من خيام لثورة ساحرة، كانت قد تحوّلت إلى منفى من بيوت نظيفة يكاد سقفها يسقط عليّ ويخنقني تحت أنقاضه... وحينما كانت زينب تعود لتقطع عليّ أحلام وطن الخيام، لتحوّله إلى منفى بيوت الكونكريت القاسية... أجل، حتّى زينب، التي منّيتُ النفس بأنّها هي من ستمنحني اليقين والسعادة، أصابتني بضربة في صميم الروح لم تكن أقلّ وطأةً من ألم الانهيار الأكبر، لا بل كانت أقسى منه بكثير.

لم نبق في المدينة الصحراويّة التي انتقلنا إليها من القرية بعد عودتنا نادمين. فقد تقرّر السماح لمن يريدون العودة إلى كردستان. وقاوم أبي إغراءات تفوق الخيال لكي يبقى في هذا المنفى ولا نعود. فقد كانت عودتنا إلى المجهول أيضاً، حيث مُنع علينا العودة إلى بيتنا، الذي مُنح لأحد أعوان السلطة، وهذا كان يعني أنّنا سنُضطرّ إلى الاستقرار في مكان ليس لنا فيه بيت أو فرصة عمل مضمونة لأبي. ومع ذلك، رفض أبي بشدة كلّ تلك الإغراءات، لا بل وهاجم مدير المدرسة الذي رفض الموافقة على إجراءات نقلنا، لدرجة أنّه شكا أبي للمسؤولين متّهماً إيّاه بأنّه هدّده بالقتل.

كان لرحيلنا عن تلك المدينة الصحراويّة، مزيج من مذاقات شديدة التباين. فعلى جانب، كانت العودة في حدّ ذاتها مليئة بأجمل الأحلام، وعلى الجانب الآخر اصطبغ الرحيل بمشهد لم أستطع نسيانه والخروج من تأثيراته أبداً. فقد جمع الأستاذ عادل، معلّم اللغة العربية، كلّ طلبة الصفّ الثالث الابتدائي في درس وشرح لهم «أنّ زميليكم سيغادران عائدين إلى ولايتهما (وهي اللفظة الشائعة للتعبير عن المدينة أو المنطقة، حسب تعبير أهل السماوة)، لذا عليكم أن تفعلوا ما يترك في نفسيهما الأثر الأبديّ الطيّب.

عُدنا، واستقرّ بنا المطاف في بلدة حديثة التكوّن، لا نملك بيتاً ولا دخلاً، ما كُنّا نحمله معنا فقط، كان حمل الغربة وفرحة العودة إلى بلادنا والكثير من الحبّ الذي غُمرنا به في مشهد الأيّام الأخيرة التي سبقت العودة. فقد فاق عدد الكارتونات التي كانت تحوي هدايا زملائنا التلاميذ لي ولسيروان، عدد الكارتونات التي كانت تحوي أغراضنا وأثاثنا المتواضع.. صعوبة الاستمرار في هذه البلدة من كردستان دفعت بأبي هذه المرّة إلى اختيار ترك كردستان حزيناً بقرار منه. فغادرناها إلى بغداد. أثناء كلّ ذلك لم نُكمل أنا وأخي سنة دراسيّة إلى نهايتها بلغة واحدة، حيث إنّ بعض السنوات الدراسيّة كُنّا نبدأها بالعربيّة ثمّ نكملها بالكرديّة، أو نبدأ سنة بالكرديّة، لنكملها بالعربيّة، والأدهى أن إحدى السنوات زادت عليها اللغة الفارسيّة أيضاً.

تصفيق.. تصفيق.. تصفيق...

كانت الحرب على مشارف إنهاء عامها الثالث، وكان الرئيس قد عوّدنا على تقاسم الشاشتين الرسميّتين الوحيدتين في البلد، مع صور المعارك ومشاهدها العنيفة. ظهر ذلك المساء الذي لن

أنساه ما حييت، مُحاطاً بالمئات من الرجال والنساء، يرتدي الكثيرون منهم الملابس الكرديّة وهم يصطحبون أطفالاً. ألقت صبيّة صغيرة بعض الكلمات في مدح الرئيس، وتبعها تصفيق واحتضان الرئيس الجالس بملابسه ورتبه العسكريّة للطفلة، وهو يطلق قهقهته الشهيرة التي كان جسمه كلّه يتحرّك معها. وكعادته، تسمّر أبي أمام الشاشة يفضح وجهه الغلّ والاحتقار اللذين كان يكنّهما لتلك المشاهد التي كاد يذهب ضحيّة احتقاره لأحدها.

كان مشهداً ما زال يملأني غيظاً وغضباً، وأنا أتذكّر أبي وهو ينهض من مكانه ليطفئ التلفاز بعد موجة التصفيق الطويلة التي قابل بها المئات من بني جلدتنا، وهم يستمعون بصمت للرئيس وهو ينهي فقرة كلامه تلك قائلاً: «وتواطأ معهم بعض من سُمّوا بالبرزانيين، وقد نالوا عقابهم الصارم، وذهبوا إلى الجحيم». ثم توجّه إلينا وقال بلهجته الآمرة الصارمة: ممنوع فتح التلفاز إلى أن تمرّ فترة الحداد بالكامل.

ثمّ وقف بجانب الشباك الصغير وهو يستند إلى الحائط ودخل في صمت وعيناه تنظران إلى ما يبدو أنّه بعيد جداً. ذلك الصمت وتلك النظرة اللذان لم يظهر بهما مجدّداً إلا عندما وقعت عيناه على التابوت الذي كان يحتضن، بصمت مهيب، جسد سيروان بعد مرور عدّة سنوات من تلك الليلة.

كان أبي قد انشغل في الأسابيع الأخيرة التي سبقت تلك الليلة بالسؤال عن خبر من أُخذوا إلى المجهول من تلك المجمّعات السكنية. ليلتها بعد إغلاقه للتلفاز، غادرت كميّة القلق الكبيرة الواضحة وجهه واحتلّته كميّة هائلة من الغيظ والغضب. في اليوم الثاني مساءً، حاولتُ استدراجه للحديث بعد صمته الطويل. قال وهو مليء بالغيظ: لقد تأكّدتُ من أنّه قتلهم جميعاً، لذلك أعلنت الحداد. لكنّ الذي يؤلمني أكثر من قتلهم، هو تصفيق المئات من بني جلدتنا للشيطان وهو يعلن هكذا بكلّ وقاحة وبرود قتلهم جميعاً.

تذكّرتُ رحلة أبي في عذابه وهو يتابع أحوالهم منذ سنوات. ما إن انتقلنا إلى المدينة الصحراويّة، وعلى الرغم من غربتنا، اختفى فجأة ولم يظهر إلّا بعد يومين وهو مليء بالغضب والحنق. حين سأله أقاربنا عن سرّ اختفائه وعمّا سبّب له كلّ هذا الكمّ من الغضب، أخبرهم بأنّه كان يحاول معرفة مصير أقارب الزعيم وأبناء عشيرته المنفيّين مثلنا، وحين علّق أحدهم بأنّ هذا «أمر طبيعي، فها نحن أيضاً منفيّون، فبماذا يمتازون هم عنّا؟» ردّ أبي غاضباً: صحيح أنّنا منفيّون أيضاً، لكن نحن توزّعنا على قرى، ثمّ سمحوا لنا بالانتقال إلى هذه المدينة. لكن هُم أجبروا على السكن في مجمّعات سكنيّة وتحت حراسة مشدّدة.

كان أقارب الزعيم قد أُعيدوا إلى كردستان بعد انقلاب السيّد النائب على معلّمه واستيلائه على السلطة بصورة نهائيّة، وبعد وفاة زعيم الثورة في مستشفى يقع بعيداً على الجانب الآخر من العالم تمّ نقلهم وإسكانهم في كردستان في مجمّعات سكنيّة وتحت حراسة مشدّدة، بعيداً عن الزعيم وأبنائه، وفي مناطق متفرّقة تفصلها مسافات كبيرة. فكان اختفاء أبي الثاني بعد ذلك بسنوات لمعرفة خبر عنهم بعد أن وصلته أخبار غامضة عن عمليّة إبادتهم. ولمّا عاد، كان مُحمّلاً بقدر كبير من القلق والغضب وبالخبر اليقين... الذي رواه لي في اليوم الذي تلى إغلاقه التلفاز وإعلانه الحداد.

كانت القوّات الكبيرة، بعضها من حماية القصر الرئاسي نفسه، قد حاصرت المجمّعات ليلاً ودهمتها صباح اليوم التالي في حملة تفتيش، أسفرت عن فصل كلّ الذكور الذين تفوق أعمارهم

العشر سنوات عن الإناث. وأخذوهم في شاحنات بعد قطع الماء والكهرباء عن المجمّعات إلى المجهول. كانت الأخبار مُتضاربة عن عددهم، بين من كان يقول إنهم كانوا بالمئات، وبين من كان يقدّرهم بالآلاف، إلى أن علمنا بعد مرور سنوات، أنّ عددهم الحقيقيّ قد تجاوز الثمانية آلاف.
كان الابن الثاني للزعيم، قد تولّى مهمة زعامة الثورة من بعد أبيه، والمفارقة التي أغرقت الناس مرّة أخرى في حزن كبير، هي أنّ الابن البكر للزعيم، أصيب نتيجة قصف الطائرات العراقية للمدينة التي دُفن فيها أبوه، قبل ذلك بأربعة أعوام، ليستقرّ قبره بجانب قبر الزعيم في الغربة. بعد مرور ثماني سنوات من إعلان الحداد ذاك، وأنا أقف وحيداً في هذه المقبرة التي تأبى أن تدعني أغادرها وأترك آتيلا ليرقد لحاله في منزله الأخير، ما زلتُ أشعر بالألم الذي خلّفه ذلك التصفيق وأتوه في إيجاد تفسير لكلّ حملات الإبادة التي طالتنا مع التمزّقات الشديدة التي حوّلت أرواحنا إلى ساحات للندوب التي لن نُشفى منها أبداً. لكنّ الأدهى من كلّ ذلك هو أنّ ذلك التصفيق الطويل الذي ردّ به المئات ممّن يلبسون نفس ملابسنا الكرديّة على كلام الرئيس وهو ينقل لهم بكلّ وقاحة وبرود خبر إبادة أقارب الزعيم وأبناء عشيرته، لم يكن هو التصفيق الأخير، ولا نهاية للتمزّقات وبحور الدم التي قُدّر لنا أن ننزفها... فقد أغرقني أكثر فأكثر في تمزّقنا بين كوننا لا نعرف من نحن، هل نحن إيرانيّون كأقاربنا، أم عراقيّون؟ أم نحن شياطين تعرّضنا للعنة أبديّة حكمتنا بالتمزّق سواء أقسراً أم اختياراً؟ لكن الأشدّ إيلاماً حقّاً كان ذلك التصفيق الذي نكأ عليّ، بكلّ قساوة، جرح زينب الذي لم يُغلق حتى هذه اللحظة.

43

«كلّ من له قدم في العشق راسخة فقد تخطّى الكفر والإسلام معاً».
فريد الدين العطّار

لم أشعر أبداً في حياتي كلّها، بذلك النوع من الأحاسيس. حتّى في أصعب المواقف وأكثرها مدعاة للسخرية، لم يدهمني شعور بالضآلة إلى هذا الحد. لكن الغريب أنّه كان مُرافقا لانبهار، أذابني في هول ما كنت أرى وأشهد. فكلّ ما رأيت، أدخلني في حالة شعرت فيها بأنّني لم أكن أبداً ملك العشاق المتوّج، كما كنتُ أظن ويؤكده لي كلّ من يعرفني، من قريب أو بعيد. بل بالعكس تماماً، إذ إنني صغير وضئيل، بحيث أخشى أن لا يقبلوا، حتّى بوقوفي على باب محفل العشاق العظام. حينها فقط، أدركت الحكمة من غضبة شاسوار، وهو يُحاججني قبل سنوات بيقين غريب، حول فرضية استحالة ثقب الجبل بواسطة إبرة. يومها حكى لي الأسطورة التي تقول إن فرهاد قد عشق شيرين لدرجة أنّه قَبِل بطلب الملك خسرو برويز نحت الجبل.

حاولت وقتها أن أتخيّل الصور التي كان شاسوار قد رآها أيّام الثورة، قبل الانهيار الأكبر، ويحاول أن يشرحها لي. لكنني لم أدرك حينها، أنّه كان محقاً لدرجة أن كلّ خيالاتي وتصوّراتي ظلّت أكثر ضآلة ممّا رأيت بعيني، بعد ذلك بسنوات، وأنا أزور بصحبة الضابط الآذري آذر، وسائقه ومحمود دارابي، الآثار التي تقع في طاق وسان، وفي المكان الذي نحت فيه فرهاد الجبل. وكذلك الجبل البعيد نسبياً والذي يحمل نقش المرأة العجوز التي يقال إن فرهاد رمى بها بكلّ قوته، فارتطمت بعرض ذلك الجبل، وتشكلّت منها لوحة ضخمة، تُصوّرها وهي تهمُّ بوضع عجينة دائرية كبيرة على الصاج الساكن أمامها. كلّ ذلك أدخلني في حالة شعرت معها بصغر حجمي وضآلتي كعاشق، أمام عِظام العشاق من أمثال فرهاد. فما الذي فعلته أنا، مقارنة بما أنجز هو؟

ليلتها، حين ألقي القبض عليّ في الطريق، وبعد قطع التحقيق معي بصورة مفاجئة، طلب منّي الضابط آذر ركوب السيّارة العسكرية، ثم التفت إلى محمود:

– ألم تشتق إلى أولادك؟

– إلى أين تأمرني أن أقود يا سيدي؟ فغر محمود فاه لبرهة قبل أن يسأله.

فأمره الضابط آذر بأن يقود السيارة إلى بيتهم، ثمّ استدرك: سنكون في خدمة أخينا السيد آتيلا لمدة يومين.

كان محمود دارابي من أهالي قريةٍ تقع في سفح تلك السلسلة الجبلية القاسية، التي تحتضن آثار طاق وسان من الخلف بعنف بارد. هناك في قريته، أدركتُ أنّه كردي وأن المنطقة المكوّنة من إحدى أكبر وأقدم المدن والعديد من البلدات ومئات القرى، يسكنها أكراد، أفهم لهجتهم الأقرب إلى الفارسية منها إلى اللهجة الكردية التي أتحدّث بها أنا. كانوا في غاية الرقة والكرم معي، أنسوني كلّ آلام محاولاتي، وأنا أستميت للوصول إلى هذه الآثار التي كان يتفجّر منها عبق فاطمة. وأنا أغرق في ذهول، من هول عظمة ما أرى في هذه الجبال القاسية، التي غدت أشبه بالشمع، أمام معول العشق العظيم وجبروته. ملأني شعور مؤلم للحظات، ودهمتني فكرة، أنّني لم أكن أستحق فاطمة، وأنّني لم أصل إلى مستوى عشقها أصلاً.

في الليلة الثانية، جاؤوا ببعض النبيذ الأحمر، بناءً على أمر الضابط آذر الذي أصرّ على إحضاره لشربه على شرفي. لكنّي طلبت منه أن يعفيني، وذكّرته بأنّني أخبرته من قبل، كيف كنت سكّيراً

مدمناً، وتبت على يدي فاطمة المباركتين. فظلّ يُصرّ عليّ، مُبرّراً إصراره بأنّ الله يكافئ أهل الجنّة ويبشّرهم بالشراب الطهور، فمن ذا الذي حرّمه علينا في الدنيا؟ ولكي يزيد في تأكيد حرصه على إقامة هذا الطقس إكراماً لي، استدرك قائلاً: كما تعلم، فإن تناول الكحول ممنوع في هذا البلد وفقاً للقانون. لكنني أفعل ذلك لكي نشرب معاً نخب العشق. إلّا إنني يجب أن أبوح لك بالشعور العارم الذي يملأني كلّما فكرتُ في كلامك. فأنا أرى نفسي أصغر، وأكثر ضآلة، من أن ينتقل الكلَب من يدك إلى يدي.

فسخرتُ من نفسي، وحكيتُ له عن جلسة سمر، محرّمة بالدم والخمر، حدثت قبل سنين، بين عدوّين تحوّلا على وقع صوت الكأس ورائحة الخمر وسحرها، إلى اندماج يفوق الصداقة والأخوّة الحقيقية. ووعدته بأن أكسر القاعدة، وأشاركه السمر بأن أغنّي معه بعض الأغاني التركية. حين طال بنا الليل طلب آذر من حارسه ومرافقه، محمود دارابي تجاوز حدود الرتب والجلوس معنا لكي يشرب. واكتمل الليل، ونحن منطلقون في أداء الأغاني من كلّ اللغات التي نعرفها نحن الثلاثة. لكنني مع كلّ ذلك، بقيتُ غارقاً في إحساسي بالضآلة. ولم يُجدِ كلام الضابط آذر عن عظمتي كعاشق، على حدّ قوله، في شيء. ورجعتُ بعد إنهاء الزيارات، إلى شاسوار وبقيّة رفاقي في المقرّ، وأنا ممتلئ بذلك الإحساس الجديد.

كان شاسوار مذهولاً ممّا حكيت له، عن مغامرتي الثانية. لكنّه حذّرني في النهاية من تكرار المحاولة لإتمام الزيارة، التي أقنعني الضابط آذر وهو يُعيدني بسيارته إلى المنطقة التي تقع فيها مقارّنا، بأنّ عليّ تأجيلها لحين تمكّنه من ترتيب إجراءاتها اللازمة، لكي أصل إلى هناك، بطريقة مضمونة ومن دون عوائق، ثمّ يجب تأمين مكان يؤويني في اليومين اللذين سأقضيهما هناك. فودّعته بكثير من الحب والدموع التي لم أستطع منعها من السقوط، فنظر إليّ قليلاً، ثمّ قال: أتمنّى أن نرتقي جميعاً إلى درجة صاحبك الصوفي، الذي تحوّل إلى كلّاب. لكن يؤسفني أن أقول لك يا أخي، إن ذلك العصر الذي كان من الممكن أن ينتقل فيه الكلَب من يدك إلى يد غيرك، قد ولّى إلى دون رجعة، فأنت آخر العشاق دون منازع.

كنتُ أعدّ الأيّام والليالي، في جحيم تتقاذفني فيه نار اشتياقي لفاطمة، الذي لا تطفئه بحار الدنيا، وبين احتراقي شوقاً لوصول وجبة المبالغ المالية التي كانت الثورة توزعها علينا، على فترات غير منتظمة لكي أحقق حلم زيارتي. لكنها تأخرت هذه المرة أكثر من كلّ ما سبقها. وطال الانتظار، ولم تصل. لذا قررتُ أن أنطلق للزيارة التي أقنعني الضابط آذر بتأجيلها لحين إكمال ترتيباتها. فبعتُ ساعتي وحصلتُ على الأوراق اللازمة لعبور الحدود، والوصول إلى المدينة التي كنت قد زرتها من قبل مرّتين. وحين علم شاسوار بإصراري الكبير، وأنّني مغادر لا محالة، جاءني يحمل مبلغاً من المال، كان قد طلبه لي من قيادتنا، ودسّه في جيبي وأكد عليّ توخي الحذر والعودة بسرعة.

كان شاسوار بأمسّ الحاجة للمال لكي يشتري به حذاءً، بعد أن أضطر إلى استبدال حذائه بفردتي صندل حوّرهما أحد الرفاق من بقايا زوجين من الجزمات البلاستيكية الطويلة، كان قعر إحداهما أبيض بينما الثاني أسود، فلم يطلب مالاً لنفسه.. وإذا به يطلبه لي. لم تكن عزة النفس تلك كثيرة على شاسوار، لكنها أكدت لي حبّه ودعمه المطلق لي في كلّ ما أفعل على طريق العشق. وحين فاجأته بسؤالي: لماذا طلبت منهم مالاً؟ لو علمتُ لما تركتُك تفعل ذلك، أنا أعرفك لم تتنازل لطلب المال، حتّى من أبيك.

– لا عليك، يستحيل أن أمُدّ يدي لأطلب من أيّ كائن، لكنك في أمسّ الحاجة للمال فأنت مُقبل على مغامرة فريدة، وأنا أدرك عزّة نفسك المترسّخة فيك منذ قرون يا عطّار.
كانت رحلتي، أو مغامرتي الثالثة، مُضنية وطويلة جداً. اتّصلت بعد وصولي، بالضابط آذر من الفندق ذاته. فجاءت السيّارة تحملني وانطلقنا بعد ذلك، في رحلة استغرقت الليل كلّه. ووصلنا في اليوم التالي إلى العاصمة، حيث كانت تسكن عائلة آذر. كان الغريب هو أنّني وجدت جميع أفراد عائلته يعرفونني، ويعرفون كلّ شيء عنّي، وعن حكايتي. فتركتُ نفسي أغرق في كلّ ذلك الكمّ الهائل من الحب والدفء، اللذين كنت قد نسيت طعمهما نهائياً. بعد قضائنا ليلتين، ودّعتني أمّه التي كانت تفوح منها رائحة أمّي تماماً، بكثير من الدموع والدعوات الصادقة. كما احتضنني هو بكلّ قوّة، وهو يسلّمني لزميل له، يسكن المدينة التي نقصدها قائلاً: لديك أرقام هواتفي في العمل وفي البيت، كلّمني إذا احتجت إلى أيّ شيء.
وانطلقنا إلى «باب الشرق».
كان الضابط همايون، زميل آذر الذي تكفّل بنقلي، في غاية الرقة والكرم. أخذ يحاورني بالفارسية التي كنتُ قد بدأتُ التّحدث بها. وطالت الرحلة ساعات عدّة. عند وصولنا نزلنا في بيته، الذي تجاوزت فيه إحساسي بالغربة من اللحظة الأولى. وأخذت أصرّ عليه لكي يرتب لي الزيارة التي فعلتُ المستحيل من أجل تحقيقها، وها أنا ذا، في المدينة ذاتها. أشعر بروحه وهي تتلبّسني، بهمسه وهو يناديني، بالهفيف الصادر من جناحي الهدهد، الذي يرفرف فوق رأسي... فوعدني أن نبدأ الزيارة في صباح اليوم التالي، شريطة عودتي إلى البيت بعد إتمام الزيارة، وعدم الذهاب إلى فندق، على الأقل لأن أوراقي لا تسمح لي بالبقاء في فنادق.
– ماذا تفعل، هل ستصلّي هنا؟ هذا كفر!
عندما بادرني محمود دارابي بسؤاله ذاك، وهو في غاية الانفعال، أثناء مغامرتي الثانية حين كُنّا نزور ذلك المعبد، وكان الوقت قد تجاوز العصر بقليل، فما كان منّي إلّا أن أجبته: لأنّه موعد صلاة العصر، وأنا لا أحبّ تأجيل صلواتي.
– لكن كيف لك أن تؤدّيها في هذا المعبد، ألا ترى أنّ ذلك حرام، ثم كيف ستحدّد القبلة وتتوجّه إليها؟
نهره آذر بعبارة حاسمة، أعفتني من تقديم أيّة شروح، لكنّه ظلّ يُصرّ: ولكن يا سيدي يمكنه أن يؤدّي صلاته في المرقد، وهو داخل محوطة المعبد أيضاً، ولا يبعد سوى خطوات قليلة، أم إن المانع هو أنّه لا يريد الصلاة في مرقد شيعي؟!
نظرتُ إليه وأنا ممتلئ بابتسامة شفقة عليه، أدّت إلى ارتباكه، لكنّه ظلّ مُحافظاً على نظراته الغاضبة. أخذتُ أتيمّم ببعض التراب عن أرض المعبد، وأنا ممتلئ إيماناً واشتياقاً. فكيف يمكن أن يكون هناك وضوء، أكثر نقاءً، من التوضّؤ بآثار مياه معبد أناهيتا، الذي جفّ على آخره منذ دهور خلت؟ أناهيتا إلهة الماء. كان الضابط آذر قد رتّب هذه الزيارة، لكي يريني بعضاً من الآثار في المنطقة. أمّا بالنسبة لي فقد كان الأمر مختلفاً تماماً. كان من المستحيل أن أفوّت فرصة كهذه، دون أداء الصلاة من أجل فاطمة، والتضرّع في حضرة الإلهة أناهيتا لكي تحفظها في منفاها الغارق في العطش. ودون أن أشغل بالي بتحديد القبلة، توجّهتُ حيث كنتُ واقفاً، وبدأت إقامة صلاتي وأنا أمتلئ صفاءً. أحسستُ بالنور يشعّ من كلّ روحي.

طالت دعواتي وأنا في حالة خشوع تام. «يا إلهة الماء، يا من تمسكين بمقادير العطش والإرواء، أنتِ أعلم بحال فاطمة وكلّ من معها، أنتِ أعلم بأن تلك الوردة الرقيقة لا يمكنها أن تتحمّل عطش الصحراء وجحيمها. يا إلهة الإرواء والحياة، يا أناهيتا، بحق كلّ قطرة ماء تسقي عطشانا، أتضرّع إليك أن تُنزلي المطر حيث تسكن فاطمة، وتحترق في نار اشتياقها لي.. اسقيها، فهي في غاية العطش». طالت دعواتي، وحين عدتُ إلى رشدي، أخذني آذر بكلّ رقة وهو يحاول مساعدتي للوقوف على قدمي، بينما كنتُ أجهد للوقوف، بعد أن طال ركوعي وسجودي، وأنا أبكي وأبتهل بصوت عالٍ.

في الطريق، كنتُ صامتاً، مأخوذاً بجلال ما رأيت. فعلى الرغم من هدم المعبد الأصلي، لا تزال الآثار تحتفظ بعظمة البناء، ومقاومته الخرافية العصيّة على الاستسلام للهدم والدمار. أعمدته العالية الكبيرة المنحوتة من الصخر القاسي.. قواعد الأعمدة الصخرية، والتيجان المنحوتة بدقة من جنس الصخر ذاته، والتي كانت تعتلي أيّام عزها الأعمدة الصخرية بكبرياء، لكي تحمل السقف المهيب، بينما هي مرميّة الآن، على الأرض، لكنّها لا تزال محتفظة بتماسك قطع الصخر الثلاث الضخمة، التي تشكلّت في هيئة قلب صخري فائق الرقة. ثم أحجام الصخور الكبيرة، التي يصعب على العقل تخيّل أن يكون الأوّلون بنوا بها المعبد، من دون بركات آلهة تعينهم، أو عشّاق خارقين، تتجاوز قواهم وقدراتهم كلّ حدود العقل العاجز.

أفقتُ من خيالاتي على صوت الضابط آذر، الذي نبّهني للنظر إلى الجبل الذي كان يقف في مقابلنا على طريق عودتنا إلى مدينة كرمانشاه الكبيرة، قائلاً: انظر إلى تلك الصورة التي يُظهرها ذلك الجبل، إنّها تُسمّى العروس النائمة، انظر إلى الرأس، ثمّ الصدر والثديين والبقيّة.

يا إلهي! إنها عروس نائمة بالفعل. من ذا الذي نوّمها هكذا، وبماذا تحلم الآن؟ وهل نامت على أمل أن تحلم بالحبيب الذي يحقق الحلم في الصباح التالي؟ أم هي مُغيّبة بفعل سحر شرّير، تنتظر الفارس الذي سيأتي ليفك شيفرة السحر، ويبطله فتفيق من غيبوبتها؟ يا إلهي، يا ربّ الجبال العنيدة المليئة بالأسرار العصيّة على البوح.. يا ربّ البوح العظيم، تُرى كيف حال فاطمة الآن؟ وهل هي نائمة تحلم بي، فتصحو على كوابيس الصحراء الجرداء؟ أم إن أناهيتا استجابت لدعواتي، وأمطرت لها ما تقي به ظمأ الحلق والروح؟ وسمعتُ الضابط آذر يأمر محمود بالتوجّه صوب طاق وسان. آثار مهيبة، تحكي قصّة تتويج خسرو برويز، بحضور كلّ من أهورامزدا وأناهيتا، ليمنحاه البركة في حكمه.

يا أهورامزدا، يا إله زرادشت، يا إله الخير وقاهر أهريمان إله الشر، أين كنت حين تكالبت كلّ آلهة الشر علينا؟ وإلى متى ستبقى تمنح بركتك للمستبدّين، ليأتي أهريمان في النهاية ويُلبسهم روحه الطافحة بالشرّ؟ أم تراك لم تمنح خسرو برويز بركتك، فوقع في براثن أهريمان؟ يا من لم تكتمل بركات أناهيتا إلّا بك، أتوسل إليك، أتضرّع إلى كلّ ذرة خير واجهت بها جبالاً من الشرور، أن تنزل الخير كلّه على فاطمة في منفاها، وتحفظها من كلّ شرور العالم التي تجمّعت حولها الآن. إنني أموت من الشوق، أنضح بالخير منك ومن فاطمة، وعلى استعداد لقتال كلّ شرور العالم، لكنك إذ تقف هكذا صامتاً لا تردّ، كأنك لم تُبق لنا سوى الهجر، والهجران، إنني أفكر الآن بمصير خادمك ورسولك زرادشت الذي طرده أهله كأغلب الأنبياء والرسل، ولا أملك سوى أن أتضرّع إليك باكياً ألّا تدع فاطمة وحدها تقارع كلّ تلك الشرور.

وأخيراً، انتقلنا إلى حيث توقفت السيارة، عند سفح المنطقة القاسية من الجبل الصخري المهيب، حيث يخرج الماء من تحته، بقوّة ورقة عجيبتين. تُهت في عظمة وهول الأسرار التي يحملها هذا الجبل المتربّع بقسوة، على مفارق طرق البوح. ها هو هنا، يبوح باليسير جداً ممّا عنده، بفعل جبروت الملوك وعظمة الفنانين، الذين نحتوا تلك المنحوتة الضخمة، في ذلك المكان العالي والعصيّ على الوصول إليه.. التي تحكي قصّة الحروب، وسيطرة الملك داريوش على ثلاثة وعشرين بلداً، وهو يضع في النهاية قدمه على رأس أسير راكع، يُقال إنه كان يُشبه أميراً، وإنه انتحل حينها صفة الأمير، فلاقى ذلك المصير عند انكشافه.

وها هو هيراكليس المنحوت بدقة، من الصخر الذي أجزم بأنّه أقلّ قسوة من الجنس الذي خُلق منه هيراكليس أصلاً.. ها هو يتربّع نصف مستلقٍ، على فروة أسد، ويضع قوسه وسهامه خلفه، ويُمسك بيديه القاسيتين، قدحاً يشرب منه ما قيل إنه خمر. تُرى نخب من الذي تشرب يا صاحب الجلالة؟ هل هو نخب من أحلتهم بحروبك التوسعية إلى دمار؟ أم كنت ملبوساً بهوس يشدّك بكلّ هذا الاندفاع، إلى ما يُخلّدك؟ إنني لا أرى فيك، ولا في كلّ ما شاهدت من مظاهر الأبهة والعظمة الزائفة في تمثالك، سوى تلك الصاعقة التي أدّت بفاطمة وأهلها وكلّ الناس الذين لفّتهم بقسوة، إلى فيافي الصحراء والمجهول. فهنيئاً لك، واشرب نخبك في كأسك المليئة بالدم والأرواح.

ما إن صعدنا تلك المسافة من الجبل، التي تفصل الطريق وأشجار السفح عن المكان الذي كان هدف زيارتي تلك، التي تحمّلتُ من أجلها كلّ تلك المجازفات، حتّى أحسست بارتطام ركبتيّ بالتراب والصخر القاسي. لم أتمالك نفسي.. وكنت قد خررت راكعاً، أنتحب دون إرادة منّي، وأبحث عنها كالمجنون، بين بقايا الصخور المتكسّرة والتراب والأشواك التي تنغرز في كفيّ. كنتُ أمرّر كفيّ في كلّ الاتّجاهات، وأنا أمنّي النفس بأنّ إصبعاً واحداً منّي قد يلمس إصبعا واحداً منها. أفقتُ على ذهولي من هول ما أرى، بينما كان آذر يحاول أن يُهدّئ من روعي بحنان لم أجده سوى في أمّي.

فهمتُ في ما بعد، أن هذه الآثار العظيمة تحكي في ذات الوقت حكايتين، في توازٍ غريب. تقول الأولى: «إن خسرو برويز بعد تتويجه بمباركة من أهورامزدا وأناهيتا، قرّر أن يُخلّد دوره، فاستعان بالعديد من النحاتين كي ينحتوا الجبل، في مساحة غير قابلة لإدراك العقل، إذ إن المساحة التي نُحتت في صدر الجبل، تبلغ مئتي متر عرضاً، وستة وثلاثين متراً ارتفاعاً. كان الغرض من ذلك إعداد صخور ضخمة بقوالب مكعّبة عملاقة، تكون جاهزة لبناء قصره والجسر الذي أراد أن يُشيده على النهر الجاري برقة، في السهل المنبسط الهادئ الوديع أسفل الجبل، ومن ثم تهيئة هذه المساحة المنحوتة من الجبل لكي يخُطّ عليها المنحوتة التي تُخلّد إنجازاته».

أمّا الحكاية الأخرى، فتقول: «إن فرهاد كان أحد أكثر النحّاتين شهرة وقوّة ومهارة في ذلك العصر، وإن محظيّة الملك خسرو برويز المسمّاة شيرين، قد عشقت النحّات، وبدأت قصّة الحب العاصفة الشهيرة بينهما. وإن الملك قد وعد فرهاد بأنّه إن أتّم تلك المهمة المستحيلة في نحت الجبل، فسيمنحه شيرين، وسيوافق على زواجهما. فما كان من النحّات إلّا قبول ذلك بكلّ سرور. لكن ما كان غائباً عن بال الملك، أن العشق المجنون الصادق قد يتغلب على المستحيل، فيتمكن فرهاد من إنجاز مهمّته. هنا، أصيب الملك بالذعر واستعان بامرأة عجوز، تُدبّر له مكيدة، تُخرّب على العاشقين إمكانية وصلهما.

يُقال إن العجوز طرحت على الملك، مكيدتها التي تبنّاها الملك بحذافيرها، فأمر القرى الواقعة في السهل الوديع المنبسط، بحبس مواشيهم في حظائرها لمدّة ثلاثة أيام متتالية، ثم إخراجها كلّها دفعة واحدة في مساء اليوم الثالث، وهذا ما خلق غباراً كثيفاً غطى الوادي كلّه، مُصاحباً لأصوات متداخلة عالية للمواشي والبشر. وما إن رأى فرهاد ذلك المشهد الغريب، وسأل عن سرّه، حتّى أخبرته العجوز بأن حبيبته شيرين قد ماتت. فبادر غاضباً إلى رمي العجوز بكلّ ما أوتي من قوّة... ثمّ انتحر في الحال. ويُقال أيضاً، إن الملك قد حاول المستحيل لإقناع شيرين بالزواج به، إلّا أنّها رفضت بقوّة، وما إن وصلها خبر انتحار الحبيب، حتّى انتحرت هي أيضاً».

عندما هممنا بالنزول من الجبل، سيطر عليّ مشهد السهل الوديع الساكن وهو غارق في سكون الغروب، الذي أضفى على خضاره المزيد من السحر والسكون، والذي لم يشهد بعد انتحار العاشقين، لا بناء قصر الملك خسرو برويز، ولا حتّى الجسر الخرافي الذي كان يتوقع أن يخلد ذكره. فلم يكتمل أيّ من إنجازاته التي كان يمنّي النفس بتخليدها على ذلك الجبل القاسي العنيد. لكنني في خضم كلّ ذلك أرى السهل الوديع وهو يحتفظ بعناد غريب بهيئته الطبيعية، رافضاً جبروت الملوك، ومُسلّماً أمره، أرضاً وماءً وسماءً، إلى سلطان العشق الجبّار. وها أنا أرى وأشعر، بوضوح شديد، روح شيرين وهي ترفرف على النهر، مُحتضنة روح فرهاد الذي يقطر دماً. وها هي فاطمة، تملأ السهل والجبل والنهر، بعطرها وابتسامتها الطفولية التي أعادت كلّ السكينة إلى روحي.

في اليوم التالي لصلاتي في معبد أناهيتا، وغرقي في تراب شيرين وفرهاد، طلبتُ من الضابط آذر زيارة قمّة ذلك الجبل، الذي كان شاسوار قد حكى لي عنه وعن ذلك المزار الذي ينتصب على قمته، والذي كان قد زاره في طفولته، إذ يشكلّ المكان، مزاراً يهرع الناس لزيارته من كلّ المناطق. كان الضابط آذر في غاية السماحة، بحيث لم يكن يرفض لي أيّ طلب، لم أشعر بهذا القدر من الرعاية والدلال في حياتي كلّها. فأمر محمود دارابي، الذي كان لا يزال ممتعضاً من صلاتي في معبد أناهيتا، بالتوجّه فوراً إلى قمّة ذلك الجبل، قبل أن يعود بي إلى المقرّ.

يا سيدي...

يا خير التابعين وسيّدهم، إنني أتيتك مُحمّلاً بكلّ نزفي.. ونزف الآلاف، الذين لا أعلم عنهم شيئاً. جئتك أحمل بين ثنايا روحي، روح فاطمة الهائمة، لعلّك تدعو لها ولي، فُتستجاب دعواتك ويلتئم شملنا..

يا من دعوت الله فشفاك في الحال، دعوة واحدة منك، قد تُنهي كلّ هذا الكابوس.

يا من تحمل تلك اللمعة الدالة على نعمة الله، تحت منكبك الأيسر، ادعُ لي ولها باللقاء القريب..

أنا لا أطلب منك الاستغفار لي ولها، كما طلب منك صديقك وحبيبك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، الذي تجرّأت وخاطبته، «صه، وتخلّ عن هذا الهزل»، كما يروي الهدهد حين قال: «جاء عمر مضطرباً أمام أويس، وقال: لقد ألقيت الخلافة على كاهلي فإن يوجد لهذه الخلافة مشترٍ، أبعه إيّاها ولو بدينار.

وعندما سمع أويس من عمر هذا القول، قال: صه، وتخلّ عن هذا الهزل، واطرح عنك هذا، فكلّ من يريد قطع الطريق، وجب عليه أن يجدّ فيه.

عندما علم الناس برغبة أمير المؤمنين في التخلي عن الخلافة، صاح الجميع في نفس الآونة، وقالوا: أيّها القائد، نستحلفك بالله ألّا تجعل الخلق حيارى، لقد أوكل الصدّيق الخلافة إليك عهدة،

وقد تم هذا عن تحقيق لا عن عدم بصيرة، فإن تعصِ أمره، فكم تتألم روحه بهذا التصرّف؟
ما إن سمع عمر هذه الحجج المحكمة، حتّى أصبح التخلي أمراً صعباً بالنسبة له...».
أنا لا أطلب منك الاستغفار لي، فأنا لم أفعل ما أحتاج من أجله إلى الشفاعة والاستغفار، وكذلك هي أطهر وأنقى من أن أطلب لها الشفاعة والمغفرة.
يا من يقف الناس كلّهم يوم القيامة، للدخول في الجنة، إلّا أنت الذي تدخل في شفاعتك قبائل، لم يرتكب الآلاف الذين سيقوا ظلماً إلى المجهول، أيّ معصية تستحق الشفاعة.
يا حبيبي، يا سيد التابعين، يا من تخلّفتَ عن لقاء الحبيب المصطفى، في سبيل خدمة أمّك، ادعُ لكلّ الأمهات بالسكينة وبعودة الأبناء سالمين. وادعُ لأمّي التي كابدت كلّ مشاق الطريق ولم تحظَ بلقائي، بالصحّة واجمعني بها، لكي أظلّ خادماً عند قدميها طيلة العمر.
يا من وقفت يوم صفّين، تُقاتل تحت راية سيّدنا عليّ، امنحني بركتك، لكي أكون مُقاتلاً يستحق لقاء فاطمة، الذي ستحققه لي من خلال دُعائك لنا، باللقاء القريب إن شاء الله.
وها أنا أعلنها من جديد وأمامك أيضاً، أنّني متمسك بتوبتي المباركة، التي تلقيتها على يد فاطمة... توبة نصوح من كلّ شيء، إلّا الحب، والحب وحده.
طالت دعواتي وأنا ساكن راكع على ركبتي، في ذلك المقام الصغير، إلى أن ساعدني الضابط آذر على النهوض. اصطدمتُ به على الجدار مؤطّراً باحترام شديد ومكسوّاً بالزجاج على مساحة تمتدّ بعرض الحائط، الذي يقع على الجانب الأيسر من الباب الصغير عند الخروج. وما إن وقعت عيناي عليها حتّى صحت: ألم أقُل لك؟ ها هي، يجب أن أصل إلى باب الشرق بأقصى سرعة. ألا ترى؟! إنها نفحات من روحه وكتابته عن سيد التابعين أويس القرني... إنها مديحه لصاحب هذا المقام في كتابه «تذكرة الأولياء»، كما هو مكتوب هنا. أرجوك أن تُعجّل بإتمام ترتيبات تلك الزيارة.
فربّت برفق كتفي، وقال بابتسامة رقيقة: أعدك بذلك.. ولنذهب الآن.
عند خروجنا رأيت بعض النسوة والأطفال يخرجون من مبنى قريب على تلك القمّة، فقال الحارس إن الناس الذين يأتون للزيارة من مناطق بعيدة، يبيتون الليل في التكيّة. عند نزولنا بالسيّارة من الجبل، بينما كنت أدندن بذلك المقطع من الأغنية الكُردية الخاصة بصاحب المقام، كان بعض الناس يصعدون الجبل مشياً على الأقدام. وحين تساءلتُ عن سبب عدم صعودهم بالسيارة، أخبرني محمود دارابي بأن هؤلاء عليهم نذور، وهم يصعدون مشياً على الأقدام وفاءً لنذور نذروها... وهم يؤدّونها، لكي يدعو لهم الإمام المتربّع على القمّة، لأنّه هو سيّد التابعين، الذي لا يُردّ له دُعاء.
حين وصلنا إلى حيث كان عليّ توديع الضابط آذر ومحمود دارابي، شكرتهما على كلّ ما قاما به من أجلي، توجّهت إليه: يا أخي محمود، أرجو أن تعذرني إن كنتُ سبّبت لك ألماً أو امتعاضاً. ولعلمك فقط، فإن أبي حسب مقاييسك هو شيعي، وإن إقامتي للصلاة في المعبد، لم تكن تهرّباً من أدائه في المرقد القريب منه. إن الله يا عزيزي، ليس شيعياً، ولا سنّياً، إنّه ليس حتّى مسلماً. إنه خالق السماوات والأرض، بيده مقادير الأمور، وهو موجود في كلّ مكان، وأول تلك الأماكن، روحي أنا.. وروحك أنت، لذا.. فأينما توجّهنا صادقين عاشقين، تكون القبلة، وهو أرحم الراحمين...
حين أدركت أنّه لا يزال مُحتفظاً ببعض من امتعاضه، قلت له: دعني أقصّ عليك الحكاية التي يسردها الهدهد، قبل أن أودّعك مُغادراً، فمن يدري هل سنلتقي يوماً ما، أم لا؟ يقول الهدهد:

«أصابت الآلام الشيخ نصر آباد، وقد حجّ أربعين حجّة متوكّلاً على الله، فما أعظمه من رجل! وبعد ذلك ابيضّ شعره ونحل جسده، ثمّ رآه أحد الأشخاص عاري الجسد إلّا من إزار، حيث كان قلبه مفعماً بالحرقة، وروحه غاصّة باللهيب، فعقد الزنار، وبسط كفّه، وأقبل متخلياً عن كلّ كذب ورياء، وانهمك في الطواف حول معبد النار.

فقال ذلك الشخص: يا عظيم العصر، أيّ فعلة هذه تبدر منك؟ ألا يتملكك الخجل في آخر الأمر؟ لقد أدّيت فريضة الحج كثيراً، وحزت أسباب السعادة، فهل يكون الكفر هو النهاية؟ إن هذا العمل لا يتم عن جهالة، وبسببك أصيب أهل القلوب بسوء السمعة، وأيّ شيخ طاف بهذا الطريق؟ ألا تعلم أنّ هذا هو معبد النار؟

فقال الشيخ: لقد اشتدّ بي الحال، وأصابت النار جسدي وكلّ ما أملك، وأسلمت النار كلّ حصادي للريح، كما أسلمت اليها كلّ شهرتي وسيرتي، وتملكتني الحيرة والوله من أمري، ولا أعلم حيلة لما اعتراني. وإن كانت تلك النار قد سيطرت على روحي، فكيف يبقى لي اسمي وشهرتي لحظة واحدة؟ وعندما أصبحت أسير هذا العمل، مللت كلّاً من الكعبة والكنيسة، وإن تصبك ذرّة من الحيرة هكذا، فستصاب بمئات الحسرات مثلي».

ثمّ توجّهت إلى محمود دارابي وقلت له بكلّ حب: يا أخي، إن تُصبك ذرّة من الحيرة هكذا، فستُصاب بمئات الحسرات مثلي.

فتقدّم مني وقد بدا الخجل يغطي وجهه، الذي أصبح أقرب إلى الانفجار في البكاء، واحتضنني مودّعاً بصميمية. أخذت أبتعد عنهما شيئاً فشيئاً، بعد ذلك الوداع الصادق المليء بالدموع، الذي أضفى على روحي سكينة مفاجئة. فأخذتُ أدندن بتلك الأغنية الكُردية، التي بدأت أدندن بها ونحن متجهون إلى تلك القمّة لزيارة المقام، وظللت مُدندناً بها، حتّى وصولي إلى المقرّ «لنذهب لزيارة أويس، لإعلان توبتنا... التوبة من كلّ شيء... ما عدا الحب»...

44

«كما أن النار في روحي مبعثها عشقه، فلا رفيق لي في العشق غير الغمّ وعشقه القاني وسط التراب والدم».
فريد الدين العطّار

أيّام الهزيمة وليالي الانكسار، ليست كغيرها من أيّام الله ولياليه. فهي لا تمرّ بالساعات والدقائق والثواني، بل يتم الانسحاق تحت وطأة ذكرياتها التي تُحاصرك من كلّ صوب ولون، وتفرض عليك تحمُّل آلامها التي تفوق آلام الوقوف على الصليب. بيد أنّ ما يُميّزها عن الوقوف المعهود على الصليب، هو أن من وقفوا على الصليب كانوا مليئين بالإيمان، بينما صليب الهزيمة يفتقر إلى كلّ ذرة من إيمان، وهو فارغ تماماً من كلّ يقين، حتّى يقين انعدام الإيمان. ومع ذلك فهي تنضح بالكفر المطلق بكلّ شيء، ولكن من دون توافر حتى شيء واحد للكفر به.

كان الماضي كلّه حساباً عسيراً مع النفس، ومحاكمة غير عادلة، لا تُطرح فيها الأسئلة، إلّا بواسطة جلد مستمر بأسواط حامية من النار. بينما كان المستقبل مظلماً لا يتجاوز حالة من إيهام النفس، والتذرّع بالمزيد من الصبر الممزوج بالحقد والغضب، الذي لا يجد من ينصبُّ عليه، فيرتد على ذواتنا ليجلدنا بطريقة أشدّ قسوة من أسواط الماضي. وبين هذا وذاك، لم يبق شيء نحسّه، لكي نسمّيه بالحاضر، فقد كنّا فريسة لكلّ الوحوش والشياطين، وشراستهم ولعناتهم.

كان الحوار على أشُدّه، وكان الرفاق فرحين على غير عادتهم، بينما كنت أنا منغمساً كعادتي، في أحد الكتب. كان جدلهم متمحوراً حسبما فهمت حول مباراة كرة قدم، تلك اللعبة التي لم تكن تشدّني أساساً، لكن فرحتهم وتحمّسهم في الحديث عنها كان لافتاً. فسألتهم عن سبب هذه الفرحة التي خرّبت عليّ انغماسي في القراءة، وفهمت أن المنتخب العراقي قد فاز في المباراة، ومن شدّة استغرابي وغضبي لم أركز على من فاز المنتخب تحديداً. وحين عنّفتهم بأنّني أستغرب فرحتهم لفوز فريق العراق الذي لا نجد فيه مساحة للعيش، والذي يُقيم لنا محرقة بين كلّ فترة وأخرى، أعادوا عليّ حججهم الدائمة بأن هذه مسألة أخرى.. لكن اللافت أن أحدهم خاطبني: لماذا لا تُجرّب مشاهدة ذلك الفيلم الذي يعرض الآن في السينما؟

كان الجميع مشغولين منذ فترة بالحديث عن ذلك الفيلم الإيراني الذي شاهده أغلبهم في البلدة القريبة إلى مقارّنا. وكان كلّ ما يتحدثون به، يبدو لي مجرّد هراء لا أكثر. فكيف يمكن أن يعيش المرء بكلّ هذا القدر الكبير من التناقض الأقرب للازدواجية والنفاق، والأدهى أن ما يُميّزه عن الازدواجية والنفاق، هو أن الناس يلجأون إليهما في العادة لتحقيق مصلحة ما، بينما كان رفاقي الذين يتحدثون بتلك الحماسة عن ذلك الفيلم وتأثرهم الغريب بمشاهده ونتائجه، لم تكن لهم في كلّ ذلك أيّ مصلحة. لذا بدا لي الأمر كلّه، كأنّهم في حالة عبث مطلقة يصعب تصديقها أبداً. وكلّما تذكّرت تلك المواقف ورأيت نفسي أحترق في ذكرى زينب التي تملأني بحالة من عدم الفهم المطلق، لا أستطيع تمالك نفسي من الذهول المغرق في العبث.

أكانت زينب هي بغداد، أم بغداد هي التي تحوّلت في لحظة خاصة جداً إلى زينب؟ أم كان الأمر كلّه تآمراً، تماهت فيه مدينة ألف ليلة وليلة، وكلّ شعرائها وخلفائها ومتصوّفتها، بامرأة اختزلت في ذاتها جمال نساء الكون منذ الأزل؟ لا بل إنها اختزلتهنّ جميعاً، بكلّ جبروتهنّ ورقتهنّ، حتّى قبل أن يوضع الحجر الأول في بناء بغداد، لتتحول في لحظة فريدة، إلى عنوان لجريمة خلفت

بحوراً من الدم وحرائق من نزف الأرواح، في مشهد استطاع فيه الضلع الثالث للمثلث، الشيطان على حدّ قول أبي، أن يختزل في ذاته كلّ جلّادي بغداد، منذ وضع لبنتها الأولى.
كانت المرة الأولى التي رأيتها فيها، هي الجنون الذي اختلط فيه الكتاب بالتلفاز بالواقع. فوقعت مُصاباً بالشلل الناتج عن الذهول، نتيجة خروج الملكة من الكتاب ثُمّ من التلفاز، أجمل وأكثر رقة بكثير حتّى من الصور التي كانت تحتل كلّ خيالاتي وأنا أقرأ سيرتها في ذلك الكتاب. ثم بعد ذلك وأنا أراها متجسّدة أمامي، في امرأة من لحم ودم وعنفوان في ذلك المسلسل التاريخي. فعلى الرغم من أن الممثلة كانت في غاية الرقة والفتنة والرقيّ، وهي تؤدّي دور الملكة، لكنّها لم ترقَ أبداً إلى خرافية الصورة المنقوشة في خيالي. وتحوّل المسلسل إلى عذاب محض، فقد كان عليّ الذوبان احتراقاً، وأنا أنتظر عرض حلقاته على الشاشة الرسمية بين كلّ أسبوع وآخر، فصارت حياتي جحيماً لذيذاً. وهكذا، غرقت في كلّ ذلك العشق الجنوني، بينما كنت لا أزال تلميذاً في السنة الأخيرة من دراستي الابتدائية.
لم تكن عودتنا من المدينة الصحراوية، محمّلين بهدايا زملائنا التلاميذ، بوابة الولوج إلى عالم الأحلام كما تخيّلت، بل شكلّت تماماً، الباب الصدئ الصغير الذي انفتح على ممرّات وأزقة حالكة ضيّقة... فلم نمكث في تلك البلدة الحديثة التكوين كثيراً. وشددنا الرحال مرّة أخرى، بعد أن أكملت فيها الفصل الثاني من سنتي الدراسية الثالثة باللغة الكُردية، وبدأتُ الفصل الأول من سنتي الدراسية التالية باللغة الكُردية. كان انتقالنا هذه المرة إلى بغداد، يعني أنّني يجب أن أكمل السنة ذاتها بالعربية. ولم أكن أعلم كيف وبأيّ لغات سأنهي أعوامي الدراسية التالية، وهل سيتسنّى لي إنهاؤها أصلاً، أم لا؟
اثناء كلّ انتقالاتنا السريعة ما بين تلك القرى والبلدات والمدن، الصغيرة منها والكبيرة، وصولاً إلى العاصمة، كُنّا نلفت الأنظار أكثر من بقيّة زملائنا، أو حتّى من كانوا ينتقلون مثلنا للدراسة في تلك المدرسة، فقد كان لزاماً علينا أن نشرح بالعربية، لكلّ المعلمين وهم يدخلون الصف الدراسي، معاني أسمائنا، التي كانت تُصبح مثار سخرية لبعض التلاميذ وهم يسمعونها للمرة الأولى، ويحتاجون إلى فترة لكي يتأقلموا معها ويتعلموا نطقها بالطريقة الصحيحة. وكان ذلك يشعلني غيظاً، يدفعني إلى أن ألقّن كلّ من كانوا يسخرون منّا درساً قاسياً.
فكان تميّزي في الدراسة وإثبات أنّني أذكى منهم كلّهم هو ميداني المفضّل. يدفعني في ذلك حبّ المعلمين واهتمامهم، وتكوين الصداقات التي أنهت بعد فترة من الزمن، كلّ تلك الحواجز عند بقية التلاميذ. في تلك الفترة كان حبّي للقراءة قد ازداد إلى أن وصل إلى حدّ الهوس، الذي كان يُخيف أبي وأمّي وأقاربنا، الذين كانوا يُحذّرون الأهل من أن كلّ من سلكوا طريق إدمان القراءة مثل ابنكم، انتهى بهم الأمر إلى الجنون. واصطدمتُ في أحد تلك الأيام، بذلك الكتاب الذي كان مركوناً على أحد رفوف مكتبة المدرسة، التي كانت تُعير التلاميذ كتباً، يعيدونها بعد قراءتها. وتغيّرت أيامي وانقلبت لياليّ.
فكنت أقرأ الكتاب المرة تلو الأخرى، أنشغل بها أثناء النهار، وأغفو بعض الليالي وأنا غارق في الأحلام التي كانت تحتلها الملكة، وهي تخرج كالجنّية من بين ثنايا الكتاب، لأصحو صباح اليوم الثاني وأنا وحيد، وليس في حضني سوى الكتاب الذي أصابني بالهوس بها. واضطررت إلى إعادته للمكتبة، مما أشعرني بحزن الفراق المؤلم فعلاً. واحتفظت بمصروفي اليومي لعدة أيام دون أن أصرف منه فلساً واحداً، وذهبت إلى شارع السعدون واشتريت نسخة من الكتاب الذي يحكي

سيرة الملكة، فأصبحتُ أمتلكه لنفسي، أنا وحدي دون أن يكون لأحد الحق في لمسه، وكنت أصحو كلّ صباح والكتاب لا يزال في حضني.
ثم على حين غرّة، وكأنّ هناك من يريد أن يُقرّبها إليّ أكثر فأكثر، بدأ عرض حلقات المسلسل التاريخي الذي كان يحمل حتّى اسمها، ولم أتخلص من الكتاب، بل كنت أعود إليه في كلّ تفصيل أراه على الشاشة. وهكذا أصبحت منقسماً بين الكتاب والشاشة، التي علمتني للمرة الأولى لذة انتظار المواعيد والاحتراق فيها اشتياقاً. فكان الأسبوع الذي يفصلني عن الحلقة التالية جحيماً، لكنه في نفس الوقت كان يغرقني في تخيّل ما قد يُعرض فيها.
كنت أنزل معها إلى الميادين، وأشعر برائحة الدم، وقعقعة السيوف وصراخ القتلى. أفرح معها للانتصارات، وأموت قلقاً عليها من كلّ المؤامرات التي تحاك ضدّها، والخيانات التي تطالها، وأرفض تصديق أنّها يمكن أن تموت أو تقع أسيرة للأعداء الذين لا يرحمون. لم تكن تقع في خيالاتي وأحلامي، إلّا أسيرة لي أنا، فأحاول تعويض كلّ مشاهد أسرها في الكتاب والمسلسل، بأنّها لم تكن في الحقيقة سوى أكاذيب حرّفت قصة وقوعها أسيرة في حبي أنا. ونتيجة كلّ ذلك، كان ظهور زينب الأول أمامي، هو الحقيقة التي ألغت كلّ حكايات أسرها وموتها، التي لم تكن بالنسبة لي أكثر من مجرد شائعات صادرة عن أعداء الملكة ومن خانوها وتآمروا عليها.
بينما أنا مستلقٍ الآن بجانب آتيلا، وبين كلّ هذه القبور، التي تضّم في مشهد عبثي، الأبطال والخونة، والسُرّاق واللصوص والطيّبين، أترك نفسي غارقاً في مشهد النجوم، وأنا أبحث بينها عن الملكة.. عن زينب.. عن كلّ زملاء دراستي.. عن رفاقي الذين صعدوا سلم الدم بلهفة واشتياق، لكي يحتلوا مكانهم بين النجوم. وفجأة... ها أنا ذا أمتلئ إحساساً بالتفاهة نتيجة تركيزي على مشهد النجوم المستقرّة على كتف ذلك الضابط الذي كان يقود جنوده داخل أرض العدوّ وقد انقطعوا عن بقيّة قواتهم وقواعدهم.. بينما كانت موجات التصفيق التي تملأ الصالة المظلمة، بعد كلّ حركة شجاعة كانت تقوم بها القوّة التي يقودها الضابط الإيراني، تستفزني بشدّة.
تمكن بعض الرفاق من إقناعي بصعوبة، بالذهاب إلى السينما ومشاهدة ذلك الفيلم الإيراني الذي كانوا خلافاً لكلّ منطق عقل أو دم أو حتّى ثأر، قد تعاطفوا فيه مع ذلك الطيّار العراقي الذي تمكّن من الهرب من قوات الحرس الثوري الإيراني وهي تطارده، لأسره بعد إسقاط طائرته. وكما فهمت منهم بعد أن وصلنا متأخرين، وقد بدأ عرض فيلم آخر بعد انتهاء مدة عرضه، أن الفيلم كان عبارة عن قصة تلك المطاردة التي انتهت بأسر الطيّار، ما أصابهم بالحزن عليه...
الغريب هو أنّني حين ذكّرتهم بأن ذلك الطيّار ليس إلّا تجسيداً لكلّ أولئك الذين كانوا يقصفوننا، كانت ذرائعهم تنهمر دون أن تقنعني.. لكن الأغرب والأدهى هو أنّني حين وجّهت السؤال القاتل لبعض الرفاق: أليس الطيّارون العراقيون هم من قصفوا مدينتكم بالقنابل الكيماوية التي خنقت بعض أقاربكم ومدينتكم بالكامل؟ كانوا يجيبون: والله العظيم، نحن أيضاً لا نفهم السرّ، لكنك لو كنت مكاننا في ذلك الظلام، بينما تنهال موجات التصفيق لكلّ محاولة إلقاء القبض على الطيّار.. لغرقت مثلنا في ذهول التعاطف والدعاء له بالنجاة.
ولم تُصبني كلّ خزعبلاتهم سوى بالمزيد من السخرية الممزوجة بالغضب، فطلبت منهم العودة إلى المقارّ، لكنهم ظلوا يلحّون: «بما أننا جئنا، وقطعنا الطريق، فلندخل السينما لمشاهدة الفيلم الجديد».
تصفيق.. تصفيق.. تصفيق...

وغرقت في اشمئزاز، أعاد عليّ جميع المرات التي غرقتُ فيها، مشمئزاً من موجات التصفيق التي بدأت مع تمزيق الرئيس للاتفاقية، ولم تنتهِ بعد ذلك، والتي يبدو أنّها لن تنتهي أبداً. كان الضابط الإيراني يقود مجموعته التي انقطعت بالكامل عن بقيّة القوات. وارتفعت موجة التصفيق التي تلت مشهد القرار الذي اتخذه الضابط بعد إصابة جنديّه الحامل لجهاز اللاسلكي، الذي أفقدهم حتّى فرصة التواصل مع قاعدتهم، مبرّراً قراره بأن «انتهاء ذخيرتهم، وضياعهم خلف خطوط العدو، لم يترك له سوى اتخاذ القرار بمهاجمة المعسكر العراقي، الذي وصلوا إلى سياجه، وذلك للحصول على المؤن والعتاد والأجهزة اللاسلكية للتواصل مع قاعدتهم، أو الاستشهاد وهم ينفذون ببطولة عمليتهم الأخيرة».

ظلت موجات التصفيق تتوالى، مع كلّ تقدّم كان الضابط الإيراني وجنوده يحرزونه، ومع كلّ مشهد بطولة، كان الفيلم قد عمل على إبرازه بتفنن. وكان ردّ فعلي اللاإرادي المعهود، هو الصمت والغرق في حالة الاشمئزاز من كلّ تصفيق، بينما كان بعض رفاقي قد فقدوا هدوءهم، فأخذوا يتململون في أماكنهم. ثم تمكنت القوّة من الاستيلاء الكامل على المعسكر العراقي، فأصابني الذهول مما سمعت بحالة أقرب إلى الصدمة. أثناء ارتفاع موجة التصفيق المتصاعدة التي صاحبت استيلاء الضابط وجنوده على المعسكر العراقي، اقترب مني حيدر وهو يقول لي هامساً:

آه... من أين آتيهم الآن ببعض الغاز الكيماوي ليبيدهم كلّهم دفعة واحدة؟

لم أفق من ذهولي إلّا على تصفيق حيدر وبعض رفاقي، وعدُت إلى الفيلم، إذ إن القوّة التي احتلت المعسكر قُصفت في موقعها الجديد بالغاز الكيماوي الذي كان يودي بهم مختنقين أفراداً ومجتمعين. إلّا أن أغرب ما حدث كان ضحكة حيدر العالية وهو يعبّر عن فرحته بإبادة القوّة الإيرانية التي احتلت المعسكر العراقي. وكادت تدخلنا في مشكلّة كبيرة مع بعض المشاهدين الذين استهجنوا تصرّف رفاقنا، لولا حنكة ميرزا وتمكنه من إخماد موجة الغضب، وسرعة مغادرتنا المكان والعودة إلى المقرّ بأقصى سرعة ممكنة. إلا أنّني لم أفق حتّى الآن من ذهول ذلك الحادث الذي لم أفهمه أبداً. فقد كان حيدر من أهالي بلدة صغيرة، هدمها الجيش وأحرقها بعد ملحمة التحرير. وقد قتل القصف الكيماوي بواسطة الطائرات العراقية العديد من أهله وأقاربه، ومنهم عائلة عمّه التي كانت تسكن مدينة حلبجة يوم جريمة خنقها برائحة التفّاح القاتلة.

يا إلهي، ما كلّ هذا التمزق الذي يضرب حتّى المناضلين السياسيين، الذين يضحّون بأرواحهم في محاربة نظام يبيد بلدهم وشعبهم وأهاليهم بالسلاح الكيماوي، بينما يحزنون حين يخسر فريقه لكرة القدم، ويفرحون بشدّة لفوزه الذي يحضره في العادة الابن البكر للرئيس. والأغرب من ذلك هو أنّهم يحزنون لاحتلال واحد من معسكراته الكثيرة في فيلم سينمائي، تلك المعسكرات التي استولوا من قبل على العديد منها، والأدهى أنّهم يصفقون لاستخدامه السلاح الكيماوي ضد الجيش الإيراني في ذلك الفيلم. في هذه المقبرة الساكنة، وأنا مستلقٍ على ظهري ولا أعرف كم فات من الليل وكم بقي منه، أرى زينب.. الملكة وهي حاضرة بشحمها ولحمها، يملأ عطرها الممتزج برائحة الدم، المقبرة كلّها.

رأيتها للمرة الأولى وهي تنزل بكلّ مهابة من سيّارتها وتغلق بابها وتتوجّه إلى المكتب الذي كان أبي قد أخذني إليه ذاك اليوم، لزيارة صديقه أبو زينب. كانت مشيتها ملكية، سليلة كليوباترا. صدمني الاسم وهي تسلم علينا ويدعوها أبو زينب باسمها. يا إلهي، حتّى الاسم؟! إذن! لا يمكن أن أكون مخطئاً، والمؤكد أن المسلسل التلفزيوني قد كذب، والكتاب قد يكون ألفه مجموعة من أعداء

الملكة والمتآمرين عليها. نعم إنها زنوبيا. ملكة تدمر... وعشقي الأول. لكن ما كان يميّزها حتّى عن زنوبيا، أنّها كانت أجمل وأكثر مهابة من الشخصية في المسلسل، حتّى إنها فاقت كلّ حدود خيالاتي... رشيقة، فارعة الطول، سمراء.. هي بذاتها، بعينيها السوداوين، وشعرها الأسود الطويل، والمنسدل على كتفيها بجبروت الملكات...

لم أنم ليلتها، حتّى إنني طلبت من أبي أن يكلّم أبو زينب لكي أعمل عنده أيّ شيء، لأعينه على مصاريف البيت... كان أبو زينب من أغنياء بغداد، وله ابنتان، ماتت زوجته ولم يتزوج بعدها، وظلّ يرفض مناداته بواحدة من الكُنى البديلة. فقد درج الناس على مناداة أيّ رجل باسم ابنه الذكر الاكبر، لكنّه أصرّ على مناداته بأبو زينب، إلى أن كاد البعض ينسون اسمه الحقيقي الذي لم أعرفه بدوري. علّم زينب قيادة السيّارة، واشترى لها سيّارة للذهاب إلى الجامعة وزيارة صديقاتها. كان لأبو زينب العديد من محالّ التجارة، لكنه كان يفضّل الجلوس بكثرة، في معمل الحدادة الذي كان يملكه، وكان يردّد باستمرار أنّه بدأ بتكوين ثروته كلّها من هذا المعمل. وكان هذا سرّ تمسّكه بقضاء أكثر وقته هناك، وكانت زينب تزوره كلّ يوم بعد عودتها من الجامعة، فألححت على أن أعمل في الحدادة.

كانت لحظة سعادتي الكبرى، حين قَبِل أبي بفكرتي، لا بل حصل كذلك على موافقة أبو زينب، على أن ألتحق بالعمل يومياً، بعد انتهاء دوامي في المدرسة. ومن فرط فرحتي، لم أعرف تماماً كم كان المبلغ المتفق عليه، ولم يكن يهمّني أصلاً، فأنا كنت قد قبلت في بلاط صاحبة الجلالة زنوبيا. لقد كذبت كلّ كتب التاريخ، وخاب الإمبراطور أورليانوس، فهو لم يتمكن من أسرها أبداً. وها هي تعود لتخرج من التاريخ بشحمها ولحمها، بعطرها المُسكر. فأصبحت أخرج كلّ صباح من البيت إلى المدرسة، أعدّ الدقائق كي أغادرها مباشرة إلى معمل الحدادة، حتّى لا أفوّت فرصة رؤية الملكة وخدمتها، ولا أعود إلى البيت إلّا في المساء، مذهولاً... مُحمّلاً بأجمل الأحلام والخيالات... وكان الغريب هو أنّني كنت أمتلئ بالفرح نتيجة كلّ مجاملة، أو طلب تطلبه منّي الملكة. حتّى عندما كدت أفقد بصري بسبب التركيز على لهيب الآلة التي تلحم الحديد. كان الغريب أن الألم الذي يصل إلى النخاع، يشعرني بنوع من اللذة الأقرب إلى الخدر الكامل.

عاد إليّ البصر وزال الألم، لكنّي شعرت بأن عودة البصر كانت بمثابة أكبر عقوبة تصبّها السماء عليّ. فلم تأت زينب ذلك اليوم كعادتها، وذهب أبو زينب بسيّارته مسرعاً، حتّى إنه لم يجبني حين سألته عمّا حدث. عدت إلى البيت، وكانت الدنيا قد قامت ولم تقعد، وكانت التلفزة مشغولة ببث غير اعتيادي، حول ما حصل ذلك اليوم في الجامعة التي كانت تدرس فيها الملكة. كانت واحدة من أطول ليالي حياتي، إذ لم أغفُ فيها للحظة واحدة. وعلى غير عادتي توجّهت في الصباح الباكر إلى معمل الحدادة بدلاً من مدرستي.

ولم يأت أبو زينب طوال اليوم الذي انتظرته في المعمل. فعشت الجحيم بحق. ثم، في المساء طلع علينا الرئيس الجديد، وهو يزور الجامعة قائلاً: «والله... والله... والله... وبحق كلّ ذرّة في تراب الرافدين، الدماء الطاهرة التي سالت في المستنصرية لن تذهب سدى». وما زلت أذكر أنّه هدّد أسياد من سمّاه «سمير مير علي غلام»، بالثأر لما حصل في الجامعة. حدث الأمر في ذلك اليوم الذي زار فيه رجل الرئيس المقرّب جداً، الذي كان يُقلّد الرئيس حتّى في مسكه للسيجار الكوبي، فألقيت قنبلة.. ثم أخرى، وتلتهما الثالثة. وقيل إنه جرى إطلاق النار، وكما فهمنا في ما بعد من التلفاز وتهديد الرئيس، والإشاعات المتناقضة الكثيرة، أن سمير الذي اتهم بمحاولة اغتيال الرفيق

أبو زياد قد قتل في الحال. وبعد ذلك بأيّام شُيّعت جثامين ضحايا انفجارات الجامعة. وألقيت القنابل على مراسم التشييع من جديد.
من شدّة الرعب الذي سكنني بسبب غياب زينب وأبيها، لم أعد أفهم ما الذي يدور حولي، إلى أن جاء بعض معارفنا للاختباء في بيتنا هرباً من السلطات التي كانت تبحث عنهم في كلّ مكان. فسمعت أمي تدعو على الرئيس، وهي تقول لهم: «إنها تتذكّر أن هذه ليست الحملة الأولى لطردهم، بل هي الثانية»، ثم تهوّن عليهم قائلة: إن الله قادر على أن يحرقه، كما أحرق من قبل طائرة الرئيس عارف قبل سنوات وهو يهدّد بالويل بعد عودته من رحلته.. وسمعتها تذكر اسمي، ارتباطاً بما حدث قبل عدة سنوات من ذلك. فتذكرتُ أم جاني التي عوّضت عليّ غياب جدّتي وبعدها عني.
كانت أمّ جاني تفوح برائحة جدّتي تماماً، وكانت كلّ صباح تسلّم أمّي حصّتي من الحليب، وكانت تأتي أحياناً وتبكي غياب ابنها الوحيد وتشكوه لأمّي التي كانت تغرق معها في نحيب غريب فأغرق نفسي في صدر أمّ جاني وعطر جدّتي الذي كان يفوح منها بقوّة. ثمّ على غفلة، سمعت أمّي وهي تفاتح أبي في طريقة ومكان لإخفاء أمّ جاني عن الأنظار حتّى لا يشملها «التسفير»، حينها لم أكن أفهم معنى الكلمة، لكنّها أصبحت مرتبطة بغياب حنان أمّ جاني وجدّتي معاً.
بعد فترة من ذلك، وجدتُ أمّي تنتحب غياب أمّ جاني، فسألتها وأنا مسكون بالرعب، أجابتني بأنّها هي وجاني قد جرى تسفيرهما إلى إيران، وأنّهما لن يعودا أبداً. وحين سألتها عمّا يعني ذلك ولماذا تعرّضا له؟ أجابتني وهي تحضنني بقوّة بكلمات لم أفهم منها شيئاً. وظلّ سرّ غياب أمّ جاني وولدها مستعصياً على فهمي سنوات عدّة، إلى أن علمت بعد حادثة الجامعة أنّ السلطات قد سفّرت أمّ جاني وولدها إلى إيران ضمن حملة طالت الآلاف من الكُرد الفيليين، بدعوى أنّهم ليسوا عراقيّين وأنّهم من أصول إيرانيّة.
في ذلك الصباح الذي ذهبت فيه إلى المعمل، ورأيت الكثير من الغرباء الذين يطردون العمّال، سألت الأسطى جلال وأنا مرعوب من هول ما أرى، عمّا يجري... فطلب منّي أن أبتعد بسرعة، فهم يلقون القبض على كلّ من له علاقة بأبو زينب، وأنّ الحكومة قد استولت على كلّ أموال أبو زينب وأملاكه. وعلينا عدم العودة مرّة أخرى إلى المعمل الذي أصبح ملكاً للحكومة.. فسألت مساء نفس اليوم أبي، عن كلّ ما يحدث، وعن مصير أبو زينب وابنته. وأدخلتني إجابته في حالة مرضيّة غريبة أقعدتني طريح الفراش، لا أستطيع سوى البكاء.
كانت الحكومة كما أخبرني أبي ذلك المساء، قد استدعت كلّ التجّار الكرد الفيلية إلى اجتماع في قاعة بالعاصمة. لكن بدل الاجتماع، كانت تنتظرهم عشرات الباصات التي حملتهم قسراً إلى الحدود الإيرانيّة حيث رمتهم السلطات. وصدرت قرارات حكوميّة بالاستيلاء على ما سمعته للمرّة الأولى في حياتي «جميع أموالهم المنقولة وغير المنقولة»، لكنّها لم تكن المرّة الأخيرة التي أسمع فيها تلك العبارة التي ظلّت تتكرّر في ما بعد بين فترة وأخرى. لكنّ الضربة القاضية جاءت حين سألته عن زينب، فأخبرني بأنّه أُلقي القبض عليها، ويُقال إنّهم قد أعدموها ضمن مجموعات كبيرة منهم جميع أفراد أسرة سمير، فتطوّرت حالتي التي أُصبت بها ذلك الصباح إلى مرض غريب، لم يفهم طبيعته العديد من الأطبّاء الذين كان أبي وأمّي يأخذانني إليهم قسراً.. وذلك بعد انتهاء الزيارات القسريّة التي اصطحبوني فيها إلى شيوخ ومقامات ومزارات أولياء بغرض الدعاء لي بالشفاء. ووصلتُ إلى اللحظة التي رأيت فيها اليأس من نجاتي من براثن الموت على وجه أبي

لكن بصمته المعتاد، ذلك الصمت الذي فشلت أمّي في التمسّك بأهدابه، فانفجرت تصيح في أبي: إنّه يضيع منّا، إنّه يحتضر.
بينما أمتلئ الآن غضباً بجانب قبر آتيلا، ويملأني في نفس الوقت مزيج غريب غير مفهوم من روائح أمّ جاني وجدّتي وزينب ودماء كلّ رفاقي والأعداء الذين قضوا على أيدينا في كلّ تلك المعارك اللا نهائيّة، أتذكّر آتيلا وهو يسألني عن مصير زينب، حين كنت أروي له كلّ ذلك بعد عدّة سنوات، وأنا أخبره بأنّ تلك الحملة قد أدّت إلى قتل وتسفير وإعدام أكثر من نصف مليون من الكرد الفيلية، فأجبته وأنا أفشل في منع دموعي من النزول: لقد أسرها أورليانوس، ولم تعد أبداً.. لقد خابت كلّ خيالاتي، وتحقّقت الكارثة كما حدثت في الكتاب والمسلسل التلفزيوني يا صديقي.
– لم يكن الفاعل هو أورليانوس هذه المرّة يا صديقي العزيز، بل كان هولاكو.. هولاكو بشحمه ولحمه، ألم ترَ ما فعله بنا جيش المغول الذي دمّر بلادنا؟ أجابني آتيلا وهو يحضنني بقدر كبير من الحبّ.
وحين انتزعتُ نفسي عن صدره، وأنا أنظر إليه مذهولاً، نظر إليّ بطريقة تملأها ثقة غريبة بدقّة ما يقول، واستدرك: لا تستغرب يا صديقي، إنّه هولاكو قائد جيوش المغول، الذي أسر فاطمة وأحرق بلادنا بالكامل.. وسترى كيف سيدمّر كلّ شيء، حتّى بغداد نفسها، بغدادك أنت وزينب وأمّ جاني، وحتّى بغداد آوات كردستاني، لن تسلم منه ومن بطشه.. فبغداد قد كُتب عليها أن لا ترتاح وتستقرّ أبداً.
فتحوّل ذهولي إلى رعب شديد. فقد بدت نبرته وهو ينطق عبارته الأخيرة، الأقرب إلى النبوءة المؤكّدة منها إلى مجرّد عبارة عاديّة يطلقها صديق، يدردش في لحظة بوح مليئة بالغضب واليأس مع صديقه.. تذكّرتُ مع عبارته الأخيرة، تلك الحادثة التاريخيّة التي تقول «إنّ الخليفة أبو جعفر المنصور، حين قرّر بناء عاصمته الجديدة، أمر بحفر خندق كبير وملأه بالحطب.. ثم أمر بإضرام النار في الحطب في إحدى الأماسي، بينما الشمس توشك على الغروب، ووقف هو على تلّة مرتفعة لكي يرى بوضوح ملامح عاصمته الموعودة وحدودها». تقول الحكاية إنّه «منذ تلك اللحظة، قُدّر لبغداد، التي تأسّست على لهيب تلك النار التي شكّلت ملامحها في ذلك الغروب الفاصل، أن تظل مشتعلة بالحرائق إلى الأبد».
قفزت من مكاني مذهولاً وأنا ممتلئ حتّى النهاية بذلك الحوار الغريب الذي حدث قبل أكثر من سنتين. ثم ركعتُ بجانب قبره، وبدأتُ أضرب بكفّي كطفل غاضب على المنطقة من القبر التي أحسستها محلّ صدر آتيلا، وأنا أنتحب بصوت عالٍ: قل لي ما الذي سيفعله بنا هولاكو أكثر ممّا فعله حتّى الآن؟ فبعد أن تحقّق هذا الجزء من نبوءتك، أرجوك أخبرني ما الذي يخبّئه لنا هولاكو والمغول؟
عندما رآني آتيلا ليلتها أنظر إليه بكلّ ذلك الكمّ من الذهول المرعوب حين أنذرني بدمار بغداد مُجدّداً على أيدي هولاكو والمغول، نظر إليّ ببرود وقال بنبرة واثقة: ما بك يا صديقي؟ لا تستغرب كثيراً ممّا سمعت، فحتّى أنا سأقضي على أيدي المغول الذين دمّروا بلدنا... هل نسيت أنّ المغول هم الذين قتلوا العطّار قبل مئات السنين؟ إنّ التاريخ يعيد نفسه بعبث مريب.. ألم تقتنع بأنّ وقوع زنوبيا في الأسر وموتها هناك، مجرّد شائعات مغرضة صادرة عن أعداء الملكة؟ ثمّ ماذا كانت النتيجة؟ ألَم يكن كلّ ما حدث في ما بعد مع زينب ومصيرها مطابقاً تماماً لما وقع من قبل؟! وللتأكيد فقط.. يجب أن أضيف أيضاً أنّ التاريخ يعيد نفس الكوارث، لكن بصورة أشدّ قساوةً

وعبثيّة! بقيت الفصول الأخرى التي ستتحقّق. سيدمّر هولاكو حتّى بغداد. نعم، وكما أخبرتك، فإنّني سأقضي بالتأكيد على أيدي المغول. إنّه حكم التاريخ المُقدّر الذي لا مهرب منه، يا صديقي...

45

«ما أعظم عشق المُحال».
فريد الدين العطّار

مع دخولي المدينة في تلك الساعة المتأخّرة من الليل، لم أشعر للحظة واحدة بأنّني على وشك ولوج مدينة للمرّة الأولى في حياتي. ومع أنّ قلبي بدأ يخفق بقوّة وكأنّ شيئاً يشدّني بقوّة إلى ما لا أعرف كنهه، هلّت عليّ سكينة غريبة بطريقة فُجائيّة، وكأنّني أدخل غرفتي في بيتنا القديم، أو كأنّني أدخل بيتي الطينيّ المقابل لبيت الشيخ وتكيّته. ثمّ دهمني إحساس وكأنّني متوجّه إلى التكيّة وسألتقي بالشيخ كاكه حمه الذي ينتظرني هناك. كان إحساساً في غاية الغرابة، مليئاً بالألفة والسكينة.. ها أنا ذا، أدخل لأوّل مرّة في حياتي «باب الشرق».. يملأني إحساس العائد إلى بيته بعد رحلة طويلة مضنية.

وأخيراً، ها أنا أقف بين يديك، بعد كلّ تلك الأيّام والليالي، وبعد كلّ تلك المشقّات. أوصلني حبّ فاطمة الذي فجّر فيّ كلّ من قابلتهم حبّاً فيّاضاً، سهّل عليّ القفز على كلّ العوائق الكبيرة التي كانت تمنعني من المثول بين يديك. ها أنا ذا واقف أمام ضريحك المهيب الذي تُغطّيه القبّة في غرفة صغيرة عالية السقف مفتوحة على الجانبين. ها أنا ذا روحك الهائمة، تعود وكأنّني أحمل رأسك الذي طفتُ به الأرض لكي أصل به إلى مكانه، فلا تحسبنّ أنّك أنت من حملت رأسك الذي ضربه ذلك المغوليّ الأحمق في ذلك الحيّ من المدينة المُسمّى «شادي آخ»، والذي حمل ذلك الاسم العجيب المتفجّر بالتناقض. ذلك الحيّ من المدينة الذي كان محلّاً للأنس والتفريح، والذي شهد ضرب عنقك من قبل ذلك المغوليّ الأحمق المليء بالغضب نتيجة عدم بيعك بألف دينار ذهبيّ لأنّك كنت قد أخبرته بأنّك تساوي أكثر من ذلك بكثير، فعُرض عليه بعد ذلك كيس من التبن، فأقررت له بأنّ هذا ثمنك الحقيقيّ وبأنّك لا تساوي أكثر منه، فدقّ عنقك غاضباً، وبقيت تحمل الرأس إلى أن وصلت إلى هذه البقعة التي استقرّ فيها جسدك منذ مئات السنين.

لماذا حسبتُ أنّك أنت من جاء بذلك الرأس إلى حيث هذا الضريح؟ نعم، لا تستغرب، إنّه أنا الذي مُذ فتحتُ عينيّ وأنا محكوم بحمل هذا الرأس المثقل بالهموم، والطائر كالفراشة بالعشق الخالص، والتوّاق للوصول إلى جبل القاف، للمثول في حضرة العنقاء «السيمرغ». ها أنا ذا أعود برأسنا الذي ينتظر دكّه مرّة أخرى من قبل المغول الجدد. لكنّني لا أعرف أين ومتى سيُدّك هذه المرّة؟ يا أيّها العطّار انهض، ألَستَ تدوّن لنا كلّ حكايات الهدهد؟ ألا تحمل الدواء لكلّ داء يا أيّها الطبيب المداوي؟ انهض أرجوك، وداوني، أو قم وخبّرني كيف سيكون مصيري، وهل سأكفر بكلّ شيء، كما فعل الشيخ صنعان من أجل العشق قبلي؟ أم إنّ حكايتي المعكوسة والمناقضة له تماماً، ستنتهي بنهاية معكوسة له أيضاً؟ فكان سير حكاية الشيخ صنعان، كما تُخبرنا أنت وعلى لسان الهدهد، من الإيمان إلى الكفر وشرب الخمر وحرق المصحف ورعي الخنازير، من أجل الحبيبة، ثمّ الشفاعة، ورمي الزنّار وارتداء الخرقة من جديد والعودة إلى الصراط المستقيم. بينما أقف أنا بالضدّ من ذلك الشيخ المحظوظ، إذ بدأت بالمعصية وشرب الخمر والإدمان لتأتي الحبيبة، عكس الفتاة النصرانيّة، لتدلّني إلى الإيمان والتوبة الخالصة المستمرّة حتّى الآن. أخبرني يا سيّد الكرامات، ما الذي ينتظرني؟ فهل سأعود إلى أصل المعصية من حيث بدأت؟ قل لي أتوسّل إليك... ما الذي ينتظرني وينتظر حبيبة الروح فاطمة؟

ألم تكن أنت من تنبّأ لمولانا جلال الدين الرومي، وهو لا يزال فتى في الرابعة عشرة من عمره، بأنّه سيُشعل نار العشق في العالم كلّه؟ أخبرني إذن، ما الذي يخبّئه لي القدر؟ وهل ستستمرّ حكايتي معاكسة لحكاية ذلك الشيخ المحظوظ الذي جاء الحبيب المصطفى، بذاته الكريمة، لكي يشفع له في رؤيا أحد مريديه، فأعود أنا إلى المعصية كما عاد هو إلى الإيمان؟ أم تحدث معجزة وتقلب كلّ شيء؟ خبّرني بالله عليك، هل ستكافئني السماء في النهاية كما كافأته، فأرسلت الشمس التي سقطت في رؤيا الفتاة النصرانيّة بجانبها، فتبعت الشيخ لتعلن توبتها ودخولها الدين الحنيف على يد الشيخ وفي حضنه؟ فهل سيحظى حضني في النهاية بلقيا فاطمة، أم تختلط الحكايتان وتتعقّدان أكثر فأكثر؟

يا إلهي...

يا من تهدي من تشاء، وأنا أجلس الآن راكعاً على سجّادة عبادتك وتلوح لي كأس العرق المرهقة وهي على وشك أن ترتدّ تمراً مرّة أخرى، تملأني كلّ التساؤلات التي يبدو حتّى أنّك أنت سبحانك تعجز عن إجابتها... هل تكون عاقبة الكفر من قبل الشيخ صنعان هي المكافأة بالوصل، بينما تكون عاقبة التوبة منّي أنا عقوبة الفراق القاتل والموت الجماعي للبشر والزرع وحتّى الأرض؟! يا أرحم الراحمين، لِمَ أغلقت باب رحمتك أمام فاطمة؟ يا من فتحتها على وسعها لتلك الفتاة النصرانيّة التي أغوت الشيخ صنعان وجعلته يسكر فيحرق كتابك العزيز، ثم يرعى الخنازير فكافأتها بالإيمان في حضن الحبيب. ماذا جنت فاطمة، تلك الملاك التي لم ترتكب في كلّ حياتها معصيةً واحدة؟ فهل كانت هدايتها إيّاي إلى طريقك القويم والتزامي عبادتك، عاشقاً مخلصاً، إثماً تُعاقَب عليه بالفراق والنفي إلى تلك الصحراء القاتلة؟ إنّني أعجز عن فهم حكمتك التي لا أرى فيها حكمةً البتّة...

فإن كانت مكافأتك للشيخ صنعان ولفتاته النصرانيّة تلك، بالرغم من كلّ معاصيهما، نتيجة عشق خالص جمعهما، فماذا كان ينقص عشقي أنا وفاطمة؟ فاطمة التي على العكس من فتاة الشيخ التي أغوته وأبعدته عن الإيمان، أبعدتني بنظرة واحدة عن كلّ المعاصي دفعةً واحدة وملأتني إيماناً وعشقاً إلى أن تحوّلت إلى نار هادئة من العشق الذي يضيء كلّ ثنايا الروح. وإن كان مقدّراً لكلٍّ منّا أن يتوب إلى سابق عهده، فكما أنّ الشيخ تاب وتخلّى عن الزنّار وارتدى الخرقة من جديد، وعاد إلى رشده وعبادته ومريديه، فقد يكون الأوان آن لكي أتوب أنا أيضاً وأعود إلى رشدي وكأسي وآثامي. فيا أيّتها الكأس الساكنة الصابرة الوفيّة، يا من انتظرتِني بصبر امرأة سيّدنا أيّوب، ها أنا ذا أقف متحرّراً من كلّ القيود، ولا قيد يشدّني بعد الآن سوى سحرك وعبقك وغيبوبتك اللذيذة التي تهبينها من الشهقة الأولى.. تعالي، واغفري جحودي، واغفري كفري بك، فقد حانت لحظة الحقيقة. حانت لحظة التوبة التي ستعيدني إلى حضنك كما أعادت الشيخ صنعان إلى عبادته وصلاته، تعالي.. ودعيني أنَمْ في حضنك الذي يسع السماوات والأرض في وسعه ورحابته.

كانت زيارتي الأولى لضريح الشيخ فريد الدين العطّار في مدينة نيسابور أو باب الشرق، أشبه بعودة الغائب. ثم بعدها أينما حللت في تلك المدينة، لم أشعر بالغربة أو الذهول من أيّ شيء، بل على العكس تماماً، كان يملأني إحساس بأنّني كنت هناك قبل ساعات معدودات. إلّا ذلك الضريح البسيط تحت الهيكل الغريب الذي كان يعتليه كشاهد غريب يخرق السماء، فقد ظلّ محطّ ذهولي إلى درجة أكاد أجزم فيها بأنّه الشاهد الوحيد الفريد من نوعه بين كلّ شواهد قبور العالم. ولم يذهب ذهولي الذي اعتراني وأنا أزوره مساء ذلك اليوم بعد زيارتي الأولى لضريح العطّار الذي

أحسسته كبيتي تماماً منذ ولوجه للحظة الأولى. كان ضريح الشاعر العظيم عمر الخيّام البسيط الذي يعتليه ذلك الهيكل الأشبه بسفينة فضاء تجري من تحتها سبع عيون من الماء، تشير إلى تدفّق الخمر من جذور الضريح، شاهداً في الوقت ذاته على ذلك العصر الذي أمتلئ به الآن، حين كانت هذه المدينة تُسمّى باب الشرق، وتشكّل العاصمة الشهيرة المزدهرة لكلّ إقليم خراسان.
في اليوم التالي الذي سبق اليوم الذي كان من المقرّر أن أغادر فيه المدينة عائداً إلى رفاقي في المقرّ، أصرّ والد الضابط همايون الذي جاء بي من العاصمة، على أن نزور معاً «قدمكاه»، حيث يُقال إنّ الإمام الرضا وضع قدمه فتفجّر الماء ينبوعاً من تحت قدميه ولم يتوقّف حتّى الآن. كان في غاية الازدحام.. يا إلهي! ما كلّ هذا الجمع من الناس الذين لا تسعهم ساحات المرقد الكبير في مساحة محوطته الشاسعة التي تنتهي بالجدار القديم في الخلف، لا يميّزه شيء سوى ذلك الباب الخشبيّ القديم الذي يبدو كأنّه أغلق منذ أن وطئت قدم الإمام الرضا هذه البقعة المتفجّرة بخرير الماء القويّ الذي يسيطر على ما عداه من أصوات أخرى.
على امتداد الشارع الذي يصعد شيئاً فشيئاً نحو بوّابة المقام، ينقسم الجانبان إلى ما يشبه الغرف المقوّسة ذات الجدران الثلاثة والمفتوحة تماماً من الأمام، تملأه عوائل قيل إنّهم زوّار الإمام. مع دخول المحوطة التي ترتفع بخطوات قليلة على الخان الذي يُقال إنّه كان للشاه عبّاس الصفوي، والذي حُوّل إلى خان يستقبل الزوّار إلى الآن، يشدّ المنظر انتباهك إلى المركز الذي ينزل منه الماء رقراقاً. الماء الذي يهبط بسرعة من خلال المصبّ الذي يتوسّط المسافة ما بين الجدارين المتباعدين، بحيث يؤدّي سلّم إلى الصعود على كلّ جانب من الجدارين إلى الطابق التالي الذي يتوسّطه الباب الكبير المُذهَّب، الذي ما إن تلجه حتّى يؤدّي بك إلى ذلك البناء المهيب الذي يقع خلف حوض الماء الذي تأتيه المياه من جانبيه، وما إن تصل، حتّى تواجهك لافتة ككلّ دور العبادة والمراقد والأضرحة في هذا البلد وقد كُتب عليها، باب الرجال، الذي يدلّ بوضوح على أن باب النساء يقع في الجانب الآخر. ففي هذا البلد يُمنع اختلاط النساء بالرجال حتّى أثناء العبادة والزيارة وتقديم النذور والوفاء بها.
توضّأتُ هناك، وصلّيتُ وغبت في دعوات طويلة، أدعو الله أن يفجّر الماء تحت قدم فاطمة لكي يقيها من العطش، ويمنح من معها الحياة من جديد. ثم أخذتُ كباقي الزوّار أملأ قنّينة من الماء محتفظاً بها إلى أن عُدنا في المساء إلى المدينة، فقدّمتها لأمّ الضابط همايون الذي كنت أسكن عندهم، فاحتضنتني بقوّة ونزلت دموعها وهي تدعو لي ولفاطمة بحرقة شديدة. ثمّ دعتنا للانضمام إلى المائدة التي أعدّتها للعشاء. انطلقنا بعد العشاء مباشرة إلى حيث قيل لي إنّ هناك حفلة يقيمها بعض فنّاني المدينة بحضور وجهائها. وقيل إنّها حفلة فريدة، إذ إنّ هناك فنّانين مشهورين قدِموا من العاصمة البعيدة زوّاراً، وإنّهم بمناسبة وجودهم يقيمون تلك الحفلة في بيت أحد أعيان المدينة.
كانت تلك الحفلة بحقّ هي الحدّ الفاصل بين كلّ ما مرّ بي حتّى ذلك الحين، وبين كلّ ما أتى بعد ذلك. وهو الذي وفّر لي الفرصة والذريعة للبقاء قريباً من ذلك الضريح الذي كان يمنحني سكينةً لم أشهدها من قبل، حتّى في بيتنا القديم، أو حتّى بيتي الطيني المقابل لمعبد فاطمة. طالت الحفلة العجائبيّة إلى ما بعد منتصف الليل. كان كلّ من يعزف متمكّناً من فنّه إلى درجة الإتقان التي كان يندمج فيها بحيث كان من الصعب التصوّر أن هذه الآلة لم تكن من البداية جزءاً من جسده، وهو يسبح هكذا وكأنّه في عالم آخر من الغيبوبة. تخللت الحفل أغانٍ من كلّ اللغات، إلّا العربية، التي أصرّ عليّ الضابط همايون، أن أشاركهم ليلتهم ببعض الوصل من الأغاني العربية والكُردية. فكان

الصمت هو سيد الجوّ كلّه، إلى أن أنهيت دوري في الغناء باللغتين العربية والكُردية، والذي فتح على حين غرّة همهمة غريبة، فقام الحاج مسعودي، والد الضابط همايون من موقعه مخاطباً الجمع، في كلمات عرّفني بها، وسرد عليهم قصتي وهو مغرق في نوبة حزن أدّت به إلى البكاء، فكان أن تفجّر الجميع في بكاء غريب.
حيّوني باللغة الكُردية وهم يحتضونني بقوّة وصميمية، وأكدوا أن عليّ تلبية دعوتهم في اليوم التالي، حيث يجب أن أنزل ضيفاً عليهم، فلا يُعقل أن يكونوا هم من أهالي المنطقة وأسكن عند غيرهم. كان من الصعب أن أخفي دهشتي وذهولي الشديدين نتيجة الصدمة. تُرى ماذا يفعل هؤلاء القوم هنا؟ وكيف هم، من أهالي المنطقة وسكنتها؟ هذه المنطقة بعيدة جداً عن كردستان، فما الذي جاء بهؤلاء الكُرد إليها؟ حسبتهم لوهلة ضيوفاً، لكنني عدت وتذكّرت تأكيدهم لي بأنّهم من أهالي المنطقة، وأن عليّ أن أنزل ضيفاً عليهم هم تحديداً، وذلك لأنّني من بني جلدتهم. شكرتهم على كرمهم وعواطفهم المتفجرة، وأكدت لهم أنّني لا أستطيع أن ألبّي أيّ دعوة، إلّا بعد إعلام الضابط همايون وأهله ونيل موافقتهم.
لم يتركوا لحظة سدى، وتوجّهوا للحاج مسعودي، واستأذنوه ووجّهوا له هو وكلّ الحاضرين، الدعوة إلى مأدبة غداء في اليوم التالي. كما استأذنوه هو وابنه الضابط همايون، بأن أرافقهم للبقاء عندهم، فرفض بشدة معتبراً ذلك تجاوزاً، مما استدعى تدخلي الفوري، وتأكيدي أنّني أشعر في بيت الحاج مسعودي كأنّني في بيتنا تماماً، وأن ولده الضابط همايون، كأخي بالضبط. فتم الاتفاق على مأدبة الغداء الخرافية، التي حضرها الجميع في اليوم التالي، وكنت الضيف الذي كان الجميع يجلسون في حضوره باحترام شديد. يوجّهون الأسئلة عن قصة عشقي أنا وفاطمة، وكان تركيز البعض بمن فيهم الكُرد، على الأهوال التي لحقت ببلدي وبالآلاف الذين ساقهم الجيش إلى المجهول.
هناك، في تلك الليلة العجائبية التي غيّرت كلّ شيء، علمت بأن هذه المدينة يسكنها الجميع، الفرس والآذريون والكُرد. وكما أخبرني شاعر المدينة الذي جاء ليجلس بجانبي، فإنه في ما مضى كانت مدينتهم على مرّ تاريخها مدينة لتعايش الأديان والأمم، حتّى إن أحد شوارعها لا يزال يحمل اسم السيد المسيح، وأنّ هناك في الجبال البعيدة التي تتبختر من بعيد، معابد للديانة الزرادشتية، وأنّها قد دُمّرت ولم يبق منها سوى الأثر. كانت المدينة في ما مضى مدينة عالمية وملتقى لكلّ الاختلافات التي لم يبق منها إلّا بعض الأثر. حين عبّرتُ له عن إعجابي وذهولي من براعة العازفين والمطربين، أكد لي أن كلّ من شاهدتهم الليلة، بمن فيهم الضيوف المشهورون هم بالأصل من أهل المدينة، وأن كلّ الآلات التي رأيتها من سنتور ودفوف وكلّ أنواع آلات الطنبور والتار هي صناعة محلية، أُنتجت على أيدي أهالي المدينة التي اشتهرت منذ القدم بهذه الصناعة، التي كما أخبرني بدأت وترسّخت على أيدي الصُنّاع الزرادشتيين الذين لم يبق منهم من الموالين لتلك الديانة أحد، على الأقل، علناً.
كان ذلك الشاب هو مازيار الذي علمتُ أنّه يُسمّى شاعر نيسابور، وأنّ الأهالي يفتخرون به كبقية الأشخاص المشهورين من المدينة، هو الابن البكر لصاحب الدار الكبيرة التي أقيمت فيها الحفلة. فتشجّعت وفاتحته بنيّتي ورغبتي الشديدة في البقاء لمدة أطول في المدينة، والعمل في صناعة تلك الآلات، وكذلك تعلم العزف عليها. هكذا، فجأة! نزلت عليّ هذه الرغبة العجيبة وتملكتني إلى درجة فقدت فيها كلّ مقاومة، بحيث كنت على استعداد لتقبل كلّ نتائجها، مهما كانت عصيبة

ومؤلمة، وحين شاهد مازيار، احتراقي الشديد، وعدني بأنّه سيعرض الأمر على الكلّائي مجيديان، أشهر نجّاري المدينة وأكثرهم حرفية وإتقاناً، في صنع آلات الطنبور والتار، وأنّه هو وأولاده يظلّون أكثر الصنّاع احترافاً، وأكثر العازفين مهارة في المدينة. ثمّ تركني لبرهة، وعاد بعدها يبشرني بأنّه قد وافق على طلبي، وبأنّني أستطيع أن أتسلّم عملي معه، بعد انتهاء الولائم، التي أخذ العديد من الأعيان يعرضون إعدادها بمناسبة وجودي في المدينة معهم. وحين سألته عن معنى اسم الكلّائي ومن أيّ لغة هي، أخبرني وقد ملأت وجهه الرهبة «أن السيد مجيديان رجل مبارك، إذ توفرت له فرصة الحج إلى مقام سيدنا الحسين عليه السلام بمدينة كربلاء المقدسة، ومنها علمتُ أنّهم يطلقون لقب الكلّائي على كلّ من يتشرف بزيارة مقام الحسين، كما يُكنّى من يحظى بحج البيت الحرام، بالحاج.

في وليمة المجموعة الكردية التي كانت في قرية قريبة من المدينة وفي أجواء قروية، احتلتني منذ اللحظة الأولى وملأتني إلى أبعد مدى بعبق قريتي البعيدة حيث كان كلّ شيء ممتلئاً بالحياة التي انتُزعت بمنتهى القسوة في لمح البصر. امتلأتُ برائحة الخبز الآتية من التنّور القريب، فملأني بعبق يدي فاطمة الكريمتين وهي تعدّ الخبز. أحسستُ بجسدي كلّه يشتعل، وأنا أشمّ رائحة الخيل والمواشي وهي تختلط بعضها ببعض، فتنتج رائحة فريدة يصعب تسميتها. يا إلهي، تُرى أين أصبحت خيل ومواشي تلك القرى البعيدة التي سُوّيت بالأرض، تحت راية سورة من كتابك العزيز وباسم آية من آياته؟

أين فرس الشيخ، الخليّة السوداء، التي قمت بعلاجها، وأصبحت هي المدخل لمصارحة فاطمة، وبداية العلاقة الطاهرة مع تلك الملاك، التي أجزم بأنك لو اخترت أطهرهنّ، لما تردّدت لحظة في اختيارها هي؟ وأين الحصان الخليّ الأبيض القوي، أين هو البرق الذي لم يسمح الحاج عزيز حتّى لأبنائه بامتطائه، بينما منحني إيّاه لأعود في ذلك الجوّ الماطر المليء بالسيول القاتلة إلى معبد فاطمة؟ تُرى أين هو البرق؟ ولماذا لا يأتي ويأخذني مرّة أخرى إلى أبعد السماوات، وينقذني من ويلات السيول ويوصلني إلى حيث عتبة الباب التي وطئتها فاطمة، لأجثم عليها وأصلي صلاتي الأخيرة؟

ها أنا أمتلئ من جديد، بنار تحرقني حتّى النخاع، شوقاً إلى لمس كلّ تلك الحيوانات التي عالجتها يوماً ما، تلك الأرواح التي كانت تسكن آلامها على وقع قلبي الممتلئ حباً بها، قبل أن تشفى من أثر الأدوية التي كنت أحقنها بها. تلك الأجساد التي كنت أتألم مع كلّ إبرة كنت أحقنها بها، فأعتذر إليها من كلّ دواخلي، مبرّراً ذلك بأن الحبّ الذي لا يُصاحبه الألم ليس حبّاً، وبأنّه تجسيد لقناعتي الراسخة بأن ما يؤدّي إلى شفائها ليس الدواء وحده، بل هو ولهي بها عشقاً، وهي تتفجر بالحياة. تُرى أين ذهبت كلّ تلك الأرواح البريئة المعطاء، التي كانت لا تعرف الأخذ، مكتفية بالعطاء في أبهى صوره؟

هناك حاولت الحصول على جواب السؤال الذي ظلّ يؤرّقني طيلة الليلة السابقة، عن سبب وجود كلّ هؤلاء الناس من بني جلدتي في هذه المنطقة البعيدة جداً عن أرضهم وبلدهم الأصلي. لكنني لم أحصل على جواب واحد، بل على عدّة أجوبة. فمنهم من قال: «إن أجدادنا قد انتقلوا إلى هذه المناطق منذ أيّام الإمبراطورية الميدية»، أي ما يعني وجودهم هنا منذ ما يقارب الألفين وسبعمئة عام. ومنهم من قال: «إننا هنا منذ أيّام المملكة الساسانية». ومنهم من أكد أنّهم أصل الزرادشتيين الذين كانوا يشكّلون يوماً ما غالبية سكّان المنطقة. ومنهم من أثبت أنّهم قد وصلوا إلى هذه المناطق

مع بدايات العهد الصفوي. كلّ الحكايات كانت تؤكد أن سبب انتقالهم هو الحرب، وأن كونهم مقاتلين شديدي البأس هو الذي أوصلهم إلى هذه المناطق لأسباب تتعلق بدورهم في الحروب. وكان كلّ منهم يسوق الإثباتات، ويذكر شخصيات كُردية تاريخية مشهورة، كان لها الدور المشهود له في زمانه، وأن اسماءهم قد خُلدت بسبب أدوارهم تلك.
مع كلّ تلك الروايات ظلّ قولي خان، الذي كان زعيم إحدى أكبر العشائر الكُردية المنتشرة في عموم خراسان، يصرّ على أنّهم حملة الديانة الزرادشتية، وأنّهم رافقوا النبي زرادشت في رحلته إلى هذه البلاد، التي استقبلته واستقبلت دينه الجديد بشوق ورحابة صدر، بعد أن كان زرادشت قد طُرد من أهله ومنطقته، متهماً بالكفر بآلهة قومه... كان قولي خان رجلاً في أواسط العمر يهتم بكلّ صغيرة وكبيرة في ما يخص مظهره، وكان هو صاحب الوليمة الخرافية التي جمعت على شرفي، الكثير من أعيان المدينة ومحيطها.
في نهاية الوليمة، وبينما الرجال يتبارون للفوز بإقامة الوليمة التالية، شرحت لهم إحساسي بأنّني وجدت في كلّ منهم أهلي، وأنّني شعرت من الوهلة الأولى لدخولي المدينة، بأنّني عشت فيها مئات السنين، لذا فإن رغبتي هي أن أبدأ العمل إذا سمح لي الكلّائي مجيديان فوراً؟ وأنّني أرغب في سكن متواضع، يكون قريباً إلى مكان عملي. أمّا مسألة الولائم فهي في العادة تقام للغرباء، لا لأبناء البلدة. وفي المقابل وعدتهم بأن أعتبر كلّ بيت من بيوت المدينة وقراها، بيتي، والكلّ أهلي، أدخل عليهم وقت الوجبة لأشاركهم إيّاها. بعد بعض الهمهمة والتردّد، قبل الجميع بالفكرة، وأعلن الكلّائي مجيديان أن عليّ الالتحاق بعملي صباح اليوم التالي، وأنّني يجب أن أرافق ابنه البكر فريدون، لكي يقوم بكلّ ما يلزم.
اكتملت فرحتي الغامرة التي لم تدم كعادتها أكثر من أربعة أشهر فقط، بوصول الضابط آذر بصحبة كلّ من أمّه وأبيه. وامتلأتُ غبطة، بزيارتهم لي في بيتي الطيني الصغير، الذي استأجرته بعد إلحاح مني على أن يكون لي سكني الخاص، ما حدا بالكلّائي مجيديان إلى القبول بأن يكون قريباً من بيته الذي كان قد حوّل جزءاً منفصلاً منه، إلى مصنعه الذي كان هو وأبناؤه يصنعون فيه آلات الطنبور والدفوف والتار بأنواعها وأحجامها المختلفة، بعد أن تركوا إلى غير رجعة مهنة النجارة، لمصلحة سحر خلق الآلات الموسيقية. كان لقاؤنا وأنا أفتح لهم الباب الخشبي الصغير، مليئاً بالدموع التي اختلطت بصدمتي التي كادت توقعني من شدّة الفرح.
كانوا قد جاؤوا لزيارة الإمام في مدينة مشهد غير البعيدة من نيسابور كما أخبروني، فقرّروا أن يأتوا لزيارتي بعد إتمام زيارتهم لمزار قدمكاه، الذي لا يبعد كثيراً عن نيسابور. في اليوم التالي طلب مني آذر زيارة ضريح العطّار معاً، فذهبنا بعد أن ترك والديه في بيت الحاج مسعودي. وهناك، كلّما حاولت منع دموعي الممتنّة من السقوط، زادت هي في النزول في منتهى التدفق، فاحتضنني آذر بصدق، أحسست بروحه تندمج بروحي، وأنا أقف في حضرة العطّار، ثمّ قلت له: دعني آخذك لزيارة الخيّام.
فرح إلى أبعد مدى، فأمسك بيدي وأخذني إلى سيّارته مُسرعاً وقد ذابت دموعه في ابتسامته العذبة. مازحني هناك وهو غارق في ذهول الشاهد الغريب، الذي يبدو كأنّه لم ير مثله من قبل: هذا شاعر الخمر، الذي لا يزال الماء يتدفق من محيط مزاره مُسكراً كلّ من يقف في حضرته، فلمَ تحسب الخمر حراماً إذن؟
– الخمر حرام، لا جدال في ذلك. أجبته بلهجة قاطعة...

– لكن كلّ المتصوفة تقريباً، كما فهمت، لديهم أشعار تتغنى بالخمر، من العرب وحتّى الإيرانيين، أمثال العظماء الشيرازي وحافظ، حتّى إنني سمعت من صديق كُردي أن هناك في التراث ما يُسمّى القصائد الخمرية.
– كلّ ذلك صحيح يا أخي الوحيد، لكنني قطعت وعداً أمام فاطمة، وهذا أكبر من كلّ الموانع مهما عظمت، فيستحيل أن أخلّ بوعدي معها...
كان ذلك الحوار هو الذي قلب كلّ شيء، وأنهى جُلّ فرحتي التي ظننتها للحظة.. أبدية، وأنا أجد مدينتي وأهلي وعملي وبيتي الخاص، بعد زمن أحسسته في روحي وكأنّه الدهر بأكمله. ففي تلك اللحظة شعرت كأنّني مصاب بالحمى التي لا أقدر على تحمّلها إلى لمس فاطمة، التي بحثت عنها في كلّ مكان زرته. فإذا بي أجد نفسي، وقد أدركت في النهاية، أن كلّ مسعاي، بالرغم من كلّ الحب الذي غمرني به كلّ من التقيتهم، لم يكن سوى هباء، وأن عليّ أن أعود إلى القرية، حتّى لو كانت تحوّلت إلى رماد، فيكفيني أن أجثو على وجهي وأسجد عند عتبتها وألثم موطئ قدميها المباركتين. فوجدتني أخاطب آذر على حين غرّة: أرجوك، أرجعني بسرعة إلى المقرّ، يجب أن أعود بأقصى سرعة.
فجأة! أفقت على حالة غريبة، ملأتني بشعور طاغٍ بالذنب. كيف سوّلت لي نفسي أن أستسلم لإغراء البقاء بعيداً عن فاطمة؟ من أجاز لي أن أنعم بكلّ هذا الكمّ الهائل اللانهائي من الحب والاهتمام الذي حظيت به أصلاً، وبناءً على معرفة الجميع بحكاية فاطمة؟ أي إنها هي صاحبة الفضل في كلّ ذلك، بينما أنا غارق في النعيم، وأقرب إلى الاستسلام والقبول بفكرة أنّها انتهت، وأنّني لن ألقاها مجدّداً، وأنّني يحق لي البدء بحياة جديدة، حتّى لو كنت أبكيها كلّ ليلة، وأغفو على أحلام تجمعني بها، لأصحو على كوابيس فراقها الذي بدا كأنّه حقيقة أذعنت لها وانتهى الأمر؟
كانت ليلة من أصعب الليالي التي مررت بها، لم أغفُ لحظة واحدة، إلى أن طلع عليّ الفجر. صليت عشرات المرّات، وبقيتُ أنتحب على السجّادة، أدعو الله أن يغفر لي ذنبي، وأدعو فاطمة بصوت عالٍ أن تغفر لي خطيئتي الكبرى تلك. في الصباح التالي، زرتُ ضريح العطّار للمرّة الأخيرة، والغريب أنّني لم أستطع أن أتفوّه بكلمة واحدة، كنتُ فارغا تماماً من كلّ إحساس، عدا ثقل رأسي الذي شعرت بأنّه منفصل عنّي تماماً، وبأنّني لم أعد أحتمل ثقله. لكن أصعب ما واجهته على الإطلاق، كان لحظات الوداع المنغّصة التي فاجأت الجميع، وأدخلتهم في نوبة حزن بادية عليهم جميعاً. عانقني الجميع كما يعانقون أبناءهم الراحلين. جاءني مازيار شاعر المدينة، بديوانه الجديد مع رباعيات عمر الخيام ودواوين لكلّ من سعدي الشيرازي وحافظ، وأنهى التقديم بنسخة فخمة جداً من «منطق الطير»، وهو يحتضنني بكلّ صميمية وتختلط دمعته الرقيقة بابتسامته العذبة وهو يقول لي: أنا لا أعرف أين وُلدت، لكنني متأكد من أنك ابن نيسابور، إنك عطّارها الذي عاد.
فيما تقدم مني الكلّائي مجيديان وابنه وهو يحمل آلة الطنبور العزيزة عليه، والتي صنعها خصيصاً للعزف في الحفل الذي أحياه المطرب الأشهر شجريان، قبل أعوام خلت، وقال لي: كما تعلم، فقد عرضوا عليّ أكثر من مرة، مبالغ خيالية لكي أبيعها، لكنني كنت مصراً على أن تبقى معي العمر كلّه، لكنها لن تغلو عليك، فأنت ابني الأكبر، وأنت أحق شخص بأن يرثني في أعز ما أملك، وأعز ما صنعت يداي، فأرجو أن تحافظ عليها، أيّها العطّار المرتحل أبداً.

وتقدّمت مني أم الضابط همايون، وقدّمت لي سجادة الصلاة التي أجلس عليها الآن، تقابلني كأس العرق منذ ساعات. وأنا غارق في حيرة البرزخ، الذي تتقاسمني فيه سجّادة صلاة عزيزة، وكأس عرق، يشطرانني بين الشك واليقين.. بين الخطيئة والالتزام.. وبين الكفر والإيمان.. كانت أم الضابط همايون قد حصلت على هذه السجادة من والدها الذي كان قد زار مقام الحسين، في زمن كانت هي لا تزال في ريعان شبابها، وتحلم كلّ ليلة بزيارة كربلاء، وها هي تشيخ ويبدو الحلم عصيّاً، بل أقرب إلى المحال.

في النهاية تتابع الرجال المرافقون لقولي خان، على توديعي بلغتهم الكردية، محمّلين إيّاي العديد من الهدايا التي كنت عاجزاً عن حملها أصلاً فاكتفيت بالخنجر الذي قدّمه لي قولي خان، وودّعتهم، ثم رحلت...

يا إلهي!

إنني أرى نفسي عاجزاً عن وصف ما حدث يومها، مثلما كنتُ عاجزاً عن أن أكون بمستوى كلّ ذلك الكمّ اللانهائي من الحب الصادق الخالص. فقد كنت مأخوذاً بشوق يصيب عظامي بالحمّى للرجوع بسرعة إلى المقرّ، والعودة من هناك إلى القرية من جديد، حتّى لو كلّفني ذلك حياتي. وانطلقنا مساء ذلك اليوم إلى العاصمة حيث منزل آذر، الذي بقيتُ فيه ليلتين، غادرناها في اليوم الثالث أنا وآذر ومحمود دارابي الذي بدأ ينتحب كالطفل بينما يحضنني بقوّة. وأنا أودّعهم بالقرب من مقارّنا التي عدتُ إليها مُحمّلاً بأغلى سجّادة صلاة، وأعز آلة طنبور، وأجمل الكتب، وبخنجر بدا أنّه قدري ككُردي، وبحبّ وسع الكون كلّه، مصحوباً بحزن رقيق، لفراق كلّ أولئك الأحبة. كانت حمى الشوق إلى لمس فاطمة ولو مرة واحدة في حياتي، تحرقني حدّ الرماد.

46

«ولن يُمحى ذلك الزمان من روحي، وها أنا ذا مضطرب بين هذا وذاك».
فريد الدين العطّار

بدأت الأوضاع تسوء بوتيرة متسارعة، بينما لا يلوح في الأفق أيّ أمل، وأجهز تبادل الرسائل بين كلّ من الرئيسين العراقي والإيراني على البقيّة الباقية من ساكني المخيّمات، والكثير من قواتنا كذلك. وبدأ الحديث يتصاعد عن استبدال الثوّار على جانبي الحدود. وبدأت معها ظواهر غريبة تتداخل بعضها في بعض، في مشاهد غير مسبوقة، فأخذ الكثير منهم يتّخذ طريق الاستسلام للنظام والعودة نادماً مُستفيداً من قرار العفو الصادر حديثاً، الذي طال أمده لعدّة أشهر، والذي لم يُبق على أحد من المشككين إلّا أخضعهم لتبنّي قرار الاستسلام، فيما فريق آخر وهو لم يكن بالقليل أيضاً، ممّن كانوا قد وصلوا إلى اليأس من تغيير الوضع وإمكانية رؤية أيّ بصيص يؤكد لهم عدم انهيار الثورة مرّة أخرى، كانوا يُشككون في صدقية قرار العفو الصادر من النظام، أو كانوا يرفضون تماماً القبول بخيار الاستسلام أصلاً، فأخذوا يسلكون طريق الهجرة عن طريق المهربين، الذين كانوا يأخذونهم إلى باكستان، حيث يعلقون في ذلّ مخيّمات الأمم المتحدة، أو يسيرون بهم عبر الحدود التركية إلى اليونان ومنها عبر الطريق الشائع إلى حيث الاستقرار في إحدى الدول الأوروبية، بينما بقيت المفارز المقاومة بين الخرائب والأنقاض والكهوف، صامدة بصورة أسطورية، غير مبالية بكلّ ما يحدث في العالم.

في خضم كلّ ذلك، بقي الفريق الصغير الذي كان قد توصّل فعلاً إلى استنتاج مفاده أن الاتفاق النهائي بين الدولتين سوف يؤدّي من جديد إلى انهيار الثورة بالتأكيد، ما دفعه إلى التفكير في خيارات أخرى. فأخذ هذا الفريق المتشكّك أصلاً في القيادة الحالية للثورة، يُفكّر في خيار عدم الاستسلام، لكنه بدل اتخاذ طريق إشعال المعارك اليائسة، وبعد عقد العديد من الاجتماعات السرّية المغلقة، قرّر التريّث، والاستقرار في الكهوف والجبال الوعرة الحدودية، وخزن الطعام والكتب والبطاريات اللازمة لأجهزة الراديو، التي تكفي لمدة عام أو أكثر، بغرض دراسة اسباب انهيار ثوراتنا على مدى قرن من الزمان، والتفكير والتخطيط من جديد لتحرير البلاد بطريقة مختلفة، بحيث لا تؤدّي هذه المرة إلى نفس المصير.

جاءني صديقان، يطلبان منّي أن نهاجر معاً، عن طريق المهرّبين، إلى إحدى الدول الأوروبية، لكني رفضتُ محاججاً بأننا لم نترك أهلنا، ولم نجازف بهم وبأنفسنا، لكي نهاجر إلى الخارج، بل لأننا اخترنا طريق النضال، الذي علينا أن نُكمله بالرغم من كلّ ما سوف يحدث. فأصروا على أن أرافقهم وهم مستعدّون لدفع تكاليف سفري أيضاً، وعندما انفعلت من جوابهما، انتقل حميد الذي أصرّ على إكمال طريقه للهجرة إلى إحدى الدول الأوروبية، بينما تخلّى عمر عن فكرته نتيجة الحوار الذي أجريناه، ويبدو أنّه اقتنع بحججي. لا أزال أشعر تجاه عمر، الذي رافقني في تلك الليلة في العودة إلى القرية في محاولتنا العبثية لإنقاذ أنور في اللحظة الأخيرة، بالذنب الكبير.

لقد كان على أهبة الاستعداد للهجرة، وكان كلّ ذنبه هو أنّه أصرّ عليّ لمرافقته ويدفع كلّ تكاليف سفري أنا أيضاً، لكن وبعد أن اقتنع بحججي، وبسبب معرفته بتلك المنطقة الحدودية تحديداً، وقع عليه الاختيار للنزول مع إحدى المفارز التي كانت تعبر الحدود ليلاً وتتسلل للبقاء في عمق أراضينا المهجورة الخالية تماماً. كان عمر لاعب كرة قدم بارعاً، ومقاتلاً في غاية الشجاعة، وبما

أنّه كان يتقدّم الجميع في المنطقة التي كان يعرف كلّ تعرجاتها، فقد انفجر به لغم أرضي أودى بإحدى ساقيه. أمّا صلاح العائد منذ أسابيع مع مفرزة من بين خرائب قُرانا، فقد توجّه مع زوجته إلى باكستان.

يبقى ذلك الصباح الصيفي القائظ، فريداً وفاصلاً للجميع، بدا الوضع وكأن كلّ ما حدث في المنطقة من كوارث لم يكن كافياً، لنستيقظ صباح ذلك اليوم الصيفي القائظ الذي تلى ما سُمّي وقتها يوم النصر العظيم بعامين، على وقع اكتظاظ الوكالات والمحطات الإذاعية بأخبار اجتياح الجيش لأراضي الجارة الجنوبية، بحجة دعم انقلاب نُفّذَ ضدّ العائلة التي تحكمها منذ عقود، ولم تمرّ سوى أيّام قلائل حتّى سقطت كلّ الذرائع، وأعلن الرئيس ضم الدولة الجارة التي كان يُسمّيها الدولة الشقيقة سابقاً، وأعلن اعتبارها جزءاً من العراق وسمّاها المحافظة التاسعة عشرة. ولسوء حظ سكّانها، فإنه عيّن ابن عمّه العريف، الذي تُوّج نتيجة تدمير بلادنا وحرق خمسة آلاف قرية وإبادة عشرات الآلاف من سكّانها، بلقبه العالمي «علي الكيماوي»، مُحافظاً عليها.

وهاجت الدنيا بأكملها..

مرّ ذلك الربيع الذي سبق ضمّ الجارة الجنوبية، ونحن لا نزال نعاني السُبات الذي تلقّه الهزيمة، وتبدو أيّامه ولياليه متشابهة في كلّ شيء، إلّا كوابيسها التي كانت تهجم بوتيرة رتيبة، ثم تزداد بقوّة، محدثة صدمة نتيجة تدهور آخر في أوضاعنا، وتصاعد خطير في سير الأحداث والأخبار السيّئة التي تنهال علينا. فبدا ذلك الربيع الذي كان الربيع الثاني بعد استقرارنا في شريط الكوابيس الحدودي ذاك. وظل انهيار الرفاق، ولجوؤهم للاستسلام يتصاعد، حتّى إن أكثرية الذين كانوا قد استقروا بعد معارك الأنفال معنا، أو داخل الاراضي الإيرانية، في مخيّمات أو في بلدات، اختاروا الاستسلام والعودة نادمين مع عوائلهم.

أصبح ذلك المنظر هو المنظر اليومي الذي نستيقظ على وقعه، ثم نذهب إلى المقارّ لنستسلم لكوابيسنا. وككلّ شيء آخر، أصبح أمراً روتينياً عادياً، فيما كان بعض المتردّدين يشتعلون بين النارين، ويلجأون إلى رفاق آخرين لعلهم يدلّونهم على الخيار الصائب، أو يتمكنون من إقناعهم بالاستسلام معاً، بينما بقيتُ أنا وبعض الرفاق نفكّر بالخيار الجديد، وهو أن نكفّ عن المغامرات القائمة على ردة الفعل التي لا تستهدف سوى الإسراع في إشعال ثورة جديدة، لا لشيء إلا لنثبت أننا باقون، وأن المقاومة مستمرّة رغم الكوارث والمؤامرات. خيارنا الذي كان يقضي بأن نتريّث ونمنح أنفسنا فرصة للتفكير في كلّ ما حدث، لنهتدي إلى الحلول التي لا يمكن أن تنكسر بفعل المؤامرات أو الاختلال في ميزان القوى العسكري. وللأمانة يجب أن أقرّ أمام قبر آتيلا، بأننا حينها لم نكن نملك أيّ فكرة مسبقة عمّا يمكن أن نفعل، كان القرار هو الاعتكاف في كهوف، والتفرّغ لدراسة تجارب الشعوب، ومتابعة أخبار العالم والمنطقة، بغرض الوصول إلى فهم جديد لما يدور، ووضع رؤية جديدة تنبثق عنها خطط ناجحة لثورة تؤدّي لا محالة إلى الانتصار المؤكد.

حتّى قبل حلول ذلك النهار الصيفي القائظ الذي هاجت فيه الدنيا بأكملها ولم تقعد مجدّداً بأسابيع، كانت مدة العفو الذي أصدره النظام والذي استمرّ أربعة أشهر متتالية قد انتهت. وكانت قوافل المستسلمين ندماً قد توقفت، لكن قوافل الهجرة إلى أوروبا، ازدادت وتيرة. في المقابل ظلّت مشاهد الأسرى العراقيين المفرج عنهم تحتلّ شاشات التلفزة، وهم ينزلون من الباصات الكبيرة على الحدود، ثمّ يجثون على ركبهم ويقبّلون الأرض التي يبدو أنّهم قطعوا الأمل بلقياها مرّة أخرى.

وكان كلّ ذلك يشير إلى أننا بتنا أمام تكرار الهزيمة النهائية التي سوف تؤدّي في أيّ لحظة إلى الانهيار الحتمي، حتّى لو كان ذلك صامتاً ومن دون إعلان كما حدث في يوم الانهيار الأكبر.
لن أنسى ذلك اليوم الذي وصلت فيه برقية من القيادة تستدعيني، فانطلقت من فوري، ووصلت إليها في اليوم التالي، كانت البرقية مرسلة من عضو القيادة المركزية، الأستاذ عبد الله، كان ينتظرني بشعره الأشهب وهدوئه المعهود، الذي لم تتمكّن مسحة القلق البادية عليه من أن تهزمه. وكعادته معي، كان عرضه الكريم، أكثر ممّا يمكن أن يحلم به أيّ منّا. فقد عرض الأوضاع بصورة مفصلة، وقال: ها أنت ترى أن العراق وإيران على وشك الاتفاق النهائي، وها هم الناس الذين كانوا لا يزالون متمسّكين بالبقاء معنا، يستسلمون يومياً للنظام، وأنت رجل يمكن أن تبدأ حياتك بصورة أخرى، في الحصول على خبرة مختلفة تنفع الثورة في أيّامها المقبلة، لذا عرضي لك هو أن تتهيّأ للسفر، لأنّني سوف أرتّب لك الرحيل إلى إحدى الدول الأوروبية للالتحاق بزمالة دراسية.
كان عرضه أكثر سخاءً من أن يُرفض، فكلّ رفاقي اليائسين يجازفون بحياتهم ويسلّمون أقدارهم لمهرّبين، يأخذونهم عن طريق تركيا إلى اليونان، ويبقون في مخيّمات، إلى أن يُبتّ أمرهم، أو يذهبون إلى باكستان حيث مخيّمات الذلّ، بانتظار حصول المعجزة التي يُمكن أن تحدث فترحّلهم المنظمة إلى أحد البلدان في أوروبا. بينما ها هو هذا الرجل الكريم، يقدّم لي عرضاً يستحيل رفضه. لكنني حتّى هذه اللحظة لا أدرى كيف قلتُ دون أدنى تردّد: أنا أقدّر حرصك الشديد عليّ، وأقسم أنك لم تكن لي بأقلّ من الأب، وأنا غارق في أفضالك وكرمك، لكنني أطلب منك أن تعفيني، أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك...
نظر إليّ بدهشة كبيرة وبدا كأنّه فقد هدوءه هذه المرة، فقال بلهجة حادّة: كلّ رفاقك يحلمون بفرصة كهذه، وها هم يجازفون بحياتهم من أجل الوصول إلى هناك، فكيف لك أن ترفض؟ أنت تعلم بأنّني أعتبرك ابني تماماً، فلا تضيّع هذه الفرصة أرجوك.
– أقسم لك مجدّداً أنّني لم أرَ فيك سوى الأب، لكنني لا أستطيع أن اتخلّى عن شعبي وأترك ثورته في أحلك وأقسى لحظاتها. أنا باقٍ ولن أرحل. وأرى نفسي عاجزاً عن شكرك، لكنّ لي عرضاً آخر، إن تقبله مني أكُن شاكراً لك إلى آخر لحظة في حياتي.
عندما قابلته للمرة الأولى في مقارّ القيادة المركزية قبل ذلك بأعوام، بعد التحاقي بالثورة بفترة قصيرة، غمرني بمحبّته وتشجيعه العجيب لي، الذي رسّخ فيّ الكثير من الثقة. في تلك المرة أكّد لي أن طريق الثورة طويل، وأن هذه القيادة لن تبقى أبد الدهر، وأن علينا أن نتهيّأ لتسلّم مكانها وإكمال المسيرة التي يجب ألّا تتوقف مهما حصل، وأنّه يرى فيّ أنا كلّ الصفات والشروط المطلوب توافرها لأخذ الأدوار القيادية. كان ذلك الكلام لشاب لم يكمل الثامنة عشرة من عمره، ولم يُفق بعد من انبهاره بالقيادة، أكثر من حلم، وكان له في نفسي أثر السحر. ولم يكتف ذلك الرجل النبيل، بتلك المرة من إظهار إيمانه بي، بل استمرّ يغمرني بكرمه، إلى حدّ أن القيادة حين كانت تعجز عن إقناعي بأمر ما، كان هو ينبري لها، ويستطيع في النهاية إقناعي، أو إجباري عليه، حتّى لو كان ذلك عن طريق الإحراج لا أكثر.
كان عرضي له، نفس العرض القديم الذي أدّى في إحدى المرات إلى فقداني لأعصابي وتقديم استقالتي حتّى من عضوية الحزب، وبالتالي من كلّ مواقع المسؤولية في الثورة. كان ذلك حين رفضت القيادة نزولي مع القوّة التي جرى الإعداد لها منذ فترة، واستبدالي بصلاح، وقد أخفوا

عني كلّ تلك الترتيبات، بحيث إنني لم أعلم بها سوى في اللحظة الأخيرة. فحاولت القيادة استخدام شتى الوسائل والأصدقاء والرفاق لسحب استقالتي، بينما أخذ الحزب الآخر يحاول مجاملتي واستدراجي للانضمام إليه، فقد كانت هذه فرصتهم التي جاءت بعد محاولات عديدة منهم طيلة سنوات لإقناعي بالانضمام إليهم. في النتيجة فشلت محاولات الجميع، إلى أن جاء الاستاذ عبد الله في جولة تفقدية للمقارّ والقوات والتنظيمات، وبعد الاجتماع انفرد بي، وحاورني بكلّ رقة، لكنه أنهى كلامه معي بجملته الحازمة الحاسمة: لو كان لي خاطر عندك، أتمنّى أن تسحب استقالتك من أجلي أنا، ولن أضيف جملة أخرى.

ولم أملك سوى أن ألوذ بالصمت قليلاً، ثم وعدته بأنّني سأسحب استقالتي في الحال. حدث كلّ ذلك قبل فترة من التطوّرات الأخيرة، واستدعائه لي وعرضه ترتيب هجرتي إلى أوروبا، حيث عرضتُ عليه أن مفرزتي جاهزة وأنّني يمكن أن أنطلق بها إلى عمق أراضينا لكي نستقرّ بجانب المفارز الموجودة هناك، لكنه في المقابل قدّم لي عرضاً آخر مفاده أنّني لا يمكن أن أضيف شيئاً إلى ما يقدّمه بقيّة الرفاق هناك، وأنّ الخناق يضيق على الثورة، وأن علينا أن نتهيّأ حتّى لاحتمال انتهاء تبنّي أسلوب تلك المفارز، لذا فالعرض هو أن أقبل بخَيار الاستسلام للنظام وأعود لممارسة حياتي العادية، ويقوم رفاقنا في الداخل بتهيئة أجهزة الطباعة البدائية، والملاجئ التي سوف أمارس منها دوري في قيادة الحزب في الداخل كلّه، وأنّه سوف يزوّدني بأمر موقع وممهور من القيادة بتكليفي بتلك المهمّة، وأن الأمر سوف ينص على أن الاستسلام للنظام إنّما هو امتثال لأمر أصدرته القيادة.

قبلتُ عرضه مع تعديل بسيط، لكنّه جوهري، وهو أنّني لا يُمكن أن أقبل بخيار الاستسلام، حتّى لو كان بقرار من القيادة، لكنني على استعداد لتلك المهمّة التي أتشرّف بها وبالثقة التي تضعها القيادة فيّ، لكن يمكن أن تهيّئ لي القيادة طريقة أخرى تمكنني من العودة إلى إحدى المدن، ولكي أقنعه، أكدت له أن شكلي تغيّر كثيراً، وأن لا أحد سيتمكن من التعرّف إليّ، فكان اتفاقنا هو أن أعود إلى المقرّ أنتظر برقية منه، بعد أن يكون قد رتب لي تولّي أحد رفاقنا في الداخل مهمّة نقلي إلى إحدى المدن الكبيرة، حيث هناك سوف أتسلّم أجهزة الطباعة اللازمة لإصدار الأوامر والنشرات والبيانات، وكذلك بعض المال الذي أحتاج إليه في أداء مهمّتي.

طال انتظاري ولم تأت البرقية، لكنني لم أكُن منزعجاً، إذ إنني كنتُ على اتصال شبه يومي بالرفاق الذين كنّا قد عقدنا العزم على خيار الاعتكاف الثوري في الكهوف والجبال الوعرة، بغية فهم الأمور والخروج برؤية جديدة، قبل الشروع في اتخاذ أيّ خطوة أو قرار. في خضم كلّ تلك التطوّرات العجيبة الرتيبة السريعة والمقلقة، أفقنا صبيحة ذلك اليوم الصيفي القائظ، لنجد أن الدنيا كلّها قد هاجت، وبدأ كلّ شيء يتغير بسرعة عجيبة، فقد امتلأت كلّ الوكالات والمحطات الإذاعية بأخبار الاجتماعات العديدة التي كانت تعقدها الدول والمنظمات الدولية حول ذلك الحدث العجيب وتداعياته، وكذلك القرارات الدولية الصادرة عن مجلس الأمن الدولي، التي أخذت تتوالى وتتوعّد الرئيس ونظامه من مغبة إخراج قوّاته الغازية، عن طريق الحرب إن لم يسحبها هو فوراً، ما زاد التصاقي بالمذياع أكثر فأكثر.

لم يكن يهوّن عليّ كلّ تلك الأهوال سوى عودة آتيلا من غيبته الطويلة مصطحباً حبيبته عجولاً، يتحرّق لموعد عودة ميران مع مفرزته مرّة أخرى إلى عمق مناطقنا لكي يعود معهم، بعدما انتزع وعداً من ميران والقيادة بموافقتهم على رغبته في النزول إلى عمق مناطقنا الخالية من بني البشر.

كان كلّ يوم يشكو لي حاله وحلمه، لا بل يقينه بأنّه حين يعود ويبحث عنها في تراب القرية، فإنّه لا محالة سيتمكّن من لمسها بعدما أخفق، كما كان يقول، في أن يجد لها أثراً في أيّ مكان زاره من قبل بحثاً عنها. لكنّه بعد انقلاب الأوضاع منذ تلك الصبيحة القائظة، أصبح أكثر استعجالاً، خصوصاً أن القيادة أخذت تُجري سلسلة اجتماعات ضمّت كلّ الفصائل الثوريّة المتصارعة أصلاً، وتوصّلت إلى تشكيل قيادة موحّدة واتّخاذ قرار بالتهيّؤ لكلّ الاحتمالات، بما فيها احتمال قيام الحرب الذي سيضعف النظام، ما يهيّئ الأرضيّة لإشعال انتفاضة المدن. وكلّ هذا كان يستدعي عودة المفارز إلى العمق لتكون على أقرب مسافة ممكنة من المدن، كذلك لكي تحمل رسائل القيادة إلى الشخصيّات والمناضلين القدامى، وكذلك بعض أعوان النظام من الكُرد كي لا يكونوا جزءاً من النظام وينضمّوا إلى شعبهم في انتفاضته المحتملة.

كان في كلّ مرّة يحثّني على نسيان إساءة استبدال اسمي باسم صلاح في تلك المفرزة، والاستعداد للنزول، فاضطررت إلى أن أشرح له موقفي الذي لم يعد يستند إلى تلك الإساءة التي آلمتني إلى أبعد حدّ، بل إلى مستجدّات في تفكيري وقناعاتي. وشرحت له احتمالات أن أعود وحدي للاستقرار في المدن سرّاً، وأنّني سأكون قريباً في تلك الحالة، أو إذا حدثت الكارثة مُجدّداً، عليّ أن أكون جاهزاً مع رفاقي لخيار الاعتكاف الثوريّ في كهف، بغية دراسة كلّ شيء من جديد، والتوصّل إلى فكر ونهج جديدين للثورة، بحيث تكسر الدائرة المؤدّية للانكسار العبثيّ. حينها نظر إليّ باستغراب وسألني عن المجموعة، فأجبته بأنّني لا أستطيع أن أخبره بأكثر من أنّ معي ستة من الرفاق. جلجل بضحكته عالياً قائلاً: إذن فأنتم أصحاب الكهف؟!

يا إلهي! ها أنا أقف عند قدميْ آتيلا وهو ساكن من دون أدنى حركة، تخلّى فجأةً عن كلّ عجلة، وكلّ بحثه المستحيل عن أثر لفاطمة على الأرض. وها هو ينتقل إلى باطن الأرض للبحث عنها. ها هو يبدأ رحلةً جديدة قد يكون فيها عجولاً أكثر من ذي قبل وهو يغوص في التراب، من أجل أن يلمس ولو طرفاً من شال فاطمة. وها أنا أقف حائراً، لا أفهم شيئاً بتاتاً، فارغاً تماماً من كلّ يقين. أتحرّق عجولاً لمعرفة مصير قنّينة العرق التي انتزعها منّي ليلة أوّل من أمس عنوة. تُرى هل شربها كلّها وكفر بكلّ شيء؟ أم منعه يقينه بلقاء فاطمة القريب وظلّ عنيداً في التزامه التوبة التي شغلت الناس في وقتها؟

أمّا الآن، فلم يبقَ لي سوى أن أدعه عجولاً في تربته، وما عليّ سوى أن أكتشف نهاية حكايته على الأرض التي لم تبدأ بالتأكيد بقنّينة عرق، لكنّها يقيناً ارتبطت بشدّة برائحة الخمر وسحرها، وها هي تنتهي بصحبة قنّينة عرق، لستُ أعلم هل شربها ونكث بكلّ شيء، أم بقي ملتزماً توبته بعناد؟ فحكايته تركتني في جحيم يحرقني سعير نيرانه لاكتشاف مصير قنّينة العرق الفاصلة والأخيرة، فيجب أن أتحرّك بسرعة. عليّ أن أغادر هذه المقبرة فوراً، أن أتركها... بكلّ حكاياتها، بكلّ لصوصها وخونتها وأبطالها المهدورة تضحياتهم وقيمهم، لألحق بالقنّينة التي كاد آتيلا يقتلني من أجلها قبل بضع ساعات. تُرى، هل كانت هي السبب في استشهاده بتلك الطريقة الدراميّة، أم هي بريئة تماماً من دمه؟ وماذا تخبّئ لي قنّينة العرق التي تبدو كأنّها آخر قنّينة عرق على وجه هذه الأرض الثملة حتّى النخاع بلون الدم النبيذي، وطعم البارود الحارق، ورائحة التفّاح الخانقة المُسكرة حتّى الموت.

47

«وإن لم يتمّ الوصل على أعتاب الحبيب،
فليس هناك من سبيل إلّا تقبيل الأرض».
فريد الدين العطّار

يا إلهي! ماذا فعل فتيتنا من أصحاب الكهف لكي ينهار عليهم الكهف الذي أووا إليه وينهي حياتهم بكلّ هذا الكمّ الكبير من القسوة؟ كيف انهارت هذه الكتل الترابيّة الكبيرة لتسدّ منافذ الحياة على من تركوا الدنيا بما فيها، لكي يلجأوا إلى هذا الكهف الموحش الذي صنعته يد الأمطار على مدى قرون وبتأنٍّ شديد، في هذ التلّ الترابيّ الكبير الذي يقع ضمن هذه المنطقة الوعرة من التلال المتواصلة الشبيهة بالمتاهة، لكن هذه المتاهة ليست للعب بل هي حقيقيّة، ونتيجتها هي التيه حتّى الموت؟ صعدتُ التلة ولقيتُ نفسي وحيداً تماماً إزاء تلك الشجرة القابعة وحيدة هناك منذ دهور خلت، وفقدتُ القدرة على تماسك نفسي، خررت راكعاً على ركبتيّ أناجي الغيب.

يا حبيبي وخلّي، يا خلّه...

أين أنت الآن؟ يا من ائتمنك أبوك وأبي، آدم عليه السلام، على جثمانه الغارق في الخطيئة العاشقة، والعالق بين النقاء والخِسّة كما يُفتي الهدهد، وشاء ربّي أن يطيل في عمرك إلى أن تصطحب معك الجثمان في السفينة لتنجيها من الطوفان وتدفنها وحدك، في ظلّ خوف الجميع من وحشة المكان. لا بل شاء سبحانه أن يبقيك حيّاً إلى أن يُنفخ في الصور. قل لي، أين هي فاطمة الآن؟ ألم تطف الأرض من مشرقها إلى مغربها؟ قل لي، إذن بحق كلّ بقعة زرتها وحوّلتها اخضراراً، أين أجد فاطمة بعد أن بحثت عنها في كلّ مكان ولم أتمكّن من لمسها حتّى ولو مجرّد لمسة واحدة تشفي غليل الفراق الموحش؟

آه يا فاطمة.. يا قاتلتي...

كُنّا قد تسلّلنا ليلاً قبل فترة أسابيع حاملين أسلحتنا وحقائبنا على ظهورنا، نحاول أن نستقرّ بين الأطلال الحزينة والأودية الكاشفة لسرّنا والكهوف الغادرة، وكان يزورنا بين الفينة والأخرى بضعة رفاق من الذين كانوا يعاونوننا سرّاً من داخل المدن، حاملين بعض الأدوية والأكل، ينقلون الرسائل والتقارير بين المفارز المُختفية وبين القيادة ورفاق الداخل في المدن. كنت على عجلة من أمري، كنت أتحرّق للوصول إلى حيث سأحجّ للمرّة الأولى إلى حيث موطئ قدم الحبيبة في تلك القرية البعيدة الواقعة في تلك البقعة القاسية العنيدة.

وصلنا إليها ليلاً، فتركت الرفاق مهرولاً كالمجنون إلى ما بقي من أطلال بيت الشيخ وتكيّته وبيتي الطينيّ القديم. ركعت من فوري وأخذت أتمرّغ في التراب وأنتحب بصوتٍ عالٍ لا يفهمه غيري، بدأت ألثم التراب في كلّ بقعة كانت قد وطئتها قدما فاطمة الطاهرتان، زحفت صوب مكان التنّور أحاول مستميتاً أن ألمح طرفاً من شالها... رائحة رغيف خارج للتوّ، تقدّمه لي لأشعر بحرارته التي تحرق فمي ولا أثر للحرارة إلّا في الروح حيث تحترق بصمت. يا إلهي، اقتلني هنا أو كافئني بلمسة منها، شمّة من عطرها، أو عبق رغيف خارج للتوّ من تنّورها، أحرقني وحوّلني إلى رماد تذرّه الساقية التي تمرُّ بقربي كما أخذت دجلة رماد الحلّاج برقّة عجيبة، أو أحرق فمي مرّة أخرى بحرارة رغيفها الشهيّ.

كنت أنهض بين الفينة والأخرى أهرول كالمجنون بين الخرائب، أناجيها. أصيح كالوحوش، ثمّ أركع لأهيل التراب على رأسي، فأخرّ راكعاً من جديد، لأجد نفسي زاحفاً كالثعبان الجريح الذي يبحث عن جثّة معشوقته، فلن يهنأ له بال إلى أن يلدغ كلّ من تسبّبوا بموتها. ثمّ أعود لألثم التراب من جديد، فأستنشقه بكلّ ما أوتيت من قوّة إلى أن يصل إلى أعماق الرئتين والروح، لكنّ الغريب هو أنّني كلّما أمعنت أكثر كنت أشعر بالنار التي في داخلي تزداد سعيراً، ويزداد عطشي لفاطمة. كنت في حالة ثمالة لم آلفها من قبل أبداً، لم أكن أعي بتاتاً ما أفعله، كلّ ما أذكره هو أنّ بعض الرفاق حاولوا منعي أو مساعدتي ومواساتي في البداية، لكنّ ميران تدخّل بأدبه ورقّته الصارمة مانعاً إيّاهم، بصوته الذي كان نادراً ما يعلو، ولم أعلم ماذا حدث بعد أن دخلت في تلك الغيبوبة التي لا أدري كم طالت، فركعت من فوري في صلاة طالت سجدتها الأولى حتّى الفجر.

يا حبيبي، يا خلّه...

يا من اغتسلتَ وشربتَ من ماء الحياة إلى أن ارتويت منه، هل لك أن تسقي فاطمة ولو قطرة واحدة من ذلك الماء؟ يا من اجترعت المعجزات، يا من وهبت النسل حتّى للبغال، يا حبيبي، يا إيليا، يا من تفرّق المؤمنون في كثير من أمورهم، وشاء الربّ في عليائه أن يجتمعوا على تقديسك أنت، إنّني أخرّ راكعاً بقرب شجرتك الوحيدة الشامخة ها هنا من فوق الكهف الغادر.. متى ستدعو ربّي وربّك لكي يعيد إليّ فاطمة؟ ألا ترى كيف أموت من شدّة الفراق؟ أو قل لي، أين أجد نبع الحياة لأحمل منه في كفّي إلى فاطمة الروح؟

يا خلّي، يا مار بهنام، ويا مار جرجس، يا أيّها الناسك العنيد الذي لم تلمس حتّى زوجاتك لفرط التزامك العفّة. يا أبا الرهبان والرهبنة الحقّة الصادقة، أنت أعلم بعفّة ونقاء حبّي أنا وفاطمة، وأنت أعلم بالنار التي تحرقني حتّى النخاع، أفلست أنت صاحب كلّ المعجزات التي ارتبطت بالنار؟ يا من قطعت الماء وأصبت مملكة أحاب بالقحط كلّ تلك السنوات، يا من تلعب بالنار والماء، يا من أنزلت المطر لأيّام على تلك المملكة لتؤكّد معجزتك التي أنهت طغيان إيزابيل وصنمها بعل، هل يصعب عليك الآن أن تتجلّى في تلك الصحراء الخانقة العطشى وتُنزل المطر على فاطمة وأهلها؟ إنّني أتوسّل إليك، إنّها عطشى الحلق.. وعطشى الروح، فأغثها، أتوسّل إلى ثمرة شجرتك المُرّة هذه...

أجزم بأنّه لو كان لنبع الحياة أن يختار مكانه على هذا الكوكب الغارق في ظلام الخطيئة، لاختار الوجود فقط بين أحد الينابيع الألف التي كانت تزيّن في ما مضى جنان الشيخ حسين الهزار كاني... ألَم يشرب الشيخ حسين وأهله ويغتسلوا بتلك المياه الطاهرة؟ إذن، ما الذي حدث؟ لماذا لم يُمنح هو وأهله الحياة؟ أم تُراه مُنح الحياة وهو الذي رفضها؟ آه... يا للشيخ حسين وكرمه حتّى في الموت. سمعنا في ما بعد أنّ الضابط الكبير الذي كان يُشرف على مرحلة معارك الأنفال تلك، قد ذهب لزيارته حيث كانوا قد جمعوا أهالي قرى المنطقة كلّها، حاملاً كتاباً موقّعاً يأمرُ فيه الرئيس بالعفو عنه والإبقاء على حياته وحياة عائلته، لكنّه أبى ذلك مُتمسّكاً بموقفه الحازم، إمّا أن تكون الحياة للكلّ أو يكون هو وأهله مع بقيّة الناس.

قيل إن الضابط حين فشلت لغة الالتماس، أخذ يصرخ آملاً أن يُجبر الشيخ حسين على قبول العفو، وحين وصل به اليأس احتضنه بقوّة، وأخذ يبكي بحرقة، يتوسّل إليه ويُحاول أن يخبره بأنّ هول ما ينتظرهم يفوق كلّ وصف وتصوّر، بينما الشيخ يطبطب عليه برقّة مُردّداً «قُل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا». فما كان من الضابط إلّا أن صرخ بأعلى صوته من جديد: يا بني آدم، افهم، أنت لا

تعلم إلى أين سنسوقكم، ولا تعلم ما الذي ينتظرك أنت وأهلك! أرجوك، هذا أقصى ما في يديّ لأقدّمه لك، انجُ بنفسك وعائلتك، فلن تجدوا الرحمة حين تُغادرون هذا المكان، فنظر الشيخ في عينيه وقال في رقّة: بلى، أعلم إلى أين نحن ذاهبون، إلى حيث يشاء الله عزّ وجل.
قيل في ما بعد، إن الضابط رفض أن يترك المكان ويترك الشيخ، إلى أن غادرت جميع شاحنات الإيفا العسكريّة حاملة النساء والأطفال في بعضها، ومحمّلة بالرجال والشباب في بعضها الآخر، وتداول الناس في ما بعد أنّ الضابط ظلّ يبكي إلى أن غابت قوافل شاحنات الإيفا الطويلة.
إنّه صوت الطائرات المروحية وصيحات من بعيد، أيقظنا ميران على عجالة يحثّنا على أن نستيقظ بسرعة فهناك هجوم للجيش وتمشيط للمنطقة بحثاً عنّا. فاستيقظنا وتهيّأنا للتعامل مع الهجوم الذي لم يكن الأول، لذا كانت لدينا خبرة جيّدة في التعامل معه. وقد كان الخيار الوحيد هو تفادي الدخول في المعركة، والابتعاد قدر الإمكان عن احتمال انكشافنا. فلم تكن هذه العمليّات بالضرورة نتيجة حصولهم على معلومات عن مكان وجودنا، لذا كان بحثهم في مساحات شاسعة يصعب تغطيتها بالكامل، ونحن أيضاً كُنّا قد امتلكنا الخبرة في الاختباء منهم، إلى أن يحين المساء فيضطرّهم إلى الانسحاب خائبين. لكنّ الوضع هذه المرّة كان مختلفاً جداً.
كان مكان اختبائنا أكثر انبساطاً من كلّ موجة تمشيط سابقة، وحجم القوّة والآليّات العسكريّة وحتّى المروحيات المرافقة لها أكبر بكثير من كلّ ما سبق. يبدو أنّ لديهم معلومات مؤكّدة عن مكان اختبائنا الحاليّ هذه المرّة، فلم يبقوا لنا من خيار سوى محاولة أقصى درجات الاختباء والتمويه في مخابئنا المكشوفة أصلاً.
كان واحداً من النهارات الخريفيّة الطويلة التي بدت كأنّها لا تنتهي، فقد اقترب من مخابئنا بعض الجنود وأعوانهم من الجحوش بحيث أحسست بأنّني لم أعُد أميّز ما بين صوت تنفّسي وتنفّسهم هم. طال النهار وهم منهمكون بالتمشيط والبحث، ومع نهايات العصر الذي حلّ أخيراً، أخذوا يُطلقون النار بكلّ أسلحتهم ويبدو أنّهم بدأوا ينسحبون.
حدث ذلك بينما كُنّا على موعد مع حمه رش ومفرزته عند الكهف الغادر الذي يقع تحت أعتاب الشجرة المباركة الوحيدة التي يُقال إنّها من فرط علوّ مكانها وحجمها الهائل، يستطيع الناس مشاهدتها حتّى من المدن التي تقع على الجانب الآخر من الحدود الدوليّة، ما يعني مسير يومين على الأقدام.
ياااه!
يا لحمه رش! كيف عاش وكيف كان الفارس وكيف قاد؟ ثم كيف استُشهد في ما بعد في موقف بطوليّ قلّ نظيره. كانت عائلته بأكملها، حتّى والده الشيخ، قد التحقوا بالثورة، بعد مضايقات النظام لهم، نتيجة الضربات الموجعة التي كانت تتلقّاها قوّاته من قبل حمه رش والقوّة التي كان يقودها، حتّى شقيقه الأستاذ جمال الذي كان معلّماً ومسؤولاً عن التنظيمات السريّة للثورة داخل مدينته، التحق بالثورة فجمعتنا صداقة الكتب.
بعدما أنهينا مهمّتنا واجتماعنا معهم تفرّقنا مرّة أخرى، بينما ذهبوا هم في اتجاه الشمال حيث الجبال، بقينا نحن في محيط الشجرة المقدّسة حيث صعدتُ إليها مُناجياً. وفي المساء، تأكّدنا عبر أجهزة اللاسلكي من سلامة الجميع، كما رُفعت تقارير عاجلة للقيادة المركزيّة عن آخر الأحداث والتطوّرات.

يا من لك في كلّ بقعة حللت فيها، فاخضوضرت وكانت لك مقاماً مباركاً.. يا صاحب الأديرة والمقامات، يا صاحب الزمان، يا من سار إليك سيّدنا موسى أربعين يوماً لكي يلتقي بك عند مجمع البحرين ويتعلّم منك. يا عالماً بظاهر العلوم وباطنها، يا من تسير على الماء كأنّك تمشي على الحرير، يا من شققت النهر بردائك بينما كنت تصطحب أليشع وأنت تعلّمه ما لا يعلم، ثمّ تمنحه قطرات من روحك وترتفع إلى السماء خالداً فيها، أخبرني بحقّ كلّ معجزاتك، أين كانت معجزاتك بينما كُنت تقف على رأس هذا الكهف الذي غدر بفتيتنا من أهل الكهف؟

يا من دعوت الربّ ليحيي من جديد ولد الأرملة الفقيرة التي أطعمتك فملأتَ جرارها زيتاً ودقيقاً، فاستجاب لك الربّ وأعاد الحياة إلى الولد، أين كانت دعواتك بينما كان فتيتنا الغارقون في إيمانهم يُدفنون في كهفهم؟ يا من سخّر لك الربّ الغربان، يأتونك بالخبز واللحم بينما تنتظر في مخبئك الذي اختاره لك الربّ لحظة خروجك لمواجهة أحاب وإيزابيل وآلهتهما وأصنامهما وأنبيائهما المزيّفين، ها أنت تعرف قيمة الاختباء، بحيث صارت المشيئة أن تظلّ مختبئاً الدهر كلّه، ألم تعلم بأنّ هؤلاء الفتية المؤمنين بقضيّتهم، قد أووا كما أصحاب الكهف إلى هذه الأصقاع الموحشة لتحقيق العدل والوقوف بوجه الطغيان؟ ما الذي حدث إذن، أخبرني بربّك؟

يا من اخضوضرت كلّ بقعة وطئتها إلّا هذه البقعة التي وصلت إليها تقطر دماً وماءً وأنت تهرب من بطش الطغيان، وما إن ركعت ها هنا باكياً حتّى لم تُنبت شيئاً سوى هذه الشجرة الوحيدة العنيدة، ألا تعلم وأنت صاحب العلم كلّه، بأن الكهف الذي سمّى الله عزّ وجلّ سورة باسمه وشرّفك بالذكر فيها، قد آوى الفتية المؤمنون الهاربون من ظلم دقيانوس وطغيانه لعدّة قرون؟ إذن ماذا حدث؟ من أين جاء كلّ هذا العقوق، بحيث لا يؤوي كهفٌ فتية مؤمنين عددهم سبعة كما هو مذكور تماماً في جميع كتب السماء، فيغدر بهم بهذه الطريقة المحزنة؟

هل كان ذلك من صنع الأبالسة؟ ألست أنت صاحب عدي، وطارد الأبالسة للأيزيدية؟ يا إبراهيم الدروز، وأليشع ومار جرجس والخضر أبو العباس، يا من تفرّق المؤمنون فرقاً متخاصمة في أغلب أمورهم إلّا أنت، يا من استجبت لكلّ مؤمن من كلّ دين ومذهب وطائفة، يا أيّها المشترك المقدّس والنبيّ والقدّيس عند كلّ الأديان، الإسلام والمسيحيّة واليهوديّة، يا من لم تُخيّب مؤمناً إلّا استجبت لرجائه، بغضّ النظر عن دينه وملّته، أين أنت؟ أين أنت الآن، بينما يزرع الأبالسة الموت في كلّ البلاد ويطردون منها الحياة؟ أغثنا يا صاحب ماء الحياة...

يا حبيبي يا خلّه، أيّها الخضر الحيّ أبداً...

أما وقد وصل بي اليأس مبلغاً فقدت فيه الأمل حتّى في معجزاتك، فإنّني أشعر كأنّ حالي هي حال ذلك المجذوب الذي قرّر أن يبتعد عنك كما يحكي الهدهد فيقول: «كان هناك رجل مجذوب عالي المقام، قال له الخضر: أيّها الرجل الكامل، هل لك أن تصاحبني؟

قال: إنّ أمري لا يستقيم معك، لقد شربت أنت من ماء الحياة كثيراً، وذلك لتبقى روحك حيّة أبداً، أمّا أنا فسأظلّ أقول ببذل الروح ولا أستطيع الحياة بلا أحبّة. لست مثلك أحافظ على الروح، بل إنّني أنثر في كلّ يوم روحي. من الأفضل أن تفعل كما تفعل الطير مع الشباك، بأن يبتعد أحدنا عن الآخر، والسلام...».

آه يا كأس الحياة والموت معاً، يا أيّتها الشامخة بصمت منذ ساعات قبالة سجّادة صلاتي، إنّني إذ أغرق الليلة تحت نيران المطر الذي يُغرقني في ذكرى الفتية المغدور بهم والكهف الغادر، والخضر عليه السلام، وحمه رش، وشاسوار ورفاقه الستة وكهفهم، وفاطمة التي تتحرّق عطشاً

في تلك الصحراء العطشى، والشيخ حسين الكريم حتّى في موته، والشجاع إلى النهاية حتّى في مواجهة الموت مع أهله بكلّ البرود الذي أنزلَتهُ عليه السماء، رافضاً أن ينجو هو وأهله، مُصرّاً على أن يكون مع الناس، فإمّا أن ينجو الجميع معاً، أو يبقى هو معهم حتّى النهاية.
يا كأسي الساكنة، بينما أقف الآن في حضرتك وقد فشلت كلّ محاولاتي المستحيلة للمس فاطمة وإيجادها، وبينما أنا غارق في نيران اليأس من الوصول إليها هي، فإنّني أقرّ وأعترف أمامك بأنّني لم أعُد أملك إلّا أن أركع في حضرتك، طالباً الصفح عن كلّ خطيئتي تجاهك. فاغفري لي، وتعالي لتروي عطشي الأزليّ وإلى الأبد. فبعد أن فشلتُ في الوصول إلى رائحة فاطمة، تعالي وأسكريني برائحتك القويّة. وبعد أن حُكم عليّ بأن لا يحترق فمي مجدّداً برغيف فاطمة الساخن، تعالي وأحرقيني بمذاقك اللاذع المُسكر حتّى منتهى الروح والحلق وكلّ الجسد. فأنا كما أفتى الهدهد، ابن أبي آدم، أنا التقاء الخِسّة بالنقاء.

48

«فيما يمضي السالكون المجرّبون وعظام الرجال إلى ميدان الألم، يفنون في أوّل خطوة».
فريد الدين العطّار

لم أدرك لحظتها بالضبط، لماذا آلمتني عبارة آتيلا وهو يُطلقها مجلجلاً، هكذا من دون مقدّمات «إذن، فأنتم أصحاب الكهف»؟ فقد مرّ على كارثة الكهف الغادر أكثر من عام كامل، فتركته في صمت وتوجّهت إلى الصخرة الكبيرة التي تقع أعلى المقرّ من الخلف بمسافة تتوسّط الجبل، والتي تعوّدتُ أن ألجأ إليها في حالات الوحدة الخانقة. وتُهت لا أفقه أيّ شيء. كيف حدث كلّ ذلك حقّاً؟ ومن الذي تلاعب بنا هكذا لكي يكون رفاقي ضحايا لكهف غادر انطبق عليهم؟ ومن الذي قرّر هكذا أن أكون أنا خارج دائرة الموت المباغت؟ هكذا، وفي عزّ الأمان والاطمئنان لكهف ظنّوه الكهفَ الذي تغنّت به الكتب السماويّة، فإذا به ينقلب عليهم أكثر غدراً وقساوة من كلّ الجواسيس والوشاة، لا بل وحتّى من جميع أنواع الأسلحة والمتفجّرات فتكاً. لحظتها، لم أعلم على من أصبّ جام غضبي المتّقد الذي أوصل صدري إلى ذروة ألمه العتيق. هل أصُبّه على نفسي لأنّي كنت مقصّراً، أم على القيادة، أم على الثورة وأخطائها، لا بل حتّى جرائمها وخطاياها؟

نزل عليّ خبر استشهاد آوات كردستاني المباغت كالضربة المفاجئة التي أفقدتني الاتجاهات، إذ كنت قد تسلّمتُ للتّو رسالة منه ولم أكد أنهي بعد قراءتها إثر عودتي من مراسم دفن دلير جاف. اشتدّت بعض الصراعات الحزبيّة التي كانت موجودة أصلاً، لكنّها وصلت مع الاقتراب من نهاية ذلك العام إلى أقصى درجات ضراوتها. وقد ضيّق الخناق في توقيت غريب عليّ وعلى أنور كلّ في فرقته، ومن قبل منافسينا، وصلت إلى حدّ اللجوء إلى اتهامات مُخجلة، أودت بهم إلى إصدار قرار بحبس أنور، وفتح تحقيق في التهم الموجّهة إليه، بينما أُبعدت أنا عن فرقتي واستُضفت في مقارّ قيادة المنطقة لحزبنا، إلى أن تُحلّ جميع المشاكل التي قد تؤدّي إلى نقلي إلى فرقة أخرى.

كان دلير جاف رجلاً غريباً في كلّ شيء، شاء قدره أن يشارك في ثورتين متتاليتين، فبعد يوم الانهيار الأكبر كان من ضمن القلائل الذين كان أبي يدعوهم بالشباب الذين أشعلوا الثورة من جديد في الجبال. وكان ينهي كلّ صلاة من صلواته بالدعاء لهم بالسلامة والنصر، إلى درجة أنّه مرّت عليّ لحظات شككت فيها أنّ الصلاة قد تكون في الأساس باللغتين العربيّة والكرديّة وأنّ تلك الدعوات المتكرّرة نهاية كلّ صلاة هي جزء أصيل منه. كان رجلاً أمّياً عصاميّاً رشيقاً طويل القامة ولُقّب بالجاف لكونه ينتمي إلى تلك العشيرة الكرديّة الكبيرة. ومنذ مولده في تلك القرية التي دفنّاه فيها بمراسم ثوريّة مهيبة، لم يرَ المدن إلّا للزيارات. ارتقى سلّم الرتب والمسؤوليّات في الثورة لشجاعته التي أدّت إلى جرحه عدّة مرات، كان أشدّها قسوة وألماً ذلك الذي أدّى به إلى عاهة غير ظاهرة، منعت عنه الخصوبة نهائيّاً فاستشهد دون أن يرى طفلاً يحمل اسمه.. ولم يكن يعلم بأنّ هناك أشدّ قسوة وألماً من كلّ ذلك.

بعدما نُقل هو لتولّي قيادة فرقة بيشمركة، ونقلت أنا لتولّي الإشراف السياسيّ على أحد قواطع فرقة أخرى بعد لقائي بآوات عند النبع أثناء ملحمة التحرير الكبرى، أصبح لزاماً على القوّات أن تعود إلى مناطقها لتكون قريبة من البلدات بغية التأهّب لانتفاضة المدن التي كانت قد اجتاحت بعض المدن إثر النصر الكبير في ملحمة التحرير في ذلك الربيع الساخن، ومنها حلبجة الموعودة حينها بالقنابل الحاملة لرائحة التفّاح الخانقة. في المقابل، كان النظام قد بدأ كافة استعداداته لقطع الطرق

على عودتنا، فكثّف من وجود قوّاته على الطريق وأنشأ العشرات والمئات من الثكنات والمعسكرات لتسدّ علينا طريق العودة إلى مناطق عمليّاتنا الأصليّة.. ولم يبق لنا سوى خيار مهاجمتها والاستيلاء عليها بالقوّة.

ومع أنّ جميع قوّاتنا قد تمكّنت من التسلّل عبر ممرّات ضيّقة ليلاً إلى خلف تلك التعزيزات الجديدة للجيش والجحوش، اتُّخذ القرار بتحرير تلك الأماكن والاستيلاء على كلّ الثكنات والمقارّ. وكان أن هوجم أكبر وأقدم مقارّ في ذلك السفح المقابل للمدينة الكبيرة، والمفاجأة كانت أنّ المعركة لم تدم طويلاً، وحُسمت بسهولة غير متوقّعة، إذ كان أفراد الجيش والجحوش قد فقدوا كلّ معنويّاتهم أمام قوّاتنا، ما أفقدهم كلّ قدرة على المقاومة فكانت مقارّهم وثكناتهم تسقط بسهولة عجيبة. كُنّا نحن في قاطع آخر، لذا عندما وصلني الخبر كان أكبر من وقع الصاعقة عليّ، فبالرغم من استيلاء قوّاتنا على المقرّ الأكبر والأقدم، وخسائر الجيش الهائلة، لم تتجاوز خسائرنا شهيداً واحداً، وكان هذه المرّة دلير جاف، وهو قائد الفرقة، القائد الميداني لذلك الهجوم الكبير الذي ضمّ عدّة فرق.

في ما بعد، عندما تقصّيتُ طريقة استشهاده، قالوا إنّ الجهة التي أتته منه الرصاصة لم تكن جهة المعسكر، بل جهة قوّاتنا تحديداً. كانت الصدمة التي لم تتركني لعدّة أيّام قضيتها في مراسم العزاء في قريته البعيدة، قويّة عليّ وعلى الرفاق بحيث إنّ العديد منّا تعاهدنا في الحال على أن نُدفن بالقرب منه... ولم أفِق منها إلّا على وقع صدمة أكبر. وهكذا هي حال الصدمات الهائلة التي تقصم الروح وتفقدك كلّ الاتجاهات والمعاني. لن تدعك في حالك إلّا إذا حلّت الأشدّ منها. فبينما كنتُ فرحاً جدّاً وقد أزاحت عنّي رسالة آوات كردستاني التي دخل عليّ بها رؤوف، مسؤول اللاسلكي فور وصولي كلّ عناء الطريق، وقال قبل أن يترك الغرفة: جاء آوات إلى هنا وانتظرك أكثر من أسبوع، وبالرغم من محاولاتي، رفض أن أخبرك لتعود، مُقدّراً انغماسك في مراسم عزاء الشهيد دلير، وسلّمني هذه الرسالة لك قبل مغادرته.

لن أنسى أبداً، عصر ذلك اليوم الذي استدعاني فيه دلير جاف إلى بيته، وكان ذلك قبل استشهاده بأكثر من عامين. دخلتُ عليه وهو جالس مع ضيف كان في أواسط عمره. حين أخبرني عن الضيف وعمله فرحت وقلت: إذن، فقد جاء ضيفنا العزيز لكي يلتحق بصفوف الثورة.

ضحك دلير جاف، بينما دخل الضيف في حالة ارتباك مشوبة بالخوف، وأخذ يترجّاه ألّا يبوح بالسرّ، لكنه أخبره بأنّه لا يُخفي عني شيئاً، وأنّني سأؤيّده في أيّ قرار يتخذه. في النهاية قال وهو لا يزال مستغرقاً في ضحكته: بل إنه آتٍ لكي يدعونا إلى أن نكون معهم، وهو يعرض مبالغ وامتيازات خيالية.

كان صعباً جداً أن أصدّق ما أرى. كيف يمكن لضابط في المخابرات أن يصل به الجنون إلى أن يأتي إلى عمق المناطق التي تسيطر عليها قواتنا، وينزل ضيفاً على أحد كبار القادة العسكريين في المنطقة، ويعرض عليه فتح قناة اتصال مع النظام، هكذا بدون مقدّمات؟ وخصوصاً أنّني علمت في ما بعد أنّه كان صاحب خبرة، وعمل في الداخل والخارج، وأنّه يحمل رتبة كبيرة، وأن له باعاً في مجال الاغتيالات كما اعترف هو في نفس الليلة، أثناء الاجتماع الذي دعا فيه دلير جاف جميع أركان قيادة الفرقة، فيما شدّدنا الحراسات والكمائن بحيث شملت بالإضافة إلى مقارّنا، كلّ القرى الواقعة بالقرب منها، فقد كُنّا نستعد لكلّ الاحتمالات.

بعد ذلك ظلّ الضابط محتجزاً في مقارّنا يُعامل معاملة الضيف المحدود الحركة. وحين دعانا دلير جاف لتوديعه اعترضت مُستغرباً من إطلاق سراح عدوّ على هذه الدرجة من الخطورة، لكنه ألحّ

أن علينا توديعه، لأنّه سيذهب في حال سبيله. في تلك اللحظة، دهمتني جميع أنواع الشكوك التي تخطر على بال البشر. في ما بعد علمتُ أنّه قد نُقل إلى مقارّ القيادة المركزية للمنطقة، وهناك استُجوب طويلاً، ثم نفّذت قرار القيادة مفرزةٌ اصطحبته إلى قرب أحد معسكرات الجيش، ونفذت به حكم الإعدام رمياً بالرصاص، وأكدت نشرة محطة إذاعة الثورة الخبر الذي أذاعته عصر ذلك اليوم.
بينما أنا ثمل حتّى الروح في قراءة رسالة آوات، دخل رؤوف من جديد ونطقها، هكذا دون أيّ مقدّمات: لقد استشهد آوات...
تسمّرت روحي وعيناي، غير مصدّق، كيف ذلك وأنا قد تسلّمت رسالته في الحال؟ ولم يبق لي سوى أن أقول: مستحيل! لا أصدّق، ها هي رسالته، فكيف استشهد خلال هذه اللحظات؟ أمّن لي اتصالاً مع ميران فوراً.
اثناء الاتصال قال ميران: لقد كان في الفترة الأخيرة متعجّلاً للقائك، وأصرّ على إجازة يقضيها معك، كما أخبرني بعد عودته.
– أخبرني كيف استشهد؟
– كالأبطال تماماً، لقد كان بقربي، نُطلق النار معاً، بغية تأمين انسحاب جميع أفراد قوتنا، لكنه استشهد في اللحظة الأخيرة بصورة بطولية، لدرجة أجزم لو أن الناس شاهدوا الأحداث في فيلم لما أمكن أن يصدّقوها أبداً...
في اليوم التالي سردت إذاعة صوت شعب كردستان القصّة بالتفصيل، فاستشهاد عربي كان قد غيّر اسمه إلى اسم كردي وحمل لقب الكردستاني، وبتلك الطريقة الاستثنائية، كان حدثا فريداً بكلّ ما فيه. كانت القوّة قد هاجمت ثكنة للجيش، بعد أن عاد يائساً من لقائي الذي لم يتحقق، بيومين قضاهما في الطريق، أصرّ هو على الالتحاق بالقوّة المهاجمة. وكان أفراد الثكنة وأسلحتهم وتحصيناتها، أكثر من التقديرات، وبدأ عتاد قوتنا ينفد، فصدر أمر بالانسحاب لتقليل الخسائر. لكن آوات وقف ببقية عتاده على السلك الشائك للثكنة مطلقاً النار ريثما يتم تأمين انسحاب القوّة بأكملها. ومع انسحاب آخر أفرادها، كان قد أصيب جسده كلّه بنيران كثيفة من عدة بنادق للجيش...
كان آوات شاباً عربياً بغدادياً، وكان النظام قد وضعه في ثكنة تقبع فوق رأس قرية، لكي يقمع سكّانها، فتحوّل في لحظة نادرة إلى ابنهم الذي يحميهم، ومن خلالهم التحق بالثورة حاملاً السلاح ضد النظام، ليُصبح ابناً لكلّ أهالي القرى والمناطق التي مرّ بها، بلكنته الكردية الفريدة من نوعها. دهمني اشتياق جامح لسماع صوته الذي لن أسمعه إلى الأبد، وانتصب أمامي بقامته الرشيقة ووجهه الصغير الجادّ، وهو يدندن من جديد بسيدة الأغاني:
«جاوبني تدري الوكت بوكاته غفلاوي
موش أنت نبعة عشك بالحسن متغاوي
ليش المعاتب كلّف والشوك سكتاوي
جا وين أودي الحجي واتعاتب ويا من».
ولم أدر بنفسي إلّا وسيروان ينهرني لأنّه رأى دمعة غاضبة في عيني، بينما كنت أستمع إلى المذياع بصمت البندقيّة التي نفدت ذخيرتها بالكامل...
عصر ذلك اليوم الخريفي الذي تشاجرنا فيه كعادتنا أنا وسيروان قبيل كلّ معركة، كان قد مرّ على استشهاد كلّ من دلير جاف وآوات أكثر من شهرين بقليل. كانت تقاليد الثورة تقضي بعدم اشتراك

الأشقاء في الهجوم المباشر اثناء المعركة، فكان ذلك كافياً لكي يتحول إلى خلاف بيني وبينه، على من منّا يُشارك في الاقتحام، وتم الحلّ بأن أقنعنا القائمين على الأمر بمشاركة كلينا. كانت المعركة كبيرة، تمكنت الفرق العديدة من السيطرة على كلّ الأهداف ما عدا ذلك المقرّ الكبير العاصي، الذي لم تمنع تحصيناته الخرافية سيروان من اختراقها، فكان استشهاده نتيجة عمل بطولي، أقرب إلى الاندفاع المتهوّر. في تلك المعركة فقدنا عشرين فرداً من رفاقنا، وعلى عدّة مستويات من الرتب والمسؤوليات. وعدا ذلك المقرّ، فإننا سيطرنا على جميع الأهداف، وحدث ذلك كلّه، على مرأى المدينة الكبيرة، التي خرجت ليلتها على أسطح المنازل ترقب المعركة التي دامت حتّى الصباح التالي وانتهت بإسقاط طائرة مروحية.

غالباً ما كُنّا نحلّ الخلاف الذي كان يتجاوز حدوده إلى المشادّة في بعض الأحيان، بأن نتمرّد على تلك التقاليد وكانت النتيجة أننا كنا نشارك معاً في عملية الاقتحام. لكن تلك المرّة عدتُ مُحمّلاً بجسده الأقرب إلى الغيبوبة نتيجة جراحه البالغة التي لم تُمهله أكثر من ليلة واحدة، وأدّت إلى استشهاده في صباح اليوم التالي. كان استشهاده قاسياً لدرجة منعتني من البكاء، أحسست به ينهض وينهرني عن البكاء، ولم يُبق لي سوى أن أصرخ بالرفاق الذين انهاروا باكين: من لا يستطِع أن يقف كرجل في حضرة شهيد، فليرمِ بندقيته عند قدمَي الشهيد وليذهب ويبكِ مع النسوة... وما زاد في قسوة استشهاده، أنّ الدكتور فائق كان قد أخبرني ليلتها، بأنّه تعدّى مرحلة الخطر. كان الدكتور فائق أحد الأطباء القلائل الذين التحقوا بالثورة. كان شجاعاً كوالده الذي استشهد قبل الانهيار الأكبر بطريقة اسطورية، قيل إنه، وبعد نفاد عتاده، هاجم بخنجره عربة عسكرية مدرّعة.

ووصمني ذلك كلّه بالقسوة التي لم تتركني في ما بعد.. فكانت الحصيلة النهائية لكلّ ما حدث، هو أن تمرّد سيروان أخيراً، على كلّ معايير الشجاعة، فترك الحياة برمّتها، وتمرّدتْ دموعي أنا، على عينيّ.

لم يبق لدينا خيار سوى الهرب والتمرُّد بغية التفاهم مع القيادة العليا على حلّ، اشترطنا فيه كلانا على أن يتضمّن تحقيقاً في كلّ التهم المنسوبة إلينا، على أن نبقى طيلة فترة التحقيق شُبه محتجزين في أحد المقارّ بعيداً عن السجن المهين. فقد فشلت كلّ جهودنا في إقناع القيادة بأن يبقى أنور معي في ضيافة المقرّ الإقليمي للقيادة، وإيغالاً في إهانته، حُدّد موعد إيداعه سجن الثورة الإقليمي الذي كان يضمُّ الخونة والجحوش والجواسيس والجنود والضبّاط الأسرى. كان عليه أن يقبل بمساواته باللصوص والخونة والجواسيس، فلم يبق مفرّ سوى الهرب مساء اليوم الأخير، والتحق بنا اثنان من أقرب رفاق السلاح.

دامت فترة تمرّدنا التي بدأت ذاك المساء بتجنبنا لكمائن كلّ فرقنا المتمركزة في المنطقة واستمرّت مدة اربعين يوماً... تخللتها العديد من كمائن رفاقنا، ووجبات يومية وليلية من التمشيط وكمائن الجيش والجحوش وكلّ أجهزة النظام التي كُنّا نصطدم معها احياناً... كما تخللتها ضغوط هائلة من رفاقنا وأعدائنا على حدّ سواء، في محاولات لأسرنا أو إجبارنا على الاستسلام للنظام. تزامنت كلّها معها إغراءات هائلة من النظام بأموال ضخمة ومسؤوليات كبيرة في الدولة، قاومناها كلّها بشراسة أقرب إلى الاستهتار. وانتهى الأمر بعد تبادُل عدّة رسائل مع القيادة المركزية، على ما عرضناه في رسالتنا الأولى، وعدنا مستقرين كضيوف قيد الاحتجاز، في المقرّ الذي انطلقنا منه متمرّدين. حينها شعرتُ بأن أقسى ما كان في الأمر كلّه هو كمّية الإشاعات المخجلة التي ظلّت

تُطلق طيلة الأربعين يوماً ضدّنا، إذ كان أغلبها صادراً عن رفاق لنا. على الجانب الآخر كان الناس والكثير من أفراد قواتنا ينظرون الينا كأبطال، فكلّ متمرّد يحظى بصورة بطل.
وأنا أستذكر كلّ ذلك في هذه المقبرة الموحشة، متربّعاً عند قدمَي قبر آتيلا، تنهال الآلام بقسوة شديدة في محاولة للتعبير عمّا كان أقسى وأشدّ إيلاماً بكثير حتّى من إشاعات رفاقنا الظالمة، واتهاماتهم الباطلة التي فنّدتها محكمة الثورة التابعة للمنطقة، والتي كانت تضُمُّ قضاة، أكملوا دراسة القانون ومارسوا العمل القانوني والقضائي لعدة سنين. إلا أن كلّ ذلك لم يُنه المشكلة، إذ وصلت برقية من قيادة حزبنا، تؤكد وجوب خضوعنا للجنة تحقيق خاصة، تُشكّلها القيادة العليا للحزب، وهذا يفرض علينا التوجّه إلى هناك من جديد. المؤلم في الأمر هو أن كلّ ذلك بدأ بعد استشهاد سيروان بأسابيع قليلة.. وهذا كان يمكن أن يؤدّي بأسرتي إلى فقدها لابنيها الكبيرين، خلال أسابيع، الأول شهيداً، والثاني مُتّهماً بشتى الاتهامات التي تُضيّع حتّى لقب الشهيد على أسرتي.
عندما وصلت البرقية، كُنّا نحن على وشك أن نُخلي المنطقة كلّها، بعدما أنهى الجيش عملياته الضخمة التي كان يبدأ كلّ مرحلة منها ويفتتح كلّ بيان رسمي صادر بالآية التي تنصّ «يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول». بالرغم من وضعنا المعلق واتخاذ قرار بتجميدنا من تولي المسؤوليات لفترة، قطعتُ فترة تجميدي التي كنت أقضيها منذ أيام في تلك المنطقة، والتحقت في ذلك الشتاء القاسي بالقوات المتجهة للدفاع عن مقارّ القيادة، وهناك دخلنا المعارك فوراً، ولم نعد منها إلّا بعد تدمير تلك المناطق واحتلالها بالكامل من قبل الجيش والجحوش. ولذلك لم تكن هناك أدنى فرصة للمثول أمام لجنة التحقيق العليا، وانتهت بمقاومتنا اليائسة عن مناطق المرحلة الثالثة من الأنفال وإخلاء المنطقة بالكامل، بعد تدميرها من قبل الجيش ووداع آتيلا الأخير لفاطمة الذي أبكى الجميع.
عندما جاءني الفتية الذين أصرّ آتيلا بعد ذلك بأشهر على تسميتهم بأصحاب الكهف، دارا وسيوان وسلام، كانت القيامة قد قامت فعلاً، والناس وقواتنا تائهين بين من يستسلم للجيش وبين من يعدُّ العُدّة لترك المنطقة، وبين قلة قليلة جداً، قرّرت البقاء بين الخرائب، للاستمرار في المقاومة والنضال المسلح وعدم الرضوخ لحالة انهيار جديدة مهما كلّفهم الأمر. بالرغم من اختلاف آرائنا وانتمائنا الحزبي، آثروا أن يبقوا في تلك الخرائب معي، وكان مجيئهم للطلب مني أن أبقى لأقودهم في تلك المهمّة المستحيلة. أمام كلّ تلك الشجاعة، وأمام كلّ تلك الثقة الهائلة، لم أملك سوى أن أقبل بكلّ سرور. لكن أنور تدخل وجاءني ببرقية جديدة من قيادة الحزب تؤكد الإسراع في الذهاب إلى القيادة في مقارّها الجديدة، والمثول أمام لجنة التحقيق المركزية، لكنه حين رأى إصراري على البقاء، قال بعصبية: هل نسيت كلّ الاتهامات والاشاعات التي طالتنا؟ أبشّرك يا عزيزي، بأنك حتّى لو استُشهدت هنا، فلن يحسب ذلك، لا لك ولا لأهلك، بل سُيفسّر بقاؤك على أنّه تهرّب من المثول أمام لجنة التحقيق العليا.
تمكن أنور في النهاية من إقناعي، بحجّة أننا سنذهب مع القوات المنسحبة، ومتى ما هدأت المعارك سنتوجّه بأقصى سرعة إلى اللجنة، مُعلّلاً رأيه بأننا لا يمكن أن نترك رفاقنا في ساحة المعارك اليائسة. كان أنور شجاعاً إلى حدّ التهوّر، مثقفاً حاصلاً على شهادة دبلوم، يعرج في مشيته نتيجة الإصابة البالغة التي أدّت إلى قصر في إحدى فخذيه... ولم يشفع له كلّ ذلك. لا بل حتّى استشهاد شقيقه بعد اندلاع الثورة من جديد بثلاثة أعوام، عجز عن أن يمنحه بعض الحصانة

من الإنصاف. فشاء الوجه الآخر للثورة أن يسقيه كلّ تلك المرارات المخجلة. لكنه على الرغم من كلّ تلك المظالم، استُشهد بتفرّد عجيب، إذ إنه وفقاً لروايات من داخل الجحوش، ظلّ يقاوم إلى آخر طلقة، وبعد أن يئسوا من إخضاعه قرّر الضابط أن يضعه على متن إحدى المروحيات التي كانت تقصفنا أنا وبقيّة رفاقي في تلك المنطقة، التي نجونا منها نتيجة أعجوبة استشهاد طاهر في اللحظات الأخيرة. وحين وصلت المروحية إلى أعلى نقطة في السماء، قذفوا به مُثخناً بجراحه الكثيرة، ومن دون بندقيّة هذه المرّة. فتذكرتُ تلك الليلة التي هربنا فيها معاً، حين حاولتُ إجباره على أن يحمل بندقيّة أحد البيشمركة، فقد نُواجه قوات كبيرة، لكنه... وها هو يقوم ليتجسّد أمامي بشحمه ولحمه ولهجته العصبية يقول بنبرته الرقيقة السريعة: لا يمكن أن آخذ بندقيّة بيشمركة، تكفينا بندقيتك إلى أن نصل إلى حيث أستعير بندقيّة من أحد الأصدقاء، فنحن اتفقنا على الثبات على نهج الثورة، وكان هروبنا من أجل الحصول على فرصة نثبت فيها براءتنا لا أكثر.

حين بلغنا خبر انهيار ذلك الكهف الغادر، الذي تعلوه شجرة الخضر الوحيدة في كلّ المنطقة والمسمّاة داري خله، كان قد مضى على المعارك الأخيرة التي أدّت إلى انتقالنا للشريط الحدودي الضيّق، مجرد أشهر. وكان ذلك قبل أن ينزل آتيلا مع المفرزة التي كان يقودها ميران بأكثر من عام. في البداية لم نستطع التصديق، وحامت الكثير من الشكوك حول سبب استشهاد رفاقنا السبعة تحت ركام ذلك الكهف الذي انهار عليهم في لحظة اطمئنانهم إليه، مُنهياً بذلك حياتهم معاً. ظلّ آتيلا يصرّ على تشبيههم بأصحاب الكهف الشهير، ما حدا بأحمد ماركس إلى السخرية منه مُجدّداً. وكان ذلك قبل أن تُغيّر الصدمة قناعاته وحتّى سلوكياته وثوابته، تلك الصدمة التي خلقتها الأحداث العالمية التي بدأت بانهيار ذلك الجدار الشهير، الذي تلاه انهيار كلّ ما كان يرمز إليه. يومها ردّ أحمد الذي كان لا يزال يُلقب بماركس، على آتيلا بثقته العمياء بقدسية ما يؤمن ويقول: الفرق بين رفاقنا وأولئك، هو أن رفاقنا حقيقيّون، بينما أصحابك في الكهف المذكور في الكتب الدينية، هم مجرّد خرافة.

– استغفر ربّك يا رجل، هذا كفر.

فقهقه أحمد مُغتاظاً: متى تدع عنك هذه الخرافات؟ أوليس هذا خضركم الذي تدّعون أنّه حيّ لا يموت، فلماذا لم يحمهم والكهف ينهار عليهم تحت قدميه؟ كفى تخلفاً ورجعية...

كانت تدور حول هذه الشجرة المعروفة بـ«داري خله»، أي شجرة الخضر الحيّ، حكايات كثيرة، وخله هو الاسم الذي يُطلق في اللغة الكُردية للتحبيب على كلّ من يحمل اسم خضر. إلّا أن أكثر الحكايات شيوعاً وترديداً بين الناس هي أن الخضر حين هرب من بطش الطاغية وظلمه، تعرّض لعذابات جمّة، ووصل إلى تلك البقعة مضرّجاً بالدم ومُبللاً من شدّة المطر، الذي كان ينزل عليه هو وحده دون ما يحيط به، وأن المحيط كلّه كان مجرد تلال جرداء، في هذه المنطقة الحارة أصلاً، وأنّه حين ركع، لم يشهد أيّ اخضرار كالعادة، وحين سجد ووضع رأسه على الأرض باكياً، نبتت في موقع الدمعة الوحيدة العاجزة التي سقطت من عينه، تلك الشجرة العنيدة التي يُقال إن مرارة طعم ثمارها تعود إلى مرارة دمعة الخضر تلك. فقرّر الآغا الذي كان يملك المنطقة ويحكمها، أن يزرع تلك المنطقة التي غُطيت بأكملها، بغابة من الأشجار التي زرعوها.

مرّت أعوام والناس يحجّون للشجرة التي كانت تتوسّط الغابة المستحدثة، فتشفيهم من أمراضهم وكروبهم، لا بل حتّى النساء العواقر، كُنّ ينجبن بعد الحجّ إليها بفترة وجيزة. وبعد مرور أعوام كثيرة، ظهر حفيد ذلك الآغا الذي كان قد نقل مقارّ إقامته إلى سفح جبل زرده الذي يطل من بعيد

على المنطقة كلّها. وقد كانت زوجته التي يعشقها ويغار عليها بجنون لا تلد له من يرث عرش الحكم من بعده، فنصحه القاصي والداني، بأن تحجّ زوجته إلى «داري خله» الذي سيضمن لها الإنجاب بإذن الله. فكان أن جهّز قافلة لزوجته وأركبها بغلة قوية برفقة بعض الحرس والخادمات. إلاّ أن الكارثة حلّت، حين طال انتظار الجميع وزوجة الآغا لا تزال عاقراً، بل زاد على ذلك أنّها أصبحت عاجزة عن المشي على قدميها، بينما ولدت البغلة التي انطلقت على ظهرها زوجة الآغا نحو الشجرة، توأماً من ذكر أسود وأنثى بيضاء.

كانت زوجة الآغا مغرورة جداً، وكما تقول الحكاية فإنها كانت قد حجّت إلى الشجرة وطافت حولها سبع مرات متتالية، لكنها لم تنزل للطواف على قدميها، بل طافت وهي ممتطية ظهر تلك البغلة، فحملت البغلة توأماً عجيباً، بينما هي بالإضافة إلى عدم إنجابها، أصيبت بالشلل الذي أقعدها بقيّة عمرها. فما كان من الآغا إلّا أن سلّم البغلة وتوأميها لأحد رجاله لكي يتخلص منها، وجيّش قوّة وأغار على الغابة التي أضرم النار فيها، ما أدّى إلى تحوّلها بالكامل إلى رماد. لكن الشجرة العنيدة «داري خله»، لم تمسّها النار، بل ظلت محتفظة بنضارتها الكاملة وثمرها المرّ وكلّ أوراقها الخضراء دائماً، ما حدا بالآغا إلى اصدار الأوامر بمعالجتها بالفؤوس.

كلّ من اقترب منها أصيب بنوع من الدوار المؤقت، الذي أوقعه في مكانه، فاضطرّ الآغا نفسه إلى ضربها بالفأس التي علقت في جذع الشجرة، التي نزفت دماً كثيراً أصاب الآغا بجنون فاضطرّ أهله إلى تكبيله بالسلاسل في غرفة معزولة، إلى أن مات مكبّلاً بها وحاملاً آثارها القوية على جلده في كلّ مكان من جسده. وتقول الحكاية أيضاً إن رجل الآغا أخفى البغلة وتوأميها، لأنّه كان مأخوذاً بمعجزة ولادة بغلة لتوأم، بينما البغال حيوانات عاقرة، لا تلد أصلاً، وأنّه قام بتربيتهما إلى أن كبرا وأنجبا جنساً جديداً من الخيل، أشبه بالحصان في رشاقته وجماله، وأقرب إلى البغال من حيث القوّة والصبر وتحمّل الصعاب، فسُمّيت بالفرس الخليّة التي ظلّت تشتهر بها تلك المنطقة دون سواها، والتي كانت لا تلد منها إلا اللونين الاسود والأبيض فقط.

49

«إلهي، ليس لديّ هذا الفضول، فلتحفظني من التعصّب، ولتطهر روحي من التعصّب».
فريد الدين العطّار

كُنّا حابسين أنفاسنا مع العالم كلّه، بينما نتابع الأخبار التي تتحدّث عن الأزمة التي نتجت عن اجتياح قوّات الجيش للجارة الجنوبية وإعلان ضمّها بعد ذلك بأيّام قليلة. من خلال المذياع وزيارات رفاق الداخل وهم مُحمّلون بالرسائل والتقارير التي يحملونها للاتصال بأكبر عدد ممكن من الناس للتهيّؤ لانتفاضة المدن، كانت تصلنا أخبار متناقضة. وها هو الرئيس يحبس أنفاسنا مُجدّداً، باحتمال سحب قوّاته نتيجة ضغط دول العالم والقرارات الأممية التي أخذت تصدر بوتيرة متسارعة غير مسبوقة من قبل، أو قيام الحرب التي لا يعلم أحد نتائجها. كان احتمال سحب قواته، يعني أنّه لن يواجه الحرب، وهذا يُضيّع علينا فرصة إشعال انتفاضة المدن.

ثمّ في فجر ذلك اليوم الشتوي الحامي، بدأت الحرب مجدّداً. كانت تحرّكاتنا قد بدت أسهل وأكثر راحة من ذي قبل، وكانت تقارير رفاق الداخل التي أخذت تتحدث عن سوء بدأ يظهر في المستوى المعيشي للناس نتيجة غلاء سريع وغير مسبوق، تخبرنا أيضاً عن وصول استياء الناس إلى أقصى درجاته، وهو ما خلق لديهم حالة الاستعداد لأيّ تحرّكات تطلبها منهم الثورة وتكون قريبة منهم لتقودهم وتدعمهم. كلّ ذلك فرض علينا الانتقال إلى أقصى النقاط قرباً من المدن، لا بل حتّى دخولها والبقاء فيها متخفين بانتظار اللحظة المناسبة التي حانت أخيراً وكانت أسرع من كلّ التقديرات.

كان الأمر غير قابل للتصديق. خلال ساعات انهارت كلّ مقاومة النظام وأجهزته. وبدأ سقوط المدن يتوالى يومياً بينما الناس العزّل يحصلون على بنادق، ويهاجمون أجهزة النظام ويستولون عليها خلال ساعات معدودة. خرج الناس فرحين بانتصارهم، يهللون في الشوارع غير آبهين بتحذيرات القلة من ردة فعل النظام وقصفهم مُجدّداً بقنابل الموت الجماعي الخانق بصمت. أخذت اللجان التي شكّلتها القيادة من قبل، لإدارة أمور كلّ مدينة وبلدة، تتسلم مهامها وسط تعاون وفرح عاليين من الناس. كان انهيار الوضع كبيراً وسريعاً إلى درجة أن قوات كبيرة من الجيش لم تستطع الانسحاب وظلت محصورة في المناطق التي أصبحنا نسيطر عليها، بينما التحقت الغالبية العظمى من الجحوش بصفوف الثورة، بعدما أصدرت قيادة الجبهة الكردستانية عفواً عن كلّ من ينضمّ إلينا، بينما التحق بعض الأفراد الموغلين منهم في الخيانة والإجرام، بفلول النظام التي تمكنت من الهرب جنوباً.

بدأ ذلك الانهيار مع انتهاء الحرب التي لم تدم سوى أسابيع قليلة، وانتهت بهزيمة النظام وإخراج جيشه من أراضي الدولة الجارة. وكما كانت الحرب، كانت انتفاضتنا أيضاً خاطفة وسريعة، بحيث تم تحرير كلّ مدننا في غضون أسبوعين لا أكثر. لن أنسى، ولن ينسى أبداً كلّ من عاشوا تلك اللحظة التي توّجت نوروز هذا العام، بتلك البرقية التي بثتها إذاعة الثورة والصادرة من الرجل الثاني، الذي كان يقود الوضع الميداني شخصياً، إلى ممثلي كلّ الاحزاب الكردستانية يدعوهم فيها إلى لقاء في ذلك المساء في مبنى المحافظة وسط مدينة النار الأزلية، تلك المدينة المقدسة التي من أجلها انهارت اتفاقات الثورة السابقة، وانتهت بيوم الانهيار الأكبر. كان ذلك نوروز الانتصار

النهائي. وبدا كأنّه للمرة الأولى، ليس النصر الكاذب الذي يسبق انهياراً مروّعاً يقضي على كلّ آمالنا وأحلامنا. فقد فاقت تلك البرقية كلّ حدود الأحلام التي مرت علينا قبل ذلك.
كانت قطعات الجيش وأفراده يستسلمون بكلّ سهولة، مرعوبين من ردة فعل الثورة والناس، الذين كانوا على الرغم من مرور أكثر من عامين، لا يزالون تحت وطأة معارك الأنفال التي كانت تبدأ بتلك الآية الكريمة وأدّت إلى تدمير البلاد وهزيمة الثورة. وكُنّا قد سمعنا حينها أن بعض الناس ممّن تعرضوا للسجن والتعذيب، قيّدوا جثة مفوّض الأمن شيركو، الذي كان أحد أعوان النظام من أبناء مدينتهم في الساحة الشهيرة التي تتوسّط المدينة الكبيرة... ومنعوا إنزالها ليومين متتاليين.
كانت حكايات من هذا القبيل كافية لتصيب غير الكرد من أفراد الجيش بالذعر، إلّا أن ما حدث كان في غاية الغرابة. فقد أخذ الناس يؤوون الجنود في بيوتهم، ويطعمونهم ثمّ يعطونهم من ملابسهم، ثمّ يؤمّنون لهم الطريق للعودة إلى بيوتهم. وكانت هذه الظاهرة عامّة، لم تكد مدينة أو منطقة تخلو منها، ما أدّى إلى إيواء وإعادة الآلاف من الجنود العرب إلى مدنهم وبيوتهم سالمين.
كانت حالة عجيبة بحيث أدّت إلى استياء وغضب كبيرين، من جنكي الكاردوخي، ودخوله في مشادّات معي أنا وبعض الرفاق الآخرين وخصوصاً شاسوار، الذي على العكس تماماً من كلّ التوقعات أصبح في حالة غريبة، سيطرت عليه بالكامل. كان جنكي هو الاسم الكردي الجديد الذي يحمل في معناه دلالات قتالية، وأصبح يحمله أحمد الذي استبدل كذلك كنيته القديمة «ماركس»، بالكاردوخي، وهو الاسم الذي كانت تحمله إحدى السلالات القديمة للكُرد منذ آلاف السنين. لم يتغيّر منه سوى الاسم وبعض المفردات اليسارية التي استبدلها بمفردات وعبارات قومية متشدّدة للغاية. كان هذا التغيير الغريب قد طرأ عليه بعد مرور فترة على سقوط ذلك الجدار، الذي غيّر وجه العالم بأكمله، والذي أدخل شاسوار في حالة جديدة.
تلى انهيار ذلك الجدار على بعد آلاف الأميال منّا، هروب وسقوط مجموعة من الحكّام، وإعدام البعض منهم فوراً، بأيدي الشعوب المنتفضة بغضب عارم. كلّ ذلك دفع بالجميع إلى الإنصات جيداً لتنظيرات شاسوار الذي أخذ يتحدث عن حقبة عالمية جديدة، تنبئ بانتصار الثورات. وكان يذكّرنا اثناء النقاشات بأنّه كان يخبرنا أن تلك الجنّة الاشتراكية المزعومة لم تكن سوى وهم لا أصل له، وأن سقوط كلّ تلك الأنظمة الحاكمة في تلك الدول، سيؤدّي لا محالة إلى تغيير النظام فيها، مما سيُدخل العالم كلّه في نظام سياسي جديد... فكان أحمد ماركس يعانده في البداية، وحين يُواجه بالسؤال عن نتيجة كلّ ما نرى، كان يكتفي بالقول: كلّ ذلك ليس سوى مؤامرة إمبريالية رجعية، سرعان ما تنتهي بعودة الاشتراكية التي ستعمّ العالم كلّه.
ثمّ، شيئاً فشيئاً، دخل في حالة اكتئاب وحزن، تجسّدتا في سلوكه الغاضب والعدواني بعض الشيء. وظلت حالة الحزن هذه تتصاعد باطّراد مع تفاؤل شاسوار. لم تطل حالة أحمد ماركس كثيراً، فأخذ يُعبّر بشيء من العنف عن قناعاته الجديدة المضادّة تماماً لقناعاته السابقة، حتّى وصل به الأمر إلى الكفر بكلّ ما كان يمتّ بصلة إلى فكره القديم، إلى حدّ جعله يتخلى حتّى عن اسمه، لأنّه ليس اسماً كردياً بالأصل، واختار اسمه الكردي الجديد «جنكي»، وكنيته الجديدة «كاردوخي».
لم يدم الوضع الجديد المغرق في الفرح كثيراً، فمع ورود أنباء عن قمع انتفاضة الجنوب بقسوة ووحشية، قيل حينها إن صهر الرئيس، المسمّى حسين، دكّ الصحن الحسيني في تلك المدينة الجنوبية المقدّسة التي لجأ إليها الهاربون من بطش الجيش، وإن صهر الرئيس كان وهو يدك الصحن الحسيني بالقذائف المدفعية، يصرخ: سأثبت لك اليوم، أيٌّ منا هو الحسين بحق.

بدا كأن الجيش قد تفرّغ للتصدّي لنا مجدّداً، ومع وصولنا إلى مشارف حدود كردستان التاريخية، بدت مهمّة التحرير أصعب بكثير، ومقاومة الجيش أكثر شراسة، ما زاد في تعكير مزاج شاسوار المُتغيّر أصلاً. فبالرغم من مسحة الحزن والتشاؤم التي كانت بادية بوضوح في عينيه وصوته، كان أكثرنا إيماناً وثقة بانتصار الثورة. لذا كُنّا نعتبره الأكثر تفاؤلاً، لكنه بعكس كلّ التوقعات، زادت مسحة الحزن هذه، بعد الانتفاضة وتحرير المدن، وتحوّلت إلى استياء واضح، صبغته ضحكته المقهقهة الساخطة.

علقنا على جنوب مدينتنا، حيث كان الجيش قد ترك مواقعه لقوات من المعارضة الإيرانية التي يبدو أنّها رأت في سقوط النظام نهاية ملاذها. فتصدّت لتقدّمنا بشراسة. وكانت تلك القوات مقاتلة متمكنة وتستخدم تكتيكات قتالية مفاجئة وجديدة علينا. فجأة! وصلتنا أخبار عن استشهاد حمه رش، فكانت ضربة محزنة حقاً، لقد قضى عمره كلّه في سبيل تحقيق نصر لم يعش لينعم في ظله. وعلى الرغم من استشهاد والده وأحد أشقائه، إلّا أنّ ميران رفض ترك المعركة وظلّ يقود رفاقه بصلابة وليس بحوزتهم سوى أقلّ القليل من العتاد وما بقي من أسلحة الجيش الهارب.

بدا الوضع كأننا يجب أن نحافظ على ما حققنا من مكاسب، إلى أن بدأت الأخبار ترد عن تقدّم الجيش من عدّة محاور. وأصبحت المرحلة تلك، مرحلة شائعات مضادة عجيبة. فهناك من يقول إن المدينة الفلانية استسلمت بعد قصفها بالسلاح الصامت الخانق، وبين من يقول إن المدينة نفسها تقاوم ببسالة وإن الجيش انهزم، أو إن النائب الأول لرئيس النظام قد ألقي القبض عليه حين كان مختفياً في معمل لصنع الجليد، أو في مدرسة مهجورة، أو في مقبرة على مشارف المدينة.

في كلّ تلك الفترة، التي كانت مليئة باحتضان الناس لنا، كنت أشعر بالوحدة القاتلة، وكنتُ أسأل كلّ من يصادفني عن خبر واحد عن فاطمة وعشرات الآلاف الذين سيقوا قبل ثلاث سنوات إلى المجهول. كنت أسأل الجنود الأسرى، وضبّاطهم الذين كانوا يردّون بصمت مطأطئي الرؤوس، وحتّى كلّ من كان يعاون النظام من الجحوش ورؤسائهم، لكن دون جدوى. وبدلاً من الحصول على أجوبة شافية، كانوا يغرقونني أكثر فأكثر في دوّامات الشائعات المرعبة والمتفائلة، التي تدعوني إلى أن أحصل على المزيد من القوّة والأمل في سبيل إيجادها. كانت هذه هي المرحلة الوحيدة التي أحسست فيها شاسوار بعيداً عني وغارقاً في وضعه الجديد غير مبالٍ بما أعانيه، فزاد ذلك من وحدتي وضعفي.

الشيء الوحيد الذي أصبح يعوّضني عن كلّ تلك الخسارات، ويهوّن عليّ احتراقي وبحثي العبثي المضني، كان فقط التقائي اليومي بأمّي. وأخيراً، بعد كلّ تلك السنين ها أنا أرتمي في حضنها وأترك العنان لروحي تنهمر من خلال عيني ثم أغفو في نهاية كلّ مرة، بينما أنا غارق في رائحة صدرها الذي بدا كأنّه الملاذ الأخير لي في الدنيا كلّها. فكنت كلّما سنحت الفرصة أعود إليها... آكل من الطعام الذي اشتقت إليه لسنوات طويلة، ثم أعود إلى الجبهة بسرعة، أحمل معي تيهي في ملكوت فاطمة، الذي تحوّل إلى جحيم خانق بعيد المنال.

في خضمّ تلك الأيّام الاستثنائية، سادت بلبلة كبيرة. وسيطرت على المدينة وأهلها وكلّ المنطقة حالة ذعر غريبة، فقد تواردت الأخبار عن اقتحام ثلاث دبابات انتحارية للمدينة القريبة علينا، التي كانت أسرة شاسوار تسكنها قبل انتقالها إلى مدينتنا، هرباً من عيون النظام وأعوانه، وأنّها أي الدبابات، قد تجاوزت خطوط قواتنا المقاومة، وهي تلوّح لمقاتلينا الذين فتحوا لها الطريق، ظناً منهم أنّها دبابات جاءت للاستسلام، أو أن وحدات من قوّاتنا، أو حتّى من المنتفضين، استولوا

عليها، لكن الدبابات واصلت تقدّمها إلى وسط تلك المدينة القابعة قرب النهر في تلك البقعة المنبسطة، وأخذت تطلق النار عشوائياً، ما أدّى إلى استشهاد العديد من المدنيين بينهم شاعر المدينة. بعد عملية الاقتحام تلك، كان الجيش قد بدأ هجومه على مقدّمة قواتنا هناك، في ظلّ البلبلة التي أحدثتها عملية الاقتحام، كانت المعركة قد صارت أكثر تعقيداً على قواتنا المرابطة في تلك الجبهة، مع ذلك قيل إن المعركة كانت شرسة قاوم فيها مجموعة قليلة من رفاقنا بضراوة. في ما بعد تبيّن لنا أن من قاموا بتلك العملية الجنونية، هم وحدات من نفس قوات المعارضة الإيرانية، التي تصدّت لزحف قوّاتنا نحو الجنوب على مشارف مدينتي القديمة.

حين وصلتنا تلك الأخبار، وأنباء سقوط بعض مدننا بيد الجيش من جديد، ووصول تعزيزات كبيرة للجيش كُنّا نراها تنتشر بالقرب من مواقعنا، بدا الأخ جنكي الكاردوخي، أو أحمد ماركس سابقاً، في غاية الاستياء والغضب وتعلو نبرته المعاتبة الكثير من الشماتة. وتوجّه لنا بالسؤال، بينما كُنا نحن الثلاثة جالسين نتناول غداءنا في الجبهة: أتعرفون من هؤلاء الذين قدموا منذ البارحة؟

اجبته: إنهم أفراد الجيش، هل لديك معلومات أخرى أكثر تفصيلاً؟

قال مستاءً: نعم، وأكاد أعرفهم فرداً فرداً، إنهم كلّ أولئك الجنود الأسرى الذين كان السُذّج منّا، يعطفون عليهم ويؤوونهم، ثم يسمحون لهم بالرحيل إلى أهاليهم لكي يعودوا إلينا مسلحين يهاجموننا ويدمّرون بلدنا من جديد. وحين رأى حالة الصمت وعدم الرد عليه، استدرك هذه المرّة مُصعّداً من لهجته الهجومية، وبدا كأنّه هو المنتصر الذي كان على حق وقال: طبعاً! ليس لديكم ما تردّون به، ألم تكونوا أنتم أيضاً، من السُذّج الذين أيّدتم تلك السياسة الخائبة؟

حينها انفجر شاسوار قائلاً: متى تتخلى عن تعصّبك هذا، أليس هؤلاء الجنود من الذين كنت تفضّلهم علينا، باعتبارك مناضلاً أممياً لا تعترف بالحدود والقوميات، يا رفيق أحمد ماركس؟

ردّ بنبرة أقرب إلى الخجل: كنتُ مخطئاً، وها أنتم رأيتم أن كلّ تلك الشعارات والأيديولوجيات لم تكن سوى أكاذيب. تبقى الحقيقة الوحيدة هي الأمّة، وليست الأممية الزائفة التي قمعت وأبادت العديد من الأمم.

فعاجله شاسوار بسؤاله المفاجئ: وماذا كنت تريدنا أن نفعل بهم؟

فأجاب ومن دون تردد: لو كان الأمر بيدي لعلّقتهم جميعاً، كلّهم يستحقون مصير المفوّض شيركو، أنا أستغرب، كيف لهذا الشعب أن يُمّثل هكذا بأحد أفراده الموالين للنظام، بينما يترك الأعداء الحقيقيين ويكرمهم ويطعمهم ويطلق سراحهم لكي يعودوا ويهاجمونا من جديد؟ هل رأيت سذاجة أكثر من هذا؟

اجبته بكلّ هدوء: هذه ليست سذاجة، بل تسامح درج عليه شعبنا الطيب.

– نعم الطيبة هي الكلمة المخففة التي يخدع بها السذّج أنفسهم.

– أنت لم تسمع بحكاية الإمام عليّ مع قاتله.

– وماذا فعل إمامك القاتل هذا؟

– سامحك الله، وعلى أيّ حال، يروي الهدهد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «ما إن فاجأ سيّئ الحظ الجاهل، المرتضى بطعنة، حتّى سارع الجمع بتقديم جرعة ماء للمرتضى، فقال: أين قاتلي؟ لتقدّموا الماء له أولاً، ثم يأتي بعد ذلك دوري، إذ سيكون القاتل رفيقي. فقدّموا الجرعة له! فقال القاتل: أيّ عذاب؟ أيريد الحيدر قتلي بالسم هكذا؟

فقال المرتضى: بحق الخالق، لا بأس في أن تشرب جرعتي على الإطلاق، ولن أخطو خطوة أمام الحق في جنّة المأوى دون أن تكون في صحبتي».
فضحك مُجلجلاً، إذ بدا كأنّه خرج من مأزق السؤال الذي أحرجه به شاسوار، فردّ قائلاً: تبقى أنت متمسّكاً بخرافاتك تلك. يا عزيزي... كلّهم سواء حتّى إمامك هذا، من نفس فصيلة الجنود الذين دمّروا بلادنا. فجريمة الأنفال لم تحدث قبل ثلاث سنوات فقط، بل إنها حدثت في ما مضى وقبل قرون وبالسيف، وتحت راية كتابك السماوي الذي أعطى الشرعية لكلّ تلك الجرائم، من إحدى آياته الكثيرة المُغرقة في الدم.
فقال له شاسوار هذه المرّة: لكنك تتذكّر أيضاً، أن رفاقنا من أربيل قد سردوا لنا إحدى المرات، كيف أن مسيحيّي عنكاوه ومنطقة أربيل، كانوا يدعون في الصلاة كلّ يوم أحد في الكنيسة، للملا فندي.
– لا يهمّني ما تقول، فأنت تريد أن تفرض وجهة نظرك الخاطئة بمثال كردي، حتّى تُثبت منطقك الغريب في التسامح الكاذب، ثم ماذا فعل هذا الملا صاحب آتيلا؟
– أولاً عليك أن تعلم أنّه لم يكن مجرّد رجل دين وحسب، بل كان رجلاً متنوّراً يحظى باحترام كبير في كلّ الأوساط السياسية والاجتماعية، وكان من أقوى المساندين لنضالنا القومي، فلا تُلفّق له تهمك الأيديولوجية الجاهزة دوماً.
قاطعه بعصبية: كفّ عن تبريراتك.. ثمّ استدرك مُتهكّماً: قل لي، ما هي البطولة التي استحقّ عليها دعوات المسيحيين؟
– حين حاولت قوات من الأتراك، بمساندة الكُرد الموالين للعثمانيين، مهاجمة وإبادة مسيحيي تلك المنطقة، بدعوى أنّهم من نفس ديانة الانجليز الذين هزموا الدولة العثمانية، قام الملا فندي بمنعهم، وحمى المسيحيين من مذبحة محققة. هذا هو التسامح، هذه هي طبيعة أمّتك، وليس ذلك التشدّد الذي لا أعلم من أين استوردته هذه المرة؟
في مساء ذلك اليوم بدأت الأخبار السيئة ترد من جميع المناطق. وبدأ الناس يتركون المدينة، بينما نحن كنّا لا نزال قابعين في خنادقنا ننتظر ساعة الاشتباك بالقوات، التي سمح لها المجتمع الدولي باستخدام المروحيات من جديد. حين حاولنا أن نستفهم موقف الناس الهاربين، كُنّا لا نلقى سوى جواب واحد، إنها الأنفال من جديد، وإن لم نهرب فسوف يقتلوننا جميعاً، سوف نلقى نفس مصير من سبقونا قبل ثلاث سنوات، ولن نبقى جالسين إلى أن يصلوا ويبيدونا جميعاً.
صاح جنكي الكاردوخي من بعيد: دعوهم ينفذوا بجلودهم، فالمعركة قاسية، وخصوصاً بعد أن خذلنا الأميركان مُجدّداً.
ردّ عليه شاسوار مُتهكّماً: أراك بدأت تحنُّ لأيّام الاشتراكية وأوهامها، تحت ذريعة هجومك على أميركا الرأسمالية؟
فردّ غاضباً: لو لم تنهَر الاشتراكية العالمية، لما لقينا هذا المصير مجدّداً، تبقى الرأسمالية انتهازية في كلّ الأحوال...
ردّ عليه شاسوار بحدّة: أيّها القومي المتطرّف، ألم يكن الاتحاد السوفييتي، هو من خذل القاضي محمّد فانهارت على أثر ذلك دولتنا الحديثة جمهورية مهاباد، قبل نصف قرن من الزمان؟
فرد متهرّباً من هجوم شاسوار: صدقت، ولن ينفعنا أبداً سوى النضال القومي الخالص.

كانت جيوش الحلفاء المكوّنة من ثلاث وثلاثين دولة، قد طردت قوات الرئيس من أراضي الدولة الجارة، في مئة ساعة فقط. وفي اللحظة التي بدا فيها الوضع وكأن الجيش المنتصر مُتجه لاحتلال بغداد، أعلن قائد القوات الأميركية أنّ التحالف قد أتمّ تحرير الكويت وأنّ الحرب انتهت تماماً.
وحين رآنا جنكي لا نزال نتحدّث مع بعض المدنيين الهاربين من مدينتنا، صاح مجدّداً: دعوهم يفلتوا بأرواحهم قبل أن يصل جيش الأنفال ويبيدهم تحت راية الله وكتابه العربي الفصيح.
كلماته الأخيرة أقعدتني عاجزاً على الأرض. هل يُعقل أننا جئنا نحرّر الناس، ليقعوا فريسة إبادة جماعية جديدة؟ ثمّ أنا قطعت كلّ تلك الأهوال من أجل إيجاد فاطمة. هل يُعقل أن أترك هذه البلاد مجدّداً قبل أن أجدها؟ يستحيل أن أترك هذه الأرض مجدّداً، فامتلأت غيظاً، وحملتُ بندقيتي وبدأت أطلق النار عشوائياً، صوب قوات الجيش، التي لم تسكن تحرّكاتها الكبيرة ولو للحظة واحدة.

50

«فامضِ، فإنّ هذا الطست غاصٌّ بالدماء».
فريد الدين العطّار

كان المطر النازل بهدوءٍ أقرب إلى الصمت في تلك الظلمة الموحشة، قد أضفى آخر مظاهر الحزن على مشهد انسحابنا، ونحن نقطع الطريق صوب الحدود مجدّداً. سرنا الليل بينما كان الناس جميعاً يتركون بيوتهم لدرجة إفراغ المدن من سكّانها تماماً. يا إلهي، ما الذي يحدث؟ وكيف تحوّل نوروز الانتصار النهائي، هذه المرّة أيضاً، إلى الهزيمة وانتهاء كلّ شيء من جديد؟ كان الوضع هذه المرّة أخطر وأشدّ إيلاماً من أيّ هزيمة سبقته. حتّى أثناء الأنفال التي أدّت إلى غياب عشرات الآلاف وإفراغ القرى وتدميرها بالكامل، ظلّت مدننا مأهولة بسكانها، بينما هذه المرّة يبدو أننا سوف نُخلي حتّى المدن، وبذلك لن يكون هناك وطن، لن تكون هناك كردستان.

ما زاد في إيلام الهزيمة الكبرى هذه، كان حمل كلّ هزائمي الشخصية، التي شغلتني حتّى عن آتيلا وبحثه العبثي عن فاطمة، إذ علاوة على طعنتها الأخيرة لي بزواجها، كانت الثورة بالنسبة إليّ قد انتهت في أوج لحظات انتصارها، أي حتّى قبل حلول تلك الهزيمة، التي أدّت إلى إفراغ كردستان من كلّ أهلها دفعة واحدة. أثناء معارك تحرير بعض ما بقي من مدن، وحتّى أثناء معارك الدفاع عنها، تحوّلت كلّ هواجسي من النصر والإنجاز والتفنّن في البطولة والحفاظ على أرواح الرفاق، إلى هاجس واحد فقط. وهو كيف يمكن أن أحصل على موت مشرّف في ساحة المعركة، إذ لا يليق بالبيشمركة أن ينتحر إلّا في حالة واحدة، هي عندما يُقرّر تفادي الأسر بعد نفاد ذخيرته في خضمّ المعركة. وكان سلوكي ذاك مكشوفاً لدرجة أن بعض رفاقي أحسّوا به، ووبّخوني بشدة أثناء المعركة وبعدها أيضاً.

إذن! لم تعد هي موجودة، ونكثت بكلّ وعودها في انتظاري. ولم تعد هناك الثورة التي اختزلت كلّ أحلامي وقيمي، وكانت الملاذ الأخير المعوّض لانكسار كلّ شيء. ولم تعد هناك أيضاً كردستان الحبيبة، بعد تركها خالية خاوية من كلّ ذي روح، بعد أن خرج كلّ سكانها في مشهد سمّاه آتيلا بيوم القيامة. كلّ سيّارات البلد كانت مليئة على آخرها. كلّ الجرارات الزراعية، كلّ سيارات النقل والشاحنات، وحتّى كلّ العربات اليدوية. لم تعد كلّها كافية لحمل الناس وأقلّ حوائجهم، في هجرة بدت أشبه بالخرافية صوب الحدود. فأخذ عشرات الآلاف من الناس، الخروج على أقدامهم، يُسابقون الزمن للهرب من الموت الجماعي المحقق. بينما الجيوش الجرّارة تتقدّم بسرعة وقوّة لتحتلّ وتُنهي كلّ شيء من جديد. أمّا نحن، فقد كان خيارنا الوحيد هو واجبنا في تدارك الأمر، بعدما تفرّقنا عن عوائلنا هذه المرة أيضاً، ودون أن نعلم حتّى أماكن وجودهم ووجهاتهم في الرحيل.

في ظلّ التشتّت المفاجئ فقدت القيادة السيطرة. فكان على كلّ مجموعة أن تقود نفسها، للهرب، أو حتّى محاولة إنقاذ بعض الناس العاجزين عن الوصول إلى الحدود، أو الجبال الوعرة قبل أن يصل إليهم الجيش، وخصوصاً أن المروحيات والصواريخ الكبيرة المسمّاة أرض-أرض، وكذلك القنابل العنقودية التي بدأ النظام باستخدامها للمرة الأولى في قصف المدن، خلقت حالة رعب جماعية غير مسبوقة. استغرقنا أنا وآتيلا وميرزا وحيدر وبشتيوان كُردوان وآخرون، النهار التالي الذي كان مُشمساً، كلّه في محاولة إيصال من بقي على الطريق إلى ما خلف الممرّ الجبلي الضيق، إذ

كُنّا قد استولينا على شاحنة نقل كبيرة، كانت مليئة بالطعام والسلاح والعتاد الذي جمعناه قبيل الانسحاب، تحسّباً لدخول معارك، أو حتّى استعداداً لمرحلة جديدة من المعارك.
في المساء كنّا نحن وبعض الرفاق الآخرين، قد أكملنا عملنا ولم يبق أحد مكشوفاً، يمكن أن يكون هدفاً للجيش في المنطقة المنبسطة. وقضينا الليل بأكمله نحاول العثور على بعض القياديّين، لكي نعلم ما هي الخطوة التالية وماذا علينا أن نفعل؟ على طول الطريق بعد عبور ذلك الجبل، كانت القيامة قد قامت حقاً. ولم يكن الطريق يسع سيّارات أخرى، كان الجميع يهرعون هرباً من الموت. في منتصف الطريق، وجدنا سيّارات لبعض القادة، وخيمة يبدو أنّها نُصبت على عجل. دخلنا عليهم، فإذا الجميع جالسون منهمكون في الحديث عن النهاية والهزيمة. عاجلناهم بالسؤال: إننا نحمل كلّ تلك الأسلحة ماذا نفعل بها، لمن نُسلّمها؟
كانت صدمتي حين أجابني أحدهم: ارمها كلّها، فحتّى لو أوصلتها للحدود، فإن الإيرانيين سوف يستولون عليها.
لم أدر كيف أجبته بنبرة ملأتها الثقة فجأة: كيف أرميها، والنظام قد فقد أغلب قوته؟ فنحن يمكن أن نتمركز في هذه المنطقة الحدودية الوعرة.. وإذا هاجمنا النظام، فسوف نحتاج إلى هذه الأسلحة الثقيلة. فكيف أرميها إذن؟
– ألا تفهم أن كلّ شيء قد انتهى؟ أقول لك ارمها ولا تناقشني أكثر من ذلك.
– انتهي بالنسبة لك أنت، أمّا نحن، فإننا عائدون وسوف نقاتل إلى آخر قطرة دم فينا.
وقفلنا نحاول أن نجد طريقاً للعودة باتجاه الجبل الذي يحمي الناس الملتجئين إليه، والذي يفصل بيننا وبين الهجوم المحتمل للجيش. لكن ازدحام الطريق بكلّ تلك السيّارات والناس، في تلك المنطقة الوعرة، اضطرّنا إلى التقدّم باتجاه الحدود، وأجبرنا الازدحام الذي طال وصوله إلى أقصى نقطة على الحدود التي وجدنا فيها الفسحة الوحيدة، لكي تدور بنا الشاحنة راجعة باتجاه السلسلة الجبلية. هناك دهمني شعور فجائي بالقوّة، حين رأيتُ كمال واقفاً على السياج الحدودي، إذ إنه من أبناء هذه المنطقة، وكان يحظى بشعبية وسمعة كبيرتين بين الناس وبين رفاقه في الثورة. فتوجّهتُ إليه: الحمد لله أنّني وجدتك، أخبرنا ماذا سنفعل؟ وأيّ الأماكن تراها مناسبة للمقاومة، لكي نتمركز فيها معاً؟ فنحن نمتلك أسلحة ثقيلة.
أجابني بعصبية دون أن ينظر في وجهي: أنا لا دخل لي بكلّ ما تقول، فقد تخليت عن كلّ شيء، ولم يعد يهمّني سوى أن أنجو بنفسي وبعائلتي. اسمع نصيحتي وابق هنا لنعبر الحدود بسرعة.
نظرت إليه طويلاً، ثم تركته خلفي دون أن أجيبه بكلمة واحدة، وركبنا الشاحنة التي ظلت سائرة بنا إلى ما قبل الفجر. حين وصلنا كان المشهد مختلفاً تماماً، إذ كان هناك العديد من رفاقنا الآخرين متمركزين على قمّة الجبل في النقطة الفاصلة التي كان الشارع المبلط ينتهي عندها ليُسلّم الهاربين إلى الطريق الترابي الوعر. كان واقفاً بقامته القصيرة، وحوله العديد بكامل عدّتهم. كان محمود أحد أكثر الرفاق شجاعة، وكانت قريته الجميلة تقع بالضبط في المنتصف بين قمّة ذلك الجبل والممرّ الضيّق الذي يقع أسفل السفح. كان يخطب في القوات المبعثرة التي تجمّعت، ويُحدّد الأماكن المناسبة للتمركز والوقوف بوجه الهجوم الذي سيأتينا في الصباح... وانضممنا إليهم.
وبينما كان الناس يهرعون باتجاه الحدود، كُنّا نحن على العكس منهم جميعاً ننزل باتجاه المضيق، أو نصعد القمم التي تُشرف على السهل الذي يأتي منه الهجوم المحتمل. في خضمّ كلّ ذلك، قال

بشتيوان المسؤول عن جهاز الاتصال اللاسلكي، ساخراً: أين ذهب قادتنا وجنرالاتنا الذين كانوا يلتهمون الدبابات؟ ألم يظلّ سوى كوادر القلم لكي يتولوا المقاومة في هذه اللحظة؟
جاءت تلك الهزيمة الأكبر والأقسى على كلّ ثوراتنا وكأنّها المخلص الذي وضعني أمام مهام أخذت أقنع نفسي مرّة أخرى بأنّها تفوق أيّ تفاهات ترتكبها الثورة وأفرادها، أو بعض قادتها الأنانيين، كما هوّنت عليّ كارثة خبر زواجها المفاجئ الذي كان قد تم قبل فترة طويلة ونتج عنه طفل يمشي على قدميه، والذي حوّل طعم النصر الكبير إلى أقسى هزيمة مررت بها في حياتي.
ليتني سمعت كلام آوات الذي قاله عنها وهو يمزق رسالتها المليئة بالإهانة، على ذلك النبع الرقيق قبل أربع سنوات خلت، ومع أنّه لم يلتقِها ولو مرّة واحدة ولم ير منها سوى صورة صغيرة، فقد عرفها وعرف طبعها الغادر تماماً، وقد صدق توقعه إذ إنّها في النهاية لم تتزوّج إلّا بمستواها، فارتبطت بأحد الجحوش. لم تكن في يوم من الأيام تليق بي، لكنّ الحب كان قد أعماني، وها أنا أقارع نفسي لكي أقتنع بهذه العبارات التي بدل أن تُصبّرني تزيد من حرقتي وانهياري.
في ذلك الصباح توزعنا على المحاور والقمم، التي يجب أن نتخندق فيها تحسّباً للهجوم الوشيك. فقادنا محمود عبر طريق وعر كنّا نضطر لأن نستخدم أيدينا في اجتياز بعض مفاصله، فسألته بنبرة مُشاغبة: ما اسم هذا الطريق؟
فأجابني دون أدنى توقف: إنه درب الحصان.
– تقصد درب الماعز! فوعورته تجعله صعباً حتّى على الماعز، فما بالك بالحصان المسكين.
كان محمود قد وُلد في هذا الوادي الذي يقع خلف تلك الفتحة الوعرة الضيقة، التي تفصل كلّ منطقة الجبل عن المنطقة المنبسطة التي ترتمي بهدوء عند أقدام هذه السلسلة القاسية. لذا لم يكن غريباً عليّ حين رأيته يعرف اسم كلّ قمة وكلّ درب وكلّ نبع. كان يُشبه أحد نمور هذه السلسلة الوعرة التي نادراً ما تمنح الناس حتّى شرف رؤيتها، كان بقامته القصيرة تلك، والتحاق كلّ أسرته بالثورة، قد أصبح رجلاً تسبق سمعته الثورية وشجاعته النادرة، حضوره. كانوا أسرة متكاملة من البيشمركة، بدءاً بأبيه الذي كان بيشمركة في الثورة قبل يوم الانهيار الأكبر، وأشقائه وحتّى زوجاتهم وبنات العائلة، كلّهم كانوا قد التحقوا بالثورة.
بعدما تمركزنا جميعاً في مواقعنا، بدأ الهجوم الذي تفادى الاشتباك مع القمم القاسية العالية، وركّز وجهته على الممر الصخري الضيق، بقصف مدفعي شديد علينا نحن المتمركزين على القمم، ودارت المعركة إلى ما بعد العصر وانسحبت القوات المهاجمة وبقينا محتفظين بمواقعنا. ما لم نكُن نعرفه يومها، أن الوضع في المحاور الأخرى أيضاً، كان انهياراً شاملاً. لكن هناك أيضاً، وقفت مجموعة صغيرة من الرفاق في كلّ محور للتصدّي لهجمات الجيش، التي بدت كلّها متزامنة... وبذلك ودون أيّ تخطيط، حقق هؤلاء الشباب، كلّ في محوره، نصراً بإلحاق الهزيمة بالجيش المهاجم، ما كان يعني أن الناس الذين تركوا المدن كلّها والتجأوا للعراء، قد أصبحوا في مأمن من احتمال التعرّض للإبادة الجماعية من جديد.
كانت الصور القاسية للهجرة التي بدت أسطورية، تهزّ حتّى الصخر. فقد مات أثناءها أطفال وشيوخ لم يحظوا حتّى بقبر يؤويهم. كان الناس يتدافعون بقوّة للحصول على القليل من الطعام، الذي كان يُرمى إليهم من الشاحنات، أو حتّى من المروحيات التي كانت القوات الدولية، التي تكفّلت بإخراج قوات الرئيس من أراضي الدولة الجارة، تلقيها عليهم من السماء. ثمّ على غفلة أصبحنا حديث الإذاعات والوكالات، وأصبحت صور الهجرة المليونية تلك تحتلّ الصحف

والمجلات وشاشات التلفزة العالمية. كان مشهداً قاسياً ومخزياً للعالم الذي بدا كأنّه بدأ يشعر بالخجل تجاه ما نتعرّض له من عمليات إبادة ومهانات. وأخذت هذه الأخبار تتحدّث عن عزم تلك الدول على حمايتنا.
في خضم كلّ ذلك، بينما أصدر مجلس الأمن الدولي قراراً بفرض منطقة آمنة، يُحظر فيها على الجيش الطيران، بحيث يضمن عودة الملايين إلى مدنهم وبيوتهم، وقع خبر وصول وفد قيادات فصائل الثورة إلى العاصمة واللقاء بالرئيس وتقبيله على الخدّ، وبدء مرحلة جديدة من الحوار معه، مفاجئاً على الجميع. تحوّلت تلك القبل في ما بعد إلى مادّة للتندّر والاستياء من مصافحة وتقبيل الدكتاتور، الذي دمّر بلدنا وأباد شعبنا وقرانا بالكامل. فكانت تلك هي المرة الأولى في حياتي، التي أرى فيها استياء آتيلا قد وصل به إلى حدّ التفوّه بكلام يقارب الكفر بما يؤمن به من مقدّسات. ولم تُجدِ معه كلّ محاولات التهدئة والتبرير. صاح قائلاً: هل نسيتم الأنفال؟! هل نسيتم عشرات الآلاف الذين نستجدي خبراً واحداً عنهم؟ أليس هذا الذي يصافحونه ويقبّلونه، هو من أخذهم إلى المجهول؟ ألم يكن هو من دمّر القرى والمساجد كلّها؟ ثمّ انهار باكياً وترك المجلس والتجأ إلى الجبل القاسي.
بينما يقترب الليل من نهايته، لا أزال مُتخندقاً بعناد غريب في هذه المقبرة، عند قدميْ آتيلا في قبره الصامت، تنهال عليّ أفكار وخيالات، لا أفقه كُنه أيّ منها، بحيث أوصلتني حدّ الإعياء الكامل. فأخذتُ أفكر في ما حدث بعد ذلك، فقد كان ما تلى تلك الأحداث أغرب من الخيال، إذ إن الناس في ظل وجود ما درجوا على تسميته بالمفاوضات بين النظام وقادة الثورة، وفي ظل وجود الحماية التي فرضتها الدول المنتصرة في إخراج جيش النظام من تلك الدولة الجنوبية، بدأوا يعودون إلى مدنهم التي كان الجيش لا يزال يسيطر عليها، وسط خوف شديد وشائعات من كلّ شكل ولون... فقد عاد الكثيرون منهم، بينما كان الجيش لا يزال مُمسكاً بزمام الأمور في المدن، لكن الأغرب هو أننا نحن أيضاً أخذنا نتردّد على المدن، ثم أخذنا نؤسّس مقارّ لنا في تلك البلدات البعيدة، التي كان الجيش قد تركها، لقد كان مشهداً في غاية الغرابة فعلاً.
أثناء كلّ ذلك، كان الجيش يحشد قوات كبيرة استعداداً للهجوم مرّة أخرى على البلدات والمدن التي تقع خارج نطاق المنطقة الآمنة التي حُدّدت بشمال خط العرض 36، بينما كانت بعض مقارّ الأمم المتحدة قد بدأت تتمركز في بعض المدن والبلدات. وقد أصبح الناس ينظرون إليها باعتبارها الضامن والحامي لهم من أيّ هجمات محتملة للجيش. وكانت تلك العودة مرحلة جديدة في حياة الناس، وأكثرهم فرحاً بتلك العودة كان آتيلا، الذي ترك كلّ شيء وأصبح متفرّغاً بالكامل للبحث الدائم عن فاطمة، أو خبر عنها وعن أهلها، أسرة الشيخ كاكه حمه. وكان يجوب كالمجنون كلّ مكان، يزور كلّ من يعتقد بأنّه قد يكون حاملاً لخبر جديد أو حتّى قديم.
أسّست قيادة الفصائل المُندمجة في الجبهة الكردستانية، لجاناً مشتركة لإدارة المناطق والمدن، تضمّ ممثلين عن كلّ الأحزاب. وبدا الأمر كأن الممارسات الشائنة التي بدأت بوادرها بالظهور، مع بدايات الانتصار في الانتفاضة، تتزايد باستمرار. كانت مَشاهد نهب بعض الناس للممتلكات العامّة، من بنايات وأثاث وحتّى وثائق، لها وقع الصدمة عليّ، لكن الأشد وقعاً كان انهماك بعض الرفاق أيضاً في بعض من هذه الممارسات التي كانت توصلني إلى درجة الغثيان. ثمّ بدأت هذه المظاهر تتطوّر لتصبح تهريب الآليّات التي كانوا يستولون عليها عبر الحدود وبيعها للتجّار القابعين خلف خط الحدود. أمّا الأشدّ إيلاماً في كلّ ما كنت أرى، فكان اشتراك بعض رفاقنا، مع

بعض رؤساء الجحوش السابقين، في عمليات النهب والتهريب هذه، فتلطخت صورة الثورة بالكامل.
بينما كانت هي تحاول الاتصال بي من جديد، كنت أنا أتمنّى الموت بكلّ قوّة، هرباً من جحيم الشك، الذي يشطرني بين خيانتها وعدم تقبّلي له، وبين محاولات نسيانها المستحيلة. في إحدى المرّات، بينما كان آتيلا يحاول أن يهوّن عليّ مُصابي ذاك قائلاً: احمد الله على أنك تحظى على الأقل بيقين ما، وتعرف أنّها حيّة، وأنّها قد باعتك لأحد الخونة، فماذا كُنتَ ستفعل لو كنت مكاني أنا؟
– عن أيّ يقين تتحدّث؟ أنا فارغ الآن من كلّ يقين. فقد حوّلتني هي إلى كائن من الشك المطلق.
– هل ما زلت تحبّها؟!
– لقد طلبت لقائي من جديد...
– أجل... يبدو أنك ما زلت تُحبّها، مع أنّها لا تستحق ذلك أبداً. دعني أذكّرك بالحكاية التي يقول فيها الهدهد: «ذهب أحد الملوك إلى الصحراء للصيد، وقال لمدرّب الكلاب: أحضر الكلب السلوقي. كان للملك كلب مدرَّب، له رداء مخيط من الحرير والأطلس، وطوق مرصّع بالجواهر تدلّى من عنقه للزينة والفخر، ووضعت في رجليه ويديه خلاخيل ذهبية، كما وضع في رقبته خيط حرير ناعم الملمس، وكان الملك يعامل كلبه برقة، فأمسك بخيط الكلب وتقدّم الملك فتبعه الكلب مسرعاً، ثمّ اعترض طريق الكلب بعض العظم، فما تخلى الكلب عن مكان العظم.
نظر الملك حيث توقف الكلب، فاشتعلت ناره لأن الكلب قد ضلّ الطريق، فقال: أفي النهاية مع ما لمثلي من سلطان يمكن النظر إلى غيري؟ فقطع ذلك السلطان الخيط، وقال: أطلقوا سراح هذا الجاهل في التوّ والحال. لو طعم الكلب مئة ألف إبرة، لكان هذا أفضل من هذا العمل الشائن!
قال مدرّب الكلاب: إن الكلب مزدان بالجواهر، وقد فُكّت جميع قيوده، فإن كان هذا الكلب أصبح بالصحراء والفيافي أليَق، فالحرير والذهب والجواهر بنا أليَق...
قال الملك: اتركه على ما هو عليه وامضِ، وطهّر قلبك من الذهب والفضّة وامض، حتّى إذا عاد إلى رشده، رأى نفسه مُزداناً هكذا، فيتذكّر أن كان له صاحب، وأنّه قد انفصل عن ملك مثلي...».
نظر إليّ طويلاً وقال: يبدو أنّها شعرت بالندم ككلب الملك، بعد أن رأت نفسها مُزدانة بجواهر حبّك، ثمّ وجدت نفسها في ذلك الحضيض. فدعك منها يا صديقي، وطهّر قلبك منها نهائياً وامضِ...
– لا أعلم ماذا أقول لك حقاً؟ فقد أكون أنا الذي غدرت بها، حين تركتها والتحقت بالثورة.
فانفجر غاضباً هذه المرة:
– وهل أنت نادم على التحاقك بالثورة حقاً؟! إيّاك أن تعيد هذا الكلام مرّة أخرى، فلو كانت تحبّك، لما تزوّجت بعد شهور قليلة من رسالتها الأخيرة لك. يبدو أنّها عرفت قدرها ومستواها الذي اختارته. بقي عليك أن تعرف أنت قدرك، ومهامّك الكبيرة التي كان يذكّرك بها آوات كردستاني في كلّ مرّة كنت تتحدث عنها.
على الرغم من كلّ المواساة التي كان آتيلا يحاول أن يقدّمها لي، مُستنجداً في أحيان كثيرة بقوّة حضور آوات كردستاني حتّى وهو تحت التراب، وبالرغم من خيانتها وطعنتها المهلكة، لم أكرهها، فقد أدخلتني في حالة تيه، لا أفقه شيئاً من حولي... ومع ذلك كنت أستميت لكي أجد لها مبرّراً لما فعلت، لكنني بقيتُ عاجزاً عن استعادة قصّتي معها، وكأنّني دخلت حالة عجز عن

الكلام أو حتّى تذكر تفاصيل تلك الحكاية المليئة بالغدر والفراق والأمل الكاذب. وكان كلّ شيء قد انتهى فعلاً، كلّ شيء قد فقد لونه وطعمه ورائحته. ولم يكن يُعيد إليّ أيّاً من تجليات الحياة تلك سوى المعارك القاسية، التي كنت أطارد خلالها الموت الذي صار جباناً بقسوة غريبة، لكن حتّى المعارك كانت قد انتهت، ويبدو أنّني أصبحت محكوماً بجحيم الحياة، في ظلّ انعدام احتمال حصولي على موت مُشرّف، موت يليق بي.. فالتجأتُ للكأس والخمر، لعلها تنسيني ذلك الحُكم القاسي الذي بدا كأنّه أبدي.

51

«إن كنت مشغولاً بالخلد والحور، فاعلم يقيناً بأنّها أبعدتك عن نفسك».

فريد الدين العطّار

يقول الهدهد: «نالت خراسان حظاً عظيماً، إذ ظهر في خراسان عميد، وكان له من الغلمان مئة من الترك الصباح، وكانوا ذوي قامات سروية وسواعد فضّية وشعر فاحم، وفي أذن كلّ غلام درّة مضيئة بالليل، ومن بريق هذه الدرر يصبح الليل شبيهاً بالنهار، وكانت لهم قلانس لامعة وأطواق ذهبية، ولهم صدور فضّية وأواسط ذهبية، وكلّ منهم يعقد حول وسطه حزاماً مرصّعاً بالجواهر، وتحت كلّ منهم جواد أبيض، وكلّ من يحاول النظر إلى أحد الغلمان، سرعان ما يسلم القلب، وتفنى روحه.

وقضاءً وقدراً رأى وله غاية في الفقر مهلهل الثياب حافي القدمين، ذلك العدد الكبير من الغلمان من بعيد، فقال: مَن هؤلاء الحور، فأجابه أحد سادة المدينة بأنّ هؤلاء غلمان عميد مدينتنا، وما إن سمع ذلك الوله هذه القصّة، حتّى زاد ولهه وجنونه، وقال:

يا ذا العرش المجيد، لتتعلّم تربية عبيدك من العميد!».

يا إلهي، يا ذا العرش المجيد، أهكذا تعامل عبيدك المخلصين؟!

أقرّ وأعترف أمامك، بأنّني عبدك العاصي الآثم، آتيلا سعد الله، قد كفرت بكلّ شيء، وأنّني سأتجرّع هذه الكأس الفاصلة دون أدنى تردّد، فقد وصلت إلى النهاية وانتهى كلّ شيء. ها أنا أعترف أمامك بفشلي واستسلامي، وبأنّني بعد أن عبرت الأودية الخمسة في الطريق إليك، ها أنا عالق في السادس، الذي يملأني حيرة. ويبدو أنّني وصلت إلى الطريق المسدود الذي لا مخرج فيه... فأنت أخذت هدهدي إليك. وكلّ من آمن بك ووصل إلى جبل القاف، كان يقودهم ويرشدهم الهدهد. بينما أنا بعد أن اهتديت وسرت عابراً أوديتك الخطرة القاسية الخمسة، ها أنا عالق عند نهاية وادي الحيرة، كيف لي أن أعبره وأصل إلى الوادي السابع والأخير وأفنى فيك، وقد أخذت منّي بكلّ قساوة، هدهد روحي، وقرّة عيني وفاطمة قلبي؟ وكيف أعبر وأسير إليك من دون مرشد؟ يبدو أنّني سأدفن ها هنا في هذا الوادي. إذن، فلتكن قنّينة العرق هذه شاهد قبري، وليدفنوني بلا غسل، فأنا بعد أن سكنت فاطمة في الروح والقلب، أصبحتُ أطهر من مائك الزلال.. ولتعزف آلات الطنبور والدفوف في مأتمي، بدلاً من تلاوة كلامك العزيز... فأنا إن لم أجد هدهدي العزيز، لا يمكن أن أكمل الطريق، وسأظلّ تائهاً في ملكوت الحيرة لأموت كافراً. وهل هناك كفر أشدّ من الحيرة؟! أو أن أظلّ هائماً لا أعرف وضعي، فكما يفتي الهدهد، «ها هُنا يصير الإيمان كفراً، ويصير الكفر إيماناً». ما دمت عاجزاً عن إيجادها، فماذا سأنتظر إذن؟ حتّى بعد كلام الآغا الذي تفوّه به مساءً، وحتّى بعد عودة تيمور من ذلك الجحيم الصحراوي، ما الذي يمكن أن أنتظره أكثر من ذلك؟ لقد انتهى كلّ شيء، وها أنا أعود لكأسي وأسكن إليها أنتظر في حيرة وتيه، ملك الموت ليأخذني إلى حيث الحيرة الأبدية.

لم يبق شخص لم أزره لأسأل عن فاطمة. لم يبق من لم أغرق أمامه في البكاء، أو السخط، أو الصمت المهلك. حتّى تيمور العائد من الموت سألته، لكنّه بدل أن يُطفئ غليلي في الحصول على خبر عنها، أشعل في داخلي كلّ نيران الشياطين التي أخذت تحرق روحي بسياطها الأشبه بالرعود، وبرقها الحارق في طرفة عين. فقد أكّد لي أنّهم كانوا محتجزين في حصن كبير في

أقصى الصحراء الجنوبية حيث لا توجد سوى الجدران السميكة العالية، والضابط حجّاج القاسي المتوحّش، وكلاب المعسكر، التي كانت تلتهم من كان يسلم الروح من المحتجزين نتيجة الجوع أو المرض أو التعذيب القاسي.
سألته عن الشيخ وأسرته وفاطمة فأجابني: يا سيدي، أنا لا أذكر أنّني سمعت عمّن تتكلّم عنهم، وحتّى لو كانوا معنا، فإن ضخامة القلعة وعدد المعتقلين الكبير، يمنعان أيّ شخص من معرفة جميع الأشخاص وتذكّرهم... ولكن إن وصفتهم لي بتفاصيل أكثر، فقد أتذكر شيئاً عنهم.
كان قلبي يخفق ويضرب بقوّة جدران صدري، بينما كنتُ أنهي وصف فاطمة والشيخ وأسرته وأنا غارق في البكاء. لم أكن أعلم ماذا أفعل، كان كلّ شيء مرتبطاً بكلمة واحدة من هذا الصبي، الذي يبدو في مقتبل عمره. بعد وقفة منه كادت توقف معها كلّ نبضي وتنفسي، استدرك قائلاً: الحقيقة أنّني لا أتذكّر، ولا أعلم حقاً هل كانوا معنا هناك، أم لا. فقد كان اتصال المعتقلين بعضهم ببعض، شبه مستحيل. ثمّ إنني لم أبق هناك كثيراً، فبعد مرور عدّة أشهر، جاء الضابط حجّاج مع قوّة كبيرة من العساكر في مساء مغبرّ حارق. أخذوا يفصلون مجموعة منّا، وساقونا في شاحنات عسكرية إلى حيث كانت حفرة كبيرة في وسط الصحراء. وكانت هناك جرّارات وآليّات تعمل في الحفرة، ثمّ أمرونا بالنزول إليها، ومن حاول التشبّث بالرمال، دفعوا بهم عنوة إلى داخل الحفرة. ثمّ صدرت الأوامر بإطلاق النار، فنزل جحيم من النار والصُراخ علينا... وعندما انتهى جحيم الرصاص، جاء بعض الجنود ووقفوا على رؤوس الناس الذين أرداهم الرصاص بعضهم فوق بعض، ثمّ أخذوا يطلقون النار على الجثث المتراكمة بعضها فوق بعض دون هوادة. ولم يكتفوا بذلك فقط، بل أخذوا يتفحصون بعض الجثث، ليتأكدوا من أن الجميع قد ماتوا. وأنا كنت قد أصبت، لكنني خبّأتُ نفسي بين أكوام الجثث لا يظهر منّي شيء البتة، سوى فراغ كان يُهيّئ لي مساحة أرى من خلالها أشباح الجنود وتحرّكاتهم وجراراتهم في الظلام. طال الأمر بينما تحوّل وابل نيرانهم، إلى رصاصات متفرقة تُطلق على جثة بين كلّ فينة وأخرى. لا أعرف كم طال الأمر، لكنّهم رحلوا بعد ذلك.
كنت مرتعباً من الجثث التي وجدت نفسي بينها وتحتها. أنا الذي كنت أرتعب من مجرّد سماع حديث القبور فإذا بي أجد نفسي في قبر كبير، أنزف دماً، ثمّ سمعت أصواتاً لوحوش البرّية. لا أدرى هل كانت لكلاب، أم لذئاب أم ماذا؟ لكن مع اقتراب الأصوات المتوحشة شيئاً فشيئاً، قمتُ مدفوعاً برعبي راكضاً دون وجهة ولا هوادة، ثمّ سقطت مغشيّاً عليّ، ولم أدر كم طالت غيبوبتي تلك، إلى أن استيقظت على نباح كلب، كان يجرّ ثيابي المُمزقة، ثمّ سمعت أصواتاً بالعربية وهم يهرعون حاملين بنادقهم.
قاطعته وأنا أصرخ وقلبي يكاد يتوقف رعباً من أيّ إجابة قد أحصل عليها: هل كان الشيخ وابنته معكم؟
– الحقيقة، لا أدرى يا سيدي، كانت الشاحنات كثيرة، والوقت مُتأخراً، لم أمّيز في الظلام من كان معنا، لكنني متأكد من أن تلك الوجبة لم تكن إلّا القليل جداً من ساكني ذلك الحصن الضخم القديم القابع وسط الصحراء.
يا إلهي! لم كلّ هذا العذاب على عبيدك المساكين؟ إن كنت لا تُربّي عبيدك، كما فعل العميد، فلمَ خلقتنا إذن؟ على الأقل إن لم تكن تمنحنا الدلال الذي منحه هو لعبيده، فلمَ تعذبنا بكلّ هذه القسوة؟ يا أبانا الذي في السماوات، يا إله مريم وعيسى وإبراهيم وموسى ومحمد، هل يُمكن أن تكون

الأصنام أكثر رأفة، من خلال عجزها، تجاه عبيدها؟ يا إلهي، بعد كلّ الأهوال التي رواها تيمور، وبعد أن تركني معلقاً بين احتمال أن تكون ضمن قافلة الموت الجماعي تلك، وبين أن لا تكون سيقت للموت، وبين أنّها قد تكون صريعة المرض، بينما أنا الطبيب والمداوي عاجز بعيد، لا أستطيع أن أعالجها بجرعة من دواء، أو حتّى برشفة من روحي، أو حتّى احتمال أن لا تكون ضمن معتقلي تلك القلعة... يا إلهي، خذني أنا واعفُ عنها هي، إنني أتوسّل إليك، بخاطر كلّ مفجوع، وبخاطر هذه الكأس المفجوعة التي تنتظر بصمت ويأس، تلك العروس التي لم تكلّ من انتظار عريسها لسنين طوال، ودون أن تستسلم.

كانت قابعة في غرفة شبه مظلمة جوّها رطب خانق، لا تزال مرتدية ثوب زفافها المهترئ، وشعرها أشعث منكوش وهيئتها منهكة مرتعبة، زحفت نحو أقصى زاوية في تلك الغرفة، حين رأتني أفتح الباب وأدخل منه، مصدرة أصوات همهمة غير مفهومة، وانهارت على وجهها تنتحب بحرقة، ثمّ أخذت تصرخ وتشدّ شعرها وتلطم بحرقة وجنون. أصبت بحالة هلع غير مسبوقة لا أدري ماذا أفعل، هل أتركها لجنونها الصارخ، أم أهرع إليها لأحتضن فاجعتها المصطبغة بسخرية قاتلة بلون ثوب زفافها الذي فقد هو الآخر حقيقته ليكتسي بشتى الألوان المتداخلة، التي أضفتها القسوة والوحدة واليأس والانتظار العبثي.

يا إلهي! ما كلّ هذا اللون الرمادي، هل يُعقل أن تكون بلدة بأكملها، من لون واحد هو اللون الرمادي المزرق، والأقرب منه إلى السواد؟ ثمّ ما كلّ هذا التشابه في البيوت البائسة المبنيّة على عجل من الإسمنت القاسي، الذي أضفى المزيد من السخرية على المشهد كلّه؟ لقد أخبروني بأنّ هذه البلدة التي لم تكن موجودة أصلاً قبل سنوات قليلة، اسمها «الصمود». إنها واحدة من المجمعات التي أجبر النظام سكان القرى التي هدمها قبل بدء عملياته التي كان يبدأها بتلك الآية الشهيرة، وأسكنهم فيها قسراً، حيث الشوارع الترابية والأبنية الاسمنتية الكئيبة، كلّها متشابهة في الشكل والحجم والارتفاع، ما عدا بعض الأبنية التي قيل لي إنها كانت تعود لإدارة المجمع الكبير الأشبه بالمعسكر.

استطاع شاسوار أن يخرجني من ذلك البيت البائس، بصعوبة بالغة. كانت تلك العروس قد لبست ثوبها في ذلك الصباح، قبل أكثر من ثلاث سنوات، تنتظر عريسها الذي كان ابن عمّها، والذي كان قد ذهب إلى القرى التي كان الجيش يحاصرها من كلّ مكان، ليعرف شيئاً عن مصير بيت عمّه الآخر وأبيه الذي ذهب قبل يومين ليخرجهم من جحيم الحصار، الذي كان يلفّه العديد من الشائعات والحكايات المرعبة حول مصير القرويين وسلوك الجيش معهم. ومن يومها لم يعد، لا هو ولا حتّى أبوه، ولم يعرف أحد شيئاً عن مصير أسرة عمّه التي ذهبوا لإنقاذها. وبقيت مصرّة على ألّا تخلع ثوب زفافها الذي تحوّل في غمضة عين، إلى ثوب الحداد الذي رفضت وما زالت ترفض بعناد غريب، أن تتخلى عنه، مُصرّة على أنّ عريسها قد تأخر لسبب طارئ، وأنّه عائد في أيّ لحظة.

– لقد عاد، لكنّك لن تتعرّف إليه بسهولة، ولن تصدّق ما حلّ به؟

– من هذا الذي عاد؟ سألت شاسوار، الذي جاء يُنبئني عن تلك العودة المفاجئة.

– أحمد ماركس، أو جنكي كاردوخي، أو حتّى لا أعرف ماذا أقول، لقد سأل عنك وطلب لقاءنا.

– ما كلّ هذه الألغاز؟ تحدّث بما شاهدت وكفى...

– لا ينفع الحديث، أنا نفسي لم أتعرّف إليه في البداية، التقيته صدفة واتفقنا على أن نزوره أنا وأنت في بيته غداً مساءً.
بعدما تغيّرت لهجته وفكره ومصطلحاته قبل فترة بتلك الطريقة العجيبة، وتحوّل فجأة من أحمد ماركس إلى جنكي كاردوخي، غاب فجأة دون أن يعلم أحدٌ أيّ خبر عنه، كان قد دخل في بعض المشاكل بسبب مشاحناته الأخيرة مع بعض الرفاق، وغاب دون أن يلفت الأنظار، وها هو يعاود الظهور المفاجئ. لمستُ التغيير منذ لحظة دخولي من الباب، فقد فتح لنا الباب، شابّ مسلح في مقتبل العمر بلحية خفيفة، ظهر فجأة رجل ذو لحية طويلة وشارب حليق وبكامل لباسه الكردي، واحتضنني بقوّة ولو لم يتحدث لما تعرّفت إليه، لم أتمالك نفسي من الصدمة حين سلمت عليه بعبارات التحية الكردية فردّ: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا أخي، كم أنا مشتاق إليك؟
كان مساءً غريباً حقاً، لم أرَ نسوة في ذلك البيت كما كان في السابق، لكنّ الشيء الأغرب الذي صبغ ذلك المساء وما تلاه من علاقتنا به كان سبب دعوته لنا، إذ دخل في الموضوع بعد العشاء المتواضع متوجّهاً بالحديث لي في البداية: أخي آتيلا، أنا أعلم أنك مُذ تبت وأنت رجل ملتزم ومواظب على أداء طقوس دينك، لكن كما تعلم فإن هذا ليس كلّ شيء. لذا فإنني أدعوك أنت وأخي شاسوار، إلى الإسلام وترك جبهة الكفر، والانضمام إلى المجاهدين لنطهّر هذا البلد من الكفّار، ولنبني فيه دولة الإسلام.
لم أتمالك نفسي من الضحك، كان مشهداً في غاية السخرية. فهذا الرجل الذي كان يُهاجمني ويسخر منّي بسبب التزامي الديني، يُلمّح إلى أنّني كافر، وها هو يدعوني إلى الإسلام. استاء من ضحكتي المقهقهة العالية، ونهرني من السخرية عليه. حاولتُ أن أشرح له أنّني لا أصدّق ما أرى، وأنّني ما زلت أشّك في أن ما يقوم به لا يتجاوز كونه مزاحاً مباشراً بعض الشيء، لكنّه استاء أكثر، مُتسائلاً عن جانب الهزل والمزاح من الأمر، فأجبته: أأنت تقول ذلك؟! أنت تدعوني إلى الإسلام الذي كنت تعتبره أفيوناً وخرافات؟ وتدعو إلى عبادة ربّ كنت تعتبره مجرّد خرافة؟
– أستغفر الله، لقد هداني الله، وها أنا أدعوك لكي تهتدي. لقد كُنّا في ظلال مبين. تعالوا وانضمّوا معي إلى أخوّة الإسلام، ولنطهّر معاً بلدنا وشعبنا الغارق في الكفر والرذيلة.
– وكيف تريد أن تُطهّره؟
– بإسقاط دولة الكفر، وإقامة دولة الإسلام وتطبيق الشريعة.
– وكيف ستُقيمه، هل ستحارب رفاق الأمس؟
– هم ليسوا رفاقاً، إنهم كفرة وضالّون، تعالوا ندعوهم معاً إلى الهداية، وإلّا فمن عصى، يكون قد جنى على نفسه، ويتحمّل وزر بقائه في دولة الكفر.
– وهل ستُقيم حكم الشريعة بالدم؟
– لا طريق غير السيف.
– إذن ستذبحون كلّ من لا يدخل معكم؟
– هذا جزاء الكافرين، وهذا هو واجب الجهاد، وهو ما أمرنا به ديننا الحنيف، وأنت رجل مؤمن، لكنك جاهل بأمور ديننا، تعال ولنجاهد معاً.
حينها توجّهتُ إلى شاسوار، وقلت له: نعم لقد صدقت حين قلت لي إنّني لن أتعرّف إليه بسهولة، لكنك نسيت أن تقول لي، إنّ ما تغيّر هو الظاهر والمفردات والفكرة فقط. فأنا أتلمّس في من أرى الآن أمامي، أحمد ماركس وجنكي كاردوخي، أكثر مما أرى فيه الشخصية الجديدة، أبو أنس

المهاجر. فها هو يدعونا إلى ذبح المسلمين جميعاً، متناسياً أنّ الإمام عليّاً، كان مليئاً بالتسامح إلى حدّ أنّه طلب سقي قاتله بالماء قبله.
حين بدا أنّه مصر على موقفه ولهجته المتشنّجة وهو يتحدّث عن الدين والجهاد، أجبته بأن هذا غريب على هذا الشعب وتقاليده وسلوكه، وقلت له: وما رأيك في أنّ المسيحيين في عنكاوه كانوا يدعون كلّ يوم أحد في كنيستهم للملا فندي، رجل الدين المسلم؟
– وماذا فعل لكي يدعو له النصارى، هل تنصّر؟
لم أتمالك نفسي من الضحك الممزوج بالسخرية وأجبته: يبدو أنّ التقلبات السريعة تضعف الذاكرة... فهذه هي المرة الثانية التي نحدّثك فيها عن المُلا فندي، ومع ذلك لا بأس من تذكيرك، لعلّ الله يهديك...
– إنّ الله هداني والحمد لله، فكفاك سخرية وأخبرني بما فعل هذا المُلا، هل تنصّر؟
– كلّا، لم يتنصّر يا أخا الإسلام، بل حين أراد بعض المتشدّدين والمتعصّبين من العثمانيين، ومسلمي المنطقة من أتباع الدولة العثمانية، مهاجمة المسيحيين وإبادتهم وطردهم من بيوتهم، ثأراً لهزيمة العثمانيين على أيدي الإنجليز، بدعوى أنّ الإنجليز وسكان عنكاوه على نفس الدين، منعهم الملا فندي الذي كان يحظى باحترام كبير، كرجل دين وشخصية اجتماعية كبيرة. وقد تمكن فعلاً من منع حدوث المذبحة. ومن يومها يعيش مسيحيّو المنطقة مع إخوتهم المسلمين دون أيّ مشكلة.
– لو كان مسلماً حقاً، لحمل السلاح وجاهد ضد الإنجليز، وما شغل نفسه بمنع المؤمنين من الجهاد.
– يا عزيزي يا جنكي...
– أنا اسمي أبو أنس والحمد لله.
– حسناً يا أبا أنس، أو جنكي، أو أحمد ماركس، شعبنا بطبعه طيّب مسامح ومسالم، ولا يحتمل هذا الكم من التفرقة والتعصّب الدموي.
– هل تُسمّي إيماني وجهادي في تغيير المنكر بيدي تعصّباً، عجيب أمركم والله.
– يا عزيزي، لعلك نسيت أن كاكه أحمد الشيخ الكبير، عندما سمع عن محاولات بعض غُلاة مدينة السليمانية، مهاجمة مسيحيي المدينة، زوّج إحدى الفتيات المسيحيات لولده، كي يصبحوا بذلك من أقارب الشيخ فلا يستطيع أحد مسّهم بسوء؟
– من تتحدّث عنهم كفرة، كان على الشيخ أن يقود الحملة لتطهير أرض الإسلام من أولئك النصارى، لا أن يحميهم فتظلّ أرض الإسلام مُدنّسة بهم.
– إذن يا عزيزي أبا أنس، اسمع ما يقوله الهدهد: «سار الواسطي حيران مشوّش الخاطر والبال، حتّى أصبح لشدّة حيرته عديم المأوى والمال، سار حتّى وقع نظره على مقبرة لليهود، فأدام النظر إليها وقال: إنّ هؤلاء اليهود معذورون جداً، ولكن لا يمكنهم قول هذا السرّ لأحد أبداً.
سمع أحد القضاة هذ القول، فبدا عليه الغضب، ولمّا كان القول لا يروق القاضي فقد استنكره، فقال الواسطي: إن كان هؤلاء الموتى غير معذورين أمام حكمك، فهم جميعاً معذورون في هذا الزمان، أمام حكم الله علّام الغيوب».
فردّ باستهزاء: أما زلت متمسّكاً بخرافات ذلك الرافضي الخرف وحكاياته الخرافية؟ أنا أجاهد في سبيل الله، ومثواي الجنّة إن شاء الله، بينما من لا يعود إلى صراطه المستقيم، ويتبع المخرّفين الذين يتبعهم الغاوون، فلهم جهنّم وبئس المصير.

– العطّار ليس رافضياً، بل وفقاً لمعاييرك أنت، هو مسلم سنّي.. لكنّه يفرد فصلاً كاملاً من كتابه لذمّ التعصّب، الشيعي منه والسنّي. وأنا لستُ متمسّكاً به فحسب، بل إنني أشعر بروحه تملأني إلى ما لا نهاية. ثمّ إنّ عبادتنا ليست للفوز بالخلد والحور العين كما تفهم العبادة أنت، نحن نُحب الله هكذا، من دون خوف من ناره ولا طمع في جنانه، واسمع منّي ومنه هذه الحكاية التي قد تنفعك كذكرى، حيث يقول تعالى: «فذكّر إنّما أنت مذكّر لستَ عليهم بمسيطر»، «قال الحق تعالى: يا داوود الطاهر، قل لعبادي: يا حفنة التراب، لو لم تكن لي جنّة أو نار، لما كانت العبودية مستهجنة لديّ. ولو انعدم النور والنار، لما كان لكم أيّ عمل معي، ولأنّني أستحق هذه المنزلة الرفيعة، فأنتم تعبدونني لا رغبة ولا رهبة، وإن لم يكن الرجاء والخوف يكمنان خلف ذلك، فكيف يكون لكم معي أيّ صلة بعد ذلك؟ وما دمت أنا الإله، فجدير بكم عبادتي بأرواحكم على الدوام.
أيّها العبد، كفَّ يدك عن الغير، واعبدني بكلّ استحقاق وتقدير، واطرح بعيداً كلّ ما عداني، وحطّم كلّ ما تطرح، وبعد أن تحطّم كلّ العلائق تخلّص منها وأحرقها، ثم اجمع رمادها ذات يوم وانثره، حتّى لا تبقي رياح الحق لها أيّ أثر، وإن فعلت ذلك، فسيخرج لك من بين الرماد ما تطلبه، أمّا إن كنت مشغولاً بالخلد والحور، فاعلم يقيناً بأنّها أبعدتك عن نفسك».
فاستشاط غضباً: هل وصلت بكم الجرأة والوقاحة، لتأليف خزعبلات وتنسيبها إلى الله سبحانه وتعالى؟ إن هذا هو الكفر والشرك بعينه، وجزاء المشركين هو القتل.
– ومن أنت لكي تحكم على الناس بالكفر، إنك تُذكّرني تماماً بحكاية الجندي المسلم الغازي، الذي أراد أن يغدر بالجندي الكافر، حيث يقول الهدهد: «طلب أحد الغزاة مهلة من كافر ذي همّة، طلب مهلة ليؤدّي الصلاة، وما إن وافق الكافر، حتّى أدّى الغازي الصلاة، ثم عادت الحرب بعد ذلك إلى مجراها، وكانت للكافر صلاته كذلك، فطلب مهلة هو الآخر وانسحب من المجابهة، واختار الكافر ركناً أطهر، ثمّ وضع رأسه على التراب أمام الصنم، وما إن رآه الغازي واضعاً رأسه على الأرض، حتّى قال: لقد واتتني الفرصة في ذلك الوقت. فأراد أن يضربه بسيفه، فجاءه هاتف من السماء صائحاً:
يا من تتّسم كلّك بسوء العهد، عليك بالتمسّك بالوفاء والعهد، إنّه لم يضربك بالسيف وقد أعطاك المهلة أولاً، فإن تضربه بالسيف، فكم تكون جاهلاً! فيا من لم تقرأ «وأوفوا بالعهد»، لقد أصبحت خائناً للعهد، إن كان الكافر أحسن صنعاً قبل هذا، فلا تكن عديم المروءة أكثر من هذا. لقد فعل الخير، وأنت تفعل السوء، فافعل مع الخلق ما تقبله لنفسك. كان لك الوفاء والأمن من الكافر، فأين وفاؤك إن كنت مؤمناً، فيا أيّها المسلم لقد جئتك بعيداً عن التسليم، حيث أقلّ وفاءً من الكافر.
تحرّك الغازي من مكانه بعد سماع هذا الحديث، وتملكه الخجل وتصبّب عرقاً من الرأس إلى القدم، وما إن رآه الكافر منتحباً هكذا، حتّى وقف حائراً والسيف في يده، وقال: لماذا تبكي؟ فلتقل حقيقة ما حدث!
قال الغازي: لقد عوتبت في هذا الزمان بسببك، ووُصفت بعدم الوفاء من أجلك، لذا فأنا حائر هكذا بسبب قهرك.
ما إن سمع الكافر هذا القول الصريح، حتّى أطلق صيحة عالية، ثمّ انهمر في البكاء، وقال: أهكذا يعاتب الله الجبّار محبوبه من أجل عدوّه البغيض، فإن يعاتب هكذا في الوفاء، فماذا أصنع يوم الحساب، وقد عدمت الوفاء؟ لتعرض الإسلام حتّى أسارع بالدخول فيه، وأحرق الشرك، وأتبع شريعة اليقين، وا أسفاه أن كبّل قلبي هكذا، وأصبحت عديم المعرفة بربّي هكذا».

– هل أصبح المسلم الفاتح في عرفك أنت وعطّارك، غازياً ككلّ الغزاة؟! ثمّ إنّ كلّ هذه بدع الكفار، فربُّ العزة لم يُخاطب سوى سيّدنا موسى. من يكون هذا الصعلوك الضعيف، الذي جبُن في أداء واجبه في قتل ذلك الكافر، فتخيّل تلك الخزعبلات؟!
لم أحتمل أكثر من ذلك، فقمتُ من فوري في حركة سريعة فاجأتهم، وتوجّهت إلى أبي أنس المهاجر، أو أحمد ماركس أو حتّى جنكي الكاردوخي وقلت له باقتضاب: تبقى كما أنت ولا يتغيّر فيك سوى هيئتك ومفرداتك، وعنوان ما تدعو إليه. لكنّك ثابت لا تتغيّر، تحكم بذبح من لا يوافقك الرأي. ثمّ توجّهت إلى شاسوار: قم بنا نذهب، ولندعُ الله أن يهدي أخانا أحمد ويرحمه من العقوق الذي ابتلاه به.
فاستشاط غضباً: عندما أجاهد في سبيل الله أكون عاقّاً؟
قلت له بهدوء بينما أنظر في عينيه وقد نزلت عليّ حالة شفقة غريبة تجاهه: اعرف الله أولاً، لتحبّه، فتحبّ جميع خلقه، لا أن تذبحهم. هل خلقهم سبحانه، لتقوم أنت وأمثالك بذبحهم تحت راياتكم وشعاراتكم المتشددة، مرّة باسم اليسار والإلحاد، ومرّة باسم القومية المتشدّدة، وأخيراً باسم الله ودينه الحنيف؟ هداك الله... نستأذنك، إذ إنّ الوقت قد تأخر، فإلى اللقاء يا صديقي العزيز. ودعني أذكّرك بأنّك ما دمت مشغولاً باللحية، فإنك سرعان ما تفنى بسببها.
– تعيّرني باللحية بينما هي سنّة الرسول الأعظم وعلامة المجاهد التي تميّزه عن الكفار؟
– لكنك كنت ملتحياً حتّى عندما كنت تهاجمني وتنكر وجود الله.
– أستغفر الله... أستغفر الله...
– ومع ذلك أنا قصدت أعمق ممّا فهمته أنت، فحكاية اللحية ليست من عندي، إذ يروي الهدهد: «وُجد عابد في عهد موسى الكليم، وكان مشغولاً بالعبادة، والقيام بالليل والنهار على الدوام، ولكنّه لم يدرك ذرّة ذوق واحدة أو توفيق، ولم يدرك صدره ضوءاً من نور الشمس، وكانت لهذا الرجل العابد لحية كبيرة، وكان يمشّطها من آن إلى آن.
ما إن رأى العابد موسى من بعيد، حتّى أقبل صوبه قائلاً: يا عظيم الطور أستحلفك بالله، أن تسأل لي الحق سؤالاً، وهو لماذا لا يكون لي ذوق أو حال؟
وأخيراً عندما صعد موسى جبل الطور، أعاد توجيه هذا السؤال، فقال الحق: كفّ عن السؤال، فمتى كان من أصبح مسكيناً بسبب آلام وصلنا، مشغولاً بلحيته على الدوام؟
جاء موسى، وأخبره مضمون القصة، فنتف العابد لحيته وانهمر في البكاء، ولكن جبريل سارع بالمجيء إلى موسى قائلاً: إنّه مشغول بلحيته في هذا الوقت أيضاً، فهو عندما يزيّن لحيته، يكون أسير الاضطراب، وعندما ينتف لحيته، فهو مشغول باللحية كذلك.
أخرج زفرة واحدة بدونه خطأ وأي خطأ، سواء كنت بسببه في اضطراب أو سعادة. يا من لم تتفرّغ من لحيتك، لقد غرقت في خضمّ بحار الدماء الواسعة، إن تتحرّر من لحيتك أولاً، فسيصدق عزمك في هذا الخضمّ، وإن تسلك هذا الخضمّ في معيّة لحيتك، فسرعان ما تفنى بسبب لحيتك».
ومددتُ يدي أصافحه مودّعاً، فرفض مصافحتي ونظر في عينيّ وأجابني بنبرة غاضبة وقد تغيّرت أساريره تماماً: السلام على من اتبع الهدى.
يا إلهي! ما كلّ هذه السخرية؟ أنا مبتلى بكربي ومصيبتي، فإذا بك تسلّط عليّ هذا الكائن المتحوّل باستمرار لكي يعاديني في حبّك وإيماني بك، حتّى عندما يتخلى عن إلحاده، ويلبس ثوب الإيمان بك، فإنّه يدعوني إليك، كما يظنّ. انتابني شعور وأنا غارق في تلك اللحظات من لقائنا الأخير بهذا

الصديق السابق، لم أشعر به من قبل، شعور يُغرقني في النقمة على حكمة الخلق التي لم أعد أفهمها، فأشفق على نفسي وعلى الكون وعليك، فأرفض أن أتجرّع هذه الكأس المسكينة، التي لن تستطيع أن تُشكلّ ولو مثقال ذرّة من عقوق وكفر وخطيئة. إنني أمتنع عن تجرّعها هذه المرة، لا تقرّباً إليك أو خوفاً منك، أو حتّى استغفاراً، بل لاستصغاري قدرتها على تجسيد العقوق والخطيئة التي تغلي في دمي وروحي التي لا تسكن أبداً.

الله أكبر... الله أكبر

(...)

الصلاة خير من النوم... الصلاة خير من النوم...

يا إلهي! هل هو فجر نهار جديد، أم أنت تفتح ببهاء، نورك على العالمين، الذي لا ينفتح إلّا على شقاء عبدك الحائر المُهان آتيلا؟ أخرجني إلهي من حيرتي، إنني أحترق عشقاً، لكن الحيرة تأكل الروح بنارها وحطبها، فلا تحترق الروح بلهيبها الذي يُخمده سكون اليأس والتيه، ولا تهبّ ريح، تُلهب النار المتقدة لتحرق الروح على أعتابك. فلا أجد سوى أن أعود إلى كأسي، لعلّها تُنسيني كلّ ما أنا فيه.. لعلّها تمنحني بعض السكينة التي غابت عنّي مُذ عرفتك.

تعالي أيتها الحبيبة.. تعالي واعذريني، إنّني امتلئ برائحتك حتّى الثمالة. ها أنا أرفع الكأس، أشعر بأنفاس كلّ حبّة تمر احترقت في أتون النار القاسية، التي تختبر كلّ شيء، لتتقطّر نقيّة خالصة متجرّدة من كلّ الشوائب، لذا فحين تتحوّل إلى كلّ هذا النقاء متطهّرة من كلّ شوائبها، فإنها تغدو عرقاً خالصاً، يُغرقنا في الثمالة التي تجرّدنا من كلّ شوائب العوائق الظاهرة.. وتحوّلنا إلى كائنات مغرقة في البوح الصادق، فنتعامل وفق سريرتنا الحقة، متجرّدين من كلّ نفاق وتظاهر. ها أنا أرفع كأس العرق الصابرة النقيّة الخالصة، ها هي تذيبني في رائحتها المُسكرة، وها أنا أرفعها إلى شفتي وسأتجرّعها هذه المرّة بعد أن فقدت كلّ شيء.. إلّا حيرتي.

ما هذا الانفجار، إنّه قريب، عليّ أن أخرج لأرى. ها هو الثاني والثالث... والعاشر، إنها أصوات قذائف مدفعية تنهال على المدينة، وها أنا ذا أسمع من بعيد هدير الدبّابات والآليّات العسكرية يستغلّ سكون الفجر ليخترق المسافات واصلة إلى أبعد مدى لها. إنّها المعركة التي بدأوا يحشدون لها قوّاتهم الكبيرة منذ أشهر. ها هم المغول قادمون، أتوا ليدمّروا هذه المدينة القديمة، ولم يبق أمامي سوى الخروج لمقاتلتهم، فلم أعد أمتلك أيّ شيء، لأخسره.. لقد راح كلّ شيء، حتّى نفسي التي أضعتها في حيرتي القاتلة، وثمالتي في رائحة هذه الكأس الملتصقة بكفي. سأتجرّعها، ثمّ أشرب بعد ذلك قنّينة العرق كلّها، وأحمل سلاحي وعتادي، وأخرج لمقاتلة المغول على أعتاب هذه المحلة التي أدركت للتوّ في ومضة غريبة خطرت لي كالبرق ولم تغادرني، بل أصابتني بشلل الصدمة، أنّ اسمها هو السعيد، لا أعرف من سمّاها أصلاً، أعرف أنّها قد أخذت تلك التسمية من اسم الحانة الوحيدة في المدينة، ولكنّني لا أعلم من سمّى تلك الحانة بهذا الاسم الصادم لي في لحظتي البرزخية هذه... ولا أعلم حقاً إن كان سعيداً أم لا؟ كلّ هذا مجرّد هراء لا أكثر. امتلأت بذلك السؤال الذي أغرقني أكثر فأكثر في حيرتي، تُرى هل هناك علاقة بين شادياخ، المحلّة المُدمّرة في نيسابور على أيدي المغول، بدلالات اسمها واسم هذه المحلة القديمة، وهل سيكون مصيرها الدمار على أيدي المغول الجدد هذا اليوم؟

إنني أمتلئ أكثر فأكثر برائحة العرق، بينما تقترب الكأس من شفتي أكثر فأكثر، وتغرق باطن كفّي ببرودتها التي استقتها من برودة هذا الفجر الخريفي اللاهب، لتختلط حمّى الثمالة الحارقة،

بارتجاف البرودة التي نزلت على باطن كفي، وانتشرت في جسدي كلّه، متنازعة إيّاه مع الحُمّى التي أشعر بأنّها ستحرقني لا محالة، فأحسستُ بجسدي المرتعش يغرق في العرق.

52

«لقد غرق تراب طريقي في الدم، فماذا أصنع؟!».
فريد الدين العطّار

لم يعد الخمر بقادر وحده، على منحي الخدر الذي يمكن أن يُعينني على تحمّل خسارة كلّ شيء دفعة واحدة، وبمنتهى القسوة والسرعة. فدخلتُ حالة بدأت أشكّ معها في كلّ شيء، حتّى في صحّة اتخاذ قراري بالالتحاق بالثورة. تملّكني سؤال مزعج، تُرى لو بقيت في المدينة، فهل كانت ستتزوّج غيري أيضاً؟ هذا السؤال وزواجها المفاجئ لي، أوصلاني إلى حالة كرهت فيها جنس النساء قاطبة. وامتلأت شكّاً حتّى في ما كانت تظهره لي أمّي من حبّ واشتياق بعد انقطاع سنوات طوال... وما زاد في حزني وعزلتي، أنّ أبي أيضاً كان قد دخل معي في حالة غريبة من الصمت الذي شعرت للمرة الأولى في حياتي بأنّني لا أفهمه، كان ينظر إليّ تلك النظرات الصامتة المليئة بالحزن، ويشيح بنظره عنّي عندما أنظر إليه... وطال صمته الغريب الذي رافق انتصارنا وتحرير مدننا.

كان لجوئي أخيراً إلى بعض أنواع الحبوب المهدّئة والمخدّرة، إمعاناً منّي في التيه الذي كنت أنشده من كلّ شيء. مني، ومن كلّ خساراتي، وخسارات شعبي، وانهيار كلّ شيء جميل أمامي، بينما أنا لا أملك سوى التفرّج العاجز، والسخرية من كلّ شيء. وبدل أن تأتي الثورة بالرفاهية والكرامة للناس، فقد تزامن انتصارها بعد عودتنا إلى المدن نتيجة الحماية الدولية والمفاوضات التي بدأتها قيادة الجبهة الكردستانية مع الرئيس، تزامن مع الحصار الذي فُرض على البلد بأكمله نتيجة القرارات الدولية التي صاحبت احتلال جيش الرئيس للدولة الشقيقة، ونتج عنه بالإضافة إلى ذلك، حصار آخر فرضه الرئيس على مدننا، أي إنّنا أصبحنا نعاني آلام حصار مزدوج. فمع توجه المفاوضات إلى نهايتها في أواسط الصيف، قرّر الرئيس سحب جميع إداراته الرسمية، وقطع مرتبات موظفي الدولة من ساكني المنطقة، وكذلك قطع حصّة المحروقات والوقود.

كالعادة.. لم تنتج مفاوضاتنا الأخيرة كسابقتها تماماً، عن أيّ نتائج إيجابية، وكعادته استغلّ الرئيس تلك الفترة لضربنا في مواقع الضعف، وكسب الوقت استعداداً لضرباته الأقوى والأشدّ قسوة. كانت هذه حال كلّ جولات المفاوضات التي سبقت ذلك الاتفاق التاريخي الذي أعلن فيه عن الحكم الذاتي لكردستان، في ذلك اليوم الذي سبق عيد نوروز من ذلك العام بعشرة أيّام، وأعقبه ما يقارب الأربع سنوات من الحوار الذي تخللته محاولات الرئيس الذي كان لا يزال يُكنّى حينها بالسيد النائب، لاغتيال الزعيم، واستخدم في إحداها مجموعة من رجال الدين الذين أرسلهم إلى الزعيم، لكنها ككلّ محاولاته الأخرى فشلت. وظلت وتيرة المفاوضات المصاحبة لمحاولات الاغتيال، مستمرّة بسنواتها الأربع، إلى أن أعقبتها جولة المعارك التي بدا كأنّها وضعت الثورة على أعتاب النصر النهائي، فإذا بها تنتهي بيوم الانهيار الأكبر الذي غيّر كلّ شيء فينا.

قبل حلول الذكرى الثامنة لإشعال ثورتنا الحديثة، ومع دخول الحرب مع إيران عامها الرابع، بدا كأنّ الرئيس مضطرّ للدخول في جولة مفاوضات جديدة. فبدأت المفاوضات مرّة أخرى، وطال أمد الحوار الذي استغرق أكثر من عام، تمكّن خلاله من الغدر بمجموعة من أهم رموز الشجاعة والشهرة في الثورة فنفذ أجندته في اغتيال العديد منهم، كان أشدّهم إيلاماً للناس هو اغتيال القائد الميداني مامه ريشه، المُكنّى بالرجل الحديدي في كلّ مناطق البلاد، بما فيهم أكثرية قطعات الجيش

على طول البلاد وعرضها، مع اثنين آخرين من رفاقه. تلت تلك الجريمة الغادرة، سلسلة من معارك الثأر لدمه، وانتهت بالملحمة الكبيرة التي حرّرت كلّ السلاسل الجبلية التي كانت تقبع مُسيطرة على مقارّ القيادة التي انتقلت إليها أخيراً في العمق، والتي حاول الرئيس بكلّ إمكانياته احتلالها مرّة بعد أخرى، وفشل في كلّ منها إلى أن بدأ حملته التي استمرت عدّة شهور والتي كان يبدأ كلّ بياناته العسكرية الخاصة بها، بالآية التي تقول «ويسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول»، والتي أدّت إلى تدمير البلاد بأكملها.

أصبح الحصار مهيناً للبشر بسبب الغلاء غير المسبوق الذي نتج عنه، لدرجة أنّ الناس تخلوا عن كثير من المأكولات. وكان الشتاء قاسياً من غير وقود، وكان الجوع حاكماً والغلاء يزداد باستمرار، حتّى إن الكثيرين لجأوا إلى المنظمات الدولية وبعض المخيّمات التي كانت هذه المنظمات قد هيّأتها في العمق بعيداً عن تحشدات الجيش. فكانت توفر الأمان مع بعض الأغذية. في خضمّ كلّ ذلك، كان الغريب هو إيمان الناس بمقاومة أيّ ضغوط يتعرّضون لها، فقرّر الموظفون الذين عاقبهم النظام بقطع رواتبهم، الاستمرار في دوامهم المعهود، وخصوصاً معلمي المدارس ومدرّسيها، الذين أصبح شعارهم عنواناً مشرقاً للمرحلة «لن نطأطئ رؤوسنا المرفوعة.. للمال».

صاحب كلّ هذه الويلات، والصعوبات غير المسبوقة، موجة فساد طالت العديد من الرفاق، بينما بقيت الغالبية الكبيرة من أفراد قواتنا القديمة، تُعاني الأمرّين نتيجة الظروف الاقتصادية المهينة، والصعوبات التي أصبحوا يواجهونها بسبب محاولات اندماجهم في الحياة من جديد. ومع أنّهم كانوا يحظون باحترام شديد بين الناس، إلاّ أن المؤلم هو أن الناس أنفسهم أصبحوا يعايرونهم بالفقر والحالة المالية السيّئة التي يعيشونها، بينما يعيش رفاق لهم ثراءً فاحشاً، فأصبح من يُحافظ على نزاهته مُتّهماً بالغباء، أو حتّى العجز، وأصبحت الفهلوة والتهريب والفساد من قبيل الممارسات الذكيّة.

الأشدّ إيلاماً كان أنّ رفاق الثورة، أصبحوا يشاركون أعداء الأمس من رؤساء الجحوش وأعوان النظام سابقاً، في بعض المعاملات المالية والتجارية التي كان أغلبها إلى ذلك الحين يستند إلى التهريب. لا بل تجاوز الأمر مجرّد الشراكة والتعامل المشبوه مع هؤلاء، إلى أن بعض رفاقنا من المسؤولين، أصبحوا محلّ انتقاد واستياء كبيرين من الناس، لزياراتهم لبيوت هؤلاء وقبولهم ولائم دسمة، فيما كانت الكثير من العوائل تكتفي بالخبز والشاي، الذي كان يفتقر إلى السكّر في كثير من الأحيان. فأخذ الناس يبحثون عن بدائل لها. كرّر رفاقنا هؤلاء، كما يقول الناس المستاؤون من هذه التصرّفات، نفس سلوكيات مسؤولي النظام قبل الانتفاضة.

أنا لم أكن في المدن قبل الانتفاضة، ولم أر ما كان رجال النظام وأعوانهم يفعلون، لكن الناس كانوا قد رأوا ما كان هؤلاء يفعلون أثناء هذه الولائم التي كان يدعوهم إليها أعوان النظام ومسؤولو الجحوش في تلك المرحلة. فقيل إنّ بعض رفاقنا، الذين أصبحوا عندي سابقين بكلّ معنى الكلمة، يكرّرون سلوك سابقيهم من مسؤولي النظام في شرب الخمرة والغناء بصوت عالٍ يزعج الجيران، الذين كانوا يعانون جوعاً وبرداً. يا إلهي، ما هذه السخرية العبثية؟ هل يقوم الناس بالثورة لكي يجلس الثوّار المنتصرون في مكان الأعداء، ويكرّروا سلوكهم الشائن الذي أوصل الناس إلى الاحتقان والانفجار؟ سيطرت عليّ بالكامل فكرة أن أعيد قراءة «الدوّامة» لسارتر، فكانت أن أدخلتني في إحباط وقنوط أشدّ ممّا كنت أعاني أصلاً. فأدمنتُ قراءة ديوان الشعر

الكردي المسمّى «ملحمة الصقر الأحمر» الذي كان يمنحني مواساة غريبة وارتياحاً روحياً عجيباً، في خضمّ كلّ تلك الانحرافات عن خط الثورة ودم شهدائها.
أصبح السؤال الذي يؤرّقني هو: تُرى، من هو الدائم؟ هل هم من يتبوّأون السلطة، أم من يخلفونهم؟ هل هم الطغاة، أم الثوّار؟ وبعد تفكير مختلط بعذاب الروح الممزوج برائحة الدم المهدور لرفاقي الشهداء، توصّلتُ إلى نتيجة مفزعة مفادها أنّ كلّ من في السلطة إلى زوال، سواء الطاغي منهم أو الأكثر مرونة، وسواء المحتلون، أو حتّى الثوار المحرّرون، وأنّ الدائمين هم فقط فئة من الناس لا يُعرّضون أسس حياتهم الثابتة لهزّات، ويقبعون في بيوتهم، لا هم يخرجون مع الثورة ولا يُعانون عذاباتها وتضحياتها، بل يبقون مُتربّصين، لا يكتفون فقط باستغلال كلّ من يأتي إلى السلطة، بل وأيضاً يُسخّرون جميع طاقاتهم السحرية في إفساد الثوار وحتّى النظيفين من كلّ أنواع السلطات التي تمرّ عليهم. فيصبح هؤلاء هم الدائمين الباقين أبد الدهر، بينما كلّنا فانون. فأيّ معادلة مخزية هذه! إنّها تثير القرف والغثيان حدّ الموت.
لقد انتهى كلّ شيء، بدأت أشعر بالخجل حين أرى أقارب أحد رفاقي الذين استُشهدوا، وهم مليئون بالحلم والإرادة، بينما أنا أرى دمهم المهدور يمشي عليه أصحاب المصالح من الرفاق السابقين والأعداء السابقين، بينما ظلّ بصيص من قيم أخذ يخفت شيئاً فشيئاً أمام سخرية الناس ممّن تمسّك بنزاهته وبقايا القيم، التي بدت كأنّها مجرّد أوهام كنّا نقنع بها أنفسنا. حتّى بقايا القيم التي بدت تلوح كبصيص يسارع في الخفوت أصبحت مهددة بأن تصبح قيمنا السابقة الجميلة، التي لم نكن نملك أمام خفوتها القاسي، سوى أن نكابر بعناد متمسّكين بها، حتّى لو كانت أوهاماً... فقيم الشهداء لا يمكن أن تكون أوهاما أبداً، وحتّى الأوهام، لو لمسها الشهداء تغدو حقائق خالدة، إذ إن قداسة الشهيد كافية لكي تحوّل في سحر جميل، أيّ قبيح إلى أجمل ما يكون.
في خضمّ كلّ ذلك، بينما كانت أنواع الخمور والحبوب تغدو أكثر عجزاً في مفعولها أمام كلّ هذا الكم المخيف من الكوارث والآلام والسقوط، كان الجيش يزيد في تحشيده للقوات على طول خط التماس مع قواتنا القليلة والمتواضعة في سلاحها وعدّتها، والمتمركزة بوهن، وعلى مسافات متباعدة، عاجزة عن صدّ أيّ هجوم محتمل. كان هذا التحشيد المتزايد يؤثر سلباً في معنويات الناس، الذين كانوا لا يزالون محكومين برعبهم من علميات الإبادة التي لم تمرّ عليها ثلاث سنوات بعد، وما زالوا يذكرون بقوّة، كيف دمّر الجيش كلّ القرى، وساق عشرات الآلاف من ساكنيها إلى حيث لا يعلم أحد عن مصيرهم شيئاً حتّى الآن.
كان آتيلا غائباً عن كلّ ما يشغلني أنا والناس جميعاً. فقد كان متوزّعاً بين بحثه المجنون عن فاطمة، أو استجداء خبر عنها، كما كان يقول، وبين عبادته المستمرّة ووفائه لتوبته الشهيرة، التي أعلنها قبل سنوات خلت أمام الشيخ كاكه حمه، والتي أصبحت حديث الناس في حينها. فقد رفض مُعانداً كلّ محاولات الرفاق استدراجه لشرب الخمر، حتّى في أكثر درجات الصفاء والمحبّة التي نادراً ما كانت تجمعنا بمن بقي من رفاقنا المقاومين بعناد لموجة الفساد التي كانت تجتاح البلاد أكثر فتكاً من ريح التفّاح القاتل. فقد ظلّ مُعانداً، مؤمناً راسخاً في يقينه، إلى اللحظات الأخيرة التي جاءني فيها ليلة أول من أمس بعد عودته السريعة من بيت الآغا، الذي كان قد دعاهم لوليمته اللعينة تلك، ووجّه إليّ بندقيته يهدّدني بالقتل لأنّه أصبح على اقتناع بأن العالم لا يمكن أن يسع شخصاً مثلي ومثل الآغا في وقت واحد، فكيف ونحن نتقاسم طرفي مدينة صغيرة عتيقة؟ وظلّ على عناده المعهود، لكن شيئاً ما كان قد تغيّر فيه بعد لقائه بتيمور.. الذي تحوّلت قصّة عودته إلى

حكاية شعبية، يحجّ إليه الجميع للسؤال عن أحبّتهم من ضحايا المعارك الطويلة التي أدّت إلى دمار كلّ شيء، وكانت تبدأ كلّ مرحلة منها بتلك الآية التي تقول «ويسألونك عن الأنفال...».
كان تيمور صبيّاً في مقتبل العمر، سيق مع عشرات الآلاف إلى معتقلات الأسر والمقابر الجماعية المنتشرة على طول الصحراء وعرضها. كانت قصّته وقصّة عودته غريبة إلى درجة الخرافة. كانوا قد أخذوه إلى أحد الحصنين الكبيرين في نكرة السلمان، اللذين بنى أوّلهما الإنجليز، بينما بنت الحكومة الثاني قبل ثلاثين عاماً، وكان الغرض في الحالتين بناء سجن كبير. نكرة السلمان الشهيرة، القابعة في الصحراء التي سكنت إحدى قراها منفيّاً مع عائلتي حين كنّا أنا وسيروان لا نزال في مرحلة دراستنا الابتدائية، فلم أستغرب طيبة من أنقذوا تيمور، تلك الطيبة التي عشتها بنفسي لأكثر من عام في القرية، ثمّ في المدينة التي يشطرها نهر الفرات إلى شطرين. في تلك المرحلة أيضاً، سمعت للمرة الأولى باسم حصن نكرة السلمان، الذي كان معتقلاً دخله أكبر شعراء العراق ومناضليه الذين وهبوا أنفسهم من أجل الحرّية.
كان بعض البدو الذين خرجوا للصيد، قد وجدوا تيمور وهو جريح، وعلى وشك الدخول في غيبوبة، فأخذوه وعالجوا جراحه، وأخفوه عندهم لفترة طويلة. ثمّ تعرّف أحد أبناء تلك الأسرة أثناء وجوده في ثكنة للجيش إلى أحد الجنود الكُرد الذين فقدوا العشرات من أقاربهم، دون أن يعرفوا عنهم خبراً واحداً. وبعد أن تعززت الثقة بينهما، كان البدوي قد حكى لزميله الكُردي عن حالة الصبي الذي وجده أقاربه في صحراء السماوة. وبعد التقصّي الكامل وتأمين خطة إعادة تيمور بطريقة سالمة، أعيد إلى منطقتنا التي كان ينحدر منها، عاد وحيداً، لم يبق من أهله أحد، فقد سيقوا جميعاً إلى الصحراء أثناء معارك الأنفال. عاد بلكنته الكردية الغريبة، مُتقناً التحدّث باللغة العربية. عاد وهو مليء بالحكايات عن أهله الجدد، الذين وجدوه جريحاً في الصحراء، وعالجوا جراحه، وأخفوه عن الأجهزة الأمنية، التي لو علمت بالأمر لأبادت كلّ من يمتّ بصلة للبدو الذين أنقذوه وأعادوه إلينا في حكاية أغرب من حكايات الخيال.
تجتاحني قشعريرة الفجر، بينما أنا مستلقٍ على ظهري عند قدميْ قبر آتيلا، يحتلني بالكامل تساؤل وفضول كبيران لمعرفة اللحظات الأخيرة التي عاشها تلك الليلة التي قرّر فيها الرجوع عن توبته والعودة لتجرّع الخمر والاستسلام مثلي، للإدمان العاجز. إنّني أموت من الفضول الذي يجتاحني فيحوّلني إلى قطعة من نار لا تهدأ إلّا إذا عرفت السرّ.. إلّا إذا تمكنتُ من رؤية قنّينة العرق التي انتزعها منّي قبل رحيله ليلة أول من أمس. تُرى هل ما زالت بكراً، بين كلّ ما كان بكراً واغتُصب من قيم وكرامات ومقدّسات، أم انتهكها آتيلا الممتلئ حينها بالجنون واليأس من لقاء فاطمة، الذي كان بادياً عليه أكثر حتّى من ملامحه؟
تُرى هل شربها، وكفر بكلّ شيء، ونكث بعهوده التي قطعها لربّه ولفاطمة، أم بقي عنيداً، مُحتفظاً بنقائه الداخلي الذي ظلّ عصّياً على الإثم والخطيئة بعناد، أجزم بأنّ كلّ الأبالسة قد وصلت إلى القنوط من كسره واختراقه؟ يا إلهي، يجب أن أسرع لأكتشف السرّ الذي بات يهمّني فجأة وعلى حين غرة، أكثر من أيّ شيء آخر. بدا هذا الأمر وكأنّه جوهر الوجود الذي يحدّد مصير كلّ شيء. لا أدري لماذا أصبحتُ محكوماً بمصير قنّينة العرق تلك، وحقيقة شربها أو عدم شربها من قبل آتيلا؟ أنا لا أجد تفسيراً لكلّ ذلك، ولا يهمّني أيّ تفسير الآن. كلّ ما يهمّني هو أن أعرف السرّ. كلّ ما أصبح يتملّكني بقوّة شديدة، أقرب إلى اندفاعي صوب الموت في المعارك الأخيرة

التي كنت أروم فيها الانتحار استشهاداً، هرباً من كلّ آلامي وتفادياً لانتحار لا يليق ببيشمركة لكنّني بتّ أراه أقرب إليّ من الشهيق.
ها أنا أقضي ليلتي الثانية بعد اندلاع المعركة إثر الهجوم المفاجئ، الذي باغت به الجيش المدينة، من دون خمر أو حتّى حبوب، وعلى الرغم من ذلك ومع استشهاد آتيلا الذي غيّر كلّ شيء في أعماقي وأعماق روحي، فإنّني مُتّقدٌ صوب كشف سرّ مصير قنينة عرق تحكمني أكثر من احتياجي إلى الخمر والمخدّر. عدا ذلك، أرى نفسي فارغاً تماماً من كلّ ألم أو سعادة. فدخول المعركة من جديد، وتحقيق نصر غير مسبوق وفي يوم واحد، وانهزام الجيش الكبير أمام مجموعة صغيرة من رفاقنا، أعادني دون أن أدري إلى الماضي، أدخلني مرّة أخرى في جوّ الثورة الذي بدا كأنّه اختفى إلى الأبد.
لقد تأخر الوقت كثيراً، وعليّ أن أمضي مُسرعاً قبل أن يطلع النهار ويسبقني أحد في الوصول والعبث بغرفة آتيلا. بدت هذه الفكرة الأخيرة مرعبة أكثر من أيّ شيء آخر. فماذا لو أنّ أحدهم عبث بها؟ ماذا لو أنّ أحدهم أخذ القنّينة من مكانها، وماذا لو شربها أحدهم؟ وماذا... وماذا... وماذا؟ كانت علامات الاستفهام الكثيرة تحاصرني وتطبق على النور الذي أخذ يشتعل داخلي من جديد بسبب الانتصار الذي حققناه أخيراً. فلم أتمالك نفسي، ونهضت من مكاني كالمجنون، وأخذت أركض بأقصى سرعة صوب بيت آتيلا القديم، مرعوباً من فكرة أن يكون أحدهم سبقني اليها. بينما أنا ما زلت أركض، تحاصرني مشاهد أمّه وهي ترمي القنّينة باكية منتحبة عليه، ثمّ صورٌ لأناس يدخلون الغرفة لتنظيفها، أو لإعدادها لاستقبال الضيوف والمعزّين. فسيطر عليّ ذلك الرعب الذي بات كأنّه يهدّدني في وجودي أكثر من أيّ خطر واجهته في حياتي... ولم يبق لي إلّا أن أركض وأركض... بينما السكون المطبق حولي لا يخرقه سوى صوت بندقيتي وهي تصطدم أثناء ركضي الجنوني، بمخازن العتاد التي ما زالت مشدودة إلى خصري منذ بدء المعركة فجر أول من أمس.

53

«العشق أعلى مكانة من الإيمان والكفر معاً،
وأيُّ شأن للعشق مع الكفر والإيمان؟!».
فريد الدين العطّار

خرجتُ من البيت حاملاً بندقيتي والخنجر العزيز الذي أهداه لي قولي خان، وانطلقتُ صوب هدير الدبابات الذي بات يقترب شيئاً فشيئاً، لم نكن قد أقمنا أيّ تحصينات في مقابل تحشّدات الجيش الكبيرة. فلا قوّاتنا كانت تكفي لتغطية كلّ هذه المسافة الشاسعة، ولا حتّى إدراك قادة المنطقة وحرصهم قد وصل إلى تلك الدرجة التي تجعلهم يفكّرون بالتصدّي لهذا الهجوم الذي لم يكونوا يتوقعونه. فكما كان شاسوار يقول عنهم، إنّ أكثرهم بات مشغولاً بأمور أخرى ونسي مهمّته الأساسية. ها هي أصوات الدبّابات ترتفع أكثر فأكثر بين الفسحات الصوتية القليلة التي يوفرها توقف سقوط القذائف المدفعية. وها أنا أسير باتجاهها وحيداً، لا أعلم شيئاً عن بقيّة الرفاق، ولا أعلم حتّى هل هم في المدينة أم لا. في النهاية بات الأمر يُشكّل أكثر من مسألة مقاومة مستميتة من أجل الدفاع عن المدينة وأهلها.

ها هم المغول يدكّون مدينتي (كفري)، بنيرانهم الأشبه بجحيم المنجنيق، إنّهم يهاجمون مدينتي الغارقة باسمها في الكفر، وأنا وحيد في هذا الحيّ المسمّى السعيد والقريب على مشارف المدينة من جهة الجنوب، المقابلة لتحشدات الجيش وهجومه الحالي، ها أنا أواجه مصيري، حاملاً هذا الرأس منذ أن سقط قبل مئات السنين في محلّة شادياخ القديمة بمدينة نيسابور، وها أنا بعد طول رحيل وعذابات وجحيم الحياة، أنتظر مواجهتي الأخيرة مع الموت، على أيدي المغول الذين دمّروا البلاد وأبادوا العباد.

ها هي دبّاباتهم تدخل المدينة وتصمّ آذان الخلق بمدافعها المخبولة، التي تدّب الرعب بصوتها، في أوصال الحجر. ها هم جنود هولاكو يدخلون الأحياء الأولى من المدينة مع ظهور الخيوط الأولى للشمس التي سوف تشهد نهاية كلّ شيء، أو ربّما بداية كلّ شيء... لا أدري، فأنا قد بلغت بي الثمالة حدّاً، يصعب معه التمييز بين هذه الأمور هكذا بسهولة.. إنّني ثمل إلى درجة أنّني أشعر بنفسي خفيف الوزن كالفراشة تماماً. مع بداية ظهور بعض الجنود، أنزلت بندقيتي وأخذت أطلق النار دون هوادة، وبادلوني بنيران بنادقهم وأسلحتهم المتنوّعة. طالت المعركة بيننا، ها أنا أرى فاطمة تتجلّى من بين الفسحات التي تمركز خلفها الجنود، يطلقون نيرانهم المجنونة صوبي، فأتوقف عن إطلاق النار خشية أن أصيبها، فتختفي مع إطلاقاتهم الكثيفة فأنهض مجدّداً مهاجماً إيّاهم بحمم نار بندقيتي الوفيّة.

ها أنا ذا وحيد من دون صديق أو قريب، حيث لا شاسوار ولا ميران، ولا حتّى أمّي، حتّى طنبورتي تركتها هناك مع الكتاب الذي وضعته مفتوحاً قرب سجّادة الصلاة وأنا أخرج إلى هذه المعركة برفقة خنجري الغالي وبندقيتي التي انتزعوها منّي عنوة في المساء حين صوّبتها إلى الآغا محاولاً قتله، ثمّ صوّبتها تجاه شاسوار لأريحه وأريح العالم من ثقل وجوده هو والآغا على طرفي مدينة صغيرة قديمة. فانتزعتُ منه قنّينة العرق الوفيّة رفيقة ليلتي الأخيرة، وشاء القدر أن أحتفظ بكلّ تلك الطلقات لهذه المعركة. ها هي نيرانهم تعاود الهجوم من جديد، فأبادلها بنيران ما بقي لديّ من طلقات أصبحت على وشك النفاد. وفي هذه اللحظة بينما أنا في منتهى الوحدة

والعزلة، لا أملك سوى خنجري وبندقيتي والقليل من الطلقات وطيف فاطمة الذي يطغى على كلّ شيء، شعرتُ بآلام تشل قدميّ ودم كثير ينزف منهما، بينما أشعّة الشمس أصبحت أشدّ قسوة مع الاقتراب إلى ما قبل الظهر.
فغمستُ يديّ في الدم النازف بلونه القاني وغطيت به وجهي وأنا أستعيد حكاية الهدهد حيث سرد عليّ وهو يقول: «عندما علق الحلّاج على الأعواد في ذلك الزمان، ما ردّد لسانه غير قولة (أنا الحق)، ولمّا لم يفهم الخلق قوله، قطعوا أوصاله، وما إن نزف الدم منه غزيراً، حتّى علا الاصفرار وجهه، إذ كيف يظلّ احمرار وجه الإنسان في ذلك الموقف؟ وذلك الذي له مسلك الشمس سرعان ما حكّ وجهه القمري بيده المقطوعة، وقال: إن كانت الحمرة التي تزيّن وجه الرجال هي الدماء، فقد جعلت الآن وجهي أشدّ حمرة بتلك الدماء، وذلك حتّى لا يبدو أصفر في عين أحد، فما أكثر حاجتي لأن يكون وجهي مشرباً بالحمرة، لأنّي لو بدوت لأحد أصفر الوجه، فربّما ظنّ أنّ الخوف هنا تملّكني، ولمّا لم يخامرني الخوف قيد شعرة، فلا بدّ أن يكتسي وجهي بالحمرة، وحينما يوجّه الجلاد رأسي نحو المشنقة، فسيكون تجاه أسد في الشجاعة، ولمّا كانت دنياي كحلقة الميم، فكيف يتملّكني الخوف في هذا الموقف. ومن استطاع أن يرقد ويطعم مع الحيّة ذات الرؤوس السبعة في شهر تموز، فقد صادف الكثير من هذه الترّهات، وأقلّ شيء أصابه هو الشنق».
واستمرّت المعركة بيننا، بينما كنتُ أرى الدبّابات تجتازني صوب قلب المدينة، فأصبح بعض الجنود يُطلقون النار عليّ من جهة الخلف، أي الجهة التي كنت أتحصّن بها، ما يعني أنّهم قد اجتازوا هذا الحيّ ودخلوا بقيّة الأحياء وأوشكوا على احتلال المدينة بأكملها. فأصبحت نيرانهم تنهال عليّ من كلّ الاتجاهات، ولم يعد هناك اتجاههم هم، واتجاهي أنا. كلّ الجهات المحيطة بي أصبحت جهة واحدة، هي جهتهم هم، ونيرانهم هم وحدهم. أخذتُ أطلق النار من جديد، ومع آخر رصاصة أطلقتها، بدت حالة الثمالة تحتلني بطريقة أنستني آلام ساقي التي كانت تنزف بجنون تحت الشمس الساطعة الحارقة. أصبحوا يتقدّمون من كلّ صوب وسط صيحاتهم المطالبة باستسلامي، بينما ميّزتُ منها صوتاً جهورياً يصيح: لا تقتلوه.. أريده حيّاً.
صاح متوسّلاً وقد سكتت البنادق كلّها في محيطنا، بينما وصل الجنود وهم يصوّبون بنادقهم إليّ من كلّ الاتجاهات: أتوسّل إليك يا سيّدي، لا تقتله، إنّه مسكين، وحيد أمّه ولم يرَ في حياته كلّها يوماً سعيداً واحداً.
– اصمت أيّها العميل، وإلّا قتلتك أنت أيضاً. صاح أحد الجنود ردّاً على الحاج أمين.
الحاج أمين أحد أغنى أعيان المدينة، ومن أكثر رجالها هيبة وسمعة، كان يحظى باحترام شديد من الثورة، وحتّى من كلّ من تولى السلطة في هذه المدينة منذ عدّة سنوات. كان قد خرج من بيته الكبير القريب إلى المكان الذي تحوّل إلى ميدان لمعركتي الأخيرة. أخذ يتوسّل إلى الضابط الذي وصل واقفاً على رأسي وعلى كتفه نجمتان: أرجوك يا سيدي، أنا مستعدّ لأن أفديه بما تريدون، خذ سيّارتي الحديثة التي تسلّمتها من الشركة قبل أيّام، واعفُ عن هذا الشاب، ودعني آخذه إلى المستشفى، إنّه ينزف بغزارة، فقد يموت.
وأمام صمت الضابط، لا أستطيع تمالك نفسي من ذهول المشهد الذي يتكرّر بصورة مطابقة تماماً، وكأنّني رأيتُ وعشتُ هذا الموقف من قبل، ولا أعرف كيف خاطبتُ الضابط: لا تستمع إليه، فأنا مسؤول كبير، وثمني أكبر من سيّارة حديثة بكثير.

ولم يردّ الضابط الذي كان ينقل نظراته بيننا بسرعة غريبة، فقال أحد جنوده الذي كان يحمل بعض الخطوط البيضاء على كتفه بعصبية: دعني أقتله يا سيدي، فهذا الكلب ظلّ يقاوم حتّى رصاصته الأخيرة، فوالله لو كان لي، لما بادلته بأكثر من كيس تبغ صغير. ثُمّ من هذا الرجل العجوز لكي يُزايد علينا بكرمه، سنأخذ سيّارته، وإن تفوّه بكلمة واحدة فسأقتله مع هذا الكلب النجس.

حقيقة لا أدري كيف ولماذا توجّهتُ للضابط وقلت له بهدوء دم يجري الهوينا: كلامه صحيح، فأنا لا أساوي أكثر من كيس تبغ صغير...

ها هو الضابط يستشيط غضباً، وينتزع مسدسه المشدود إلى خصره، ويصوّبه نحوي ويفرغ كلّ طلقاته بسرعة كبيرة. وأنا غير مُدرك لما يحدث ولا يربطني بكلّ ذلك سوى صوت طلقاته الأخيرة، التي أفرغها في جسدي كلّه ويدي المحمرّة التي تقبض بكلّ قوّة على مقبض خنجر قولي خان. وها هم جنوده يدفعون بالحاج أمين ويوقعونه أرضاً ويهاجمون بيته ويخرجون سيّارته الحديثة ويبتعدون بها.. بينما تزداد حالة الثمالة التي أخذت تحتلني أكثر فأكثر. وأنا مستلقٍ في حضن فاطمة التي تضمّني بكلّ قوّة إلى صدرها وحيث لا شيء في الكون كلّه سوى عبق صدرها ورائحتها التي أوصلت ثمالتي إلى حدّها الأقصى، لتتحوّل إلى خدر يدبّ في كلّ جزء من جسدي. أحسستُ بها تذوب فيّ، وأذوب فيها.. ونذرع السماء كلّها وكأنّنا كائن واحد، ندخل في السحب ونتوه فيها.

يقول الهدهد: «عندما حانت وفاة أبي علي الرودباري، قال: وقفت روحي على شفتي انتظاراً للرحيل، ففتحت أبواب السماء على مصراعيها، ووضع لي مسند في الجنّة، كما غنّى الملائكة بأعذب الألحان وصاحوا: أقبل أيّها العاشق، والهج بالشكر ثمّ سر متبختراً سعيداً، فما رأى أحد قط هذا المقام، ومع كلّ هذا الإنعام وذلك التوفيق، فإن روحي لا يد طولى لها في التحقيق...

لذا كان يقول دائماً: لم أبقيتني عمراً طويلاً في خضمّ هذا العمل، وأطلت انتظاري؟ إنّني لست واهناً حتّى أطأطئ الهامة كأهل الشهوة أمام أقلّ رشوة. فقد امتزج عشقك بروحي، لذا لا علم لي بالنار ولا الجنّة، وإن تحرقني كالرماد فلن يكون لي معين آخر غيرك، وأنا أعرفك أنت، ولا علم لي بالدين أو الكفر، ولن أحيد عن ذلك، وأنت ما أعرف، وأنت منّي بمثابة الروح، وروحي خالصة لك. وأنت حاجتي في كلا العالمين، وأنت دنياي في الأولى والآخرة، فحقق لهذا القلب الرقيق كالشعرة حاجته، وكن معي على وفاق، ولو للحظة، وإن ترتفع روحي فمن أجلك، وليس تحرّرها منّي إلّا أملاً في وصالك».

ها هو الحصان الخليّ الأبيض يضرب الأرض بحوافره الذهبية مسرعاً كالريح يحملني. فأنا أعرف هذا الحصان، إنّه البرق، وها هو يحملني مرّة أخرى ويرتفع شيئاً فشيئاً، سريعاً كأنّه طائر في الفضاء الرحب.. ويرتفع... ويرتفع... وهو يصعد هذا الجبل العظيم المهيب، وها أنا أمُرّ بمكان مزدحم يقف فيه هدهد، ما إن لمحني حتّى تخلّى عن الجميع، وسارع إلى الترحيب بي بصوت أعرفه أكثر من صوتي: مرحباً بك يا عظيم الشأن، لقد انتظرتك طويلاً... هلمّ بنا نسرع، فها نحن قد أصبحنا على الأعتاب.

– وما هذه الزحمة ولم يلتمّون هكذا؟

– إنّهم ينتظرون هنا منذ دهور، ولم تعد لديهم القوّة الكافية ليكملوا الطريق، لذا تراهم هكذا عالقين بين السماء والأرض، لقد وصلت أنت إلى هنا مبكراً، لكن يجب أن نُسرع الخطى فما زال أمامنا

طريق طويل.
– ولكن اعذرني، ألم تقل «وإذا سكن العشق قلباً، سارع القلب بالسيطرة على روح ذلك الشخص، والرجل الذي تسيطر عليه هذه الآلام، يخرج مضطرباً من بين الحجب، ومن لا ينجُ لحظة بنفسه، تقتله نفسه ثمّ تطالب بالدية، وإن تعطِهِ ماءً، فما أعطيته إلّا الأذى والعلة، وإن تقدّم إليه خبزاً، فلن يكون إلّا خبزاً معجوناً بالدم، أما من كان في الضعف أكثر عجزاً من النملة، أمدّه العشق كلّ لحظة بقوّة هائلة، وإن يسقط إنسان في بحر الخطر والهمّ، فكيف يستطيع أن يأكلّ كسرة خبز دون غمّ؟».
واستدركت: قل لي إذن، أين تلك القوّة الهائلة التي تنهال على العاشق، الذي هو أضعف حتّى من النملة؟
فرمقني الهدهد بنظرة وأشاح بوجهه صوب القمّة قائلاً: ها أنت قد أجبت عن نفسك، إنها تنزل على العاشق تحديداً، وهيّا بنا فما زال أمامنا الكثير... ومع ذلك دعني أذكرك بحكاية الصوفي الذي صُفع على قفاه!
– نعم أذكر تماماً حيث قلت لي: «كان أحد الصوفية يمضي في طريقه، فإذا بجاهل يصفعه صفعة قاسية على قفاه، فالتفت خلفه، وقال وهو محزون القلب، إنّ من ضربت على قفاه قد مات منذ قرابة ثلاثين عاماً، ومضى، فقد سلك عالم الوجود إلى نهايته ومضى.
فقال له الرجل: يا من ينطق بالدعوى دون فعل، ومتى كان الميت يتكلّم؟ فليصبك الله بالخجل.
وما دمت تنطق فلست رفيقاً، وما دام لك وجود، فلست محرماً للأسرار... وإن توجد شعرة واحدة في ما بينكما، تكن كمئة عالم من المسافات في ما بينكما، وإن تبغِ الوصول إلى هذا المنزل، فكم تتألم لو بقي من وجودك شعرة... ففي كلّ ما تملك أشعل النار، حتّى رباط القدم أشعل فيه النار، وعندما لا يبقى أيّ شيء تفكر في الكفن، وألق نفسك عارياً وسط النار، وعندما تصبح رماداً، وكذا متاعك، فسيصيب النقصان تفكيرك، فلو كنت كعيسى، وبقيت عنك ولو إبرة واحدة، فاعلم أنّه ما زال في طريقك مئة لصّ. ولكن لو كنت كعيسى وقد تخلّى عنه متاعه، ولخاطت إبرته عدّة غرز على القبّة.
عندما يبدو الحجاب في هذا المكان، يصبح حجابك المال والملك والسلطان، فكلّ ما تمتلك تخلَّ عنه واحداً واحداً، ثمّ ابدأ بالخلوة مع نفسك، وإذا ما اجتمع قلبك في الوجد فإنك تخرج عن نطاق الحسن والسوء، وعندما ينعدم الحسن والسيّئ تصبح عائقاً، ثمّ تصير بفناء العشق لائقا»...
وانطلق الحصان كشهاب صاعد يخترق صفاء السماء في اتجاه معاكس لكلّ شهب الله، ووصلنا مكاناً يقف فيه رجل في أواخر العمر والزنار يشدّ خصره النحيل، بينما المكان مليء بأصوات متداخلة تنتحب وتناجي السماء طلباً للشفاعة والمغفرة، والشيخ صاحب الزنّار غافل عن كلّ ذلك، مشغول بعصاه التي يرعى بها الخنازير. وفي الجوار حفرة كبيرة سوداء يخرج منها اللهيب بجنون تستلقي بجانبها شابّة غلبت الشمس في جمالها وطغيانها، فأسقطتها من عليائها.. كانت تنتحب كطفلة تائهة، فسألتها: ما بك يا سليلة العشق؟
فأجابت وهي تنتحب: لقد ارتكبت المعصية الكبرى، فأجبرتُ الشيخ الجليل على شرب الخمر وحرق الكتاب، وها أنا هائمة خلفه لعلّه يغفر لي وأموت بين أحضانه.
– أنت سليلة العشق.. أخت فاطمة. إنّه العشق الذي أودى بالشيخ إلى ارتكاب كلّ تلك المعاصي، وهو كفيل بأن يعالج كلّ ما حدث، وستكونين خالدة وأنت تقضين بقيّة عمرك بين أحضان الشيخ.

– أين أنا من فاطمة؟ فأنا أغويت شيخاً جليلاً طاف الكعبة خمسين مرّة، بينما فاطمة شيختنا في هذه الطريقة، فهي على العكس منّا جميع النساء، قد هدتك من طريق المعصية إلى الطريق القويم. وأنت أعلم منّي بأنّ الطريق إلى المعصية واللهو سهل مليء بالغواية واللذة، بينما الطريق إلى الهداية القويم مرّ ومليء بالآلام.
فاجأني الشيخ وهو يُمزق ما عليه، ويرتدي الخرقة من جديد وهو متوجّه صوب السماء، وسألني باكياً: إلى أين أنت سائر يا عظيم الشأن؟
– إلى القمّة، إلى حيث العشق، إلى حيث تذوب كلّ معاني الكفر والإيمان، حين يصبح الإيمان كالكفر.. والكفر كالإيمان.. ولا يبقى سوى العشق.
وتبعنا الهدهد، طائرين – البرق وأنا – نرتقي الجبل بهمّة، إلى أن استوقفنا حشد كبير وكأنّ البشر كلّهم تجمّعوا هنا، إنّه أشبه بيوم الحشر، وقد تعرّفتُ من بين الحشد إلى الشيخ كاكه حمه وأهله كلّهم إلّا الشيخة الكبيرة، وكاكه حمه سي خراني، بينما يقف الشيخ حسين الهزار كاني بكلّ مهابة تجري الأنهار حواليه هادرة من ألف نبع. وشجرة ضخمة كثيفة الأوراق، بألوان مختلفة تُزهر منه بنفس السرعة التي تذبل منها أوراق وتتساقط، يقف بجانبها كائن كبير يحمل رمحاً، كلّ تفصيلة منه تشي بالقسوة، إلّا وجهه الباكي الذي تحوّل تجهّمه حين وقعت عيناه عليّ، إلى وجه طفل تسبّب بالخطأ بقتل عندليبه العزيز الرقيق. سألته: لماذا تبكي بينما أنت الممسك بقوّة، بمصائرنا؟ وأنت من يأخذ الحياة دون أن يعترض أحد؟
– يا عظيم الشأن، أنت لا تُدرك ما أنا فيه، فحين تقترب ورقة كتب عليها اسم عاشق، يعتريني اضطراب لا يطاله اضطراب السماوات والأرض، فما بالك بمقابر العشاق التي تملأ الأرض أينما حللت. إن طلوع روح عاشق واحد تهتز له عروش السماء والأرض، فما بالك بكلّ هؤلاء العشاق الذين اضطررت إلى إزهاق أرواحهم العطشى للوصل؟
– هوّن عليك أيها العاشق، فأنت أيضاً تعشق الموت والدم.
وما إن سمع عبارتي الأخيرة حتّى تحوّل بكاؤه الرقيق إلى نحيب أشبه بالريح العاتية بينما دموعه الحمراء القانية أخذت تنزل سيولاً هائجة.
وواصلنا الطريق نخترق طبقات السحب، فوصلنا إلى منطقة يكسوها خضار نضر، بينما ترتفع في المنتصف تلة كبيرة جرداء، تعتليها شجرة عظيمة تقطر دماً، ويربض تحتها كهف تفوح منه أشدّ الروائح العطرة، مزدان بشتى الألوان، يسير بجانبه جدول صغير يخرج برقة وعذوبة من خلف صخرة وقد استند إليها شابّ يمسك بمنظار مكبّر، يحيط به مجموعة من شباب وصبايا، تُزيّن أبدانهم زهور بلون الدم القاني، أعرفهم جميعاً، وهم كثر بحيث لا أستطيع أن أحصيهم، ها هم كلّ من دلير الذي تسيل الزهور الحمر من خصره، حمه رش يقف على أعتاب فرحة غير مكتملة، وصنوبر وآمنة، وليلى قاسم التي تلهو على أرجوحة الحبل الذي تدلى لشنقها وتستهين بالحبل وبالجلّادين المقنّعين المرعوبين منها. وها هو سيروان مستلقٍ ينظر إلى كلّ شيء باستهانة مخيفة، وستار الذي يلهو في نهر، وطاهر وهو يلعب بالتراب الذي صنع منه طيناً يلهو به، وسربست وهو يلعب بالنار التي طاوعها فأصبحت برداً وسلاماً، وأبو سعد وهو يشير إلى الأعلى حيث يحلق أنور بجسده الذي يزهر بلون الدم القاني. ثمّ سلمتُ على آوات، فأجابني برقة: اخفض صوتك، إنّ الفتية نائمون في الكهف هانئين، فلا تُعكّر صفو نومهم وأحلامهم...
– ولكن ماذا تفعل أنت؟ وما قطع الأوراق الممزقة هذه؟

– إنّها رسالة مزقتها حبّاً بصديق لم يعرف قدر نفسه، فمشى في طريق الوهم الذي ظنّه عشقاً، فحُكم عليه بالشقاء والغرق في التعاسة.
– وما قصّة هذا المنظار الكبير وإلى ماذا تنظر؟
– إنّني أتوق إلى بغداد، أنظر إليها وأراها من مكاني هذا، غارقة في العبث تحيطها النيران التي زرعها الخليفة في جذورها.
عبرنا طبقة كثيفة من السحب نتبع الهدهد الذي ما إن ينطق حتّى أذوب في ذلك الصوت العتيق... ها هو يسير ببطء يبدو عليه الإنهاك بظهره المحنيّ تحت ثقل الصندوق الكبير الذي يحمله، تخضرّ الأرض تحت قدميه. كانت شعلة من النار تتقدّم مشيته، بينما ينزل مطر هادئ بمنتهى الرقة على رأسه هو فقط، وينتقل معه، في كلّ خطوة مكتفياً بالنزول عليه هو دون ما يحيط به.
استوقفته أسأله عمّا ألمّ به، فردّ عليّ بينما كان يتنفس بصعوبة شديدة: أنا أحمل منذ دهور تابوت أبي وقد أنهكني الطوفان، فلا تؤخّرني أكثر من ذلك، عليّ أن أسرع في دفنه.
– وأين بقيّة إخوتك، ولماذا أنت وحدك هنا؟
– إخوتي يخافون، إنّهم مرعوبون بعد الطوفان الذي حوّل الأرض إلى دهاليز موحشة، وأنا أتفّهم خوفهم، لكنّني أؤدّي ما عليّ.. فقد ائتمنني أبي في وصيّته على جثمانه.
– ولمَ أنت حزين هكذا؟
– إنّ الحزن يقطع قلبي على فتية تركوا كلّ شيء وأمّنوا لكهف كنتُ أحرُسُه، فإذا بالكهف الغادر يخون الثقة والأمانة ويدفنهم للأبد. اذهب في حال سبيلك، فأنا في عجلة من أمري، وكذلك عليك أن تسرع أنت أيضاً.
واختفى بعض الوقت ثمّ عاد مرّة أخرى وصاح بي: ألم أقُل لك أن تذهب؟ أنا في عجلة من أمري، فيجب أن ألحق به فهو ينتظرني في ذلك البرزخ منذ أربعين يوماً.
زلزل صوته الريح التي هبّت مسرعة، ووصلت عربة من نار، فركبها وانطلق بها مُخترقاً قلب السماء.
التفتُّ صوب البرق، فرأيتُ حشداً كبيراً والغبار يتصاعد من كثرة حركتهم، سألتهم عن سرّ تجمّعهم هكذا، فأجابوا بأنّهم ينتظرون وصوله، لعلّه يستغفر لهم، ويدخلون في شفاعته، فلمحته من بعيد كطيف، راكعاً عند قدميْ امرأة مسنّة بدت كأنّها تلفظ أنفاسها الأخيرة، تعرّفتُ إليه في الحال من اللمعة التي تسكن تحت إبطه تماماً، فسلّمتُ عليه، وسألته: ماذا تفعل هنا بينما قبائلُ ونجوم تنتظرك في الصحاري بشوق شديد؟
أجابني برقة شديدة: وكيف لي أن أترك أمّي؟
فتوجّهتُ إليه متوسّلاً أن يطلب لي الشفاعة والمغفرة عن كلّ آثامي، فنظر إليّ نظرة دافئة، وردّ بعذوبة: أنت لست في حاجة لشفاعة من أحد، فالعاشق يشفع له عشقه، وكفّ عن إشغالي، فيجب أن أعتني بأمّي وأنا ليس لديّ الوقت لأنشغل عنها.
وقبل أن ننطلق صاعدين مجدّداً، رأيت أمامي كنيسة يعلو فيها صوت يدعو لشيخ المسلمين، الذي حماهم من القتل، فنزل المطر برقة يطفئ الحرائق المشتعلة في كلّ مكان، والتفتُّ إلى الخلف نتيجة سماعي لأصوات همهمة، فإذا بشيخ يُمسك بالمصحف، رافعاً يديه إلى السماء، لمباركة زواج الفتاة التي يشعّ صليب على صدرها، إلى ولده المعمَّم.. كانوا مشغولين عنّي فرحين بما هم فيه.

كانت هذه الطبقة من السحب أكثر كثافة من كلّ ما سبق، وما إن عبرناها أنا والبرق، حتّى أصبحنا في فضاء واسع غريب، ها هو ينتظر عند التقاء بحرين، ينظر إلى السمكة التي تتقافز في الصحراء، متجهة بلهفة حارقة نحو البحر، ويرفع بصره بين الحين والحين وكأنّه ينتظر أحدهم، ثمّ يركّز نظره إلى الصليب المنصوب الذي يتربّع عليه شابٌّ حزين، يملك بابتسامته العذبة كلّ ما حوله، بينما الدماء تزهر من كلّ مكان في جسده النحيل، وهو ينظر بذهول إلى رجل يمسك بسكّين كبير يربض تحت قدميه شابّ، ينظر إليه بكلّ ودّ، بينما يملأ صوت كبش المكان كلّه. فتنهال الأمطار شديدة وتطفئ النار التي تشتعل بجنون. ويشتدّ المطر وتنهمر السيول، ويغرق كلّ شيء، فتصل سفينة يقودها شيخ في نهايات عمره، وترسو السفينة بسلام، حاملة كلّ أنواع الكائنات، بينما يصدر حوت صوتاً مخيفاً والدموع تنزل من عينيه تغرق البحر في طعم الملوحة، فيخرج من بطنها رجل يحمل عصاه ويمشي بهدوء، ويرمق شيخاً ضريراً يبكي ولده، بينما نواح ذئب يملأ المكان يتغنّى ببراءته وافتراء أبناء الشيخ الضرير عليه.
كان المكان مزدحماً، لم أستطع أن أقف عند كلّ تفصيلة، ولمحته مُحلقاً رأسه فارشاً عباءته التي يستقرّ عليها حجر، يشعّ في سواده فيُصارع الشمس. فبكيتُ بشدّة أصيح: اشفع لي يا سيّدي وحبيبي. وبقيت أصرخ إلى أن سمعت صوته يهوّن عليّ مُحاولاً تهدئتي.
كان يقف في ظل شجرة، ممسكاً بيده بتفّاحة حمراء تملأ رائحته المكان كلّه، بينما يظهر خلفه ثعبان من نار، وامرأة فاتنة تنزل يدها بعد أن ناولته التفّاحة الحمراء. فسألته بحرقة: ماذا جنينا لكي نلقى كلّ هذه العذابات في حياتنا؟
فأجابني بصوت يقطر حزناً: أنا من جنى ولستم أنتم، فأنا الذي خلّفتُ ورائي أبناءً يدفعون ثمن معصيتي، لكن ماذا أفعل أمام رائحة التفّاح وهيئتها الشهيّة التي لا تُقاوم؟
فصحت به: ولكن يا أبي، نحن أيضاً عاصون آثمون، ولكن قل لي بربّك، كيف يُعقل أن نكون من نسل تفّاحتك هذه، بينما تقتلنا رائحة التفّاح بصمت؟ فسكت ولم يردّ عليّ. فاستدركت: ومع ذلك لي صديق كان يقول عنك دائماً، العاشق الأول.. وإنّنا كلّنا نتاج عشقك ذاك.
فقاطعني بحدّة: تقصد عشقي الآثم؟ ومع ذلك فإن كنتُ أنا العاشق الأول، فالمؤكّد هو أنّك أنت العاشق الأخير، لأنّك تسير في اتجاه معاكس لاتجاهنا نحن معشر العُشّاق جميعاً. فعشقك غيّر طريقك من المعصية إلى الإيمان، بينما عشقنا كان يبدأ بارتدادنا على الإيمان، ويمرّ بطريق المعصية.
فقلت له مُهوّناً من الأمر: يا أبتِ، أنت معلّمنا الأول، وها هو الهدهد يفتي بأنّ العشق أعلى منزلة من الكفر والإيمان معاً. فالعشق غاية الخلق وخطوته الأولى. هوّن عليك وبارك لي هدايتي التي ليس لي فيها أيّ فضل، فالفضل كلّه يعود إلى ابنتك التي هدتني وقادتني وأرشدتني، إلى فاطمة العفيفة الرقيقة التي ضاعت في الصحراء وبدلاً من أن أتسلّم منها تفّاحة كما فعلت أنت، فإنّ زوبعة مسكونة برائحة تفّاح خانقة، قد ابتلعتها واختفت في غمضة جفن.
وصلنا إلى القمّة بعد اجتياز الطبقة الأخيرة من السحب الملوّنة، فإذا به ينتظر برأسه المدلّى على صدره، وهو يمسكه بكلتا يديه، بينما الهدهد وقف على كتفه، فاعترتني رعشة وأنا أرى نفسي ممسكاً برأسي على صدري.
وأحسست بألم قاتل في عنقي، ثمّ انتقل الألم إلى جروح متعدّدة في كلّ جسدي تنزف منها الدماء مسرعة، ورأيته يقف على رأسي بنجومه التي استقرّت على كتفيه مُحاطاً بجنوده، وهو يصيح فيّ

بغضب: صدق العريف حمادي، فأنت لا تساوي حتّى ثمن هذه الرصاصات التي أفرغتها فيك للتوّ...
وحلّ ظلام فجائي واختفى كلّ شيء. انفتحت عيناي على القمّة التي كان يقف فيها ممسكاً برأسه والهدهد المستقرّ على كتفه يخاطبني بصوت فاطمة الذي لا يمكن أن أخطئه: إلى أين ذهبت، ألا تعلم بأنّ هذا هو عروجك الأبدي، الذي لا رجعة فيه؟ تعال فها نحن قد وصلنا.
فسألته: ولكن لمَ شاهدنا كلّ هؤلاء في الطريق، بينما لم نر غيرهم كثيرين؟
فأجابني الهدهد: تقصد الشيخة وسعيد الحاج علي وأبوه وأحمد ماركس وجنكي كاردوخي وأبو أنس الانصاري و...؟
فقطعت الحديث: نعم، هم وغيرهم الكثيرون، ولكن كيف عرفت أنّني أقصدهم؟
– دع عنك كلّ هذا، فأنا أعرف كلّ ما يجول في خيالك وخاطرك. أمّا في ما يخصّ سؤالك، فهل نسيت حين قلت لك «وإن يفن النجس في بحر الكلّ، يسقط إلى القاع ذليلاً بصفاته، ولكن إن ينزل إلى هذا البحر رجل طاهر، فسيفنى فناءً حقيقياً، ولن يبقى له أثر، حيث تصبح حركته هي حركة البحر. وعندما يفنى يكون غارقاً في مجال الحسن والطهر، وإن يحدث هذا يكن فانياً وهو موجود، وهذا يخرج عن نطاق الخيال والعقل»؟
– آه نعم لقد تذكّرت.. وفهمت...
وضع رأسه عند قدميه وأشار بإصبعه إلى الكهف الذي يعتلي أعلى القمّة، فأخذت أحُثّ الخطى بعد أن كنتُ قد نزلت عن ظهر البرق، ودخلتُ الكهف الذي كان يضيء بكلّ الألوان والإشعاعات، إنّه الجوّ المهيب الذي يصعب وصفه أو حتّى فهمه. ووقفت في مواجهة باب تناديني من خلفه بصوتها العذب، فدفعت الباب الذي ارتفع إلى الأعلى، كانت فاطمة واقفة وكلّها غارقٌ في شعاع لا نهائي الألوان، فاحتضنتها وذبتُ في بحر الألوان واحتلتني نشوة طاغية، كأنّني شربتُ كلّ بحار الخمر لا مجرّد كأس عرق أو حتّى قنينة انتزعتها عنوة من صديق. ورأيتُ نفسي أندمج فيها، في الصورة التي كانت تنعكس منّا كلينا بعد أن كنّا قد أصبحنا كلّاً واحداً، في المرايا اللانهائية التي كانت تغطّي الأرضية والسقف وكلّ الجدران من كلّ الاتجاهات.
ها هو صوته مُجدّداً، يصل إلى أذني ويستقرّ في أعماقي، وأدخل معه في حالة ذوبان لا أمّيز أيّ شيء مطلقاً، ها هو الهدهد، يسرد عليّ للمرة الأخيرة، حكاية فيقول: «قال لقمان السرخي: يا إلهي، إنّني شيخ هرم ولهان ضللت الطريق، وإنّ العبد الطاعن في السنّ يكافأ بوثيقة عتقه وإطلاق سراحه، أمّا أنا فما زلت عبداً لك يا إلهي، وقد ابيضّ شعري الأسود، إنّني عبد تحمّل الكثير من الغمّ، فامنحني السعادة، لقد أصبحت شيخاً، فأنعم عليّ بوثيقة العتق والحرّية.
قال له هاتف: يا من يُعدّ من خواصّ الحرم، إنّ كلّ من يطلب الخلاص من العبودية عليه أن يفني عقله وتكليفه معاً، فتخلَّ عن كلا الاثنين وسر في الطريق.
فقال: إلهي، إنّني أطلبك على الدوام، وليس لي بالعقل والتكليف أيّ اهتمام.
وأخيراً خرج عن حدود العقل والتكليف، وظلّ يرقص ممّا تملّكه من جنون، ويقول: إنّني لا اعرف الآن من أنا، فإن لم أكن عبداً، فمن أنا. لقد انمحت العبودية وانعدمت الحرّية، وما بقيت ذرّة همّ أو بارقة سعادة في القلب، وهل عدمت الصفة. أم أنا أتّسم بأيّ صفة؟ وهل أنا عارف؟ أم أنا عدمت المعرفة؟ ولا أعلم أأنا أنت أم أنت أنا، فقد فنيت فيك وتلاشت الآنيّة».

وها هي الأنوار تشعّ أكثر إشعاعاً من الشمس العظيمة، فتختفي جميع الظلال وأتلاشى معها تماماً...

54

«فإذا نام العاشق ففي الكفن».
فريد الدين العطّار

بينما أركض بسرعة، مرعوباً من أن يكون أحدهم قد عبث بغرفة آتيلا، مخفياً بذلك وإلى الأبد، سرّ قنينة العرق ومصير توبة آتيلا في لحظاته الأخيرة. أستعيد قسراً، تفاصيل كلّ ما حدث، لكي أحاول فهم الصورة في إطارها النهائي. بعد خروج آتيلا مُصطحباً معه قنّينة العرق الأخيرة، وصل إلى البيت ميران بسيّارته وبعض أفراد حمايته، ودخل عليّ وجلس بقربي، يحاول تهدئتي وإصلاح ما أفسده الجدل الذي كاد يصل في المساء إلى مشادّة بصوت عالٍ، على خلفية قبولهم بوليمة الآغا ورفضي العنيد لها، مُستعيناً بذلك بأدبه الجمّ ورقته في التعامل. وأصرّ عليّ في نهاية حديثنا على أن أرافقه إلى حيث سنذهب غداً لزيارة بعض عوائل الشهداء وبعض رفاقنا الذين اعتزلوا بحزن في الفترة الأخيرة.. فرافقته وغادرنا باتجاه المدينة القريبة التي سوف ننطلق منها في زياراتنا التي اتفقنا على إجرائها في اليوم التالي.. المدينة التي تربض على أطرافها الجنوبية، تلك القلعة القديمة التي تشعل الجدل بين من يقول إنّها تعود إلى ما قبل ميلاد المسيح، وبين من يقول إنّ أمراء المنطقة الكرد هم من بناها، بينما يصرّ آخرون على أنّها قلعة ساسانية، كان الملك أنوشيروان يحكم منها بالعدل.

عطّلت الأخبار الواصلة في صباح اليوم التالي، برنامج زياراتنا. فقد أخذت تصل تباعاً عن هجوم الجيش على المدينة واحتلالها وتجاوزها حتّى باتجاه الهضبة التي تؤدّي إلى بقيّة المدن. فما كان منّا إلّا أن جمّعنا ما توفر من قوات على عجل. وانطلقنا فوراً باتجاه الجيش المُهاجم. في نفس الوقت وردت الأنباء عن أنّ الجيش قد هاجم من كلّ الجبهات، وأنّه هاجم في ساعة صفر محدّدة من فجر اليوم، كلّ المدن المحاذية لأماكن تمركزه، فبدت كأنّها تتجاوز معركة واحدة تستهدف احتلال مدينة واحدة، بل كان الأمر هجوماً شاملاً على كلّ البلاد، بغية احتلالها من جديد. وما إن وصلنا إلى البلدة الصغيرة التي تتوسّط المدينتين حتّى رأينا الناس مرعوبين، وسيّارات كثيرة تجمّعت لا يدري سوّاقها كيف سيكملون طريقهم عبر المدينة التي احتلها الجيش مُبكراً، بينما كانت بدايات غبار الدبّابات الكثيرة المتقدّمة تملأ الآفاق.

اتّخذنا مواقعنا استعداداً لصدّ الهجوم الكبير لعشرات الدبّابات والآليّات العسكرية المدرّعة، بقوّة صغيرة، وبأسلحة خفيفة ومتوسّطة قليلة. ظلّت الدبّابات تتقدّم فاشتبكت مع طلائع بعض من قوّاتنا المتمركزة التي عطّلت تقدّمها، بينما أخذنا نتسلل خلفها في حركة جنونية، وبدأنا بمهاجمتها من الخلف، في حين لا تزال بعض قوّاتنا تُشاغلها في المقدّمة. واستمرّت المعركة على هذه الحال إلى بدايات المساء، وكان القتال قد خلّف بعض الشهداء لدينا، في مقابل إصابة وتعطيل بعض الدبّابات، بينما ظلت بقيّة الدبّابات عالقة في الهضبة بين نيراننا التي تحيط بها وبين المساء المرعب الذي نزل عليها مبكراً، دون أن تحقق تقدّماً، فيما لم نُبقِ لها مجالاً للانسحاب. فسيطرنا عليها جميعاً. ونظراً لقلة قاذفات الآر بي جي لتدميرها، فقد لجأ بعض رفاقنا إلى استخدام القماش وبقايا البطانيات المغمسة بالبنزين والديزل، وإحراق الدبّابات والآليات بواسطتها، فكانت تؤدّي إلى انفجارها.

طالت المعركة وهزمنا الجيش ودمّرنا كلّ دبّاباته وآليّاته. لكنّه ظلّ محتفظاً بسيطرته على المدينة. في المساء وبعد انتهاء المعركة، عرفنا الأخبار التي أكدت أن الهجوم الشامل قد فشل في كلّ المحاور، ولكنّنا عرفنا أيضاً أنّ النصر الأكبر كان في محورنا. كان نصراً أعاد إلى روحي اشتعال شرارة الثورة الضائعة. في صباح اليوم التالي جاءنا موفد من قائد الجيش يطلب التفاوض على تسليمهم حطام دبّاباتهم، فتوجّهنا بالسيّارات إلى المدينة وتجاوزنا نقطة التفتيش الحديثة التي نصبها الجيش على مدخل المدينة من جهتنا، بعد أن عرّفنا بأنفسنا. كان دخولنا المدينة أشبه بالقيامة، فقد خرج الرجال والنساء والأطفال يتراكضون حول سيّاراتنا وهم يهللون ويصفقون وظلوا يرافقوننا إلى أن وصلنا إلى المعسكر الكبير الذي يقع في جنوب المدينة.

تركنا السيّارات والرفاق أمام المعسكر يحيط بهم الآلاف من أهالي المدينة، ودخلنا كلّ من ميران وبكر وشمال وأنا إلى المعسكر الذي استقبلنا فيه ضابط قادنا إلى الغرفة التي كان قائد الجيش ينتظرنا أمام بابها، تصافحنا ودخلنا. بعد جلوسنا بقليل بدا الجوّ في غاية التوتّر، بينما كان واضحاً أنّ القائد الذي كان يحمل على كتفه نسراً ونجمة وخطاً أحمر بجانب النسر، يحاول أن يسيطر على جوّ الاجتماع، مُظهراً قوّة وجبروت القائد، الذي يفرض قواعد الاجتماع وشروط الاتفاق. دخل أحد الجنود مسرعاً، وخاطب القائد: سيّدي، إنّ أفراد القوّة التي تقف أمام المعسكر يستفزون جنودنا.

فاستشاط القائد وصاح بصوت عالٍ: لن أقبل بذلك.

فطلب ميران من بكر وشمال أن يذهبوا إلى البوابة ليروا ما يحدث، مؤكداً على أن يحافظ رفاق الخارج على هدوئهم فنحن في جلسة مفاوضات يجب أن نحترم العرف والقواعد. لم يطيلا في الخارج، وعادا مؤكّدين أنّ رشاشة الدوشكا الكبيرة التي تربض فوق بوابة المعسكر، يصوّب المسؤول عنها فوهتها صوب رفاقنا والناس المجتمعين حولهم بصورة استفزازية. وقد انتشر الجنود على سطح المعسكر كلّه. استشاط ميران غضباً وتوجّه للضابط قائلاً: انتهى الحوار ونحن خارجون الآن، فاستعدّوا للمعركة القادمة. ونهض من مكانه مشيراً إلينا بأن ننهض معه، فقمنا وخرجنا من غرفة القائد بينما كان العشرات من الجنود يعتلون سطح بنايات المعسكر متأهّبين لإطلاق النار فور صدور الأمر بذلك.

خرج القائد يركض وراءنا، يتوسّل إلينا متوجّهاً إلى ميران يترجّاه في العودة لإكمال الاجتماع وإنهاء المشكلة، فتوقف ميران وخاطب الضابط بنبرته الهادئة الحازمة: لا يمكن أن أجلس وأتفاوض معك تحت ظروف استفزازية كهذه.

– لك ما تريد يا عزيزي، وأنا آسف على كلّ هذه الإجراءات التي تمّت دون علمي، وأرجوك لنعد إلى اجتماعنا. ثمّ توجّه إلى الجنود المنتشرين على أسطح مباني المعسكر، وخاطبهم بنبرة غاضبة تأمرهم بالنزول فوراً، وأخبر الضابط المرافق له، أن يذهب إلى البوابة ليُشرف بنفسه على تقديم واجب الضيافة لرفاقنا المنتظرين في الخارج.

طال اجتماعنا، وأدّى إلى الاتفاق على أن نسمح لشاحناتهم بالمرور يرافقها ضبّاط كبار لإعادة بقايا حطام دبّاباتهم الكثيرة. وفشلت جميع توسّلات القائد في أن يُرافق الضبّاط حمايات محمّلون بأسلحتهم. ورضخ في النهاية لشرطنا بأن يرافق كلّ من العقيدين، جندي واحد ومن دون سلاح. ونتكفل نحن بحمايتهم بكلّ احترام إلى أن يُكملوا نقل حطام دباباتهم، في المقابل اشترطنا على أن يتركوا المدينة وأحياءها السكنية ويعودوا إلى أماكنهم القديمة التي انطلق منها هجومهم الأخير،

وأن يسلّمونا جثث شهدائنا، ويفرجوا عن كلّ من ألقوا القبض عليه، فلم يكن أمامه إلّا أن يقبل، وخرجنا من بوابة المعسكر مصطحبين معنا العقيدين يرافقنا القائد هذه المرّة بنفسه إلى البوابة التي ازدحمت بتصفيق الرجال وتهليل النسوة المتجمّعين أمام المعسكر.

عجيب أمر هذه المدينة وسكّانها العنيدين غير المبالين بالموت، وكأنّ باوه شاسوار قتل فيهم مع موته كلّ خوف من الموت، هذه المدينة التي يشي كلّ ما في اسمها بالكفر الذي يطلق العنان لخيال الحكايات العجيبة التي نسجت حول أسباب تسميتها بهذا الاسم تحديداً. يقال إنّ باوه شاسوار كان قد جاء المدينة التي كانت تدين بالزرادشتية قبل قرون. لا يعرف أحد من هو ولا حتّى من أين جاء، فغلّبت بعض الروايات أنّه قد يكون هو النبي زرادشت الذي طرده أهله. وحين بقيت المدينة تحت حصار القوات المهاجمة، أعاد تنظيم الرجال والنساء الذين قاوموا للنهاية، التي أدّت إلى موته حيث يقع قبره هناك أعلى القمّة، تقع بالقرب منه حفرتان عميقتان ترابهما أحمر خلافاً لتراب سلسلة الجبال تلك، يسمّيهما الأهالي تنّور عائشة وفاطمة، ويذهبون في الأعياد لزيارة مقام باوه شاسوار ويجلبون معهم بعض التراب الأحمر للتبرك... بينما ظلّ شيخ الشعراء، وابن المدينة، يصرّ على أن تينك الحفرتين قد تكونان من آثار قنبلتين ألقاهما الانجليز، على المقاومين في السلسلة الجبلية، أثناء ثورة أبناء المدينة التي قادها إبراهيم خان الدلوي، والتي تزامنت مع ثورة العشرين.

تقول تلك الرواية إنّ المعارك التي طالت وانتهت بتربّع باوه شاسوار الأبدي على تلك القمّة، قد أودت بحياة اثني عشر من قادة جيش المسلمين، دُفنوا جنوب المدينة، حيث ما زال مكانها قرية يُطلق عليها «الاثنا عشر إماماً»، بينما تقول روايات أخرى، إنّ هذه المدينة كانت تدين بالمذهب الشيعي قبل الغزو العثماني الذي غيّر مذهبها قسراً، وإنّ تلك القرية المسمّاة «الاثنا عشر إماماً»، تحتفظ برفات أئمة الشيعة الاثني عشر. تقول الروايات إنّ أهل المدينة الزرادشتيين قاوموا الهجمات والحصار بقيادة باوه شاسوار، وإن جيش المسلمين حين دخل المدينة، هاجمت امرأة متشحة بالسواد كانت قد خسرت تسعة من أولادها في المقاومة، قائد جيش المسلمين وشتمته بحرقة، فكان قائد جيش المسلمين قد عنّفها قائلاً: كفّري يا امرأة، كفّري. من هنا أخذت المدينة اسمها الذي ظلت تحمله حتّى الآن. وهي تُنطق كِفري بكسر الكاف، حيث نلفظ نحن، الكرد، كلمة الكُفر، بكسر الكاف لا بضمّها.

إلّا أنّ هناك روايات أخرى تقول إنّ كفري هي اسم لشجرة جميلة دائمة الاخضرار، كانت في ما مضى تغطّي هذه المنطقة الجرداء، ويقال إنّ جمالها وعطرها كانا يسحران البعض لدرجة تنسيهم عباداتهم وصلواتهم، فقيل لكلّ من تأثّر بالشجرة وأكلّ من ثمارها كافر، لذا سُمّيت بشجرة الكفر، ثمّ أخذت منها المدينة اسمها... وهناك رواية أخرى تقول إنّ الاسم مأخوذ من نوع من أنواع القار الذي كان الإنجليز يستخرجونه بكثرة، فكثرت الروايات عن مصدر اسم القار، لكنّ أكثرها شيوعاً تلك التي تقول إنّ من كانت تشتدّ به الحال إثر خضوعه لسحر ثمرة شجرة الكفر، كان يُحكم عليه بالموت حرقاً في ذلك النوع من القار المغلي... فقيل إنّ بعض الأولياء والمتصوّفة الذين اتُهموا حينها بالزندقة، كانوا يأتون بهم إلى هناك لتنفيذ حكم الموت فيهم في البداية، ثم مع خروج بعض الأولياء المُفترى عليهم سالمين من القار المغلي، أخذ الحكّام يستخدمونه للتكفير، أو لكشف الزنديق والكافر من المؤمن.

يا له من يوم تاريخي! أزال للحظات كلّ طعم المرارة التي تجرّعتها نتيجة ضياع الثورة بعد انتصارها في الأشهر الأخيرة. ووصلنا إلى مقبرة المدينة عصراً وكانت القبور قد أعدّت، وجميع الشهداء بمن فيهم آتيلا، متربّعون في أكفانهم البيضاء، ينتظرون الاتحاد بتراب هذا البلد إلى الأبد. كنتُ لا أزال غارقاً في المفارقة المغرقة في العبث والسخرية، كيف يُمكن أن يضيع شيء بعد أن يكتمل، كيف يضيع حلم بعد أن يتحقق؟

كان الباب مُغلقاً، والحيّ موحشاً غارقاً في الظلام والصمت، وكأنّ شيئاً لم يحدث أبداً، وكأنّ قذيفة لم تُطلق، وكأنّ دبّابة لم تُحطّم، وكأنّ جيشاً لم يُهزم، وكأنّ نصراً كبيراً لم يتحقق، وكأنّ رجالاً متفرّدين لم يتركوا هذه الأرض من أجلها. بدا المشهد وكأن سكوت طنبورة آتيلا أدخل المدينة كلّها في الظلمة والصمت الأبدي. كان الباب مُغلقاً، حاولت فتحه فدفعته، لكن دون جدوى. راودتني تلك الفكرة المجنونة التي ملأتني نشوة، أشعلت خفقان قلبي المرعوب من فكرة أن أكون تأخّرت في الوصول إلى المشهد كما تركه فيضيع عليّ سر قنينة العرق وتوبته إلى الأبد. فتسلقت الجدار كسابق عهدي حين كُنّا نتسلل إلى المدن أيّام الثورة، فيدخل أحدنا من فوق الجدار ليفتح الباب للبقيّة، فندخل إمّا بيت أحد الموالين للثورة، فنختبئ فيه إلى أن نُكمل مهمّتنا ثمّ نعود إلى المقر، أو حين كُنّا ندهم بيت أحد الخونة لتنفيذ عملية مسلحة وتحقيق حكم الثورة فيه.

دفعتُ باب غرفته بقوّة فانفتح أمامي مُصدراً صوتاً قويّاً نتيجة ارتطامه بجدار الغرفة. كانت خفقات القلب المرعبة قد احتلتني من جديد، وكبست على أنفاسي المتسارعة التي أصبحت كعبء ثقيل لا أستطيع حمله أكثر من ذلك. ودخلت الغرفة، وفتحت نور المصباح، وأوقعتني المفاجأة في مكاني فجلست على الأرض بقرب الباب وأنا خائر القوى، مذهولاً من هول ما أرى. بينما حلّ صمت مطبق. حتّى صوت ضربات القلب المتسارعة قد اختفى وكأنّه توقف عن الخفقان في تلك اللحظة، ولم أعد أسمع في كلّ ذلك السكون المرعب حتّى صوت أنفاسي التي كادت تُفجّر رئتي من فرط تسارعها، بحيث أحسست للحظة واحدة بأنّ رئتيّ لا يمكن أن تتّسعا لكمّية الهواء الخانق الذي يندفع إلى داخلهما بجنون. يبدو بكلّ وضوح أن أحداً لم يسبقني إلى كهف الأسرار المستعصية هذا، وها هي جميع الأشياء ما زالت في مكانها، كما لمسها آتيلا للمرّة الأخيرة في حياته. وها هو السرّ ينكشف أمامي، بقوّة أصابتني بحالة شلل أقعدتني على الأرض واهناً مذهولاً.

لقد ملأ الأرض عشقاً وهو يمشي ويستلقي ويبكي ويعزف ويغنّي ويقاتل عليها، وتركها وهو متوّج برغم بؤسه، سيّداً على العشّاق كلّهم. إنّه بحق آخر العشاق، وأخشى أن تصبح الأرض من بعده جرداء خالية وخاوية من العشق تماماً. فإن كان الأمر كذلك، فإنّ موت آتيلا يُصبح حسب نظريتي كما كان يحلو له أن يسمّيها، هو نهاية الخلق. ها هو يُحدّق فيّ بعينيه المفتوحتين على وسعهما مذهولاً ممّا قلت، ثمّ بعد برهة من استعادة أنفاسه المذهولة قال بصوت شبه مختنق وبكلمات متسارعة: أرجوك أعد ما قلته، أعد نظريتك على مسامعي.

كان ذلك قبل سنوات حين كنت أتقطّر عشقاً بكلّ شيء، كان ذلك قبل أن يضيع عشق المرأة، وعشق الثورة قبل أن تموت لحظة ولادتها القيصرية، فأجبته ضاحكاً: هل سمّيتها نظرية، ألا ترى أنك تبالغ قليلاً؟

أجابني بنبرة واثقة لكنّها متسارعة: إنّها أكثر من نظرية، دع عنك كلّ التسميات وأعدها على مسامعي مرّة أخرى أرجوك.

فشرحت له رؤيتي للأمر وأنا أضحك فرحاً من ردّة فعله: اسمع يا عزيزي، لقد توصّل المنطق إلى أنّ الإنسان حيوان ناطق، بينما وصلت أكثر اختراقاته تفاؤلاً بالإنسان، إلى أنّه حيوان عاقل. وإذا سلّمنا مع المنطق بأنّ الإنسان حيوان، فإنّ ما يُميّزه عن الحيوانات، ليس كونه ناطقاً ولا حتّى عاقلاً. إنّ هذه الأمور لا تنزل هكذا لتميّز الإنسان في لحظة واحدة عن بقيّة الكائنات الحيّة. بل هي صفات مُعقّدة تحتاج إلى تراكم زمني. بينما تميُّز الإنسان في لحظته الأولى، لم يكن تراكمياً بل كان فجائياً ونتيجة لقرار مجنون... كما لم يكن تميُّزاً عن الحيوانات، إذ إنّ الكائن الذي سجدت له الملائكة، وهم المفضّلون على جميع المخلوقات، قد تميّز أول الأمر عن الملائكة لا عن الحيوانات. لذا فالمقدّمة التي انطلق منها المنطق في تعريفه للإنسان خاطئة. ولا بدّ من أن تكون النتيجة حسب المنطق نفسه خاطئةً أيضاً، أفلا تؤدّي المقدّمات الصحيحة إلى نتائج صحيحة، والمقدّمات الخاطئة إلى نتائج خاطئة؟

– صحيح، أرجوك أكمل بسرعة أنا أتوق إلى أن تشرحها لي بسرعة.

أجبته وأنا مستغرق في ضحكتي الفرحة كالطفل: قل لي يا دكتور، ما هي اللحظة التي وُلد فيها الإنسان لأول مرّة؟

– أنا لا أعلم، ولست هنا لأجيبك عن أسئلتك العميقة، بل لأسمع نتائج نظريّتك وأجوبتها.

– حسناً يا عزيزي، إنّ اللحظة التي وُلد فيها الإنسان في لحظته الأولى هي تحوّل أبونا آدم من كائن سجدت له الملائكة، إلى إنسان عاصٍ محكوم عليه بالطرد من الجنّة. صحيح أم لا؟ أليست تلك هي اللحظة التي ينزل فيها إلى الأرض ويتحوّل إنساناً وأباً للبشرية؟

– نعم صحيح، أكمل.

– لماذا واجه آدم هذا المصير؟ ألم يكن بسبب تناوله للفاكهة المحرّمة؟

– نعم...

– يأتي السؤال الأهم والجوهري في كلّ هذه الحكاية وهو لماذا تناولها؟ وما الذي أجبره على المعصية وتناولها مع أنّه كان يعلم بأن عقوبة فعلته تلك هي الطرد من الجنّة إلى الجحيم الذي نواجهه الآن؟

– لأن إبليس أغواه...

– يا لأبليس المسكين! الذي أنصفه الحلّاج حين قال عنه بأنّه الموحّد الذي رفض أن يُشرك بالله حين رفض السجود لغير الله. كان آدم، أبي وأبونا جميعاً، مأخوذاً لحظتها بذهوله، لا يقوى على عدم تلبية رغبة حواء التي عشقها في تلك اللحظة، التي من أجل عينيها تناول الفاكهة المحرّمة وهو يعلم جيداً بعاقبة الأمر. ومع ذلك تحدّى كلّ شيء من أجل عينيْ أمّنا حواء. ولحظة الحُكم عليه بإخراجه من الجنّة وإنزاله إلى الأرض هي بالتحديد لحظة تحوّله إلى إنسان. وبذلك يكون الدافع كلّه عشقاً لا غير. وها أنت ترى أنّ البشرية ورثت منذ تلك اللحظة، العشق وهو ملتصق بكونه محرّماً، ولذلك أيضاً ترى جميع قصص العشق محرّمة، وكأنّها لا يُمكن أن تولد إلّا إن كانت محرّمة.

نظر إليّ مذهولاً وقال بصوت مرتبك: إذن؟!

– إذن، فهذه القضية لا تُحلّ بالمنطق الذي انطلق بمقدّمة خاطئة، تفترض الإنسان حيواناً، وكأنّ لحظة تميّزه الأولى كانت هي اللحظة التي كان محاطاً فيها بالحيوانات لا الملائكة. لذا فكلّ ما قاله المنطق في هذا المجال يبقى خاطئاً، لا بل عاجزاً وفاشلاً، لأنّ العشق أكثر تعقيداً من فهمه

بالمنطق، وكما تُردّد أنت فتوى العطّار باستمرار أنّه أعلى مكانة من الكفر والإيمان معاً، بينما المنطق عاجز حتّى عن الإجابة عن قضايا الكفر والإيمان، فما بالك بالعشق الأعلى مكانة؟
– إذن؟!
– إذن، فإنني حتّى لو سلّمتُ مع المتمنطقين الفاشلين بأنّ الإنسان كحالة جسدية هو حيوان، فإنّ ما يُميّزه ومميّزه في لحظة ولادته الأولى، ليس نطقه بالكلام ولا حتّى عقله. ما ميّزه منذ اللحظة الأولى، كان العشق الصادق المتجرّد والمتقبّل لكلّ عواقبه القاسية. وإن كنت مضطرّاً من هذا المنطلق لأن أقول بأنّ الإنسان حيوان، فإنّني سأكمل العبارة على النحو التالي: الإنسان حيوان عاشق.
احتضنني بقوّة مذهولاً اختلطت قهقهاته المجنونة بكلمات إطراء ومديح، وقال لي بعد أن نظر إليّ وقد تلبّسته هيئة طفل فرح بهديّة نادرة: أنت عبقري، أنت مفتي العشق حقاً.
فضحكتُ من كلّ قلبي وأنا أقول له: أنا مسكين وفيّ لأبي الأول وتراثه.. كما بقيتُ وفيّاً لأبي الأخير وتراثه النضالي وعناده...
– بل أنت عطّاري الهوى دون أن تصرّح بذلك، هل نسيت ما قال حين تحدث عن وادي العشق وعلاقة العشق بالعقل؟
– لن أنسى بالتأكيد، إذ يقول: «العشق نار هناك، أمّا العقل فدخان، فما إن يقبل العشق حتّى يفرّ العقل مُسرعاً، والعقل ليس أستاذاً في مجال العشق».
– نعم، الآن فهمت حقاً، فأبونا آدم كان يعلم عاقبة ما فعل، ولو كانت لحظته تلك لحظة عقل لما فعلها أبداً، ولأنّها كانت لحظة عشق بامتياز فقد فرّ العقل مُسرعاً. وهو ما حلّ بي كذلك، فكان كلّ العقل وكلّ المتعقلين ينصحونني بالتخلي عن عشق فاطمة، متناسين أنّ العقل عاجز مسكين، لذا سوف أردّد من جديد ما قاله الهدهد: «ومن يصل وادي العشق يغرق في الحرقة، فلا تجعل يا إلهي أيّ فرد في هذا الوادي بلا حرقة، ولا تجعل من لا يتردّى في الحرقة سعيداً مسروراً، فالعاشق من يكون في نار وحرقة كما يكون متقد القلب ملتهبا ثائراً. فالعاشق من لا يفكر لحظة في العاقبة، بل يكون غارقاً في النار كبرق الدنيا، وفي لحظة لا يعرف الكفر ولا الدين، كما لا يعرف ذرّة شك أو يقين».
بينما أنا أتذكّر هذا الحوار العتيق وأنا شبه مشلول، أرتمي في غرفة ما زالت غارقة في كلّ ما يعنيه آتيلا، راودتني فكرة غريبة تستند إلى منطق من الصعب أن يفنّده أكبر أساتذة المنطق قدرة، فإن كانت لحظة الخلق هي لحظة العشق بامتياز، وكان آدم هو أول العشاق، فإنّ آتيلا يتربّع على العرش كآخر العشاق، فيما تظل لحظته هي لحظة نهاية الخلق، أو قد تكون نهاية العشق الآثم... فهل جاء يبشر بدين جديد للعشّاق؟! لقد عاش عاشقاً عفيفاً وها هو يموت عفيفاً لم يُحقق في حياته كلّها حلماً واحداً، بعد أن قلب معادلة العشق التي أرسى أسسها آدم بنفسه، حيث كانت كلّ حكايات العشق التي ابتُلي بها مؤمنون تؤدّي بهم إلى العصيان والإثم، من آدم إلى الشيخ صنعان إلى كلّ من تلاهما، يبقى آتيلا هو الوحيد الذي قلب المعادلة فكان عشقه الردة على المعصية والإثم والتزام طريق التوبة والإيمان الخالص، وظلّ متمسكاً بذلك العشق رافضاً التخلي عنه، متحدّياً بذلك قسوة السماء والأرض. وها هي غرفته وسجّادة صلاته وطنبورته وقنّينة العرق التي انتزعها منّي عنوة، تشي بآخر أسراره، وتغرقني في ذهول وحيرة من الجواب الذي حصلت عليه حول مصير قنينة العرق، وهل شربها وأنهى توبته نهائياً، أم بقي عنيداً ملتزماً توبته أمام الله وأمام فاطمة؟

ها هي معايير آتيلا أو العطّار كما كان يحلو له أن أناديه، تقف أمامي لتساعدني في فهم المشهد الذي لا يزال يغرقني في ذهول انكشاف السرّ هكذا أمامي، حيث يقول الهدهد: «اجتمع جمع من الفراشات ذات ليلة، وكانوا في ضيق يسعون إثر شمعة، وقال الجميع يجب على واحدة منا أن تأتي بخبر ولو بسيطاً عن مطلوبنا، فطارت فراشة حتّى وصلت إلى قصر بعيد فرأت في ردهات القصر نوراً من شمع، فرجعت وفتحت دفترها، وبدأت بوصفه على قدر فهمها، فقال لها ناقد ذو مكانة بين الجمع: إنّك لم تحظي بمعرفة الشمع.
وطارت فراشة أخرى إلى حيث النور، وطافت حول الشمع، وهكذا حلّقت حول الشمع المطلوب، حتّى الصبح الشمع هو الغالب وهي المغلوب. ثمّ عادت وقصّت عليهم بعض الأسرار، وأعادت عليهم شرح ما تمّ من وصال، فقال لها الناقد: إنّ هذا ليس دليلاً مقنعاً، أيّتها العزيزة، فقد قدّمت أدلّة كالتي قدّمتها الفراشة السابقة.
نهضت ثالثة وأسرعت ثملة نشوانة، وعلى وهج النار استقرّت ولهانة، فاحترقت كلّها في النار، وأفنت نفسها كلّية، وهي في غاية السرور، وما إن احتوتها النار، حتّى احمرّت أعضاؤها وتلوّنت بلون النار، فما إن رآها ناقدهم من بعيد، ورأى ما فعلته الشمعة بها، وما تبدّل إليه لونها، حتّى قال: لقد أصابت هذه، وكفى، والشخص الذي يعرف هو من لديه الخبر، وكفى! ومن أصبح بلا أثر وبلا خبر، هو الذي يعرف الخبر من بين الجميع.
وما دمت جاهلاً بالجسم والروح، فكيف تدرك أيّ خبر عن الأحبّة في أيّ وقت؟ وكلّ من أشار إليك إشارة طفيفة قد سبّب لروحك مئات الآلام، وليست هذه المنزلة كمحرم للنفس، وهذا المكان لا يتّسع لأحد من الناس».
ها هي الفراشات الثلاث تتجسّد أمامي، لتكشف في لحظة الحقيقة الخالدة، سرّ العشق والثورة معاً، ومع الهدهد قال أبو عمّار وهو مُعتمرٌ كوفيّته وعقاله، على السفينة التي نقلته في حزن إلى منفاه «الثورة كالنار، يجذبك لهيبها الجميل من بعيد، إذا اقتربت منها دفأتك، وإذا دخلت فيها أحرقتك».
فما سرّ العلاقة المُلتبسة هذه بين العشق والثورة والإيمان؟ وهل الثورة إلّا درب آخر للعشق والإيمان المطلق؟ لقد جذبتنا الثورة بلهيبها الساحر من بعيد، ومن ظلّ قريباً منها من رفاقنا، فقد دخل حالة الدفء والرخاء، أمّا من وهبها نفسه وذاب فيها، فقد أحرقته. ها هم الشهداء احترقوا وارتاحوا، بينما نظلّ نحن نحترق حتّى العظام. ثمّ لماذا يكون مصير حكايات الثورة متماهياً بكلّ هذا التطابق مع حكايات العشق؟ لا يُخلَّد أيٌّ منهما إلّابالفراق وعدم الوصل؟ وما إن يحدث وصل، حتّى تحلّ الكارثة ويختفيا وينطفئ بريق الحلم منهما ويصبحا ثقيلين غارقين في القبح؟ فتهجرهما الروح ولن يبقى الجسد الذي هو في النهاية حسب فتوى العطّار التقاء الخسّة بالنقاء.
يا إلهي! بحضوري المتأخر ها هنا، في غرفة آتيلا وعلى سجّادة صلاته المتجهة صوب القبلة والمهيّأة لأداء الصلاة، وطنبورته الوحيدة الحزينة، التي تحمل في جوفها روح العطّار والخيّام والكلّائي مجيديان، وكلّ أسرار نيسابور، مأخوذ بانكشاف سرّ قنّينة العرق أمامي، يلفنّي السؤال الغبيّ فجأة: هل أنا هنا كالفراشة التي احترقت بكاملها حتّى تكشف سرّ آتيلا في خلوته الأخيرة مع قنّينة العرق، ولا أعرف حتّى من كان ثالثهما؟ أم الأمر لا يتجاوز مجرّد فضول لا أعرف إلى أين سيأخذني؟ لكنّني متيقن من أنّ كلّ فراشات الكون لو طارت إلى الشمعة، فإنّ آتيلا هو من حقق وصله الأبدي في الاحتراق حتّى النخاع، والاندماج النهائي...

ها أنا أستعيد بعضاً من وعيي، وأسيطر شيئاً فشيئاً على ذهولي، لكنّني في اللحظة التي لمستُ فيها طنبورته وأجلستها في حضني وأنا جالس على سجّادة آتيلا ووجهي صوب القبلة بينما كأسه الأخيرة أمامي، أدخل في حالة لا أفهمها، ولم أشعر بها من قبل، فينهال كلّ القديسين الذين مررت بهم، من شهدائنا المهدورة دماؤهم، إلى آوات وأبي سعد الذي كدتُ أقتله كعدوّ، فبكيته بحرقة لم أبكِ بها شقيقي وصديق عمري، ها هو العطّار، والخيّام. وها أنا ذا أشعر بأنفاس الهدهد، الذي يملأ صمت الفجر هذا، برفيف جناحيه وكأنّه يُعيد من جديد ضبط إيقاع الكون، وها هو آتيلا يتجسّد أمامي من جديد، يجلس معي يُعلّمني أصول العزف على طنبورته، وها هو أبي ببندقيّته القديمة... ها هي أمّي.. يسكنون خيمة مكسوّة بالأزهار ومزدانة بجميع ألعاب الأطفال، وها هم أهالي القرى المدمّرة، ينهضون من الصحراء التي تحوّلت إلى قبرهم الكبير، ويتجمّعون حول سجّادة آتيلا وكأسه الأخيرة.

الله أكبر... الله أكبر.

(...)

الصلاة خير من النوم

الصلاة خير من النوم...

ها هو الفجر الجديد، يُداهمني وأنا جالس على سجّادة آتيلا المُحاطة بكلّ القديسين الذين مررتُ بهم، يقفون كأنّهم جاؤوا يستعدّون لكي ينشدوا أنشودة الموت الأخيرة، أو حتّى أنشودة الحياة الجديدة، لا أعلم. وها أنا ذا أمُدّ يدي إلى كأس آتيلا المليئة التي لم يمسسها، فظلّ عفيفاً في ساعاته الأخيرة حتّى عندما اختلى بقنينة العرق التي انتزعها منّي عنوة، بينما ينعكس ضوء المصباح على قنّينة العرق التي يبدو بوضوح أنّها ما زالت على حالها لم يخرج منها سوى هذه الكأس، فظلت عذراء، ولم تتمكّن من إغواء آخر العشاق. ها أنا ذا أرفع الكأس الأخيرة: يا أيتها الكأس المقدّسة، أنت لم تعودي كأساً للمعصية، فآتيلا الذي قلب معادلة العشق، ها هو يقلب في لحظاته الأخيرة معادلة الغواية أيضاً، ويخرج من الدنيا عفيفاً نقيّاً. أنت الوحيدة التي تركها العاشق دون أن تصبح أرملة، فأنت الآن كأس آتيلا الأخيرة، فتعالي وامنحيني بركتك، واملئيني بروح آتيلا الخالدة في احتراقها بنار العشق.

ها أنا أشرب كأس آتيلا وأدخل في حالة ثمالة لم أشعر بها قطّ، وها هي أصابعي، تلعب بإتقان على أوتار طنبورة آتيلا، وأتلو من الكتاب الذي تركه آتيلا مفتوحاً أمام سجّادة الصلاة الكربلائية النيسابورية هذه، بينما يندمج صوت كلّ القديسين بكلّ أصوات الكون، وتختلط كلّها بصوت المؤذن وهو يرفع أذان الفجر، وهم يردّدون معي قصائد العشق من الكتاب، فأدخل معهم منتشياً حتّى العظام والروح، بينما ها هو آتيلا يتجسد أمامي برقة فأخاطبه: من المستحيل أن يستطيع أيّ مدمن التخلي عن إدمانه بقرار مفاجئ وهكذا دفعة واحدة.

فيردّ عليَّ بابتسامته التي تملأ وجهه: ألم تُحدّثني عن انتشاء شعب بأكمله بسحر الثورة وحتّى من دون قطرة خمر واحدة؟

فأتجمّد في مكاني، وأتمتم بصوت منكسر ملؤه الحزن: أرجو ألّا تكون نشوتك كنشوتنا، ولا مصيرك كمصير الثورة.

فأعود لأتمتم وسط ارتفاع صوت الأناشيد التي اختلط بعضها ببعض، بينما الدم ينزل من أصابعي وأنا أعزف بعنف، على أوتار طنبورة آتيلا: نم يا صديقي، فما كان لك أن تنام إلّا حيث أنت الآن،

وكما قال العطّار، «فإذا نام العاشق ففي الكفن».
ولكن.. تُرى.. أين كفني أنا؟